

بين يدي العدد :

واذ تستأنف « آداب الرافدين » مسيرتها على مدرجة الحياة الجامعية وهي تحمل أمانتها العلمية والفكرية والحضارية فانما تنطلق من ذات الاهداف التي من أجلها كانت ولادتها الأولى في رحاب « كلية الآداب — جامعة الموصل » . الا أنها اليوم أشد مضاء وأقوى عزماً وأرسخ ايماناً أكثر من أي وقت مضى ... تستجيب لأرادة النصر المتألق في كل الميادين ، وينفسح صدرها للكلمة البانية ، والكلمة المقاتلة على حدّ سواء ، مجسدة شعار « للقلم والبندقية فوّهة واحدة » على أفضل مايكون التجسيد ، إيماناً منها بأن معركتنا الراهنة إنما هي معركة حضارية تقاوم التخلف وتحدّ من ضراوة العدوان الهمجي ، وتصدّ غوائل الريح الصفراء التي تستهدف أمتنا العربية في أكرم مواريثها وأسمى قيمها كما تستهدف حضارتنا المعاصرة التي بنت الانسان العراقي الجديد في ظل ثورته المعطاء وحزبه العظيم وقائده المظفر صدام حسين — حفظه الله —

والمجلة اذ تعود لتنضم إلى موكب المجلات العلمية والثقافية في قطرنا الأبي فانما تلتحم طاقاتها بكل الطاقات الفاعلة المتوثبة في ميداني الحرب والبناء ، لتتألق كلماتها مصابيح على طريق السائرين إلى آفاق العزة والكرامة بشمم وإباء ، وتنتصب حراباً مشرعة غاضبة تشدّ من أزر المقاتلين في ميادين صولاتهم العراقية المباركة وترد على الاعقاب معهم كيد الخائبين .

ومن ثمة فانه ليس بدعاً من الأمر أن تكون «آداب الرافدين» مجلة ذات رسالة ، لأنها تحمل أمانة أمة ذات رسالة ، فهي صوتها الداوي بالحق ، ومعقد آمالها في رفد أبنائها بمعطيات الفكر النيّر ، والروح الثورية المنطلقة البناءة ، والجسر الذي يوثق حاضره بماضيها ، والمنبر الذي يشدّ طارفها بتالدها .

وهي حين تستقطب أقلام الباحثين من أساتذة الجامعة ، فإنما تقدم لرواد المعرفة أكرم زاد ، وتهيء من أسباب البحث العلمي ما يحفز الطاقات الجامعية المبدعة أن تنهض بمهماتها على خير الوجوه ، مما يجعل للأستاذ العراقي قدماً راسخة في مضمار الابداع العلمي الرصين ، ويمهد له طريق الارتقاء بكفاءاته لتكون أنضج عطاءً وأوفر مقداراً وأكثر قدرة على الاسهام الفاعل في دفع عجلة التطور العلمي والفكري إلى أوسع آفاق التطور والتأثير .

ومما يسعد هيئة التحرير أن يتسع مجال الاسهام في هذا العدد الذي تستأنف به رحلة المجلة ، حيث أن بحوثاً في القانون وعلم النفس وطرائق التربية والاجتماع قد تبوأت موقعها في صفحاته ، مما يجعل رسالة المجلة ممتدة الرواق إلى مدى أرحب مما كانت عليه من قبل ، وترجو هيئة التحرير أن توفق في الاضطلاع بهذه الأمانة الجسيمة بعد إتساع ميادين المسؤولية وتعدد الاختصاصات العلمية ، وهي بذلك تواكب التطور الذي شهدته جامعة الموصل بافتتاح كليات وأقسام جديدة تستجيب لحاجات القطر في اعداد المتخصصين في شتى المجالات العلمية ، وتكون مجلتنا ازاء هذا التطور الملموس في مرافق الجامعة فاتحة نوافذها على عالم الباحثين والمتتبعين لتحقيق التواصل الفكري والعلمي والثقافي بين الجامعة والمجتمع ، وناقلة إلى آفاق شداة المعرفة الواناً من المعرفة المتطورة المستجدة التي يتلقفها المعنيون بشوق وعناية واحتفاء .

وبذلك يحق لمجلتنا أن يغمرها التفاؤل ــ وهي تخطو أولى خطوات استئناف المسيرة ــ بأنها قادرة على أن تنهض بمهمتها العلمية والفكرية والحضارية بثقة عالية بالنفس وبقدم ثابتة غير وانية على طريق أداء الأمانة والمسؤولية . متوخية الابداع في العطاء والتجديد في المعالجات ، والكشف عن كنوز المعرفة الخلاقة التي يزخرُ بها تراثنا العربي الأصيل ومواكبة النهوض الحضاري الكبير على ساحة قطرنا الحبيب وعلى امتداد رقعة الوطن العربي والعالم الناهض .

واذ تحمل «آداب الرافدين» هذه الاعباء الجسام بفخر واعتزاز فانها تستمد مضاء العزم وثبات الخطى من روح النصر المؤزر الذي يحققه جند القادسيتين على أرض المصاولة التأريخية الجبارة بالتصدي للعدوان الغادر ورداً للأطماع التي تستهدف الارض والتراث والكرامة ، مستهدية بتوجيهات القائد الفذ والمعلم المبدع الرئيس صدام حسين — حفظه الله — راعي النهضة الحضارية المتألقة الجديدة على أرض الرافدين .

ومن الله نستمد التوفيق

رئيس التحرير



مُقدمة نقدية في تحقيق النصوص

الدكتور عبدالوهاب محمد علي العدواني
جامعة الموصل/ كلية الآداب

نقرأ ماكتبه العارفون في « تحقيق النصوص » ، ونفيد منه فوائد جمّة (١) ، ونحاضر في ذلك ، ويكون لنا حوار طويل متشعب مع طلبة الدراسات العليا في مناهج هذا الفن جملة وتفصيلاً ؛ نظريةً وتطبيقاً ، وقد نختار في فصل من فصولنا الدراسيّة نصاً محققاً لنجعله — من وجهة نظر نقدية — مادة تطبيق لمفردات مانخن فيه ، نعرض له بالمناقشة والدرس والتحليل ، ونذكر : اننا اخترنا « منامات الوهراني — بتحقيق : إبراهيم شعلان ، ومحمد نغش (٢) » ، في فصل ، والجزء العشرين من « عيون التواريخ — لابن

(١) ينظر — على سبيل المثال لا الحصر — : أمالي مصطفى جواد في فن تحقيق النصوص ، بتحقيقنا ، مجلة المورد ، العدد الأول ، من المجلد السادس، بغداد ١٩٧٧ ، ص ، ١١٧ — ١٣٨ ، عبدالسلام هارون ؛ كتابه : تحقيق النصوص ونشرها ، صلاح الدين المنجد ؛ رسالته الصغيرة : قواعد تحقيق المخطوطات .

(٢) القاهرة — ١٩٦٨ .

شاكر الكتبي، بتحقيق: الدكتور فيصل السامر ، ونبيلة عبد المنعم » (١) في فصل ثان والجزء الحادي والعشرين « منه ، بتحقيقهما (٢) » في فصل ثالث ، وتقريّنا مظاهر « التحقيق — بوصفه علماً وفنّاً — في اخراج هذه الاسفار ، فوجدنا كثيراً من أساليب معالجة النص المحفوظ ،منها ما يقبل ومنها ما يقبل قبولا مراً،ومنها ما يرد لهذا السبب أو ذاك ، وتهيأت لنا حصيلة المدارسة مادةً ، لم نر أننا محتاجون الى كتابتها ، تقديراً منّا للفرق الكبير بين مايصلح أن يقال في محاضرة ، وما يمكن أن يكتب للقارىء العام ، ولكننا حملنا بعد حين على الكتابة حملاً ، فقد سأل سائل من الطلبة : وكيف تكون القراءة النقدية لنص محقق ، نريد امثولة ؟

وبعد النظر في دواعي هذا السؤال ومراميه ، ومايتصل بهذه المرامي من جدوى القراءة المطلوبة وجدنا :

أولاً : أن العناية بهذا الاتجاه العلمي لاتختلف — من حيث بواعثها وأهدافها ونتائجها أيضاً — عن العناية بنقد أيّ أثر إبداعي كديوان الشعر ، والمجموعة القصصية ، والرواية ، ولمَ لايكون لتحقيق النص القديم نقّاده .ومناهج نقده، وقد اتسعت اليوم دائرة اهتمام النقاد ، فبدأنا نقرأ نقداً للفن التشكيلي، ونقداً للأعمال المصوّرة كرقوق السينما والتلفاز ، ونقداً ... ونقداً .. ، فلا تستكثر أو تستنكر إذاً على تحقيق النصوص محاولةً لقراءة منهجية في أشكاله ومضامينه ، والهدف أن تغني أفكارنا في هذا المجال، وتعتدل وتتأصل .

ثانياً: أن العناية المشار اليها محتاجة الى مهاد نظري ، نبني عليه الأمثولة التطبيقية ، لنستطيع في أثناء المعالجة أن نردّ الفكرة النقدية إلى وجه من النظرية ، يمثل مانظن أنه الصحيح في تحقيق النص ، والأنسب ، والاولى — وهذه درجات — والمقبول ، والضعيف ، والمستنكر والرديء والمردود والمخطوء من عمل المحقق .

ولابد من الاشارة في هذا الموضع إلى أن أعلاماً من أساتذتنا قد عنوا بنقد النصوص المحققة فكانت لهم في هذا الحقل كتابات بارعة ، لاعذر لمعنّي بتحقيق النصوص في التقصير عن الاطلاع عليهما ، وفي المقدمة منهم منسوقين على حروف المعجم : إبراهيم السامرائي

(١) بغداد – ١٩٨٠ .
(٢) بغداد – ١٩٨٤

حمد الجاسر ، عبد السلام هارون ، علي جواد الطاهر ، مصطفى جواد ، ومن أقرب آثارهم المنشورة الى أيدينا الساعة كتاب السامرائي : « مع المصادر في اللغة والأدب» ، فقد ضمّ جزؤه الأول (١) — على سبيل المثال — نقداً للكتب الآتية :

١ — العين — للخليل بن أحمد الفراهيدي، بتحقيق : الدكتور عبد الله درويش (٢) ص ص ١٣ — ٤٣ :

٢ — التحف والهدايا — للخالديين — بتحقيق : الدكتور سامي الدهان (٣) ، ص ص ٦٥ — ٨١ :

٣ — الفسر ؛ شرح ديوان أبي الطيب المتنبي — لابن جني ، بتحقيق : الدكتور صفاء خلوصي (٤) ، ص ص ٩٣ — ١٧٩ .

٤ — مختار من كتاب اللهو والملاهي — لابن خرداذبه ، بتحقيق : إغناطيوس عبده خليفة اليسوعي (٥) ، ص ص ١٨٨ — ٢٠٧

٥ — الفَرْق — لثابت بن أبي ثابت ، بتحقيق : محمد الفاسي (٦) ، ص ص ٢١١ — ٢٢٤ .

٦ — المختار من قطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور (٧) — لعلي نور الدين المسعودي (٨) ، ص ص ٢٢٧ — ٢٤٦ .

٧ — افتتاح الدعوة — القاضي النعمان ، بتحقيق : فرحات الدشراوي (٩) ، ص ص ٢٤٩ — ٢٦١ :

---

(١) بغداد — ١٩٨٠ .

(٢) بغداد — ١٩٦٧ .

(٣) القاهرة — ١٩٥٦ .

(٤) بغداد — ١٩٧٠ .

(٥) بيروت — ١٩٦١

(٦) الرباط — ١٩٧٣ ، وقد أعاد الدكتور حاتم الضامن تحقيق الكتاب ، ونشره في العددين الثاني والثالث : من المجلد الثالث عشر ، من مجلة المورد ، بغداد ١٩٨٤ ، ص ص ٧٥ — ١٢٦ ، ص ص ٦١ — ١٠٢ .

(٧) الأنبذة : ليست من نص العنوان الذي نشر به أحمد الجندي كتاب : قطب السرور ، دمشق — ١٩٦٩ . وهو من تأليف : إبراهيم بن القاسم النديم .

(٨) تونس — ١٩٧٦ .

(٩) تونس — ١٩٧٥

٨ — إنباه الرواة على أنباه النحاة ؛ الجزء الرابع منه — لجمال الدين القفطي (١)
بتحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ص ص ٢٩١ — ٣٠١ :

وانضمّ الجزء الثاني من الكتاب نفسه (٢) على نقود أخرى ، ليس من همنّا — وقد قرأنا للسامرائي وغيره كتابات كثيرة في هذا الاتجاه — تقديم ثبت بها ، فلهذا الثبت غير هذا الموضع ، وحسبنا التنبيه على أن الطابع العام لعنايات أصحابها فيها هو : القراءة الحرفية الدقيقة للنصوص المحققة ، والاهتمام بتقويم ماوقع في متونها من : التصحيف ، والتحريف ، والنقص ، والخطأ في الضبط اللغوي والنحوي ، وخلل الأوزان الشعرية ، واضطراب المتون ، وزيادات النسّاخ ، وأخطاء الرسم ، وتصرف المحققين بالنصوص ، والأخطاء الواقعة في الأعلام والمواضع والنصوص المضمنّة من : آية وحديث ومثل وقول سائر وبيت شعر وما أشبه ، وخفاء المعاني لعيب في السياق ، والخلط بين الشعر والنثر وكثير من أمثال هذه العيوب ، التي يجد القارىء صورها ناجزة قريبة في معرض ماكتبه السامرائي في نقد جزأي كتاب : « الفسر ... » (٣) ، وربما وجد أنماطاً أخرى من عقابيل عمل المحقق ، لانريد الافاضة بذكرها وقد رسمنا لبحثنا هذا في نظريته وتطبيقه — بوصفه مقدمةً ليس إلاّ — أن يكون ميداناً لعرض وجود مما يعنى به الناقد في قراءته لأي نص محقق ، من حيث : مقدمة المحقق ، منهجه في التحقيق ، وحكمته ومعرفته ورصانته في التعليق ، ودقة مايقدمه في هوامشه من معلومات ، فضلاً عن حسن أستفادته من قدرته الإبداعية في خدمة النص شكلاً وموضوعاً وفق الأصول المرعية في تحقيق النصوص التراثية .

ويجمل السامرائي أصول التحقيق وتكملاته بعد تقويمه الموجز لعمل المستشرق الألماني هلموت ريتر في تحقيق«اسرار البلاغة — لعبد القاهر الجرجاني» (٤) بقوله : « أكتفي بهذين المثلين من هذا الكتاب ، الذي حققه ، فأحسن تحقيقه من حيث :

— ضبط النص .
— الموازنة بين الأصول المخطوطة .

---

(١) القاهرة — ١٩٧٣ .
(٢) يعني : من كتاب : مع المصادر ... ، بغداد — ١٩٨١ .
(٣) مع المصادر في اللغة والأدب ١ :٩٣ — ١٧٩ .
(٤) إستانبول — ١٩٥٤ .

— التعريف بالكتاب بالمقدمة العلمية الدقيقة .

— التذييل بالفهارس النافعة (١) » .

ونفصّل نحن ، فنقول :

إن الكتاب القديم — أياً كان — وديعة بين ايدينا ، ومن واجبنا في الوديعة أن نرعاها ، ونكرم مثواها بين أفكارنا وأقلامنا ومناهجنا في العمل ؛ وليس من الرعاية والأكرام في شيء أن نعسفها بما لايناسب حرمتها التاريخية ، وإرث صاحبها فيها ، وإرثه بتحديد مختصر : خطة تأليف ، ونسيج افكار ، وعبارة دالة على مضمونها ، مشيرةً إلى ذوق صاحبها فيها ، والمحقق الثبْت هو : من يقدر هذه المظاهر حقَّ قدرها ، ويجتهد في خدمتها حدَّ الخوف — كما يقال — عليها بسهوة غير مقصودة ، فكيف بمن يتناول نصاً جميلا من المكتبة الادبيةالقديمة .فيعبث به عبثاً فاحشاً ؛يوجب عليه المقاضاة النقدية والتعزير الفني على جرأته في تشويه التراث ، وفي ذلك مافيه من التخريب الفكري لأدب الأمة وتراثها ، ولنضرب مثلاً كتاب « عنوان المرقصات والمطربات — لعلي بن موسى بن سعيد الأندلسي ، المتوفى سنة : ٦٨٥ هـ » (٢) ، فقد نشره رجل مجهول في بيروت : سنة ١٩٧٣م ، بعد نشرتيه في القاهرة : سنة ١٢٨٦هـ ، والجزائر : سنة : ١٣٦٨ هـ وأصدرته له دار نشر وديئة ؛ لانعرف عنها غير أنها « دار حمد ومحيو » رأت أن تملأ صفحة العنوان بالنص الآتي :

« المرقصات والمطربات »

لرئيس الأدباء وعميد الفضلاء

نور الدين علي بن الوزير أبي عمران

المتوفى

سنة ثلاث وسبعين وستمائة هجرية

و

صاحب كتاب

« المشرق في أخبار المشرق »

وسودت الصفحة الخامسة من النشرة بالنص الآتي :

---

(١) مع المصادر ١ : ٧ .

(٢) ينظر ماكتبه محسن حامد العيادي عن هذا الكتاب في رسالته للماجستير : ابن سعيد الأندلسي ، حياته وتراثه الفكري والأدبي : صص ٢٢٠ — ٢٣٢ ، وما كتبه محمد عبدالغني حسن في كتابه : ابن سعيد المغربي ؛ المؤرخ والرحالة الأديب : ١٤٨ .

– كلمة حول الكتاب –

«هذا الكتاب كتاب : الراقصات والمطربات هو كتاب من كتب التراث الذي مضى عليه وقت من الزمن الغابر ، والكتاب مع صغر حجمه وقلة عـدد صفحاته فهـو يعـد من الكتب الأدبية الفنية . لما جمعه بين صفحاته من أخبار الراقصات والمطربات في تلك العصور الغابرة، ويكفي هذا الكتاب أن يكون مؤلفه هو العلامة نور الدين علي بن الوزير أبي عمران ؛ صاحب الوفيات .

ونحن نشكر الزميل ... الذي قدم إلينا هذا الكتاب هدية دون مقابل سوى احياء هذا الكتاب ونشره مجدداً لما فيه من فوائد جمة من الناحية التأريخية والأدبية والفنية ؛ بالاضافة إلى أخبار الشعراء والعشاق و المطربين وغيره مما يفيد قارئنا العربي ، الذي كان وما يزال يتعشق تراث علمائه وأدبائه وأجداده ، وإن كنا نشرنا هذا الكتاب بعد أن أخذنا آراء من هم أعرف منا وأعلم بكتب التراث ، ونزولاً عند رغبة الكثيرين قمنا بنشره وطبعه طباعة جيدة وأنيقة ، هـذا ماكان ؛ وبالله المستعان » وختمت الصفحة السابعة والثمانين بعد المئتين — وقد شكت في النص السابق من صغر حجم الكتاب وقلة عدد صفحاته — بالنص الآتي :

«تم طبع هذا الكتاب : المرقصات والمطربات في ٣٠ آذار ١٩٧٣ ، المأخوذ عن الطبعة الأولى المطبوعة في القاهرة : سنة ١٢٨٦ هـ ، وهذه الطبعة تمتاز عن الطبعة الأولى بتبويبها وتنسيقها والاضافات التي زيدت عليها بمـا يناسب مواضيع هـذا الكتاب » ويتضح من هذا أن المكلف باعداد الكتاب للنشر قد أعطى نفسه ثلاثة حقوق :

أولا :التبويب ، فقسم النص قسمين ، بدأ القسم الثاني منهما في الصفحة الخامسة والتسعين .

ثانياً :التنسيق والاضافة متداخلين ، ولعله أراد : تنسيق إخراجه بصفحة عنوان ؛ وصفحة بيضاء داخلية ، ليس فيها غير كلمتين : « المرقصات والمطربات » ؛ وصفحة مُجدْولة . وصفحة مسوّدة بكلمة حول الكتاب ، وصفحة مزخرفة منمنمة ؛ حوت البسملة ومدخل النص : « قال رئيس الادباء وعميد الفضلاء ، نور الدين أبو الحسن علي بن الوزير العالم أبي عمران موسى .... » ، والصفحة الخامسة والتسعين ؛ وفيها بداية القسم الثاني من : المطربات والمرقصات ؛ وصفحة مزخرفة أخرى ، حوت بسملة أخرى

والعنوان الآتي « أخبار أبي نواس وجنان خاصة » ، ولاغبار على هذا التنسيـق ، ثم ، تتوالى الصفحات والعنوانات :

١٠٦: نسب ابن عيينة (١) وأخباره .

١١٠: رجع الخبر إلى حديث أبي عيينة .

١٢١: أخبار ذات الخال .

١٣١: أخبار عبد الله بن العجلان مع الجارية هند .

١٣٧: أخبار حبابة .

١٤٣: نسبة مافي هذا الخبر من الغناء .

١٥٥: أخبار الأغلب ونسبه .

١٦٠: أخبار ابن مناذر وحبه للجارية .

١٨٢: نسب المتوكل الليثي وأخباره مع الجارية أميمة .

وهذه مرحلة تنسيقية ، ختمها الناشر بقوله في : الصفحة السابعة و الثمانين بعد المئة : «عن الأغاني ١١ – ١٢ مجلد سادس » ، وتبدأ مرحلة أخرى فيها أشعار لابن زيدون : الص ١٨٧ ، الأرجاني : ١٩١ ، الطغرائي : ١٩٢ ، حافظ أبراهيم : ١٩٣ ، أبي الأسود الدؤلي : ١٩٥ ، الشريف الرضي : ١٩٧ ، البحتري : ٢٠٠ ، وغير هؤلاء في السياق ، وأبيات وصفها بعبارة مرتبكة بأنها « مختارة لعدة شعراء من شعراء الحب في المرقص من الشعر والغزل والوصف والشكوى والحنين لأشهر العشاق والغرام في العصور الغابرة » .

وقال بعد هذا : « وقد انتقدناها نظراً لأهميتها ، وتتناسب مع مواد المرقصات والمطربات ص ص ٢٠٩ – ٢٢٨» وهي لعدد كبير من شعراء العصور الأدبية المتعاقبة ، نذكر منهم الشاب الظريف ، الحاجري ، البهاء زهير ، مجنون ليلى ، شاكر الصلاح (٢) ، زين الدين بن الوري (٣) ، عمـر بـن الوسودي (٤) ، وابن رسيف القيرواني (٥) ، ولايخفى مافي هذه الأسماء من التحريف والتصحيف .

(١) يعني : إبن أبي عيينة .
(٢) صلاح الدين بن شاكر ، صاحب : فوات الوفيات .
(٣) زين الدين بن الوردي .
(٤) عمر بن الوردي ، وهو الزين المذكور آنفاً .
(٥) ابن رشيق القيرواني .

وتبدأ مرحلة تنسيقية أخرى ، تتوالى فيها الصفحات والعنوانات :

٢٢٩ — الجارية ريّا مع عتبة بن الحباب .

٢٣١ — أخبار الصمة وصاحبته ريّا .

٢٣٤ — أخبار كعب وصاحبته فيلاء .

وينتهي القسم الثاني من الكتاب ، ليبدأ « القسم الثاني » أيضاً : بعنوان ومقدمة نصهما : « فيمن جهل اسمه ، أو اسم محبوبته ، أو شيء من سيرته ، أو مآل حقيقته ختمناه بصنف لطيف القوانين في ذكر عقلاء المجانين ، ونحن وان كنا قد ذكرنا من هذا النوع فيما سلف بعضاً ، لكنهم إنما نقصوا شيئاً مما ذكرنا بالنسبة إلى هذا الكتاب لقلة فحصه ، والا فهم مشهورون كثيراً بخلاف من يأتي بعد ، وسنقف على كثير منهم كامل النسب ، والأسباب أذكره — إن شاء الله تعالى — لكنه غير قوي الشهرة ، ولم أتبعه في التنويع بأن اقول نوع فيمن نزل به الحال ونحو ذلك ، إذ لاطائل فيما صنع ولا فائدة فيما نوّع ووضع ، وإنما كان الأولى أن يذكر المشاهر ثم أهل الجاهلية كما وقع ترتيبه هنا ، وهؤلاء القوم كثيرون » فمنهم :

٢٣٨ : سامة بن لؤي بن غالب القرشي ، مشهور .

٢٣٩ : عمرو بن عوف وريّا .

٢٤٠ : مجنون بني عامر مع ليلاه .

٢٧٩ : دلال ووصال ، لأبي نواس ، قصيدة

٢٨٠ : دموع الفراق ؛ له أيضاً .

٢٨٧ : خاتمه الكتاب : «تم طبع هذا الكتاب : المرقصات والمطربات في ٣٠ آذار ١٩٧٣ .... النص الذي أثبتناه فيما تقدم» .

ولكن أي كتاب ؟

فهل من المعقول أن ينقل ابن سعيد الأندلسي فصولاً من الأغاني ؛ ويختم نقله بالنص الآتي (١) : « عن الأغاني ، مجلد تاسع ، جزء ١٧ و١٨ ؛ صفحة ٩ — ١٠» ، والأني (٢) «عن الأغاني ١١ — ١٢ مجلد سادس » ، وينتقي قصيدة من كتاب «مدامع العشاق (٣)»

(١) المرقصات والمطربات : ١٨٢ ، والصحيح أن يكون : عنوان المرقصات والمطربات .

(٢) م.ن : ١٨٧ .

(٣) م.ن : ١٩٣

وهو كما نعرف من مؤلفات زكي مبارك — ، ثم ينص على نسبة هذا الكتاب إلى مؤلفه المذكور في موضع لاحق (١) ، ويروي قصيدة لحافظ إبراهيم في معنى القصيدة المنتقاة من «المدامع» لأعرابي مجهول (٢) ، وينقل أبياتاً للجعبري من كتاب «مملكة الجمال» ، ولم يسمِّ الجعبري ، ولم يذكر محمود على قراءة مؤلف كتاب «المملكة» ، وتمام اسمه : «مملكة الجمال والحب والحق والخير» .

ونسأل ثانية :

وهل يعقل أن يكتب ابن سعيد الأندلسي إنشاءً من قبيل : «ندعي : أن الخيال أجمل من الحقيقة ، لأننا نلحظ دائماً في الخيال الراقي روعةً من نسمات الحقيقة (٣) ... نجد (٤) الشاعر قد ذكر في خياله الكثير من الحقائق التي لو ذكرها هكذا جافة من غير أن يعمد إلى الخيال في تشبيهاته واستعاراته وكناياته (٥) لماكان لقوله التأثير الذي نلفيه (٦) في أنفسنا عند سماع هذا الشعر الذي هو الشعور ، صيغ في قالب خيالي ليعبر عن حقائق نفسية ، هي في نفسها جمال ، ولكنّ جمالها في التي نقلت إليها هذه المعاني» ؟

فأي عبث أكبر من هذا العبث ، وأي جرم أشنع من هذه الحقوق التي حازها لنفسه من يجهل أن الفكر الانساني إرث واجب الاحترام ، ليس له أن يستعير منه عنوان كتاب معروف لمؤلفه بنصه ومادته العلمية ، فيلحق بمادته المنتخلة المنتقاة ركاماً من جهله وسوء اختياراته وفهاهة تفكيره وأغاليطه وتحريفاته وتصحيفاته : ما يظن أنه عمل يترل به عند رغبة الكثيرين ، بعد أن ظن : أن الكتاب الذي جنى عليه قد حوى أخبار الراقصات والمطربات والمطربين والشعراء والعشاق (٧) ؛ وكيف يتأتى له أن يفهم — وقد قدّم الدليل تلو الدليل على سذاجته الفكرية — أن كتاب ابن سعيد (الذي ينحصر نصه في نشرته بين : ص ص ٥ — ٩٤ فقط ؛ من مجموع : ٢٨٧ صفحة) عمل نقدي وبلاغي عال ، بناه مؤلفه على نظرية في التذوق الفني للشعر ، ملخصها : تقسيم

---

(١) م.ن : ١٩٤ .
(٢) م.ن : ١٩٣ .
(٣) م.ن : ٢١١ .
(٤) م.ن : ٢١٢ .
(٥) الأصل : واستفارته وكتاباته .
(٦) الأصل : نلقيه .
(٧) المرقصات والمطربات : ٤ .

النصوص الشعرية إلى خمس طبقات : المرقص ، والمطرب ، والمقبول ، والمسموع والمتروك (١) ، والشروع بشرح هذه المصطلحات ، وعرض أمثلتها من أشعار القدماء المتعاقبين حتى أيامه في العقد التاسع من القرن السابع من الهجرة (٢) .

ومن عبث هذا الناشر – ولا نقول : «المحقق» في هذا الموضع : – أنه قرأ عنوان الكتاب في مقدمة مؤلفه ، ونصه : «عنوان المرقصات والمطربات» ، ثم عدل عنه إلى «المرقصات والمطربات» فقط ، فأثبته على الغلاف مشفوعاً بتسمية لمؤلف غير دالّة ولا معبّرة عنه بوضوح ، فهو المعروف في تأريخ الأدب العربي بـ «علي بن سعيد الأندلسي ، أو المغربي» وليس بـ «نورالدين علي بن الوزير أبي عمران» ، ولم يتحر الدقة حتى في تحديد سنة وفاته ، فقد اكتفى بالنظر في نص لابن شاكر الكتبي ، ورد فيه : «توفي بدمشق في شعبان سنة ثلاث وسبعين وستمائة » (٣) ، وبدا له أن يجعله التعريف القاطع بالرجل ونسبه ومؤلفاته وسنة وفاته (٤) ، ولو كان محققاً ثبتاً لما رضي بكل هذه العيوب الفنية، وقد سبقه الدكتور شوقي ضيف إلى التأريخ لوفاته بسنة : ٦٨٥هـ بالتحري ومحاكمة النصوص والقرائن (٥) ، كما يفعل من المعنيين بالنصوص القديمة من يعرف أسرار هذه العناية وأصولها اللازمة .

ويتضح مما تقدم : كيف يكون التفريق بين المحقق والمُهْوِج (٦) ، ونعني : الناشر القليل التثبت ، أو المتجرىء على الكتاب باجتهادات غير مشروعة ولا مقبولة ، ومن مبادىء عمل المحقق : تفريقه في نفسه بين : «التوثيق ، والتحقيق ، والتعليق» ، ومعرفته: أن متن الكتاب مهم جداً ، بوصفه جوهر العمل ومادته الرئيسة ، بيد أن هامشه عليه يجب ألاّ يقل عنه درجات في الأهمية ، فلكل خصوصية محصّلة من جوهره العلمي ومضمونه وصيغته ، ولا يكسب النص المحقق قيمته الإجمالية إلاّ بالتكامل بين الجوهرين والمضمونين والصيغتين ، ويكسب قيمة مضافة بما يمكن أن يحرره المحقق في هامشه من

---

(١) م.ن : ٧ .
(٢) ينظر : العيادي : إبن سعيد الأندلسي : ٢٢٣ – ٢٢٧ .
(٣) فوات الوفيات ٣ :١٠٣ .
(٤) المرقصات والمطربات : ٣ .
(٥) تنظر : مقدمة : المغرب في حلى المغرب ، القسم الأندلسي ١ : ٧ – ٨ ، العيادي : ابن سعيد الأندلسي : ١٣٢ – ١٣٤ .
(٦) الذي يتعجل الأمر ، ولا يحكمه ، ينظر : لسان العرب ، مادة : لهوج ٣ :١٨٤ .

معرفة علمية ، تخدمه حقاً ، وتلقي الضوء على ما عسى أن يكون محتاجاً فيه إلى إضاءة ، كترجمة علم مجهول من الأعلام . وتفسير لفظ ، وتحديد موضع ، ونسبة آية كريمة إلى سورتها ، وتخريج حديث نبوي ، وردّ بيت من الشعر إلى ديوان شاعره ، وذكر شاعر البيت غير المنسوب ، وتوثيق الأخبار بمصادرها ، والآراء بمؤلفات أصحابها ، وما شاكل هذه العنايات الوظيفية العلمية في خدمة النص .

وقلنا في وصف المعرفة التي يتوافر عليها المحقق في هامشه : «تخدمه حقاً» : ونعني : تخدم النص ، لأن من المحققين من يخرج في تعليقاته إلى مادة إنشائية ، ليست ضرورية(١) أو مادة حشوية مبالغ فيها ، وقد تمثّل هذا بوضوح في تحقيق حسن كامل الصيرفي ـ وهذا مثال ـ لدواوين : عمرو بن قميئة (٢) ، والمتلمس الضبعي (٣) ، والمثقب العبدي (٤) فهو حين يشرح كلمة في بيت ، يأتي بكل ما في «لسان العرب» من معانيها ، ويزيد على ما ورد فيه أي شيء آخر ، ورد في «أساس البلاغة» أو في «مقاييس اللغة» ، أو في مصادر أخرى (٥) ، فإذا وقف على قول المثقّب :

مـن مالٍ مـن يجتبي ويُجتبى له سبعونَ قنطاراً مـن العسجـد

لم يكتف بشرح صانع الديوان ـ وهو رجل مجهول ، لم يعرفه ـ لكلمة «قنطار» بقوله : «ملء مسْك ثور ذهباً أو فضة» (٦) ، بل يذهب في شرحها بصفحة ونصف، فيأتي بما جمعه ابن منظور من أقوال اللغويين فيها ، وما قاله الجواليقي عنها في «المعرّب من الكلام الأعجمي» ، وما دوّنه الشيخ أحمد محمد شاكر في تعليقه على الكلمة في هامش الكتاب نفسه ، و يذكر الآيات الكريمة التي وردت فيها الكلمة ، وأقوال المفسرين فيها، كأبي حيان الأندلسي في «البحر المحيط» ، والراغب الأصبهاني في «المفردات ...» ، ولا تفوته الإفادة من طوبيا العنيسي الشامي في كتابه : «تفسير الالفاظ الدخيلة في اللغة العربية»، فضلاً عن الاشارة إلى أن الكلمة لاتينية ؛ فمن المناسب ـ إذاً ـ أن يثبت أصلها

(١) مع المصادر ١ : ٨٧ .
(٢) القاهرة ـ ١٩٦٥ .
(٣) القاهرة ـ ١٩٦٦ .
(٤) القاهرة ـ ١٩٧٠ ، وقد نشرت الدواوين الثلاثة في أعداد مستقلة بها من: مجلة معهد المخطوطات العربية .
(٥) مع المصادر ١ : ٥٠ .
(٦) ديوان المثقب : ١٣ .

اللاتيني بالأحرف الافرنجية (١) ، وهو بهذا كله يخرج من دائرة «التحقيق» إلى دائرة «الشرح» ، ولنا وقفة على دلالة هذين المصطلحين في بحث لاحق .

ونقرأ تعريفاً موجزاً بالفرزدق ، وإشارة إلى «النقائض» وناشرها ، وتاريخ النشر ، وكلاماً على الديوان ، وعناية المستشرقين ؛ بوشيه وجوزيف هل بنشره ، نشر الأول ستين ومئتي قصيدة منه مع ترجمة فرنسية ، ونشر الثاني ما بقي منه سنة : ١٩٠١م ، ويتلو هذا كلام آخر طويل في أكثر من نصف صفحة على «النقائض» ، وناشرها الانكليزي بيفان سنة : ١٩٠٥ ، كل هذا في تعليق صفاء خلوصي على بيت الفرزدق :

وعضّ زمانٍ يا آبن مروان لم يدع من المال إلا مُسْحتاً أو مجلّفُ

وقد استشهد به ابن جني في شرحه لبيت من شعر أبي الطيب المتنبي (٢) ، وكأن المحقق لا يعلم : أن المقام لا يقبل مثل هذا التزيّد الذي يقرب من العبث (٣) ، والتكلف غير العلمي ، والمقام يدعو إلى ضرورة الاقتصاد في التعليق ، الا في مواضع الحاجة إلى البسط ، الذي لا يجعل الهامش أغلب على النص بما لا يحتاج اليه ، كالذي نراه في أعمال بعض المحققين الأفاضل ، ممن يتناول نصاً في ورقتين مخطوطتين ، ليخرجه للناس في ستين صفحة ، ودونك كتاب : «البلاغة – للمبرد ، بتحقيق : الدكتور رمضان عبدالتواب» (٤) مثالاً لهذه الظاهرة في تحقيق النصوص .

ونجد الوجه الآخر للصورة – نعني : غاية الاقتصاد في التعليق – طابعاً لكتاب : «التذكرة الفخرية – للصاحب بهاءالدين الأربلي ، بتحقيق : الدكتور نوري القيسي والدكتور حاتم الضامن» (٥) ، فتعليقات محققيه – وهو نصوص شعرية –من قبيل :

– ديوانه (٦) /٢٨٤ .

– شعره (٧) /١٧٧ .

---

(١) مع المصادر ١ :٥١ .

(٢) الفسر ١ :٢٧ .

(٣) مع المصادر ١ :١٠٠ .

(٤) القاهرة – ١٩٦٥ .

(٥) بغداد – ١٩٨٤ .

(٦) التذكرة الفخرية :٣٣ .

(٧) م.ن :٣٧ .

– القائل الشماخ : ديوانه (١) /٣٣٥ ، ٣٢٣ ، ٣٣٦ (بهذا التسلسل) .
– مقطعات مراث /١٠١ ، ديوان المعاني (٢) ١٧/١ .
– مولى بني عباس ، ت ١٠٥هـ (حلية الأولياء ٣٢٦/٣ ، وفيا الأعيان (٣) ٢٠٦٥/٣ .
– ق ١٩ (٤) .
– الأصل : لكاتبه (٥) .
– أخلّ به شعره (٦) .
– محمود الوراق : ديوانه /٣٧ ، وفي نسبته خلاف (٧) .
– قتله التتار سنة ٦٦٠هـ (ذيل مرآة الزمان ٥١٣/١ ، فوات الوفيات ٣٨٤/٤((٨)
– شروح سقط الزند (٩) /٩١٢ ، ٩١٥ .
– في الحاشية : (لعله والله أعلم : زمناً) ، وعجز البيت معلول . (١٠) .

وثمة صفحات كثيرة ، خلت من أي تعليق (١١) ، وقد وقع النص كله في سبع وخمسين وأربعمئة صفحة (ص‌ص ٣٣ – ٤٩٠) وبلغت تعليقاته ذوات الأرقام – وهي في الأعم الاغلب من أمثال ما ذكرنا – : ٥٩٦ تعليقةً فقط ، والمستدركة ذوات النجوم: ١٣ تعليقة (١٢) ، ولو تهيأ للكتاب من يعمل فيه مثل عمل الصيرفي في تحقيق الشعر ،

---

(١) م.ن : ٣٦ .
(٢) م.ن : ٣٩ .
(٣) م.ن : ٤١ .
(٤) م.ن : ٤٤ .
(٥) م.ن : ٤٧ .
(٦) م.ن : ٥٥ .
(٧) م.ن : ٥٦ .
(٨) م.ن : ١٢ .
(٩) م.ن : ١١٥ .
(١٠) م.ن : ١٣٢ .
(١١) تنظر الصفحات : ٤٩ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٣٣ ، ١٣٤ . ١٣٥ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، على سبيل المثال .
(١٢) الصفحات : ٩٣ ، ١٥٢ ، ١٦٢ ، ١٧٥ ، ٢٣٣ ، ٢٥٨ ، ٢٧٩ ، ٢٩٨ ، ٣٣٥ ، ٤٠٠ ، ٤٤٣ ، ٤٥٨ ، ٤٦٦ .

لوقع في اضعاف حجمه الناجز ، ولأربت تعليقاته بما لا نستطيع تقديره على مجموع ذكرناه من تعليقات القيسي والضامن عليه ، لأن مذهبهما فيه : «ألاّ يثقلاه بالحواشي الكثيرة رغبة في إظهاره أولاً ، وخشية تضخمه (١) ثانياً» ، ومذهب الصيرفي في أعماله : «ألاّ يتقيد المحققون بمذهب بعينه في التحقيق ، فكما أنّ للأدب مدارس مختلفة ، لكل مدرسة منها منهجها» ، ففي رأيه : «أن يكون للتحقيق كذلك مدارس مختلفة . ويكون لكل مدرسة منهج» ، وعنده : «أن التحقيق لن يخسر في ذلك شيئاً ، بل يعود عليه ذلك بالكسب ، كما عاد على الأدب من تعدد مدارسه ومناحج كل منها من كسْب» (٢)

ومن الغريب ، بل ومن الطريف : أن نجد من يحاول أن يجعل من فكرة التعجيل في إخراج النص نظريةً في التحقيق ، ويعدّ «الاقتصاد في التعليقات والإحالات» خطةً محكمة لإخراج الكتاب في مدّة محدودة ، نقرأ هذا في نقد عبدالاله نبهان لكتاب : «تفسير أبيات المعاني من شعر أبي الطيب المتنبي ، وهو من اختصار أبي المرشد سليمان بن علي المعري ، المتوفى سنة : ٤٩٢ ، بتحقيق : مجاهد الصواف ومحسن غياض (٣)» ؛ فقد أبدى إعجابه بما بذله المحققان من جهد في تحقيق هذا الكتاب وتحرير نصه ، ووضعا خطتهما المحكمة التي أشار إليها ، وقال : «ومعهما الحق كلّ الحق في ذلك ، لأنه لامعنى لحجز الكتاب وتأخير نشره من أجل تقويم موضع غامض ، أو من أجل العثور على قائل بيت من أبيات الشواهد ، قد يحتاج البحث عنه أسابيع . وأحياناً شهوراً ، فلينجز الكتاب ، ولينشر ، ثم يتابع القراء قضاياه ، وكلٌّ يتمم نقصاً ، ويستدرك استدراكاً ثم تجمع هذه الاستدراكات ، وينتفع بها في الطبعات التالية للكتاب» (٤) .

ولايخفى مافي هذه الدعوة الآمرة بالانجاز والنشر قبل نضج عمل المحقق في الكتاب وهي دعوة إلى «التحقيق الناقص» — من تشجيع على لهْوجة النصوص التراثية ، وسلْقها على نار حامية من الرغبة في رؤية الكتاب منشوراً على أية صورة ، ففي القرّاء من يتابع قضاياه ، ويكمل نقص العمل فيه ، وكأنْ ليس فيهم من يحزنه هذا الامر ، ويتركه

---

(١) م.ن ، مقدمة التحقيق : ٢٣ .

(٢) ديوان المثقب ، مقدمة التحقيق أيضاً : ٦ .

(٣) دمشق — ١٩٧٩ .

(٤) نظرات في كتاب : تفسير أبيات المعاني من شعر أبي الطيب المتنبي ، نقد : عبدالاله نبهان ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، الجزء العشرون ، من المجلد التاسع والعشرين ، إصدار جديد — الكويت ١٩٨٥ ، ص ٧٥١ .

بين حبّ الكتاب والأسف عليه ، وقد ضاعت فرصة نادرة عليه وعلى قارئه ؛ تلك هي فرصه نشرته الأولى ، وفرص إعادة النشر متعذرة وصعبة في كل وقت .

وبحسب : أن التفكير على النحو الذي يتلخص لنا من النص السابق يجعل من المقبول : أن يتجاوز من يملك شجاعة التعسف على أدق النصوص القديمة مادة ، وأكثرها حاجة إلى الريث والمتابعة الطويلة ، فيخرجها مشوهة معلولة غير مخدومة ، والأمثلة على هذا الوجه من الاخراج – لاالتحقيق – جدُّ كثيرة ، نذكر منها – على سبيل المثال – : «كتاب المحبوب ، للسري الرفّاء» بتحقيق: حبيب الحسني »(١) وكتاب : «التعليقات والنوادر لأبي على الهجري بتحقيق : حمود عبدالأمير الحمادي (٢) ، و «حاشية ابن برّي على كتاب المعرّب ، بتحقيق : إبراهيم السامرائي (٣) ، وقد وقع في تحقيق هذه الحاشية كثير مما آعتدنا أن نقرأه من ملاحظ السامرائي نفسه على غيره في نقد النصوص المحققة (٤) وهو وقوع يجعلنا نسأل : وأين التجربة والتمرّس في التحقيق ونقده إذاً ؟ .

ولانجيب على هذا السؤال باكثر من ان العجلة هي التي تؤدي إلى مثل هذا ، وإلى ماهو أكبر منه » ، وليكن المثال على الأكبر منه عندنا من تحقيق السامرائي أيضاً ؛ وكان قد سبق إلى نقد ممتاز للجزء الأول من كتاب « العين » للخليل – بتحقيق : عبد الله درويش(٥) ولكنه حين تجرّد مع مهدي المخزومي لتحقيق الكتاب نفسه حملته العجلة على أن يوقع في نصه خللاً كبيراً ، وحكى المخزومي خبر هذه العجلة بقوله : « نعتذر للدارسين عما وجدوا من هفوات وقعت في هذا الكتاب ، فقد أحيط طبعه بظاروف جدّ صعبة

(١) بغداد – ، وينظر : نقد هلال ناجي لهذه النشرة في : مجلة المورد ، العدد الثاني من المجلد الرابع عشر ، بغداد ١٩٨٥ ، ص ص ١٦٥ – ١٩١

(٢) الموصل – ١٩٨٠ – ١٩٨١ ، وينظر نقد حمد الجاسر لهذه النشرة في : مجلة العرب ، في حلقات اطلعت منها على تسع ، الأولى في : العدد الخامس والسادس المزدوج ، من المجلد السادس عشر ، الرياض ١٩٨١ ، ص ص ٣٢١ – ٣٦٦ ، والتاسعة في العدد الحادي عشر الثاني عشر ، من المجلد السابع عشر ، ١٩٨٣ ، ص ص ٨٤٢ – ٨٥٧ .

(٣) بيروت – ١٩٨٥ .

(٤) ينظر : نقد حاتم الضامن لهذه النشرة في : مجلة المجمع العلمي العراقي ، الجزء الثاني ، من المجلد السابع والثلاثين ، بغداد ١٩٨٦ ، ص ص ٣٠١ – ٣٥٠ .

(٥) تنظر : تعليقتنا : ٦ .

فلم يتح لهذا الكتاب الجليل أن يطبع في مطبعة واحدة ، فقد توزعته مطابع في الكويت وفي لبنان ، وفي الأردن ، وفي العراق ، ولم يتيسر لنا في كل هذه الأجزاء أن نصحح المسوّدات أكثر من مرة واحدة ، يضاف إلى ذلك أن زميلي في التحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي اضطر أن ينتدب للتدريس في الجامعة الأردنية ، وكان لزاماً عليه أن ينجز حصته في الاربعة الأجزاء الأخيرة في غضون عطلة الصيف ، وكانت حصته فيها هي الأنصاف الأولى منها ، والتحق بالجامعة تاركاً علي تصحيح الاجزاء ، وحين أقبلت على تصحيحها فوجئت بنتيجة السرعة في التحقيق، فتحملت تبعة هذه السّرعة . وأخذت أتابع تحقيقه سطراً سطراً، بل كلمة كلمة، واستطعت بعد جهد جهيد أن أنقذ هذه الأجزاء الأربعة من هفوات لاتغتفر، جري بها قلم الزميل، وهو يستعجل في إنجاز حصته ...» (١)

وقال المخزومي بعد هذه الكلمة: «انتهى الجزء الثامن» ويليه :استدراك مافات الجزء الرابع من كتاب العين »، وقال في الهامش :«كان هذا المستدرك من حصة زميلي في التحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي، لكنه سها عنه ،فاضطررت إلى استدراكه . بتحقيقه، وصنع فهارس المفردات اللغوية للجزء الرابع، وأرقام الصفحات فيه هي تتمة لارقام صفحات الجزء الرابع المطبوع في الأردن». (٢)

وما أسهل أن نعتذر عن مثل هذا الإخلال بالنص بأنه «سهو» ، ولكنه سهو بتر الجزء الرابع، وأدّى إلى عدة أمور :

- الحاجة إلى صنع فهارس لغوية لهذا الجزء الابتر في النوبة الاولى.
- الحاجة الطارئة إلى صنع فهارس أخرى للجزء نفسه بعد نشر المستدرك في نهاية الجزء الثامن .
- الاضطرار إلى الاعتذار .
- خروج المستدرك بتحقيق المخزومي وحده، والمفروض: أن الجزء الرابع من تحقيقه بالاشتراك مع السامرائي.
- إلزام الدارسين بالاشارة إلى هذا المستدرك موصولة بالاشارة إلى الجزء الثامن كأن يقال :

---

(١) العين - ٨ - ٤٧٠ .

(٢) م . ن ٨ : ٤٧١ . ٤٧٣ .

«ينظر : استدراك مافات الجزء الرابع من كتاب العين ملحقاً بالجزء الثامن منه : ٤٣٩ / ج / ٤»

أو يقال : «العين ٤٤٤ / ج / ٤ استدراك مافات منه في آخر الجزء الثامن» ، ولايكفي أن يقال :

«العين ٤ : ٤٣٩ ، ٤٤٤» ، لأن مراجع هاتين الصفحتين في الجزء نفسه سيجد في الصفحة الأولى مانصّه : «فهرس بأبواب الكتاب وموادّه» ، وفي أول الثانية مانصّه : «٤٦ — باب الهاء والراء والفاء ٤٥ — ٤٦ : هرف ، رهف ، فهر ، رفه ، فره » ، فلا مندوحة إذاً عن الاشارة إلى الجزء الثامن لدى الحاجة إلى النقل من المستدرك على الجزء الرابع » ؛ ولا يخفى الخلل الفني في هذا النوع من الاحالة الطويلة المفروضة على المستفيد من «باب» الغين والظاء و(واي» معهما » — على سبيل المثال — أو من «باب الغين والنون و (و ا ي ء) معهما» وهما بابان ، أبعدتهما السرعة في التحقيق المخففة لدى الاعتذار عنها بأنها : سهو ، عن مكانيهما المناسبين بين دفتي الجزء الرابع حقّاً ، وماكان أغنانا عن هذا كله ، لو منح «كتاب العين» في التحقيق ريثاً ومراجعة وتثبتاً أكثر مما منح ، وهو كتاب ليس كمثله كتاب لغة آخر قدماً ونفاسة ومكانة في المكتبة اللغوية .

ومثل «العين» في المكتبة التاريخية كتاب «تاريخ الاسلام» لشمس الدين الذهبي» بيد أن من أسوأ الأمثلة على التحقيق خروج القسم الأول من جزئه الأول» بتحقيق : محمد عبد الهادي شعيرة » ، (١)

فقد وصف ناقده بشار عواد معروف عمل محققه فيه بقوله : «وكنا نأمل من دار الكتب المصرية التي عودتنا على إخراج نفائس الكتب وأمّهاتها محققة تحقيقاً علمياً رصيناً ، ومخدومة خدمة ممتازة ، أنها ستخرج هذا الكتاب على ذلك النمط العلمي الرصين والتحقيق العلمي الجليل ، ولكننا من أسف : وجدنا أمراً عجيباً حينما اطلعنا على هذا المجلد المنشور المليء بالاخطاء التأريخية والمنهجية والتحقيقية التي لايقع فيها المبتدئون ، ناهيك عن أستاذ فاضل يحمل رتبة الدكتوراه ، بحيث أجد نفسي غير مبالغ إذا قلت : إن هذا الكتاب يمثل أردأ ماأخرجته هذه الدار الجليلة العتيدة ، وسوف تكشف ملاحظاتنا على

(١) القاهرة — ١٩٧٥

الكتاب مدى الاساءة الفادحة التي أسيء بها إليه (١) ، وجاءت هذه الدراسة ، النقدية المعجبة في بابين :

— الأول : في تقويم مقدمة التحقيق .

— الثاني : في تصحيح النص وإكماله .

وضم الاول ثلاثة فصول ، والآخر فصلين ، أولهما : في بيان الملاحظات التي تصحح النص ، وتبين الأوهام الواقعة فيه (٢) .

وعنى الناقد بمصطلح «الخدمة» في أول هذه الكلمة ، ونعني به نحن ايضاً ان يحسن المحقق الاستفادة من المساحة المتقطعة في اسفل كل صفحة لغرض التحقيق والتوثيق والتعليق ، ويملؤها بالمحتاج اليه من المادة العلمية ومن هذه المادة : عرض الفروق النصية الملحوظة بين النسخ المعول عليها في أخراج الكتاب ، إلا اذا كان العمل قائماً في أصله على نسخة فريدة ، او على نسخة واحدة ،تشبه أن تكون فريدة للجهل بوجود نسخة أخرى ، أو لتعذر الحصول عليها لهذا السبب أو ذاك .وعندئذ لايجد المحقق ما يعرضه من الفروق النصية الا مايشخص لهبمقابلة نص الكتاب بما يعثرعليه من مادة منقولة منه في الكتب الأخرى ،ويحدث أحياناً ان ينقل المؤلف نصاً من أحد مصادره ، وينقل مؤلف آخر النص نفسه من المصدر نفسه ، فلا مندوحة لمحقق الكتاب أن يعرض الفروق النصية بين هذين النقلين ، واذا كان لابد من مثال ، فبين أيدينا نص نقله محمد بن عمر الأيوبي ، المتوفى سنة :

٦١٧هـ في كتابه : «أخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء» من كتاب أبي بكر محمد بن عيسى ، المعروف بابن اللبانة الداني ، المتوفى سنة ٥٠٧ : «نظم السلوك في وعظ الملوك في اخبار الدولة العبادية ، في وصف حصار المرابطين لاشبيلية ومجاهدة المعتمد بن عباد أيامئذ» ، فقد وجدنا النص نفسه منقولا من أصله المفقود في كتابين آخرين :

الأول: أقدم من كتاب «الأخبار» ،وهو : «المختار من شعر شعراء الأندلس لأبي القاسم علي بن المنجب ،المعروف بابن الصيرفي ، المتوفى سنة: ٥٤٢، بتحقيق: هلال ناجي (٣)».

(١) تنظر : مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد الثاني والعشرون ، بغداد ١٩٧٨ ، ص ٥٢٩ .

(٢) م . ن : ٥٣٠ .

(٣) مجلة المورد ، العدد الرابع ، من المجلد الرابع ، بغداد ١٩٧٥ ، ص ص ١٠٥ — ١٣٨ .

الثاني : متأخر عنه . وهو : « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » لشهاب الدين أحمد بن محمد المقري المتوفي سنة ١٠٤١ ، بتحقيق : إحسان عباس » (١) .
فلم نر إلاضرورة المقابلة بين النص في الأصول الثلاثة ، ونحن نعمل في تحقيق كتاب الأخبار (٢) ... » فأفدنا من هذه المقابلة فوائد كثيرة ، ساعدت على تصحيح بعض التصحيفات والتحريفات ، وإكمال بعض النقص ، وتقريبالنص إلى الاصل الذي حرره كاتبه الأول ، وهذا التقريب أصل مهم جداً من أصول تحقيق النصوص .

ومع هذا .فقد دعا أحد المعنيين بقراءة الكتب التراثية المحققة إلى الاستغناء عن الاشارة المفصّلة إلى الفروق بين النسخ في هامش التحقيق باشارة عامة : تذكر في مقدمته «أنّ هناك اختلافات في المخطوطات ، لاداعي لذكرها ، لأنّ مايعبر به عنها — أن كثر — يعوق الهامش ويربكه . وإن دلّ ذلك على الجهد الكبير الذي قام به المحقق» (٣) ، وهنا نسأل مره أخرى : فيم يكون التوثيق الموصل إلى التحقيق إذاً ؟ .

والجواب : أن التحقيق . بعبارة مختصرة : لايعدو أن يكون قراءة دقيقة لنص الكتاب المخطوط في نسخته الوحيدة ، أو نسخة المتعددة ، واجتهاداً في تحريره بما يرتاح الى أنه نص مؤلفه حرفاً بحرف . أو القريب من نصّه ، ونقرر تبعاً لهذا : أن التعليق إضافة علمية . والتوثيق وسيلة والتحقيق غاية ، وهنا تبرز براعة المحقق في خدمة الكتاب ، وهنا : يكمن الخطر عليه أيضاً ، حين يقع بين يد وفكر : لايعرف صاحبهما كيف يكون التحقيق غاية ، والتوثيق وسيلة ، والتعليق اضافة علمية من شرطها : الاقتصاد والتكثيف والخدمة الوظيفية للنص ، ولكن : ليس الاقتصاد والتكثيف والخدمة القاصرة التي لاتحل مشكلة . ولاتضيء عتمة ، ولاتوجه مضطرباً ولاتكمل نقصاً ، ولاتوضح غامضاً ، ولاتعالج حالة في النص محتاجة إلى معالجة علمية دقيقة ، وأضرب مثالاً على المعالجة غير العلمية قول الشاعر :

إسقِ ماأسأرته الأكما إن عيشاً أن ترى علما

فقد أستشهد به ابن ناقيا البغدادي ، المتوفى سنة : ٤٨٥هـ في كتاب : «الجمان في تشبيهات

---

(١) بيروت — ١٩٦٨ .
(٢) بالاشتراك مع الدكتور ناظم رشيد ، ونحن نعد الكتاب للنشر في سلسلة النصوص المحققة التي وافق معهد المخطوطات العربية في الكويت على اصدارها .
(٣) عباس هاني الجراخ ؛ مقالته : رأي في تحقيق الكتب التراثية ، جريدة الثورة ، العدد : ٥٢٥٦ ، بغداد في : ٦ / ١١ / ١٩٨٤ ، صفحة :

القرآن » الذي لم تصل إلينا منه إلا نسخة واحدة، اعتمد عليها محققوه في نشراتهم الثلاث (١) وهي في نسخة مقروءة حسنة الخط ، وأثبته البغداديان منهم بالنص الآتي :

إسق ما الشاربه الأكما إن عيشاً أن ترى علما

وعلقاً عليه بقولهما : « كذا في الاصل ، وهي غير واضحة (٢) » . وأثبته الدمشقيان :

إسق ما .... الأكما إن عيشاً أن ترى علما

وعلقا بقولهما : « في البيت كلمة ساقطة ، لم نتبينها في الأصل (٣) » ، وأثبته المصري (٤)

إسق ماأسارتة الأكما إن عيشاً أن ترى علما

ولم يعلق عليه بشيء، وكأنه لم يرفي المخطوطة عيباً، وقد رأى فيها الدمشقيان موضع كلمة ساقطة غير متبينة، والبغداديان شيئاً أثبتاه كما رأياه ، فأية معالجة علمية هذه المعالجة ؟ ولو امتدت أيدي محققي الكتاب إلى أكثر مما أمتدت إليه من مراجع التحقيق لوجدوا مفتاح المعالجة العلمية في موضعين:

(أ) معاني الشعر ، للاشنانداني ، بتحقيق : عز الدين التنوخي ، (٥) في الصفحة ٢٩

(ب) جمع الجواهر في الملح والنوادر. للحصري، بتحقيق : علي البجاوي، (٦) في الصفحة : ٣٦٥، والنص فيهما:

إسق ماأسأرتـه الأكما إن عيشاً أن ترى علما

فكيف تصح الدعوة — إذاً — إلى التعجيل في إخراج الكتاب ، والاقتصاد في خدمته وتحلو الرغبة في إخراجه وشيكاً على أمل أن يخدمه القرّاء خدمة تكميلية، وهنا نشترط :

أولا: أن يتم المحقق ماأخذه على نفسه من لزوم خدمة الكتاب.

ثانياً: أن تكون خدمته للنص وظيفية ، لاحشوية ، ولايتسع المجال في هذا الموضع لعرض مثال جديد من التعليقات الحشوية التي تصادف المعنيّين بقراءة النصوص المحققة بعد

(١) بغداد — ١٩٦٨ : أحمد مطلوب وخديجة الحديثي ، الكويت — ١٩٦٨ : عدنان زرزور ومحمد رضوان الداية ، الاسكندرية — بلا تاريخ : مصطفى الصاوي الجويني ، ولم يشر المحقق الى انها طبعة الثانية للكتاب .

(٢) الجمان — نشرة بغداد : ٢٢٢ .

(٣) م . ن — نشرة الكويت : ٢١٦ .

(٤) م . ن — نشرة الاسكندرية : ٢١٦ . أيضا .

(٥) دمشق — ١٩٦٩ .

(٦) القاهرة — ١٩٥٣ .

مثالي الصيرفي وخلوصي المعروضين فيما تقدم (١)، وربما صادفت هؤلاء المعنيّين بقراءة النصوص المحققة - وشكذا كثيراً جداً - تعليقات مرتجلة، لايرجع فيها المحقق إلى مصدر بعينه، يوثقها به، وقد تكون أحياناً تعليقات من الذاكرة، أو تعليقات منقولة من هامش كتاب محقق آخر، فيها من الوهم ومن الخطأ ماسبق وقوعه في الهامش المنقول منه، وفي هذا من معارضة المنطلق النظري الرئيس لحركة تحقيق النصوص مايجعله مظهراً مشيناً من مظاهر العمل في هذا الحقل، ولو آل فيه المحقق إلى حكمة ذاتية ورصانة علمية خاصة به، لجنّبه ذلك كثيراً من مواقع الزلل، ومن هذه المواقع: ضآلة مايملكه أحياناً من وعي فني ومعرفة لأصول تحقيق النصوص وتكملاته، ومن الأصول: الموازنة العلمية بين النص وبين ما يحتاج إليه من تعليقات وظيفية، تساعد على حلّ مشكلاته، وتسهل للقارىء سبيل الوصول إلى دلالات مضمونه العلمي، المعقد حيناً، والمتشعب حيناً آخر، والمؤتشب المختلط حيناً ثالثاً، كالذي نراه في النصوص الأدبية القديمة، فتحقيق كتاب من قبيل:

«العقد الفريد - لابن عبد ربه»، أو: «عيون الأخبار - لابن قتيبة» محتاج إلى نمط مختلف من التعليقات، يختلف اختلافاً كبيراً عن التعليقات التي يستلزمها تحرير نصّ نحوي والتعليق عليه، ويقال مثل هذا عن التعليقات على ديوان شعر وكتاب أمثال، وكتاب سيرة وحوليّة تاريخية، ومعجم لغوي ومعجم بلدان، وتفسير ومسند حديث نبوي.

ولايفهم من هذا: أن الخدمة الوظيفية التي تخدم نصاً علمياً بعينه، ونعني: خدمة مضمونه العلمي في مجال تخصصه، ليس من شرطها أن تغفل عن عنايات مؤلفه المختلفة فيه، بل من واجب المحقق أن يوفر في عمله مستوىً من الموازنة بين خدمة المادة التخصصية والمادة المكملة، ليتسم عمله في الجملة بالعلمية المطلوبة، وليس مقبولا أن تنعدم الموازنة بين الخدمتين كما تبين لمحمد أحمد الدالي، وهو يقرأ كتاب: «الوسيط في الأمثال - المنسوب لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، المتوفي سنة: ٤٦٨، بتحقيق: عفيف محمد عبد الرحمن (٢)»، وكان قد قال في مقدمته: «حرصت ماوسعني الحرص على ضبط النصوص ضبطاً جيداً، كما عنيت بضبط الأعلام وكذا الشعر، ثم صرفت عنايتي بعد ذلك الى ملاحظة التصحيف في نصوص الأمثال

---

(١) ينظر: موضعا تعليقتينا: (٦): ص ٢٣، (٢) ص ٢٤ - في متن هذه الدراسة المتواضعة.
(٢) الكويت - ١٩٧٥.

نفسها ، فرجعت إلى المثل في مظانه المختلفة من كتب الأمثال وكتب الأدب وغيرها، وأشرت إلى مختلف مصادره وصورة في الحاشية . ليكون ذلك مجالاً للمقارنة والدراسة...»(١)، فقد بقي النصّ مع هذا المنهج؛الذي وصفه الدالي بالشدة، ونصفه نحن بالخلو من الموازنة التي أشرنا اليها عاجّاً بضروب من الخطأ والتصحيف والتحريف والسقط ، لايكاد يخلو من ذلك سطر ، (٢) لأنّ المحقق قد صرف عنايته – كما قال – إلى خدمة المادة التخصصية للنص ، ولم يول النصّ نفسه عناية كافية ، تقوّمه وتضبثه ، وتحل مشكلاته العامة ، فضلاً عن المشكلات الخاصة التي تتعلق بنصوص الأمثال العربية في أثنائه ، لأن أختلال الموازنة يمكن أن يفسد تجربة المحقق في الكتاب ، كما أفسد تجربة محقق « الوسيط في الامثال» ، ويعطي إشارة إلى أنها تجربة قاصرة عن آستيعاب أصل مهم من أصول تحقيق النصوص ، فليس صحيحاً : أن تكون تعليقات المحقق لغويةّ فقط ، والمؤرخ تأريخية ، والمتأدب أدبية ، والنحوي نحوية مجردة ، وكأن النص الذي يعمل فيه خال بالضرورة من التلّون المضموني الذي يكثر في الكتاب القديم فكتاب النحو – على سبيل المثال – لايخلو البتة من الاية وقراءاتها السبعية حيناً ، والشاذة حيناً آخر ، ومن الاشارة إلى اللهجة واللغة ، والبيت وشاعره المذكور أو المجهول أو المسكوت عن ذكر اسمه ، والمثل والقولة السائرة ، وعلم الشخص والقبيلة والموضع ، ماشا كل هذا مما تستوجبه المادة النحوية نفسها . فكيف يكون تحقيق هذا الكتاب حقيقاً على أصوله ، إذا آستأثرت المادة النحوية بعناية المحقق ، ولم تدع التلون المضموني يأخذ نصيبه المناسب من هذه العناية بحدود مقبولة ، تحقق وظيفية التعليق العلمي على مادة الكتاب .

ولوتهيأ لنا كتاب، جرى محققه على إيثار المادة التخصصية فيه بعنايته العلمية فقط ، فلربما يكون العذر هو الخوف من إثقال النص بما لم ير مناسبة له؛ أو بما يمكن أن يستغني عنه تاركاً إياه لمعرفة القاريء، أوبما لا اطلاع له على مصادره ومراجعه فضلاً عن القدرة على الكتابة فيه بتلخيص وتدقيق ،يناسبان الهوامش التحقيقية، وما يناسبها من المعارف. واللغة المعبّر بها، والمنهج المتبع في الترتيب والصياغة مختلف جداً عما يناسب البحث والدراسة وصناعة التأليف في نوع المعرفة وطبيعتها، وأداة توصيلها إلى

(١) الوسيط في الأمثال ، مقدمة التحقيق : ٢٦ .
(٢) ينظر : نقد الدالي للكتاب في : مجلة معهد المخطوطات العربية ، الجزء الثاني ، من المجلد التاسع والعشرين ، إصدار جديد – الكويت ١٩٨٥ ، ص ٧٨٢ .

القاريء والطريقة المناسبة للتوصيل ، وها هنا نشير إلى أن لكل من التحقيق والتأليف طبيعة علمية مستقلة ، ـ ونعطي مثالاً قوله ـ صلى الله عليه وسلم: «إنّ مما ينبتُ الربيع لما يقتلُ حبطاً أو يُلمُ» ، الذي استشهد به ابن ناقيا البغدادي في: الجمان في تشبيهات القرآن، في: طبعاته: البغدادية ـ ٢٦٨، الكويتية ـ ٢٧٤، الاسكندرية ـ ٢٥٦، فعلقت الأولى البغدادية بقولها:

«في النهاية ج١ص٣٣١: وذلك أن الربيع ينبت أحرار العشب، فتستكثر منه الماشية ورواه بعضهم بالخاء المعجمة من التخبط. وهو الأضطراب .يلم: يقرب من القتل؛ النهاية ج٤ ص٢٧٢» .

والكويتية بقولها: «أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه في باب: مايحذر من زهرة الدنيا والتنافس. عليها وقصة الحديث: أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: إن أكثر ماأخاف عليكم مايخرج الله من بركات الأرض ،فسئل ومابركات الأرض ؟

قال: زهرة الدنيا ،فقال رجل : هل يأتي الخير بالشر ؟.. قال: لايأتي الخير إلا بالخير، إن هذا المال خضرة حلوة ،وإن كل ماأنبت الربيع يقتل حبطا أو يُلم ..؛ الحديث ـ فتح الباري ١١ / ٢٠٤ ـ ٢٠٦» .

والاسكندرية بقولها: «في الفائق للزمخشري ج١ ص٥٥٦ ـ ٥٥٧:

قال الرسول: إن أخوف ماأخاف عليكم مايخرج الله من نبات الأرض، وزهرة الدنيا ،فقام رجل فقال: يارسول الله ،وهل يأتي الخير بالشر ؟. فسكت ساعة ،ورأينا أنه ينزل عليه، فأفاق وهو يمسح عنه الرحضاء وقال: أين هذا السائل؟. فكأنه حمده ـ فقال: إن الخير لايأتي إلا بالخير، ولكن الدنيا حلوة خضرة ، ومما ينبت الربيع مايقتل حبطاً أو يلم إلا آكلة الخضر والخضر: من كلأ الصيف في القيظ، والنعم لاتستكثر ولاتستوبل، يعني: أن الدنيا مونقة تعجب الناظرين ،فيستكثرون منها، فتقتلهم، كالماشية إذا استكثرت من المرعى حبطت، وذلك مثل للمسرف. والمقصود محمود العاقبة كآكلة الخضر» .

فهذه ثلاث تعليقات على نصّ واحد، كتبت الأولى بلغة تحقيقية ، والأخريان على فرق مابينهما ـ بلغة بحثية غير محكومة بضرورة الاختصار والتركيز، والأولى ـ فيما نزعم ـ أكثر علمية وموضوعية ومناسبة لموضعها من الأخريين، لأنها تعليقة أدت وظيفتها الفنية أداءً كافياً، شأنها في ذلك شأن تعليقات محكمة، دوّنها محقق متمرس

بنشر النصوص اللغوية، ونعني: محمود الطناحي في تحقيقه لكتاب «منال الطالب في شرح طوال الغرائب - لمجد الدين ابن الأثير (١)»، فاذا قال ابن الأثير:

- قال الجوهري في كماة: كأنه جمع: كام.

علقّ بقوله: «عبارة الجوهري في الصحاح (كمي): والكمي: الشجاع ... والجمع الكماة، كأنهم جمعوا كام، مثل قاض وقضاة (٢)»، ووجه الفن في هذه التعليقة: أنها تنفي الاشتباه بأن ابن الأثير قد نقل عبارة الجوهري بحرفها. وإذا نسب ابن الأثير قول الشاعر:

وأرضى بحكم الحيّ بكر بن وائل إذا كان في الذُّهلين أو في اللهازم

إلى الفرزدق:

علق بقوله: «المصنف - رحمه الله - يتابع الزمخشري في نسبة البيت للفرزدق، ولم أجده في ديوانه المطبوع، ثم وجدته لجرير، في ديوانه: ص ٩٩٧، عن النقائض ص ٧٦٤ (٣)»، وفي هذا تقويم خطأ من واجب المحقق أن ينبه عليه. وإذا قال ابن الأثير: «وأجلْ: بمعنى نعم، وتقع في جواب الخبر، محققة له، ولاتصلح في جواب الاستفهام».

علق بقوله: «هذا من كلام الزمخشري في: الفائق، وفيه بعد هذا: وأمّا نعم فمحققة لكل كلام (٤)»، وفي هذا تنبيه على نقل غير معزو إلى صاحبه في أصل المؤلف، وردّ القول الى قائله، وإذا قال ابن الأثير في شرح المثل: «ضح رويداً»: «والتضحية: التغذية، وضحّيت الإبل: إذا غذيتها»

علّق بقوله: «إلى مثل هذا التفسير ذهب أبو هلال العسكري، أما الميداني، فقد ذهب في تفسير المثل مذهباً آخر، قال: هذا أمر من التضحية، أي: لاتعجل في ذبحها، ثم استعير في النهي عن العجلة في الأمر (٥)»، وإذا استشهد ابن الأثير بقول امرىء القيس:

ودعْ عنك نهباً صيح في حجراته ولكن حديثاً ما حديث الرواحل

---

(١) القاهرة - ١٩٨٢.

(٢) مقال الطالب: ٢٧٨.

(٣) م. ن: ٢٩٢.

(٤) م. ن: ٢٩٢.

(٥) م. ن: ٣٩٣.

علق بقوله : «ديوانه : ص (٩٤) ، وروايته : دع ، باسقاط الواو ، وفيه الحزم (١)»
وفي هذا المثال ، والذي قبله : إضافتان علميتان ، عرضتا — كما عرضت التعليقات السابقة — بعبارة مقتصدة مكثفة ، لاهي من طابع الصيرفي في التعليق على «ديوان المثقب» ولامن طابع القيسي والضامن في التعليق على «التذكرة الفخرية» ، بل إنّ لها طابعاً خاصاً يمثل منهجاً آخر من مناهج التحقيق ، يصدر صاحبه عن فهم لطبيعة التكامل المنتظر بين المتن والهامش ، وبتصرف في هدي نظرية فنية ، استقرت أصولها بالتجريب الطويل والعمل المتصل في تحقيق النصوص ،ونكاد نقول :إن الطناحي قد قرّ على هذا المنهج منذ باشر عمله في إخراج «النهاية في غريب الحديث والأثر — لمجدالدين ابن الأثير (٢)» على حين وضح منهج الصيرفي في تحقيقه لديوان « البحتري (٣) » ، واستقر في تحقيقه لدواوين « المثقب ، والمتلمس ، وعمرو بن قميئة (٤) » ، واختلف منهج القيسي والضامن في أعمالهما المشتركة بين ما جريا عليه في تحقيق « التذكرة ... » مثلاً ، و «أسماء خيل العرب وفرسانها — لابن الأعرابي (٥) » و «نسب الخيل في الجاهلية والاسلام — لابن الكلبي (٦) » ، فقد حرصا كل الحرص — كما قالا في مقدمتي الكتابين الأخيرين — على توثيق نص الكتاب الأخير من كتب الخيل أولاً ، ومن المعجمات وكتب الأدب والتاريخ ثانياً (٧) ، والدليل على هذا الاختلاف من الناحية الاحصائية — وقد سبق لنا تطبيق هذه الطريقة آنفاً في تقويم عملهما في : التذكرة — ان نص كتاب «الأسماء ...» وقع في اثنتين وخمسين صفحة ، وبلغت التعليقات عليه ثلاثاً واربعين وثلاثمئة تعليقة ووقع نص كتاب «النسب» في اثنتين وخمسين صفحة أيضاً وبلغت التعليقات عليه : ثلاثين وثلاثمئة تعليقة ، فأية مناسبة بين :

— التذكرة : ٤٥٧ صفحة — ٦٠٩ تعليقة .
— الأسماء : ٥٢ صفحة — ٣٤٣ تعليقة .
— النسب : ٥٢ صفحة — ٣٣٠ تعليقة .

---

(١) م . ن : ٤٠٣ .
(٢) القاهرة — ١٩٦٣ .
(٣) القاهرة — ١٩٦٣ .
(٤) تنظر : تعليقاتنا : (١٢) (٣) ، (٤) ص٢٣ :
(٥) بغداد — ١٩٨٥ .
(٦) بغداد — ١٩٨٥ .
(٧) اسماء خيل العرب ٢٧١ ، نسب الخيل ١٣٠ .

وإذا كان المحققان – كما أسلفنا – قد اعتذرا عن التقليل في «التعليق على «التذكرة ...» بالرغبة في إظهار نصها أولاً، وخشية تضخمه ثانياً، وهذا حسن من حيث المبدأ، فقد فوتا على القارىء فوائد كثيرة، كان بمقدورهما تقديمها في هوامش العمل، من أهمها وألصقها بفن تحقيق النصوص وعلمه: التعريف المقتضب بشعراء الكتاب، وأكثرهم من المتأخرين المغمورين أو المجهولين، وهذا التعريف سيكون – لاريب – من نمط الإضافة العلمية، التي تخدم النص الجديد، وتقرّبه من القرّاء، ومعالجة اختلال بعض الأوزان الشعرية، فقد تركا أبياتاً مختلة على حالها، وأشارا في الهوامش إلى ذلك (١)، وكأن ليس من واجبهما، ولا نقول، من حقهما، المعالجة بمراجعة الدواوين، أو بالاجتهاد الذي لايفسد النص، بل يصلحه إصلاحاً موضعياً فقط، وليتسع الكتاب بعد ذلك مايتسع، فهو لن يصل بحال إلى ماوصل إليه الجزء الباقي وهو الثاني من من أصل من أربعة اجزاء من كتاب «نباهة البلد الخامل بمن وردة من الأماثل»، المنشو بعنوان: «تاريخ إربل – لابن المستوفي، بتحقيق: سامي الصقار (٢)» في جزأين:

– الأول: ضم مقدمة التحقيق، والنص الواقع في: ٤٢٨ صفحة، بخلاف: ٣٣ صفحة، هي مقدمة التحقيق، و ٢٩٦ صفحة من هوامش المحقق ملحقة بالنص.

– الثاني: ضم بقية تعليقات المحقق في: ٦٩٩ صفحة، من أصل ٨٠٧ صفحات تتلوها مراجع التحقيق والفهارس في: ٢٧٨ صفحة، وكثير من هذه التعليقات من المفتعل المتهافت، الذي لايقوّم نصاً، ولا يخدم معلومة، ولا يحقق علماً أو موضعاً أو مفردة لغوية، فقد بقي النص على اضطرابه وقلقه في المخطوطة الأصلية المعتمد عليها في التحقيق وقد تهيأ لنا اطلاع مباشر عليها، وقراءة هادئة فيها (٣)، وصحّ لدينا: أنها محتاجة إلى محقق من ذوي العزم والاستعداد لمثلها رداءةً وتشوهاً، لأن من الناس من يقتحم أمر التحقيق اقتحاماً، لم يتهيأ له، ويحسب له الحساب، ونحن نستعير هذه الملحوظة النقدية من كلام السامرائي على عمل حمود الحمادي في تحقيق كتاب: «التعليقات والنوادر –

---

(١) تنظر: الصفحات: ٨٦، ١٥٢، ١٦٢، ٢٥٨، ٢٨١، ٤٣٣، ٤٤٣.

(٢) بغداد – ١٩٨٠

(٣) في مكتبة الصديق الدكتور ناظم رشيد مصورة للكتاب عن الأصل المخطوطة برقم: (٤٠٩٨) في مكتبة جستربتي بدبلن في إيرلندا، وهو الأصل الذي اعتمد عليه الصقار في تحقيقه.

لأبي علي الهجري)١) » و«دونك الكتاب ، تقرؤه ، فتحس أن في كل صفحة منه من المصحّف أو الناقص أو المزال عن جهته وحقيقته شيئاً غير قليل ، وأنك في كثير من صفحاته لاتفهم مايراد ، لما قد عرض للنص من آفات ، أحالته وسلبت رواءه (٢) » ، فاستحق أن يكون مثالاً عرضه حمد الجاسر للعبث بالتراث (٣) اللغوي والأدبي ، كما يصلح كتاب « تتمة يتيمة الدهر — للثعالبي ، بتحقيق : عباس إقبال (٤)» مثالاً لعدم القدرة على معالجة عيوب النص الذي تداخلت أوراق مخطوطته المعتمدة في التحقيق فنشر نشراً مضطرباً مريضاً بأدواء مختلفة ، منها :

— نقض التراجم وانبتارها المفاجىء .

— التحريفات الكثيرة والتصحيفات .

— نسبة الاشعار إلى غير أصحابها بسبب انتقال أوراق الأصل من مواضعها ، وقد اجتمعت لدينا أمثلة كثيرة على هذه الظاهرة في أثناء مقابلتنا للنصوص التي نقلها محمد بن عمر الأيوبي في كتابه : «أخبار الملوك ..» عن أصل قديم سليم من «تتمة اليتيمة» ، بيد أن «التتمة» المنشورة على عوارها قد نبهت على اضطراب مماثل ، وقع في مخطوطة كتاب : «الأخبار» نفسه ، فاجتهدنا في إصلاحه اجتهاداً واجباً (٥) :لأننا نعدّ التقصير الذي نراه في أعمال بعض المحققين جناية على المخطوط القديم ، وحيفاً على عهدة ذاتية ، أودعها كاتبها في نص علمي متعوب عليه ، وربما تكون أيدي النسّاخ هي التي أفسدتها وأمرضتها بالنقص والزيادة والتصحيف والتحريف والتقديم والتأخير ، وزادها الزمن المتطاول وسوء الحفظ والأرضة والرطوبة وعبث الجهلاء وما شاكل مرضاً فوق مرضها على أيدي نسّاخها ، فكيف يتأتى لنا أن نجعل تقصيرنا المعاصر صلةً لكل هذا ، فنخرج إخراجاً فاسداً على غير أصول علمية معتمدة في ضبط هذا العمل ، الذي صار ألهية من لا يقدر عليه من القرأة والكتبة في هذا العصر ؟ .

---

(١) مع المصادر ٢ :

(٢) م . ن : ٢ :

(٣) تنظر : تعليقتنا : (٣) : ص ١٥

(٤) طهران — ١٣٥٣هـ

(٥) تنظر تعليقتنا : (٢) : ص ٣١

وكيف نقبل أن يقع الكتاب – أي كتاب – بين يدي من يجهل أن هذا الكتاب – كما أسلفنا – وديعة لديه (١) ، وأن من التوثيق ما له علاقة بالمتن ، من حيث هو عبارة مجردة موروثة ، وما له علاقة بالمضمون العلمي لهذه العبارة ، من حيث إشارتها إلى ثقافة المؤلف وعلمه ومنهجه في التأليف ، ويجهل أن هذا التواشج بين المتن والهامش من شرطه أن يأخذ طابعه العلمي من زاوية التكامل ، لا التنافي بين رصانة المتن ورداءة الخدمة التي يقدّمها للكتاب ، توثيقةً وتحقيقيةً وتعليقية (٢) ، وترجعنا هذه النقطة إلى ضرورة العناية بذكر الاختلافات بين النسخ المعتمد عليها في العمل ، فهي التي تنسج خصائص الاخراجة العلمية للكتاب ، وتطرح نتائجها بالتوليفة الفنية بينها وبين تعليقات المحقق على النص ، ومن الخصائص : التمام ، وصحة العبارة ، وسلامة الرسم ،والضبط اللغوي والنحوي ... ، ومن النقائص : التصحيف ، والتحريف ، والزيادة المقحمة ، والنقص سهواً وبياضاً في الأصل وطمساً وخرماً ، واضطراب الأوراق ، وبقدر ما يتهيأ للكتاب من إنضاج خصائص متنه وطرح نقائصه ، يدخل العمل فيه دائرة ما عددناه آنفاً : «التحقيق – الغاية» (٣) ، هذا المصطلح الذي نفضل أن نصف به كل ما يجترحه المحقق الثبت في الإخراجة العلمية للكتاب المخطوط من :

– قراءة دقيقة لنصه .

– مقابلة بين نسخه ، ووصف للفروق الماثلة بينها .

– تعليق على مضمونه بالضروري من المعلومات .

وما دام هاجسه هو الوصول به إلى «الكمال ، أو ما يقرب منه» ، فمن واجبه إذاً : ألا تضعف وسائله في بلوغ هذه الغاية العلمية ، ما كان منها متعلقاً بالنص تحريراً وتوثيقاً ، وبالهامش شكلاً ومضموناً .

ونقول : «شكلاً» لأن من دعا إلى أن تتضمن مقدمة التحقيق إشارة عامة إلى أن ثمة فروقاً بين المخطوطات ، يستغنى بها عن العناية التفصيلية بها في هوامش المحقق ، قد رأى في تدوين عبارات من قبيل :

– ليس في : د ، ط .

(١) تنظر : الصفحة : ٦ .

(٢) تنظر : الصفحة : ١٥ .

(٣) تنظر : الصفحة :

— في د : كذا .

— ساقط من : ط .

إعاقةً للهامش وإرباكاً له (١) ، ونفهم من هذا : أن شكل الهامش مهم عنده ، وهو مهم عندنا أيضاً ، بيد أننا لا نعرف له وظيفة غير استيعابه لما يوثق به النص بأي سبيل من السبل ، شريطة : أن يعي المحقق حدود هذا الأمر وطبيعته وحجم الاستفادة منه ، فقد رأينا : أن مناهج التحقيق تختلف أول ما تختلف في جوهر هذا الوعي ، وفي أسلوب تطبيقه ، وعلى المحقق في أثناء عمله أن يرسم لنفسه خطة دقيقة للإفادة من وظيفة الهامش ، ويصدر في ذلك عن نظرية ذاتية ، إن كان قادراً على إبداع نظرية ، يطبع بها أعماله ، ومن هنا كانت ثمة نظرية تطبيقية — على سبيل المثال — لأستاذنا المرحوم مصطفى جواد في تعليقاته الثرية الشعرية ، التي يعرض فيها فوائد نفيسة ، تمثل مستوى من التعليق ، لا يتيسر الا للعلماء الكبار (٢) ولبراجع في ذلك عمله في تحقيق :

— تلخيص مجمع الاداب — لابن الفوطي . (٣)

— تكملة إكمال الاكمال — لابن الصابوني . (٤)

— الجامع المختصر — لابن الساعي . (٥)

— الحوادث الجامعة — المنسوب لابن الفوطي . (٦)

— مختصر التاريخ — لابن الكازروني . (٧)

— المختصر المحتاج إليه من تأريخ ابن الدبيثي — انتقاء الذهبي . (٨)

— نساء الخلفاء — لابن الساعي . (٩)

---

(١) عباس هاني الجراخ ، وتنظر : تعليقاتنا : ٧٥ .

(٢) مع المصادر ١ : ٨ .

(٣) دمشق — ١٩٦٢ — ١٩٦٥ .

(٤) بغداد — ١٩٥٧ .

(٥) بغداد — ١٩٣٤ .

(٦) بغداد — ١٣٥١ .

(٧) بغداد — ١٩٧٠ .

(٨) بغداد — ١٩٥١ — ١٩٦٢ .

(٩) القاهرة — ذخائر العرب — دار المعارف

وثمة نظريات عمل معروفة للمكثرين من المحققين العرب ، ونذكر منهم : عبد السلام هارون ؛ إحسان عباس ، رمضان عبد التواب ، صلاح الدين المنجد ، حاتم الضامن ، وللمجوّدين منهم ، ونذكر على وجه التحديد : محمد بهجة الأثري ، محمود محمد شاكر حسين علي محفوظ ، ولو تأتّى لكل هؤلاء الفضلاء أن يتحدثوا عن تجاربهم الذاتية في تحقيق النصوص — كما يتحدث الشعراء والروائيون وكتاب القصة عن تجاربهم — لشخصوا لنا عناصر تلك التجارب تشخيصاً دقيقاً ، ولرأينا نحن فروقاً في المناهج والأصول والتكملات الفنية في التعامل مع النصوص القديمة ، تمثل نظرياتهم الخاصة في هذا الحقل من النشاط العلمي ، وسنجد فيهم من يقول بثقة — كما قال حسين علي محفوظ أو كما نقل عن لسانه : «لقد نشر ... رسائل وكتباً ودراسات ؛ أوسعها تحقيقاً وتعليقاً ؛ أعطى صورة واضحة لمنهجه في التحقيق وطريقته في النشر ، وأسلوبه في أحياء التراث ؛ ومن رسائله التي نالت استحسان أهل الخبرة في التحقيق :

- رسالة في تحقيق لفظ الزنديق (١)
- فتيا فقيه العرب . (٢)
- شرح عينية ابن سينا . (٣)
- رسالة في الهداية والضلالة (٤)

وخلاصة منهجه : التحقيق والتدقيق والايجاز . (٥)

وتلفت نظرنا في هذا النص : إشارته إلى أهل الخبرة في التحقيق ، ولتحدد في أذهاننا تبعاً لهذه الفئة فئتان أخريان :

الأولى: فئة تصدر في بواكيرأعمالها عن خطة اتباعيّة ، تقلد فيها هذا أو ذاك من أرباب التجارب والخبرة في تحقيق النصوص ؛ بحيث يتأتى لنا بيسر أن نلتقط ملامح الاتباع والتقليد فيما نقرأ لها ، ويسهل علينا القول — على سبيل المثال لاالنقد والتقويم —

---

(١) بغداد — ١٩٦٢ .

(٢) دمشق — ١٩٥٨ .

(٣) طهران — ١٩٥٤ .

(٤) طهران — ١٩٥٥ .

(٥) حميد المطبعي — مقابلة مع حسين علي محفوظ ضمن سلسلة « الجذور » جريدة الثورة . العدد ٥٧٣٦ في ٢٣ / ٢ / ١٩٨٦ .

إن عبد الحسين المبارك في تحقيق كتاب « إشتقاق اسماء الله – للزجاجي » (١) .
يقلّد أستاذه رمضان عبد التواب ، وأن محمد نايف الدليمي في جمعه للشعر وتحقيقه ، يقلّد أستاذه نوري القيسي ، وأن مهدي عبيد جاسم ونهاد حسوبي في تحقيقهما لبعض النصوص اللغوية ، يقلدان أستاذهما حاتم الضامن .، وأن عبد الوهاب العدواني – كما وصفه أستاذه حسين نصّار سنة : ١٩٧٣ ، حين قوم عمله في تحقيق « شرح فصيح ثعلب لابن ناقيا البغدادي » ، قد نزع منازع أستاذه مصطفى جواد في التحقيق (٢) ، ولا عيب في هذا من حيث سلامته الفنية ، حين تكون لمثل هؤلاء بدوات خاصة بهم في هذا الموضع أوذاك ، يمكن أن تنمو رويداً رويداً ، حتى تستوي لاصحابها نظريات ومناهج ، تلحقهم بأهل الخبرة في التحقيق ، وتسلكهم فيهم اليوم أوغداً .

الثانية : فئة تصدر في أعمالها عن خطة اتباعية أيضاً ، تحاول أن تقلّد بها هذا أوذاك من أرباب التجارب والخبرة في تحقيق النصوص وتقعد بها قلة الاستعداد عن التطور والنضج ، ويكون في هذه الفئة من الضعفاء من لايكون على دراية كاملة حتى بأصول التقليد نفسه ، فتراه – على سبيل المثال أيضاً – : يملأ هوامشه بما ينفع ومالاينفع ، ومما لاينفع : مايظن أن العناية بوصفه من فروق نسخ الكتاب المخطوط توخ للدقة ، كالاشارة إلى ألف مقصورة كتبت طويلة في نسخة ، وإلى ميم جمعية مضمومة ، رسمت ضمتها واواً في الشعر ، وإلى تاء مثلثة بدت وكأنها تاء مثناة ، وماشاكل هذا مما لازبدة فيه ، وماهو إلا من جفاء السهو ، نعني : سهو النساخ ، والعجلة ، وقلة التثبت .

فهل لمحقق أن تسلبه هذه العيوب الصغيرة رصانته العلمية ، وحكمته في التمييز بين المهم وغير المهم ، فيزعم لنفسه : أن الأمانة والدقة تفرضان عليه التنبيه على كل شيء ، ويفوته أن المقاصد في التحقيق الذي نريده : « غاية » ، متتخلاً ، مخدوماً ، متين البناء ، ليست على هذا النحو ، لأن لكل عمل نظريته وأصوله وحدود الاجتهاد فيه ، وفي دائرة هذه الحدود تبرز حرية المحقق ؛ لتدل على شخصيته ، وحسن مواجهته للأمور ، ورؤيته الخاصة في معالجتها ، كيما يكون « محققاً ثبتاً » .

وتبقى بعد هذا كلمتان :

---

(١) النجف – ١٩٧٤ .

(٢) لدى كاتب هذه السطور تسجيل صوتي لهذا الكلام الذي جرى في أثناء مناقشة رسالة الماجستير في كلية آداب جامعة القاهرة ، وقد كان الدكتور حسين نصار مشرفاً على إعدادها

إحداهما : في مقدمة التحقيق ، والأخرى : في فهارسه ، ونحن مع المحقق الـرصين في أن تـدق فهارسه ، وتتشعب ، وتتخصص ، فإن فيها خدمة للكتاب وقارئه ؛ لاتعد لها خدمة ، فهي لاتقلّ بحال عن خدمة التهميش ، وخدمة التقديم ، وإلاّ فكيف يكون التكامل في العمل من الفه — كما يقال — إلى يائه ، وقد عرفنا من لايقدر الفهرسة حقّ قدرها ، فيأخذ على محقق كتاب « الزاهر في معاني كلمات الناس — لابن الأنباري»(١)

أنه صنع فهارس كتابه في مئتين وثلاثين صفحة (٢) ولأنه جعل للاعلام فهرسة خاصة ؛ وللشعراء أخرى ،وأنه .. وأنه ..(٣) ،وعرفنا من أهل الخبرة في التحقيق من يرى الفهرسة المفصلة منقبة من مناقب المحقق ، وهي عنده : من القواعد الحديثة ؛ الواجبة عليه، للأبواب ،والفصول والفوائد، والفرائد، وأسماء الناس، والأ مكنة ؛والأجيال والطوائف ، والقبائل ، والفرق ، (٤) بيد أنه يضرب عمل أنستاس الكرملي في فهرسه الجزء الثامن من كتاب « الإكليل في تأريخ اليمن — للحسن بن أحمد الهمداني ، (٥) مثلاً على الافتتان المفرط في وضعها ، فقد جعلها ثمانية عشر فهرساً ، للفصول ، والقواعد العربية ، والمعمرين من العرب ، والشعراء، والقوافي ، والمحدثين ، والرواة ، والعمران؛ والأسداد ، والقبور ، والمدافن ، والجبال ، والحصون ، والقلاع ، والقصور وحدها والألفاظ الغريبة ، والتأليف والمطبوعات ، والألفاظ الخاصة بالمؤلف والأمثال والأقوال المأثورة ، وأسماء المواضع ، وأسماء الرجال . (٦)

ويأخذ الناقد على هذا التشقيق تفريطه برعاية الوقت ، لأن الفهارس المألوفة في نظره:

١ — فهرس لأعلام الناس ، وفيهم : الرجال والنساء والقبائل والطوائف .

(ب) فهرس للامكنة ، وفيها : المدن والبلدان والقرى ، وتلحق بها : الأنهار والبحار والجبال والأودية .

(ج) فهرس للعمران ، وفيه ، : اشارات إلى الفرائد الفريدة الواردة في الكتاب .

---

(١) بغداد — ١٩٧٩ .

(٢) الزاهر ٢ : ص ص ٤١٥ — ٦٥٧ ، ويستخلص من هذا أن الفهارس وقعت في: ٢٤٢ صفحة .

(٣) عباس هاني الجراخ ، وتنظر : تعليقتنا : ٧٥ .

(٤) مصطفى جواد : أماليه في تحقيق النصوص ، بتحقيقنا : مجلة المورد : وتنظر : تعليقتنا الأولى ، ففيها ذكر : المجلد والعدد والتاريخ .

(٥) بغداد — ١٩٤٧ .

(٦) الأمالي : ١٢٥ ، وينظر : الإكليل ٨ : ص ص ٣٣١ — ٤٤٨ .

(د) فهرس للكتب المذكورة في نص الكتاب ، لأنها مراجع المؤلف ذكرها تأييداً أوتفنيداً ، فهي مسطورة على سبيل النقل ثم تصنع فهارس لكل كتاب بحسب مايستوجبه موضوعه ، كديوان الشعر ، وكتاب الأدب ، وكتاب الأحاديث (١) .

وهذه القاعدة جد صحيحة . بيد أن باب الاجتهاد ليس مغلقاً ، لأن هذا النوع من النشاط الفكري يمكن أن يصل إلى مسارب في داخل النص المحقق ، لاتقرّبنا منها الفهارس المداخلة بدقة ويسر وسلامة علمية ، ونحن نشير إلى السلامة العلمية في هذا الموضع ، ونعني بها : كل ماينشأ في الذهن من معناها و إيحاءاتها وظلالها ،وأقول هذا بعد تجربة ذاتية خاصة في فهرسة كتاب « شرح فصيح ثعلب — لابن ناقيا البغدادي » فقد صنعت فهارسه يوم قدّمته رسالةً (٢) جامعية أربعة عشر نوعاً : اللغة ، الآيات القرآنية ، الأحاديث والآثار ، الإمثال والأقوال السائرة ، الأشعار ، أنصاف الأبيات ، الارجاز ، الأعلام ، المجاهيل ، الجماعات ، القبائل . المواضع ، مراجع الدراسة والتحقيق ، محتويات الكتاب ، وكنت في هذا التقسيم أجرّد من حاجتي — بوصفي قارئاً للكتاب لامحققاً له — حاجة رجل آخر ، سيقرأه ويهمه أن يصل إلى مادته وصولاً سهلاً ودقيقاً ، فكيف أسدّ حاجته وحاجة قاريء مثلي لمثل هذا الكتاب؟

فاستحضرت في ذاكرتي قاعدة مصطفى جواد في فهرسة النصوص المحققة ، وكان قد عرضها علينا في أمالٍ دراسية في فن تحقيق النصوص (٣) . فوجدت أنها تلزمني بوضع فهرسة لغوية لمادة الكتاب ، فهي التي يستوجبها نصه قبل أي نوع آخر من الفهارس وأعجب — اليوم — ممن يحقق نصاً لغوياً ، ثم يخلي فهارسه من فهرسة لغوية لمتنه ، والأمثلة كثيرة على هذا التقصير ، لاحاجة بنا الى ذكرها في هذا الموضع ، وكان من المعتاد أن أفرد الآيات القرآنية لاستقلالها فهرسة خاصة وأجمع الأحاديث والآثار في فهرسة واحدة لرؤية مستقاة من علم مصطلح الحديث في دلالة : الحديث ، ودلالة : الأثر ، وتداخل هاتين الدلالتين فنياً في أذهان بعض المؤلفين ، والمثل قريب وواضح في عمل مجد الدين ابن الأثير في كتاب « النهاية في غريب الحديث والأثر » (٤) .

---

(١) الأمالي ، ايضا : ١٢٥ .

(٢) جامعة القاهرة : كلية الآداب — ١٩٧٣ .

(٣) جامعة بغداد : دائرة اللغة العربية — ١٩٦٥ .

(٤) تنظر : تعليقتنا : (٢). ص ٣٧

ولم يكن من المعتاد في نظري آنذاك أن أجمع الأمثال و الأقوال السائرة في فهرسة واحدة لأن للمثل معنىً وطبيعة ، غير معنى القولة السائرة وطبيعتها ، ولكنني جمعتها تقديراً لصيرورتهما في الحياة الاجتماعية القديمة عند العرب على حذو واحد من الوظيفة :

فهما يؤديان فعلا اجتماعياً متقارباً ، هو النقد والتربية والتوجيه ، فلا بأس إذاً في أن تجمعها فهرسة علمية واحدة ، وإن فرقت بينهما تأريخياً أسباب النشأة وظروفها ، وفنياً طرق الصياغة واساليبها .

وكان التمثل الفني سبباً لتوزيع النصوص الشعرية الواردة في الكتاب في ثلاثة أقسام

— الأشعار ، وأردنا : الأبيات المستشهد بها تامةً ؛ صدوراً وأعجازاً .

— أنصاف الأبيات ، وقد استشهد بها المؤلف صدوراً أو أعجازاً . وقد حرصت في هوامش التحقيق على إثبات الصدر الناقص أو العجز ؛ ولو جريت على إثباتها في فهرسة الأشعار لظنّ أنها مما استشهد به المؤلف تاماً إلا أن أدل على حقيقة نقصها في المتن بوضع تكملاتها في أثناء فهرسة الشعرين عضادتين (...) ؛ ولم أر وجهاً لذلك ، ففضلت حصرها في فهرسة خاصة ، مرتبة وفق حرفها الأخير ؛ صدراً كانت أو عجزاً ، ولو حصرت تكملاتها بين العضادات ، وأثبتها في مواضعها من فهرسة الأشعار التامة ، لغصّت هذه الفهرسة بالعضادات والاقواس (...) ، التي حصرت بينها أسماء الشعراء الذين استشهد المؤلف بأبياتهم ، ولم يصرح بأسمائهم .

— الارجاز ، وهي كثيرة جداً ، منها مااستشهد به المؤلف مفرداً ، ومنها مااستشهد به ثنائياً وثلاثياً ورباعياً ، ويناسب المفرد أن يوضع مع أنصاف الأبيات ، والثنائي أن يوضع مع الأبيات التامة ، ولو داخلنا بين الأبيات وأنصافها — كما ذكرنا آنفاً — لكان من الضروري أن نجعل الرجز المفرد ثنائياً بزيادة شطر من قطعته ، تجعله صدراً أو عجزاً ، أو نتركه مفرداً ، فنسأل : لمَ أكملت أنصاف الأبيات ، ولم تكمل الأرجاز المفردة ؟ ، ولو اجتهدت في أكمالها ، وذلك متعذر أحياناً ، ووضعت التكملات بين العضادات ، لتداخل الرجز المفرد بالثنائي ، ونصف البيت بالبيت ، والقوس بالعضادات والمنسوب من الأبيات والأنصاف والأرجاز بغيرالمنسوب أو المجتهد في نسبته ، وفي هذا مضطرب فني تحاميته بالفهارس الثلاثة المستقلة مع وجود شيء في الذاكرة من علم الشعر ، يفصل فنياً — أو يكاد — بين الشعر والرجز ، يمكن أن يعتمد عليه ، ويسوّغ به إفراد كل منهما في فهرسة خاصة .

أما فهارس : المواضع ، والمراجع ، والمحتويات ، فكان متوقعاً — وقد درج المحققون على صناعة أمثالها — ألا تثير أعتراضاً أو تساؤلاً ، وتوقعت أن يكون ثمة سؤالان عن فهارس : القبائل ، والجماعات ، والأعلام ، والمجاهيل هما :

— ماالفرق بين القبيلة والجماعة ؟

— ماجدوى إفراد فهرسة خاصة للمجاهيل ، تقابل فهرسة الأعلام ؟

وكان الجواب ناجزاً لدي ، أما القبيلة فمعروفة ، وأما « أرداف الملوك ، وأصحاب المعاني ، وأهل الأدب ، أهل الجاهلية ، وأهل الجنة ، وأهل الصدق ، وأهل العربية وأهل اللغة ، والبصريون ، والجبرية ، والجلساء ، والجند ، والحاج ، الداج ، والصالحون والعاقة ، والعسكر والمتصوفة — وماشاكل هذا » فليس من العلم في شيء أن نوزع هذه الجماعات ، بين : أمية ، وبكر ، وتغلب ، وثعل ، وجرم ، وحداد ، وحرماز ، وذبيان ، وسدوس ، وشيبان ، وعبد السيد ، وقضاعة ، ونهد ، ونهشل والهجيم ، ويربوع — وماشاكل هذا ، لأنّ التحقيق والفهرسة تكملة مهمة وعلميةمن تكملاته ؛ يعني التدقيق والتدقيق يعني : أن نضع كل شيء في مجراه ونصابه ، مادمنا نمارس عملاً من شروطه أن نبلغ به حد الكمال العلمي ، أو حداً قريباً منه ، وإذا كان الحيز الذي ستأخذه المداخلة بين القبائل والجماعات في فهرسة واحدة لايقلّ عن الحيز الذي سيأخذه الفصل بينهما في فهرستين مستقلتين ، فلم المداخلة ؟ ، والفصل ممكن ومسوغ علمياً ومنهجياً وطباعياً أيضاً .

والأعلام معروفون : ابن الأعرابي ، وابن سيرين وأبو الأسود الدؤلي ، وأبو تمام وأبو النجم العجلي وأحمد بن محمد الصنوبري ، والأخنس الجهني ، وأمرؤ القيس ، واوفى بن عقبة ، وجرير بن عبد المسيح المتلمس ، وجرير بن عطية ، والحسن بن عبد الله السيرافي ، ودختنوس بنت لقيط بن زرارة ، « وفلان وفلان وفلانة » ، ولكن من «الآخر ، والازدي ، وامرأة من العرب ، والراجز ، والسلولية ، والهاجوي ، واليماني مطلقاً » ، أيمكن أن يترك أمثال هؤلاء الأغفال دون أن يشار إلى صفحات ذكرهم في الكتاب . ثم ندعي : أننا صنعنا له فهارس ، تجعل مادته على طرف الثمام ؟ .

كان هذا كله اجتهاداً فكرياً ومنهجياً في حدود مايرى ويقدر المحقق أن ينجزه من الخدمة الفهرسية للكتاب ، ومن المحققين من يبلغ تقصيره في هذا المجال حدّ الاساءة إلى النص المحقق ، و لكننا لانمسك عن الاشارة في هذا الموضع إلى واحد منها ، كما

أمسكنا آنفاً عن ذكر مثال لمن يحقق نصاً لغوياً ، ثم لايصنع له فهرسة لغوية (١) ، بيد أن المثال في هذا الموضع سيكون من خارج الدائرة اللغوية ، فبين أيدينا إصدارة «دار الفكر » لكتاب « عيون الأنباء في طبقات الأطباء – لابن أبي أصيبعة » (٢) ، وهو كتاب مليء بذكر الأعلام والمواضع وأسماء المصنفات و النصوص الشعرية والفوائد العلمية المختلفة ، وقد أربت صفحات إصدارته المشار اليها على تسع وخمسين وتسعمئة صفحة في ثلاثة أجزاء ، لم تختم إلا بفهرسة طبقات للمترجم لهم في الكتاب وضعت وفق تصرف تعسفي غريب ، ولم تحو من رجال الطبقات إلا القليل القليل من أسمائهم .

فاذا عرفنا أن المؤلف قد ترجم في «الباب الرابع عشر» من – كتابه – على سبيل المثال وهو في « طبقات الأطباء في الديار المصرية » لأكثر من خمسين رجلاً (٣) ، فأن الفهرس المحقق المجهول من هؤلاء أكثر من ستة فقط ، وعذره في ذلك ؛ وفي رداءة عمله كله : أنه ومعه الناشر الذي تفضلّ عليه بنشر الكتاب عن نشرة مصرية قديمة ؛ يجهلان كل شيء عن قواعد النشر العلمي ، فلا المقدمة مقدمة ، ولا التعريف بالمؤلف تعريفاً ،ولا التحقيق تحقيقاً ،ولاالفهرسة فهرسة،لأنهما ناشران مأهوجان ،(٤) لايصدران في عملهما عن نظرية علمية وحسن فني ، فمثل كتاب « الأنباء ... » جدير بأن يعرف بصاحبه تعريفاً دقيقاً ، وتلاحق مخطوطاته في مظان وجودها ، فيؤتى بها ، ويقابل بين متونها ، وتوثق مادته ويعلق عليها ، وتفهرس فهرسة شاملة دقيقة ،ليجيىء الكتاب بعد ذلك على مايناسب قيمته العلمية ، ومكانته في المكتبة العربية ، بوصفه مصدراً شاملا ومهماً في بابه .

والكلمة الثانية من الكلمتين الباقيتين المنوه بهما (٥) آنفاً ففي مقدمة التحقيق ، وهي – فيما نزعم – مهمة وخطيرة جداً ، لأنها صلة القاريء بفكر المحقق ومنهجه في العمل ، ومن شأن الصلة أن تصنع على بصيرة ، كيما تستطيع تقديم كاتبها وجهده ، ومنهجه للجمهور بكفاءة عالية ، والاّ فلا قيمة لذ ، ولاحاجة ثمة أ إليها ، ويعني هذا أن تكون هذه الكلمة التصديرية وظيفية لاتمريناً على الانشاء ، وأن تكون ضربة ماهرة

(١) تنظر : الصفحة :

(٢) بيروت – ١٩٥٧ .

(٣) عيون الانباء ٣ : ص ص ١٣٥ – ٢٢٢ .

(٤) تنظر : تعليقتنا : (٦) . ص٢٢

(٥) تنظر : الصفحة :

للمحقق ، ويحسن بنا أن نقدم نصوصاً من مقدمات بعض المحققين ، ثم نعطي حكماً :

١ — هكذا شاءت المقادير أن يرى هذا الكتاب القيم النور ، ويكون في متناول أيدي القراء الذين طالما تشوقوا لمطالعته وحرصوا على اقتنائه ، فضاعت أمانيهم أدراج الرياح . (١).

٢ — عرف العرب كثيراً من ألوان الخيال ، ولكنهم لم يهتموا به ، ولم يقسموه هذا التقسيم الذي تعارف عليه النقاد حديثاً ، ووقفوا عندما يمكن أن يكون الخيال تداعي معان ، فحصروا دراسته في أبواب المجاز المرسل والتشبيه والاستعارة والكناية ، وهي مبنية على تداعي المعاني .. وهذه الفنون ليست غاية في ذاتها ودراستهم لهذه الموضوعات لاتكاد تخرج عن الجملة أو الجملتين ... وشغل القدماء بهذه الفنون ، وعرفوا أساليبها ، وكان اهتمامهم منصباً على التشبيه في أول الأمر ... (٢)

٣ — أصبح الحديث عن التراث في الآونة الأخيرة جزءاً من الحديث عن تأريخ الأمة وبناء حضارتها ، وتكوين وجودها ، لما يحمله هذا الحديث من تقويم لهذا الموروث وعلاقته الأصيلة بمجد الأمة ، وقد اكتسب هذا الحديث أهمية بارزة لأن الاهتمام به بدأ في مرحلة اليقظة الفكرية التي نشرت ظلها فوق ربوع هذه الأمة (٣).

٤ — من الملاحظ أن التأريخ الوظيفي لشبه الجزيرة العربيةيتمثل في العامل الجغرافي المتميز الذي ظل يحمل المتغير الثابت لهذه الوظيفة ، وأن الخصائص الواضحة التي تجلت فيها تحدد الصلة الحقيقية للبناء الحضاري والتطور التاريخي والاحساس بالمظاهر الأساسية في التكوين البشري ، فهو المكان الذي (٤) ، هيأت له القدرة الإلهية أن يحتضن دعوات التوحيد في أطرافها المتكاملة .

٥ — هذا كتاب أدب وتأريخ ، ألفه مؤلفه مدعوّاً إليه في الربع الأول من القرن السابع الهجري ليكون تعريفاً لأهل المشرق بأموال المغرب . فجاء تعريفاً ، شافياً وافياً بما أراد مؤلفه والمؤلّف له (٥) .

---

(١) محمد لمني عوض الكريم ، مقدمة : المطرب في أشعار أهل المغرب : ص : د .
(٢) أحمد مطلوب ، مقدمة : الجمان في تشبيهات القرآن : ٥ .
(٣) نوري القيس ، وحاتم الضامن ، مقدمة : التذكرة الفخرية : ٣ .
(٤) الفاضلان ايضا ، مقدمة : أسماء خيل العرب : ٣ .
(٥) محمد سعيد العريان ، مقدمة : المعجب في تلخيص أخبار المغرب : ١ .

٦ — بلاد اليمن تكاد تكون مهملة منسية ، ولم يدرس من تراثها الثقافي في شتى العلوم — ذلك التراث الذي ألفه علماؤها في الفقه واللغة والنحو والشعر وعلم الحساب والتنجيم — الإماكتب عن تراجم الرجال كطبقات فقهاء اليمن ، أو كتب الامثال ، وعن سيرة حكامها وتاريخهم ، وأما الكنوز الفقهية واللغوية والنحوية من نتاج علماء اليمن فما تزال مخطوطات ... فوددت أن أكون أول طالب علم ، ينفض الغبار عن هذا الكتاب ، ليخرج للنور ، وهو من كتب النحو لبلاد اليمن . (١)

وكفى مانقدم من النصوص ، ويمكن أن نسجل منها مالايتسع له مجال على سبيل الحشر أو الانتقاء أو الالتقاط الكيفي ، ويمكن أن نستخلص مما سنقدمه منها ظواهر فنية كثيرة ، منها في هدي ماسجلناه :

- الانشاء في الاول .
- المباشرة في التدريس في الثاني .
- التنظير الفكري في الثالث والرابع .
- الدخول فيما يتعلق بالكتاب المحقق نفسه في الخامس .
- كتابة التاريخ في السادس .

وتضعنا هذه المستخلصات في « إشكالية » فنية ، على المحقق أن يغالبها بحكمته ، فيختار المدخل المناسب إلى عمله ، وليس من حقنا أن نلزمه بشيء في هذا الصدد ، لأن تقديمه للكتاب المحقق هو فرصته الأولى لتقديم نفسه إلى قرائه ، ونحن لانشك في أن اهتبال هذه الفرصة مما يدخل في حسبانه وفكره وتقديره العلمي ، ومع هذا ، فمازلنا وسنبقى نقرأ مقدمات فجّة ، تستحق الأقلام التي حبرتها أن تؤخذ ، وتكسّر وتستتاب عن الكتابة ، لأن مقدمّات الكتب من أدب العربية ، ومن واجبها — والأمر على هذا النحو — أن تكون بمستوى هذا العبء المشرف الجليل . (٢)

الدكتور عبد الوهاب محمد علي العدواني
الموصل : ٢٦ جمادي الاولى ١٤٠٦هـ
٥ شباط ١٩٨٦ م

---

(١) هادي عطية مطر ، مقدمة : كشف المشكل في النحو ١ : ٧ – ٨ .
(٢) نقول وقد نجز البحث : إننا لم نر ضرورة أن نلحق به جريدة مصادر ومراجع ، فقد استوفينا ذكر الكتب بأسمائها وأسماء محققيها وسنوات طبعها ومواضعه في السياق ؛ متناً وهامشاً .

نفسية جرير من خلال النقائض

د. جليل رشيد فالح
كلية الآداب / جامعة الموصل

بواعث البحث :

اعتادت دراساتنا الاكاديمية في تاريخ الأدب ان تعتمد جملة من الاخبار مادة مسلما بها تردد على الاسماع جيلا بعد جيل، الى جانب جملة من النتاج الادبي شعراً ونثراً تدرس دراسة تقليدية قائمة على بيان ماوضح من المعاني والافكار دون التوغل في اعماق هذه النصوص واستكناه عالمها الداخلي والربط بين مقدماتها ونتائجها، ومن غير استرشاد بأسس التمييز بين صالح هذه المادة وفاسدها ،ومقدار دلالة هذا النتاج على نفسيات أصحابها من خلال الرموز والشيات، وموحيات الألفاظ والتراكيب الفنية ،وكذلك مقدار الترابط بين الواقع الذي يحياه الشاعر والناس وبين مضامين هذا النتاج الأدبي .

كل هذه الأمور مازالت غائبة عن مناهج دراستنا للأدب العربي، مما يجعل مثل هذه الدراسات عقيمة الفوائد غير مفضية الى مايتوخى في هذه الدراسات من نتائج تربي العقول على الاستنباط والتوغل في اعماق النصوص ومدارسة اجوائها الداخلية، أو ان

تربي النفوس على تذوق الدلالات واللمحات الفنية والصورة الجميلة البارعة بايحاءاتها وملامحها الحية، او ان تعوّد الدارس على عدم التسليم بالمقولات والاحكام الجاهزة التي تمثل تصورات معينة بمقاييس نقدية خضعت لتطور الحياة في مختلف مضاميرها. ومن جملة ماتداولته مصادرنا الأدبية موضوع النقائض بين المثلث الأموي جرير والفرزدق والأخطل، وما افاضت فيه من حديث يشكل في اغلب مادته اسرافاً يصور الموضوع على انه صدى عميق لمعركة كان لها ايغال في عمق الزمن وامتداد في رقعة الحياة العربية الاسلامية، كما ان هذه الدراسات قد رسمت للدارسين صورة سلبيّة لهذه الحياة من خلال مادة النقائض حين ارادت ان تشخص – وبعنف مسرف – قوة الانحراف في اخلاق الناس وسلوكهم وعقيدتهم، مما جعل مجتمعاتهم تنبت مثل هذا النبات السيء المتمثل في هذا اللون من الشعر بحيث ترحب به وتجعله مادة من مواد المقارعة بين القبائل التي عادت الى الجاهلية اعنف ماتكون العودة وانقلبت على قيمها ومثلها اسوأ مايكون المنقلب.

ان مادة النقائض مادة كثيرة لاسبيل الى التنكر لها أو حملها على محمل الانتحال. فذلك أمر ينوءبه الكاهل ولا يفضي الى نتيجة، بل الذي نود ان نثبته ان هذه المادة الوفيرة هي من نتاج اناس معدودين زاغت بهم الفطر السليمة والتاثت عليهم سبل الحياة السديدة فركبوا هذا المركب الصعب، ولم يسعهم ان يزيحوا عن انفسهم عناء التخلي عن ذلك المسلك... فلقد اورثهم ذلك شيئاً من الشهرة التي تتطلبها النفوس المنحرفة وهي لاترضى بشيء من سواء الحياة بقناعة النفس الرضيـــة.

ويبدو ان هؤلاء الشعراء الذين تولوا كبر هذه المعركة لم يكونوا يحسنون شيئاً غير هذا الصنيع الذي كانوا به يعتاشون احياناً، وبه يرضون مطالب نفس لاتشتهي غير نفث هذه الألوان الغريبة من القول؛ فتضمنها قصائد النقائض وهي حقاً غريبة على اسماع العربي الذي لم يورثه اجداده الشعراء من هذه الألوان شيئاً.

انني استدرك القول ان النقائض فنا للمقارعة بين خصمين لم يكن مجهولا عند العربي. كما استدرك القول في الموضع نفسه ان الهجاء الذي يشكل ركيزة النقائض لم يكن هو الآخر فناً غريباً على اسماع العربي، ولكن السمة الجديدة التي نحن بصدد دراستها من خلال شخصية جرير – كما يشير العنوان – هي هذا الايغال المسرف في الفحش بحيث يحس المرء ان كانئاً غريب الوجه واليد واللسان – على حد تعبير المتنبي – قد ولج ميدان الشعر العربي على غفلة من حماته وحراسه.

لقد اصبح لزاماً على الباحث المعاصر – وهو يدرس موروثه الأدبي والفكري والانساني ان يبتعث الى الحياة مايدعم مسيرته الحضارية لبناء الانسان على اقوم الأسس من قيم هذه الامة ومثلها العليا التي تشكل معالم حياتها المتميزة ، وفي الوقت ذاته لابدله ايضاً ان يكشف عن مواطن الضعف والزلل والانحراف في جملة ذلك الموروث ليتبين الدارس والقارىء من عملية الكشف هذه اموراً ثلاثة:

أولهـا: قطع دابر عناصر الهدم، والحيلولة دون تسربها الى الحرم الأدبي والفكري في حياتنا الراهنة ، ومنع تكرار مااعتور مسيرة الأدب من زيغ وانحراف، لتبقى صفحات ادبنا العربي ناصعة نصاعة ولادتها على الارض العربية، ونصاعة المبادىء والقيم التي حمل امانة ابلاغها الى الاجيال التاليـــة:

وثانيهـــا: التنبه الى شذوذ هذه الظاهرة في أدبنا العربي، كما تنبت في أي مضمار آخر مظاهر أخرى تدل على الشذوذ الذي لايشكل قاعدة اويطغى على مساحة كبيرة.

وثالث هذه الامور : محاولة تحديد مفهوم الالتزام بالموازنة بين المبادىء والقيم والمثل كنظريات وبين التطبيق العملي لكل ماارتضاه الانسان لنفسه في واقع الحياة بحيث يكون هذا التطبيق صورة صادقة لتلك النظريـــات.

ان ملامح الافحاش ضئيلة المقدار في مادة النقائض بالنسبة الى عموم القصيدة، وقليل كذلك عدد أولئك الشعراء الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا أهل هذه الضلالة.. فما عرف الناس من رجال هذه المعركة غير جرير والفرزدق والأخطل...

أن هناك بواعث تكمن في تضاعيف حياة هؤلاء دون غيرهم من الكثرة الكاثرة التي شاعت لفن النقائض أن يأخذ مساره الطبيعي كما اخذ أي فن آخر مساره في حياة ادبنا العربي قبل الاسلام وبعده.

ومن خلال ماتوارد من اخبار هؤلاء الثلاثة فان ملامح سلوكية معينة تحدد شخصية كل منهم متميزة عن الآخرين ،حتى جعلوا الفرزدق فاحش الخلق بذيء اللسان لايرعى لأحد حرمة في قول او مسلك، الى جفاف في المشاعر وقسوة في الطبع، ثم عرجوا على جرير ليجعلوه مثال الورع والتقوى والعفة وطهارة النفس. وقد جرت الدراسات العديدة تبدىء وتعيد في أن الفرزدق هذه سماته وان لجرير من السمات مايميزه عن صاحبه، وقد وقفت عند هذا الأمر ملياً، اقلب الاخبار على وجوهها، واتصفح من مباحث الدارسين قديماً وحديثاً مأيوحي إلي بشيء من القناعة بصواب ماذهبوا اليه مقارناً ذلك بما حفلت

به الدواوين والمصادر من اشعار هي الأخرى صور لهؤلاء الشعراء قد تكون اصدق في الحديث من اخبار الرواة وقصصهم.

ولقد استأثرت سيرة جرير بشيء من اهتمامي حيث كنت اجدني على غير قناعة مما يقال من أمر ورعه وتقواه .

ذلك أن لنا مقاييس في القيم والاخلاق هي التي توزن بها اعمال الرجال فيما يأتون من قول او فعل، فاذا ماتحققت الموازنة صدقت كل مقولة، واي اختلال في الموازنة بين النظرية والتطبيق او القول والسلوك انما يدعونا الى مبحث جديد يعاد فيه النظر لتقويم الشخصية الأدبية او التاريخية التي نحن بصدد دراستها.

وجرير محور دراستنا هو ثالث الثلاثة الذين كانت حياتهم مرتبطة بالنقائض ومعركتها ارتباطاً مصيرياً، وكانت معركة النقائض هي المضمار الذي تتكشف من خلاله النفسيات وماتضمر بين طياتها وخباياها.

وهدف البحث الرئيسي هو تحديد مقدار الموازنة او خللها في حياة جرير بين سلوكه من خلال ماعكسه فن النقائض وجملة من اخباره وبين دعوى الورع والتقوى والعفة.

موازين اسلامية :

يهدف الاسلام الى بناء الانسان بناءاً متميز الملامح ويمنحه من السمات ما يخلق في مجمل حياته تساوقاً بين النظرية والتطبيق ،وان اي اختلال او اضطراب في السلوك يعرضه صاحبه الى حساب دنيوي وأخروي ، لانه اختلال يصيب تلك الموازنة التي يريد الاسلام تحقيقها في واقع حياة المسلم.

والقرآن الكريم يقدم لنا هذه الحقيقة صريحة واضحة في قوله تعالى : « ان الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر» (١).

ولذلك ينبغي ان يكون للأيمان ومتطلباته من عبادات مختلفة اصداء عملية في مجمل حركة المسلم على صعيده الذاتي او الأسري او الاجتماعي، في سلوكه ومعاملاته وعلاقاته وسائر ممارساته في الحياة .

كما يشير القرآن الى فضاعة الأثم الذي يتورط فيه المسلم ببعض الممارسات غير الاخلاقية ، ومن ذلك رمي المحصنات البريئات بالتهم الشنيعة التي من شأنها ان تهدم الكيان الاجتماعي وتعرض المجتمع الى اضطراب وهزات عنيفة.

(١) سورة العنكبوت ٤٥ .

قال تعالى :

«ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيـــم » (١).

وبين ايدينا جملة وافرة من أحاديث رسول الله – ص – تشير الى وجوب تحقق المعاني الايمانية في سلوك عملي يرتبط بحياة الانسان فرداً ومجموعاً، وحرص على ان يكون الالتزام واعياً من أجل ضبط هذه الموازنة بين النظرية والتطبيق.

فقد حرم الاسلام الهجاء المقذع ، وفي ذلك يقول الرسول «ص» «من قال في الاسلام هجاء مقذعا فلسانه هدر» (٢) .

ويشير في حديث آخر الى دور اللسان كأداة تعبير في حياة الانسان وتحديد موقعـــه الاجتماعي ، ومدى خطورة مايتفوه به ، وما يقتضي من ضرورة ضبطه ضبطاً لايفضي بصاحبه الى الهلاك .

«عن عقبة بن عامر قال : قلت يارسول الله ما النجاة ؟ قال : أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك وابك على خطيئتك » (٣) وفي الموازنة بين سلوك حسن وآخر نقيضه يقول الرسول (ص) : ما شيء اثقل من في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وان الله ليبغـــض الفاحش البذيء » (٤)

وفي تلمس آثار الورع والتقوى في حياة المسلم وفي حياة الآخرين الذين يعايشهم ذلك المسلم يوضح لنا الرسول (ص) خطوط هذه المعايشة وملامحها وما ينبغي لها ان تكون . قال (ص) : « المسلم اخو المسلم لايظلمه ولايخذله ولا يحقره ، التقوى ههنا» ويشير الى صدره ثلاث مرات . بحسب امرىء من الشر ان يحقر اخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» (٥)

كما نهى الرسول (ص) عن السباب ، وحمل البادىء به مسؤولية البدء بإثارة فتنة غير محمودة عواقبها ، ثم حمل المظلوم مسؤولية مماثلة اذا لجأ الى الاعتداء والثأر لنفسه ،

---

(١) سورة النور ٢٣ .
(٢) العمدة ١٧١ .
(٣) الجامع الصحيح – الترمذي ٦٠٥
(٤) المصدر نفسه ٣٦٢ .
(٥) صحيح مسلم ٤ / ٩٨٦ .

حيث روى ابو هريرة ان رسول الله (ص) قال : «المستبان ما قالا فعلى البادىء ، ما لم يعن المظلوم» (١)

من خلال هذه التوجيهات السديدة التي رسم الاسلام خطوطها العريضة واضحة جلية يتبين لنا مدى الحدود التي ينبغي للمسلم ان يتحرك ضمن اطارها ... هذه الحدود التي وجدت لصيانة الانسان من العبث والتجاوز والاعتداء على محرمات الناس ، ولبنائه في اقوم هيئة وأمثل صورة ، مما يعكس المثل الاسلامية النظرية في صيغة تطبيقية عملية ، وان الخروج على هذه الحدود يعرض المرء للحساب ، في الوقت الذي يشير الضؤ الاحمر الى انحرافه عن المسلك الاقوم وتجاوزه الحد المسموح له .

وحين يتم هذا التجاوز باختيار الانسان و محض ارادته ، بل يزداد مع الأيام ضراوة وشدة تتهاوى السمات الايمانية واحدة اثر اخرى ، وتنأى عن المتجاوز كل خصائص الورع والتقوى . وفي ضؤ هذه الاحكام يكون تعاملنا مع جرير الشاعر الموصوف بالورع والتقوى والذي جاءت جملة اخباره وأشعاره تشير الى تجاوز يتنافى مع ما اوردناه آنفاً من موازين وقيم وتوجيهات .

النقائض ، والرأي الراجح في دوافعها :

لم يكن فن النقائض وليد العصر الأموي وأنما يضرب بجذوره الى عصر ما قبل الاسلام خاضعاً في تناميه وذيوعه الى ظهور الفحول من شعراء الجاهلية في خضم العصبيات القبلية وفي ظل الأيام والحروب ، وكان ظهوره في ذلك العصر امراً طبيعياً ، فهو نتاج للطبيعة الخاصة التي اتسمت بها حياة العرب آنئذ .

ولذلك لم يكن ذلك الفن من الظواهر التي تلفت الانظار باكثر مما تأخذ الظاهرة الشعرية عامة من اهتمام الناس ، فهي جزء من حركة الشعر التي هي موضع العناية والاكبار .

واستأنف هذا الفن مسيرته في عصر صدر الاسلام مؤدياً دوره في هذا الصراع الذي نشب عنيفاً بالغ العنف بين المسلمين والمشركين مسترشداً في ذلك هدي الاسلام ومثله .

والهجاء في فن النقائض هو عصبه النابض ومادة وجوده وكيانه ، ولكن الهجاء لم يخرج عن وظيفته الاساس المقبولة عرفاً وذوقاً في كونه اداة لتشخيص المثالب المرفوضة وممارسات الحياة المستهجنة التي تجلب المعرة لمن يوصم بها «فلم تنحط النقائض الجاهلية الى درجة الاسفاف الخلقي كما حدث ايام الأمويين ، ولم تهدر حدة العصبيات جميع

---

(١) المصدرنفسه ٤ / ٢٠٠٠ .

مابين القبائل من حرمات ، وانما لاحظنا فيها بقيا على القرابة ورعاية للحرمات ، ووقوفاً في الهجاء عند صفات الجبن والبخل والفرار بحيث لاتخجل المرأة من رواية النقائض الجاهلية والمشاركة فيها ، اذا كانت اطهر معاني وأبعد عن ذكر العورات والكلمات النابية المكشوفة» (١)

وقال خلف الاحمر : «اشد الهجاء أعفة واصدقه» (٢)

وقال الجرجاني صاحب الوساطة : «فأما الهجو فأبلغه ماخرج مخرج التهزل والتهافت وما اعترض بين التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه وسهل حفظه واسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس ، فأما القذف والافحاش فسباب محض وليس الشاعر فيه إلا إقامة الوزن (٣)

وبذلك يمكن ان نعد فن النقائض في العصر الأموي ظاهرة أنحراف ، وطريقة ملتوية لتوظيف فن الهجاء توظيفاً أبعده عن اداء دوره الطبيعي مع بقية فنون الشعر وأوغل بـه في التجريح بغير حق ، فقد نال من الاعراض وثلم من الحرمات ، وافاض في الايذاء على صورة لم يكن للشعر الهجائي عهد بها من قبل .

ولقد قال الباحثون في دوافع النقائض اقوالاً متعددة كثيرة ، وقد توزعت هذه الدوافع عند الدكتور محمود غناوي الزهيري بين سياسية واجتماعية وأدبية (٤)

والدكتور مصطفى الشكعة جعلها بين سياسية وقبلية وذاتية اي شخصية (٥)

اما الدكتور شوقي ضيف فيرى ان العوامل تارة اجتماعية واخرى عقلية (٦)

ويضيف اليهما عامل الرغبة في تسلية الجماعة العاطلة في البصرة والكوفة (٧) ويذهب الدكتور محمد مصطفى هدارة الى أن النقائض «عبارة عن هجاء دائم مستمر ، وعبارة

---

(١) تاريخ النقائض في العصر الاموي ١٢٥ .
(٢) العمدة ١٧١ .
(٣) الوساطة ٢٤ .
(٤) نقائض جرير والفرزدق – دراسة ادبية تاريخية – الفصل الخامس والفصل السادس والفصل السابع .
(٥) رحلة الشعر من الاموية الى العباسية ٢٣ .
(٦) العصر الاسلامي ٢٤١ .
(٧) العصر الاسلامي ٢٥٠ .

عن احتراف لفن الهجاء ، لم يكن يراد بها الجد ، كما كان شأن الهجاء في الجاهلية ، ولكن يراد بها الضحك والالهاء» (١)

وحين يتحدث طه حسين عن ظاهرة الهجاء عند جرير يوضح الدافع الذاتي فيقول « .... غرضه الاساس اذا هجا ان يضحك من صاحبيه سواء اقال الحق ام لم يقله وسواء كان جيد اللفظ والمعنى ام لم يكن» (٢)

اما الدكتور عبدالمجيد المحتسب فيرى ان النقائض «من ثمرات اصطراع العصبيات القلبية (٣) وان بقية الدوافع لم تكن الا مضاعفات (٤)

ثم يعود ليوسع دائرة الدوافع بين جرير والاخطل بشكل خاص فيجعلها بين اقتصادية وشخصية وفنية وسياسية وعصبية واجتماعية . (٥)

اننا ازاء هذه الآراء التي عرضت لدوافع النقائض ينبغي ان نأخذ بنظر الاعتبار ملحظين مهمين :

اولهما : ان هذه الامور التي جعلها الباحثون دوافع او عوامل انما هي وقائع واحداث وسمات تتأرجح بين الحقيقة والافتعال جعلها شعراء النقائض مادة تمدهم بطول النفس في بناء القصيدة ، وجعل ذلك من حوافز القول التي تحقق الغلبة والفوز ليس الا .

وثاني الأمرين : أن الدافع الأساس الذي ارجحه والذي اعده المحور الذي يدور عليه رحى هذه المعركة المفتعلة هو ذاتي شخصي نابع من الاستعداد النفسي الذي يجعل الشاعر مندفعاً من غير ان يردعه رادع او يقفه وازع .

ان الاستمرار في هذه المعركة يدل على استعداد ذاتي وتهيؤ نفسي وخصال لا يملكها كثير من الناس بل الشعراء .

من هنا انفذ إلى اعماق جرير الذي هو ثالث الثلاثة الذين بقوا في هذه الحومة بعد ان انسحب الآخرون .

واغلب الظن ان انسحابهم كانت له دلالة اخلاقية حيث لم يشاؤوا ان يستأنفوا المقارعة تعففاً وتأثماً ، فليس بمقدور الآخرين ان يكونوا على شاكلة هذا الثالوث غير المتورع عن الفرية ورمي المحصنات .

---

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ٤١٩ .
(٢) من تاريخ الادب العربي ٦٥٨ .
(٣ - ٤) نقائض جرير والاخطل ٦٦ .
(٥) المصدر نفسه ٦٧ .

ان هذا الدافع الشخصي البحت هو المصدر الوحيد الذي كان يغذي هذه المطاولة أو هذه المباراة المشروعة في اطار ذلك المجتمع الذي لم يكن كل افراده يستهويهم ذلك ، مع اننا لا نستبعد ما ذهب اليه الرواة من ان الناس كانوا يتحلقون حول ابطال التقائض يستمعون اليهم ويصفقون للمبدع منهم حين ينتصر على خصمه في نقض فكرة او ايراد معنى مبتكر ، حتى اصبحت هذه الظاهرة تحترف احترافاً (١) .

وكان الابتكار يعتمد خلق صورة كاريكاتورية لمعنى فاحش موغل في الفحش مؤذ غاية الايذاء .

وللتدليل على فردية الدوافع او ذاتيتها ان شاعراً من سليط اليربوعية يسمى غساناً هجا جرراً فسقط عليه بهجاء مرير فاستغاث منه بالبعيث المجاشعي فانصب عليه جرير هو الآخرير بشواظ من هجائه . وقد افحش بنساء مجاشع افحاشاً شديداً جعلهن يستغثن من بالفرزدق (٢) .

واذا ما استعرضنا مواقف جرير والفرزدق في خضم التيارات السياسية لوجدنا عدم ثبات تجاه أحد منهم بحيث يدافع عنه بحماس او يخلص لمبدأ التزم به وأصبح علامة بارزة في حياته .

«فقد كانا زبيريين ما استقام الأمر لآل الزبير ، ... وان عبدالملك لم يأذن لجرير بالدخول عليه الا بعد ان سمع شهادة الحجاج بأنه لم يكن ممن والى ابن الزبير ولا نصره بيده ولا لسانه (٣) .

« .... وحينما تتحد قيس وتميم تحت راية المضرية ضد الربعية واليمانية يقفان موقفاً واحداً من ولاة الدولة» (٤) .

«.... وان جريراً باعتباره خصماً للأخطل اضطر إلى الوقوف بجانب قيس عدوة تغلب ليتخذ من مآثرها وأيامها التي كانت لها على تغلب مادة يهجو بها الاخطل وقومه» (٥) .

---

(١) ينظر – التطور والتجديد في الشعر الاموي ١٦٤ .
(٢) طبقات فحول الشعراء ٣٨٦ – وللوقوف على التفاصيل يراجع « نقائض جرير والفرزدق » لأبي عبيدة ٣٧ – ٣٨ وينظر العصر الاسلامي ٢٤٣ .
(٣) نقائض جرير والفرزدق – غناوي ٢١١ .
(٤) المصدرنفسه ٢١٣ .
(٥) المصدر نفسه ٢٢١ .

جرير وآراء في سيرته :

ليس من شأن هذا البحث ان يفيض في تفاصيل سيرة جرير ، وانما سيلم بتلك الجوانب الحساسة الدقيقة بالقدر الذي يتصل بنفسيته التي نحن بصدد دراستها .

قال أبو عبيدة : «يحتج من قدم جريراً بأنه كان اكثرهم فنون شعر وأسهلهم الفاظاً وأقلهم تكلفاً وأرقهم نسيباً وكان ديناً عفيفاً» (١) .

وسئل عبيدة بن هلال ... فأي الرجلين عندك أشعر ؟ أجرير أم الفرزدق ؟

فقال : لعنكما الله ولعن جريراً والفرزدق ، أمثلي يسأل عن هذين الكلبين» (٢) .

وقال فيه الفرزدق : «قاتله الله فما اخشن ناحيته وأشرد قافيته ، والله لو تركوه لأبكى العجوز على شبابها ، والشابة على احبابها ، ولكنهم هروه فوجد عند الهراش نابحاً وعند الجراء قارصاً» (٣)

قال صاحب الاغاني : «كان جرير من اعق الناس بأبيه وكان بلال ابنه اعق الناس به ، فراجع جرير بلالا الكلام فأقبلت أمه عليه وقالت له : ياعدو الله اتقول هذا لأبيك ؟ فقال جرير : دعيه فوالله لكأنه سمعها مني وأنا اقولها لأبي» (٤)

قال هشام بن عبدالملك لشبة بن عقال ، وعنده جرير والفرزدق والأخطل ، وهو يومئذ أمير ، الاتخبرني عن هؤلاء الذين فرقوا اعراضهم وهتكوا استارهم وأغروا بين عشائرهم في غير خير ولابر ولا نفع ، أيهم أشعر ؟» (٥)

ثم طلب من خالد بن صفوان ان يصفهم فوصفهم وصفاً شاملاً ، حتى اذا بلغ جريرا فمن جملة ماقال عنه انه «اهتكهم لعدوه سترا» (٦)

---

(١) الاغاني ٨ / ٥ .
(٢) الاغاني ٨ / ٧ .
(٣) الاغاني ٨ / ١ .
(٤) الاغاني ٨ / ٧٤ .
(٥) الاغاني ٨ / ١ .
(٦) الاغاني ٨ / ٨٢ .

حضر جرير مجلس الوليد فأنشده شعراً في ابن الرقاع ، «فقال له الوليد لاكثّر الله في الناس امثالك ، فقال له جرير : ياأمير المؤمنين انما انا واحد قد سعرت الأمة فلو كثر أمثالي لافنوا الناس» (١)

قال ابن قتيبة : «وكان مع حسن تشبيبه عفيفاً» (٢)

«وحكى ابو عبيدة قال : « كان جرير مع حسن تشبيهه عفيفاً وكان الفرزدق فاسقاً» (٣)

وقال ابن رشيق : «وجميع الشعراء يـرون قصـر الهجـاء اجـود ، وتـرك الفحش فيه أصوب الا جريرا ، فانه قال لبنيه اذا مدحتم فلا تطيلوا المـمادحـة ، واذا هجوتـم فخالفـوا» (٤)

هذه طائفة من اقوال القدامى عن جرير تكشف لنا عن نفس قد انطوت على جملة من خصال غير محببة الى النفس تتنافى مع الموازين التي حددها الاسلام والزم اتباعه أن يصوغوا وجودهم خلقاً ومسلكاً وفق منهاجها ومقتضاها .

ولعل المحدثين قد جروا في مضمار القدامى حين تحدثوا عن جرير ، فمنهم من أعاد ماقالوا من غير تحديد ميزان يزنون به الرجال في اقوالهم وسلوكهم ، فافتقاد الميزان من ثغرات المباحث التي اعتادت ان تلقي الكلام على عواهنه من غير تمعن او تدبر لما يقع فيه الباحث من خلط واضطراب وتناقضات

قد يكون في الباحثين من يركز على مظاهر الانحراف وينبه عليه ويجسد ملامحه بوضوح . يقول بلاشير :

«وكانت براعته قائمة على تطويع آرائه حسب مصلحة انتهازية حذرة» (٥) .

ويقول ذلك : «فقد اجتمعت في جرير عجرفة وكبرياء حد الوقاحة ، وهوان أمام الكبراء ، وضعف همة قد يثير غيابه العجب» (٦) .

---

(١) الاغاني ٨ / ١٠ .
(٢) الشعر والشعراء ٤٣٧ .
(٣) وفيات الاعيان ٣٢٢١ .
(٤) العمدة ٢ / ١٧٢ .
(٥) تاريخ الادب العربي ٣ / ٤٢ .
(٦) المصدر نفسه ٣ / ٤٧ .

ويبدو في حديث الدكتور شوقي ضيف كثير من التناقض في دراسته لسيرة جرير ، فهو تارة يقول :

«وأما جرير فلم يكن لعشيرته ولا لآبائه شيء من المآثر الحميدة ، فانطوت نفسه على حزن قد صفى جوهرها وزادها في هذا الصفاء تأثره بالاسلام اذا كان ديّناً عفيفاً طاهر النفس» (١) .

ويورد عنه الرائية لزوجه ، ويريد بذلك ان يقيم برهاناً على مسلكه الورع فيقول «... وهو يدعو لها دعاء المسلم المؤمن قلبه» (٢) .

ثم يعود ليجعل لجرير مميزات التفوق فيقول :

«وهو لذلك سبق الأخطل والفرزدق في الرثاء والغزل وعواطف الزوجية والابوة ، وهو كذلك يسبقهما في الهجاء الخالص ، اذا كان يعرف كيف يريش سهامه ويسددها إلى نحور خصمه محملا لها ما يمكن من سموم» (٣) .

ولعل القارىء يحس بالفرق الكبير بين ما اورده شوقي ضيف في اول حديثه من سمات تحبب الرجل إلى الناس وما اورده في غير ذلك الموضع من سمات تبغضه إلى الناس ، فالنفس المفعمة بالدين والعفة والطهر لا يمكن ان تختزن سموم الأحقاد او تريش السهام لتصيب الناس في حق أو غير حق .

والدكتور نعمان محمد أمين يرسم صورة أخرى لجرير يتبين من خلالها رجلا لم تلامس قلبه أية مسحة من ايمان او ورع ، ذلك أنه «ركز هجاءه الساخر لاعدائه كالفرزدق ، والأخطل وتميم في المرأة يكاد يشرحها تشريحاً ويجعلها عارية كيوم ولدتها امها نهباً للأنظار ، ويكاد يصف العملية الجنسية وصفاً بعيداً عن الخجل والحياء ، ... وحينئذ يعجب القارىء ويستولي عليه الدهش من ذلك » (٤) .

ويرجع الدكتور نعمان محمد أمين اسباب الدهش الى ان جريراً عميق التدين ، ولكنه جمع الى ذلك اصلا وضيعاً وورث عن خاله الحمق ، مما جعل عقدة النقص تتحكم فيه فيهتاج كالمجنون ليشفي من الناس غليله . (٥)

(١) العصر الاسلامي ٢٨٦ .
(٢) المصدر نفسه ٢٨٦ .
(٣) المصدر نفسه ٢٨٨ .
(٤) جرير - حياته وشعره ٣٨٣ .
(٥) المصدر نفسه ٣٨٣ .

وكان الدكتور مصطفى الشكعة ممن وقع في ما اشرنا اليه من تناقض ، وذلك في حديثه عن جرير حيث قال : « ان لجرير مثلا علياً يستمسك بها ، وهـو يعلم ان المجتمع الذي يعيش فيه يحمد له صفاته ، ويمجد استقامته ، ومن ثم فانه يركز على انحراف الفرزدق في ابيات قوية تلفت الناس اليه فيحكمون له ضده » . (١)

الانه في موضع آخر يعلق على أبيات لجرير في الفرزدق بقوله : « .... الى آخر تلك الأبيات الموغلة في الافحاش، المليئة بكل قبيح من اللفظ مستنكر من العورات»(٢)

من هذه المجموعة من الاقوال تتبين لنا بوضوح الخطوط الرئيسة لهذه الشخصية ، الفريدة من نوعها ، ذلك انه رجل محظوظ ، حين يوغل هذا الايغال العميق في الايذاء ثم يكون موضع تقدير الباحثين واكبارهم مميزاً عن لداته وشركائه بالورع والتديـن والعفة .

ومن خلال ماسبق اتضحت امامنا خطوط الانحراف النفسي والزيغ عن جادة التدين اكثر عمقاً وابرز دلالة .

جرير ومعركة النقائض :

مهما يكن من أمر ماقيل في نشأة النقائض في العصر الاموي ، فان الرأي الذي رجحناه في دوافع ذيوعها وتحولها الى ظاهرة تسلية ووسيلة اضحاك وامتاع هو أن الدافع الذاتي او الشخصي كان الباعث على تنامي هذا الفن وذيوعه وانتشاره وولع الناس به واقبالهم على شهوده وكأنهم يقبلون على مباراة تنتهي بغلبة فريق على آخر بوسيلة من الوسائل :

ان جريراً دخل ميدان المطاولة واثبت من القدرة ماجعله متميزاً عن صاحبيه .

والبدايات تشير الى تفاهة الدوافع ، بحيث ان موقفاً لايتصل بسبب الى قبيلة ، اوان يخدش سمعة يستطير فيه الهجاء ويكون شراره لنار مضطرمة سنين طوالا لم يثأر خلالها لكرامة ولادوفع فيها عن عرض ولادل على وجود خصومة ، بدليل ان ماقيل من اشعار لم يكن سبباً في معركة حقيقية تسفح فيها الدماء وتزهق في اتونها الارواح ، وكأن جمهـرة كبيرة من الناس لم تكن لتعير هذه اللعبة المقيتة اهتماماً ، بـل كان ذلك مسرحاً لامتاع نفر من الناس كانوا يلهون ويسمرون .

---

(١) رحلة الشعر من الأموية الى العباسية ٥٢ .
(٢) المصدر نفسه ٥٣ .

واذا كان السبب المباشر لمبدأ مناقضات جرير مع الفرزدق يسرر بعض التبرير اندلاع المعركة بينهما ، فأن ماورد بشأن مهاجاته للأخطل لايمكن ان يعد مبرراً مقنعاً البتة .

يروي ابن سلام في طبقاته « ان الفرزدق والاخطل وجريراً اجتمعوا عند بشر بن مروان ، وكان يغري بين الشعراء ، فقال للأخطل : احكم بين الفرزدق والاخطل ، فقال : اعفني ايها الأمير ، فقال : احكم بينهما ، فاستعفى بجهده ، فأبى الاان يقول ، فقال : هذا حكم مشؤوم : الفرزدق ينحت من صخر . وجرير يغرف من بحر ، فلم يرض بذلك جرير ، وكان سبب الهجاء بينهما » (١)

ان هناك روايات اخرى الى جانب هذه الرواية تقفنا على بواعث استثارة الهجاء بين جرير والاخطل . كلها غير مقنعة لأن تكون سبباً مباشر لعداء او خصومة .

الأن شوقي ضيف اراد ان يجعل وراء هذه الظاهرة خصومة قبلية بقوله :

«.... اذ كان الاخطل لسان قومه تغلب ، بينما اتخذت قيس في المربد جريراً لسانها فكان من الضروري ان يصطدم اللسانان المعبران عن الطرفين » (٢)

وحتى ان الاخطل نفسه لم يكن مقتنعاً بجدوى هذه المعركة التي تورط فيها ، ويظهر ذلك من قوله : حين سئل عن جرير بالكوفة « دعوا جريراً اخزاه الله فأنه كان بلاءً على من صب عليه »... (٣)

ازاء هذه التعليلات والبحث عن الاسباب الكامنة وراء هذه المعارك نريد ان نقول ان جريراً وجد في الاخطل وقد قدم ليقف على حقيقة المعركة المستثارة بين الفرزدق وجرير — خصماً جديداً تمنى ان يقحم في هذه المعركة بأي صورة . وهذا الخصم شاعر له مكانته المعروفة وقدمه الراسخة في ميدان الشعر . اذن هي الفرصة المثلى لاثبات التفوق . في الوقت الذي لايفكر فيه جرير تفكيراً جدياً في ان الاخطل من تغلب وان جريراً من قيس ، ليكون الخلاف او الخصومة بين القبيلتين من دواعي التهاجي . وليس من شأن جريراً ان يندفع باخلاص لنصرة قومه من حيث ان ذلك واجب يؤديه او موقف لابد له ان يقفه .....

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٤٧٤ .

(٢) التطور والتجديد في الشعر الاموي ١٦٩ .

(٣) طبقات فحول الشعراء ٣٧٥ .

« ولج الهجاء نحواً من اربعين سنة لم يغلب واحد منهما على صاحبه ، ولم يتهاج شاعران في الجاهلية ولا الاسلام بمثل ماتهاجيا به » (١) .

ان جريراً يتحرك خارج دائرة الالتزام السياسي او القبلي ، وقد سبقت الاشارة الى مواقفه المضطربة في الانتماء السياسي والقبلي ، وكل مايدور في ذهنه ان ينهض ازاء خصمه التقليدي ضمن دائرة الفن الشعري شاعراً لايشق له غبار . يقول في ذلك الخصم ماشاء له ان يقول كائنة ماكانت الافكار والمعاني التي يطرقها، ومن جملة ذلك هذا الامعان في الافحاش والاقذاع في النيل من خصمه ومن عشيرته ونسائها بصورة خاصة على صورة افقدت تلك الموازنة المراد تحققها في المسلم الذي ينعت بالورع والتقوى والتديـن .

حين يرتضي جرير لنفسـه ان يحترف السباب الموجع الى حد قـذف المحصنات فان تلك الموازنة التي المحنا اليها — والتي هي محور دراستنا لنفسية جرير — يصيبها الاختلال والاضطراب الى درجة تسلب جريراً كثيراً من سماته الدينية ، كما تحبط في ممارساته التعبدية مايتوخى من أجر ومثوبة وفق ماأشرنا من موازين دينية تتحكم في تحديد اهداف الالتزام الديني .

لقد خاض جرير الى جوار صاحبيه المعركة فثبت فيها علماً من اعلامها بل — فيما ارى — ابرز اعلامها ، ولاسيما في التوغل في مضمار النيل من الاعراض .

فقد اجتمع له من عوامل الوراثة والبيئة الخاصة ماحمله على المسلك الوعر حتى تخطى به حدود الدين والورع ، فالسمات الهجائية التي عرف بها جرير انما هي من الانماط التي تجرح المشاعر فتستهجنها وتخدش الاسماع فتنفر منها ، وكثيراً ماكان يعير الاخطل ونساء تغلب بالزنا والفجور ومن ذلك قوله (٢) .

ام الاخيطل بالرحـوب اذا انتشت	علقت بشقشقة العجان هـديرا
لقحت لاشهب بالكناسـة داجناً	خنزيرة فتوالدا خنزيـرا
ولد الاخيطل امـه مخمورة	قبحاً لذلك شارباً مخمورا
وكأنما بصق الجراد بليتها	فالجلد لانديا ولا منضـورا

ان هذه الابيات ربما كانت اقل شعر جرير فحشا وبذاءة فهناك من قصائده مايصرح فيه بالالفاظ التي لاتورد على لسان فاحش فضلاً عن متعفف .

---

(١) المصدر نفسه ٣٨٩ .

(٢) نقائض جرير والفرزدق — ابو تمام ١٢٦ .

ومن الجرائر التي حرمها الاسلام وعدها من الكبائر رمي المحصنات ، وان خالف الشاعر في دينه ، فالمسلم مصون اللسان حتى عن اعدائه ، واقل مايمكن ان توصف معانيه انها مفتراة مكذوبة . وبذلك يجمع سوءة اخرى الى سوءاته —

وكان الشاعر في غنى عن ولوج هذا المسلك الضيق . ففي وسعه ان يتناول مهجوه بأية صورة فنية مضحكة ، قد تحمل على محامل الدعابة والصنعة الفنية مما يقل ازاءه الاثم وتصغر المعصية ، وعندئذ يحق لنا ان نصف وقوفه عند ذلك الحد ضرباً من التورع والخشية من مغبة الافحاش والايذاء .

حين يجد الشاعر نفسه في سعة من القول فانه يتجاوز المحارم والآداب المرعية في مجتمعه وهو بذلك يعين نفسه على انه انموذج للتحلل والعبث ولاسيما في وسط يحرص على سمعة النساء ويجد غضاضة في ان يمسسن بسوء : فكيف الامر وكل مايقوله جرير حصيلة نفس بينها وبين الورع مسافة شاسعة .

والايغال في هذا الضرب من الهجاء يشخص معالم الجادة السلوكية التي ارتضى صاحبها لنفسه ان يسيرها مع شيء من المعاناة النفسية الجادة التي تتصارع بين الأثم والتورع ، فيغلب الأثم انتصاراً لنزعة اصطلحت الظروف عليها لتحيد بها عن السبيل الاقوم وتؤثر للمركب الصعب ، والانكى من ذلك ان هذه النزعة لاتحقق له مأرباً من مآرب الحياة سوى ان يكون صاحبها اضحوكة النظارة وسوى ان يشبع من نهم نفس تملؤها احقاد من الوان شتى .

ان جريراً يمرّ بأزمة تورط غلب عليه ازاءها ضعف نفسي يتمثل في الاختلال الواضح في تلك الموازنة التي المحنا اليها غير مرة ... انها حالة من حالات الادمان ، : والادمان ضعف لايمكن تلافيه الابتوطين النفس على التحدي والمقاومة والمصابرة حتى يقود هذه النفس الى حالة التوازن وعندئذ تتلاشى كل المظاهر الانحرافية في السلوك والممارسة. وحالة الاختلال يحس بها جرير احساساً واضحاً يبدو من خلال لجوئه الى الانابة والاستغفار بعد ان يلقي قصيدته ، وقد كان يكثر من الاستغفار فيما قال في جعثن اخت الفرزدق يدفعه الى ذلك شعور كبير بالاثم يجثم على نفسه ، فحاول ان يخفف عن اعبائه ، ثم يجد متنفسه في الانابة والاستغفار . يقول ابو عبيدة في كتابه النقائض « ويقال ان جعثن كانت امرأة عفيفة مسلمة صالحة » (١) وكان جرير يقول كثيراً ما استغفر الله مما

(١) نقائض جرير والفرزدق — ابو عبيدة ٢٢٢ .

قلت لجعثن » (١) « وجاء الاعور النبهاني جريراً صباحاً امام بيته وقد صلى الصبح وكان لايتكلم اذا صلى الصبح حتى تطلع الشمس ولو تناحر الحي » (٢)
ولكن المؤاخذة عليه تظل قائمة ، لأن له بعد ذلك عودة الى مقارنة الاثم في حلقة مفرغة متواصلة .

ان في اعماق الرجل كبرياء من العسيرأن تتطامن امام القيم الداعية الى التورع وان الاحساس بالنقص كان ينفخ في هذه الكبرياء طلباً لتوازن نفسي من نوع آخر غير الذي اشرنا اليه سابقاً .

واحسب ان لوكان الامر مقتصراً على الهجاء الفردي الذيتدعو اليه ظروف موضوعية طارئة لكانت الصورة تختلف ... ولكنه فن النقائض الذي استحال الى مسرحية يومية متصلة الحلقات متوافرة الدواعي يراد من الشاعر الممثل ان يوفر لها كل اسباب النجاح ومتطلباتالتفوق فيكون الاسراف في جوانب الفحش والاقذاع واحداً من هذه المتطلبات.
وهنا يمكن التورط الذي لافكاك منه ، وهنا يبدو الضعف الذي ينجم عن الادمان .
ان العقدة النفسية التي استحكمت في جزير قد افرزت من الآثار مالم يستطع ان يخفي معالمها في سلوكه وفي معطياته الشعرية وذلك هو نوع من التوتر الانفعالي الموصول ، الذي يرى بعض علماء النفس انه نتيجة لعدم قدرة الفرد على حل مشكلاته باساليب ايجابية واقعية .

حيث يلجأ «الى اساليب ملتوية خادعة تخفف عنه بعض مايكابده من تأزم نفسي ، وتنبه مشاعر القلق والعجز والفشل والخجل والرثاء للذات وغيرها من المشاعر التي تنشأ عن احباط دوافعه » (٣) .

ان الاحساس بالاحباطات السابقة يدفع جريراً الى العدوان ، فالعدوان — كما يرى دولارد — «لايصدر عن غريزة بل يكون في العادة نتيجة ... فالانسان يغضب ويعتدي في المواقف التي تهدد أمنه وماله او تلك التي تشعره بالتحكم والحرمان وقد يكون العدوان وسيلة للتمويه على شعور بالنقص او لتوكيد الذات واعلان الشخص المهمل عن وجوده اولانه يتوقع ان خصمه سيباغته على حين فجاءة » (٤)

---

(١) المصدر نفسه ٣٩٨ .
(٢) المصدر نفسه ٣١ .
(٣) اصول علم النفس ٤٥٣ .
(٤) المصدر نفسه ٤٦٦ .

وهذا التمويه المشار اليه يبرز واضحاً في تلك القصة التي يبدو فيها جرير متهكماً بنفسه وبأبيه .

«قال الاصمعي حدثني بلال بن جرير او حدثت عنه ان رجلاً قال لجرير : من اشعر الناس ؟ قال له : قم حتى اعرفك الجواب فأخذه وجاء به الى ابيه عطية، وقد اخذ عنزا له فاعتقلها وجعل يمص ضرعها فصاح به اخرج يا أبت . فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال لبن العنز على لحيته ، فقال ! الاترى هذا ؟ قال : نعم . قال أتعرفه ؟ قال : لا . قال : هذا ابي . افتدري لم كان يشرب من ضرع ؛ قلت لا . قال مخافة ان يسمع صوت الحلب فيطلب منه لبن . ثم قال : اشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعراً وقارعهم به فغلبهم جميعاً » (١)

شعر النقائض ونفسية جرير

لعلنا فيما سلف من الحديث لم نتعرض الى الشواهد الشعرية الا لماما ، وفي هذا الفصل نحاول ان نجعل من الشعر الشاهد الدامغ لسلوك جرير وتوضيح أبعاد نفسيته .

ونركز وفق مارسمناه لهذا البحث من خطوط على الجانب المقذع الذي نعده المادة المفتراة على المهجو دون ان نقف طويلا عند عناصر الهجاء المعروفة المتداولة عند الشعراء بعامة

ان جريراً لايقف عند هذه المعاني فحسب بل يوغل الى ابعد من تلك الحدود مخرجاً الهجاء عن سماته المعروفة :

يقول جرير (٢)

ان السليطي خبيث مطعمه	اخبث شيء حسباً والأمه
محرنفشاً بحسب لايعلمه	است السليطي سواء وفمه
خنزير بر سييء تنسمه	هل لك في بيض خصي تلقمه
ان السليطي مباح حرمه	

قد تفضي بعض صوره الكاريكاتورية الى الضحك. وقد تدعوا احياناً الى الاعجاب بقدرته الفنية على رسم مثل هذه الصور ، وان كان يلجأ الى استخدام بعض الألفاظ التي ينبو عنها الذوق ، ولكن هذا الاعجاب او الضحك سرعان مايتحول الى جهامة لدى القارىء

(١) الاغاني ٨ / ٤٨ .
(٢) نقائض جرير والفرزدق – او عبيدة ٤ ، ٥ .

بل استهجان يحس به في اعماقه وهو يرى جريراً وقد انعطف في فنه انعطافة غير أخلاقية على حين غرة ، بصورة لايتوقعها القارىء ... كان بوسعه ان يقف عند قوله .... هل لك في بيض خصي تلقمه ولكنه لجأ غير مضطر ومن غير تبرير الى رمي المحصنات البريئات حين جعل حرم السليطي مباحاً في قوله :

ان السليطي مباح حرمه

ان انحراف جرير ليس انحرافاً في المضمون فحسب ، بل هو انحراف في الشكل حين لايحافظ على وحدة موضوعه ، فاذا كان السليطي مرمياً بخبث المطعم او باللؤم او انه خنزير ، فهل يستوجب ذلك ان يكون بالضرورة مطعوناً في شرفه مستباحاً في عرضه ؟ « ومعين جرير لاينضب في هذا الباب ، فهو يرسل الصور القبيحة متتالية في ديوانه يرمي بها خصومه ، فلا يرحم النساء ولايشفق على شرفهن ولايبالي حين يدمي العرض ويخدش بالكرامة والعفة » (١).

ان الواقف على نقائض جرير يحس ان ايغاله في الايذاء حين يتناول العرض والشرف بالقدح والتجريح يأتي ضمن بيت او ابيات لايشدها رابط الى ماقبلها اومابعدها وكأنها مقحمة قسراً في هذا الموضع .

ومما يجمع بين سخف دوافع الهجاء وبين نبو الذوق وانعدامه في ذكر مادة الهجاء ما ورد في نقائض جرير والفرزدق) (٢) ان بعيثاً قال : وجدنا الشرف والشعر في بني النوار بنت مجاشع ، فبلغ ذلك عطية بن جعال احد بني غدانة بن يربوع فقال: ومالنت وهذا يابعيث . اتدخل بين بني يربوع وانت رجل من مجاشع ، فبلغ ذلك جريراً ، فأنشأ يقول :

طاف الخيال واين منك لماما	فارجع لزورك بالسلام سلاما

حتى وصل الى قوله :

واذا انتحيتكم جميعاً كنتم	لامسلمين ولاعليّ كراما
ولقد لقيت مؤونة من حربنا	نزلت عليك والقت الاجراما
مهلاً بعيث فأن امك فرتنا	حمراء اثخنت العلوج رداما
كانت مجربة تروز بكفها	كمر العبيد وتلعب المهزاما

(١) الهجاء – سلسلة فنون الادب العربي الفن ، الغنائي (٦) / ٥٧ .
(٢) نقائض جرير والفرزدق – ابو عبيدة ٣٨ – ٤١ .

هنا يتساءل المرء ماالذي حمل جريراً على ان يقحم نفسه ويتطوع مدافعاً عن يربوع ؟ ألمجرّد كراهية لمجاشع ؛

ثم ماالذي ألجأه الى ان ينحرف الى أم بعيث فيصفها هذا الوصف الشائن ويرميها بما هي منه براءٌ ومما يلاحظ ايضاً — من غير تبرير لهذا الموقع — انه بدأ بدءاً يمكن ان يدخل في باب الهجاء العام .الاانا حين نريد ان نكشف عن انحراف طويته وضعنا اصابعنا على المواطن الدالة وهي الاقذاع غير المبرر في الفحش ،

وهذا مانود ان نكشف عنه ونحن ماضون مع شواهده الشعرية التي تلي تباعاً ، ومسكينة فرتنا هذه حين ابتليت بهذا اللسان الحاد الذي بلغ في الاعراض ولوغ الذئاب في الدم العبيط (١) .

يقول جرير :

سيخزى ويرضى باللفاء ابن فرتنا
وكانت غداة الغب يوفى غريمها (٢)

اذا هبطت جو المراغ فعرست
طروقاً واطراف النوادي كرومها

فكيف ترى ظن البعيث بأمه
اذا بات علج الاقعسين يكومها

اذا استنّ اعلاج المصيف وجدتها
سريعاً الى جنب المراغ جثومها

ضروط اذا لاقت علوج ابن عامر
وأبنع كراث النباج وثومها

بني مالك ان البغال مجاشع
مباح بحمراء العجان حريمها (٣)

---

(١) نقائض جرير والفرزدق — أبو عبيدة ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) اللفاء : الشيء القليل ... انها كانت تفي غداة الغب لمن وعدته — المصدر نفسه وكذلك الصفحة .

(٣) حمراء العجان : المعنية بها ام البعيث .

واذا عدنا الى ابيات البعيث التي ناجز بها جريرا فمعانيها لاتتجاوز انهم رعاة المعز ولئام ، ولايأتي حديثهم بخير ، وان الاحساب منقطعة بهم (١) .

ان لجرير من الشاعرية ما يستطيع ان يثبت بها جدارة ويخلب الالباب اعجاباً ، وله من القدرة على التصرف في المعاني والصور ما يغنيه عن الولوج في هذه الابواب ، ففي لامية له يجيب البعيث ويهجو الفرزدق قوامها تسعة .وعشرون بيتاً من ارق الشعر واعذبه معنى ومبنى ، ثم يكبو به الجواد على حين بغتة فينزلق المنزلق الذي يجر عليه المعرة ، ويذهب بمروءته ويعكر عليه اجواء تقواه وساعات عبادته : يقول (٢)

اذا سار في الركب البعيث عرفتم ترمز حمراء العجان على الرحل
اذا لقيت علج ابن ضمعاء بايعت بشق استها اهل النباج وما تغلي
فبانت نوار القين رخو حقابها تنازع ساقي ساقها حلق الحجل
تقبح ريح القين لما تناولت
مقذ هجان اذ تساوفه فحل

فأقسمت ما لاقيت قبلي من الهوى
وأقسمت مالاقيت من ذكر مثلي

وجعثن اخت الفرزدق قد نالها جرير بتارض القول بهتانا لالشيء الا ان المعركة تتطلب ان يحقق جرير غلبة على خصمه التقليدي الفرزدق ويصيب منه مواطن الأيذاء .

يقول جرير (٢)

بات الفرزدق يستجير لنفسه
وعجان جعثن كالطريق المعمل

اين الذين عددت ان لا يدركوا
بمجر جعثن باابن ذات الدمل

اسلمت جعثن اذ يجر برحلها
والمنقرى يدوسها بالمنشل

---

(١) المصدر نفسه ١٠٨ - ١١٠ .
(٢) المصدر نفسه ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

اترى كذلك كانت جعثن ؟

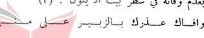
ان المصادر تؤكد عفتها وسلامة عرضها ، وبعدها عن مواطن الشبهات، فضلا عن ان يكون عجانها كالطريق المعمل ، او ان يدوسها المنقرى بالمنشل . وقد سبقت الاشارة الى ماقال ابو عبيدة معمر بن مثنى «ويقال ان جعثن كانت امرأة عفيفة مسلمة صالحة»(١)

وجدير بنا ان نشير الى ان جريرا يبدأ نقائضه بالمادة التي يمكن أن تكون مقبولة في مقياس الهجاء العام ، ولكنه ينحرف انحرافاً مفاجئاً ليعرض مادة لاتتصل بما بدأ ؛ وكأنه حديث موتور لايقيم لأعراض الناس وزناً ، ولا يتقي الله في المحصنات الغافلات

فقد بدأ جرير النقيضة بقوله (٢)

قتل الزبير وانت عاقد حبوة تبا لحبوتك التي لم تحلل

نعم : يمكن ان يكون ذلك موضع المؤاخذة في مقاييس النجدة والنخوة العربية ثم يعرض بعدم وفائه في شطر بيت اذ يقول : (٣)



وافاك عذرك بالزبير على منى

....

وعلى حين غرة تنزلق به القدم الى كلمة البيت بقوله مقذعة لا تتسق مع الشطر قبله معنى او فنا ، حيث يقول :

....

ومجر جعثكم بذات الحرمل

وهو يعلم علم اليقين ان مجر جعثن ليس بذات الحرمل . كما ولا شأن لجعثن بكل ما يجري من سقط المهاجاة بين جرير وأخيها الفرزدق ، وربما تكتم غيظها على مضض او هي غاضبة على اخيها الذي يقارع جريرا فيغريه بهذا العبث الموجع .

ويوغل جرير في الحاق الاذى بجعثن في قوله وهو يهجو الفرزدق (٤)

وتمدح ياابن القين سعدا وقد ترى

اديملك منها واهيا غير سالم

---

(١) المصدر نفسه ٢٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ٢٢٢ .

(٣) المصدر نفسه ٢٢٢ .

(٤) المصدر نفسه .

تبرئهم من عقر جعثن بعدما
اتتك بمسلوخ البظارة وارم

تنادي بنصف الليل ياليل مجاشع
وقد قشروا جلد استها بالعجارم

ومما نود ان نبدأ القول فيه ونعيد ان الانتقالة المفاجئة من حديث المناقضة العام الى هذا اللون الذي يتنافى مع القيم والمبادىء الدينية والخلقية هي الظاهرة التي شخصناها في مناقضاته وعلى اساسها ادرنا حديثنا عن نفسيته .

واضافة الى ماسلف في هذا الباب نذكر – على سبيل المثال – مايأتي :

قال يهجو البعيث : (١)

رأى الموت منا من يروم قناتنا
فغير ابن حمراء العجان يرومها

سعرنا عليك الحرب تغلي قدورها
فهلا غداة الصمتين تديمها

تركناك لاتوفي بزند اجرته
كأنك ذات الودع أودى بريمها

ثم تحدث الانتقالة المفاجئة :

يعد ابن حمراء العجان لزنيه
اذا عد مولى مالك وصميمها

له أم سوء ساء ما قدمت له
اذا فارط الاحساب عد قديمها

فكيف ترى ظن البعيث بأمه
اذا باب علج الأقعسين يكومها (٢)

ونحن بدورنا نتساءل : اكانت أم البعيث كذلك ؟

أم هي الرغبة المحضة في الايذاء والايقاع بالخصم .

ولجرير رائية في هجاء الفرزدق مطلعها :

---

(١) المصدر نفسه ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) يكومها : يعلوها .

سمت لي نظرة فرأيت برقاً تهاميا فراجعني ادكاري

وردت فيها الفاظ في غاية البذاءة لم ارد ان اوردها في الوقت الذي نجد نقيضة الفرزدق خالية من هذه الصراحة ، وان كان يكتفي فيها باللمحات الخاطفة .

ولم ينج الأخطل في هذه المعركة من قذف جرير لمحصنات نساء تغلب : يقول جرير (١)

نبثت تغلب ينكحون رجالهم ويرى نساؤهم الحرام حلالا
المعرسين اذا انتشوا بناتهم والدائبين اجارة وسؤالا

وفي هذا ابغال مابعده ابغال في ايذاء نساء تغلب كما يصوره جرير افتراء محضاً لايدعمه دليل الاهوى نفس استمرأت الخطيئة وأوضعت في الفتنة حتى بات المرء تعاف نفسه مما ترك جرير في هذا الميدان من مادة قاسية الوقع تنبو الأسماع عن الاصغاء اليها فضلا عن اشفاق المرء على من نال منهم جرير نيلا غير جميل ، وكان بوسعه — وهو الشاعر الفنان — ان يسلك الى اداء مهمته الفنية غير هذه السبيل الوعرة ، وأن يركب غير هذا المركب الصعب ، مما جعلنا نعيد النظر في تقويمنا لبعض شعرائنا وفق اسس مبدئية سليمة ومعايير خلقية لا تزال نقيم لها اسمى الاعتبار في حياتنا الراهنة .. وفي ضوء هذه المبادىء والمعايير كان تقويمنا لنفسية جرير من خلال نقائضه ، وعسى ان نكون قد وفقنا الى هذا التقويم .

(١) نقائض جرير والاخطل — ابو تمام ٨٧ .

مصادر البحث ومراجعه

١ — القرآن الكريم

٢ — اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري . د . محمد مصطفى هـــدارة . دار المعارف بمصر ١٩٦٣

٣ — اصول علم النفس — د . احمد عزت راجح — المكتب المصري الحديث الاسكندرية ط٩/ ١٩٧٣

٤ — الاغاني — ابو الفرج الاصفهاني — طبعة دار الكتب

٥ — تاريخ الادب العربي — بلاشير — مجلد ٣ ترجمة د . ابراهيم الكيلاني — منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي السوري — دمشق ١٩٧٤.

٦ — تاريخ النقائض في الشعر العربي — احمد الشايب — مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ط٣ /١٩٦٦

٧ — التطور والتجديد في الشعر الاموي . د . شوقي ضيف — دار المعارف بمصر.

٨ — الجامع الصحيح — الترمذي — تحقيق ابراهيم عطوة عوض — مطبعة البابي الحلبي بمصر ج٤/ ط١/ ١٩٦٢

٩ — جرير — حياته وشعره — د. نعمان محمد امين طه .
دار المعارف بمصر — ١٩٦٨

١٠ — رحلة الشعر من الاموية الى العباسية — د. مصطفى الشكعة — دار النهضة العربية ، بيروت — ١٩٧١

١١ — صحيح مسلم — مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي — دار احياء التراث العربي . ط١/ ١٩٥٦

١٢ — طبقات فحول الشعراء — ابن سلام الجمحي . تحقيق محمود محمد شاكر — مطبعة المدني — القاهرة

١٣ — العصر الاسلامي — د. شوقي ضيف — دار المعارف بمصر ط٥/ ١٩٦٣

١٤ — العمدة — ابن رشيق القيرواني — تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد — دار الجيل ج٢/ ط٤/ ١٩٧٢ .

١٥ — من تاريخ الادب العربي — العصر الجاهلي والعصر الاسلامي — د. طه حسين — دار العلم للملايين — بيروت ١٩٧٠

١٦ — نقائض جرير والاخطل — ابو تمام — دار المشرق — بيروت — عني بطبعها انطوان صالحاني اليسوعي

١٧ — نقائض جرير والأخطل — د. عبد المجيد عبد السلام المحتسب — مكتبة المحتسب دار الفكر ١٩٧٢

١٨ — نقائض جرير والفرزدق — أبو عبيدة معمر بن المثنى — طبعة ليدن — ١٩٠٨ — ١٩٠٩

١٩ — نقائض جرير والفرزدق — دراسة ادبية تاريخية — د. محمود غناوي الزهيري — ط١ مطبعة دار المعرفة — بغداد ١٩٥٤.

٢٠ — الهجاء — د. سامي الدهان — سلسلة فنون الادب العربي — الفن الغنائي (٦) دار المعارف بمصر ١٩٥٧.

٢١ — الوساطة بين المتنبي وخصومه — علي بن عبد العزيز الجرجاني — تحقيق وشرح محمد أبو الفضل — وعلي محمد البجاوي — مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٦٦.

الزمن في « الارض الخراب »

الدكتور : عدنان خالد
كلية الآداب / جامعة الموصل

توطئة

ليس في نيتنا التعرض الى تحليل القصيدة تحليلا موسعاً وشاملا ، لأن عملا كهذا يستغرق كتاباً برمته ، وما اكثر ماكتب ويكتب عن « الارض الخراب » وانما غايتنا في هذه المحاولة عرض « مقدمة» او «مدخل » او «مقترب» لدراسة هذه القصيدة ، وهو مدخل لم يتعرض له ناقد من قبل ، ولم يسبق ان شرحه مفسر على حد علمي .

واساس هذا المدخل هو التأكيد على وحدة القصيدة ، وذلك على العكس من الاعتقاد السائد لدى معظم النقاد بأن القصيدة مشتتة ، يعوزها الترابط والتسلسل المنطقي (١) ، وحجتنا في وحدة القصيدة لاتنبع من الجزيئات الصغيرة والتفاصيل الدقيقة التي تكون الاقسام الخمسة للقصيدة، وانما من عنصر الزمن الذي يوحد تلك الجزيئات والتفاصيل(٢)

فليس هناك نتاج أدبي يضاهي« الارض الخراب » في تصوير القرن العشرين في افلاسه الروحي واخفاقه العقلي وفشله وعقمه .، وهي صرخة في وجه العالم الغربي الـذي فتح الباب على مصراعيه امام الحرب العالمية الاولى بكل قسوتها ووحشيتها و شرورها ، اذ

استيقظ الانسان الغربي من احلامه التي بناها على العلم والتكنولوجيا (اللذين سخرهما ساسته لنهب ثروات الامم الاخرى) على حقيقة بشعة وهي ان نفس الحضارة التي انجبت دانتي وشكسبير وموزارت كانت تحمل في ثناياها شراً وحقداً دفينين للعالم بأسره ولنفسه ايضاً . وتساءل الناس فيما اذا كانت الحضارة الغربية منذ الاغريق بكل انجازاتها . ورجالاتها وشموخها وفلاسفتها وفنانيها وعلمائها ليست الا حضارة خواء ولاإنسانية وقد كان ت . س اليوت في مقدمة اولئك المتسائلين والحائرين ، وما «الارض الخراب» الامحاولة لفهم فشل تلك الحضارة وتشخيص لاحباطاتها وعقمها .

ولكي يعالج اليوت موضوعه معالجة فنية مؤثرة لجأ الى امهات الكتب التي تشكل قيم تلك الحضارة واسسها العقلية والنفسية كملحمة «موليس » لهوميرو» التحولات» لأوفيد و «الجحيم» لدانتي والانجيل . فهذه النتاجات جميعا تبحث في رحلة لذات الانسانية لاكتشاف النفس وخباياها ، و «الارض الخراب » من هذا المنطلق رحلة في ارض يسودها الموت والدمار لاينبت فيها زرع ولا يحيا فيها أمل . وهي رحلة في خبايا الفكر الغربي ونزول الى درك العرافين والمنجمين في العصر الراهن ، ورحلة كهذه تضم عظماء الفكر الغربي واقزامه ، وانبل مفكريه وارفعهم طبيعة ، وكذلك اخسهم نفسا واحقرهم ذاتا.

الزمن

وموضوع بهذه الشمولية وبهذا التنوع لابد ان يجعل القصيدة تبدو غير مترابطة ، ومفتقدة الى التركيز والوحدة . غير ان اليوت يتمكن من ربط الاجزاء المختلفة للقصيدة بكل اشاراتها وايحاءاتها وتضميناتها عن طريق حصر تلك التفاصيل كلها في فترة زمنية قصيرة، وكذلك من خلال معالجة الزمن معالجة مبتكرة ؛ وسنتعرض الى تفصيل ذلك من خلال دراسة القصيدة من نواح ثلاث وهي : الزمن التاريخي المباشر والزمن النفسي والزمن العضوي (الاسطوري) لكي نتوصل الى استنتاج مفاده أن اليوت يهشم مفهوم الزمن الذي يقاس بالماضي والحاضر والمستقبل ليؤكد على ان شخوصه تعيش الماضي حالة وجودية تعويضاً عن الخواء والعقم اللذين يقترنان بالحاضر والمستقبل ، وكما يلي .

١ — **الزمن المباشر:** ويرتبط بالفترة التي اعقبت الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) والقصيدة لاتشير الى هذا الزمن اشارات واضحة وصريحة بحيث نستطيع ان نضع اصبعنا على بيت ونرجعه الى زمن الحرب العالمية الاولى ،

ولكننا نلجأ اليه لاننا نعلم ان القصيدة نشرت بعد الحرب ،ولهذا فهو الزمن ، «التأريخي» الذي تسنده المعطيات المتوفرة لدينا عن تأريخ نشر القصيدة وهو عام ١٩٢٢ .

٢ – زمن «العهد القديم»

يستمد اليوت من «العهد القديم» صوراً ومجازات واستعارات توحي بفكرة الضياع ، وتمهد للأحساس الداخلي الذي يهيمن على سكان « الارض الخراب » واساسه الخوف والقلق . أي أن «العهد القديم» يقدم لأليوت مصدراً أدبياً يستمد منه الصور التي تخدم معالجته للزمن النفسي ، وكما يلي :

(أ) الفصل الثاني من سفر « حزقيال» يرسم صورة لعالم يهيمن عليه التمرد والعصيان ويستخدمه اليوت لتقريب اذهان القراء الى زمننا الحاضر الذي يشبه ذلك الزمن في عصيانه وتمرده وعلمانيته ، واشارة اليوت الى هذا الزمن ترد على نحو خفي في السطر العشرين من القصيدة في تعبير « ابن آدم»

يا ابن آدم
ليس بمقدورك يا ابن آدم
قول ولا تخمين (٣)

ويتحدث الفصل السابع والثلاثون من سفر « حزقيال» عن نظرة النبي حزقيال عما سيؤول اليه مصير البشرية من فناء ودمار معطياً لتعزيز ذلك صورة فنية مؤثرة هي صورة الوادي المملوء بالعظام ، وترد هذه الصورة عند اليوت في المقطع الخامس على الشكل الآتي :

في الحفرة التالفة المنخورة
بين الجبال ، تحت ضوء القمر الخابي يغني العشب
فوق قبور هدمت
تحف بالكنيسة
كنيسة خاوية الا من الرياح
ليس لها نوافذ وبابها يرتج
ويابس العظام لايؤذي احداً

(ب) امافي الفصل الثاني عشر من سفر « تثنية الاشتراع » "Ecclcsinstes" ؛

فتطالعنا صورة عالم تهيمن عليه الظلمة والعتمة والجدب ، لا الايام ستشهد ؛ النور ولاالغيوم ستدر المطر ، وعندئذ « ستحبط الرغبات » و يولي الانسان الى داره الابدية » و«يعود التراب الى الارض كما كان وتعود الروح الى خالقها» .

ويشبه هذا الابيات التالية التي ترد في المقطع الاول من « الارض الخراب » الشجر الميت لايقيك حيث تصطلي بالشمس ، والجندب أقض مضجعك

والصخرة الصماء لاتطلق صوت ماء
لاشيء غير الظل تحت الصخرة الحمراء
(هيا الى ظلال هذي الصخرة الحمراء)
لكي ترى عيناك امراً غير ظلك الذي يخب من خلفك في الصباح
او ظلك الناهض في المساء كي يقابلك
سوف اريك الخوف
في حفنة من التراب

وباختصار ، فان استخدام اليوت للعهد القديم بصورة خاصة لسفري « حزقيال » «وتثنية الاشتراع» يفيد غاية محددة وهي ان هذين السفرين يحذران من مغبة العلمانية ومن مغبة خرق القيم والتراث وبأن استمرار الانسان في غيه سيؤدي به الى صحراء قفر ، والصوت الذي يتحدث الينا في كلا السفرين يحذرنا من اننا متجهون نحو «وادي العظام» حيث لاماء ولاسعادة ولاحياة ، ويقتبس اليوت من « العهد القديم » معظم المجازات والصور والرموز المتعلقة بالجفاف والقحط والجدب لكي يوحي للقاريء بفكرة الصحراء التي تحولت حضارة العالم اليها . ويستخدم اليوت فكرة « الصحراء » ليشير الى هجر التراث والقيم والمبادىء الانسانية .

٣ — الزمن في «العهد الجديد»

ان كان اليوت قد استخدم « «العهد القديم» ليوحي بفكرة ضياع مجموعة من الافرا عن طريق مجازات وصور معينة ،فان استخدام اليوت «العهد الجديد» يفيد في تصوير الحالة النفسية لمجموعة من الناس دون ارتباط بمكان اوزمان ويعني هذا ان اليوت يهتم اساساً بالحالة النفسية لسكان « العهد الجديد» ويحاول ان ينقل تأثيراتها واهميتها الى «الارض الخراب »

ويصع اليوت الزمن « النفسي» في فترة عصيبة هي الفترة الواقعة بين صلب المسيح وبعثه حسب اللاهوت المسيحي ، ويعني هذا ان القاريء ينبغي ان يتعامل مع شخوص القصيدة وكأنهم نفس الاشخاص الذين شهدوا صلب المسيح وانتظروا بعثه . واستناداً الى الكتاب المقدس فان الفترة الفاصلة بين صلب المسيح وبعثه كانت ثلاثة ايام (من عصر الجمعة الى صباح الاحد) ورغم قصر المدة فانها كانت امتحاناً قاسياً لاتباع المسيح الذين وعدوا بالبعث وانتظروا الدقائق تلو الدقائق ينهشهم القلق وتعصف بهم الحيرة وينهبهم الشك . وهذا هو بالضبط مايريد اليوت ان يستلهم من «العهد الجديد » وهو «الزمن النفسي» او الزمن الحقيقي الذي يعيشه سكان الغرب ، وهو زمن الشك والحيرة والقلق :

بعد احمرار الضوء في المشاعل
على الوجوه العرقة
بعد صقيع الصمت في الحدائق
بعد العذابات لدى الاماكن الصخرية
بعد الصياح والنواح
والسجن والقصر ورجع الرعد في الربيع
عبر الجبال النائية
من كان حياً مات
ونحن من كنا على قيد الحياة
ها اننا نموت
بنتفة من صبر
ليس هنا ماء ولكن محض صخر
صخر هنا لاماء ، والطريق رملي ، طريق يلتوي

وفهم اليوت للاهوت المسيحي لايقتصر على مجرد الحوادث والاخبار بل يتعداه الى الاسس العقلية والانفعالية التي ترتكز عليها تلك الحوادث ، فحادثة المسيح تشير الى فترة تاريخية آمن فيها البعض بأن المسيح هو الله وكان موت المسيح يعني موت المبدأ الذي تستند عليه الحياة وعند اليوت فأن الحضارة الغربية بافتقارها الى ذلك المبدأ أنما هي ، حضارة دون اله ، وزمنها هو زمن الضياع والشك والترقب .

٤– الزمن العضوي والكأس المقدسة :

الكأس المقدسة هي اسطورة اساسها ان المسيح شرب من كأس في العشاء الاخير ، وبعدئذ ضاعت تلك الكأس الى الابد ، وقد عزيت اليها معجزات وخصائص شفائية وعلاجية متعددة ، واشتهرت هذه الاسطورة وذاع صيتها في القرون الوسطى في اوربا على نحو خاص .

و يشير اليوت في ملاحظاته على القصيدة الى انه استقى من كتاب من الشعائر الى الحكاية *From Ritual to Romance* لمؤلفه جسي وستن, Jessie Weston ، الكثير من مادة «الارض الخراب» وبصورة خاصة اسطورة « فشر كنج» Fisher King وهي اسطورة تعالج موضوع ملك عنين يحكم مملكة اصابها القحط والموت واناسها يعانون من الجدب واللاخصب . وما كانت لتزول تلك اللعنة الابمجيء فارس او غريب يستطيع الاجابة عن بعض الاسئلة ، وقد مزج اليوت بين هذه الاسطورة واسطورة الكأس المقدسة فجعل شفاء المملكة العنينة رهين باكتشاف الكأس المقدسة التي تشفي الملك من عنته والارض من موتها والناس من عقمهم . (٥) .

واذا نظرنا الى هذه الاساطير نظرة « تأريخية » فاننا نجد انها تعطي فترة زمنية واسعة وحضارات مختلفة يجمعها الايمان باساطير معينة وطقوس محددة واعتقادات ثابتة بقوى غيبية وقدرات طوطمية خارقة ، ويستلهم اليوت من تلك الاساطير فكرة الارض التي يقطنها أناس موتى او شبه موتى وهم في انتظار الخلاص والنجاة .

اما اذا نظرنا الى هذه الاساطير نظرة «بنيوية» بمعنى ان نحاول العثور على هذه الاساطير في «بنية» القصيدة وشخوصها واحداثها فاننا نجد ان هذه الاساطير (واخرى كثيرة غيرها) تتغلغل في أدق تفاصيل القصيدة على نحو خفي حيناً وواضح حيناً آخر . فاوربا بعد الحرب العالمية الاولى تشبه تلك الارض الاسطورية الممزقة العنينة وتبحث عن « الكأس المقدسة » او بديلها التي ستعيد اليها الخصب والنماء والحياة .

فالزمن في «الارض الخراب» منازل وطبقات اقربها هو الزمن التاريخي الذي يعقب الحرب العالمية الاولى ، ويرتبط بتاريخ نشر القصيدة (١٩٢٢) وابعدها هو الزمن النفسي الذي يمثل الفترة الفاصلة بين صلب المسيح و بعثه وكذلك الزمن « الاسطوري» المستمد من اساطير الشعوب البدائية والذي يشير الى القحط والجدب في ارض ضربت عليها

لعنة العلمانية والمادية . فالزمن عند اليوت في «الارض الخراب» ليس زمناً بالمفهوم العادي الذي يحتوي على الماضي والحاضر والمستقبل بل هو زمن ساكن وثابت وغير متحول يشير الى حاضر يمتزج فيه الماضي بالمستقبل والمستقبل بالماضي .

وتحطيم الزمن في تتابعه التأريخي المألوف يخدم عند اليوت وظيفة جمالية وغاية فنية محددة وهي ان القصيدة لاتلجأ الى اسلوب السرد الروائي وانما على الوصف . فالاسلوب الروائي يكاد يكون الاسلوب الوحيد الذي يمكن للشاعر أن يتبناه في قصيدة طويلة ، ولكن اليوت لايلجأ اليه مما يزيد من صعوبة القصيدة ولجوء اليوت الى الوصف عوضاً عن السرد يعني ان عناصر الدراما التي فصلها في كتابة «فن الشعر» من صراع وحبكة وبداية ونهاية لاتنطبق على القصيدة ، لان القصيدة تشبه صورة فوتوغرافية مأخوذة في لحظة من الزمن وتصور تطوراً «مرئياً» وليس تطوراً روائياً . وبعبارة اخرى فأن «الارض الخراب» لاتحتوي على بداية ونهاية وانما تجمد الزمن في لحظة واحدة ، وتجميد الزمن في لحظة معينة يعني ان اليوت لايريد من القارىء ان يتفاعل مع القصيدة كحكاية تتحرك من نقطة معينة لتنتهي في نقطة اخرى كوحدة ينبغي النظر اليها على انها كيان موجود في زمن تأريخي وزمن اسطوري وزمن عضوي مترابط ومتداخل ومتشابك كلها في وقت واحد .

ننتقل الان الى بعض شخوص القصيدة لنتعرف على الطريقة التي يفهمون الزمن بها ويتعاملون على اساسها وكذلك الاسلوب الذي يتبعه اليوت لتهشيم التسلسل التأريخي للزمن (ماضي وحاضر ومستقبل) وغايته في ذلك .

يستهل اليوت القصيدة باقتباس من الكاتب الروماني « بترونيون» الذي عاش ومات في القرن الاول بعد الميلاد في فترة كانت تعاني الامبراطورية الرومانية فيها من التمزق والانحلال (وهي فترة عصيبة يود اليوت ان يقارنها باوربا بعد الحرب العالمية الاولى من حيث التشتت والقسوة والانحلال المادي والاخلاقي) وفي الاقتباس حديث لامرأة اسطورية اسمها «سيبل» طلبت من الاله «ابولو» ان يمنحها سنوات من العمر بقدر ماتستطيع ان تحمل بين يديها من حبات الرمل ولكنها نسيت ان تطلب الشباب الدائم مع العمر ، فشاخت وعمرت دهراً بعد دهر ولكن جسمها انكمش وذوى يوماً بعد يوم حتى خاف الناس ان تأكلها الحيوانات من قطط وكلاب فوضعوها في قفص معلق في موضع مرتفع ، وكانوا يلجأون اليها للاستشارة والتنبوء وكلما اعيتهم الحيلة في العثور على اجابة لسؤال . وفي الاقتباس الذي يتصدر قصيدة « الارض الخراب» نسمع شخصاً يقول :

أني بعيني رأيت سيبل كومي معلقة
في قفص وعندما سألها الاطفال
ياسيبيل ماتريدين ؟ أجابت أريد
أن أموت » .

فاليوت يؤيدنا هنا ان نقارن بين الحضارة الغربية التي شاخت وعمرت دهراً طويلاً وبين سيبل التي لم تعد لها أمنية في الحياة غير الموت وكذلك بين اوربا بعد الحرب العالمية الاولى التي كانت تتمنى الموت كل يوم . والأنكى في الامر هوان الموت الذي يقضي على كل امنية ويبدد كل الامال اصبح هو الامل والامنية .

واستخدام اليوت لهذا الاقتباس في غاية الاهمية ، فهو ينبئنا بنمط المدينة التي نوشك ان ندخلها (عن طريق قراءة القصيدة) وبنمط الحياة السائدة فيها وكذلك أناسها . فهي مدينة عقيمة جدباء اصبح الموت فيها امنية للساكنين . وقد ذوى مواطنو هذه المدينة ولم تعد لهم أمنية للمستقبل غير الخوف والانتظار والتوجس .

وشخصية «سيبل» تمزق التسلسل التأريخي للزمن وتحطمه ، فهي تعيش في الحاضر وجوداً هامشياً لاوزن له لانها مجرد مخلوق ذاو معلق في قفص ، وتعيش في ماض سحيق لاتدرك بدايته لانها عاشت دهوراً طويلة عقيمة ، ولاتنتظر مستقبلا لان امنيتها الاولى والاخيرة هي الموت ، ولكن الموت لايأتي بتلك السهولة لأن حبات الرمل الموعودة بها ينبغي أن تنفذ ، فالزمن عند «سيبل» ليس ماضياً قد انقضى وولى ، وحاضراً موجوداً مقيماً ، ولا مستقبلا آتيا بل هو حاضر مجدب كله ترقب وانتظار . فالزمن عندها اذن زمن نفسي وزمن عضوي (خوف وترقب يرافقه القحط والعقم والجدب).

أما الشخصية الثانية فهي الصوت الذي نسمعه في المقطع الأول وهو صوت امرأة يعقبه صوت يتكلم بلسان جموع سكان «الارض الخراب» الذين اصبحوا مجرد «درنات يابسات» . :

نيسان اقصى الاشهر
يحيي من الارض الموات ليلكا
ومخلط الرغبة والذكرى معا، محركا
بمطر الربيع مما قد باد من عروق

دفأنا الشتاء
وقد كسا الارض بثلج يبعث على النسيان
ملقماً شيئاً من الحيـاة
بدرنات يابسات

إن سكان «الارض الخراب»لايملكون من الماضي غير «الذكرى» التي تؤججها رغبات الحاضر التي اصبحت عروقاً جافة ذاوية. والماضي عندهم ليس زمناً واضحاً محددالمعالم بل هو ذكريات ترتبط بمواسم النمو والجفاف والخير والجدب. وذكر الماضي يفيد تأكيد فكرة العقم المرتبطة بحاضر فقد حيويته وديمومته ومسببات وجوده، وهنا يتدخل الصوت النسوي ليحدثنا عن ذكرى عذبة حدثت في زمن الطفولة ثم يمتزج هذا الصوت مع حاضر مؤرق حيث تقول المرأة :

اقرأ كل الليل تقريباً، وفي الشتـاء
انزل للجنـوب

ويصبح الماضي عندها (الذي يتمثل في الذكريات والانطباعات والاحساسات القديمة) اداة للضغط النفسي والارق المقيم. وهذا الضغط يزداد لان الحاضر نقيض الماضي، وكلما ازداد عنف ذلك النقيض ازدادت وطأة الحاضر.

وهكذا يصبح وعي الافراد بالماضي (بغض النظر عن طبقاتهم الاجتماعية ووعيهم التاريخي وادراكهم العقلي) عند اليوت مجرد ذكريات، ولكنها ليست ذكريات بالمفهوم الاعتيادي التي ترتبط بالحاضر وكلاهما معلوم عند الفرد وهما يؤديان بالتالي الى مستقبل محدد المعالم والسمات، بل هي كيان ينتصب في ذهن الشخوص ليطمس الحاضر. فالحاضر لاوجود له لانه مجرد وهم ، اما الماضي فهو الشيء الوحيد الحقيقي الموجود في عالم «الارض الخراب» فعالم الماضي عالم حقيقي يفرض وجوده علـى الحاضر ويحل محله.

فالشخوص لاتتذكر الماضي وحسب، لانها لو تفعل ذلك لتولد لديها احساس واضح بأنه ماض انتهى ومات ولكنها تعيش الماضي. فهؤلاء الناس اذن جزء من ماض ميت، لايوجدون الا فيه، ولايتمكنون من العيش بدونه، وهذا التأكيد على هيمنة الماضي : واستبداده يلغي الحاضر والمستقبل فيصبح هؤلاء الشخوص معلقين مثل «سيبل»في قفص الحاضر والمستقبل دون ان يتمكنوا من الافلات من الماضي، فالماضي يصبح هو البديل للحاضر، ولكنه بديل هزيل لانه لايمكن للمرء أن يعيش في زمن ولى ومات .

والشخصية الثالثة هي شخصية «تايريسيس» التي يرد ذكرها في المقطع الثالث من القصيدة و «تايريسيس» شخصية اسطورية عند اليونانيين القدامى ، وهو عراف أعمى يعزى فقدان بصره الى واحدة من ثلاث روايات، اقربها الى روح القصيدة وجوها العام كذلك هي الرواية التي يشير اليها اليوت في هامش القصيدة هي أن جدالاً نشب بين رب الآلهة «زيوس» وزوجته «حيرا» عمن يستمتع في الحب اكثر أهو الرجل أم المرأة؛ ولجأ الاثنان الى « تايريسيس » الذي شاهد في يوم من الايام افعيين تتسافدان فضربهما بعصاه فتحول الى إمرأة سبع سنوات ، وبعد ذلك شاهد نفس الافعيين فضربهما كرة ثانية عساه أن يتحول الى رجل فتحول رجلا كما توقع . وعندما احتكم رب الالهة وربة الالهة اليه، أيد زعم رب الالهة زيوس بأن المرأة تستمتع أكثر في الحب؛ فغضبت حيرا عليه غضباً شديداً وأعمته؛ وعندئذ تدخل زيوس فأعطاه القدرة على التنبؤ بالمستقبل وقد عاش سبعة اجيال بثديين ذاويين متمتعا بقدرة استثنائية على التبصر بالامور والتغلغل في اعماق النفس البشرية.

ويدخل «تايريسيس» «الارض الخراب» أول مرة عندما يشاهد الفتاة الطابعية تمارس الحب بآلية مع الشاب ذي الوجه المدمل وحينما تجلو الغرفة الامن الفتاة ؛ نسمع أنين الشيخ الاعمى وهو يقول:

(انا تايرسياس
عانيت هذا كله من قبل
فوق هذه الاريكة او الفراش)

فالعراف الذي جمع بين العمى والابصار والماضي والحاضر والنساء والرجال يخرق الزمن وطبقاته ويخرق الفصل بين جنس الاناث والرجال وكذلك الشباب والشيخوخة فهو موجود في كل زمان ومكان، ولكنه رغم ذلك يعاني من وعيه وادراكه من حكمته ومن معرفته بخبايا الامور ،فهو شاهد كل العصور على شرور الانسان وعذاباته ،وجحوده وايمانه وكذلك خصبه وعقمه .

«والارض الخراب» مقسمة الى خمسة مقاطع. وظهور «تايريسيس » في المقطع الثالث يجعل القصيدة مقسمة الى جزئين متناظرين الاول هو القسمان الاولان اللذان يسبقان ظهور «تايريسيس» والثاني هما القسمان الاخيران اللذان يعقبان ظهوره. وهذا يعني أن البصار العجوز يوحد شخوص القصيدة التي تندمج فيه بشبابها وشيخوختها وحكمتها وحماقتها، بشبقها وبرودها ، بآلامها وافراحها لأنه كل هذه الاشياء مجتمعة .

ولكن«تايريسيس» رغم حكمته وبصيرته ومعرفته لايستطيع ان يوصل صوته الى سكان تلك الارض الميتة، لأنه مجرد «شاهد» يرى ما أمامه دون أن يتمكن من التدخل لتغييره. كما ان صوته لايحمل بشرى الخلاص، لان مانسمعه من البصار العجوز هو مجرد صوت قانط، يائس، متألم، وعجزه عن التغيير رغم قدراته الهائلة يعكس عجز البقية لافي مجرد بعث الخصوبة في أرض عنينة ولكن في ادراك سبب تلك العنة وكنهها. وهذا العجز عن الادراك لايقتصر على افراد معينين في« الارض الخراب» بل هو ظاهرة عامة يشترك فيها حتّى انبياء هذه الارض المزيفون وقارئات الفنجان وغيرهم ممن أصبحوا البديل الهش للقيم الانسانية السامية فحين تنظر قارئة الفنجان في شدة الورق (وهي التي ينبغي ان تتمتع بقدرات واسعة على فهم الامور وعواقبها بمعايير سكان«الارض الخراب») لاتستطيع ان تميز صورة المسيح المصلوب، رمز الخلاص والانقاذ، فالكل عاجز وقانط وعنين.

وغياب المباديء واستبدالها بقارئات الفنجان يرافقه انعدام الادراك والوعي بتسلسل الزمن وبتتابع الاحداث يجعل« الارض الخراب» اقرب الى صورة فوتغرافية تصور بركة ساكنة وراكدة لابعد فيها ولاقرار ،وهذا الاسلوب يمكن اليوت أن يغوص في أعماق نفوس هذه المدينة لسبر اغوار عجزهم ويأسهم عن طريق الغاء وجودهم الفعلي في حاضر موجود، وردهم الى ماض ولى وانتهى، فأصبحوا بهذا المعنى ولهذا السبب امواتاً أو احياء اموات في الوقت نفسه».

الملاحظات

(١) امتدح الشاعر كونراد ايكن « الارض الخراب » قائلا بان نجاحها يعزى الى عدم ترابطها بدلا من حبكها ، وبفضل غموضها وليس بسبب تفاسيرها .

The poem succeeds "by virtue of its incoherence, not of its plan, by virtue of its ambiguities, not of its explanations

انظر :

Conrad Aiken, *New Republic*, 7 February 1923, as quoted by Peter Ackroyed, *T.S. Eliot* (London: Hamish Hamilton, 1984 p. 127.

(٢) يؤمن الناقد الانكليزي ف . رليفز وهو أهم من كتب عن « الارض الخراب » بالتفصيل في عام ١٩٣٢ بان وحدة الحياة في القصيدة تنبع من الانسجام بين الثقافة الانسانية والبيئة الطبيعية من خلال طقوس الخصب والسحر ، اي ان وحدة « الارض الخراب » تنبع من استثارة ذلك الماضي الانثربوولوجي الذي يعد الدعامة التي تقوم عليها القصيدة .

انظر :

F.R. Leavis, *New Bearings in English Poetry* (Harmondsworth: Penguin Books, 1952), pp. 79–80.

كما يمكن الرجوع الى اراء عدد آخر من النقاد حول وحدة القصيدة او تشتتها في مجموعة المقالات التالية (انظر على نحو خاص رأي. أ.أي رتشاردز وكذلك جكوب كورك في

Jay Martin, ed., *A Collection of Critical Essays on "The Waste Land"* (N.J.; Englewood Cliffs: Prentice Hall, 1968), pp. 44, 59–86, and pp. 87–96.

(٣) الترجمة هي من اداء الشاعر طلال عبد الرحمن والمؤلف وستظهر قريباً .

(٤) انظر تفاصيل معالجة هذه المسألة في

Cleanth Brooks and Robert Penn Warren, *Understanding Poetry* (N.Y.: Henry Holt and Co., 1938), pp. 648–649.

(٥) انظر :

Stephen Spender, *T.S. Eliot* (Harmondsworth: Penguin Books, 1975), pp. 99–101. ..

وكذلك

Grover Smith, *T.S. Eliot's Poetry and Plays: A Study in Sources and Meaning*, 2nd ed., (Chicago: Chicago Univ, Press, 1974), p. 70.



المماثلة في اللغتين العربية والانكليزية

« دراسة تقابلية »

الدكتور عباس جودة رحيم

هاشم عبدالله حسين   علي جميل عباس

١ - المقدمة:

تعدّ المماثلة (assimilation) من الظواهر الصوتية اللغوية التي كانت ولاتزال تلعب دوراً مهماً في التطور الذي يطرأ على اللغات بشكل عام لاسباب تاريخية (historical) احياناً وسياقية (contextual) احياناً اخرى . وعلى العموم فان الانسان يميل الى تحقيق هذه الظاهرة نتيجة ميله الى بذل اقل جهد عضلي (least muscular effort) ممكن في اثناء استخدامه للغة في تعامله اليومي اقتصاداً في الجهد العضلي (economy ofeffort). الذي يقوم به جهاز النطق البشري .

ومن خلال الدراسة المستفيضة للغتين العربية والانكليزية رأينا ان هناك نقاط التقاء بين لغويي العرب الاوائل امثال الخليل وسيبويه وابن جني ولغويي الغرب وخاصة المحدثين

منهم امثال Jones و Gimson و Ward و Abercrombie في الاهتمام بهذه الظاهرة وتفسير حالاتها المختلفة.

فالملاحظ ان هاتين اللغتين زاخرتان بالامثلة التي تقع ضمن هذا التصنيف من الظواهر اللغوية ، لذا رأينا ان دراسة تقابلية لهذة الظاهرة في اللغتين يمكن ان توضح الصورة بشكل افضل وتبين اوجه الشبه والاختلاف في انواعها العديدة التي سنتناولها بالتفصيل في بحثنا هذا . كما يمكن ان تفيد نتائج بحثنا متعلمي اللغة الانكليزية من الناطقين بالعربية من جهة ومتعلمي اللغة العربية من الناطقين بالانكليزية من جهةأخرى.

وقد تناولت الدراسة التعريف بالظاهرة كما وردت في مؤلفات اللغويين العرب والغربيين، وتحديد انواعها وفق معايير ثلاثة هي الجواز او الوجوب ، واتجاه التأثير ، ودرجة التأثير ، مفسرين كل نوع منها في نطاق كلمة واحدة اوفي كلمتين متجاورتين (أي في كلام متصل connected speech) . (١) وسنعرج في تحليلنا لهذه الامثلة على اوجه الشبه والاختلاف حيثما وجدت. ونأمل ان تكون هذه الدراسة حافزاً للغويين للقيام ببحوث ودراسات تقابلية لظواهر لغوية مهمة اخرى.

٢ – التعريف بظاهرة المماثلة :

لم تكن ظاهرة المماثلة معروفة بهذا الاسم عند العرب الاوائل حيث سميت بالمضارعة حيناً وبالتقريب حيناً آخر.(٢)ولكن هذا المصطلح ورد في مؤلفات المحدثين منهم.(٣)فالمماثلة من وجهة نظر الدكتور عبد الصبور شاهين هي حالة التجانس او التقارب بين صوتين

(١) اعتمدنا في التمثيل لهذه الأنواع على المصادر الاتية :
Abercrombie (1967),Ward (1929), Jones (1909 and 1918)
و « الكتاب » الجزء الرابع و« سر صناعة الاعراب » « الجزء الاول » و« الاصوات اللغوية » و « دراسة الصوت اللغوي » و « المنهج الصوتي للبنية العربية » و« الوجيز في فقه اللغة » و « التجويد والاصوات » و « التطور النحوي للغة العربية » .

(٢) ينظر « الكتاب » ٤ / ٤٧٧ – ٤٧٨ و « الخصائص » ٢ / ١٣٩ وما بعدها و « سر صناعة الاعراب » ١ / ٥٧ و ٢٠١ .

(٣) ينظر على سبيل المثال « الاصوات اللغوية » ١٨٨ وما بعدها و « التجويد والاصوات » ٩٦ وما بعدها و « المنهج الصوتي للبنية العربية » ٢٠٥ وما بعدها و « دراسة الصوت اللغوي » ٣٢٤ وما بعدها و « الوجيز في فقه اللغة » ٢٧٠ وما بعدها .

متجاورين حيث يؤثر احدهما في الاخر ويمنحه بعض اوكل خصائصه.(١) وهي كما يراها الدكتور ابراهيم محمد نجا حالة الانسجام الصوتي عند نطق كلمة او جملة ما نطقاً طبيعياً لاتكلف فيه (٢). اما الدكتور ابراهيم انيس فيرى انها ظاهرة تأثر الاصوات المتجاورة بعضها ببعض بهدف التماثل او التشابه بينها لتحقيق تقارب في صفاتهااو مخارجها (٣) .

اما على لسان اللغويين الغربين فقد ورد تعريف ماسموه ؛ (assimilation) على انه «عملية تغيير صوت مالى صوت آخر تحت تأثير صوت ثالث قريب منه في كلمة او جملة »(٤) . او كما عرفت بانها «عملية تغيير صوت الى صوت آخر بتأثير ظروف معينة بمرور الزمن او عندما تتعاقب الكلمات لتكوين الجمل »(٥) .

يتضح من هذه التعاريف ان هناك اتفاقاً بين اللغويين العرب واللغويين الغربيين في نظرتهم الى ظاهرة المماثلة ، كما اسلفنا .

٣ ــ انواع المماثلة :

هناك ثلاثة معايير لتصنيف المماثلة الى انواعها المتعددة وهي : الجواز او الوجوب ، واتجاه التأثير ، ودرجة التأثير (٦).

اولا :

من حيث الجواز او الوجوب هناك ثلاثة انواع من المماثلة :

(أ) المماثلة التاريخية (historical assimilation) وهي التي تحصل نتيجة التطور التأريخي للغة، وفي هذه الحالة تكون المماثلة واجبة اذ تحل اللفظة الجديدة

(١) ينظر « المنهج الصوتي للبنية العربية » ٢٠٨ .
(٢) ينظر « التجويد والاصوات » ٩٦ .
(٣) ينظر « الاصوات اللغوية » ١٧٩ .
(٤) Ward (1972), pp. 185 f.
ان الصياغة العربية لهذا التعريف والتعريف الذي يليه هي ترجمة الباحثين
(٥) Jones (1973), p. 132.
(٦) اعتمدنا في تصنيفنا لهذه الانواع على آراء اللغويين المحدثين امثال Abercrombie و Jones و Ward والدكتور ابراهيم انيس والدكتور احمد مختار عمر والدكتور عبد الصبور شاهين والدكتور خليل ابراهيم العطية والدكتور تمام حسان .

محل اللفظة القديمة التي ترجع الى فترة زمنية خلت ولم تعد مقبولة في الاستخدام الحالي للغة ،وهذا ينطبق على الكلمة الواحدة فقط لا الكلام المتصل. فالكلمة الانكليزية Width(١) تلفظ / wlte / بدلاً من / wldo / التي كانت مستخدمة قديماً وكذلك الحال في كلمة dogs التي تلفظ الان / dogz/ بدلا من اللفظه القديمة /dogs/ . وتزخر اللغة الانكليزية بأمثلة كثيرة من هذا النوع . اما اللغة العربية فهي الاخرى لم تخل من الامثلة لهذا النوع من المماثلة ، فقد روى لنا القدماء ان لفظة « اظّلم » . كانت تلفظ « اظطلم » ، وفي رواية اخرى وردت لفظة « اطّلم » (٢) وفي كلتا الحالتين (اى «اظّلم واطّلم») يعتبر هذا المثال من نوع المماثلة التاريخية .

ولقد عبر Jones (1976) عن الصورة العامة للمماثلة التاريخية بالصيغة الاتية :
"The sound A has been replaced by the sound B under the infiuence of the sound C". (p. 218) .

(ب) المماثلة السياقية (contextual assimilation) (٣) التي يكون استخدامها جائزاً بالنسبة للمتكلم ويكون سبب استخدامها الميل الى الاقتصاد في الجهد العضلي المصاحب للاداء الصوتي . (٤) وهذا ينطبق على الكلمة الواحدة والكلام المتصل على حد سواء . ففي اللغة الانكليزية يمكن لكلمة government ان تلفظ اما

---

(١) لقد اتبعنا في كتابتنا الصوتية للامثلة الانكليزية نظام J. Windsor–Lewis المستخدم في قاموسه التلفظي .
A Concise Pronauncing Dictionary of British and American English, London: Oxford University Press, 1972.

(٢) ينظر « الكتاب » ٤ / ٤٦٨ – ٤٦٩ .

(٣) وقد سماها بعضهم ((Juxtapositional assimilation) ، ينظر مثلا Ward (1972, p. 186) و Abercrombie (1967, p. 133) و Jones (1973, p. 132) اما اللغويون العرب فقد ميزوا بين نوعين من المماثلة السياقية واطلقوا على النوع الاول اسم « المماثلة التجاورية "contact assimilation" عندما يكون الصوتان متجاورين ، هي موضوع حديثنا في هذا الباب ، واطلقوا على النوع الثاني اسم « المماثلة التباعدية "distant assimilation" » عندما يكون الصوتان غير متجاورين كما في كلمتي « سراط » و « مسيطر » اللتين يتأثر فيهما السين بالطاء المفخمة فتصبح صاداً (اي « صراط » و « مصيطر ») . ينظر « دراسة الصوت اللغوي » ٣٢٥ .

(٤) ينظر : Jones (1973, p. 132) و « الكتاب » ٤ / ٤٦٧ و « شرح المفصل » ١٠ / ١٢١ .

/gʌvənmənt/ (بدون مماثلة) او /əʌvmmənt/ (بعد المماثلة) بعد حذف الصائت /ə/، وعبارة on purpose يمكن ان تلفظ /on p3pas/ (بدون مماثلة) او /om/ p3pəs/ (بعد المماثلة) . اما في اللغة العربية فان كلمة «اصطبر» يمكن ان تلفظ «اصّبر» (بعد المماثلة) . وقد سمع في الكلام المتصل قولهم «إصحبْ مطرأ» (بدون مماثلة) «إصحم مطرأ» (بعد المماثلة) .

لقد عبّر Jones (1967) عن التغيير في هذا النوع من المماثلة بالصيغة الاتية :
"The sound A is replaced by the sound B under the influence of the sound C". (p. 219)

(ج) المماثلة الاندماجية (ccalescent assimilation) (١) التي تحدث عندما يتأثر صوتان متجاوران بعضهما لبعض ليندمجا مكونين صوتاً جديداً يحمل صفات من الصوتين الاساسيين ، وهذا النوع من المماثلة قد يكون واجباً كما في الكلمة الانكليزية sugar التي تلفظ /Svgə/ (بعد المماثلة) بدلاً من /sjvgə/ (بدون مماثلة) ، أو جائزاً كما في الكلمة الانكليزية apportunity التي يمكن ان تلفظ /opatjunltl/ (بدون مماثلة) او /opətSunltl/ (بعد مماثلة) . كما يمكن لعبارة won't you? ان تلفظ / Wevntju بدون (مماثلة) او / Wəvntsu بعد (المماثلة) وقد خلت اللغة العربية من هذا النوع من المماثلة .

ثانياً : من حيث اتجاه التأثير : هناك ثلاثة انواع من المماثلة :

(أ) المماثلة التقدمية (progressive assimilation) التي تحصل عندما يؤثر الصوت الاول من الصوتين المتجاورين في الثاني كالذي قد يحدث في الكلمة الانكليزية happen حيث يمكن ان يقال /həepn/ (بدون مماثلة) او /həepm/ (بعد المماثلة) وفيها اثر الصوت /p/ في الصوت الذي يليه /n/ فقلبه الى /m/ . وكذلك الحال في كلمة open التي يمكن ان تلفظ / əvpn/ (بدون مماثلة) او /avpm/ (بعد المماثلة) حيث اثر الصوت /p/ في الصوت /n/ الذي يليه فقلبه الى . /m/ اما في اللغة العربية فان صيغة«افتعل» «من الفعل» «زاد» «تكون»«ازداد»بعدقلب التاء دالا بتأثير الزاي ، وكذلك الحال في صيغة «افتعل» «من الفعل» «ضرب» حيث تلفظ «اضطرب» بعد قلب طاء بتأثير الضاد . وما يجدر ذكره في هذا الباب أن المماثلة التقدمية قليلة

---

(١) ينظر Jones (1976. p.218) كما سميت "merging" ينظر Al-Hammash (1979 p. 61) .

الحدوث في اللغتين العربية والانكليزية ، (١) كما لا يمكن ان تحصل في الكلام المتصل

(ب) المماثلة الرجعية (regressive assimilation) التي تحصل عندما يؤثر الثاني من الصوتين المتجاورين في الاول كالذي يمكن ان يحدث في الكلمة الانكليزية *football* التي تلفظ /futbol/ (بدون مماثلة) او /fupbol/ (بعد المماثلة (، حيث اثر الصوت /b/ في الصوت /t/ الذي يسبقه فقلبه الى /p/ .

وكذلك الحال في الكلام المتصل حيث يمكن ان تلفظ عبارة *on purpose* /onp3pas/ (بدون مماثلة) او /om p3pasl (بعد المماثلة) ، حيث اثر الصوت /p/ في الصوت الذي يسبقه /n/ فقلبه الى /m/ ، اما في اللغة العربية فان لفظة « جنب » يمكن ان تلفظ «جمْب» ، اذ قلبت الباء النون التي تسبقها ميماً . ، وكذلك الحال في الكلام المتصل في قولنا «لندافع عنْ بلدنا» حيث يجوز قلب النون في «عن» ميماً بتأثير الباء في «بلدنا» فيصبح القول « لندافع عم بلدنا » .

وقد تحصل سلسلة من التغيرات بالاتجاه نفسه كما هو الحال في اللغة الانكليزية حيث ان عبارة *I don't care* تلفظ /al dauk kea/ (بدون مماثلة) ، ففي المرحلة الاولى من التغيير الممكن يقلب الصوت /t/ الى الصوت /k/ بتأثير الصوت /k/ في كلمة /kea/ فتصبح العبارة /aldaunk kea/ وفي المرحلة الثانية من التغيير يؤثر الصوت /k/ الناتج عن التغيير الاول في الصوت /n/ الذي يسبقه في الكلمة نفسها فيقلبه الى /ŋ/ لتصبح اللفظة /al dəgut tea/ . وفي عبارة *don't be* التي تلفظ /dəunt bl/ (بدون مماثلة (يمكن ان تحصل ثلاثة تغييرات باتجاه واحد ، حيث في المرحلة الاولى يؤثر الصوت /p/ في الصوت /t/ الذي يسبقه فيقلبه الى /b/ لتصبح اللفظة /bəunpbl /dav ، وفي المرحلة الثانية يؤثر الصوت /p/ الناتج عن التغيير الاول في الصوت /n/ الذي يسبقه فيقلبه الى /m/ لتصبح اللفظة /dəump bl/. اما في المرحلة الثالثة من التغيير الممكن فان الصوت /b/ يقلب الى /b/ بتأثير الصوت /p/ الذي يليه

(١) نحن لانتفق مع الدكتور ابراهيم انيس فيما ذهب اليه من ان المماثلة التقدمية شائعة في اللغة الانكليزية حيث العكس هو الصحيح ، اذأن الامثلة على هذا الموضوع من المماثلة قليلة فهي تقتصر على اللاحقتين "S" الجمع و "ed–" الماضي اللتين تتأثران بالصوت الذي يسبقها ، وعدد قليل من الكلمات الاخرى . ينظر « الاصوات اللغوية » ١٨١ .

فتصبح اللفظة /dəumb bl/ .(١) ولاتفوتنا الاشارة هنا الى ان اللغة العربية تخلو من امثلة لهذه التغييرات .

(ج) المماثلة لمتبادلة : (٢) وهي تجمع بين المماثلة التقدمية والمماثلة الرجعية حيث يكون التأثير في اتجاهين معاًفيقال في الكلمة الأنكليزية questsion/kweSSn/ بعد تأثير الصوت /s/ في الصوت /tS/ الذي يليه في لفظة /kwestsən/ وقلبه الى /S/ (اي بعد المماثلة التقدمية) ومن ثم تأثير الصوت الجديد /S/ في الصوت /s/ الذي يسبقه وقلبه الى /S/ (اي بعد المماثلة الرجعية). اما في اللغة العربية فان لفظة «ادكر» مثال على المماثلة المتبادلة حيث ان تاء «افتعل» من الفعل «ذكر» قلبت دالا بتأثير الذال التي تسبقها (اى بعد المماثلة التقدمية) ومن ثم قلبت الذال دالا بتأثير الدال الناتجة عن المماثلة التقدمية (اى بعد المماثلة الرجعية). ويجدر الذكر هنا ان المماثلة المتبادلة مقصورة على الكلمة الواحدة لاالكلام المتصل.

ثالثاً :

من حيث درجة التأثير : هناك نوعان من المماثلة :

(أ) المماثلة الجزئية (partial assimilation) التي تحصل عندما يكون التقارب الصوتي جزئيا (اي غير تام) كالذي يحدث في الكلمة الانكليزية open التي يمكن ان تلفظ /əupn/ (بدون مماثلة) أو əuPm (بعدالمماثلة) . وكذلك الحال في الكلام المتصل كما في ten boys حيث يمكن ان تلفظ tɛn bɔlz / (بدون مماثلة) او /tem bolz/ (بعد المماثلة). اما في اللغة العربية فان كلمة «انبعث» يمكن ان تلفظ نونها ميماً فيقال «أمبعث» وكذلك الحال في الكلام المتصل كقولنا «من بدأ؟» حيث يمكن ان تلفظ النون الساكنة ميماً ساكنة فيقال «مَمْ بدأ» .

---

(١) كما وردت ايضا لفظة / davmbl / بحذف الصوت / b / من الكلمة / deumb / وهذا لايقع ضمن اهتمامات بحثنا هذا، حيث انه يخص ظاهرة اخرى تعرف «الاسقاط "elision"»

(٢) لقد وردت هذه التسمية على لسان المستشرق الالماني برجشترامر Bergstrasser في مؤلفه « التطور النحوي للغة العربية » ٣٠ .

(ب) المماثلة التامة (complete assimilation). التي تحصل عندما يكون التقارب الصوتي كلياً فيصبح الصوتان المتجاوران متشابهين في كافة صفاتهما وقد عرف هذا النوع من المماثلة عند العرب بـ «الادغام» . (١)

ففي اللغة الانكليزية يمكن ان تلفظ كلمة governmet /gʌvnmənt/ (بدون مماثلة) او /gʌvmment/ (بعد المماثلة) . وكذلك الحال في الكلام المتصل horse shoe– التي يمكن ان تلفظ /hɔsSu/ (بدون مماثلة) او/hɔSSu/ (بعد المماثلة) اما في اللغة العربية فالامثلة كثيرة وتتضح بشكل خاص في الكلمات المعروفة بـ«ال» ، البادئة بحروف شمسية كما في كلمة «الرجل» التي تنطق «أرّجل» وكلمة «الشمس» التي تنطق «أشمس» ونون التنوين كما في «كثير منهم» (أي «كثير ن منهم» من الناحية اللفظية التي تنطق «كثير منهم» (أي كثير منهم») وفي قوله تعالى «.. يومئذٍ واهيه» (أي «يومئذن واهيه» من الناحية اللفظية) التي تنطق «يومئذٍ وواهيه» (أي يومئذٍ واّهية» اما في الحالات الاخرى (أي عدا حالتي التعريف والتنوين» (فيمكن ان يقال «أردت» (بدون مماثلة) او (أرتّ» (بعد المماثلة) . كذلك الحال في الكلام المتصل في قوله تعالى «كذبت ثمود بطغواها» التي يمكن ان تقرأ «كذبثّمود بطغواها» .

وفي بعض الحالات يحدث ان يتأثر صوت ما مرتين بهدف تحقيق مماثلة تامه ، ففي الانكليزية يمكن ان يغير الصوت /z/ في عبارة /IzSI/ الى /3/ بتأثير الصوت/S/

---

(١) لقد اورد اللغويين العرب ثلاث حالات من الادغام فمثلوا للحالة الاولى بـ« قطع و« هذب» وكذلك في الكلام المتصل في قوله تعالى « اضرب بعصاك الحجر » واعتبروا الطائين والذالين والبائين مثلين ، ومثلوا للحالة الثانية بكلمة « ود » التي تلفظ « وتد » (بدون مماثلة) والكلام المتصل في قولهم « قد تبين » التي تلفظ « قت تبين » (بعد المماثلة) واعتبروا الدالين والتاءين متجانسين . اما بالنسبة للحالة الثالثة فقد مثلوا لها بكلمة « انصل » والكلام المتصل في قولهم «قس سمع» (بعد المماثلة) التي تلفظ «قد سمع» (بدون مماثلة) واعتبروا التاءين والسين متقاربين . ينظر «الكتاب » ٤ / ٤٣١ – ٤٧٧ و« الخصائص» ٢ / ١٣٩ و« شرح المفصل» ١٠ / ١٢٠ – ١٤٣ و« التجويد والاصوات » ١١٥ – ١١٧ و « الاصوات اللغوية» ١٨٧ – ١٨٨ و« اللغة العربية معناها ومبناها» ٢٧٩ – ٢٩٥ . ومما يجدر ذكره عن الادغام في اللغة العربية ان جميع الاصوات قابلة للادغام عدا الاصوات الحلقية (الغين والحاء والعين والخاء والهاء والهمزة) لان حروف الحلق ليست باصل للادغام لبعدها عن مخارج الحروف وقلتها ينظر « المقتضب » ١ / ٢٠٧ و« النشر في القراءات العشر » ٢ / ٢٣ و« الاصوات اللغوية » ١٨٨ .

الذي يليه فتصبح العبارة /I3SI/ ، ويمكن ان يحصل تغيير ثان فيقلب الصوت الجديد /3/ الى /S/ فتصبح العبارة /IS SI/ (أي بعد تحقيق مماثلة تامة) . وفي اللغة العربية يمكن ان تقلب تاء «افتعل» من الفعل «ضرب» طاء بتأثير الضاد التي تسبقها فتصبح اللفظة «اضطرب» ويحصل تغيير ثان حيث تقلب الطاء الناتجة عن التغيير الاول ضاداً فتصبح الكلمة «اضرب» (أي بعد تحقيق مماثلة تامة) .

٤ – الصفات التي تتأثر بظاهرة المماثلة :

يتضح مما تقدم ان تحقيق المماثلة بهدف الاقتصاد في الجهد العضلي يتطلب تغيير صفات معينة للصوت المتأثر لكي تصبح قريبة او مماثلة لصفات الصوت المجاور له . اما عن ماهية هذه الصفات التي يمكن ان يصيبها التغيير فانها تدخل في ابواب ثلاثة :

(أ) الجهر والهمس (state of the glottis) ، عندما يجاور صوت مجهور (voiced) صوتاً مهموساً (voiceless) يغير الى مايقابله من الاصوات المهموسة كي نحصل على صوتين مشتركين بصفة الهمس ، والعكس ايضا صحيح فعند مجاورة صوت مهموس لصوت مجهور فانه يغير الى مايقابله من الاصوات المجهورة كي نحصل على صوتين مشتركين بصفة الجهر . ففي الكلمة الانكليزية *newspaper* يكون الصوت المجهور /z/ في لفظة /njuzpelpə/ مجاورا للصوت المهموس /p/ ، لذا غيِّر الاول الى مايقابله من الاصوات المهموسة وهو /S/ فتصبح اللفظة /njuspelpə/ حيث يتحقق اشتراك الصوتين المتجاورين /S/ و /p/ بصفة الهمس . وكذلك الحال في الكلام المتصل في المثال *good time* حيث يغير الصوت المجهور /d/ في كلمة /gud/ المجاور للصوت المهموس /t/ في كلمة /talm/ الى مايقابله من الاصوات المهموسة وهو /t/ ليتحقق اشتراك الصوتين المتجاورين بصفة الهمس في لفظة /gut talm/ (بعد المماثلة) بدلامن /gud talm/ الخالية من المماثلة. اما في كلمة *raspberry* فيغيَّر الصوت المهموس /p/ المجاور للصوت المجهور /b/ في لفظة /raspberl/ الى مايقابله من الاصوات المجهورة وهو /b/ ليتحقق اشتراكهما بصفة الجهر ونتيجة لهذا التغيير يحصل تغيير آخر من النوع نفسه بالنسبة للصوت المهموس /S/ المجاور للصوت المجهور /b/ الناتج عن التغيير الأول فيصبح /z/ ليتحقق اشتراك /z/ و /b/ بصفة الجهر . ويميل متكلمو اللغة الانكليزية الاصليون الى اسقاط الصوت /b/

الاول لتصبح اللفظة المقبولة /razbərl/ (بعد المماثلة والاسقاط) بدلا من /raspbərl/ التي كانت مستخدمة من قبل .

ويحدث هذا في الكلام المتصل كذلك ففي عبارة sit down تُغيّر /t/ المهموسة في كلمة /s/t/ المجاورة لـ /d/ المجهورة في كلمة /daun/ الى مايقابلها من الاصوات المجهورة وهو /d/ ليتحقق اشتراكهما بصفة الجهر حيث يقال sid daun/ بدلاً من /sitdaun/ الخالية من المماثلة .

اما في اللغة العربية فصيغة « افتعل » « من الفعل » « زان » المحتوية على التاء المهموسة المجاورة للزاي المجهورة تقلب تاوها الى مايقابلها من الاصوات المجهورة وهو الدال ليتحقق اشتراكهما بصفة الجهر لتصبح اللفظة « ازدان » بدلا من « ازتان » الخالية من المماثلة. وفي الكلام المتصل « نَمَتْ دوبلات » تقلب التاء المهموسة الساكنة دالا مجهورة ساكنة لتشترك مع الدال التي تليها بصفة الجهر فتصبح اللفظة «نَمَدْ دوبلات» ومثالاً على تحقيق الاشتراك بصفة الهمس نورد كلمة « أردت » اذ تقلب الدال المجهورة المجاورة للتاء المهموسة الى مايقابلها من الاصوات المهموسة وهو التاء فتصبح اللفظة « ارتّ » (اي « ارت ») بعد المماثلة . وفي الكلام المتصل « قدْ تمّ » تقلب الدال المجهورة الساكنة تاء مهموسة لتشترك مع التاء التي تليها بصفة الهمس فتصبح اللفظة «قتْ تمّ » (اي قتمّ) بعد المماثلة .

(ب) مخرج الصوت (place of articulation) : فعند تجاور صوتين ليسا من مخرج واحد فان الميل يكون نحو توحيد او تقريب مخرجيهما لو اريد تحقيق نوع من المماثلة . ففي الكلمة الانكليزية open يغير الصوت /n/ اللثوى (alveolar) والمجاور للصوت الشنوي (bilabial) /p/ الى مايقابله من الاصوات الشفوية وهو /m/ ليتحقق اشتراكهما في المخرج فتصبح اللفظة /əupm/ (بعد المماثلة) بدلا من /əupn/ الخالية من المماثلة . وفي الكلام المتصل get going يغير الصوت اللثوي /t/ المجاور للصوت الاقصى حنكي (velar) /g/ الى مايقابله من الاصوات الاقصى حنكية وهو /k/ ليتحقق اشتراكهما في المخرج فتصبح اللفظة /gəkgəuij/ (بعد المماثلة) بدلا من /get gəulj/ الخالية من المماثلة .

اما في اللغة العربية ففي كلمة « انبرى » تقلب النون اللثوية المجاورة للباء الشفوية الى مايقابلها من الاصوات الشفوية وهي الميم ليتحقق اشتراكهما بصفة المخرج فتصبح اللفظة

«امبرى»(بعد المماثلة) . وكذلك الحال في الكلام المتصل حيث يقال« امطرَك كثيراً» بدلا من « امطرَتْ كثيراً » بعد ان تُغيّر التاء اللثوية الساكنة المجاورة للكاف الاقصى حنكية الى مايقابلها من الاصوات الاقصى حنكية وهي الكاف فيتحقق بذلك اشتراك الصوتين المتجاورين بصفة المخرج .

(ج) كيفية اعاقة مجرى الهواء (manner of articulation) ، فعند تجاور صوتين مختلفين بكيفية اعاقة مجرى الهواء في اثناء ادائهما يكون الميل نحو توحيد الكيفية . ففي الكلمة الانكليزية *question* التي تلفظ /kwestSən/ (بدون مماثلة) يقلب الصوت /tS/ الانفجاري الاحتكاكي (affricate) المجاور للصوت الاحتكاكي (fricative) /s/ الى الصوت الاحتكاكي /S/ لنحصل على لفظة/kweSSn/ (بعد المماثلة) بعد تأثير الصوت الجديد /S/ على الصوت /s/ وقلبة الى /S/ . وفي عبارة *shut the door* يقلب الصوت الانفجاري (plosive /t/ المجاور للصوت الاحتكاكي /t/ الى الصوت الاحتكاكي /O/ ليتحقق اشتراك الصوتين /O/و / t/ بصفة كيفية اعاقة مجرى الهواء فتلفظ العبارة /SAetədɔ/ (بعد المماثلة) بدلا من /SAt tə dɔ/ الخالية من المماثلة . كما يمكن ان يجري تغييراً آخر فتقلب/O/ الى /t/ لتصبح العبارة /SAt tə dɔ/ (اي بعد تحقيق اشتراك الصوتين المتجاورين بصفة الجهر اضافة الى اشتراكهما بصفة كيفية اعاقة مجرى الهواء المتحقق نتيجة التغيير الاول) .

اما في اللغة العربية فيقال « لبثّم » (بعد المماثلة) بدلاً من « لبثتُم» الخالية من المماثلة، حيث تقلب التاء الانفجارية المجاورة للثاء الاحتكاكية الى ثاء احتكاكية ثانية ثم تدغم الثاءان لنحصل على لفظة « لبثّم» ، اي بعد تحقيق اشتراك الصوتين المتجاورين بصفة كيفية اعادة مجرى الهواء . وكذلك الحال في الكلام المتصل في قوله تعالى « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » التي تلفظ « ولقز زيّنا ... » (بعد المماثلة) اذ تقلب الدال الانفجارية الساكنة المجاورة للزاي الاحتكاكية الى زاي احتكاكية ثانية ثم تدغم الزايان ليتحقق اشتراكهما بصفة كيفية اعاقة مجرى الهواء .

وما يجدر ذكره في هذا المجال هو ان التغيير قد يكون في اكثر من باب من الابواب الثلاثة المذكورة في المثال نفسه كما ورد في اللفظة الاخيرة للمثال الانكليزي *shut the door* هي /SAttə dɔ/ حيث ان التغيير شمل البـاب الاول عند قلب الصوت المهموس

/O/ الى الصوت المجهور / t /، والباب الثاني عند قلب الصوت اللثوي /t/ الى الصوت الاسناني (interdental) /O/ ، والباب الثالث عند قلب الصوت الانفجاري /t/ الى الصوت الاحتكاكي /O/ . ومثال ذلك في اللغة العربية اللفظتان « لبثم » و « ولقز زبنا ... » ففي اللفظة الاولى قلبت التاء الانفجارية واللثوية الى الثاء الاحتكاكية والاسنانية (اي ان التغيير اصاب البابين الثاني والثالث) . وفي اللفظة الثانية « ولقز زبنا .. » قلبت الدال الانفجارية واللثوية الى الزاي الاحتكاكية واللثوية الخلفية (post alveolar) : اي ان التغيير اصاب البابين الثاني والثالث كذلك .

٥ ــ الخاتمة

يتضح مما تقدم ان اللغويين العرب واللغويين الغربيين يتفقون لحد ما في شرحهم لظاهرة المماثلة فهي في نظرهم عملية احلال صوت محل صوت آخر يقترب في صفاته من الصوت المجاور له لدرجة اكبر اوربما يماثله تماماً .

كما يتفقون على ان سبب حدوث المماثلة في النطق هو ميل الانسان الى الاقتصاد في الجهد العضلي لجهاز النطق .

وفي نطاق الحديث عن انواع المماثلة اتضح لنا ان اللغتين العربية والانكليزية تلتقيان في عدد من النقاط وتختلفان في نقاط اخرى . ففي باب المماثلة التأريخية وجدنا اللغتين متفقتين في احتوائهما على امثلة عديدة وفي حصول هذا النوع من المماثلة في الكلمة الواحدة لاالكلام المتصل . وفي باب المماثلة السياقية وجدنا ان اللغتين تزخران بالامثلة سواء في الكلمة الواحدة او في الكلام المتصل . اما في المماثلة الاندماجية فيجدر القول ان اللغة العربية تخلو من امثلة لهذا النوع من المماثلة في حين احتوت اللغة الانكليزية على امثلة عديدة سواء على نطاق الكلمة الواحدة او الكلام المتصل . وقد تبين لنا ان المماثلة الرجعية كثيرة الحدوث في حين ان المماثلة التقدمية نادرة الحدوث في اللغة العربية وان وجدت في اللغة الانكليزية فانها تقتصر على بعض اللواحق كال (S ــ) وال (ed ــ) فضلا عن بعض الكلمات النادرة ، وفي معظم هذه الحالات تكون المماثلة من النوع التأريخي لاالسياقي . ولايفوتنا القول ان المماثلة التقدمية تقتصر على الكلمة الواحدة في كلتا اللغتين . اما المماثلة المتبادلة فهي الاخرى واردة في اللغتين وتقتصر على الكلمة الواحدة

ولقد افرزت اللغة الانكليزية حالات تحدث فيها سلسلة من التغييرات باتجاه واحد هو الاتجاه الرجعي ، بينما خلت اللغة العربية من هـذه الحالات ، والمماثلة الجزئية هي الاخرى ممكنة في اللغتين سواء في الكلمة الواحدة او في الكلام المتصل . اما بالنسبة ، للمماثلة التامة عرفت عند العرب بـ « الادغام » حيث ميزوا بين ثلاثة انواع من الادغام واطالوا الحديث في هذا الموضوع وذلك لصلته بقراءة القرآن الكريم واحكام تجويده في حين لم تعرض لنا اللغة الانكليزية مثل هذا التمييز . وفي حالات كثيرة قـد يحدث في اللغتين اكثر من تغيير من اجل تحقيق مماثلة تامة ، ويجدر الـذكر هنا ان المماثلة التامة في اللغة العربية تقترن في كثير من الحالات بنون التنوين ولام التعريف اللتين لاوجود لهما في اللغة الانكليزية .

وفي سياق الحديث عن الصفات التي تتأثر بظاهرة المماثلة اتضح انها تتلخص بالجهر والهمس من جهه ، ومخرج الصوت من جهة ثانية ، وكيفية اعاقة مجرى الهواء من جهة ثالثة . كمـا تبين ان هذا هو الحال بالنسبة للغتين وان امثلة لهذه الحالات متوفرة في نطاق الكلمة الواحدة والكلام المتصل على حد سواء .

وفضلا عن ذلك فان التغير قد يصيب صفة الجهر او الهمس ومخرج الصوت وكيفية اعاقة مجرى الهواء معاً ، وقد يصيب احداها اواثنتين منهما . ولا يفوتنا ان نذكر ان كل مثال ورد في هذا البحث يمكن ان يفسر في ضوء المعايير الثلاثة المعتمدة في تصنيف انواع المماثلة وهي الجواز او الوجوب ، واتجاه التأثير ، ودرجة التأثير . معنى هذا ان كل مثال لابد ان يكون اما تاريخياً او سياقياً او اندماجياً استناداً الى المعيار الاول ، وتقدمياً اورجعياً او متبادلاً استناداً الى المعيار الثاني ، وجزئياً اوتاماً استناداً الى المعيار الثالث . ففي ضوء هذا يعتبر المثال الانكليزي/om p3pəs/ سياقياً لان من الممكن ايضاً لفظه (أي لان المماثلة جائزة لاواجبة) ، ورجعياً لان الثاني من الصوتين المتجاورين وهو /p/ اثر في الصوت الذي يسبقه وهو /n/ فغيّره الى /m/ وجزئياً لان الصوت /n/ لم يغير الى صوت مماثل للصوت الذي يليه وهو /p/ بل غير الى الصوت/m/ الذي يشترك مع الصوت /p/ بصفة المخرج فقط . وكذلك الحال بالنسبة للمثال العربي « جمب» الذي يعتبر سياقياً لان المماثلة فيه جائزة لاواجبة حيث يمكن ايضاً ان يلفظ « جنْب » ورجعياً لان الثاني من الصوتين المتجاورين وهو الباء اثر في اولهما وهـو النون فقلبه الى ميم ، وجزئياً لان الصوتين المتجاورين (بعد المماثلة) وهما الميم والباء ليسا بمتماثلين تماماً . وهكذا يمكن تفسير أي من الامثلة التي وردت في بحثنا هـذا في ضوء المعايير الثلاثة التي حددناها.

المصادر والمراجع

(أ) العربية :

١ – « الاصوات اللغويـة » – د. ابراهيم انيس – مكتبة الانكلو – المصرية الطبعة الرابعة ١٩٧١ .

٢ – « التجويد والاصوات » – د. ابراهيم محمد نجا – مطبعة السعادة بمصر د. ت .

٣ – « التطور النحوي للغة العربية » – ج. برجشتراسر – اخراج وتصحيح وتعليق د. رمضان عبد التواب . دار الرفاعي بالرياض ١٩٨٢ .

٤ – « الخصائص » – ابو الفتح عثمان بن جني – تح محمد علي النجار . دار الهدى – بيروت . الطبعة الثانية . د. ت.

٥ – « دراسة الصوت اللغوي » – د. احمد مختار عمر – مطابع سجل العرب – القاهرة . الطبعة الاولى ١٩٧٦ .

٦ – « سر صناعة الاعراب » – ابو الفتح عثمان بن جني – (الجزء الاول) تح مصطفى السقا واخرين – عيسى البابي الحلبي واولاده بمصـر . الطبعـة الاولى ١٩٥٤ .

٧ – « شرح المفصل » – موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش – عالم الكتب – بيروت . د. ت.

٨ – « علم اللغة العام » – الاصوات – د. كمال بشر – دار المعارف بمصر – الطبعة الرابعة ١٩٧٥ .

٩ – « في البحث الصوتي عند العرب » – د. خليل ابراهيم العطية – دار الجاحظ – بغداد ١٩٨٣ .

١٠ – « الكتاب » – سيبويه – تح عبد السلام هارون – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٥ . (الجزء الرابع) .

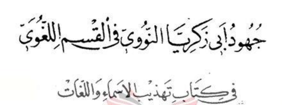
١١ – « اللغة العربية معناها ومبناها » – د. تمام حسان – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٣ .

١٢ – « المقتضب » – المبّرد – تح محمد عبد الخالق عضيمة – عالم الكتب – بيروت د. ت.

١٣ – « المنهج الصوتي للبنية العربية – رؤية جديدة في الصرف العربي » – د. عبد الصبور شاهين – مؤسسة الرسالة – بيروت ١٩٨٠ .
١٤ – « النشر في القراءات العشر » – ابن الجزري – تصحيح علي محمد الضباع – دار الكتب العلمية – بيروت . د. ت .
١٥ – « الوجيز في فقه اللغة – محمد الانطاكي – مكتبة دار الشروق – بيروت الطبعة الثالثة . د. ت.

ب. الانكليزية :

(1) Abercrombie, D. (1967). *Elements of General Phonetics*, Edinburgh: Edinburgh University Press.
(2) Al-Hammash, K.I. (1979). *English Phonetics and Phonology*, Baghdad: Al-Rissafi Printing Press.
(3) Jones, D. (1909). *The Pronunciation of English*, Cambridge: Cambridge University Press (1973 edition).
(4) ———— (1918). *An Outline of English Phonetics*, Cambridge: Cambridge University Press (1976 edition).
(5) Ward, I. C. (1929). *The Phonetics of English*, Cambridge: Cambridge University Press (1972 edition).
(6) Windson-Lewis,J. (1972). *A Concise Pronouncing Dictionary of British and American English*, London: Oxford University Press.



علي جميل عباس / كلية التربية
جامعة الموصل

أولاً : المؤلف والكتاب (*)

هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن حزام بن محمد بن جمعة النووي الشيخ الامام محيى الدين ابو زكريا (١) اما النووي النسبة (فقد كان علماً اقترن باسمه.

(*) تنبيهان فنيان :

(أ) لكثرة مانستقبل من الاحالات الى كتاب : تهذيب الاسماء واللغات / القسم الثاني وهو اللغوي منه ، آثرنا ان نختصر الاحالة على الوجه الآتي (ت / ٢:) ثم نكتفي بذكر المادة اللغوية .

(ب) لكثرة ماسنضطر اليه من قولنا : ينظر آثرنا الرمز لهذا المعنى بالخط المنكسر على هيئة الزاوية > .

(١) تاريخ ابن الفرات لناصر الدين محمد بن عبد الرحمن الفرات ٧ / ١٠٠٨ ، تذكرة الحفاظ للامام أبي شمس الدين الذهبي ٧ / ١٤٧٠ ، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٨ / ٣٩٥ ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي ٧ / ٢٧٨ ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ٥ / ٣٥٤ ، الاعلام لخير الدين الزركلي ٩ / ١٨٥ ، معجم المؤلفين عمر رضا كحالة ٢٠٣ .

ولد النووي في المحرم وقبل العشر الأوسط منه سنة احدى وثلاثين وستمائة (١) اما فضله وعلمه فأشهرمن أن يذكر ، اذقال عنه الذهبي «لزم الأشتغال ليلا ونهاراً نحو عشرين سنة، حتى فاق الاقران وتقدم على جميع الطلبة وحاز قصب السبق في العلم والعمل» (٢) فقد حفظ (التنبيه) في أربعة اشهر ونصف ،وحفظ ربع «المهذب» في باقي السنة، وهو ابن تسع عشرة سنة وقد قال عن نفسه «انه كان يقرأ كل يوم اثني عشر درساً على المشايخ شرحاً وتصحيحاً ودرسين في الوسيط ودرساً في المهذب ودرساً في الجمع بين الصحيحين ودرساً في صحيح مسلم، ودرساً في اللمع لابن جني ، ودرساً في اصلاح المنطق لابن السكيت ودرساً فيالتصريف، ودرساً في أصول الفقه .. وكنت اعلق على جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل ووضوح عبارة وضبط لغة» والحق ان هذا الفضل رأيناه في واحد من آثاره القيمة . وكان مع تبحره في العلم وسعة معرفته .. رأساً في الزهد والورع عديم المثل ، والتطويل بذكر كراماته «تطويل في مشهور واسهاب في معروف» (٥)

وقد ظل هذا العلم يدرس وينشر العلم الجم بالمدرسة الركنية، والفلكية ، والاقبالية . وولي دار الحديث الاشرفية (٦) وبقي فيها الى حين وفاته فيرجب(٧)، وقيل في ليلة الأربعاء الرابع عشر منه (٨) سنة ست وسبعين وستمائة ، ودفن بقريته «نوى» مخلفاً لنا اثاراً قيمة لاقت قبولا في عصره وما زالت مكانتها سامقة حتى يومنا هذا مما لامجال لحصره في هذا الموضع. ونذكر منها هذه الآثار:

---

(١) أجمعت المصادر التي أشرنا اليها في التعليقة الاولى على هذه الولادة ، الا ان تغري بردي فقد حدد ولادته في العشر الاوسط منه ، ينظر : النجوم الزاهر ٧ / ٢٧٨ .

(٢) تذكرة الحفاظ ٤ / ١٤٧٠ – ١٤٧١ ، شذرات الذهب ٥ / ٣٥٥ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ٧ / ١٠٩ ، طبقات الشافعية ٨ / ٣٩٧ ، البداية والنهاية لابن كثير ١٣ / ٢٧٩ ، شذرات الذهب ٥ / ٣٥٤ .

(٤) طبقات الشافعية ٨ / ٣٩٧ ، شذرات الذهب ٥ / ٣٥٥ ، تاريخ ابن الفرات ١ / ١٠٨ – ١٠٩ .

(٥) طبقات الشافعية الكبرى ٨ / ٣٩٧ ، النجوم الزاهرة ٧ / ٢٧٨ ، شذرات الذهب ٥ / ٣٥٦ .

(٦) تاريخ ابن الفرات ٧ / ١٠٩ ، طبقات الشافعية ٨ / ٣٩٧ ، البداية والنهاية ١٣ / ٢٧٩ ،

(٧) طبقات الشافعية ٨ / ٣٩٨ .

(٨) النجوم الزاهرة ٧ / ٢٧٨ ، شذرات الذهب ٥ / ٣٥٦ .

١ – الأربعين في الحديث مشهور وعليه عدة شروح وحواش (١)
٢ – التبيان في آداب حملة القرآن (٢). اختصره وسماه «مختار التبيان» مطبوع حققه جمعة محمد علي الخولي .
٣ – الروضة في الفروع «روضة الطالبين وعمدة المتقين (٣)» وله شروح ونكت وحواش مطبوع.
٤ – رياض الصالحين، وله شرح كبير (٤) مطبوع حققه شعيب الارنؤوط .
٥ – شرح مسلم (٥) مطبوع.
٦ – تهذيب الاسماء واللغات (٦) مطبوع وهو كتاب الذي اخترناه في بحثنا هذا .
٧ – غيث النفع في القراءات السبع (٧) مطبوع.
٨ – لغات التنبيه (٨)
٩ – المبهم على الحروف المعجم (٩)
١٠ – منهاج الطالبين (١٠)

هذا وقد اكتفى المتقدمون بذكر الاسم الاول من الكتاب كقولهم «الرياض» و«التبيان والمنهاج»،..... إلاأن المتأخرين قد ذكروا اسم هذه الكتب كاملة . وقد اخترنا القسم

---

(١) كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، لمصطفى بن عبد الله ٥٩ .
(٢) طبقات الشافعية ٨ / ٣٩٨، كشف الظنون، ٣٤٠، شذرات الذهب ٥ /٣٥٦، هدية العارفين اسماء المؤلفين وآثار المصنفين، لاسماعيل باشا البغدادي ٢ / ٥٢٥.
(٣) تاريخ ابن الفرات ٧ / ١٠٩، تذكرة الحفاظ ٤ / ١٤٧١، طبقات الشافعية ٨ / ٣٩٨
(٤) طبقات الشافعية ٨ / ٣٩٨، كشف الظنون ٩٣٦، شذرات الذهب ٥ / ٣٥٦، هدية العارفين ٢ / ٥٢٥ .
(٥) طبقات الشافعية ٨ / ٣٩٨، كشف الظنون ٥٥٠ .
(٦) طبقات الشافعية ٨ / ٣٩٨ كشف الظنون ٥١٤ هدية العارفين ٢ / ٥٢٥ .
(٧) هدية العارفين ٢ / ٥٢٥ .
(٨) طبقات الشافعية الكبرى ٨ / ٣٩٨ .
(٩) طبقات الشافعية ٨ / ٣٩٨، كشف الظنون ١٨٤٤، شذرات الذهب ٥ / ٣٥٦، هدية العارفين ٢ / ٥٢٥ .
(١٠) طبقات الشافعية الكبرى ٨ / ٣٩٨، كشف الظنون ١٨٧٧ . شذرات الذهب ٥ / ٣٥٦، هدية العارفين ٢ / ٥٢٥ .
فهرس مخطوطات مكتبة الاوقاف العامة في الموصل ٥ / ١٦٧، ٣ / ١٨٢ .

الثاني من كتابه « تهذيب الاسماء واللغات» موضوعاً لهذا البحث ، الذي سترصد جهود الرجل فيه ، فقد جمع كتابه هذا من الالفاظ الموجودة في كتب مشهورة ، متداولة ، سائرة في كل الامصار مشهورة للخواص والمبتدئين وهي كما جاء في مقدمته (١) مختصر أبي ابراهيم المزني ، والمهذب والتنبيه ، والوسيط ، والوجيز ، والروضة ؛ وهو الكتاب الذي اختصره من شرح الوجيز للامام أبي القاسم الرافعي ، فجاء تصنيفه لاستيعابها على قسمين ؛ القسم الاول في «الاسماء » ، والثاني في «اللغات»،وهو القسم اللغوي ، وقد ضم هذا القسم خمسة وثمانمائة اصل لغوي ، اختارها من أصوله ومع هذا فقد لوحظ ان ستة وتسعين (٢) اصلا منها — على سبيل المثال لاالحصر — ترك غفلا دون الاشارة الى وروده عن أي من هذه الأصول ، كما لوحظ انه اعتمد في نقل بعضها على اكثر من أصل منها ، ولم يختر اصوله اللغوية من مصادره هذه اعتباطاً انما كان رائده في ذلك قصد الايضاح وإعانة القاريء على التقاط الدلالة المناسبة ، ولهذا وردت أصوله اللغوية من النمط الذي يحتمل تعدداً في الدلالة ناشئاً عن تعدد الاستعمال ، أو ان يحتمل الأصل اكثر من لغة ، ومايضاف الى ذلك من أمور سنقتنيها في مواضعها :

وقد اعتمد النووي بجهوده اللغوية على مصادر ومراجع مختلفة تتناول دراسة اللغة بأساليب مختلفة ، ومناهج شتى ، وبذل جهوداً كبيرة في البحث والاستقصاء ، وتمحيص الاراء من بطون امهات الكتب التي عنيت باللغات،وغريب الحديث ، والتفسير ، ولحن العوام ، والفقه والأصول ؛ والكلام ...

اما اهم تلك الكتب فنذكرها كما جاء في مقدمة الكتاب : —

١ — من كتب اللغة المشهورة : —

تهذيب اللغة للازهري ، والمحكم لابن سيده ، والجمهرة لابن دريد، والمجمل لابن فارس ، وصحاح الجوهري ، وغيرها من الكتب المشهورة في اللغة وقد اضاف اليها كتاب شرح الفاظ مختصر المزني ، او جامع القزاز .

---

(١) تهذيب الاسماء واللغات ١ / ٣ .

(٢) ت/ ٢ : > على سبيل المثال من حرفين فقط الهمزية والبائية ، ابط ، أجص ،أون أيض، بأر، بخع، بدا، برق، برن، برى، بر، بشر، بصر، بطأ، بث ،بقق ، بقل ، بكر، بلع، بلل، بهم، بور، بين .

٢ – من كتب غريب الحديث :–
غريب أبي عبيدة وصاحبه أبي عبيد ، وابن قتيبة ، والخطامي ، والهروي .
٣ – من كتب التفسير : –
البسيط للواحدي ، وكتاب الرماني المعتزلي ، وغيرهما من التفاسير الجامعة للغات ،
٤ – من الكتب المصنفة في أنواع مفردات اللغات :
غريب المصنف لأبي عبيد والقاسم بن سلام ، اصلاح المنطق لابن السكيت أدب الكاتب لابن قتيبة ، وشروحه ، كتاب الزاهر لابن الانباري ، وشروح الفصيح .
٥ – من الكتب المصنفة في لحن العوام للمتقدمين والمتأخرين مكتفيا بقوله « وهي كثيرة مشهورة » .
٦ – من شروح الحديث
معالم السنن للخطابي في شرح سنن أبي داود والاعلام له في شرح البخاري والتمهيد لابن عبد البر في شرح الموطأ، وشرح البخاري لأبن بطال، شرح الترمذي لابن العربي ، وشرح مسلم للقاضي عياض ، والمشارق له ومطالع الأنوار لأبن قرقول وغيرها .
٧ – كتب الاصول والكلام ولم يسمها
وقد اكتفى بذكر اشهر مصادره التي اعتمد عليها في هذا القسم وصنف مصادر الى ضروب وفي كل ضرب اكتفى بالأهم والأشهر (١) وهذا الذي اورده المؤلف ليس كل مااعتمد عليه بل فاق ذلك العدد بكثير .

وهذا الكتاب من المعجمات الدلالية المتميزة عن المعجمات المألوفة من حيث ترتيبها فقد رتبه على الطريقة الهجائية مراعياً الحرف الأول والثاني ، وما بعدهما مقدماً الاول فالأول، معتبراً الحروف الأصلية، ولم ينظر الى الزوائد وان ذكر بعضها في باب على لفظه، فيريد بذلك التسهيل والتنبيه على ان الحرف الفلاني زائد مع ذكره في موضعه الاصلي وذلك لينتفع به بعض المتفقهين ممن لايعرف التصريف،ولمنهجه هذا لم يردد ماجاء بكتب الاسبقين فقط ، وانما أضاف شيئاً جديداً الى اللغات العربية والعجمية والمعربة والاصطلاحات الشرعية والالفاظ الفقهية وغيرها ...

(١) تهذيب الاسماء اللغات ١ / ٧ .

ويرمي هذا المعجم الى بيان المفردات الموضوعة لمختلف المعاني ، فيرتب المعاني بطريقة خاصة ، ويذكر الألفاظ التي تقال للتعبير عن كل معنى فيها وقد لاحظناه يستعمل اسلوباً متطوراً في معجمه ،فهو يعقد صلة بين النحو وبين المعنى، فهو يعرض الصيغ في صور نحوية فيتناول التجريدات التي يطلقها الدارس على صيغ اللغة (مفرد، ومثنى ،وجمع، ومذكر، ومؤنث، وجمل فعلية، واسمية) .

اما الوسائل التي تناولها في تفسير المعنى بالنسبة للألفاظ فهي :

تفسير الكلمة باكثر من كلمة، وكذلك بتفسيرها بلغة أخرى، وهذا الاسلوب يسمى بالمصطلح الحديث «التفسير بالترجمة» الا انه يفتقر الى التفسير بالمغايرة التامة (في المعنى وأصل الكلمة) والناقصة (في المعنى أو الصيغة) وفيهما دون الأصل .

وفيما يتعلق في توظيف المصادر فسيكون على أربعة محاور :

١ – تسمية المصادر ومؤلفيها : —

لم يسر النووي على نهج معين ، فقد رأيناه يخلط في هذا ، وقد تعددت مسالكه معها ، فقد كان يذكر اسم الكتاب والمؤلف كاملين في مواضع قليلة ، وقد يتكرر مثل هذا الذكر أو قد يكتفي بذكر جزء من اسم الكتاب واسم المؤلف مختصراً اقبه أو كنيته وهو كثير ، وهو الى حد كبير مقبول الا ان هناك مسلكاً آخر له مآخذه فهو قد يذكر اسم الكتاب فقط دون ذكر اسم مؤلفه في كل نقوله ، ولم يشر اليه حتى في مقدمته ، وقد وردت مثل هذه النقول في مواضع محددة كما سترى : —

(أ) نقل في موضع واحد عن . شارح مقامات الحريري » و (صاحب العدة » و«صاحب الأفعال » (١) .

(ب) نقل عن « صاحب البيان » في تسعة مواضع (٢) ، ونقل عن « صاحب المحكم » في خمسة وستين ومئة موضعاً ، واذا التمسنا له عذرا في شهرة هذه الكتب فاننا نرى ان هناك من هو بشهرة «ابن سيده» ومع ذلك كان ينص في كل موضع على اسمه ، كما فعل في ثلاثة وثمانين ومئتين موضعا في كل موضع يقول قال : « الجوهري» ، ومثل هذا مافعله مع الأزهري .

---

(١) ت/ ٢ : > جهبذ ، حيض ، نفس .

(٢) ت/ ٢ : > الى ، جدع، رمض، سدد، كثف، تبع؛ هلث ، خبر ؛ رتت .

كما سلك مسلكاً مغايراً لهذا فقد ذكر في ستة عشر موضعا (١) كتاب « المذكر والمؤنث » لأبي حاتم السجستاني وما ذكره في ثلاثة عشر موضعاً (٢) كتاب شرح الفصيح لأبي عمر الزاهد . وفي تسعة مواضع (٣) كتاب المثلث لجمال الدين بن مالك وفي موضعين (٤) كتاب شرح الجمل لأبن خروف . وهناك أمثلة أخرى من هذا القبيل (٥) .

كما ان هناك منحى آخر له . فقد يكون لمؤلف اكثر من كتاب اعتمد عليه ، فينسب بعض نقوله الى مصادرها ، ويترك الآخر غفلا ، فقد نص في سبعة مواضع منسوبة الى الزجاج في كتابه« فعلت وأفعلت » ، وخمسة مواضع منسوبة الى معاني القرآن العزيز » له على حين نقل ثلاثة وعشرين موضعاً غير منسوب (٦) . وكذلك مانسبه الى ابن فارس في كتابه « المجمل » في واحد وثلاثين موضعاً منسوباً الى هذا الكتاب . وموضعاً واحداً من كتابه «حلية الفقهاء» . وسبعة عشر موضعاً غير منسوب الى أي من هذين الكتابين (٧) وكذلك بمافعله مع الازهري اذ ان مجموع مانقل عنه ثلاثة وخمسون ومئتان ، منها، ثلاثة وثلاثون منسوب الى كتاب « شرح الفاظ المختصر » ، وستة وعشرون منسوب الى تهذيب اللغة ، واربعة وتسعون ومئة ترك غفلا، واكتفى بقوله : قال: الازهري (٨) : ومثل هـذا مانقل عن الجواليقي عن كتابيه المعرب ولحن العوام منسوب اليهما وغير منسوب (٩) ، ومثل هذا مواطن كثيرة .

---

(١) ت/ ٢ : > على سبيل المثال بخت ، بشر ، خيل ، خمر ، سلم .

(٢) ت/ ٢ : > بوغ ، بها ، نمل ، صقع ، سرر ، حمق .

(٣) ت/ ٢ : > حبر ، خلع ، حمر ، سرر ، نقل .

(٤) ت/ ٢ : > ما ، فتى ، أمس ، بهم .

(٥) ت/ ٢ : > ركن، صفر، فوق، نسك، فلع، وهب، صرر، برر، جدل، رغن .

(٦) ت/ ٢ : > مبحث فعلت وافعلت » من البحث وت / ٢ : > المواد التي ذكرها عن معاني القرآن ، صلح ، ربب، لعل، عقر، قصر، وغير المنسوب > على سبيل المثال هلع ، جلا ، سود ، حصن .

(٧) ت/ ٢ : > على سبيل المثال ، أخو ، بشر ، شفق، سيح .
ومن غير المنسوب – حمد ، ضغم، سلم، خدم، حدق .

(٨) ت/ ٢ : > مما ترك غفلا : سجد، وقع، شهد، رغس، رعع ، شعع .

(٩) ت/ ٢ : > مما ترك غير منسوب ، على سبيل المثال ، جسق ، مسح ، مجنق

ومما خلط فيه ايضاً في هذا الباب ، انه كان يسمي بعض الكتب بموضوعاتها وليس بأسمائها نحو ، الماوردي في تفسيره ، وابن الكلبي في تفسيره ، والواحدي المفسر ، أو الامام ابو اسحق الثعلبي في تفسيره (١) .

اما الشطر الآخر من هذا النهج فهو الاكتفاء بالمؤلف لقبه ، اوكنيته ، اوما اشتهر به دون الاشارة الى كتبه قط فضلا عن أن بعض هؤلاء له اكثر من مؤلف .

فقد نقل عن أبي العباس ثعلب عشر مرات (٢) ، وعن المبرد ثلاث مرات (٣) ، والاصمعي ثلاث عشرة مرة (٤) وابن الاعرابي احدى عشرة مرة (٥) وعن السهيلي مرة واحدة (٦) .

وهناك مواطن كثيرة من هذا القبيل (٧) .

٢ – تقويم المصادر ومؤلفيها : —

تنوعت موارد النووي ، وكثرت نقوله ، وكان يقف عند قسم من النصوص مشيداً بها، وبصاحبها، فقد يطلق القاباً وصفات على قائليها عقب النص أو قبله ، ومن ذلك ماذكره عقب نقله كلام « الامام » ابن قتيبة بقوله : « وهو نفيس » ، وماذكره عن تقويم كتاب « الامام » الثعلبي « لاشتماله على نفائس » .

ونرى عبارات الاعجاب « لم يكن اعظم تصنيفاً من كتاب الدارمي ...» أو « وهذا مليح موافق لما قدمته عن أمامي أهل اللغة ... » (٨) . وكما نرى فقد اكثر من هذه الالقاب والصفات « فالامام » يكاد ينتظم معظم أئمة اللغة وغيرهم ، فضلا عن اضافة بعض الصفات والتي اطلقها على عدد من اصحاب مصادره أو أصحابه، أو شيوخه كذكره لشجري « الامام السيد الشريف النسب العلامة ذو الشرفين » ، والثعلبي « الامام خطيب دمشق وفقيهها المحقق في علومه ... »

---

(١) ت/ ٢ : > من ، عسى .
(٢) ت/ ٢ : > نجذ، نور ، ثدي ، سمت ، سمح .
(٣) ت/ ٢ : > طفل ، خير ، ملح .
(٤) ت/ ٢ : > مرد ، مرط ، مطر ، نسم ، نصح .
(٥) ت/ ٢ : > دقع ، درهم ، عتق ، عرر ، عسم .
(٦) ت/ ٢ : > جبع .
(٧) ت/ ٢ : > طفر ، عقق ، حصن ، ظلل ، لوغ ، جرد .
(٨) ت/ ٢ : > على التوالي ذلل ، يرع ، حيض .

وعن سيبويه وكتابه « قدوة أهل العربية » ، وعن شيخه جمال الدين بن مالك « إمام أهل اللغة والأدب في هذه الأعصار بلامدافعة » ، أو عن بعضهم « الامام المجمع على إمامته وجلالته،وتمكنه من أنواع العلوم وبراعته » أو «الامام المتبحر» أو «وهو اول من صنّف ...» أو « الامام مطلقاً ذو الفنون ...» أو « أقضى القضاة » و« امام الحرمين» و« الامام المفسر » و« شيخ اصحابنا »(١) وغيرها .

وقد يكون العكس من هذا سواء للنص أو لصاحبه ؛ فقد عقب على مجموعة منها بعبارات « وهو ماليس بالصحيح» أو« ليس كما قال ... بل الصحيح » او« الخطأ الصريح والتصحيف القبيح » ، والمنكر الذي لم يسبق اليه » ، وباطل لايتابع عليه » . أو« فاسد من جهة النقل والمعنى » أو« فلا نعرفه صحيحاً في اللغة » أو « ليس بحسن» (٢) واصفا القائلين بنعوت شتى مثل « من لامعرفة له باللغة » و« الجهلة وقلة البضاعة» (٣) وغيرها .

وقد شمل مبحث تقويم الاساليب أنماطا مختلفة من هذا القبيل .

٣ ــ أسلوب النقل : ــ

فقد كان يتحقق منه بنفسه ينقل من المصدر مباشرة أو بصورة غير مباشرة أي من مصادر أخرى ليست هي الاصل،وهذا واضح في كثير من المواضع اذ نرى عبارات « رأيته » (٤) و « وجدته »(٥) و « راجعته » (٦) والسؤال من شيوخه « سألته » (٧) ومن النوع الآخر ماذكره عن الفراء نقلا عن الواحدي أوما ذكره عن سيبويه نقلا عن صاحب المحكم .

وهناك مواطن أخرى (٨) .

---

(١) ت/ ٢ : > ما، يرع، زعم، حدق، بدع، ضمن، قرأ، بطن، بحر ، عسى ، حلقم عضر ، صحب .

(٢) ت/ ٢ : > ظلل ، خبر ، غسل ، عضو ، قنزع ، نقض .

(٣) ت/ ٢ : > فحل بل و > سار ، ذوى .

(٤) ت/ ٢ : > أول ، جزف ، جس ، ريخ ، دلب .

(٥) ت/ ٢ : ، سوك و > مبحث التحقيق .

(٦) ت/ ٢ : > اسله .

(٧) ت/ ٢ : غسل .

(٨) ت/ ٢ : غسل .

(٨) ت/ ٢ • > رسل ، سدك، و > سار، سيح، أمس ، حصن، خدع، رنب .

وقد رأينا أن نقف على اسلوب تعامله مع هذه النصوص، فقمنا بمعارضة مانقله بالرجوع الى اصول مختلفة ، فاخترنا مجموعة لهذا الغرض وظهرت لنا الملاحظات الاتية : —

(أ) التصرف بالنص: — بحذف بعض عباراته او اقتطاع اجزاء من المادة الانه كان يحسن التصرف بهذا الأمر اذ لو لم يرجع الى النصوص المنقولة لما تبين لناذلك، فهو في كثير من المواد الّتي رجعنا اليها كان ينهج هذا المنهج، وسنضرب امثلة تقابل فيها بين النصوص (١) ، فنذكر نص عبارة الازهري من تهذيبه :

«عن» حرف صفة وهو اسم ، ومن الحروف الخافضة ، والدليل على ذلك انك تقول اتيته عن يمينه وعن شماله ، ولا تقدم «عن» على «من» مستشهداً له ببيت من الشعر ... . »

وتقابله بما ذكره النووي عنه :

«عن»ساكنة النون وضع لمعنى ماعداك وتراخى عنك. يقال انصرف عني وتنح عني...»

وهناك مواطن اخرى .

ونضرب مثلا آخر من «المحكم» نصه « والعذق النخلة في لغة اهل الحجاز »

اكتفى النووي «العذق ايضاً النخلة » مهملا نسبة هذه الدلالة الى لغة اهل الحجاز .

وهناك مواطن أخرى .

ومن الصحاح : «مع» كلمة تدل على المصاحبة . قال محمد بن السري ... الذي يدل على ان «مع» اسم ، حركة آخرة مع تحرك ماقبله وقد يسكن وينون تقول جاءوا معاً » :

اكتفى بذكر انها « للمصاحبة وقد تسكن وتنون تقول جاءوا معاً » .

ومن المعرب للجواليقي مانصه ؛ « الأرْبان والأربون » حرف اعجمي يقابله «اعجمي يعني معرباً » .

---

(١) تهذيب اللغة عنن ، عتق، قنع ، قزع، عذق، عتت، علق، وقابل بينهما في تهذيب الاسماء اللغات في المواد نفسها .

، المحكم > هلع ، فرع، عس ، عرق، قنع وقابلها في ت / ٢ في المواد نفسها

، الصحاح > مع و > ق/٢ . « مع»

، المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم ، لابي منصور الجواليقي ٦٧ . و ت/ ٢ : > أرب ، العين للخيل الفراهيدي ، عقب و > ت/ ٢ المادة نفسها .

(ب) يبدل بعض المفردات بأخرى (١) وهي في الغالب هينة، فقد ابدل من التهذيب «في» بـ «على» و«زيادات» بـ«أباطيل» و «جاء في الخبر بـ في بعض الأخبار» .

ومن المحكم: «القنو» بـ«الصنو» و«فعلة» «بعرقة» وأضاف عبارات يظن انها من صلب النص المعزو كأضافة «نسوة هجع» اليه .

وهناك مواطن أخرى .

(ج) يكتفي في كثير من المواطن بذكر نصوصه منسوبة الى العلماء كالأزهري والجوهري وابن سيدة وغيرهم،مهملا اسماء العلماء الذين ينقل عنهم هؤلاء(٢) وهي مواطن كثيرة جداً .

ومع هذا كان اميناً في تقوله حريصاً على عدم الاخلال بالنص، أو مسخه وعذره في هذه الامور مخافة الاطالة في كتاب كهذا ،مستوخياً استخدامها لتحقيق اهدافه.

(د) اهمال الشواهد وبخاصة الشعرية منها (٣) ، والامثال (٤) ، وغيرها وان استشهد ببعض منها — وهو نادر — ، فأنه يهمل اسماء قائليها في الغالب .

(هـ) الاشارة الى المصادر دون نقل اذا كانت النصوص متشابهة او متقاربة الدلالة ، وهي مواطن كثيرة مكتفياً بقوله «... وكذا قاله الازهري في التهذيب» «الاكثرون من العلماء» : « وصرح ... في كتابه ...» ،» مثل ماذكره ..»

---

(١) تهذيب اللغة ، عدد، زعق، عبب، و ت/ ٢ المواد نفسها ،
المحكم : قنو ، عرق وقابل بينها في ت/ ٢ : > المواد نفسها
وينظر المحكم كذلك في المواد هجع، رفع، عتت ، عسعسعس، علل والمعرب ٣١٧
و ت/ ٢ : > قنطر .

(٢) تهذيب اللغة : هجع ، عتق، قعر ، قعل، والصحاح المواد نفسها وقابلها في ت/ ٢ المواد نفسها .
والمحكم شعع، عرق ، رعع، علق ، لعق .
وقابلها ت/ ٢ المواد نفسها .

(٣) تهذيب اللغة عرق ، نقع، مع، عفص، صعق، هجع، غق، خضع .
وفعلت وافعلت للزجاج باب الباء ٣ > ٤ و > ت/ ٢ : المواد البائية
والمحكم عدد ، عمم عسعس، شعع، عشش، حرص، قرع، لقع، عزق، عاق و ـ
ت/ ٢ المواد نفسها .

(٤) تهذيب اللغة والصحاح > : مع، خدع، وت / ٢ المواد نفسها
والمحكم علل و ت/ ٢ المادة نفسها .

أو « كما قال صاحب .... (١) وقد ينقل نصا فينسبه الى مجموعة من العلماء كقوله «قال الازهري وصاحب المحكم» و«قال ابن فارس والجوهري» (٢).

(و) الاقتصار في شرح كثير من المفردات على مصدر واحد. فقد احصينا اثنتين وخمسين مادة كان النووي يعتمد فيها على مصدر واحد كاعتماده على الزجاج في كتابه « فعلت وأفعلت» ، والجوهري في صحاحه : ، والشجري في أماليه وغيرهم (٣) .

وقد يكون العكس، اذ ينقل نصوصاً طويلة من مصادر مختلفة ، وهي السمة المميزة في اغلب منهجه .

(ز) عدم الاشارة الى نهاية النصوص ، فقد تحمل شرح المفردة بمجموعة من نصوص مختلفة ترى متداخلة لاتميز بسهولة. وكثيراً مااضطرنا توقفنا عند بعضها الى الرجوع الى المصادر لمعرفة بداية النص ونهايته ، الاانا لانعدم اشارات لها في مثل قوله : « هذا كلام ... » او «ماذكره .... » (٤) او « هذا كله كلام ...) (٥) أو «هذا آخر كلام ... » (٦)

وردت في هذا القسم من الكتاب مجموعة كثيرة من النصوص ذكرها غفلا دون اسنادها الى مصادرها ، بل استخدم مجموعة كبيرة من التسميات . نذكر طائفة منها : فقد تردد عنده استخدام « اهل اللغة» ثمان وسبعون ومئة مرة دون ان يحدد اسماء من ينقل عنهم إنما يكتفي بقوله «قال اهل اللغة»(٧) و «ذكر اصحابنا» في ثلاثة وعشرين موضعاً (٨)

---

(١) ت/ ٢ : > حول، حيض، رقع، صقع .

(٢) ت/ ٢ : > سلم ، رنس ، قنا .

(٣) ت/ ٢ : > بدا ، برق، بطأ، بتت، اجص، بسر ، أيض، برن ، بطن، تعس، ثرى ، ثوب، دخن، درر ، درهم، ذرق، زيت، شبب، نسوة ، جرب، جزف، جفن جفا، حلو، جهبذ، حوذ، عسف، فخذ، قشع، ما .

(٤) ت/ ٢ : > بزل ، تمم، خشع، أمن، حصر ، حشر، سرل .

(٥) > : بوا ، خفر

(٦) > : بغى، بوز ، جفا، حصن، خصع، خلع، خلل، خمر ، خيم، ربب ، رقع ، سكن ، صقع ، عتت ، أجر .

(٧) > على سبيل المثال : افق، بحر ، بخت، بدد، زوج، ضغا.

(٨) > كذلك : برسم، بحر ، هدى، وقق، وقص .

«واصحابنا العراقيون» في ثلاثة عشر موضعاً ، (١) و «اتفق الاصحاب» في سبعة مواضع (٢) والاصحاب في ستة عشر موضعاً (٣) و«قسم من اصحابنا» في ثلاثة مواضع (٤) وقد تردد «قال .... وغيره» في ستة عشر موضعاً . (٥)

و«قيل» في أحد عشر موضعاً(٦) و«قال آخرون» في ثمانية مواضع (٧) و«المفسرون وأصحاب المعاني والاعراب» في خمسة مواضع (٨) و«جمهور الأئمة» في موضعين(٩) و«الجمهور» في سبعة مواضع (١٠) و«أهل الفقه وغيرهم» في سبعة مواضع (١١) و «الاكثرون من اهل اللغة الفقهاء» في خمسة مواضع (١٢) و «أكثر اهل اللغة وغريب الحديث» في خمسة مواضع (١٣) و «أهل الحديث او جماعات من أهل الحديث او اكثرهم» في موضعين (١٤) و «جماعات» في خمسة مواضع (١٥) و«مذهبنا» في ستة مواضع(١٦) و «المتكلمون الجمهور في خمسة مواضع (١٧) و «اصحابنا المتكلمين» في اربعة مواضع (١٨) و«اصحاب الأصول»

---

(١) > كذلك : بطح ، خدم ، سكر ، شفق ، ظلم .

(٢) > كذلك : غسل . شعر ، سبع ، سيح ، خرج .

(٣) > كذلك : ازر ، حمق ، كيس ، صرف ، فحش .

(٤) > كذلك : قصر ، قنا ، كعب .

(٥) > كذلك : شهد ، سرق ، برنس ، عول ، حفل .

(٦) ت/ ٢ : > على سبيل المثال : خبر ، صلو ، عيب ، عقر ، فحش .

(٧) > كذلك : خدع ، ريب ، شفق ، لوث .

(٨) > كذلك : حصن ، سبع ، طفل ، طوف .

(٩) > كذلك : خيل ، صحب .

(١٠) > : كعب ، بهم ، شفق ، غضب ، عهر .

(١١) > : جلب ، ذوي ، رسل ، سلم ، صحب

(١٢) > : خبر ، يدي ، عقص ، عسس ، فحش .

(١٣) > : قبط ، قفز ، وله ، كثر .

(١٤) > : رسل ، ورس .

(١٥) > : علق ، قدر ، قصر ، مهر ، لون ،

(١٦) > طوف ، عدد ، غسل ، كذب ،كعب ..

(١٧) > : حمر ، شيأ ، ظلم ، ذوي ، غفل .

(١٨) > : عقل ، قدر ، سبح ، ظلم .

في ستة مواضع (١) و«الأصول المعتمدة» في ستة مواضع (٢)
و «بعض الأئمة الفضلاء المصنفين ...» في سبعة مواضع (٣) و «المحققون» في ثمانية مواضع (٤) و «قالت المعتزلة» في اربعة مواضع (٥) و «بعض المتأخرين» في موضع واحد (٦) .

٤ ـ ظواهر منهجية أخرى : ـ

(أ) الاستطراد : ـ فضلا عن المسائل التي عني بها النووي في عرضه للمادة المعجمية فقد تضمن الشرح في أصول كثيرة استطرادات مختلفة فقد ذكر في ثنايا شرحه لمادة «جدل «ان الجدل صار علماً مستقلاً
وصنّف فيه.....» وذكر ماصنف فيه. وأول من صنف بهذا العلم.....
وكذلك ما ذكره عن واقعة «الجمل»... وأول مؤذن في بيت المقدس وأول من وضع الدواوين واسبابه (٧) ...

(ب) الاحالات : ـ

كثيراً مايحيل الى كتبه وكتب غيره لمعرفة المزيد خوف الاطالة التي لايتحملها منهجه في شرح اصوله، ففي معنى «الشك» الوارد في كثير من كتب الفقه ذكر انه قد اوضح الدلالات المختلفة له في مواضع من «شرح المهذب» له، ومثل هذا ماذكره عن حقيقة «الغسل»، وما احاله الى كتابه« الروضة» لمعرفة الفرق بين المحبة والمشيئة. وفي «الصبر» احال الى كتابه «رياض الصالحين» لانه جمع فيه من الاحاديث الصحيحة مع الآثار. كما احال الى كتب غيره مثل مافعله في مادة (حيض) ، فقد ذكر ان امام الحرمين قدجمع فيه نحو نصف مجلدة في «النهاية». ومثل هذا النهج نراه في مواضع أخرى، وكثيراً.

---

(١) > : رسل ، بل ، بكر ، صحب ، صلو .
(٢) خ> : بل ، خدم ، خبر ، رسل .
(٣) كشش ، برز ، هلث حلل
(٤) > : أخر ، شيأ ، كذب ، سمو .
(٥) > : لمس
(٦) ت/ ٢ : جدل، جمل، دون و > : رقب ، قنطر، ومض، سبح ، صير ، ضمن، قرن ، قصر ، قفز .

كانت هذه الاحالات تتعلق بأمور فقهية او تفسيرية ومسائل في الحديث الشريف او الاختلافات بين علماء هذه العلـــوم . (١)

ثانياً : منهج النووي في تفسير الالفاظ : –

تنوع شرح النووي للمفردة بين الضبط ، والدلالة ، والبنية ، واحوالها المتنقلة ، واشتقاقها او لغاتها ، وتذكيرها ، وتأنيثها او أصلها «عربيتها وعجمتها» وغير ذلك ، وقد يكون الشرح لمفردة ما متضمناً بعض هذه الظواهر ، او اكثرها .

وقد تم اختيار خمس وستين حالة للتدليل فقط ، صنفت على النحو الآتي : –

١ – دلالة المعنى : –

كثر هذا النوع اذ نراه يعطي الدلالة اولاثم ينتقل الى المباحث الاخرى ، وقد يكتفي بذكر «المعنى» فقط وهي قليلة اذ قلما نراه ينحو هذا المنحى بل يفيض في الشرح ليشمل ظواهر لغوية مختلفة ، وهذه طائفة منها : –

(أ) يذكر في مادة «سبط» بكسر الباء وفتحها دلالته ، ثم ينتقل الى «الساباط» ويعطي دلالته ويستمر بايراده الجموع له ، ثم يعرج على «سباط» ويعطي دلالته ايضاً وهكـــذا .

(ب) وفي «سدد» يأخذ «السدر» ومعانيه المختلفة ...

(ج) في مادة «جرس» يذكر معنى «الجاروس» ومايتعلق به .....

(د) في مادة «رقب» يستطرد في اشتقاق هذه المفردة لبيان دلالتها شارحاً ومعللاً (٢) .

٢ – دلالة البنية : –

كثرت المسائل الصرفية عنده حتى يمكن القول انه مولع بهذا اللون ، وان لديه ثقافة صرفية اذا جاز التعبير ، فهذا العدد الذي نشير اليه يجعلنا نطمئن الى مثل هذا الحكم ناهيك عن المواطن الكثيرة التي عالجت هذه الناحية عند نقله من المصادر المختلفة ، فكان يحرص على تطعيم التقول بشيء من التصريف . فالمفردة تتوزع بين ذكر الجموع المختلفة

---

(١) ت/ ٢ : شكك ، غسل ، صبر ، حيض ، و > كذلك : شيء ، غرر ، صبح ، سمو ، غمس ، عول ، وهب ، قرأ ، لعن ، لمس ، ملأ ، سوك .

(٢) ت/ ٢ : و > كذلك في هذا المجال : أجن ، اصطبل ، تعتع ، ثغر ، جزى ، حجن ، ذرع ، ردب ، زعم ، شهر ، ظلل ، عدم ، عرم ، غسل ، غلو ، نسو ، نزع ، هدب ، هون ، ورس ، وكل ، نبظ .

وانواعها، وذكر مصادرها ،وأوزانها، وبيان مجردها، ومزيدها، ومدها، وقصرها، وتصغيرها، وغيرها، ونذكر طائفة لكل نوع منها للتدليل: —

(أ) فقد ذكر «سدر» اربعة جموع اوخمسة «صحب» ،وجمعين «ذراع» ينص على أن احدهما جمع قلة او الآخر جمع كثرة ، وكذا الحال في ذبَّب» (١) .

(ب) في مادة «سبط» و«فار» و«رشا» و«غلو» تناول ضمن شرحه لهذه المواد مصادرها القياسية (٢) .

(ج) ذكر أوزان (إنجيل) و(مَرْجان) ،وبين ماهو أصل وماهو زائد في هذه المفردات غيرهـــا (٣) .

(د) تناول تصغير المفردات الواردة في هذه المواد «ذَبَّب». و«شيأ» و«هَوْن»،والمد والقصر في «الهِنْدِباء» (٤) .

كما تعرض في شرحه للمفردة فضلاً عما ذكرناه لاشتقاقها اللغوي، كقوله في «الجزية» هي مشتقة من الجزاء... ، وقيل هي مشتقة من جزى يجزي اذا قضي ، ومثل هذا النهج في «صدق» وغيرها (٥) .

وقد يورد اشتقاقاتها المختلفة، ودلالات هذه الاشتقاقات، واستعمالاتها كنحاه في مادتي «ذوق» و«نزع» على سبيل المثال والمواطن في هذا كثيرة (٦) ، وقد يورد اوجها مختلفة لصيغة المفردة مقيسة على النظائر في الاستعمال (٧) .

كما ان ظواهر لغوية أخرى يتعرض لها تعرضاً كالمشترك وغيره ،كما نرى في مادة «نفـــس».

---

(١) ت/ ٢ : > كذلك : أجن، حجن، سعط، شيأ، غلم، منى، نطع، فأر، فكه، قبر ، زبزب ، رشا .

(٢) > كذلك : حذم، ترجم، ذوق، عسل، ذرع، شهر ، شيأ، نزع، هدد، ورس، لعن، زبب، غلو .

(٣) > كذلك : حذم ، اصطبل .

(٤) > كذلك : حمر ، هدب .

(٥) ت/ ٢ : > كذلك : نحو ، رشا .

(٦) > كذلك : حقد ، سرر ، ذرع ، لعن، زعم، رقب، رشا، نطع، لار ، نحو، غار، شيأ، هود .

(٧) > قمر، لعن، زبب .

ثالثاً التحقيق اللغوي في الكتاب ووسائله ، وقد شمل : –

١ – الضبط : –

عني بضبط المفردة عناية فائقة، وتمثلت هذه العناية بتقييد الحركات والتخفيف، والتشديد؛ مع الاشارة الى المعجم منها والمهمل وما أشبه ،وهذاالضبط لايشمل الجذر اللغوي حسب ؛وانما يشمل ايضاً كل الظواهر التي يعنى بها في اثناء شرحه للمفردة، كما يذكر أوجه الضبط المختلفة لها، وقد تبين لنا : –

(أ) ضبط فائها وعينها، وقد لايكتفي بذلك بل ينص على ضبط جميع حروفها ففي مادة «سود» يضبط «يسود» بفتح الياء واسكان السين وفتح الواو وتشديد الدال؛ وعلى هذا المنوال يضبط اللغات الواردة فيها، ومانص عليه من ضبط «الأفيون» بفتح الهمزة واسكان الفاء وضم الياء المثناة من تحت. و«البذرقة» وهي بفتح الباء واسكان الذال وفتح الراء وبعدها قاف ثم هاء ثم تاء والذال معجمة و«سرف» بفتح السين والراء المهملتين، ومثل هذا كثير (١)

(ب) الضبط بالصيغة أو المثل. أو الباب، وقد لايكتفي بمثل واحد، وهي أقل من سابقتها كما سنرى. ضبط «زيزب» على مثال جعفر وجمع «العقير» «عقرى» «كقتلى ومرضى وجرحى» «والخيمة» والجمع «خيم» كتمرة وتمر وجمع «الخيم» «خيام» «ككلب وكلاب» .

و« فئر المكان» ....وهو مكان فئر كفرح يفرح فرحاً فهو فرح ومصدر فأر (٩٨).

(ج) الضبط بالنص على الحركات والصيغة أو المثل معاً

فقد ضبط «الأرف» بضم الهمزة وفتح الراء جمع «أرفة» بضم الهمزة واسكان الراء مثلاً لها كغرفة وغرف ومثلها في «الجزية» بكسر الجيم وجمعها «جزى» بالكسر ... «كقربة وقرب »، و «العضال» بضم العين «كغراب» و«السمور» بفتح السين وضم الميم المشددة مثل «سفود» «وكلوب» و «المنى» بفتح الميم مقصوراً على وزن «العصا» و «ضنى»

(١) ت /٢: > كذلك :سحر، سقم، صبع ،حمص، هدي، اجص، جرس، كندج ، كشش بزل، برز، يس، ترجم، رقب، ردب،مسخ مرو مترس، تعتع، تمر، نشو، هرو، كرز، غسل، هند، وجع، ودع ،وزع، وحد.

(٢) > : كذلك: لت، هملج، دير، خبث، لقح، غمر، سمو،جزي.

بفتح الضاد وكسر النون «يضنى» بفتح النون «ضنا» فهو «ضن» بضاد ثم بتنوين مكسورة منونة «كشيخ» «وضنى» على وزن «عصى» . (٩٩)

٢ – التحقيق ومعالجة التصحيف :–

نهد الدقة والامانة والتحري ،وتمثل هذا برجوعه شخصياً الى ما اسماه «بالنسخ المعتمدة» أو «بالنسخ التي قوبلت أو قرئت على المصنف» أو «النسخ الصحيحة» لتوثيق مجموعة من الظواهر المختلفة بين ضبطاو دلالة ، وتذكير ، وتأنيث ، ونحوها: –

أ– تحري ضبط «الجزاف» بكسر الجيم في نسخ معتمدة من «تهذيب اللغة » عليها خط الازهري نفسه ، ومثلها «الرانج» بكسر النون حيث اطلع على نسخ معتمدة من «صحاح» الجوهري او رآه في نسخة من «المحكم» مفتوح العين وكذا إطلع على ضبط « الدولاب » بنفسه و « الذي رأيته أنا في صحاح الجوهري مضبوطاً بضمها » (٢)

ب – وجد في نسخ قوبلت او قرئت على المصنف ان لفظ «الحس» بالحاء أصوب منها بالجيم (٣)

حـ – نقل عن صاحب «المحكم» ان «المسواك» يذكر ويؤنث ، و المسواك كالسواك، لكنه رأى في نسخة صحيحة منه على الحاشية ان «السواك» والمسواك يذكران» معقباً ان هذا هو الصحيح استدراك على المصنف ، وهناك مواطن أخرى (٤) . كما تدل هذه العبارات على انه لم يكن يكتفي بالاطلاع على نسخة واحدة من مصادره بل كان يرجع الى اكثر من نسخة امااالتصحيف : مسألة ذات بال ظلّ الاحتراس منها قائماً نظراً الى خطورة الأثارة التي يتركها التصحيف في مجالات شتى (٥) ، فقد وقع تصحيف في هذه الكتب ، وغيرها ، وبخاصة ماذكره من المهذب لذا عمد النووي الى التقييد والتنبيه عليه ، نورد طائفة منها : –

---

(١) ت/٢: > أرف ، جزى، غضل، سمو ضنى، ضنا و > كلك: و> فلع، ذبب،حبث صحب، و[illegible].

(٢) > جزف، رنج، دلب،

(٣) > حسس .

(٤) > سوك وكذلك حذم، سعن، وغس.

(٥) التنبيه على حدوث التصحيف الحمزة بن حسن الأصفهاني ٧٢

أ ــ وقع تصحيف في «البز» الوارد في قوله صلى الله عليه وسلم « في البز صدقة » وهو بفتح الباء وبالزاي ، اذ أن بعض الكتاب صحفه بالبر بضم الباء وبالراء و «لهذا قيدته » (١)

ب ــ نبّه على أن جمع «بازل» على «بُزْل وبُزَّل» بضم واسكان الزاي والثاني بضم الباء ، وفتح الزاي المشددة ، وقد ذكر سبب هذا التنبيه بقوله «وانما نبهت عليه لأني رأيت اثنين صنفا فيه فضبطه احدهما بأحد الوجهين والاخر بالاخر وغلّط احدهما صاحبه » (٢)

جـ ــ «الدميم» وهو القبيح» ومن قالها بالمعجمة فقد صحّف (٣) .

(د ــ وقع تصحيف في «أكثر» بالثاء المثلثة في الحديث الشريف ، فصحف بالباء الموحدة «فلهذا ضبطته» (٤) .

(هـ ــ ومثل هذا ما ذكره في مادة «هذذ» حيث اشار صراحة الى السبب الذي دعاه الى بسط الكلام في هذه اللفظة بقوله : «لأني أخاف تصحيفها» (٥) .

ومثل هذا في مواطن أخر .

رابعاً : الظواهر اللغوية في الكتاب :

١ ــ التذكير والتأنيث :

ظاهرة لغوية عنى بها النووي في ثنايا شرحه ، وتمثل هذا الاعتناء بالجانب غير المقيس ، وهو الذي يحدث فيه الخلاف والاضطراب ، فذكر جواز التذكير في بعضها ، كما حكى الخلاف بين اللغويين في بعضها الآخر مستشهداً لبعضها راداً كثيراً منها الى اختلاف لغات العرب فيهــا .

كما تمثلت العناية باعتماده على المصادر المتخصصة في هذا الباب ، فقد نقل عن أبي حاتم السجستاني في كتابه « المذكر والمؤنث » ستة عشر موضعاً وعن الفراء وثعلب والاصمعي وابن السكيت وغيرهم ، او ان لم يسم مؤلفاتهم فضلاً عما نقله عن أصحاب المعجمات ، أو ماذكره هو غير منسوب .

---

(١) ت > ٢ : > بزز .

(٢) > : بزل .

(٣) > : دحم .

(٤) > :كثـر .

(٥) > : هذذ و > كذلك رغس ، طهر حس .

وتبين من خلال استقراء هذه الظاهرة في ضوء مفرداتها التي استقريناها، انها لاتخلو من أن تكون صيغاً يتساوى فيها المذكر والمؤنث كقوله في جمع «العقير» على «عقرى» فهو فعيل بمعنى مفعول كالقتيل والذبيح والجريح ....ونظائرها..

وكقوله «رجل جنب وأمرأة جنب» (١) ، أو صفات وأسماء كـاطلاق «البشر» على الذكر والانثى للرجل والمرأة والجمع من الذكور «والاناث ومثلها الهملاج» (٢) .

ومن الاسماء اطلاق «البدنة» و«البهمة» و (٣) على الذكر والانثى،أومما عزاه الى اختلاف اللغات كما في زوج (٤) ، اذ يقال للمرأة والرجل وهي اللغة الفصيحة التي جاء بها القرآن الكريم ونقل عن أبي حاتم السجستاني انها لغة أهل الحجاز ، وأهل نجد يقولون زوجة أو أهل مكة والمدينة يتكلمون بذلك، وأنشد : —

زوجةٌ اشمطَ مرهوبٍ بـوادرُهُ   قدْ صار في رأسه التحويصُ والنّزع

كما استشهد لهذه باحاديث وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعد الفراء الاولى أفصح (٥) .

وقد تحتمل الوجهين : —

الترجيح أو الاقتصار على احدهما، وقد كثر هذا النوع، وكثر الخلاف فيه بين العلماء ،فقد ذكر جملة منها ،فذكر في «الذراع» لغتين (٦) ،وحكى الفرّاء تذكيرها عن بعض بني عكل(٧) ، كما رجح التأنيث في «الابهام» لكثرته،وشهرته مستشهداً بأن الجوهري لم يذكر غيره، وان ابن خروف قال في شرح الجمل: ان تذكيرها قليل»(٨) .

---

(١) ت/٢: > عقر، جنب، > في مادة وجنب، المذكر والمؤنث لأبي بكر محمد بن القاسم الانباري ٢٥٤.

(٢) ت/٢: > بشر، هملج.

(٣) > كذلك: بدن ،بهم.

(٤) > : زوج، المذكر والمؤنث، للانباري ٣٨١ – ٣٨٢و > شرح ديوان الأخطل التغلبي ٢٠٥ (قد كان).

(٥) المذكر والمؤنث، للفراء ٩٥،١٠٨.

(٦) ت/٢: > ذرع، عرس.

(٧) المذكر والمؤنث للفراء ٧٧

(٨) ت/٢: > بهم، ثدي، إبـط

وقد نسب الفرّاء التذكير الى بني أسد، أو بعضهم، ورأى التأنيث أجود وأحب اليه (١) ومثل هذا الترجيح للتأنيث المنسوب لأهل الحجاز في «السماء والطريق» والتذكير لأهل نجد وهو قليل (٢) . وقد استشهد النووي على ترجيح التذكير «للطريق» لوروده مذكراً في القرآن كله (٣) .

كما نقل الخلاف الواقع في كثير من الالفاظ التي ترجّحت بين التذكير والتأنيث.

اذ نقل الخلاف في «السروال» فقد نقل تذكيرها عن صاحب المحكم، وحكى ان الاصمعي لم يعرف فيها الا التأنيث، كما نقل عن أبي حاتم السجستاني «مؤنثة لايذكرها من علمناه» (٤) ولم يذكر ابن الانباري غير التأنيث فيها (٥) ومثل هذا في « السلّم » مستشهداً . بشعر لعمارة بن عقيل ، وماذكره ابو حاتم السجستاني من أنه يذكره مستشهداً بقوله تعالى «أم لهم سلم يستمعون فيه» قال: وقد ذكروا التأنيث عن العرب ايضاً، كما نقل الخلاف الواقع في السكين، بنقله النص الآتي من «صناعة الكاتب» «وحكى عن الاصمعي ان السكين تذكر ، وزعم الفرّاء انه يذكر ويؤنث ، وحكى الكسائي سكينة ، وحكى ابن السكيت سكين» (٦) والذي رأيناه عند الفرّاء قوله ربما انث في الشعر وانشد (٧) ... وفي الخمر يرى التأنيث اكثر ولا انكار لها لورود الاحاديث الشريفة بها (٨) ، كما نقل ماذكره ابو حاتم السجستاني في «المنون» مستشهداً ببيت أبي ذؤيب «أمن المنون وريبه تتوجع» ويروى «وريبها» وهو الاكثر (٩)

---

(١) المذكر والمؤنث ، للفراء ٧٨

(٢) ت/٢: > سمو، طرق، المذكر والمؤنث للفراء ١٠٢، المذكر والمؤنث للانباري ٣٣٤

(٣) ت/٢: > طرق، > المذكر والمؤنث، للمبرد ١١٥

(٤) – سرل، وكذلك رنب، سوك.

(٥) المذكر والمؤنث، للانباري ٣١١ ، البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث، لأبي البركات بن الانباري ٧٤، ٧٧ .

(٦) ت/٢ > : سلم، > المذكر والمؤنث للانبازري ٣١٣، – كذلك سكن، والمذكر ، والمؤنث للانباري، ٣١٤.

(٧) المذكر والمؤنث للفراء ٩٦، والبلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث ٨٣ .

(٨) ت /٢: خمر.

(٩) > كذلك :منن، مىك، ؛ – المذكر والمؤنث للانباري ٢٢٦، ٣٨٥.

ومما لاخلاف فيه، اقتصار التذكير في « البازي » فقد نقل عن السجستاني انه لاخلاف فيه، وكذلك مانقله عنه في الاقتصار على التأنيث في البخت» (١) .

اكتفينا بهذه النماذج لأن مصائرها لايخرج عن هذا النهج

وقد تناول كثير من الباحثين هذه الظاهرة بالدرس والبحث ولمحوا فيها شيئاً من القلق والغموض (٢).

٢ – فَعلت وأفعلت :

ومن المسائل التي عُني بها في اثناء شرح مفردته ، اهتمامه بظاهرة وردت في كلام العرب ، وهي (فعلت وأفعلت) وهي الظاهرة اللغوية التي شغلت أئمة اللغة قديماً وحديثاً إذ وقفوا منها مواقف شتى ، بين مؤيد ومنكر ، فقد كان الأصمعي مولعاً بالجيد ويضيّق فيما سواه» (٣)

وحدّث ثعلب ، فقال : « اجمعوا على ان اكثر الناس كلهم رواية ، وأوسعهم علماً الكسائي ، وكان يقول : فلما سمعت في شيء ، فعلت الا وقد سمعت فيه افعلت » (٤) . في حين أنكر ابن خالويه اتفاق فعل وأفعل في المعنى « لأن كلام العرب جلسَ واجلسَ غيره وذهب وأذهب غيره» (٥)

وأفرد بعضهم مؤلفات خاصة فيها وأورد سيبويه (٦) وابن السكيت (٧) وابن قتيبة (٨) وابن سيدة (٩) والسرقسطي (١٠) وغيرهم فصولاً منها في مؤلفاتهم

---

(١) > يوز والمذكر والمؤنث للانبازري ٣٩٤ وكذلك: > بخث .

(٢) > في هذا : البلغةفي الفرقبين المذكر والمؤنث ٣٧ – ٥٠، واللهجات العربية في اثراث ٥٠١ – ٥١٨ ومن اسرار اللغة د. ابراهيم انيس ١٢٨ – ١٦٥ وابو بكر بن الانباري اللغوي النحوي وكتابة المذكر والمؤنث» دراسة وتحقيق(دكتوراه) طارق عبد عون الجنابي ٢٦٥ – ٣٠٤ .

(٣) فعلت وافعلت لابي حاتم السجستابي ٨٨

(٤) مراتب النحويين، لأبي الطيب اللغوي ١٢٠ والمزهر ٢/٥٧

(٥) ليس في كلام العرب، لابن خالوية ١١٨ – ١١٩

(٦) الكتاب٤/٥٥ ومابعدها

(٨) إصلاح المنطق ٢٢٥ – ٢٤٧

(٨) أدب الكاتب ٣٣٣ ومابعدها

(٩) المخصص المجلد الرابع السفر الخامس عشر ٥٦ – ٥٧

(١٠) كتاب الافعال ١/٦٥، ٣/٣

وقد استحقت النووي اهتماماً خاصاً تمثل باعتماده على اشهر كتبها فنراه يعتمد كتاب الزجاج (فعلت وأفعلت) اذ نص في سبعة مواضع (١) منسوباً اليه لبسط ما ورد في كلام العرب وهي جميعاً في المنطقة المعنى لكننا لم نجد عزوها الى اختلاف اللغات وهو الاظهر والأشهر ، كما اورد طائفة منها ، منسوبة الى الزجاج دون ذكر كتابه في اثنى عشر موضعاً (٢) عزا اثنين منها الى اختلاف اللغات وهي في المتفقة المعنى أيضاً إلاّ أن طبيعة الشرح تؤكد نسبتها اليه دون عناء فضلاً عن مراجعتنا لكتاب فتبين انها منه الا في «نعسه وانعسه» فلم نجدها فيه .

كما ان هناك طائفة أخرى تمثل هذه الظاهرة ذكرها غير منسوبة فرجعنا الى كتاب أبي حاتم السجستاني «فعلت وافعلت» فرأيناها في هذا الكتاب فضلاً عن وجودها في كتاب الزجاج ، الا ان ماأورده منها جميعاً في كتاب السجستاني لايتعدى عشرة (٣) عُزِيَ بعضها الى اختلاف القبائل والقسم الاعظم منها غير معزو إلاّ أن الزجاج (٤) لم يعز واحدة منها الى اختلاف القبائل . وفي الذي عرض له دليل على ايمانه بوجود ، هذه الظاهرة ، وأهميتها في الدرس اللّغوي .

٣ ـ المعرب والدخيل :

يبدو ان الاحساس بالفرق بين المعرب والدخيل (٥) ضعف حتى حل محلهمـــا

---

(١) ت/٢: > بتت، بداء، برق بشر، بكر، بلل، جبر و > في هذا كتاب افعلت وأفعلت للزجاج ٣ ـ ٤.

(٢) ت/٢: > بطأ، نقل، تبع، ترب ،تعس،تمم، ثرى، ثوب ثوى، جبر جتن، غلق و > في هذا كتاب الزجاج ،الابواب :الباء، والتاء والثاء، والجيم، والغين،

(٣) فعلت وافعلت ٧، ١٤٢، ١٥١، ١٧١، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٨، ١٧٩، ١٨١، ١٩٧

(٤) فعلت وافعلت ٣، ٤، ٦، ٧، ٨،

(٥) فرق بعض المحدثين بن المعرب والدخيل في طريقتين: ـ

الاول: ـ اذا جاءت اللفظة اجنبية،وهذبت من حيث لفظها، بحيث اشبهت الأبنية العربية القح في ميزانها الصرفي، اعتبرت من المعرب اما اذا بقيت على وزن غريب على اللغة العربية فهي من الدخيل.

الثاني اللفظة الاجنبية التي استعملها العرب الذين يحتج بكلامهم تعد من المعرب بغض النظر النظر عن وزنها، اما مادخل بعد ذلك ،فانه يعتبر من الدخيل«كلام العرب قضايا اللغة العربية حسن ظاظا ٧١ ـ ٧٢ الجمهرة ١١٠/٢

وينظر في هذا: المزهر ٢٦٩/١، فقه اللغة.د. علي عبد الواحد ١٩٣ ـ ٢٠٤،

مصطلح آخر هو «الاغجمي» ليشمل النوعين معاً اذ لم نره يفرق ، أو يذكر الدخيل إلا فيما نقلة عن اصحاب المعجمات (١) .

وفي ضوء ماسنذكره من مفردات في هذا المجال نراه يعرض لهذه المواد المعربة بشرح معناها ، او ذكر مايقابلها من مفردات عربية ، او تقريب صورتها ، ولكننا لم نر تعرضه لأصل الكلمة المعربة ، وصيغتها قبل التعريب انما يكتفي بذكر نسبها «الفارسي» أحياناً ، او الاكتفاء بانها «اعجمية عربت» أو «عجمية» أو ليست عربية ، أو «معربة» .

كما تضمن نقله بعض القواعد لمعرفته (٢) ، او الخلاف الواقع في اصله فقد وردت في الكتب الخمسة ، وغيرها مجموعة من الالفاظ تصدى لها على النحو الذي ذكرناه ، وسنذكر نماذج لهذه الحالات : —

١ — وردت في «الوجيز» و «الوسيط» و «البذرقة» قال عنها انها لفظة عجمية عربت ثم اعطى مرادفاً لها وهي «الخفير» ، وحكى صاحب الجمهرة وصاحب المعرب انها فارسية معربة (٣) ، كما وردت «الباغ» ، وقد نسبها إلى اصلها الفارسي ومعناهـــا (البستان) في حين ذكر الجواليقي ان البستان ، فارسي معرب ، فقد وقع له الوهم اذا انه ظن ان البستان كلمة عربية ففسر المعرب بالمعرب (٤) .

٢ — وردت في «المهذب» الفاظ تعامل معها على النحو الآتي :

(أ) قال في «الكندوج» هي عجمية وأن معناها الخلية ، والخلية عربية (٥) .

(ب) وفي الزبزب» (٦) قال انها ليست عربية ، وأعطى وصفاً مقارباً لما عند العرب بقوله «تتخذ للحرب تشبه الزورق الطويل» ، والزورق كذلك معرب عند الجواليقي ، فوقع في وهم آخر كسابقه ، وقد اشار إلى ان هذه اللفظة قد وردت في التنبيه ايضاً ، وقد ورد (الزورق) في بيت لذي الرمّة ، استخدم فيه لفظ «الزورق» .

---

(١) ت/٢: > اجصر، جزف.

(٢) > ماكتبه الدكتور «انيس» عن هذه القواعد، من اسرار اللغة١٢٧

(٣) ت/٢:> يذرق و> المعرب ١١٥، المزهر ٢١٩/١،الجمهرة ٣٠٤/٣ .

(٤) ت/٢:> بوغ والمعرب ١٠١، الجمهرة ٥٠١/٣

(٥) ت /٢: > كندج

(٦) >: زبزب والمعرب ٢٢١، ولسان العرب «زرق، اذ أورد الشاهد

(ج) في «المري» بضم الميم وسكون الراء وتخفيف الياء وهو أُدْم معروف قال انه ليس عربياً وأراد أن يوضح معناه أو إعطاء مرادف له فوضحه بأعجمي آخر وهو «الكامخ» وهو ليس بعربي لكنه أعجمي معرب (١) .

(د) «الكُشّ» ما يلقح به النخل واعطى مرادفاً له وهو «الفحال» اما لفظه «مترس» ، فقد نسبها إلى أصلها الفارسي وفسر معناها بـ «لا تخف» (٢) .

أما الالفاظ غير المنسوبة الى أي من هذه الكتب فقد تعامل معها على النحو الذي اسلفنا «فالاصطبل» هو عجمي معرب وهو بيت الخيل وحكى صاحب المعرب انه ليس من كلام العرب و «الجاروس حب صغار شبيه بالذرة الاأنه اصغر منها ... هو الاخر معرب مكتفيا بذكر وصف له وايراد نظير له . و «الجهبذ» اعجمية و «القولنج» ليس عربيـاً و «السفتج» لفظة اعجمية مفسراً دلالاتها جميعاً (٣) الا اننا لم نعثر على هذه الالفاظ الاربعة في «المعرّب» ويبدو ان النووي لم يكن يفرق بين الدخيل والمعرب إذ كانا عنده ذَوي دلالة واحدة اذ لم نر ما يشير الى تفرقته بينهما فقد نقل عن اصحاب المعجمات ماسموه بالدخيل دون تعليق او تعقيب .

خامساً : تقويم النووي للاساليب واستعمالاتها ومعاييره فيه :

يبدو أن ظاهرة اللحن كانت تشغل بال النووي ، فمن خلال ماكان يقوّم من اساليب ويصحح مايقع من لحن وما اعتمد عليه من مصادر في هذا الباب يتضح لنا انه كان له هدف وراء هذا التشديد والتعقيب ، ولعل الرجوع الى ماكان يفعله من خدمة هذا الغرض في اثناء تناوله شرح المفردة يصبح الحكم اكثر موضوعية ، فتقويمه للأساليب ، ومعاييره فيها تستحوذ على جل اهتماماته في هذا القسم من الكتاب يخدم فيها نخبة معينة ، ويضع اسس هذا التقويم ، وقد شمل مبحث تقويم الاساليب والتصويبات المختلفة ظواهر مختلفة تنوعت مباحثها تصدى لها صاحب الكتاب مخطئاً أصحاب الكتب الخمسة وغيرها في مواطن كثيرة ، ومدافعاً عن استعمالاتهم في مواطن أخرى ، لأن الغرض كما يبدو هو

(١) > مرى والمعرب ٣٤٦ . وقد نقلها النووي «الكافح» والصواب الكامخ : > اللسان «كمخ» .

(٢) ت/٢: > كشس، ولم نجده في المعرب و > : الجمهرة ٩٨/١ – ٩٩ واللسان «ترس»

(٣) ت/٢: > اصطبل والمعرب ٦٧وت/٢: > جرس، جهبذ، قلج، سفتج، جسق، جزر، يس. و > الجمهرة ٣٦٠/٣، ٥٠٢، اللسان «جرس، سفتج» والسفتجة: كتاب يكتبه المستقرض الى نائبه ببلد آخر ليعطيه ماأقرضه».

التصدي لهذه الظاهرة واشاعة الصواب ، وقد تجسد في اثناء شرحه المفردة انه قد تحتوي تصويباته على اكثر من مظهر ، وبعد الاستقصاء لهذه الحالات ، رأينا ان نصنف مباحثها على النحو الآتي : —

١ — الأسلوب والتراكيب :

وهي كثيرة اما في الكتب الخمسة أو غيرها ذاكراً معاييره في التصويب ، والترجيح ، وهي لغة القرآن الكريم ، والحديث للنبوي الشريف ، والشعر ، واستعمال العرب فضلاءعن المسموع عنهم، وغيرها، فصب منهجه في هذا، وسنبين موقفه ازاء هذه الامور في ثنايا الشرح عند تناولنا لهذه الظواهر المختلفة ، وسنكتفي بنماذج للتدليل لكل مظهر منها :

١ — خطأ صاحب التنبيه لقوله «فان اتلف ظبياً ماخضاً» ، وصوبته «ظبية» وعلل ذلك بقوله «ولا يقال في الانثى الا ظبية ، والذكر ظبي» (١)

٢ — وردت في الوسيط والوجيز مجموعة من الاساليب والتراكيب وعمل النووي فيها رأيه بتخطئة بعضها ، وذكر صوابها ، ومرجحاً او معللاً لبعضها الآخر واضعاً معاييره في هذا : —

(أ) كثر في الوسيط وغيره من كتب الفقه استعمال لفظ «كافة» بالالف واللام فيقولون هذا مذهب الكافة ومذهب كافة العلماء»

فيضيفون كافة.. عقب بقوله «وهذا غلط عند اهل النحو واللغة فلا يجوز استعمال «كافة» مضافة ولا بالالف واللام ولا تستعمل الا حالا ...» (٣) مستشهداً بلغة القرآن الكريم وهي من معاييره في الفصاحة والرجحان والتي ناهزت شواهده منها ثمانية وستين آية، فذكر قوله تعالى «ادخلوا في السلم كافة» و «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة».

(ب) ذكر في الوسيط والوجيز، استعمال الكاف خطأ في «كبني هاشم وبني المطلب» بقوله «هذه الكاف خطأ والصواب حذفها لانهما لاثالث لهما وادخال الكاف يقتضي مشاركة غيرهم» (٣) .

(١) ت/٢: > ظبي والقاموس المحيط، للفيروزآبادي «ظبي».
(٢) ت/٢: > كفف
(٣) > كذا

(ج) يرجح استعمال «القاه في البحر» بدلا من (القاه في تيار البحر) بقوله لكان اعم واحسن معللا «لأن التيار عند اهل اللغة هو موج البحر (١)

(د) ذكر في الوسيط «لو أوقد ناراً على السطح في يوم ريح» ، فصوبه بقوله «الصواب فيه اسكان الياء من ريح واضافة يوم اليه ومعناه في يوم ذي ريح ، ومراده ريح شديدة » ثم رأى ترجيحاً آخر بقوله «ولو قال في يوم راح لكن اولى او قال في يوم ريح شديدة» .

كما رد على الذين رأوا ان الصواب «ريح» ، بفتح الراء وكسر الياء المشددة معللا سبب الخطأ في هذا التوجيه اذ ان «الريح طيب الريح» ، ومراد المصنف ريح شديد فيفسد المعنى» (٢) .

هذا وقد وردت تصويبات مختلفة من هذا القبيل في غير هذه الكتب منها: —

(أ) دلل على صحه استخدام «المعاذير» بمعنى الاعذار (٣) لموافقة ذلك لقوله تعالى «ولو ألقى معاذيره» .

(ب) وصف تعدية «زوج» بنفسه بالفصاحة مستشهداً بقوله تعالى «فلما قضى زيد منها وَطَراً زَوّجناكها » ووصف اختلاف القراء السبعة في امالة الفتحة من ياء « يس » واختلافهم في إظهار النون ، وادغامها في الفصاحة ، (٤) ، فهو يعتد بالقرآءات القرانية سبعية كانت ام غيرها لاينكر منها شيئاً ، وقد بلغت استشهاداته منها سبعة ، اقتصرنا فيها على ماذكره هو بدون ذكر مصادرها ، اما مانقله في ثنايا الكتاب من المظان المختلفة ، فهي كثيرة .

كما دافع عن استخدام الفقهاء « باع منه كذا » والذي عد لحنا ، وكان صوابه « باعه كذا» بقوله «وان هذا الانكار غير صحيح ، بل قد صح ، استعمالها عن العرب » (٥) فالاستعمال معيار من معاييره في هذا ، والمسموع ايضاً من معاييره فقد دافع عن استعمال الفقهاء « لاابالي به » لأنه صحيح مسموع عن العرب وقد غلط من زعم انه لم يسمع من العرب الابصورة « لاابالية » .

---

(١) > تير واللسان «تير»

(٢) > روح

(٣) > عذر او في مثل هذا > كذلك : كدب، طخى، طوف

(٤) ت/٢: > زوج، يس ، كهر

(٥) > من، بلى

فضلا عن هذا فقد أورد احاديث شريفة تؤيد استعمال النبي صلى الله عليه وسلم له ، والحديث الشريف عند النووي مقياس الصواب اللغوي ، عني به اكبر عناية حتى انه اكثر منه ففاق الشواهد القرآنية ، وشواهد الشعر التي كان لها حظ ضئيل في الاستشهاد ، فعند احصاء الاحاديث تبين ان الاحتجاج بلغة الحديث في ظواهر لغوية — كما سنرى — قد ناهزت ثلاثة عشر ومئة حديث ، بذكر الروايات المختلفة له ، معقباً احياناً على الحديث بكونه ضعيفاً ، أو مرسلاً ، أو في أسناده رجل مجهول ، وآخر ضعيف ، أو ضعيف لايصح الاحتجاج به ، ولعل هذه الكثرة اللافتة للنظر جاءت من أنه كان يحذو شيخه ابن مالك (١) وهي كثيرة كثرة واضحة في كتاب بحجم الكتاب الذي تعرض له بالدرس.

(ج) يصوب استخدام الغزالي وغيره من الفقهاء « وهبت من فلان كذا ...» ويرى ان ادخال «من » هنا صحيح وهي زائدة وزيادتها في الواجب جائزة عند الكوفيين ، وعند الأخفش من البصريين ، ويدافع عن هذا الاستعمال لوروده في احاديث شريفة للنبي صلى الله عليه وسلم ، كما دلل على صحة استعمال « بلى » في غير جواب النفي بايراده حديثا للنبي صلى الله عليه وسلم : ومثل هذا في تفسير « ثلاثا » الوارد في حديث المصراة « بالايام » لوجود نظائر له في اللغة ، كما استشهد بحديث آخر للنبي صلى الله عليه وسلم « من صام رمضان فاتبعه بست من شوال ... » كما جوز إطلاق لفظ « الأب » على زوج الأم مجازاً ذاكراً الروايات المختلفة للحديث الشريف لتأييد ماذهب اليه .

وفي مسألة اخرى من هذا القبيل معنى « البارحة » وهي وقت الصبح مجازاً حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول اذا صلى الصبح ، على حين يرى ثعلب والجمهور أنه لايقال البارحة الابعد الزوال ، فيعقب النووي بقوله « فيحمل قول ثعلب على ذلك حقيقة ، وهذا يجاز والا فقوله مردود بهذا الحديث » (٢) « هل رأى احد منكم البارحة رؤيا » .

(ج) يرى في الاستعمال الشائع بين مصنفي الفقهاء « غصب منه ثوباً » معدى بغيره صواباً ، وانه ورد في اللغة معدى بنفسه « غصبه ثوباً » لوجود نظائر له كان النووي قد دافع عن مثل هذا الاستعمال في موضع مماثل بقوله « وقد ذكرنا وجهة فلا يمتنع مثله هنا » (٣) .

---

(١) موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث، د. خديجة الحديثي ١٧ ومابعدها .
(٢) ت/٢: > على التوالي: وهب، بلى، ثلث، أب، برح و > في مثل هذا ثدى
(٣) ت/٢: > غصب.

(هـ) خص الجوهري الحاق الالف واللام في « فلان » في غير الناس ، على حين ذكر ان « فلاناً » قد جاءت لغير الناس ، فقد وردنا في لغتين من لغات العرب ، فيجوز ذلك ، وقبلها ماصوبه في حذف الهاء في « طالق » اذ هي اللغة المشهورة الفصيحة (١) ، وهو بهذا يضع معياراً للصواب أو لجواز الاستعمال باحتجاجه باللغات . ولعل في هذه النماذج كفاية عن سواها .

٢ ـ الدلالات و استعمالاتها :ـ

وهي مما وقع في هذه الكتب ، أو غيرها ، ذكرها مستهدفاً اشاعة الصواب ، ووقف عادية اللحن التي ينسبها الى العامة ، وأشباههم من الخاصة ، والجهلة ، احيانا ، مستشهداً لصحة بعضها معللاً وجه الصواب ، والدقة في دلالتها او اشتراكها ، اعتماداً على معارفه وأصوله المختلفة ، مقيماً وزناً لمعاييره التي وضعها ، نذكر طائفة منها:

(أ) بدافع عن استعمال «الغزالي» «سائر » بمعنى الجميع مستشهداً بثمانية أبيات منسوبة ليدلل بشاهدين منها على معنى سائر وهو «معظم» لابن مضرس وذي الرمة :

قال ابن مضرس :

فما حسن أن يَعذر المرء نفسه   وليس له من سائر الناس عاذر

وقال ذو الرّمة :

مُعَرَّساً في بياض الصُّبح وقعَتُهُ   وسائرَ السَّير إلاّ ذاك منجذبُ

واستشهد على «جميع» باربعة أبيات هي : لابن الرقاع ، وابن احمر ، وذي الرمة ، وبيتين للأحوص وواحد للمعري . وأنشد على ذلك قول ابن الرقاع : ـ

وحجز وزبان وان يك حافظا   توقى فليغفر له سائر الذنب

وابن احمر :

فلا يأتنا منكم كتاب بروعة   فلم تعدموا من سائر الناس باغيا

وقول ذي الرمة : ـ

قضيباً من الريحان غَلّه الندى   ومالت حماحُمه وسائره ندى

---

(١) > فلن، طلق

وقول الأحوص :ـ

فانـي لاستحييكـم أن يـقـودنـي إلى غيركـم من سائر الناس مجمـع (٠)
فجئتها لنا لبابـــة لـــمـا رقد القوم سائر الحـــراس (٠)

وقول المعري

أشربَ العالمـون حبلـــث طبعـاً فـهو فرض في سائر الابـدان (٠)

كما استشهد بآراء علماء اللغة كالجوهري ، والجواليقي ليرد على بعض الذين انكروا استعمال لفظ «سائر» بمعنى الجميع ، واتهامه للمستعمل بالغلط المنسوب للعامة واشباههم من الخاصة (١) . الا ان لغة الشعر هذه كان النووي قليل الاعتداد بها فهي ان وردت فهي جزء من النص المنقول ـ وان لم يهملها في الغالب ـ إلا أنّ الشعرواحد مـــن معاييره في هـذا المجال .

(ب) دافع عن استعمال صاحب التنبيه «مد صوته» بمعنى «رفعه» وشدد النكير على المنكرين له لورود استعماله مسموعاً عن العرب (٢) .

(ج) جمع الغزالي بين «الهائم وراكب التعاسيف» على انهما بمعنى واحد عنـــد بعضهم على حين يرى النووي انها ليست كذلك : «فالهائم الخارج على وجهه لايدري اين يتوجه وان سلك طريقاً مسلوكاً» «وراكب التعاسيف» «لايسلك طريقاً» فهما مشتركان في انهما لايقصدان» موضعاً معيناً وان اختلفا فيما ذكره» (٣)

(د) يغلط صاحب الوسيط بقوله «ركبان السفينة ظامئون» ووصفه بالمنكر ويرى ان يقال «ركاب السفينة» معللا ان «الركبان خاصة براكبي الابل والدواب» (٤) .

(هـ) انكر على صاحب الوجيز استعمال «الدكان : الحانوت» وصوبه بحذف احدهما معللا ان الدكان هو الحانوت ، مستشهداً بما ذكره الجوهري من انهما بمعنى واحد (٥)

---

(٠) في ديوان الاحوص «مطمع» وليس «مجمع» ١٢١
(٠) في ديوانه وقذ النوم وليس «رقد القوم» ١١١
(٠) في ديوان سقط الزند «الاديان» وليس «الا بدان»
(١) ت/٢: > سار و > ديوان ذي الرمة ٧و > ديوان سقط الزند ٤٨
(٢) > مـــدد .
(٣) ت/٢: ـ هيم و > لسان العرب، هيم، عسف
(٤) > ركب و > اللسان والصحاح، وكب
(٥) ـ دكن و > الصحاح ، دكن.

(و) ويخطيء ما ذكره الغزالي في الوجيز من ان «الجون» مشترك بين الضوء والظلمة وصوابه ان يطلق على الاسود والابيض وهومن باب التضاد (١) .

كما ذكرتصويبات أخرى غير منسوبة الى هذه الكتب سالكاً السبيل نفسه نذكر منها

(أ(ذكر معنى «الدحو» وهو البسط» مستشهداً بقوله تعالى «والارض بعد ذلك دحاها» كما استشهد للمعنى المراد من «الأمة» بآيات بينات ، ونَهَجَ هذا النهج في جمهرة من الدلالات ليبين صواب دلالتها وفق هذا المعيار (٢) .

(ب) صوّب ما ذكرمن أن «القهر» هو «الانتهار» (٣) باستشهاده بقراءة عبدالله بن مسعود (رض) «فاما اليتيم فلا تقهر» .

(ج) دافع عن استخدام المتكلمين والفقهاء «الذات» بمعنى «الحقيقة» ، والذي انكره عليهم بعض الادباء بحجة عدم ورود «ذات» في لغة العرب حقيقة ، وانما ذات بمعنى «صاحب» وعقب النووي على هذا الاعتراض بقوله «وهذا الانكار منكربل الذي قاله الفقهاء والمتكلمون صحيح» مستشهداً بتفسير «الواحدي» لقوله تعالى «وأصلحوا ذات بينكم» (٤) .

(د) دافع عن استعمال «زعم» بمعنى «قال» على الحقيقة ، مستشهداً بالحديث الشريف «زعم جبريل كذا ..» كما استشهد بما ذكره سيبويه في الكتاب «زعم الخليل» وزعم ابو الخطاب» كما أورد بيتين لأميه بن أبي الصلت ، والجعدي نقلاعن الامام الواحدي لتأييد ما ذهب اليه ، وأنشد لأمية :

وإني اذيـــن لكــــم أنـه ميـنجزكـم ربكـم ما زعـم

وأنشد للجعدي : —

نودي قم واركبن باهلك ان الله موف للناس ما زعما(٥)

(١) > جون و > الاضداد، محمد بن القاسم الانباري ١١١

(٢) ت/٢: > دحو ، امم و > كذلك : أسا، جدل، جزء، حول، ذرع، سبح، سلم ، شهر ، صبر ، طغى ، عكف، عمر ، كعب، هجع، وأد

(٣) > كهر

(٤) > ذوي .

(٥) > زعـم .

(ﻫ) أورد النووي حديثين شريفين ليدلل بهما على معنى «الحث» ومثل هذا الاستشهاد في معنى «الحذف والحمد» وغيرهما ليضع معاييره في فصاحة المفردة (١) .

(و) رمى القائلين بأن «الظل والفيء» بمعنى «بالجهلة» يتكلمون فيه بأباطيل، ثم عرج على الاستشهاد بما ذكره «ابن قتيبة» في الفرق بينهما وعقب على ذلك بقوله «وهو نفيس ، وقد ذكره غيره مما ليس بصحيح» (٢) .

(ز) ينكر استخدام «القنزعة» على أنها أعلى موضع في الرأس بقوله «فلا نعرفه صحيحاً في اللغة» (٣) .

٣ ـ التقويمات الصرفية : ـ

كثر هذا النوع وهو كسابقه ، اما في هذه الكتب ، او غيرها ، نكتفي بنماذج منها :

(أ) ذكرفي «الوسيط» «والوجيز» في مواضع كثيرة «ابتنت يده على يد للغاصب» وفيه وجهان «يبتنيان» على القولين ، فذكر النووي ان هذا لحن لأن «الابتناء» متعد كالبنا فلا يستعمل لازماً وصوابه «.يبتنبان»بمثناة من تحت ثم نون ثم موحدة وكذا «انبنت» بنون ثم موحدة، ويجوز «ابتنيت» بموحدة ساكنة ثم مثناة من فوق مضمومة ثم نون مكسورة ثم مثناة تحت مفتوحة ثم مثناة فوق .

ورأى بعض العلماء ان قول الغزالي في «الوسيط» و «الوجيز» «العول» «الرفع» خطأ ووجه هذا الخطأ ان العول مصدر يعول عولاً : فهو لازم ، فسبيله ان يقول هو «الارتفاع» لاالرفع ، وقد التمس النووي وجها لصواب هذا الاستعمال بما ذكره الرافعي من أن بعضهم قد عدّ هذا الفعل ، كما ذكر في الوسيط استعمال لفظ «الآنية» في الواحد ، ووصفه بالرداءة وعدم جوازه عند اهل اللغة ، فان الآنية جمع اناء (٤) .

(ب) ذكر في «المهذب» جمع عارية على «عراة» في قولهم «نساء عراة» فصوّب جمعه على «عاريات» بقوله وهو «لحن» وصوابه عاريات كضاربة وضاربات ، كما جوز جمع «دير» على «ديارات» لوروده مستعملاً عن النبي صلى الله عليه وسلم (٥) ... «وستجدون بقاياهم في الصوامع والديارات»

---

(١) ت/٢: > حنت، حذف، حمد و > كذلك: جمع، سبح

(٢) > ظلل، واللسان ظلل وأدب الكاتب ٢٣

(٣) > قنزع واللسان قنزع

(٤) ت/٢: > بنى، عول، أنى، فحل و > اللسان «بنى، عول، أنى»

(٥) > عرى ،دير و > اللسان، دبـر

(ج) ذكر في «التنبيه» وغيره المصدر «عتق» للفعل «اعتق» وكان صوابه في مثل هذه الافعال القياسية «اعتاق» (١) .

(د) وصف جمع «منارة» على «مناور» ، وهي الجارية على القياس بالجودة وقد التمس وجاهة للمهموزة فيها «منائر» بقوله « فان كان جائزاً على احدى اللغتين فلا بأس » (٢)

(ه) وقع الامام الغزالي في خطأ بصوغه مصدر «افضاح» للفعل «فضح» وقد وصفه النووي بالخطأ ، واللحن ، وصوبه بـ « فضح » (٣) وفق القواعد الصرفية المعروفة وقد تأتي تصويباته في غير هذه الكتب : —

(أ) رجح استعمال الفعل «اوى» مقصوراً ان كان لازماً وبالمدّ إن كان متعدياً مستشهداً بقوله تعالى «أرأيت اذ أوينا الى الصخرة» وقوله تعالى « اذ أوى الفتية الى الكهف» وقوله تعالى « وآويناهما الى ربوة في قرار ومعين » و « ألم يجدك يتيماًفآوى» وعقب بقوله «هذا هو الفصيح المشهور في المسألتين : وقيل : يقال في كل واحد بالمد ، والقصر ، ولكن القصر في اللازم افصح ، والمد في المتعدي افصح واكثر» (٤).

(ب) ذهب بعض اللغويين الى ان «هرقت فعلت ، وأهرقت افعلت ، وانهما بمعنى واحد» فعقب مصوباً «وهذا قول من لايحسن التصريف ، لأنه يوهم ان الهاء اصل ، وهو غلط ، بل هما فعلان رباعيان معتلان بالعين أصلهما «ارقت» . فالهاء بدل من همزة افعلت في هرقت»ونستطرد شراح مما طرأ على المفردة من اعلال، وابدال ،معللاً ،ومستشهداً بقول العديل بن الفرخ العجلي ، وبقول ذي الرمة ، فأنشد للأول : —

فكنت كمهريق الذي في سقائه   لرقراق آل فوق رابية جلد

والشاهد الآخر على سكون «اهراقه» قول ذي الرمة : —

فلما دَنَتْ اهراقةُ الماء أنْصَتَتَ   لأعزلةٍ عنها وفي آلنَفسِ أنْ أثني(٥)

وفيها قول آخر ذلك أنهّ فعل رباعي ساميّ على وزن «هفعل فاصله «هراق» .

---

(١) > عتق

(٢) ت/٢:> نـور

(٣) > فضـخ

(٤) > أوى

(٥) > روق و> في مثل هذا: منى، قرن، مرج، فار.
و > اللهجات العربية في التراث ،و الجندي ٤٩١ وديوان ذي الرمة ٦٤٥.

(ج) وللقياس معياره في هذا ، فقد صوّب صيغة «خبث» بضم الباء واسكانها لورود نظائر له ، وان من خطأ الذين سكنوا الباء ليس بصواب منه في هذا الباب ، فقياس «فعل» بضمتين جائز بلاخلاف بين أهل اللغة والتصريف والنحو (١) .

(د) كما رجح ما ذكره الفرّاء والمحققون من أن «التراب» جنس لايثنى ولايجمع ، ووصفه بالصحيح المشهور ثم نقل رأي المبرد انه جمع وواحدته ترابه» والجمع «ترابي» (٢)

(هـ) انكر بعض أهل العربية جمع «الخمسين والاربعين» ونحوهما ، ولكنه رأى ان هذا الانكار ضعيف ، وصوابه الجواز مستشهداً بما حكاه ابن بري «ان كل مذكر لم يجمع جمع تكسير يجوز جمعه بالألف والتاء قياساً كحمامات ، فيجوز اربعينات ونحوها» (٣) .

٤ ــ الضبط اللغوي :

وقع كثير من اللحن في ضبط المفردة اللغوية ، وقد تصدى لها مصوباً ومقوماً مورداً آراء المعنيين في احايين ، ومعتمداً على معلوماته الخاصة في احايين أخرى مستشهداً لبعض منها واضعاً معاييره في هذا التقويم مؤكداً ... الضبط الصحيح محذراً من الوقوع في هذا الخطأ واصفاً الخاطيء بنعوت شتى تدل على اهتمامه ، وحرصه على اشاعة الصواب ، ونضرب امثلة لهذه الانواع : ــ

(أ) في قوله تعالى« فاذا احصنّ فان اتين بفاحشة» قرأ بفتح الهمزة ، وضمها قراءتان في السبع (٤) .

(ب) وهذا مانراه في «الانجيل» فالمشهور فيه كسر الهمزة ، وهي قراءة القراء السبعة وغيرهم وقراءة الحسن بفتح الهمزة (٥) ، وهو بهذا يضع معياراً آخر للجواز والصحة وهو القراءات القرآنية : .

(ج) يرجح الفتح في «الطيلسان» ورأى وروده بالحركات الثلاث غراية (٦) .

(١) ت/٢: > خبث .
(٢) > ترب
(٣) > ربع
(٤) ت/٢: > حصن و: > النشر في القراءات العشر، لابن الجزري ٢٤٩/٢
(٥) > نجل : > المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها، ١٥٢/١
(٦) > طنس

(د) «الغسل» بضم الغين الوارد في حديثين شريفين «وهو الماء الذي يغتسل به» وقد خطأ النووي ابن باطيش روايته بالكسر، ووصفه «بالخطأ الصريح والتصحيف القبيح والمنكر الذي لم يسبق اليه، وباطل لايتابع عليه» مستشهداً بآراء اهل اللغة وغيرهم. ومثل هذا عندما خطأه في فتح الميم والسين في لفظ «المسك» وهو «الجلد» وصوبه بفتح الميم فقط وهنا ايضاً ينعته بأنه: «خطأ صريح وغلط قبيح باتفاق اهل اللغة»، وكذلك يرى انه «ليس بحسن مافعله هو وجماعة من شارحي الفاظ المهذب من اقتصارهم على الكسر في «النقض» وايهامهم انه متعين اغتراراً بما في صحاح الجوهري» (١) فقد ذكر النووي ان الازهري وصاحب المحكم اقتصر فيه على الضم. وهنا يضع مقياساً غريباً للمفاضلة. اذ يرى ان «الضم أولى وان كان على غير القياس لوروده عن الأئمة الذين يعتد بهم». ومثل هذا التقويم في الضبط نراه في مواطن كثيرة.

٥ـ اللغات :

عني باللغات عناية بارزة، فقد احصيت له أكثر من خمس وثلاثين ومئة لغة، موازناً بينها مرجحاً بعضها على بعض، ورائده في هذا الترجيح الفصاحة، والجودة، والاستعمال والشهرة، فهي كذلك ان وافقت لغة القرآن الكريم وقراءاته، والحديث النبوي الشريف، اولغة الشعر، والمستعمل والمسموح عن العرب، ليفضل لغة على أخرى، ليدافع عن استعمالها. وقد تنوعت هذه اللغات، فطائفة منها ذكرها من مظانها المختلفة دون تعقيب او ترجيح، وقد يستشهد لواحدة منها بواحد أو أكثر من شواهده.

وطائفة أخرى ذكرها دون اسنادها الى مصادرها.

وسنحاول اعطاء نماذج لها لنرى نهجه في كل طائفة منها: ـ

فقد نقل عن «ابن قتيبة» ست لغات في الاربون «وعن صاحب المحكم ثلاثاً فيها ولغتين عن «الجواليقي مستشهداً لواحدة منها وهي «العربان» بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم (٢)، فيها كما اورد اللغات في مالح، ملح، مليح اذ صوّب لغة مالح ورد على المنكرين لها وتفند ماذهبوا اليه، باستشهاده بحديث النبي صلى الله عليه وسلم اذ وردت «مالح» على لسانه :

(١) > غسل و> كذلك: مسك، نقض، حبل، تنسا.
(٢) ت/٢: > أرب > المحكم «عرب» والمعرب ٢٨٠،٦٧

«ولم يجعله مالحاً» ، فضلاً عن نقله نصوصاً عن أئمة اللغة وغيرهم من أصحابه تضمنت ورود هاتين اللغتين في اشعار العرب ، والمسموع عنهم، مما استشهد به؛ : —

ولو تفلت في البحر والبحر مالح ... لأصبح طعم البحر من ريقها عذبا

وقول الآخر:

قنعت بثوب العدم من حلة الغنى ... ومن باردٍ عذب زلال بمالـــــح

وقول محمد بن الحازم:

تلونت الواناً عليّ كثيـــــرة ... ومازج عذباً من إحائك مالح

وانشدوا على «مليح» قول خالد بن زيد في رملة بنت الزبير :

ولو وردت ماء وكان قبيله ... مليحاً شربنا ماءه بارداً عذبا (١)

كما نقل عن القاضي عياض واخرين عشر لغات في (أفّ) وعن ابي جعفر النحاس خمس عشرة لغة في « التراب » (٢) .

وبلغ هذا النوع خمساً وسبعين حالة (٣) كان النووي ينهج بهذا النهج وهناك نوع آخر من التعامل مع هذه اللغات كان يسير عليه ، اذ يذكر هذه اللغات من غير اسناد الى مصادرها ، وقد يتركها دون ترجيح ، أو تعقيب في الغالب ، ولكنه يعقب في مواضع أخرى مستشهداً لبعض منها في جوازها وصحتها ، ولورود اللغات الأربع في « اللؤلؤ»: في القراءات القرآنية يقف غير مفضل واحدة على اخواتها ، وهي صحيحة جميعها « قريء بهن في القراءات السبع » وفي ألألية ، تفتح الهمزة ، وتثنيتها « اليان » يذكر لغة ثانية هي « اليتان » بياء مثناة تحت ثم بتاء مثناة فوق . جاءت في احاديث النبي صلى الله عليه وسلم وعن اللغات الخمس الواردة في « الخسف » يعلق بقوله « كلها صحيحة وصحت

---

(١) : > ملـــح
(٢) ت/٢: > افف، ترب و> اللسان افف، ترب .
(٣) ت/٢: > اثم ، أخ ، حبر، حصر، حنت، حول جبى ، برسم ، بشر ، بكر ،بوز تبل، تعس، تمم، جزف، جرو، خثر ، خلع، درك، دون، ذرع، ربع٠ ربو ، رشد، رفق، روى، زيل، زعم، زمر، سرر ، سكن، صنع ، صنف، ضنا ، طبب طلل، ظلم، عبب، عتق، عرج، عسى، عقد، لعل، عمم، عن، غصص فرج ، قبر قدر ، قصد، قلس، كرس، كلم، كل، لفظ، لمث، مجد، مشط، مسك،مع ،ملح، نبع، نخع، نزع ، نسو، نصف ، نمل، هون، هية، وكل، ولد، وله

وثبتت من لفظ النبي صلى الله عليه وسلّم » ، كما دافع عما سميت باللغة القليلة الاستعمال في الأوقية » بحذف الالف لكونها وردت بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءت بها احاديث صحيحة ، ومثلها « أمات » لغة في « مات » كما يذكر لغتين في « الترجمان» بضم التاء ، وفتحها ، ومثلها في « السحر » وثلاثاً في « السم » (١) . وقد احصيت ستاً وعشرين حالة (٢) من هذا النوع .

وفي هذه الطائفة نراه يفضل لغة على أخرى ينعتها بنعوت مختلفة سالكاً السبل للوصول الى اشاعة الصواب الذي سعى لملاحقته في صور شتى ، فقد رجح لغة تخفيف الصاد في « القصر » لورودها في القرآن الكريم ، ووصفها بالفصاحة والشهرة (٣) ، وعن اللغات الواردة في « سم الخياط» بالضم والفتح والكسر يفضل لغة الفتح باعتبارها افصح اللغات فيهن (٤) .

كما ينعت اللغة التي تجمع « منارة » على « مناور » بالجودة (٥) وكسر الراء في «الرطل » اجود من الفتح (٦) . و« المخنث » بكسر النون وفتحها يرى الكسر أفصح والفتح اشهر (٧) . ومثل هذا الحكم على « سُبُوح ، قُدُوس » (٨) ومثل هذا كثير وقد احصيت أربعاً وثلاثين حالة (٩) من هذا النوع .

---

(١) ت/٢: > لألأ، الى، موت ،ترجم، سحر، سم،و > النشر ٣٩٠/١ (لؤلؤ)

(٢) ت/٢: > ختم، ذرع، رشا، صبع، جبر، شيأ، صلق، طبع،طلق،عرس، فقد، قبر قثأ، قسط، لمس، مرط، مسك، موث، منى، نطع، تفل، هدب.

(٣) ت/٢: > قصر، والمواد سود ،مدن .

(٤) ت/٢: > سم، > حصب، طهر، خصر ،فصح، قرن، منى .

(٥) ت/٢: > نور، أمـن.

(٦) ت٢/: > رطل، خدع، قـط.

(٧) ت/٢: > خنث، جنب، خضب، رسل، منن، غسل، علق، كرس، طلق، زوج، سار، لفظ، نطع،

(٨) ت/٢: > سنج، شهر، نفس.

(٩) ت/٢: > افق، ملـك، هدى،نشـو

المصادر والمراجع

- ابو بكر بن الانباري اللغوي النحوي وكتابه المذكر والمؤنث ، دراسة وتحقيق طارق عبد عون الجنابي (رسالة دكتوراه) كلية الآداب جامعة بغداد ١٩٧٦م .
- أدب الكاتب ، لابن قتيبة الدينوري ، حققه وضبط غريبه ... محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، الطبعة الرابعة ١٩٦٣ م .
- إصلاح المنطق ، ليعقوب بن اسحق بن السكيت ، تح احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة ١٩٧٠م .
- الاضداد ، لمحمد بن القاسم الانباري ، تح محمد ابو الفضل ابراهيم ،الكويت ١٩٦٠م
- الاعلام ، خير الدين الزركلي . الطبعة الثانية .
- البداية والنهاية ، لابن كثير ، مكتبة المعارف ، بيروت ١٩٧٧م .
- البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث ، لأبي البركات الانباري ، تح د. رمضان عبد التواب ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٧٧م .
- تاريخ ابن الفرات ، لناصر الدين محمد بن عبد الرحمن الفرات ، حققه وضبط نصه الدكتور قسطنطين زريق ، المطبعة الاميركانية ، بيروت ١٩٤٢م .
- تذكرة الحفاظ ، لأبي عبد الله شمس الدين الذهبي ، دائرة المعارف العثمانية ١٩٧٠م .
- التنبيه على حدوث التصحيف ، لحمزة بن حسن الاصفهاني ، تح الشيخ محمد حسن آل ياسين ، مطبعة المعارف بغداد ، الطبعة الاولى ١٩٦٧م .
- تهذيب الاسماء واللغات ، لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النوري عنيت بنشره وتصحيحه ، ادارة الطباعة المنيرية . د. ت .
- تهذيب اللغة ، للأزهري ، المؤسسة العامة للتأليف والانباء والنشر .
- جمهرة اللغة ، لابن دريد ، دار صادر ،الطبعة الاولى ، ادارة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ١٣٥١هـ .
- ديوان الأحوص بن محمد الانصاري ، جمع وتحقيق د. ابراهيم السامرائي ، مطبعة النعمان النجف الاشرف ١٩٦٩م .
- ديوان ذي الرّمة ، عني بتصحيحه وتنقيحه كارليل هنري حيس مكارثني مطبعة كلية كمبريج ١٩١٩م .
- ديوان سقط الزند ، لأبي العلاء المعري ، شرح وتعليق . ن . رضا منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٥ م .

• شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلي ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت .د.ت
• شرح ديوان الأخطل التغلبي، ايليا سليم الحاوي ، دار الثقافة بيروت .د.ت
• الصحاح ، للجوهري ، تح احمد عبد الغفور ، عطار ، دار العلم للملايين بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٩م .
• طبقات الشافعية الكبرى ، لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب .. الكافي السبكي ، تح عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه د . ت .
• العين ، للخليل بن احمد الفراهيدي ، تح د. مهدي المخزومي ، د. ابراهيم السامرائي الجزء الاول دار الرشيد ١٩٨٠
• فصيح ثعلب والشروح التي عليه ، نشر وتعليق محمد عبدالمنعم خفاجي ، نشر مكتبة التوحيد ، الطبعة الاولى ١٩٤٩م .
• فعلت وافعلت ، لأبي حاتم السجستاني ، تح ودراسة : د. خليل ابراهيم العطية ، جامعة البصرة مديرية دار الكتب ١٩٧٩م .
• فقه اللغة د. علي عبدالواحد وافي ، لجنة البيان العربي الطبعة السادسة ١٩٦٨م
• فهرست مخطوطات مكتبة الاوقاف العامة في الموصل ، سالم عبدالرزاق وزارة الاوقاف ١٩٧٧م .
• القاموس المحيط ، للفيروز آبادي ، دار الجيل ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر ، بيروت د.ت
• كتاب الافعال ، لأبي عثمان السرقسطي ، تح حسين محمد محمد شرف ود. مهدي علام الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية ١٩٧٥ م
• كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، لمصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة (طبعة مصورة مكتبة المثنى بغداد)
• كلام العرب من قضايا اللغة العربية ، حسن ظاظا ، دار النهضة بيروت ١٩٦٧م
• لسان العرب ، لابن منظور اعداد وتصنيف يوسف خياط ، دار لسان العرب بيروت.
• اللهجات العربية في التراث ، د . احمد علم الدين الجندي ، مطابع الهيأة المصرية العامة

• ليس في كلام العرب ، للحسين بن احمد بن خالويه ، تح احمد عبد الغفور عطار دار العلم للملايين بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٩م .
• المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها ، لأبي الفتح عثمان بن جني تح علي النجدي ناصف ود . عبد الحليم النجار ود . عبد الفتاح اسماعيل شلبي ؛ المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية القاهرة ١٣٨٦هـ
• المحكم ، لابن سيدة ، نشر مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ،الطبعة الاولى د.ت
• المخصص ، لابن سيدة ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر بيروت . د. ت
• المذكر والمؤنث ، لابي بكر محمد بن القاسم الانباري ، تح د. طارق الجنابي ؛ مطبعة العاني، الطبعة الاولى ،بغداد ١٩٧٨ م .
• المذكر والمؤنث ، للفراء ؛ تح د . رمضان عبد التواب
• المذكر والمؤنث، للمبرد، تح د. رمضان عبد التواب وصلاح الدين الهادي –دار الكتب مصر ١٩٧٠م .
• مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ؛ تح محمد ابو الفضل ابراهيم، دار نهضة– مصر للطبع والنشر ، القاهرة .د.ت
• المزهر في علوم اللغة وانواعها ، لجلال الدين السيوطي ، تح محمد احمد جاد المولى ، وآخرين ؛ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، مصر .د.ت
• معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، مطبعة الترقي ، دمشق ١٩٥٧م
• المعرّب من الكلام الأعجمي على حر وف المعجم ،لابي منصور الجواليقي؛ تح وشرح احمد محمد شاكر ، دار الكتب . القاهرة ١٩٦٩م
• من اسرار اللغة د. ابراهيم انيس ؛ مكتبة الانجلو ؛ القاهرة ١٩٧٨م
• موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف ، د . خديجة الحديثي دار الرشيد ١٩٨١م .
• النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، لجمال الدين .. بن تغري بردي (طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب)
• النشر في القراءات العشر ، للحافظ أبي الخير محمد الشهير بابن الجزري؛ تح علي محمد الضباع ، دار الكتب العلمية ،بيروت .د.ت
• هدية العارفين اسماء المؤلفين واثار المصنفين ، اسماعيل باشا البغدادي ، استانبول ١٩٥٥ (طبعة مصورة ، مكتبة المثنى ،بيروت)

المديح والهجاء عند بشر بن أبي خازم الأسدي

علي كمال الدين محمد الفهادي
كلية الآداب / جامعة الموصل

تمهيد

هو بشر بن أبي خازم الأسدي (١) ، عدّه ابن سلام من فحول الشعراء ووضعه مع شعراء الطبقة الثانية وهم «أوس بن حجر ، وبشر بن أبي خازم الأسدي ، وكعب بن زهير بن أبي سلمى والحطيئة جرول بن أوس بن مالك» (٢). واقترن اسمه بالنابغة الذبياني عند الحديث عن الاقواء ، حيث أورد أبو الفرج رواية تقول : «كان فحلان من الشعراء يقويان : النابغة وبشر بن أبي خازم .... وأما بشر بن أبي خازم فقال له أخوه سوادة : إنك تقوي قال : وما ذاك ؟ قال : قولك :

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١ : ٩٧ والكامل للمبرد ١ : ٢٣٢ وذيل الأمالي للقالي البغدادي ٣ : ١٥٢ والاعلام للزركلي ٢ : ٧٢

(٢) طبقات فحول الشعراء ١ : ٩٧ .

ألم تر أن طول الدهر يسلي ويُنسي مثلما نسيت جذام

قلت بعد :

وكانوا قومنا فبغوا علينا فسقناهم الى البلد الشآم (١)

وذكر صاحبا الأغاني (٢) وذيل الأمالي (٣) وفوده على حاتم الطائي ومدحه له ، لكنهما لم يذكرا شعر المديح لحاتم . ويرى محقق ديوانه الدكتور عزة حسن أن هذا الخبر موضوع (٤) . كما يرى بلاشير أنه من صنع الخيال الذي اكتنف حياة حاتم «ويلحق خبرٌ خياليٌ بشراً بملحمة حاتم طيء » (٥) .

والمديح والهجاء في شعر بشر يرتبطان بحادث طريف تناولته كتب الأدب والتاريخ مفاده أن «النعمان بن المنذر دعا بحلة وعنده وفود العرب من كل حي فقال : احضروا في غد ، فاني ملبسٌ هذه الحلةَ أكرمكم ، فحضر القوم جميعاً إلا أوساً ، فقيل له لمَ تتخلّفُ ؟ فقال : إن كان المراد غيري فأجمل الأشياء ألاّ أكون حاضراً ، وان كنت أنا فسأطلب ويُعرَفُ مكاني . فلما جلس لم يرَ أوساً ، فقال : اذهبوا إلى أوس فقولوا له : احضر آمناً مما خفت ، فحضر ، فألبسه الحلة (٦) . فحسده قوم من أهله ، فقالوا للحطيئة : اهجُهُ ولك ثلثمائة ناقة ، فقال الحطيئة : كيف أهجو رجلاً لأرى في بيتي أثاثاً ولا مالاً إلا من عنده ؟ (ولعل هذا الموقف يشفع للحطيئة ويدفع عنه ما رمي به من جشع وسوء طبع ، فهو موقف وفاء وقفه أمام عرض مغرٍ من أكرم المال في عصره رافضاً الاشاحة والتنكر لليد التي أسدت اليه الخير والمعروف) فقال لهم بشر بن أبي خازم ، أحد بني أسد بن خزيمة : أنا أهجوه لكم (٧) . فأخذ الإبل وفعل ، فأغار

---

(١) الأغاني ١١ : ٣٧٩٦

(٢) أبو الفرج ١٩ : ٩٧

(٣) القالي البغدادي ٣ : ١٥٢

(٤) ينظر ديوانه المقدمة ٢١

(٥) تاريخ الادب العربي ٢ : ٨٨

(٦) من الجدير بالذكر أن بنت أوس كانت عند النعمان بن المنذر فهو صهره الأغاني ١٩ : ٦٧٠١

(٧) في نفس بشر شيء من الحقد على أوس لأنه جر نواصي أسرى من آل بدر الفزاريين من غطفان ، كانوا قد مروا بديار طيء ، فأسرهم أوس وجر نواصيهم وكان العرض هنا على الحطيئة بها أن يهجو أوساً فرصة سانحة لبشر يفرغ بها غيظه فاغتنمها ووافق على هجاء =

أوسى على الإبل فاكتسحها ، فجعل لايستجير حياً إلاّ قال : قد أجرتك إلاّ من أوس (١) وكان في هجائه إيّاه قد ذكر أمه سعدى (٢) . ثم وقع الشاعر في أسر بني نبهان من طيء «فركب أوس اليهم ، فاستوهبه وكان نذر ليحرقنه إن قدر عليه فوهبوه له » (٣) : «فجاء به وأوقد له ناراً ليحرقه ، وقال بعض بني أسد : لم تكن ناراً ، ولكنه أدخله في جلد بعير حين سلخه ، ويقال جلد كبش ، ثم تركه حتى جف عليه فصار فيه كالعصفور فبلغ ذلك أمه سعدى بنت حصين الطائية وهي سيدة فخرجت اليه فقالت ما تريد أن تصنع ؟ فقال : أحرق هذا الذي شتمنا فقالت : قبح الله قوماً يسودونك أو يقتبسون من رأيك ، والله لكأنما أخذت به ، أما تعلم منزلته في قومه ؟ خل سبيله وأكرمه فانه لايغسل عنك ماصنع غيره فحبسه عنده وداوى جرحه وكتمه ما يريد أن يصنع به ، وقال له : ابعث الى قومك يفدونك فاني قد اشتريتك بمائتي بعير ، فأرسل بشر الى قومه فهيأوا له الفداء ، وبادرهم أوس فأحسن كسوته وحمله على نجيبه الذي كان يركبه وسار معه حتى إذا بلغ أدنى أرض غطفان ، جعل بشر يمدح أوساً وأهل بيته ، بمكان كل قصيدة هجاهم بها قصيدة» (٤) .

نحن هنا أمام سيدة عربية كريمة ، تمتلك الحلم والمهل إزاء الغضب والتسرع ، وترى العفو والصفح عند المقدرة حين يرى ابنها الانتقام والتمثيل ،وهذه نقطة مضيئة في تراثنا القومي تؤكد فضل المشورة وتنصف المرأة حقها ومكانتها وتوضح مالها من نفاذ الرأي وسداد العقل وبعد النظر الى الأمور وما تؤول اليه لاما هي عليه في حاضرها ، فوفّاها بشر حقها في مدائحه لابنها أوس وذكرها في تلك المدائح

= أوس انتصاراً لأخلافه من بني بدر وتعريضاً بقوم أوس الذين غدروا بطرف من أطراف الحلف (طيء ، وأسد ، وغطفان) ينظر خبر التحالف في العقد الفريد ٣ : ٣٧٥ ومقدمة ديوانه ٢٧ .

(١) هناك تشابه بين قصة الشاعر وخبر إسلام كعب بن زهير حيث رفض الصحابة أن يجيروا كعباً بعد أن أهدر دمه ثم عفا عنه الرسول الكريم (ص) فمدحه كعب بقصيدته المشهورة (بانت سعاد) ينظر في ذلك الأغاني ١٨ : ١٣٥٨

(٢) الكامل للمبرد ١ : ٢٣١ و٢٣٢ .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٩١ .

(٤) خزانة الأدب للبغدادي ٢ : ٢٦٣ - ٢٦٤ وينظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ١ : ٦١٩ - ٦١٨ .

ونحن إزاء شاعر عرف الوفاء لحلفائه من غطفان ، فهجا أوساً انتصاراً لهم وطمعاً ، ونحن إزاء سيد ماجد من سادات طيء حليف للشاعر أيضاً كريم وشجاع ، لكنه غدر بأفراد طرف من أطراف الحلف وهم بنو بدر الفزاريون الغطفانيون (١) فجزّ نواصيهم ، ولكل جواد كبوة ، ولكن بشراً لايقيل هذه الكبوة فيهدد أوساً وقومه بالهجاء مالم تؤدّ فدية آل بدر ويطلق سراحهم (٢) .

فاذ جزّت نواصي آل بدرٍ فأدوها وأسرى في الوثاق
وإلا فاعلموا أنّا وأنتم بغاة ما حيينا في شقاق

ويغضب أوس للتهديد ،فيقابله بتهديد أقوى، وينذر نذراً أن يحرق بشراً إن ظفر به.

ويصل التهديد الى الشاعر فيقذع بهجائه ، ويذكر أمه سعدى في ذلك الهجاء ، وينتهي الأمر ببشر أسيراً بين يدي أوس الذي يتهيأ لتنفيذ نذره ، والوفاء به ، فتأتي مكرمة العفو عند المقدرة وهي سمة عربية خالصة وتنقذه من الحرق والموت برأي صائب ونظر سديد إذ تشير سعدى على ابنها أن يكرمه ويعفو عنه كي تمحو لعنات الهجاء بروائع المديح وصدق حدسها فمحا المديح الهجاء (٣) .

هكذا نقف أمام ظاهرة فريدة في تاريخ النقائض . كما نقف أمام موقف وحيد من نوعه، حقاً لقد وقف النابغة معتذراً امام النعمان بن المنذر بعدما مدح اعداءه من ملوك الغساسنة ،لكنه لم يهجه قبل ذلك، بل قيل إنه تغزل بزوجه غزلا فاحشاً ،ومع ذلك فالموقف هاهنا مختلف تماماً (٤) . وكعب بن زهير عرض بالرسول الكريم (ص) حين أسلم أخوه بجير فأهدر الرسول دمه، فأتاه طوعاً مادحاً بقصيدته (بانت سعاد) فعفا عنه، وتلك حادثة مختلفة أيضاً (٥) فماذا نسمي هذه القصائد؟ هل نسميها الاعتذاريات كما اسماها الدكتور شوقي ضيف عند النابغة؟ (٦) أم نسميها الممحصات كما أسماها الدكتور

---

(١) ينظر الهامش رقم (٩) .
(٢) ديوانه القصيدة ٣٤ .
(٣) ها بشر أوساً بالقصائد ١و٤و١٣و١٧و٣٤ ومدحه بالقصائد ٩و٢٢و٢٤و٢٩و٣٥و٤٦ .
(٤) ينظر النابغة الذبياني للدكتور أحمد زكي العشماوي ١٧ ومابعدها .
(٥) الأغاني ١٨: ٦٣٥٨.
(٦) العصر الجاهلي لشوقي ضيف ٢٨٠ .

أحمد هيكل عند ابن عبد ربه؟ (١) أنسميها المكفرات لانها كفرت ذنب الشاعر في قوافي الهجاء؟ أم نسميها الوفائيات لأن المدائح كانت وفاء لكرم اوس وأمه سعدى حيث منحاه الأمان والحياة ؟ واذا فعلنا ذلك، فما تكون تسمية قوافي الهجاء؟ فلنختصر الموضوع ونسميها (الأوسيات) لأنها جميعاً قيلت من خلال موقفه مع أوس الطائي ان مدحاً فمدح وان هجاء فهجاء

لم تكن مدائح الشاعر كلها لأوس بل كان له مدائح لبني بدر الفزاريين (٢) حلفاء قومه وله مدائح أخرى مدح بها عمراً بن ام إياس ابنَ أحد ملوك كندة الذين حكموا قومه مدة من الزمن (٣) وليس في هذه القصائد كلها مايدل على رغبة في نيل جائزة أو عطاء سوى مامدح به عمراً بن أم إياس حيث طلب العطاء مصرحاً ومحدداً مقدار الجائزة . ولم يرحل الى الملوك والأمراء ليتكسب بشعره، بل بقي في ديار قومه يدافع عنهم بشعره وسيفه ويسجل مآثرهم ووقائعهم ويفخر بانتصاراتهم ؛ ولذا كان الفخر أغلب موضوعات شعره .

قصائد المديح

بناء القصيدة : لبشر تسع قصائد في المديح (٤) اربع منها مطولات . (٥) وثلاث متوسطة الطول (٦). وله قصيدتان في مدح اوس تكون كل منهما من أبيات سبعة في المدح الخالص . والذي يقرأ ديوانه يجد أن قصائده تشترك في خاصية الكم هذه — مع قصائد

(١) الادب الا ندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة ٢٣١، الممحصات أشعار قالها ابن عبدربه بعد توبته عارض بها أشعاراً كان قد قالها أيام لهوه فكان تلك الأشعار الأخيرة قد محصت ماكان من أشعاره الأولى .

(٢) ديوانه المقدمة ٢٨ —

(٣) عمرو بن أم إياس بن الحارث بن حجر بن آكل المرار من ملوك كندة وهو عم الشاعر امرىء القيس وقد مدحه الشاعر بالقصيدتين ٧و ١٣ من ديوانه .

(٤) ديوانه القصائد ٧و ٩ و١٢ و٢٤ و٢٩ و٣١ و٣٥ و٤٦ .

(٥) ديوانه القصائد ٧و ١٢ و٢٩ و٤٦ وعدد أبياتها : ٢٣، ٢١، ٣٠، ٢٤ على التوالي وقد اعتمدنا في تقسيم القصائد حسب الطول على تقسيم الدكتور أحمد كمال زكي فالطويلة مازادت ابياتها على العشرين ، والمتوسطة أكثر من عشرة ودون العشرين والقصيرة دون العشرة ، ينظر شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي ٢٣٠ .

(٦) ديوانه القصائد ٢٤، ٣١، ٣٥، وعدد ابياتها ١٧ و ١٦ و ١٤ على التوالي

المديح من حيث الطول — فأطول قصائده بلغت ثمانية وخمسين بيتاً ؛ وقارب عدد القصائد الباقية الثلاثين ويجري بناء قصيدته في الغالب على ألسنة الجاهلية المألوفة من وقوف على طلل أو نسيب ، أو وصف لرحلة ، ثم التخلص الى الممدوح . وقد حرص على هذه السنة في التقديم لمطولاته ، فقد مهد لقصائده في المديح ، بمقدمة طللية (١) . في أربع قصائد، وقدم برحلة الظعائن لثنتين (٢) ، وقدم لواحدة بالغزل (٣) ؛ وترك ثنتين دون تقديم تناول المدح فيها مباشرة (٤) . لأن تدفق تجربته الشعورية وسرعة هذه التجربة لم تتيحا له الوقت الكافي للتأني في صوغ المقدمات .

ومن يمعن النظر في قصائد مدحه يجد أنه اعتمد التصريح للتشويق والتنغيم في عدد منها وأهمله في عدد آخر ؛ لكنه لم يكرره في أي منها (٥) ، حتى في أقصى قصائده طولا (٦) فقد اعتمد التصريح في مطالع ست قصائد من مدائحه (٧) ، وتركه في ثلاث منها (٨) .

بقي أن نشير الى الالفاظ التي استخدمها في مدائحه ، حيث أن الألفاظ هي المادة الأساس التي يقوم عليها بناء القصيدة، ومنها تقوم الصور والمعاني . والفاظ بشر من الفاظ عصره وبيئته ،ليس فيها تلك الغرابة التي طغت على أشعار الصعاليك ومن ضربوا في البداوة من الشعراء كالشماخ بن ضرار مثلا، وما نراه فيها من بعض الغرابة . إنما يرجع الى الزمن الذي يفصل بين لفظنا المتداول وبين عصره ؛ كما يرجع الى اختلاف التذوق اللفظي بيننا وبين بشر، على أننا نلاحظ أن اللفظ عنده يميل الى الغرابة نسبياً حينما يصف الناقة والصحراء ، وثور الوحش، لاسيما في مقدمات قصائده. والحق ان الفرق في اللفظ بين المقدمة وسائر القصيدة ليس حصراً على بشر، إنما سبقه في ذلك طرفة بن العبد في

---

(١) ديوانه : مقدمات القصائد ٧ و٢٤ و٣١ و٤٦ .
(٢) ديوانه القصيدتان ١٢ و ٣٥ .
(٣) ديوانه القصيدة ٢٩ .
(٤) ديوانه القصيدتان ٩ و ٢٢ .
(٥) اعتاد الجاهليون التصريع في أغلب قصائدهم ولاسيما في المطلع ، وتكرر التصريع في القصيدة الواحدة عند تنقل الشاعر بين الموضوعات ، مثل معلقتي امرىء القيس وعنترة على سبيل المثال .
(٦) ديوانه القصيدة ١٥
(٧) ديوانه القصائد ٧ و١٢ و٢٤ و٢٩ و٣١ و٣٥ .
(٨) ديوانه القصائد ٩ و ٢٢ و ٤٦ .

معلقته بشكل خاص وهذه الظاهرة امتدت الى عصر الأمويين حيث بدت جلية في شعر الفحول وعند شعراء النقائض أنفسهم.

وغرابة لفظ بشر تلاحظ في مقدمة مدحه لال بدر الفزاريين حين يصف ناقته (١)

ثم اغترزت على عنس عذافرة سيّ عليها خبار الأرض والجدد (٢)
كأنها بعدما طال الوجيف بها من وحش خبة موشي الشوى فرد
طاو برملة اورال تضيفه الى الكناس عشيّ بارد صرد
فبات في حقف أرطاة يلوذ بها كأنه في ذراها كوكب يقد
يجري الرذاذ عليه وهو منكرس كما استعان لشكوى عينه الرمد

ثم ينتقل الى المدح فتميل الفاظه الى الوضوح فيقول :

حتى تزوري بني بدر فانهم شم العرانين لاسود ولا جعد
لوبوزنون كيالا أو معايرة مالوا برضوى ولم يعدلهم أحدُ
القاعدين اذا ماالجهل قيم به والثاقبين إذا مامعشر خمدوا
لاجارهم يرهب الإحداث وسطهم ولا طريدهم نساج اذا طردوا
وما حسدت بني بدر نصيبهم في الخير دام لهم من غيري الحسد

وهكذا شأن مقدماته الأخرى (٣)

---

(١) ديوانه القصيدة ١٢ .

(٢) اغترز : ركب من الغرز وهو ركاب الرحل . العنس : الناقة القوية الصلبة عذا فرة : الناقة الشديدة العظيمة ، سي : سواء . خبار : الأرض اللينة الرخوة تسوخ فيها قوائم الدواب . الجدد : الأرض الصلبة المستوية الوجيف : السير السريع . خبة : اسم ماء . موشي الشوى : الثور الموشى القوائم أي في قوائمه بياض . تضيفه : الجأه وأسكنه . الصرد : الشديد البرد . منكرس : من الانكراس وهو الانكباب .

(٣) ينظر ديوانه القصائد ٧ الأبيات من ٥ – ١٤ و ٢٩ الأبيات من ١٣ – ٢٢ و ٣١ الأبيات من ٦ – ١٠ و ٣٥ الأبيات من ٥ – ٨ و ٤٦ الأبيات من ٧ – ١٢ .

بين المديح والهجاء

١ – القصيدة :

هجا بشر أوساً بقصائد عدة كلها من بحر الوافر سوى أرجوزة واحدة ثم مدحه بقصائد اخرى ، ثلاث منها من بحر الوافر ، وثنتان من الطويل ، ولاأظن أن اجتماع القصائد (المدح والهجاء) على بحر الوافر مسألة مصادفة ، إنما هي أمر تعمده بشر ليغسل البحر بالبحر فكان له ماأراد. وأختار أول قصيدة للمدح من بحر الوافر (بحر قصيدة الهجاء الأولى نفسه) وبدأ قصيدة المدح القافية بالغزل (١)، كما بدأ قصيدة الهجاء القافية بالغزل أيضاً (٢) .

وصرع مطلع القصيدتين واستغرق غزله في قصيدة الهجاء خمسة أبيات :

أهمت منك سلمى بانطلاق	وليس وصال غائبة بباق
تغير عسعس منها فشرق	فأين من آل سلماك التلاقي
غداة تبسمت عن ذي غروب	لذيذ طعمه عذب المذاق
مقلدة سموطا من فريد	يزين الجيد منها والتراقي
هضيم الكشح ماغذيت بؤس	ولا مدت بناحية الرباق (٣)

إن سرعة العاطفة المدفوعة بالغضب، جعلت الشاعر في مقدمة قافية الهجاء يوجز الغزل ويترك الاستعارات والتشبيهات، ويصف وصفاً مباشراً بغير اهتمام بتقاليد القصيدة في صور الغزل ليتركه ويتناول وصف ناقته. بينما أتاحت له عاطفة الشكر والوفاء وحب الأعتذار لأوس وأمه سعدى (من خلال الغزل) أن يطيل مقدمته الغزلية في قصيدته الثانية في المدح ويرضي تقاليد القصيدة الفنية من الاهتمام بالصورة ،فالحبيبة. رشأ (البيت ٤٠) ويترك المشبه (الحبيبة) ويفصل الوصف بالمشبه به فيبين على عاده الجاهليين أوصافه ثم يشبه طعمهم ثغر حبيبته بالخمر يقول في قافيته في المدح متغزلا باثني عشر بيتاً :

---

(١) ديوانه القصيدة ٢٩ .

(٢) ديوانه القصيدة ٣٤ .

(٣) ولامدت بناحية الرباق : يريد انها منعمة مترفه لايكلفها أهلها ان تعلف الأبل وتربطها .

كفى بالنأي من اسماء كافي   وليس لحبها إذ طال شافي
بلى ان العزاء له دواءٌ   وطول الشوق ينسيك القوافي
فيالك حاجة ومطال شوق   وقطع قرينة بعد ائتلاف
كأن الأتحمية قام فيها   لحسن دلالها رشأ موافي (١)
من البيض الخدور بذي سدير   ينشن الغصن من ضال قضاف(٢)
أو الأدم الموشحة العواطي   بأيديهن من سلم النعاف (٣)
كأن مدامة من أذرعات   كميتاً لونها لون الرعاف
على أنيابها بغريض مزن   أحالته السحابة في الرصاف(٤)
فانك لو رأيت غداه بنتم   خشوعي للتفرق واعترافي
إذا لرثيت لي وعلمت أني   بودي غير مطرف التصافي (٥)
وحاجة آلف بدلت صرماً   إذا هم القرينة بانصراف
على أني على هجران سعدى   أمنيها المودة في القوافي

والحق ان الشاعر في مقدمته الغزلية، استطاع ان يربط بين المقدمة وموضوع القصيدة من خلال ذكره للأماكن التي كان منها أسماء مواضع في ديار طيء قوم الممدوح كما ذكر سعدى في الغزل وهي أم الممدوح، وبهذا ربط بين المدح والغزل، حيث بدأ غزله بذكر أسماء في البيت الأول ،وأظنها رمزاً لعلاقته بأوس ،وصرح بذكر سعدى أم أوس في البيت الثاني عشر، وقد أطال الوقوف عند الغزل ،وكانت هذه المقدمة الغزلية أطول مقدماته في المديح والهجاء ،ثم أعقب ذلك بوصف الناقة والصحراء حتى البيت الثاني والعشرين ورأى أنه أطال التقديم لأن هذه القصيدة هي أولى مدائحه لأوس بعد ذلك الخلاف وتلك القطيعة، حيث كان يجد صعوبة في تناول المديح،لذلك آثر أن يعتذر بالغزل، ويصف الصحراء الموحشة التي قطعها بناقته القوية ليدلل على أنفته ويرضي كبرياءه حتى وصل أوساً فأعطاه سبعة أبيات من المديح ، ثم عمد الى ناقته مشبهاً إياها بحمار الوحش في قافية الهجاء .

---

(١) الأتحمية : ثياب من اليمن .
(٢) الضال : شجر صغير دقيق العيدان ، وقضاف جمع قضيف وهو الرقيق .
(٣) النعاف : جمع نعف وهو السفح ينحدر من حزونة الجبل ، ويرتفع عن منحدر الوادي
(٤) الرصاف الماء الذي ينحدر من الجبال على الصخر فيصفو .
(٥) المطرف : الجديد .

على أن قد أسلي الهم عني ... بناجية من الآدم العتاق (١)
عذافرة يئط النسع فيها ... إذا ماخب رقراق الرقاق (٢)
مذكرة كأن الرحل منها ... على ذي عانة وافي الصفاق (٣)
ألظ بهن يحدوهن حتى ... تبين حولهن من الوساق (٤)

وشبه ناقته بحمار الوحش في قافية المديح أيضاً مضاعفاً عدد الأبيات في وصفها إذ يقول :

فسل طلابها وتعز عنها ... بناجية تخيل بالرداف
بمرجوج يئط النسع فيها ... أطيط السمهرية في الثقاف (٥)
كأن مواضع الثفنات منها ... إذا بركت وهن على تجافي (٦)
معرس أربع متقابلات ... يبادرن القطا سمل النطاف
فأبقى الأين والتهجير منها ... شجوباً مثل أعمدة الخلاف (٧)
تخر نعالها، ولها نفي ... من المعزاء مثل حصى الجذاف
كأن السوط يقبض بطن طاو ... بأجماد اللبين من جُفاف (٨)

ثم يصف الصحراء التي تقطعها ناقته في سبيلها الى الممدوح

شجحت بها إذا الآرام قالت ... رؤوس اللامعات من الفيافي (٩)

---

(١) الناجية : الناقة السريعة من النجاء .
(٢) العذافرة : الناقة الصلبة الوثيقة ، خب السراب : جرى واضطرب . الرقراق : ترقرق السراب وتلالؤه . الرقاق : جمع رقة وهي كل ارض بجانب الوادي يغطيها الماء ثم ينحسر عنها فتكون مكرمة للنبات والشطر الثاني كناية عن شدة الحر .
(٣) وافي الصفاق : أراد أن ضلوعه طوال جداً .
(٤) الظ : الح بهن في السوق ، يحدوهن : يسوقهن . الحول : جمع حائل وهي التي ضربها الفحل ولم تحمل . الوساق : جمع واسق وهي الأتان التي ضربها الفحل وحملت .
(٥) المرجوج : الناقة الضامر .
(٦) الثفنات : مالزم الارض من الناقة حين تبرك ، التجافي : التباعد .
(٧) التهجير : السير وقت الهاجرة : الشحوب : القوائم وعمد البيت . الخلاف : شجر الصفصاف وهو شجر ضعيف خوار .
(٨) الطاوي : الذي يطوي البلاد نشاطاً ، الأجماد : ماارتفع وصلب من الأرض . اللبين : ذو لبان جبل في بلاد بني عبس ، جفاف : أرض لأسد وحنظلة يألفها الطير .
(٩) اللامعات من الفيافي : الصحارى يلمع فيها السراب .

فليتي قد رأيت العيس ترمي ... بأيديها المفاوز عن شراف (١)
عوامد للملا وجنوب سلمى ... على أعجازها دكن العطاف (٢)

ويترك الشاعر الصحراء فلا يصفها في قافية الهجاء بل يقتحم الهجاء بلا تخلص فيقول

فاني والشكاة من آل لأم ... كذات الضغن تمشي في الرفاق
سأرمي بالهجاء ولا أفيه ... بني لأم وللموقي واقي
وسوف أخص بالكلمات أوساً ... فيلقاه بما قد قلت لاقي
إذا ما شئت نالك هاجراتي ... ولم أعمل بهن إليك ساقي
قواف عرم لم يسبقوها ... وإن حلوا بسلمى فالوراق
أجهزها يحملها اليكم ... ذوو الحاجات والقلص المناقي
فاذ جزت نواصي آل بدر ... فأدوها وأسرى في الوثاق
وإلا فاعلموا أنا وأنتم ... بغاة ما حيينا في شقاق

هذا تهديد بهجاء مقبل لبني لأم وسيدهم أوس مالم يتخذوا وقاية لأنفسهم — من قواف سريعة الذيوع والانتشار تصل جبل سلمى والوراق — وذلك برد اعتبار بني بدر الفزاريين حلفاء الشاعر.

ويفخر بعدها بقومه وانتصاراتهم بالأبيات الأخيرة الثلاثة. ويتجه الشاعر الى أوس في فائية المدح بعد أن ترك الصحراء، يمدحُهُ عامداً الى التصوير:

الى أوس بن حارثة بن لأم ... لربك فاعلمي إن لم تخافي (٣)
فما صدع بجبة أو بشوط ... على زُلُق زوالق ذي كهاف
تزل اللقوة الشغواء عنها ... فخالبها كأطراف الأشافي (٤)
بأحرز موئلاً من جار أوس ... إذا ما ضيم جيران الضعاف

(١) شراف: ماء بنجد.
(٢) عوامد: قواصد. الملا: موضع لبني اسد قريب من جبل سلمى. العطاف: مطارف الخز.
(٣) الصدع: الوعل الخفيف الجسم، جبة وشوط: موضعان في جبال طيء.
(٤) اللقوة: العقاب الخفيفة السريعة الاختطاف، والشغواء: العقاب التي ركب منقارها الأعلى الأسفل وتعقف. الأشافي: جمع اشفى بكسر الألف وهو المثقب.

وما ليثُ يعثّرَ في غريف ... يغنيه البعوض على النطاف (١)

مغبٌّ لايزالُ على أكيل ... يناغي الشمس ليس بذي عطاف (٢)

بأبأس سورة للقرن منه ... إذا دعيت نزال لدى الثقاف (٣)

وما أوس بن حارثة بن لأم ... بغمر في الامور ولا مضاف (٤)

إن القاريء حين يقرأ هاتين القصيدتين الأوليين في الهجاء وفي المديح يجد تماثلاً وتوازناً في موضوع كل قصيدة، على الرغم من الفرق والخلاف (فسلمى) في الهجاء قطعت الوصل وهمّت بالانطلاق، وصعب لقاؤها. وكذلك (أسماء) في قصيدة المدح، فهي نائية، بعيدة مماطلة قطعت قرائن الوصل بعد ائتلاف، وفوها عذب بارد طعمه كطعم الخمر من أذرعات، وهو شبيه بمذاق ثغر (سلمى) في الهجاء:

غداة تبسمت عن ذي غروب ... لذيذ طعمه عذب المذاق

وتكاد الناقة التي يرحل عليها الشاعر هاجياً ومادحاً. تكون واحدة أيضاً فهي في الهجاء «ناجية تسلّي الهم، وعذافرة يئط النسع فيها» وفي المديح، «ناجية تسلي طلاب الحبيبة، وحرجوج يئط النسع فيها» وتشبه في الهجاء حمار الوحش كما تشبهه في المديح وهي قوية سريعة موثقة الخلق في القصيدتين، وفي القصيدة الفائية تهديد بالهجاء بلاقذاع أو إفحاش في القول وبلا نقض لأي من قيم المروءة التي اعتاد الهجاء نقضها وهو تهديد ووعيد بالهجاء الآتي، مالم تؤد فدية آل بدر الفزاريين حلفاء الشاعر:

فاذ جزّت نواصي آل بدر ... فأدوها وأسرى في الوثاق

وإلا فاعلموا أنا وأنتم ... بغاة ما حيينا في شقاق

والحق أن التهديد والوعيد كانا منصبين على أوس، لذلك كان المدح كله باسمه الثلاثي الكامل (أوس بن حارثة بن لأم) الذي يكرره الشاعر في الأبيات ٢٣ – ٢٦ – ٣٠ ليحشر باسمه حماية الجار والشجاعة عند لقاء الأقران، وصدق التجربة وصراحة النسب، حيث تبقى مقرونة باسمه كلما رويت أبيات القصيدة، وليشير الى كرم أصله وعراقة محتده.

(١) عثر: موضع وهو مأسدة. الغريف: الشجر الكثيف الملتف. النطاف: المياه واحدها نطافة.

(٢) مغب: يصيد يوماً ويوماً لايصيد. الأكيل: مايفترسه السبع ويأكله. يناغي الشمس: ينتظر غيابها ليخرج للصيد ليلا. ليس بذي عطاف! لا يلبس معطفاً.

(٣) الثقاف: الخصام والجلاد.

(٤) الغمر: الذي لم يجرب الأمور. المضاف: الدعي المسند الى قوم ليس منهم.

٢ – المعاني :

قبل الحديث عن معاني المديح لابد من ذكر معاني الهجاء فبضدها تعرف الاشياء ، وبشر في هذا الموضوع يتناول مهجوه بالشتائم والسباب ، والشتم والسباب مما يبعد الشعر عن الفن ، لأنهما يزهدان بالصور الفنية المضحكة أو السخرية الطريفة الناقدة التي تجسد العيوب الخُلقية ، فتجعل المتلقي يتعاطف مع الشاعر ، ويستمتع بالهجاء لما يثير في نفسه من الضحك والطرفة والمرح . أما السباب والشتم فيسقطان الشعر فنيــاً ويقتلان الصلة بين الشاعر والمتلقي ، فأي متعة نشعر بها من شتائم بشر لأوس «اللئيم» ، «الحمار» «المقصور على اللؤم يعيش بين الكلاب من قومه» يقول ! (١)

١ – إنك يـاأوس اللئيم محتــدهُ
٢ – عد لعبد في كـلابٍ تسنـده
٥ – مثل الحمار في حـمير ترفده
٦ – واللؤم مقصور مضـافٌ عمده

ويقول في قوم المهجو: (٢)

٢–لئام الناس مـاعاشوا حيــاة وأنتهم إذا دفنوا قـبــــورا

ويقذع في الشتم (٣)

٩ – فباستك حار نذرك يابن سعدي وحـق لنـذر مثلك أن يجـور

ويعير مهجوه بالبخل ، وينفي الكرم عنه وعن قومه بقوله (٤)

٤ – إذا أتاه سائلٌ لايحمده

والخير عسيرعندهم فلايقدمو ن طعاماً لضيف (٥)

٤ – ذنابـى لايفون بعهد جـارٍ وليسوا ينعـشون لهـم فقيــرا
٥ – إذا ماجئتهم تـبـغي قـراهم وجدت الخيـر عندهـم فقيــرا

والضيف لايأتيهم إلا لماماً وإذا أتاهم اعتذروا له بجدب مزعوم (٦)

(١) ديوانه القصيدة ١٣ المحتد : الأصل . ترفده : تعينه وتسنده ، عمده : قومه .
(٢) ديوانه القصيدة ١٧ .
(٣) ديوانه القصيدة : ١٧ .
(٤) ديوانه القصيدة : ١٣ .
(٥) ديوانة القصيدة ١٧ . ذنابى : تبع لغيرهم .
(٦) ديوانه القصيدة ٤ . الخسف : الجوع .

٧ – ألاأبلغ بني لأمٍ رسولا　　فبئس محل راحلة الغريب
٨ – لضيف قد ألم بها عشاء　　على الخسف المبين والجدب

وبعد فهولاء قومٌ لاقدرة لهم على حماية جيرانهم ولاحول لهم ولاقوة من الضعف والهوان لايردون شاة ولابعيرا . (١)

١ – ألا يلحت خفارة آل لأم　　فلاشاة تردُ ولابعيرا
٣ – وأنكاسٌ غداة الروع كشف　　إذا ما البيض خلَيْنَ الخدورا
١٢ – فلو لاقيتني للقيت قرناً　　لنار الحرب إذ طفقت سعورا

ويقول : (٢)

١١ – وأنكاس إذا استقرت ضروس　　تخلّى من مخافتها النساء

والمهجو وقومه لايجبون عن حماية جيرانهم حسب ؟ انما هم غُدُرٌ عرفوا بالغدر، ونقض العهود : (٣)

٤ – ذنابى لايفون بعهد جار　　وليسوا ينعشون لهم فقيرا
١١ – غدرت بجار بيتك يابن لأم　　وكنت بمثل فعلتها جديرا

ويقول : (٤)

٩ – فيا عجباً عجبت لآل لأم　　اما لهم إذا عقدوا وفاءٌ
٩ – إذا عقدوا لجار أخفروه　　كما غر الرشاء من الذنوب (٥)

ويتهمه بالجهل ،فهو غير حصيف الرأى، لايستحق السيادة ولايصل اليها ويقصر وقوفه في المكارم.

٨ – إذاما المكرمات رفعن يوماً　　مددت لنيلها باعاً قصيراً (٦)
١٠ – مجاهيل اذا ندبوا لجهل　　وليس لهم سوى ذاكم غناء (٧)

(١) ديوانه القصيدة ١٧ . بلحت خفارتهم لم يفو ذمتهم .
(٢) ديوانه القصيدة ١ .
(٣) ديوانه القصيدة ١٧ .
(٤) ديوانه القصيدة الأولى .
(٥) ديوانه القصيدة ٤ . أخفروه : نقضوا عهده . غر : قطع . الرشاء : الحبل . الذنوب : الدلو .
(٦) ديوانه القصيدة ١٧ .
(٧) ديوانه القصيدة الأولى . غناء : فائدة .

١٠ — وما أوس ولو سودتموه بمخشي العرام ولا أريب (١)

وعلى هذا النحو دارت معاني الهجاء عند الشاعر حيث تناولت ماينافض قيم المروءة ويهدم المثل التي يعتز بها المرء والقوم في عصره ،ولقد كان عفيفاً في هجائه لأنه هجاء نابع من موقف ذاتي محفز. موقف يدافع به عن حلفائه من بني بدر الفزاريين الذين أسرهم وجز نواصيهم أوس بن حارثة ،وأخذ منهم الفداء ليطلق سراحهم ، لذلك تدرج بشر من التهديد بالهجاء في أول قصيدة وهي القصيدة (٣٤) من ديوانه ثم هجا في الثانية (القصيدة ٤ من ديوانه) واتهمه وقومه بالغدر وفخر عليه بقومه . ثم أقذع في الثالثة (القصيدة ١٧) بيت واحد فحسب ؛ لان اوساً سعر نار غضبه حين نذر ان يحرقه حياً ان ظفر به، ولم يقذع أو يفحش في القول بسواها لأن ذلك ينافي مروءته وكرم نفسه، ولم تكن هذه المعاني التي طرقها في الهجاء حصراً على شعره أو أن الشاعر ابتكر شيئاً من معانيها إنما هي معان تناولها شعراء الهجاء .

ولعل من افضل الدلائل على وفاء الشاعر ، أنه نقض كل هذه المعاني حين مدح أوساً وأقام مقامها بناء عن المكرمات والقيم محا به كل الهنات التي الصقها بأوس وقومه .

لقد دارت معاني المديح عنده حول قيم المروءة يجسدها بممدوحه تجسيداً ويمجد بها قومه ،فهم صرحاء النسب ،شم الأنوف ، بيض الوجوه ،وممدوحه فرع كريم في شجرة أصيلة (٢) :

١٧ — متى تزوري عن بني بدر فانهم شم العرانين لاسود ولا جعدُ

١٨ — لو يوزنون كيالا أو معايرة مالوا برضوى ولم يعدلهم أحد

ويقول مادحاً أوساً بكرم الأصل والفرع (٣) :

١٧ — نمى من طيء في إرث مجد اذا ماعد من عمرو ذراها

١٨ — وأضحى من جديلة في محل له غاياتها وله لهاها

١٩ — نموه في فروع المجد حتى تأزر بالمكارم وارتداها

وأفاض الشاعر في حديثه عن الكرم والكرماء وراح يصف ممدوحه مشبها جودة بالبحر

---

(١) ديوانه القصيدة ٤ . العرام : الشراسة والأذى .

(٢) ديوانه قصيدة ١٢ .

(٣) ديوانه قصيدة ٤٦ .

فهو مطعام للضيف معطاء في سني الجدب ومواسم القحط، يقدم النوق والقينات فيما يقدم من هدايا: (١)

١٨ - بحر يفيض لمن أناخ ببابه ... من سائل وثمال كل معصب
٢٠ - الحافظ الحي الجميع اذا شتوا ... والواهب القينات شبه الربرب
٢١ - المانح المائة الهجان بأسرها ... تزجى مطافلها كجنة يثرب

ويقول في مدح ابن أم اياس (٢) :

١٢ - ملك إذا نزل الوفود ببابه ... غرفوا غوارب مزبد لاينزفُ
١٣ - متحلب الكفين غير غضبه ... جزل المواهب مخلف مايتلف
١٤ - يكفيك ماجترحت يداك ويعتلي ... ماكان من نطف وما لاينطف
١٥ - الواهب البيض الكواعب كالدمى ... حوراً بأيديها المزاهر تعزفُ
١٦ - يعطي النجائب بالرحال كأنها ... بقر الصرائم، والجياد تـوذف

من الملاحظ ان الشاعر يذكر الهبات والأعطيات (الواهب القينات اللواتي تشبه واحدتهن الربرب والمانح المائة الهجان بأسرها، والواهب البيض الكواعب كالدمى، ويعطي النجائب بالرحال) في مدحه لابن أم إياس فقط، ويبدو أنه ثمن للمدح يحدده الشاعر ويطلبه من الممدوح جزاء شعره فيه ومديحه له، وهذا مالا نجده في مديحه لأوس لأنه يمدحه جزاء كرمه ووفاء منه.

يقول في جود أوس وكرمه : (٣)

٢٠ - غياث المرملين إذا أناخوا ... به في الليلة الغالي قراها
٢١ - له كفان .كف كف ضر ... وكف فواضل خضل نداها

---

(١) ديوانه قصيدة ٧ . الثمال : الملجأ والمطعم في الشدة. المعصب : الذي شد على بطنه عصابة من الجوع .

(٢) ديوانه قصيدة ٣١، المتحلب : الذي يسيل العطاء من يديه لكثرته إجترحت: إكتسبت النطف : العيب والريبة ، الصرائم : قطع الرمال واحدها صريمة .
توذق : تتوذق أي تتبختر في مشيتها .

(٣) ديوانه قصيدة ٤٦ وينظر الأبيات ٢٧ و٢٨ و٢٩ من القصيدة ٢٩ .

ويؤكد شجاعة ممدوحه وجرأته ، فهو أشجع من أسد يزحف بجيش كثير العدد والعدد على خيل كريمة وجياد سريعة ، فوقها فرسان كأنهم الأسود قد لبسوا الحديد(١)

١٩ – ولأنت أحيا من فتاة غالها عذر وأشجع من هموس أغلب

٢٢ – ولرب زحف قد سموت بجمعه فلبسته رهواً بأرعن مطنب

٢٣ – بالقوم مجتابي الحديد كأنهم أسد على لحق الأياطل شزب

والممدوح دائماً بطل يكفي قومه الحرب كأنه أسد يقودهم من نصر الى نصر على خيل سريعة (٢) :

٢٢ – اذا ماشمرت حرب عوان يخاف الناس عرتها كفاها

٢٣ – يجيب المرهقين اذا دعوه ويكشف عن أطاخيها دجاها

٢٤ – بخيل تحسب الزفرات منها زئير الأسد مشدوداً قراها

وإذا تركنا الشجاعة في المدح ، وما سبقها ، من الهجاء بالجبن والوصم بالهزيمة نتناول معنى آخر أفاض بشر بالحديث عنه ، ومدح به وهو يرتبط كثيراً بالشجاعة الاوهوحماية الجار والدفاع عنه وعيشه آمناً وسط القوم (٣) .

٢٠ – لاجارهم يرهب الأحداث وسطهم ولاطريدهم ناج إذا طردوا

وجار أوس في حفظ ومنعة، وهو أكثر منعة من عقاب فوق صخرة على مرتفع زلق(٤)

٢٤ – فما صدع بجبة أو بشوط على زلق زوالق ذي كهاف

٢٥ – تزل اللقوة الشغواء عنها مخالبها كأطراف الأشافي

٢٦ – بأحرز موئلاً من جار أوس إذا ما ضيم جيران الضعاف

---

(١) ديوانه قصيدة ٧ غالها حذر : أي أتاها من حيث لم تدر وحبسها الهموس : من اسما الأسد . الأغلب : الغليظ الرقبة . الرهو : السريع . الأرعن . الجيش العظيم له فضول كرعان الجبال . مطنبُ : بعيد الذهاب ، مجتابو الحديد : لابسوها . . الأياطل : جمع أيطل وهو الخاصرة . لحق : جمع لاحق وفرس أيطل : ضامر . والشزب ! جمع شازب وفرس شازب أي ضامر .

(٢) ديوانه القصيدة ٤٦ أطاخيها : ظلماتها ، يريد ظلمات الحروب دجاها : سوادها . القرى : الظهر ، مشدوداً قراها : أي الخيل .

(٣) ديوانه ، القصيدة ١٢ .

(٤) ديوانه القصيدة ٢٩ .

ويأتي بعد هذه المعاني الحلم والسداد في الرأي والتدبير (١)
١٩ – القاعدين إذا ما الجهل قيم به
والثاقبين إذا ما معشر خمدوا

ويقول : (٢)

وما أوس بن حارثة بن لأم بغمر في الأمور ولا مضاف

وإذا اعدنا النظر في هذه المعاني ، وجدناها عند الشعراء قبل بشر وفي زمنه ولم يختلف الشاعر عنهم في هذا المجال فراح يكرر المعاني في شعره ، ويكرر التشبيهات والمجازات في صور يستطيع دارس بشر تلمسها بسهولة ويسر (٣) ومع شيء يسير من التغيير أحياناً أخرى ،فأذا قرأنا النماذج الشعرية التي ذكرناها في معاني الهجاء ، نجد تكراره لمعنى الغدر بالجيران ، ونقض الحلف ، وعدم القدرة على حماية الجار ، كما نلاحظ تكرار معنى البخل، وعدم احترام الضيافة والغدر بالضيف :أما عن الاعادة للجبن والفرار فحدث ولاحرج وفي معاني المديح يعيد الكرة بعد الكرة ماينافض معاني الهجاء من الكرم والشجاعة والوفاء . وقد برع الشاعر في أداء هذه المعاني ولاسيما حين يذكر اسم الممدوح في مدائحه عدة مرات ، ولايذكر قومه وعشيرته، ويذكره باسمه المفرد في مدحه ست مرات ويذكره كاملا (أوس بن حارثة لأم) أربع مرات و (ابن سعدي) أربع مرات ، اعتزازاً بنسبه وأمه ومحتده ، كل ذلك في خمس قصائد ، وكأنما يحاول الشاعر أن يطرز اسم ممدوحه وينقشه بالمكارم فيحفره في الذاكرة حفراً مقروناً بتلك القيم العاليةمن المروءة . ويفيد من هذه الظاهرة كذلك في موضوع الهجاء ؟ حيث يثبت اسم المهجو مقروناً بالمخازي مشفوعاً بالعار ، مرتبطاً باللؤم والجبن والغدر فيكرر اسم المهجو مفرداً (أوس) في هجائه ست مرات ويذكره باسمه الكامل (أوس بن حارثة بن لأم) مرة واحدة وينسبه لأمه (يأبن سعدي) ثلاث مرات، ويذكر قومه، (بني لأم) ، (آل لأم) ست مرات ، يريد أن يذكره بكرم أصله ومحتده وأن من كان هذا أصله ونسبه ، فلا يصح أن يغدر ويبخل .. الى غير ذلك من معاني الهجاء ، وكثرة ؛

(١) ديوانه القصيدة ١٢ .
(٢) ديوانه القصيدة ٢٩ . الغمر : الذي لم يجرب الأمور . المضاف : دعي النسب .
(٣) التشبيه والمجاز جزء من الصورة ، وقد يأتي على شكل صورة جزئية أما الصورة الكلية فقد تضم في داخلها الكثير من التشبيهات والمجازات وقد تخلو منها جميعاً .

ذكر الاسم الكامل في المدح توحي بالاحترام والاعتزاز، كما توحي الكثرة بذكر الاسم مجرداً في الهجاء على الاستهانة والتحقير .

ولايقتصر التكرار على الاسماء حسب ، ولكن يتعداها الى الفاظ بعينها في القصائد وفي القصيدة الواحدة ، وتكاد تكون العبارة واحدة أحياناً مع فرق يسير جداً في التركيب مثل قوله الذي يصف كرم الممدوح : (١)

٢٠ – غيات المرملين إذا أناخوا   به في الليلة الغالي قراها
١٢ – ملك إذا نزل الوفود ببابه   غرفوا غوارب مزبد لاينزف
١٨ – بحر يفيض لمن أناخ ببابه   من سائل وثمال كل معصب

ومثل قوله في شجاعة ممدوحه : (٢)

١٠ – ومالبث بعثر في غريف   معيد الهصر خطفته شمال
٢٧ – ومالبث بعثّر في غريف   يناغي الشمس ليس بذي عطاف

لقد نجح الشاعر في توظيف التكرار لخدمة فنه، ومنح هذا التكرار شعر بشر جمالا في تناسق اللفظ وتأكيد المعنى وأعطاه تناغماً موسيقياً يخدم موضوعه (٣) .

١٣ – تهف يداك من هذا وهذا   وتغرف من جوانبه السجال

ويقول : (٤)

١٣ – الى أوس بن حارثة بن لأم   ليقضي حاجتي وقد قضاها
٢١ – لعله كفان كف ضر   وكف فواضل خضل نداها

فتكرار الفعل (يقضي وقضى) بصيغة الماضي بعد المضارع أعطى المعنى بعداً أكيداً، اختصر منه مسافات الزمن ،فالممدوح قضى الحاجة قبل أن يصل اليه سائله بل قبل أن يذكرها ويصرح بها وفي البيت الذي يليه جمال في التقسيم نابع من التقسيم نفسه ومن تكرار لفظة (كف) فواحدة للقوة وواحدة للكرم. ويقول (٥) :

٢٤ – فما صدع بجبة أو بشوط   على زلق زوالق ذي كهاف

---

(١) ديوانه القصائد ٤٦ و ٣١ و ٧ على التوالي .
(٢) ديوانه القصائد ٣٤ و ٣١ .
(٣) ديوانه القصيدة ٣٥ .
(٤) ديوانه قصيدة ٤٦ .
(٥) ديوانه قصيدة ٢٩ .

ويتكرر الفعل عنده : (١)

٦ — تداركني أوس بن سعدى بنعمة وعرد من تمنى عليه الأصابع

٧ — تداركني منه خليج فردني له حدب تستن فيه الضفادع

٨ — تداركني من كربة الموت بعدما بدت نهلات فوقهن السوادئع

في هذا التدارك شكر لأوس و اعتراف بالفضل وامتنان لليد التي أسداها وللفضل الذي سبق المديح .

وفي الأبيات الآتية يكثر التكرار في الضمائر والأسماء والأفعال ، حتى لتغدو وكأنها تسبيح بحمد أوس تنطق بالشكر وتناجي الفضل وتستل الأحقاد من نفس الممدوح وتلهج بالاعتذار (٢) .

١ — واني لراج منك ياأوس نعمة واني لأخرى منك ياأوس راهب

٢ — فهل ينفعني اليوم ان قلت انني سأشكر إن أنعمت والشكر واجب

٣ — واني قد اهجرت بالقول ظالماً واني منه يابن سعدى لتائب

ولم يكن تكرار الشاعر كله بهذا الجمال إنما نقل أحياناً : (٣)

٧ — فأني سأمحو بالذي أنا قائل به صادقاً ماقلت إذا أنا كاذب

وهذا الثقل نابع من توالي الضمائر وحرف القاف ؟ ونادراً مايخفق بشر فيأتي تكراره مصطنعاً ومتكلفاً . (٩٦)

١٠ — .. وكنت اذا هشت يداك الى العلى صنعت فلم يصنع كصنعك صانع

الصورة الفنية

يحاول بشر في المديح أن يرسم صورة كاملة لممدوحه يطرزها بالفضائل ويلونها بالشيم وتأخذ ابعادا معنوية، ولايلتفت الشاعر الى الاوصاف الخارجية للممدوح ولايعطينا شيئاً من ملامح شخصيته الخارجية إنما يؤكد ماتضمه هذه الشخصية في داخلها من الفضائل وما تنطوي عليه من خلق كريم، ويحاول في رسم هذه الصورة أن يحشد لها كل المعاني

(١) ديوانه قصيدة ٩ .

(٢) ديوانه قصيدة ٢٤ .

(٣) ديوانه قصيدة ٩ .

(٤) ديوانه قصيدة ٢٤ .

التي أوردناها في معاني المديح ، بحيث تتابع هذه المعاني في أبيات تتوالى وتتدفق ، باستمرار المعنى بعد الاخر ، بصورة جزئية ترسم باجتماعها الصورة الكلية للرجل السيد والماجد الكريم .

يقول مادحاً أوساً بعد أن فرغ من الحديث عن ناقته : (١)

١٣ — الى أوس بن حارثة بن لأم ليقضي حاجتي ولقد قضاها
١٤ — فما وطيء الحصى مثل ابن سعدي ولالبس النعال ولا احتذاها
١٥ — إذا ما المكرمات رفعن يوماً وقصّر مبتغوها عن مداها
١٦ — وضاقت أذرع المثرين عنها سما أوس اليها فاحتواها
١٧ — نمى من طيءٍ في إرث مجدٍ إذ ما عُدَّ من عمرو ذراها
١٨ — واضحى من جديلة في محلٍ له غاياتها وله لحاها
١٩ — نموه في فروع المجد حتى تأزر بالمكارم وارتداها
٢٠ — غيات المرملين إذا أناخوا به في الليلة الغالي قراها
٢١ — له كفان كف كفُّ ضُرٍ وكف فواضلٍ خضلٌ نداها
٢٢ — إذا ماشمرت حرب عواناً يخاف الناس عرتها كفاها
٢٤ — بخيل تحسب الزفرات منها زئير الأسد مشدوداً قراها

هذا سيد يقضي الحوائج قبل أن يقصد لقضائها ، وهو أفضل من وطيء الأرض ، وإذا قصر الناس عن بلوغ المعالي سما اليها فاحتواها ، رجل أصيل ورث المجد عن آباء صدق ونما في قبيلته ونمت معه الأمجاد ، رداؤه المكارم وإزاره النهى ، جواد كأنه الغيث في الليلة العصيبة ، مقتدر على العدو ، يكفي قومه في الحروب الطويلة ويفزع نجدة وحمية فيفرج الكرُبات على خيل كأنها الأسود .

هكذا تتتابع الصور الجزئية على شكل استعارات وتشبيهات دون أن يقف عند جزئية من هذه الجزئيات فيفصل الحديث مطيلا الوقوف عندها ليتأنى برسمها ويبرز جوانبها ويكمل أبعادها ؛ ولم يكن خط كل قصائده كخط هذه القصيدة ؟ فقد وقف الشاعر عند بعض الجزئيات فاستقصى جوانب الصورة يقول : (٢)

---

(١) ديوانه قصيدة ٤٦ ، المرملين : الذين نفذ زادهم من أرمل الرجل إذا نفذ زاده .
(٢) ديوانه قصيدة ٢٢ .

١ — تداركني أوس بن سعدى بنعمة وقد ضاق من أرض علي عـريض
٢ — فمنّ وأعطاني الجزيل وانـه بأمثالها رحب الذراع نـهوض

ويرسم صورة هذا التدارك بتفصيل مناسب مصوراً حاله بعد تهديد أوس له كان عقاباً طارت به الى السماء فأمر أوس بأنزاله سليماً .

٣ — تداركت لحمي بعدما حلقت بـه
مـع النسر متماء الجناح قبوض
٤ — فقلت لها ردي عـليـه حياتـه
فردت كما ردّ المنيح مفيـض

وقد تحظى الصورة باهتمام أكبر عند بشر فتأتي الصور متلاحقة تؤكد الواحدة الأخرى مع شيء من الاهتمام والتفصيل والحرص على إبراز المعنى كاملا واستقصاء جزئياته مع شيء من الدقة : (١)

٢٤ — فما صدع بجبـة أو بشوط على زلق زوالـق ذي كـهاف
٢٥ — تزل اللغوة الشغواء عنهـا مخالبهـا كأطـراف الأشافي
٢٦ — بأحرز موئلاً من جار أوس إذا ماضيم جيـران الضعـاف

فهو يصف لنا جار أوس بالمنعة والأمان فيرسم لنا صورة وعل في ديار طيء «جبة وشوط» على مكان زلق منيع لايصله أحد ولا يرقى اليه حتى العقاب لاتستطيع وصولا اليه ولا وقوفاً على مكانه لزلوقه مع مافي مخالبها من الحدة والعقوف، ويستخدم المفاضلة بشكل جميل (فما صدع .. بأحرز موئلا)و يخشى الشاعر ان يعتقد المتلقي بأن هذه المنعة نابعة من طبيعة الأرض ووعورتها فيفسر لنا بلوحة ثانية تلي هذه اللوحة وتفسرها، بأنها منعة تنبع من شجاعة أوس حامي هذا الجار يقول :

٢٧ — وما ليث بعثر في غريـف يغنيه البعوض عـلى النـطاف
٢٨ — مغب مايـزال عـلى أكيـل يناغي الشمس ليس بـذي عـطاف
٢٩ — بأبأس سورة للـقـرن منـه إذا دعيت نـزال لدى الثـقـافٍ
٣٠ — وما أوس بـن حارثة بـن لأم يغمر في الأمـور ولا مـضـاف

وتنتهي القصيدة بهاتين الصورتين.

---

(١) ديوانه قصيدة ٢٩ .

وقد يقرن الشاعر صورتين للممدوح في لوحة واحدة، صورة للشجاعة وأخرى للكرم مفصلا شيئا من أجزاء هاتين الصورتين يقول (١)

١٠ — وما ليث بعثر في غريف معيد الهصر خطفته شمال
١١ — باصدق عدوة منه وبأساً غداة الروع إذ خلت الحجال
١٢ — ولو جاراك أبيض متلئبُ قرى نبط السواد له عيال
١٣ — تهف يداك من هذا وهذا وتغرف من جوانبه السجال
١٤ — لاصبحت السفين مخويات على القذفات ليس لها بلال

وهكذا تجتمع الشجاعة والكرم في صورتين للاسد والنهر في لوحة واحدة واذا قارنا هاتين الصورتين بأسوأ صورة لقصائده في الهجاء وهي قوله (٢):

٧ — الا ابلغ بني لأم رسولا فبئس محل راحلة الغريب
٨ — لضيف قد الم بها عشاءً على الخسف المبين والجدوب
٩ — اذا عقدوا لجار أخفروه كما غر الرشاء من الذنوب
١٠ — وما أوس ولو سودتموه بمخشي العرام ولأريبُ

أقول لو قارنا هاتين الصورتين بهذه الصورة علمنا مبلغ الوفاء الذي يكنه الشاعر لأوس حيث رسم صوراً للمدح أجمل وأبلغ من صور الهجاء «وتلك مكرمة تحسب في حسنات بشر» كما يقول الدكتور عزة حسن. (٣)

وفي آخر الحديث عن الصورة الشعرية لابد من الاشارة الى حكم ابن طباطبا على قول الشاعر: (٤)

٥ — فان تجعل النعماء منك ثمامة ونعماك نعمى لاتزال تفيض
٦ — يكن لك في قومي يد يشكرونها وأيدي الندى في الصالحين قروض

حيث علق على البيت الثاني بقوله: هذا البيت من الأبيات التي زادت قريحة قائليها على عقولهم:

وأنا اقول بان قريحة الشاعر زادت على عقله أيضاً بقوله :(٥)

---

(١) ديوانه القصيدة ٣٥ .
(٢) ديوانه القصيدة ٤ .
(٣) ديوانه المقدمه ٣١ .
(٤) عيار الشعر ٩٤ وينظر الموشح للمرزباني ٨١ .
(٥) ديوانه القصيدة ٢٤ .

١٠ — فاصبح قومي بعد بؤسى بنعمة لقومك والأيام عوج رواجـــــع
١١ — عبيد العصا لم يمنعوك نفوسهـم سوى سيب بن سعدى ان سيبك نافـع

إذ بنى مدح اوس على هجاء قومه.

وفي النهاية أيضاً أود أن أؤكد ماقاله الدكتور حسين عطوان: «أن بعض القصائد ينسحب عليها من اولها الى اخرها جو نفسي واحد ان حزنا فحزن وان فرحا ففرح.... ومن هذا الضرب قصيدة بشر بن أبي خازم الفائية في مدح اوس بن حارثة الذي كان هجاه هجاء مرا ومطلعها

كفى بالنـأى من أسمـاء كـافـــي وليس لحبهـا اذ طال شـافــــي

فانه ابتدأها بزجر نفسه عن حب أسماء ،اذ قطعته ومطلته، ووصف حسنها وأعلن في قوة أنه سيجزيها هجراً ووصلا بوصل،وأكبر الظن أنه لم يوجه الحديث لأسماء ؛ بل وجهه لأوس بن حارثة؛ فانه إذا ظلمه أوجار عليه سيتحول منه ويعود الى هجائه (١)



(١) مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ٢٣٣ — ٢٣٥ .

الخاتمة

رأينا ان نفتتح بحثنا بالحديث عن موقف بشر من أوس بن حارثة في قصائده التي أسميناها الأوسيات، ذلك الموقف الطريف الفريد الذي وقفه عظماء ثلاثة: بشر، وأوس وسعدى أم أوس، فسجل لهم تاريخ الأدب ذلك الموقف الرائع الذي أثبت للمرأة العربية مكانة مرموقة في مجال الرأي والمشورة والعقل، تمثل بسعدى أم أوس وسجل كرم العفو عند المقدرة انطلاقاً من سعة الأحلام التي اختص بها الإنسان العربي فكان هذا الموقف– جديراً باوس بن حارثة الطائي سيد طيء الماجد الكريم، كما سجل وفاء الشاعر مرتين: مرة حين هجا أوساً انتصاراً لبني بدر الفزاريين الذين كانوا في حلف مع قومه بني أسد وسجل الوفاء مرة أخرى حين مدح الشاعر أوساً وأمه سعدى وقومها من بني لأم وفاء لأوس وشكراً لليد التي أسداها يوم عفا عنه وأطلق سراحه وأكرمه، وأشرنا الى كرم نفس الحطيئة حين رفض هجاء أوس ذكراً للفضل الذي غمره به وغمر بيته.

وذهبنا الى قصائد المديح عند بشر فوجدنا غلبة المطولات عليها، ورأيناه يبدأ فيها بالوقوف على الأطلال، ويصف رحلة الضعائن، ويصرع مطالعها، متجنباً اللفظ الغريب الا ماكان في مقدمات قصائده أسوة بشعراء عصره الذين الف الغريب في مقدماتهم الطللية.

وقد اجتمعت قصائده في المديح والهجاء على البحر الوافر، ورأينا ولع بشر بالتشبيهات وتريثه عند صورة المشبه به مشاركاً شعراء عصره هذه الظاهرة الفنية، وكان بارعــاً في قدرته على الربط بين موضوع القصيدة ومقدمتها.

ودارت معاني الهجاء عنده على الكثير الذي يناقض فيهم المروءة، فيما دارت معاني المديح على إثبات تلك القيم يجسدها في ممدوحه وقومه وفاء لموقف ذاتي، أو رغبة في العطاء.

وقد اولى الشاعر التكرار اهتماماً كبيراً ليحصل على التنغيم والتناسق اللفظي والموسيقي ويحقق الجذب لشعره، فكرر الفاظاً وعبارات، ومجازات، وصور في شعره.

وركز الشاعر في صوره الفنية على الشخصية الداخلية للممدوح بما تحويه من فضائل الأخلاق والخلال الكريمة، والشيم النبيلة، فافلح في ذلك أي فلاح.

المصادر والمراجع

١ – الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة د. أحمد هيكل دار المعارف ط٦ القاهرة ١٩٧٩

٢ – ألأعلام خير الدين الزركلي ط ٣ .

٣ – ألأغاني أبو الفرج الأصبهاني تحقيق إبراهيم الأبياري –دار الشعر ، القاهرة ١٩٦٩

٤ – تأريخ الادب العربي بلاشير ترجمة د . إبراهيم الكيلاني وزارة الثقافة ،دمشق ١٩٧٣ .

٥ – تأريخ الادب العربي – العصر الجاهلي – د . شوقي ضيف ،دار المعارف ط٤ القاهرة ١٩٦٠ .

٦ – خزانة الادب البغدادي ط١ المطبعة الميرية ببولاق .

٧ – ديوان بشر بن أبي خازم الاسدي تحقيق د . عزة حسن ط٢ وزارة الثقافة والارشاد –القومي دمشق ١٩٧٢ .

٨ – الشعر والشعراء ابن قتيبة الدينوري ط٤ دار الثقافة ،بيروت ،لبنان ١٩٨٠

٩ – شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والأسلامي،د . أحمد كمال زكي ، دار ، الكتاب العربي ، للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٩

١٠ – طبقات فحول الشعراء محمد بن سلام الجمحي شرح محمود محمد شاكر مطبعة المدني ،القاهرة .

١١ – العقد الفريد لابن عبد ربه ،المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٣٥

١٢ – عيار الشعر لابن طباطبا العلوي تحقيق د . طه الحاجري . ود . محمد زغلول، سلام، شركة فن الطباعة ، القاهرة ١٩٥٦

١٣ – ألكامل للمبرد تعليق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته ،دار نهضة مصر للطبع والنشر .

١٤ – الكامل في التأريخ لابن الأثير، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٥

١٥ – الموشح للمرزباني تحقيق محمد علي البجاوي ، دار نهضة مصر ،مطبعة لجنة البيان العربي ،القاهرة ١٩٦٥ .

١٦ – مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي د . حسين عطوان، دار المعارف،القاهرة ١٩٧٠

١٧ – النابغة الذبياني د . محمد زكي العشماوي ،دار المعارف ،القاهرة ١٩٧٩ .



الصورة الفنية في شعر بدر شاكر السياب

ابراهيم جنداري / كلية الآداب
جامعة الموصل

مقدمة البحث : —

ان الصورة ليست جديدة على الشعر العربي قديمه وحديثه، لكنها في الشعر العربي الحديث أكثر كثافة، حيث تصل بعض القصائد الحديثة الى ان تكون مجموعة من الصور المتلاحقة.

الا أن السياب وهو أحد رواد حركة الشعر العربي الحديث، عني بالصورة عناية خاصة وجعلها تعبر بدقة عن نفسيته؛ عن قلقه وحزنه الدائم، عن انتظاره الموت، وتعلقه بالحياة بالوقت نفسه ، عن همه الذاتي — الذي ينسحب على مجمل قصائده — وعن همه الآخر الذي يشاركه به الآخرون: الوطن، والزوجة ، وامور الحياة اليومية. لقد كانت الصورة عند السياب زاخرة بالمعنى الذي يرتبط بنفسيته، بأدق احاسيسه النفسية ،وقد استطاع

ان يسخرها لاحتواء حالاته المتناقضة. التي يجمعها خيط واحد ،خيط (الألم الخاص) الذي طبع مسيرته الشعرية.

ومسيرة السياب الشعرية هي مسيرة الشعر العربي الحديث، ليس لأنه أكبر رواد حركة التجديد في الشعر العربي، ولانه أكثرهم تمسكاً بالصورة واكثر قدرة على استعمالها فحسب ، بل لأن السياب ظل بالرغم من ريادته على اتصال وثيق بالموروث الشعري العربي الضخم، هذا الاتصال الذي أتاح للسياب أن يكون أقدر شعراء جيله على الاستفادة من كل مايفيد وسيلة في التعبير بالصور. ولأن السياب تنبه في وقت مبكر من حياته الى انجازات القصيدة الاجنبية في هذا المجال.واستطاع أن يحافظ على صوته المميز ،وان يطور قدرته في التصوير، فلا يتوقف عن التجديد في القصيدة العربية ، ولا يتطرف بها الى مواقع بعيدة عن هموم الوطن العربي. وقد لاقى كثيراً من التعب وهو يمسك بهذا الخيط الرفيع لمسار القصيدة العربية الحديثة والخروج على القصيدة الكلاسيكية والأفادة الذكية من انجازات القصيدة الأجنبية.

وللوقوف على تطور الصورة في شعر بدر ،لابد من المرور السريع نوعا ما على الصورة ومبرراتها، وضرورتها مدخلا طبيعياً للوصول الى الصورة عند السياب. وتناول الصورة عنده يقود حتماً الى تتبع مصادرها، في الماضي (التراث) وفي الحاضر (القصيدة الأجنبية) للوقوف على سمات استعمال السياب للصورة. لذا فأن تقسيم هذا البحث الى ثلاثة محاور تقسيماً يرتبط بعضه بالبعض الآخر، قد جاء تلبية لطبيعة البحث واتجاهاته، وهذه المحاور هي:

١ -- في الصورة الفنية
٢ --السياب والصورة الفنية
٣ -- تطور الصورة في شعره

أما المؤثرات الاجنبية في شعره فقد وصل الأمر ببعض الغلاة من الباحثين الى توجيه الاتهام صراحة الى حركة الشعر العربي الحديث وعلى الأخص رواد هذه الحركة، بأنهم تلامذة صغار لشعراء كبار مثل اليوت وباوند وغيرهما.

ومما لاشك فيه ان السياب قد تأثر باليوت، وكان لايخفي اعجابه به، لكنه لم يكن ذلك التلميذ الصغير لأليوت حتى في أقوى علاقات التأثر، ولا بد من الأشارة الى ماتداوله بعض النقاد من تأثر السياب المباشر بيربدجس ولوركا وسيتول وغيرهم. متناسين ان السياب

يعرف البحر والمرافيء واضواءها. وهو حتى حين يستعير بعض الرموز فانه يعطيها الدلالة المحلية الى جانب الدلالة العامة.. فالمؤثرات الاجنبية تستحق دراسة مستقلة نأمل أن نقوم بها مستقبلا، وما التوفيق الا من عند الله .

١– في الصورة الفنية :

مما لاشك فيه ان الصورة ليست وليدة عصر معين ، أدت الى ظهورها مواصفات ذلك العصر وانتهت بانتهاء تلك المواصفات . فقد رافقت حياة الانسان ، وفي كل الفترات الزمنية التي ازدهر فيها الشعر ، ازدهرت الصورة ، والتي شاخ فيها الشعر وشحب ، شاخت الصورة وشحبت .

ولقد حظيت الصورة الفنية باهتمام الشعراء العرب منذ أمد بعيد ، اذ زخر الشعر العربي قبل الاسلام بالصور . والشاعر يبدو لافراطه في التصوير ، انه لا غاية له سوى التقاط الصور ، ورصفها بعضها الى جانب البعض الاخر ، حتى لكأنه «لا يصنع قصيدة وانما يصنع تمثالا ، فهو يستوفي ما يصنعه بجميع اجزائه وتفاصيله الدقيقة» (١) . ولم تنطفيء جذوة الصورة في شعرنا الاسلامي والاموي والعباسي (٢) .

ولقد استأثرت الصورة الفنية بولع رواد الشعر الحديث الذين «تخففوا من قيود الوزن والقافية وغامروا بالتفريط بما تقدمه الموسيقى التقليدية من مزايا شكلية كانت قد تأصلت في أذواق قرائهم ونقادهم غالباً» (٣) . والصورة الفنية في الشعر الحديث كما هي في الشعر القديم ، الا ان طريقة استخدامها فيهما تختلف ، اذ لا يمكن ان يتفق شاعران على طريقة استخدامهما الصور وطريقة الاستفادة منها ، لذا تبدو صور بعض الشعراء نبت عصرها ونبت لحظتها بعد مضي فترة قصيرة عليها ، بينما يبدو القسم الاخر حياً على مدى قرون طويلة ، يحمل حرارة الشعر وحرارة الدقة والكثافة الرمزية ، وحرارة الحياة التي تعيد الصورة – في أدق معانيها – تكثيفاً لها بحدود ما تستطيع هذه الصورة على التكثيف .

---

(١) العصر الجاهلي – د. شوقي ضيف / ٢٢١ وينظر كذلك الصورة الفنية في شعر الاعشى –عبد الاله الصائغ (مخطوط) ، والصورة الفنية في الشعر الجاهلي – د. نصرت عبد الرحمن

(٢) ينظر الصورة الفنية في شعر أبي تمام – د. عبد القاهر الرباعي . وينظر كذلك الصورة الأدبية في الشعر الأموي – محمد حسين الصغير (مخطوط) ، والصورة المجازية في شعر المتنبي – جليل رشيد (مخطوط) .

(٣) الشعر الحر في العراق / يوسف الصائغ / ١٧١ .

ولم يستطع الشاعر الحديث ان يتجنب تتابع الصور ، لكن طريقة استخدامه لهذه الصور المتتابعة تختلف اختلافاً كبيراً ، اذ اصبح يهتم بترابط تلك الصور بنفس القدر الذي يوليه لتتابعها وتدفقها .

ان هذا التتابع الشديد والسريع في الصور لدى الشاعر الحديث فضلاً عن ذلك التصميم الواعي ، في دفع تلك الصور كلها ، لخدمة غاية بذاتها يجعل القصيدة مثقلة — في بعض الأحيان — بالترهل والتعب بعد أن كان يريد لها ان تكون كلها صورة أكبر لشيء أكبر في الحياة ، عندها يقع الشاعر الحديث في اشكال من نوع جديد ، هو العجز عن نقل بعض سمات الواقع ، وتكون هناك هوة عميقة بينه وبين هذا الواقع ، الذي اراد له ان ينعكس بدقة في قصيدته فتصبح الصورة بذلك «قوة سلبية تحجب عنا الواقع وتغلق ابوابه دوننا» (١) .

اذن يظهر الاشكال في طريقة استخدام الصورة ، وليس في شكل القصيدة والأشكال الأكثر خطورة هو ان بحثنا دائماً عن الصورة ، داخل الشعر ، كبحثنا عن الشعر داخل نسيج الحياة المعقد ، وهذا ما يجعل تعاملنا مع الشعر أولاً ومع الصورة ثانياً ، تعاملاً سطحياً في اغلب الاحيان ، بحيث تفقد الكثير من القصائد العظيمة شيئاً من عظمتها امام بحثنا الدؤوب عن الصور فقط والتوقف عند عد هذه الصور ، ومدى ترابطها مع بعضها خارج ترابط القصيدة كلها ، ونحن بذلك ننسى ان القصيدة العظيمة لم تتغلب على تجربة الزمن بفضل ما فيها من الصور ، بل بفضل الرؤية الأصيلة التي تحتضنها وتوجهها .

ان الصور قد تفيد في تماسك القصيدة، تماسكاً فنياً جميلاً لكنها في الوقت نفسه قد تدفع بالقصيدة نحو الاتساع المرضي الذي لاوجود فيه لرؤية الفنان، الشاعر وابعاد هذه الرؤية .فالصورة «رسم قوامه الكلمات المشحونة بالاحساس والعاطفة» (٢).

وقد تفلح الصور وفي احيان قليلة في ايصال تلك الرؤية على حساب وحدة القصيدة ونموها وترابطها وتماسكها كوحدة واحدة لاسبيل الى أخذها كمفردات باردة أو صور جاهزة يلمها خيط واحد من نفس حزين أو فرح أو كبرياء أو توجع ، فليست النفس طائفة من الانطباعات والصور والافكار الباردة الميتة الفارغة» (٣). لذا فان للصورة أولوية

(١) زمن الشعر — ادونيس / ٢٣٠ .
(٢) الصورة الشعرية — سي . دي لويس / ٢٣ .
(٣) الصورة الأدبية — د. مصطفى ناصف / ١٨ .

وأهمية ،وهي وسيلة يستخدمها الشاعر ، وليست غاية للشاعر والقصيدة، والبحث يجب ان يكون عن الغاية وليس عن الوسيلة، عن الكون الشعري في الشعر وليس عن الصورة في القصيدة .والكون الشعري جديد دائماً واكتشاف يضاف الى الاكتشافات التي لايزال الشعر يتناولها دوماً دون توقف ، وهنا يكون للصورة الفنية دور ومجال حيوي تستطيع ان تملأه، لان ميزة الصورة الخصبة « انها تستطيع ان تشع في كل اتجاه وان تسمح لك باستكناه المزيد من المعاني كلما أوغلت معها بحسك، انها صورة معطاء تكشف عن الجديد دائمـــاً »(١).

ولا خلاف في الصورة الجديدة هي التي تكشف عن الجديد دائماً ، لكن ليس بطريقة ميكانيكية، بحيث تتمسك بما تفرزه الحضارة من ظواهر ، وعلاقات جديدة وعقد، بقدر ماهي تلك الامكانية المتوفرة فيها – كوسيلة – وكشعور مستقر في الذاكرة يرتبط بالمشاعر الاخرى ويعدّل منها. وهي الشكل المادي لهذه المشاعر – الشكل الشعري – شكل القصيدة التي تعتمد اساساً حتى في اختيار الصور على التعبير عن مختلف المشاعر الانسانية المتناقضة التي تستطيع القصيدة ان تنقلها ضمن ماتحتاج اليه من صور. ان الصورة تنمو بداخل الشاعر مع نمو القصيدة ذاتها، حيث لاتوجد صورة جاهزة يمكن رصفها ضمن القصيدة للتعبير عن الشاعر، بل تخضع الصورة لطبيعة الشعور الكامن في نفس الشاعر. فما هي فائدة الصورة الجاهزة اذا لم تكن نابعة من صميم مشاعر وعواطف الشاعر ؟ .

ان الصورة الجاهزة لاتمكننا من الخوض في اعماق التجربة الانسانية . انها صورة لتجربة انسان آخر ، اما الصورة التي تنمو مع القصيدة ، الصورة التي هي التجربة الانسانية أو احدى أدوات التعبير عنها. ،هي الصورة «التي تتيح لنا ان نمتلك الاشياء امتلاكاً تاماً ،فهي من هذه الناحية الاشياء ذاتها ،وليست لمحة أو اشارة تعبر فوقها أو عليها»(٢). وامتلاك الاشياء يعني النفاذ الى حقيقتها . وعلى الرغم من عدم وجود قيمة أبدية وثابتة فأن هذه الصورة ستكون ذات وهج حاد وعنيف في الكشف والتوغل بعيـــــداً .في الجدة والقوة من حيث تناولها للمشاعر الانسانية.

ان الاشياء موجودة في الكون ، وفي ذهن الشاعر وذاكرته وشعوره ،لكن ايجاد علاقة بين هذه الاشياء وبين حالة الشاعر النفسية، بينها وبين بعض ،علاقة اساسية ذات ابعاد

(١) الشعر العربي المعاصر – د. عز الدين اسماعيل / ١٤٨ .
(٢) زمن الشعر – أدونيس / ٢٣٠ .

أخرى غير الظاهر منها هي مهمة القصيدة اومهمة الصورة في القصيدة ،وهذه المهمةبالغة الدقة، ومتعبة غاية التعب .فالسهولة في التعامل مع الاشياء من أخطر الامور التي تعاني منها الصورة ،والتعبير عن هذه الاشياء اتخذ مساراً أزلياً، تأتي الصورة لتغيره ، أي تغير نظام التعبير عن هذه الاشياء. وللموهبة دور اساس وجوهري في اعطاء الصورةهذه الشمولية، وهذه المرونة، والقدرة على التوغل في اعماق الحياة الانسانية المستقرة في ذاكرة وشعور الفنان — الشاعر — . اي ان الصورة لايمكن ان تأتي بالمصادفة وبصورة اعتباطية.

والصورة التي تأتي عن طريق المصادفة، قد لاتخلو من ذلك البريق الاخاذ الذي لا يلبث أن يخبو في اللحظات الأولى. وان الصورة تنشأ آنا بعد تدبر واع ، وتبزغ آنا بلامكابدة أو مجاهدة ،لكن الشاعر في الحالتين يحتاج الى توازن مرجو» (١).

ان الصورة الآن أوسع بكثير من مجرد التشبيه أو الاستعارة، غير انها ليست مقطوعة الصلة بينهما، فهي تأتي احياناً على شكل تشبيه سريع ولكنه عميق، أو بشكل استعارة سريعة أيضاً لكنها ذات دلالة عميقة. وقد يصل التشبيه أو تصل الاستعارة في بعض الاحيان الى درجة من الخصب والامتلاء والعمق الى جانب الأصالة والابداع بحيث تمثل الصورة وتؤدي دورها، غير ان الصورة وان تمثلت في التشبيه الخصب والاستعارة الذكية ماتزال لها وسائل أخرى تتحقق بها ومن خلالها»(٢) . ومهما بدت الفواصل مبهمة بين الصورة وبين التشبيه، تظل حقيقة ثابتة هي ان الصورة غير التشبيه ، وغير الاستعارة ، فللصورة وسائلها الخاصة ، وقد تكون من بين هذه الوسائل الاستعارة وهي قد تستفيد من الاستعارة والتشبيه للوصول الى الكمال المنشود في ان تكون المدخل للطريقة المثلى للتعامل مع الاشياء. اما التشبيه فقد لايستفيد من الصورة، وكذلك الاستعارة بل في حالة بلوغ أي منهما مبلغاً من النضج والدقة فانهما يعتبران الى حد ما صوراً تشبيهية أو صوراً استعارية «فالتشبيه يجمع بين طرفين محسوسين، ﻫ يبقى على الجسر الممدود بين الاشياء فهو لذلك ابتعاد عن العالم، اما الصورة فتهدم هذا الجسر، لانها توحد بين الاشياء،وهي اذ تتيح الوحدة مع العالم تتيح امتلاكه» (٣) . والتضمين الموجز هو وسيلة

---

(١) الصورة الأدبية — مصطفى ناصف / ٣٨ .

(٢) الشعر العربي المعاصر — عز الدين اسماعيل / ١٤٣ .

(٣) زمن الشعر — ادونيس/٢٣ .

الصورة لهذا الامتلاك، كما ان التكثيف هو سبيل الشاعر للتخلص من أي فائض أو اطالة تثقل القصيدة وتتعبها، وقد يلجأ الشاعر الى «عملية التكثيف الزماني والمكاني في تشكيل الصورة، وقد يستغل رواسب الصورة الشعبية التي تنقلها القصص بعد ان يضيف اليها من عنده بعض الألوان، وقد يستمد الصورة كما هي من تراث الانسانية الزاخر والمستقر في الضمائر وفي أي من هذه الحالات يعبر الشاعر عن نهج جديد في تشكيل الصورة الشعرية ووعي سليم بدورها الفني»(١) .

اما عملية التكثيف (الزماني والمكاني) أو استغلال (رواسب الصورة الشعبية) فهي وسائل ممكنة يستغلها الشاعر لزيادة قدراته الذاتية، للتعبير عن النهج الجديد والطريقة الخاصة به، والتي تميزه عن غيره من الشعراء عند تشكيل الصورة، فالصورة ليست واحدة في الشعر القديم والحديث، على الرغم من انها خاضعة لنفس العوامل النفسية والحضارية التي تتنازع الشاعر .

هناك اذن دائماً نهج جديد في الشعر، وفي تشكيل الصورة، وهناك دائماً فهم سليم لهذا الدور الفني والقدرات الكامنة في الصورة الشعرية وامكانياتها على جعل القصيدة ذات رؤى خلاقة وكشوفات جديدة

وعملية الخلق الفني «لحظة خاصة، يصبح فيها الشاعر داخل عزلته، داخل وحدته، حيث يعيش انفصالاً تاماً عن العالم الخارجي، ويشتغل تماماً داخل عالمه . لان الشاعر عندما يندمج في عملية الخلق الفني «يصبح غريباً عن العالم الخارجي، ويدخل في عالمه الحقيقي حيث تتحرر تجارب الحياة العملية المادية عنده من سيطرة المكان والزمان لتتجمع وتتشكل في علاقات وصور جديدة» (٢) هذا العالم الذي يتسع لكل التجارب الانسانية التي تذوب جميعاً وتمتزج بوجدانه وتتدفق عبر القصيدة صوراً وتشبيهات واستعارات تشكل بمجموعها العمل الفني الذي يكون وليد هذه العزلة والوحدة والانفصال التام، وفي هذه الحالة يكون الشاعر بمنأى عن ابتزاز الصور السابقة، لانه استطاع ان يستغل لحظة الخلق هذه التي حققت له انفصالاً تاماً عن كل الصور الشعرية بحدودها المادية الصارمة . أجل انها لحظة الشعر لحظة الخلق والاستغراق التام في هذه اللحظة التي تكون بمثابة اشارة حادة يتمسك بها الشاعر ولا يغادرها حتى يقول مايريد داخل القصيدة، وتكون الصورة

---

(١) الشعر العربي المعاصر – عز الدين اسماعيل / ١٦٥ .
(٢) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه – اليزابث درو / ٢ .

بهذا الشكل ضمن امكانيات الاستفادة منها في منأى عن ارهاقها بغايات كبيرة وبالتالي تجاوز السطح للغوص في الاشياء لكي نرى العالم في حيوية ونتحد معه .
والاتحاد مع حيوية العالم وطاقاته يتم من خلال البحث عن الكون الشعري من خلال الصورة ودلالتها وليس من خلال البحث عنها او عن الفكرة او الشعور . ان تفسير الصورة يوفق في اداء مهمته لو ابتدأنا مباشرة في التعامل معها من حيث علاقتها بسياق خاص وبلغة خاصة .

ان الكون الشعري يحتوي على كل هذه الجوانب ، الصورة والفكرة ، لذا فان البحث عن الكون الشعري هو البحث عن الصورة وعن دلالاتها وعن الفكرة والشعور ؛ فليس الأثر مجرد انعكاس او رسم وانما هو فتح وخلق . ونتعرف على الصورة بما فيها من قدرة على الكشف والصيرورة وبلا محدوديتها ، فهي تتضمن وجود التشابه والتضاد في آن» (١)

السياب والصورة الفنية :-

لقد اصابت حركة التجديد في الشعر العربي ، في تناولها للهموم الانسانية ومواضيع الحياة المختلفة ، الصورة الفنية في الصميم من حيث طريقة الاستعمال واستخدامها في تكوينات القصيدة الحديثة التي تجاوزت العديد من مقومات القصيدة القديمة ؛ ودفعت بالصورة الى مجالات أكثر سعة وعمقاً بعد أن كانت هذه الصورة — في بعض الاحيان عبارة عن بدايات او مداخل لابد منها للوصول الى الموضوع الرئيس .

ولما كان السياب واحداً من ابرز المجددين في الشعر العربي الحديث ورائداً من رواد حركته ، فان مسيرته الشعرية هي مسيرة الشعر العربي الحديث ، وان ملامح القصيدة الحديثة وتطوراتها والآفاق التي استشرفتها مدينة الى جهوده وقدراته الفذة على التجديد الهادىء والعميق ، بحيث اصبحت القصيدة الحديثة بعد مضي هذه الفترة تشير بشكل اوبآخر الى انها مازالت اسيرة تلك التغيرات التي احدثها السياب مع اضافات بسيطة أخرى ومجالات جديدة اقحمت نفسها فيها .
وقد تكون طريقة التعبير بالصور هي السمة الظاهرة على شعره من سمات الحداثة والتجديد، وهي (الشكل) الجديد الذي استطاع ان يبدع فيه ويرتفع بالقصيدة الى رؤية جديدة لتعبر عما يجيش في نفسه من مشاعر وعقد واشكالات حياتية بالغة الدقة، وهو لا يكتفي بصورة واحدة في القصيدة ، انما يعمد الى ايجاد ذلك الترابط بين الصور المتتالية المتدفقة ترابطاً

(١) عصر السريالية — والاس فاولي / ١٤٦ .

«ينشيء في الذهن اطاراً لما يريد ان يقوله الشاعر» (١) . وبقدر ماكان السياب جاداً في ان تكون القصيدة لديه مجموعة من الصور المترابطة ، فانه كان يلجأ وبطريقة بسيطة الى التشكيل (الحسي) عبر صور مرئية تحمل الوانها الحقيقية التي تناولها السياب بمباشرة واضحة ليدلل على ان قيمتها اللونية الحقيقية يمكن ان تكون داخل (تشكيل الصورة) وذات ابعاد حسية لها مساس مباشر وحقيقي مع نفسية الشاعر ومتاعبه ،. فاللون الاحمر عند السياب له دلالات واضحة فكيف يستطيع ان يتنكر للقيم اللونية وان كانت متعبة بطرح مباشر ووحشي ؟ انه لون الدم الذي طالما شاهده السياب عبر سنوات مرضه الطويل ، وهو لون القصائد والافكار التي حملها ردحاً طويلاً من الزمن . وهو لون الشمس الآفلة للمغيب شمس حياته الحقيقية التي تثيره دائماً كلما اقتربت من المغيب .

وكذلك الحال بالنسبة للون الأصفر ، الذي كان السياب يملك مقدرة فنية عالية في أن يجعل المرء – القاريء – يقف منحازاً الى هذا اللون او ضده لما يثير من قرف في نفسه .

وفي القصيدة الواحدة للسياب ، بل في المقطع الشعري الواحد ، لانقع على صورة منفردة او ناشزة عن مجمل اللون العام للقصيدة او للمقطع ، انما يكون هذا اللون خيطاً رفيعاً من مزيج عجيب ومركب ، لون عام يقود الى بلوغ مشارف هموم هذا الشاعر وبرمه بالحياة . ان السياب يلجأ الى التعبير بالصورة دون ان يقع في مزالق تنافر الصور وتشتتها ، بل انه من خلال وعيه الضرورة ايجاد ذلك الترابط العميق بين مجموع الصور في القصيدة ينتهي به الحال دائماً الى الوصول الى لون عام يمنح مشاعره وعواطفه عفوية متدفقة تنساب عبر الوان عديدة في القصيدة الواحدة ، حتى تبلغ هذه القصيدة حد التعبير عن نفسيته بدقة ، تلك النفسية المضطربة الرافضة والمستسلمة احياناً . ذات الرنين الشاكي والموجع ، وعبر الوان القصيدة يمكن التعرف على الوضع النفسي للسياب وازماته . فحياته لاتختلف عن شعره ، انها قصيدة ملونة كتبها الشاعر في سني عمره القصيرة ، تلك الحياة المخضبة بالدم الاحمر وبالأسرة البيضاء والأدوية الصفراء والزرقة الهادئة لبويب وسماء جيكور . ان هذه الميزة وان بدت غير ذات تأثير بالنسبة لحركة التجديد فانها تعطي للباحثين يقيناً بأن «شعر السياب ليس أكثر من حياته او أبعد منها، انه يلبس حدودها فليس شعره حياة ثانية» (٢)

---

(١) بدر شاكر السياب – عيسى بلاطة / ١٨٣ .
(٢) زمن الشعر – ادونيس / ٩٥ .

وليس غريباً أن يأتي شعر السياب على شكل صور شعرية مترابطة ، وان تأتي هذه الصور واسعة ومتعددة الجوانب ، لان للكثير من الاشياء المادية ادركتها حواس السياب ، وساعدته على ان يستمد منها صوره بحساسيته للفريدة ، «وهي غالباً صوراً أصلية في جدتها واستعمالاتها التمثيلية او الرمزية وتحفظ لشعر السياب حيويته ببساطتها الاخاذة حينا ، وقدرته على صدم القارىء ومفاجأته حينا آخر ، وبتدفقها في كل الاحوال» (١) .

وأهم سمات شعر السياب تجلت في صوره الملونة ، سمات البساطة والعفوية والتدفق الزاخر والتلقائية والازدحام الرائع في صوره اللونية المرئية ، وسمات المثالية المطلقة — احياناً — والتوجع الذاتي المطلق ، والايحاء من خلال كل الاشياء التي تؤثر على ذهنه بأن العالم هو السياب وحده عليلاً كالنسيم ، رائقاً كالعسل ، او مستوحشاً مكفهراً كليل من ليالي العراق تهديمة ، وليس في ذلك عجب وهو ابن البصرة والانهار وغابات النخيل والاشرعة والنوارس ، ابن الريف الهادىء المسحوق بين طيبته البدوية الأصيلة وبين منجزات صناعية وعوالم حديثة مرعبة . وليس السياب شاعراً انتقائياً ينتظر أن تقع عينه على منظر طبيعي اخاذ يستحوذ عليه ويسطره في قصيدة او يضمنه في صورة من الصور ، لان السياب منذ بداياته المبكرة احب الريف حباً لا فكاك منه واتخذه مادة لكل شعره واستمد منه كل صوره واستعاراته وتشبيهاته ورموزه . بين بدر وبين الريف وجيكور وبويب والبصرة والصحراء والرمل والملح علاقة عاطفية عميقة ؛ جعلت منه ابناً حقيقياً لهذه الاشياء ، وجعلتها مادة سهلة لبدر يستمد منها مايشاء من صور شعرية عميقة تضرب بعيداً في نفسه المرهفة . وبقدر ماكان بدر مالكاً لناصية اللغة والاداء ، كان متمكناً بلا حدود من عالمه الريفي الجميل هذا .

ان ضجيج الالفاظ وحشد الالوان وتزاحم الصور وتدفق الاستعارات والتشبيهات والرموز كلها ميزات واضحة تغطي جنوح السياب المثالي والسطحي في تناول المسائل الاجتماعية المعقدة ، واحلامه في سعادة عامة للبشر مثالية متعبة وساذجة ، غير أن السياب مهما حشد من صور واستعارات ووسائل تلوينية أخرى فانه يتجه بهذا الحشد الى (الرمز الواحد) في القصيدة الذي يصبح هدفاً لكل عناصر القصيدة الأخرى .

ويبدو القول بأن القصيدة الحديثة تعتمد على مجموعة من الرموز ، بصورة توحي بأن الحداثة والتجديد يقاسان بمقدار ماموجود في القصيدة من رموز ، وتوحي أيضاً بأن

---

(١) بدر شاكر السياب — عيسى بلاطة / ١٣ .

السياب عندما يلجأ الى الرمز الواحد ، مسخراً كل عناصر القصيدة لهذا الرمز فانه يعاني عجزاً . مثل هذا القول يتناسى ان السياب رائد كبير من رواد حركة التجديد في الشعر العربي المعاصر ، وان ريادته لاتعني انه اعطى الشكل الافضل والنموذج النهائي للقصيدة الحديثة .

ان الاضافات وعناصر التجديد في القصيده الحديثة لاتزال تتوافد حتى اليوم ودون انقطاع . ولايعني هذا ان السياب لكونه تمسك بالرمز قد يخل على القصيدة الحديثة ، ولايعني ان الاضافات التجديدية التي طرأت على القصيدة بعد السياب الغاء لأهم مميزات شعره .وتعدد الرموز في القصيدة الحديثة الذي أعقب السياب اوعاصره لايعني انه ذو اثر محدود . والريادة لاتعني اختراع شكل نهائي للقصيدة . انماهي في أشمل معنى لهـا الخروج على الشكل التقليدي القديم لها ، والغاء عنصر من عناصرها على الاقل ، حيث تأتي اجيال اخرى من الشعراء ، تلغي وتضيف ، وتعيد وتبني ، بحيث يظل السياب في موقعه الاصيل موقع الرائد لحركة التجديد التي تمتد فيما بعد لتشمل كل الشعراء المجيدين .

ان قدرة السياب تتجلى واضحة ، اثناء استعماته بالاستعارات ، فهو يرتفع بها من ماديتها الجافة وحدودها الثابتة الى مستوى غنائي صاف ذي رنين أخاذ ، يطل منه التراث الشعري الضخم الذي ظل السياب يتعامل معه بصدق ، وتطل منه روح التمرد الخفية على هذا التراث الموجودة في نفس الشاعر ، ولم يتجاوز السياب جميع المفردات الميتة والمحنطة ، ومرد ذلك انه ذلك الريفي البسيط المشدود تماماً بالطبيعة ، وذلك المصور الواضح المجهد بين العديد من الالوان ، والذي لايريد ان يفلت منه لون ، وقصائده المزدحمة بالصو ر والحشود الكثيفة من الاستعارات ، وذلك المثالي الخاضع لسطوة التراث الشعري القديم ، وذي التحصيل الاكاديمي الصرف . لم يستطع حتى في أقوى قصائده وانضجها ان يتخلص من هذه المفردات لانها جزء من تكوينه النفسي والثقافي وافاقة الشعرية . لقد ظل السياب يستخدم اللفظة الميتة المحنطة مثل (الأبيد ، الربد ، الدمن ، غيلة ، اللحود ، الرغام ، الجوزاء) ، كذلك ظلـت المجازات القديمة التي استهلكت واستنفدت كل قدراتها على الاحياء والتعبير ، حتى على يد السياب نفسه وضمن صورة ، فظلت ، مجازات مثل (ليل السهاد ، ظلمات الموت ، منى روحي ، ليل قلبي) تتكرر في قصائده (١) باستمرار .

(١) ينظر – دفتر الثقافة العربية – عصام محفوظ / ٣٠ .

والحاح ، دون ان يفطن الى ان هذه المجازات المبتذلة تخل ببناء القصيدة وموسيقاها المنسابة كانسياب جيكور . هذا اذا تجاوزنا القلة القليلة من الصور الشعرية غير الموفقة فان السياب أبن اصيل وبار للتراث العربي القديم، وللريف العراقي النقي ، ورياح التغيير الآتية من الشعر الانكليزي وهو يتوزع على هذه المحاور الثلاثة ويستمد كل صوره ومفرداته واستعاراته ورموزه من هذه المؤثرات الرئيسة .

تطور الصورة الفنية في شعره : –

كانت نفس السياب تنطوي على حرمان كبير مكتوم ، تنم عنه عاطفة رقيقة حزينة ، واحساس دائم بالاستعداد لحب امرأة بعيدة . وكانت تلك البيئة الصعبة المثقلة بالحرمان والتقاليد التي تتعب وجدانه وقلبه ، تعزز احساسه المرهف بالعجز فيلوذ بالانطواء ، ويلح بالشكوى فيتبدى حرمانه في حنينه المتواصل الى جسد امرأة :

« حسناء يلهبُ عُريُها ظمأي فأكاد اشرب ذلك العُريا
واكاد احطمه ، فتحطمني عينان جائعتان كالدنيا » (١)

وتتكاثف لهفة السياب الى المرأة ، الى حنانها ودفئها بعد ان كان حنينه الى جسدها . وتظل الشكوى المرأة نفسها ، التهيؤ المكابر والصريح نفسه احيانا للوقوع في احضان المرأة وما تمنحه هذه الاحضان من دفء :

« لاتزيديه لوعة فهو يلقاك ، لينسى لديك بعض اكتئابه
قربي مقلتيك من وجهه الذاوي ، ترى في الشحوب انتحابه » (٢)

وقد اصبح السياب ، اسير هذا الحنين ، وضحية هذا الحرمان في اغلب قصائده ، حتى اعتاد وكلما بدأ قصيدة من قصائده ان ينساق الى الاستعانة بذكرياته عبر غزل رقيق يضج بالشكوى والحنين أيًا كان موضوع القصيدة ودونما روابط نفسية عميقة ،بحيث لايلتفت السياب في احيان كثيرة الى ضرورة التمهيد للنقلة من حالته النفسية المعتادة الى الغزل او بالعكس ، فنراه ينتقل فجأة من الحديث عن الموت ومناجاته ، ومحاكة الحياة الصعبة غير الميسورة الى الغزل الذي يتلألأ في عيني امرأة من اجلها يدعو الموت الى الرحيل .

ولكي يقنعنا السياب او يقنع نفسه باستحضار المناخات التي اوجعت وجدانه فانه يرسم

(١) الأعمال الكاملة ١ / ٧ .
(٢) الأعمال الكاملة ١ / ٥٩ .

لنا (ديكورات) يبدو فيها الحدث سائداً في اللوحة كما في قصيدة (رئة تتمزق) (١) . ولا يبدو السياب من خلال قصائده الا ولعاً بالصور حداً يقترب من الأيغال . فقصائده لوحات يتعاشق من خلالها الحسي بالشعوري، وتظل لوحاته التصويرية متناسقة في ايقاع هادىء عميق ، لايؤثر فيها مايقحمه عليها الشاعر من اضافات غنائية مباشرة تثقل القصيدة، غير ان هذه الاضافات وصفة الحشو المتعب بدأت تختفي من قصائده شيئاً فشيئاً حتى أصبحت هذه القصائد مستقرة هادئة تتسلسل فيها اللوحات بانتظام كما في (مدينة بلا مطر) و (في انتظار رسالة) و (المعبد الغريق) و (سلوى) واصبحت لوحات السياب وصوره « ذات تأثير نفسي مباشر يستثير القاريء وتجاوبه المباشر » (٢) . ذلك ان صور السياب ملتقطة من الواقع ، صور علقت بذاكرة الشاعر وبوجدانه ومزاجه الشعري ، كما في قصيدة (السوق القديم) التي يسترجع فيها مشاهد من سوق الرمادي القديم ، وقناطره المتعددة ، ومن خلالها يسترجع بعض ذكرياته عن ليالي الجنوب وعناق الحبيبة بطريقة يتداخل فيها الماضي بالحاضر تداخلاً صميمياً .

ولعل مما يعطي هذه القصيدة قوتها الايحائية الواضحة « نظم التشبيهات والاستعارات في نسيج مترابط من الانطباعات الصورية » (٣) . وفي هذه القصيدة بالذات استحالت الصورة الى مشهد واقعي مجموع باجزاء متناثرة ، متضافرة خلقها انفعال يعانيه الشاعر لحظة الكتابة وان استتر بالعديد من التشبيهات والاستعارات :

«وتناثر الضوء الضئيل على البضائع كالغبار / يرمي الظلال على الظلال كأنها اللحن الرتيب / ويريق الوان المغيب الباردات ، على الجدار / بين الرفوف الرازحات كأنها سحب المغيب /» (٤)

وعبر هذه التشبيهات التي تتناغم منذ بداية القصيدة، استطاع الشاعر ان يسترجع ذكرياته دون أن يخل بهذا النسيج الجميل والتدفق المتناسق لتلك الصور الحسية . ان الصورة عند السياب يمكن اخذها مجزأة دون ان تبدو مبتورة ، وان اللقطة تدل على انه كان يملك عين الشاعر التي تتجاوز السطح لتتعامل مع جوهر الاشياء ومع علاقة الاشياء بعضها ببعض. فالمتلقي ازاء شعر السياب يلتقي اللوحات الكاملة او الصور او المقاطع ويشعر انه قبالة تشكيلات اثمرتها قصائد مستقلة .

---

(١) الأعمال الكاملة ١ / ٤٢ .
(٢) السياب — عبد الجبار عباس / ٤٠ .
(٣) بدر شاكر السياب — ايليا حاوي ١ / ٦١ .
(٤) الأعمال الكاملة ١ / ٢٢ ، ٦٧ ، ٧٩ .

ويتهيأ للبحث ان ميزة الجمال في شعر السياب هي صورة الفنية ، وميزة هذه الصور تكمن في استثمار الطاقة الحسية الكامنة في الاشياء .. فمن خلال هذه الطاقة تتبادل الازمنة مواقعها ، والاحداث تسلسلها والمعاني دلالاتها ولهذا تبدو صور السياب في اغلبها منفتحة النهايات وتملك دائماً تلك المرونة التي تتيح له استرجاع الماضي من خلال انفعاله الشديد بالحاضر . صور السياب فيها القدرة الفائقة على ايقاظ ذكريات الماضي وهذا يعني انه ليس شاعر لحظة على الرغم من انه يبدو في قصائد عديدة بانفعال آني وسريع ، لكنه كان دائماً ممسكاً بهذا الرباط الذي يشده الى الماضي :

«في ليالي الخريف / حين أصغي وقد مات حتى الحفيف / والهواء /

تعزف الامسيات البعاد / في اكتئاب يثير البكاء / شهرزاد /

في خيالي فيطغى عليّ الحنين /أين كنا؟! اماتذكرين؟/أين كنا؟اماتذكرين المساء؟!» (١)

وفي قصيدة (سجين) يستمد صوره من حاله الراهنة : من السجن ومن آثارة على نفسه ومايوحي اليه من خلال المشاهد الحسيّة ، السراج الحزين ، والارتعاش الرتيب وحيرة الأوجه الجائعات والجدار الرهيب ، وطول الانتظار ، والعجز عن الفرار واستحالته والخيبة المريرة وصليل القيود ، وانين الرياح وقهقهة الموت ورنين الساعة القاسية ،والرغبة الجامحة في الهرب الى الحياة ، الى خارج هذا السجن الشديد العتمة والقسوة والظلال ، والرغبة في الفرار من قبضة الأب ، قبضة ذراعيه التي تمثل التقاليد القائمة التي تمسك بتلابيب الشاعر وتحصي عليه انفاسه ، تماماً كما يفعل السجن بكل مكوناته؛ومردودات هذه المكونات : —

«ذراعا أبي تلقيان الظلال على روحي المستهام الغريب

ذراعا أبي والسراج الحزين يطاردني في ارتعاش رتيب

وحفت بي الاوجه الجائعات حيارى . فيا للجدار الرهيب !.» (٢)

وتتراءى ازدواجية السياب جلية في ديوانه — أساطير — حيث ان الصورة المسيطرة على هذا الديوان « هي صورة الانسان السائر الواقف ، والشراع القادم المتواري ، والنافذة المضاءة المظلمة » (٣) . والماضي الجميل البعيد ، والحاضر الذي يفور حيوية لكنه خانق

---

(١) (٢) الأعمال الكامله ٧٩،٦٧،٢٢/١ .

(٣) بدر شاكر السياب — احسان عباس / ١٣٣ .

وبائس ، والأمل الذي يمر كالنسمة الباردة ، لكنه سرعان مايندحر امام الاحساس الرهيب بالخسارة والتوجع ، والاسترسال المفجع في استجداء كل ومضة حياة ممن لاحياة فيه ، فيكون الماضي والحاضر مجريين مختلفين في الاتجاه يفترقان ساعة يبدأ السياب الكتابة فيضيع بينهما ، يبحث عن نفسه ، عن ضئيل في حياته ، عن فيء نديّ يستريح فيه ، عن وجع حقيقي يكون متكأه النهائي .

ولاغرابة في ازدواجية السياب ، على الأقل في هذا الديوان ، لان حياة السياب في تلك كانت مزدوجة فهو مناضل يكافح من اجل غايات جمعية ، وهو يجتر آلامه منكفئاً على نفسه .

وهذا الازدواج لا لقاء بين طرفيه ، طرف (الأنا) الشاكية المتألمة ، وطرف الجماعة، والغاية الجمعيّة ، ولايمكن التوفيق بين هذين الطرفين على الاقل عند السياب الذي لم يلجأ للحديث عن هموم جمعية من خلال هموم (الأنا) او بالعكس . فقد كان كل طرف من طرفي الازدواج هذا قائماً بذاته امام بصيرة الشاعر ، ومستقلاً لاعلاقة له بالطرف الآخر ، وربما عجز السياب عن دخول احدهما عن طريق الآخر ولذلك لم يوفق عندما حاول أن يقرب بينهما او يخفف حدة تناقضهما :

« في ليالي الخريف الطوال / آه لو تعلمين / كيف يطغى عليّ الأسى والملال ! ؟ في ضلوعي ظلام القبور السجين / في ضلوعي يصبح الردى / بالتراب الذي كان امي : غدا / سوف يأتي . فلا تقلقي بالنحيب / عالم الموت حيث السكون الرهيب ! ؟ » / سوف امضي كما جئت واحسرتاه ! / سوف امضي .. ومازال تحت السماء / مستبدون يستنزفون الدماء / سوف امضي وتبقى عيون الطغاة / تستمد البريق / من جذى كل بيت حريق / والتماع الحراب / في الصحارى ، ومن أعين الجائعين / سوف أمضي .. وتبقى فيا للعذاب سوف تحيين بعدي ، وتستمعين / بالهوى من جديد .. » (١) .

وفي قصيدة (فجر السلام) يقع السياب بين طرفين متناقضين آخرين ، غير الطرفين اللذين عرفناهما في ديوان — أساطير — او بعبارة ادق بين طرفي الحرب والسلام من جهة ، وبين طرفي النساء الجميلات واثدائهن الرخوة كالعجين . فقد صور السياب في المقطع الاول من القصيدة التكالب الجنوني لتجار الموت ، ودأبهم المتواصل على أن يحرقوا يد الشعب الخيرة البناءة ، باشعال نار الحرب مجدداً وبصورة أكثر وحشية ، ثم

(١) الأعمال الكاملة ١ / ٦٨ — ٦٩

تناول بعد ذلك السلم الآمن فصور ببراعة نادرة تلك العيون التي يغازلها الرجاء : —

« عيـون وراء المـدى　　تنام .. وترجو الغـدا
دفوق السنا ، باسطـا　　لأحلى رؤاها يـدا
وفي الحقل بين الظلال　　عذارى حملن السلال ...
دنا موعـد للحصـاد　　فغنينـه ... للرجال »(١)

ثم يعود ليصور الحرب من جديد ببشاعتها ولا انسانيتها لكنه هنا يجنح بصورة مفاجئة ويخفق في تصعيد هذا التوازي الذي انجزه في المقطع الأول بين بشاعة الحرب ، ووحشيتها ووداعة السلام وهدوئه .

«وانمطّ مثل عجين الرخو مرضعها　　لصق الثرى واكفهر الوجه وانقلبا..
يمـوج في مرآتهـا ظلهـا　　سوسنة بيضاء في جـدول
وكأن نهداها إذا رنمـت　　ريح الصبا من ثوبها المخمل
يشف تكويراهما عن سنا　　يطفو بطوقيها الى المجتلي » (٢).

ان هذه القصيدة بعاطفتها المشبوبة ترتفع الى مستوى الصدارة ، غير ان السياب محمولاً على هذا المد العاطفي الحاشد فقد السيطرة عليها واثقلها بتشبيهات اخرى أُقحمت على القصيدة ؛ بل اتعبتها واخلت بذلك الاتساق الذي ابتدأت به القصيدة .

وتبدأ قصيدة (انشودة المطر) بداية عاطفية متأججة تارة ، وهادئة رقيقة تارة أخرى ثم يطغى عليها بالتدريج الحس السياسي ، فتتحول الى قصيدة سياسية منحازة اصلاً الى عالم واسع ، كبير البؤس والجوع ، وفي هذا الجوع تكمن مادة الثورة وأرضيتها، ومن هنا فان انحياز السياب في قصيدته هذا مرادفُ لنفسه الأبية واغترابه ، وجاءت القصيدة بعدئذ لتفتح باباً واسعاً لدخول العراق اجتماعياً وسياسياً وطبقياً وعاطفياً قبل الثورة ، ولدخول دائرة الثورة ، وعليه فان الصور التي جاء بها السياب في هذه القصيدة بالذات ، صور ذات تكثيف وتركيز شاملين يشيران الى المرادفات لهما في واقع العراق أنذاك وقصيده (انشودة المطر) من القصائد التي استوعبت مراحلها بنفاذ واستقصاء ، ولم تقف عند حدود ألم الغربة التي يعيشها الشاعر ، ولاعند حدود التبشير بالثورة والغناء لها ،او حدود الصوت الوطني الاكثر صدقاً ، بل تجاوزت كل ذلك ، وفتحت آفاقاً انسانية بعيدة ، لذا فأن هذه القصيدة فضلاً عن كونها متعددة ومترابطة فهي مركزة

(١) الأعمال الكاملة ٢ / ٢٤٤ — ٢٤٥ .
(٢) الأعمال الكاملة — ١ / ٢٥٢ .

تركيزاً عميقاً وبوضوح ، وهذه القصيدة فضلاً عن كونها متعددة ومترابطة ، فهي تغوص عميقاً لتتصل بالجذور التي تشكلها النظائر المشابهة لها في الواقع ، فصور السياب مهما بدت معقدة ومركبة فهي مستمدة من الواقع من حيث وجودها الفعلي . والصور في هذه القصيدة لاتأتي لاضاءة نفسية الشاعر والقاء اضوائها على الواقع بل تأتي اضواؤها على الواقع بل تأتي مبتدئة من الجزء الى الجزء الأكبر وهكذا : —

«اكاد أسمع النخيل يشربُ المطر / واسمع القرى تئنّ ، والمهاجرين / يصارعون ، بالمجاذيف وبالقلوع عواصف الخليج ، والرعود ، منشدين : / مطر .. مطر .. مطر .. وفي العراق جوعٌ / وينثر الغلال فيه موسم الحصّاد / لتشبع الغربان والجراد / وتطحن الشوّان والحجر / رحىً تدور في الحقول .. حولها بشرٌ / مطر .. مطر .. مطر .. / وكم ذرفنا ليلة الرحيل من دموع / ثم اعتللنا — خوف أن نلام — بالمطر ..مطر ..مطر ومنذ ان كنا صغاراً ، كانت السماء / تغيمُ في الشتاء / ويهطل المطر / وكل عام — حين يعشب الثرى — نجوع / مامرّ عامٌ والعراق ليس فيه جوع / مطر .. مطر / مطر .. مطر .. » (١) .

هذا فضلا عن ان الاستدعاءات التي استعان بها الشاعر لاستكمال صوره ، استدعاءات من الماضي والحاضر لم تكن اعتباطية مشتتة انما كان يلمها خيط بقوة ، هو في مناخ القصيدة العام وفي هدفها وفي طريقتها للوصول الى هذا الهدف ، فللقصيدة محور رئيس تتحدث كل عناصرها عنه ، وتستلهم قوتها منه ، وتتفرع جزئياتها منه ، وتتجمع اشتاتها حوله الا وهو المطر .

والسياب يمتاز بهذه الطريقة في التعبير الصوري ، لكنها ليست ميزته الوحيدة التي وجد السياب فيها حيزاً اكبر للابداع والسمو الفني ، انما هي احدى مظاهر ابداعه وسمو منزلته الفنية ، وهي اذ تختفي مرة من بضع قصائد ، فهي تتضح وتتضخم في قصائد أخرى أكثر تطوراً وشمولية ، ولعل هذا النبض الحي الضاج بالحياة في صور السياب يمنع عنها سمة التزيين والزخرفة السطحية ، وينحو بها مباشرة الى الايحاء الذهني المباشر .

---

(١) الأعمال الكاملة — ٢ / ٤٧٨ — ٤٧٩ .

وفي قصيدة (المومس العمياء) تذهلنا قدرة السياب في اغناء ما يعتبر موضوع القصيدة او اهتماماً من الاساس ، ألا وهو (المومس) وماتمثله من تدهور كبير وخراب أكبر لدواخل النفس الانسانية تحت ضغط المجتمع الذي لايرحم ، وبين مايعتبر خارج القصيدة ، خارج هذا الخراب النفسي البشع وهو المجتمع نفسه ممثلاً بنماذج معينة هي الاخرى خاضعة ومستلبة ومشوهة وغارقة في السكر او النباح او البطالة والجوع ؛ بين (المومس) الفرد المستلب ، وبين المجتمع الذي هو في الحقيقة أكثر استلاباً بين الجزء الصغير المتعفن وبين الكل ، حيث العفونة أكثر والالم أكبر : —

« لو لم تكن انثى .. وتسمع قهقهات من بعيد / ياليت حالاً تزوجها يعود مع المساء / بالخبز في يده اليسار وبالمحبة في اليمين / لكن بائسة سواها حدثتها منذ حين / عن بيتها وعن ابنتيها وهي تشهق بالبكاء : / عن زوجها الشرطي يحمله الغروب الى البغايا/ كالغيمة السوداء تنذر بالمجاعة والرزايا / ...

لم تستباح ، وتستباح على الطوى؟ لم تستباح ؟ / كالدرب تذرعه القوافل والكلاب الى الصباح ؟/

الجوع ينخر في حشاها ، والسكارى يرحلون / مروا عليها في المساء وفي العشية ينسجون حلماً لها هي

والمنون : / عصبات مهجتها سداه وكل عوق في العيون / والان عادوا ينقضون — خيطاً فخيطاً من مرارة قلبها ومن الجراح — / ما ليس بالحلم الذي نسجوه ، مالا يدركون..» (١)

وتتضح قدرة السياب في هذه القصيدة في اعطاء التجربة داخل القصيدة حيزاً أكبر وايحاءاً واضحاً يدين ظلم المجتمع بلا هوادة غير ان السياب وهو يستبد به الانفعال ويبلغ ذروة الاحساس باليأس او بالثورة والرفض فانه يكاد ينسى كل شيء ويختبيء بنفسه عن الرقابة الذاتية على قصائده مستسلماً للاسلوب الصوري عبر تشبيهات عديدة ، وتلوينات متعددة في القصيدة .

وإلى جانب منظر الريف في قصيدة (الأسلحة والاطفال) تلفت نظرنا قدرة السياب غير المحدودة على تصوير شتى جوانب الحياة ببساطة دون اللجوء إلى الحشد والتكثيف.

---

(١) الأعمال الكاملة — ١ / ٥٢٢ ، ٥٢٦ .

غير المبرر للصور ، لكنه لا يخرج عن امتيازات اسلوبه المتفرد والذي عرف بالتعبير الصوري الساخن او محاولة ايجاد المعادل الفني في الأدب .

ان السياب في هذه القصيدة يوفر عناصر التجربة بكل غناها وحيويتها ، بما فيها من عظمة وتفاهة ، واجوّاء هذه القصيدة مستحضرة ومستدعاة بامانة تصويرية – تسجيلية – دون التفريط بدقائق الحياة وترابطها وطريقة نموها وتكاملها .

في بداية القصيدة يسجل السياب ببساطة ، او يصور بعفوية موقف صبيان ريفيين حفاة الاقدام ، ثم ينقلنا الى صورة اخرى يلملم السياب اجزاءها ببساطة تسجيلية ، الاوهي شناشيل ابنة الجلبي الباذخ والمحاط بالصغار الذين يغنون للمطر وابنة الجلبي .. ينسى الناطور نفسه ويشترك معهم ، ويبقى يلامس البندقية دليلاً على يقظته وحذره ، او دليلاً على استسلامه لهذا الواقع الذي يستوجب منه اليقظة والحذر حتى في حالات الانتشاء الروحي : الغناء .

وفي هذه القصيدة نجد التطور الكبير في اسلوب السياب الصوري الذي تجاذبه منذ البداية عاملا الضعف والقوة وصور السياب في هذه القصيدة متفائلة نقية ، ذلك انه حمل قصيدته هذه كل ايمانه بالالتزام السياسي ، هذا الايمان العميق النقي الذي لايخالطه شك ولاتشوبه مرارة .

« عصافير ؟ ام صبية تمرح / عليها سنا من غد يلمح ؟ / واقدامها العارية / محار يصلصل في ساقية / لاذيالهم رفّةُ الشمألِ / سرتْ عبر حقل من السنين / وهسهسة الخبز في يوم عيدْ / وغمغمة الأمّ باسم الوليد / تناغيه في يومه الاول . / .. » (١٣)

ويضع السياب بهذه الصور الطافحة بالبهجة صوراً اخرى تعاداها ، وينحاز الى الصور الاولى ويدين الثانية :

« حديد عتيق ورعب جديد ! / حديد رصا .. ص / لأن الطغاة / يريدون الانتم الحياة / مداها ، والا يحسّ العبيد / بأن الرغيف الذي يأكلون /أمرُّ من العلقمِ / وانّ الشراب الذي يشربون / اجاج بطعم الدم / وان الحياة الحياة انعتاق /... لأن الطواغيت لايسمعون / صداح العصافير في المغرب / – كما صلصل الفضة القامرون – / ولازقة السنبل المذهب / لان الطواغيت لايحلمون بغير المبيعات والأسهم / وان الطواغيت لايسمعون سوى رنّة الفلس والدرهم ... » (٢) .

(١) (٢) – الأعمال الكاملة ١ / ٥٦٣ ، ٥٨١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٠ .

وتعد قصيدة (حفار القبور) اولى محاولات السياب في كتابة القصيدة الطويلة ، وهي بهذا النحو تبدو واحدة من محاولاته المبكرة في رسم الصورة العريضة المركبة (اللوحات المتشابكة) ، ويمكن للدارس ان يلاحظ امتزاج السخرية المرّة بالمأساة الحلوة .. هي ذي المعادلة الصعبة التي نهضت بها اللوحات المتشابكة . وليس هناك مايسمى (المعادل الموضوعي) وليس ثمة الامتزاج بين الأنا والآخرين . فقد تثور صور السياب على المعادل والكنايات وتتجه صوب التقرير الذي يمتلك طاقة عند السياب في الأدهاش :

« والقاتلون هم الجناة وليس حفار القبور / وهم الذين يلونون لي البغايا بالخمور/ وهم المجاعة ، والحرائق والمذابح والنواح / وهم الذين سيتركون أبي وعمته الضريرة/ بين الخرائب ينبشان ركامهن عن للعظام/او يفحصان عن الجذور،ويلهثان من الأوام (١)

ان القصيدة الطويلة متعبة ، قد تستنفد تجربة الشاعر كلها ، وتمتحن كل امكانياته وصوره المخزونة في المخيلة اوفي الواقع ، وتحتاج الى نفس شعري طويل .. ولما كان نفس السياب طويلا الى حد ما فأنه كان يخفق في مقاطع عديدة من القصيدة في الابتعاد عن المباشرة الصريحة وتقرير الحقائق والبديهيات :

« واخيبتاه ! ألن أعيش بغير موت الآخرين ؟ / والطيبات : من الرغيف ، الى النساء، الى البنين / هي منّة الموتى علي . فكيف أشقى بالأنام ؟ / فلتمطرنهم القذائف بالحديد وبالضرام ، وبما تشاء من انتقام : / من حُمّيات أو جـذام ! .. » (٢) .

اصبحت طريقة التعبير بالصور في هذه أكثر تعقيداً ، وشملت صوره مجالات أوسع وعوالم أكثر كثافة ، بل نجد فيها بعض الصور الحاذقة المرهفة .

ولكي يستطيع السياب أن ينقل لنا حقيقة (المخبر) فقد تحدث على لسانه ليكشف علاقته بالواقع الحياتي العام وتفاعله معه وتأثيره عليه ، كما اراد أن يكشف لنا البيئة التي يتحرك فيها .

كانت (الاسلحة والاطفال ، والمومس العمياء ، وحفار القبور ، المخبر) صـدى أو احتجاجاً صارخاً مباشراً وصريحاً مصوغاً بقدرة السياب وعبقريته في صور شعرية ملونة، وكان هذا الاحتجاج الحماسي المتأجج يشير إلى عمق يأس السياب وانقطاع كل خيـوط

(٢،١) نفس المصدر السابق

الأمل بالأمن . كان يصرخ في وجه الذين ينتمون إلى الحركة الوطنية ويدين انقساماتها ، ويشير إلى تمزقها اشارات فزعة خائفة وحائرة .

وهو في ذروة صراخه وألمه وتوجعه يختار مواضيعه من الواقع ليجد فيها كل مبررات الأدانة ، ولتتسع هذه المواضيع لكل عنف السياب وقدرته على الاحتجاج الثائر . فالمومس العمياء لم تكن ذات المدلول الكبير المهم لولا قدرة السياب وبراعته ، والمخبر ليس أكثر من حالة مرضية صغيرة استطاع السياب ان يعبثها وان يسخرها ويتناول من خلالها كل الواقع .

ان هذه النماذج بلغت مرحلة اليأس النفسي فاندفعت إلى البحث عن مصائرها الفردية ضمن جو من الحذر والسخط والانكار التام لكل أمل ، والتردي تبعاً لذلك في هذه الفردية المستوحشة المظلمة والراكضة خلف مصائرها الفردية المعتمة ، الممزقة بين ماضٍ حافل بالبراءة والاحلام والنقاء ، وبين حاضر ملوث .

والسياب الذي عرف بلوحاته المضيئة عن الريف والأطفال يقدم لنا في هذه القصائد لوحات اجتماعية معتمة قاتمة شديدة اليأس لكنها بنفس الوقت تملك هذا القدر الهائل من الصدق ، وهي تضم النماذج الممزقة ، التي تستميت في ظل طغيان النفعية وغياب الضمان الاجتماعي والعمل الحاسم من أجل التغيير الشامل ، وهي تتلمس حلاً فردياً يقودها إلى أبشع أنواع الانحراف وتسحب عليها صنوف من المذلة الرهيبة .

وعلى امتداد قصائد عديدة من قصائد السياب تتكرر صورة النموذج الانساني الذي يكون دائماً مستعداً للموت «حتى لو لم يثمر موته الشقائق والقمح متقمصاً رمز تموز الذي يقتله الخنزير» (١)

انها صورة الثوري – الضحية – هذا الذي افرزته تناقضات فظيعة للواقع البشع ، واصبح في احتمائه بحدوده الفردية نموذجاً واضحاً لأ دانة هذا الواقع ، ولادانة هذا الثوري نفسه من خلال كونه نتيجة وضع معقد ، تعمه الفوضى والصراعات ، وليس نتيجة حتمية لحركة المجتمع الطبيعية ، لذا يبدو ان صورة هذا الثوري تظل مهزوزة ، وغير مقنعة على الرغم من السياب ينفعل معها انفعالاً حياتياً حاداً ويلونها بالوان معتمة ، شديدة الكآبة والتأثير كما في قصيدة (تموز جيكور) : –

---

(١) السياب – عبد الجبار عباس / ١١٠ .

«ناب الخنزير يشق يدي/ ويغوص لظاه إلى كبدي/ ودمي يتدفق ، ينسابُ /لم لم يغدُ شقائق أو قمحا/ لكنْ ملحا ...

هيهات . أتولد جيكوز / الامن حفنة ميلادي ؟/ هيهات . أينبثقُ النورُ / ودمائي تُظلم في الوادي ؟/

أيُسقسقُ فيها عصفورُ/ ولساني كومة اعواد ؟...» (١) .

وفي قصيدة (مدينة بلامطر) تأتي الصورة عند السياب على انها أداة تعبيرية فنية خاصة بينما يستعمل السياب (أكثر الصور الوثنية التي تهيئها قصة تموز وعشتار ، ويحسن ببراعة فذة استغلال تلك الصور في سياق متدرج))(٢)

«وسار صغار بابل يحملون سلال صبّار / وفاكهة من الفخار ، قربانا لعشتار / ويشعل خاطف البرق / بظل من ظلال الماء والخضراء والنار /وجوهَهُم المدوّرة الصغيرة وهي تستسقي... »)(٣) .

والسياب في حياته وشعره يقاتل الفقر والجوع والعبودية والظلم ، بتعويذة الأمل التي لم ينتزعها السياب عن أعماقه أبداً ، ففي الوقت الذي يتراءى للسياب خواء المدن وزحمة دروبها وامتلائها بالحفر والعظام «وحدائقها مزروعة برؤوس الناس والاسوار مضروبة على كل شيء ، يعلن السياب تعويذته الخالدة))(٤) .

لقد اصبح الانشغال بالمصير الفردي هماً اساسياً في النماذج التي يختارها السياب،هذا الهم الذي جلبه عمق الانسحاق الذي تعانيه تلك النماذج تطورمن خلال سير الحياة في المجتمع العراقي قبل الثورة ، فبعد ان كان البحث عن الخلاص الفردي ، ومواجهة المصير الفردي صفتين متلازمتين للمومس العمياء والمخبر وغيرهما ، جاء الموت الفردي ليصبح ((معجزة تحقق أقصى الاكتمال والانسجام والتوافق بين الحياة والموت)) (٥).

لم يعد السقوط المروع كافياً ليحس الفرد بأنه مسؤول عن مصيره ويستطيع تدبر أمره

(١) الأعمال الكاملة ١ / ٤١٠ - ٤١٢ .
(٢) بدر شاكر السياب - احسان عباس / ٣١٠ .
(٣) الأعمال الكاملة - ١ / ٤٨٩ .
(٤) زمن الشعر - ادونيس / ٩٨ .
(٥) السياب - عبد الجبار عباس / ١١٧ .

ولم يعد الاستمرار في ممارسة هذا السقوط كرد فعل لسقوط آخر هو المعول عليه ،بل اصبح (الموت) حقيقة أخرى لها وزن كبير في تفكير الفرد . ولها طعم خاص ولذيذ لدى الفرد الذي دفعه اليأس الى السقوط ، او المضي في الشوط المختار حتى نهايته . غير ان السياب لايجعل الموت بديلاً لحياة متعبة ، قلقة ، معتمة ، انما يجعله متوافقاً دقيقاً خاصة في قصيدتين هما من عيون شعر السياب وهما (المسيح بعد الصلب) و (النهر والموت) فهو ينتقل بالموت من مجرد كونه فكرة او هاجساً متأرجحاً ليلغي كل الحدود بين الاضداد ، ان الصور التي يستخدمها السياب في قصيدة (المسيح بعد الصلب) تظل مترابطة ، وهي تستخدم الأسطورة استخداماً جميلاً موحياً ، دون أن يلجأ الشاعر الى الغنائيات المباشرة :

« بعد ان سمّروني والقيتُ عينيّ نحو المدينة / كدت لاأعرف السهل والسور والمقبرة : / كان شيء ، مدى ماترى العين / كالغابة المزهرة / كان في كل مرمى ، صليبٌ وامٌّ حزينة / قُدّس الربُّ : / هذا مخاضُ المدينة) (١) .

وفي قصيدة (النهر والموت) ينقلب الموت من خاتمة العجز والحسرة الى عالم غريب يفتن الصغار فيمسي الختام ابتداء ، حيث يتحول هذا العالم في القصيدة الى كل مترابط تنحل نهاياته وابتداؤه في سياق أخاذ من الصور يتلاقى فيها الذاتي والموضوعي ، فيوجد ماكان متصوراً ويتجسد ماكان ممكناً . يصير الانسان كالنهر ، كالماء حيّاً يولد من ذاته ، يدخل في تكوين العالم ، في نسيجه الكوني))(٢) .

وبالاضافة الى ان السياب يصور في هذه القصيدة حنينه الى الموت ، الا انه يشترط في هذا الموت الذي يحن اليه ان يكون (فعلاً) يرتبط بالارض كالنهر . وهو يريد لهذه الحقيقة الفردية ، حقيقة الموت وبهجته التي يستشعرها الضمير التي لم يستطع ان يؤكدها في ايامه بين الناس .

وقبل ان تصبح المصائر الفردية هي الشاغل لنماذج البشر المسحوقة التي لم يتعب في جعلها تتحدث بقسوة لاترحم وبروح مستلبة ، مكابرة امام هذا الاختيار الفردي . هذا الحنين الى الموت ، المشروط بأن يرقى (الموت) الى مستوى الفعل على الارض ، ينقلب في

---

(١) الأعمال الكاملة – ١ / ٤٦٢ .
(٢) السياب – عبد الجبار عباس / ١١٨ .

قصيدة (المسيح بعد الصلب) الى قيام رمزي ، فالانسان هنا «حيّ في الموت اكثر منه في الحياة ، فليس الموت هو مايحول دون الحياة ، بل الحياة نفسها هي التي تحول دون الحياة» (١) .

يصبح الموت الفردي ، او مواجهة الفرد لمصيره بمعزل عن الناس الذين قد يشاركونه هذا المصير ، هو الحقيقة الوحيدة التي تسعى اليها هذه النماذج التي ماعادت تحتمل شيئاً من الانسحاق ، سوى أن تقوم هي وتبادر في انهاء نفسها بطريقة أكثر احتراماً للحياة . ولابد من ملاحظة ان الحنين الى الموت ، الى الحقيقة عند السياب ينبعث من الاستسلام الى جانب الحب والغضب .

ولقد كان للاحساس بالموت ، والضجر الفضيع من الحياة وصخبها ، دور كبير فيما بعد بل ودافع اساس لشعر السياب . اذ بدأت ملامح هذا الدافع تتضح بعـد تموز بشكل أكثر خطورة وحدة ، فعبر قصيدة (مدينة السندباد) و (رؤيا في ١٩٥٦) تتابع الصور المضخمة في تكرار موسوم بالحدة والتوجع ، وضمن نفس من التهويل والنغم الصاخب :

«الموت في الشوارع / والعقم في المزارع /وكلُّ مانحبه يموت . / الماء قيدوه في البيوت / والهث الجداول الجفاف /هم التتار أقبلوا ، ففي المدى رُعاف وشمسنا دمٌ ، وزادنا دمٌ على الصحاف /محمد اليتيم أحرقوه فالمساء / يضيء من حريقه ، وفارت الدماء / من قدميه ، من يديه ، من عيونه / وأُحرق الاله في جفونه ...» (٢)

ان السياب عندما يروعه شيء في الحياة ، ينقل هذا الشيء ، ويعطيه أبعاداً أضافية حتى يجعله الحياة كلها ، وهو يجد متعة فنية ونفسية وهو يقوم بتصوير هذه الصور المفزعـة الحادة المنفعلة .

لقد بلغ شعر السياب نضجه وتكامله ، شكلاً وبناءاً وصوراً في ديوانه (انشودة المطر) واهم مميزات هذا الديوان ، نزوع السياب نزوعاً كاملاً الى الأسطورة والرمز دون ان يهرب — مع ذلك — من تصوير الواقع ومساوئه ، دون أن يخفق في أن يجعل هـذه

---

(١) زمن الشعر — ادونيس / ١٠٢ .
(٢) الأعمال الكاملة ١ / ٤٦٧ .

المحاولة الفنية الجديدة ، قفزة جديدة في طريقة تصوير الواقع الذي بدأ يكتظ بمرور الزمن بالمساوىء والمخاوف والامال والتطلعات والصراعات والافكار والقيم والشخصيات والمواقف .

ان صور السياب القديمة ، والصور الحسية لم تعد قادرة على تلبية تطور فنه ونضجه ولم تتسع لجنوح خياله واتساع رؤياه ، بل اصبحت عائقاً امام تكامل القصيدة وامام تكامل التجربة الشعرية . وتطور السياب ونضجه الفني لم يكن قفزات في الفراغ ، انما كان تطوراً طبيعياً ابتدأ مع بداية السياب الشعرية وظلت الصورة الملونة المحسوسة في البداية والمستعادة في بعض الاحيان – هي اداة التطور ، وهي مقياس التطور والنضج ، بطريقة استعمالها منذ بدء الكتابة وحتى هذا الديوان .

لقد تطورت الصورة عند السياب من مجرد تصوير الواقع ، تصويراً حسياً ملموساً مع اضافة بعض الالوان وتزيينها ، الى استلهام الأسطورة والرمز ، واخضاعها لمجمل العملية الشعرية ، واغناء الصورة والتجربة الشعرية باستعمالها الجيد لتعبر عن خفايا النفس . لكن أية نفس هذه ؟

انها نفس السياب التي اثقلها المرض واتعبها جسد دام ومرض متأصل لافكاك منه . انها نفس السياب الذي (تجاوز العتبة) ليقف كأي خاطىء عليه ان يواجه مصيره الفردي بنفسه ، ليقف امام باب الله منهكاً من معركة الحياة مستجدياً السلام . هذا السلام الكاذب الذي يعرف السياب قبل غيره انه لن يكون سلاماً الا اذا غلف بالحدس الصوفي ، وهذه الاستكانة الأخيرة ، والهدوء في اخر معركة دامية وقاسية ، كان السياب فيها وحيداً مع نفسه ، وحيداً مع مرضه ، وحيداً امام عجزه وتعبه . انه السلام (الخاتمة) التي لامفر من ان يلوذ بها هذا القروي الوديع ، وهذا الثائر اليائس ، والمنادي الذي بح صوته ، وهذا العبقري الذي آن له ان ينصت لنفسه وان يجاهد في توطينها على السلام ، وعلى هدوء هذا السلام الكاذب :

«اريد ان اعيش في سلام : /كشمعة تذوب في الظلام/ بدمعة اموت وابتسام تعبت من توقد الهجير/ .. تعبت من صراعي الكبير/ .. تعبت من ربيعي الأخير تعبت من تصنع الحياه /

اعيش بالامس ، وادعو أمسي الغدا /كأنني ممثل من عالم الردى /تصطاده الاقدار من دجاه /

وتوقد الشموع في مسرحه الكبير /يضحك للفجر وملء قلبه الهجير /تعبت
كالطفل إذا أتعبه بكاه ..» (١)

ان السياب الذي صرعته الحياة فاعطى لخسارته طعم التضحية ، والذي دفعه المرض للوقوف كما يقف الخطاة ، يلتقط في قصيدة (حدائق وفيقة) صوراً معتمة وشديدة الظلام والسوداوية ، انه يلتقطها من حدائق الموتى وظلام العالم السفلي ، لما يحمله هذا العالم المظلم المرعب من امكانيات غير محدودة على سحق البشر والمصائر الفردية ؛ وهو في الوقت الذي يعيش فيه نصب التناقضات والنوازع ، فانه يتوق الى الكمال قانعاً بدمعة او ابتسامة حتى وهو فريسة للتطلع والرغاب .

وتبدو قصائد (المعبد الغريق) قليلة الشوائب والعيوب الشكلية التي ضيعت معظم شعره الأخير ، غير ان صوره ظلت هي هي من حيث الموضوع .

ويرسم السياب للقرية في دواوينه الأخيرة صوراً واقعية ووهمية في نفس الوقت: فهو يرسم لها صوراً واقعية عندما يصور فساد المدينة وابتذالها وعلاقاتها النفعية السريعة مما يضطره لخلق المقابل : كل ماهو مشرق ونقي وجميل : لكن صوره تكون غير واقعية عندما تستحيل القرية عنده الى جنة (صغيرة) وتصبح المدينة اساس كل الشرور ويدني كل شيء فيها : —

«مدينتنا منازلها رمى ودروبها نار /لها من لحمنا المعروك خبز .فهو يكفيها
علام تمد للاموات أيديها وتختار /تلوك ضلوعها وتقيئها لاريح تسفيها ؟/
تسل ضلّها الناري من سجن ومستشفى/ومن مبغى ومن خمارة .. من كل
مافيها /وسار على سلالم نومنا زحفاً/ليهبط في سكينة روحنا ألماً فيكيها ..
فأين زوارق العشاق من سيارة تعدو /بنت هوى ؟ واين موائد الخمار من
سهل يمد موائد القمر ؟..» (٢)

ان القرية التي تغص بالمرضى والبائسين والفقراء ، تكون عند السياب مركز الاشراق والجمال لبساطتها ، وروعة صباحاتها ، والمدينة التي تعج بمظاهر الحياة الجميلة المتفائلة تتحول عنده الى مركز للشرور ، والنساء والاغلال . صور السياب ذات بعد واحد ،

---

(١) الأعمال الكاملة – ١ / ١٣٧ – ١٣٨ .
(٢) الأعمال الكاملة – ١ / ١٣١ – ١٣٤ .

فهي اما ان تتقن تصوير العالم المظلم والفساد والانسحاق ، واما ان تصور بدقة الاشراق والجمال في القرية او تصويرهما معاً وعدهما طرفي صراع حياتي كبير .

وفي قصيدة (نداء الموت) يرثي السياب نفسه ، بعد ان اصبح احساسه بنهايته يتحول بالتدريج الى ثقة أكيدة ، فقد كتب الوصايا وحلق بعيداً في عالم الاموات ، متخيلاً مرور الناس على قبره آسفين حزانى :

«يمدّون اعناقهم من ألوف القبور يصيحون بي : ان تعال /نداء يشق العروق يهز الحشاش يبعثر قلبي رماداً /(أصيل هنا مشعل في الظلال /تعال اشتعل فيه حتى الزوال /... ولاشيء الا الموت يدعو ويصرخ ، فيما يزول ./خريف ، شتاء ، أصيل ، أفول» (١)

ولما كان نداء الموت قوياً ، فقد جاءت صور السياب مغرقة في التوجع والأنين والشكوى مفعمة باليأس والخوف الذي جعله يأتي بصور يتداخل فيها عالم الاموات وعالم الاحياء ، لاحدود بينهما ، يمد احدهما الاخر بالظلام واليأس . كان رعبه من اقترابه من نهايته لايوازيه الاخوفه على اولاده من بعده . وخوفه من العالم الاخر لايوازيه الاخوفه على اولاده من هذا العالم الذي سيغادره بلا شك ، وهو عالم خبره السياب وعرف كل شروره ومساوئه وفساده . ان شعر السياب وصوره لايخلوان من الطابع الوثائقي (فمنزل الاقنان) الذي يُعد أثراً من آثار العمارة الشرقية اعطاه السياب حياة جديدة ووهجاً عندما تحدث عن شكل الحياة الاجتماعية بداخله ، وتحدث عن هندسته وبنائه .

والى جانب الوثائق المعمارية والاجتماعية توجد وثائق سياسية وطنية وقومية ، لكن صور السياب تظل — حتى تلك التي تحمل طابعاً وثائقياً — هي ذات الصور الجميلة التي يستطيع السياب من خلالها أن يقول اشياءه وان يصرخ وان ينحاز ويرفض ويحتج ،

ومع انتقال السياب من مستشفى الى آخر في الكويت ولندن ، كان حنينه الى وطنه يكبر ويتضاعف ، ولقد عرف السياب بحنينه الذي لاينقطع الى وطنه ، لكن هذا الحنين طغى ، حينما اصبحت المسافات بينهما طويلة ومضنية ، مسافات المرض ومسافات الزمن ، وبدأت صوره تبعاً لذلك تتلون بلون مأساوي خاص ، يبدأ من الحنين الى الأنثى والحاجة البايلوجية لها ، حتى تضخيم حروف رسالتها الى حد ان تصبح هذه الحروف هي مايضيء له ليل المرض ، والعزاء في غربته :

(١) الأعمال الكاملة — ١ / ٢٣٦ .

« وكأن جسمك زورق الحب المحمّل بالطيوب / والدفء ، والمجداف همسٌ في المياه يرن آها / فآها والنعاس يسيل منك على الجنوب / فينامُ فيه النخل تلتمعُ السطوح بنومهنّ الى الصباح ... اني اريدك ، اشتهيك امسٌ تغرك في رسالة / طال انتظاري وهي لاتأتي ، وتحترقُ الزوارق والتخوت / في ضفّة العشار تنفض ، وهي لاهثة ، ظلاله / علّ الرياح حملن منك لها رسالة .. » (١) .

وكان سعي السياب الدؤوب ، عبر صوره الشعرية الاخاذة ، وعبر مفرداته البسيطة السهلة ، وعبر براعته في ربط الصور الفنية بعضها مع بعض ، في تناغم متناسق جميل يشطح أحياناً في خيال جامح لاحدود له ، كالحنين الذي يغترفه من أصغر الاشياء حتى تخيل وجه الوطن الحبيب في وجه الزوجة والأطفال. وكان سعيه للوصول الى الدفء المفتقد عنيفاً عبر صور يجيدها السياب ، عبر ثقافته الواسعة شعرياً ، عبر رؤاه المكتسبة من التراث والطبيعة والمجتمع .

وتتوارد هذه الصور في (شناشيل ابنة الجلبي) عندما يصف شتاء القرية بألوان مشعة واشكال مركبة على طول البناء العضوي او للقصيدة : ـــ

«وأذكرُ من شتاء القرية النضّاح فيه النورُ / من خلل السحاب كأنّه النغمُ / تسرب من ثقوب المعزف ـــ ارتعشت له الظلَمُ / وقد غنى ـــ صباحاً قبلَ .. فيم أعدّ ؟ طفلاً كنت ابتسم / لليلي او نهاري أثقلت أغصانه النشوى عيون الحور .. » (٢)

وهنا نرى ان السياب قد جانب المباشرة بتعبيره بالصور ، فهو لم يقل لنا ان شتاء القرية ذو لون معين ، بل بهرنا بشكل الاشراق النضاح فيه النور ، لكن الصورة الحسية التي نقع فيها على دلالة بالتسمية تتضح تماماً في « ومضى البرق لذرى السعف ليحيلها زرقاء ..» او خضراء دون اخلال بهذا التداخل اللوني ، في انسيابية رائعة تبلغ الذروة في المقاطع الاخرى .، وفي مجمل القصيدة ككل .

وحين يكون هناك تضاد فـي الالوان المشرقة مـع نقيضها ، نجد صراعاً حاداً بين تلك الالوان والاحاسيس والصور ، واحياناً كثيرة نقع على مثل هذا التضاد ، ليس فـي المقطع الواحد ، انما بين مقطع وآخر ، فالى جانب الاشراق اللوني الأخاذ ثمة ظلام الالوان وعتمتها التي تكتسب عمقاً خاصاً في مرض وغربة واغتراب الشاعر : ـــ

«الغرفة موصدة الباب / والصمت عميق / وستائر شباكي مرخاةٌ ..

(١) الأعمال الكاملة ـــ ١ / ٦١٣ .

(٢) الأعمال الكاملة ـــ ١ / ٥٩٧ .

ربَّ طريق / يتنصتَ لي ، يترصد بي خلف الشباك ، واثوابي / كمفزع بستان ، سود / اعطاها الباب المرصود / نفساً ، ذرَّ بها حساً ، فتكاد تفيق » (١) .
وفي قصيدة (أسير القراصنة) رسم لنا السياب الصورة الواسعة « المهيأة لاتاحة الحركة الممكنة للحوارية التي تتحرك داخل الصور في مجملها » . (٢) وليس خارجاً عنها ، واصبح الريف في ذهن السياب وبصورة نهائية هو الطبيعة الجميلة الطاهرة والخيرة المعطاء ، لذلك انشغل السياب برسم صورة لكل فصل من الفصول التي تمر عليه ، وكان همه الوحيد هو أن ينجح في ابتكار صورة جديدة ، على الاقل في الوصول الى تعليل حسن لصورة قديمة عندئذ يحس براحة من أدى مهمة الشاعر الكبرى . لقد كان يتشبث بجدة الصورة وكان هذا همه الاساس كفنان كبير ومبدع اوهي طريقته كانسان ثائر رافض محتج في ابسط الاحوال .

خاتمة : —

هل يكفي اذن ان نقول عن بدر شاكر السياب الرائد الأكبر في حركة الشعر العربي الحديث . بأنه شاعر التعبير بالصور ؟ وهل يكفي ان نقول ان الصورة عنده بدأت أحادية الجانب ، مباشرة وتقريرية ، ثم غطتها بالتدريج الوان صارخة مفضوحة، ثم بالتدريج أيضاً خفتت تلك الالوان الصارخة ، واستكانت عند ارتباطها بعضها ببعض وزادها نمواً وتطوراً وجود المقابل او المعادل الفني ، ثم اتسعت خارج حدود المباشره والسطحية ، لتستل من الأسطورة دافعاً جديداً لها ، ثم اتسعت أيضاً دون ترهل ، حتى احتملت الحوار والمونولوج والتقابل بين الاضداد ؟ .
وهل يكفي ايضاً ان نقول عن السياب،وصوره الشعرية التي غامر بها في كل ميادين الحياة من وصف سريع للقرية ، والنهر ، والشفق والغروب ، الى تناول نماذج مسحوقة ، ومن خلالها صراعاً حاداً وفرقة مشينة في صفوف القوى الوطنية الى الحديث عن الذات ، بحس مفجوع مرعب ، الى الوقوف معها عند باب الله ، وقفة خاطىء مستسلم يائس ؟ هل يكفي ان نقول : ان السياب شاعر الصور والصور هي ابتكار السياب وابداعه وتطويره
قد يكون هذا القول ، قليل بحق السياب ، فهو الرائد أولا في الخروج بالقصيدة العربية

(١) الأعمال الكاملة — ١ / ٦٠٨ .
(٢) الشعر العربي المعاصر — عز الدين اسماعيل / ٣٨٦ .

من قوالبها الكلاسيكية التي سارت عليها مئات السنين ، وهو الرائد ايضاً في الخروج ، بمكونات وعناصر القصيدة العربية من غرضها الازلي واستعمالاتها الأبدية والولوج بها الى عصر آخر ، واستعمالات أخرى ، هو عصر السياب وهي استعمالات عصره .
انه شاعر حسي وانطباعي ، رومانسي ، مثالي ، واقعي مباشر ، عميق وغزير النظرة وسطحي في بعض الاحيان ، قوي البصيرة في احيان اخرى ، لكنه فنان كبير ومبدع لانظير له في مجال (التعبير بالصور) وفي مجال استخدام هذه الصور في كل الامور ، ومداخل الحياة .

وقد اكون اهملت اشياءاً كثيرة عن السياب ، لكن مايشفع لي أن السياب قد لاقى في حياته عنتاً لم يلاقه احد غيره ، ولاقى بعد موته اقلاماً كثيرة تحدثت عنه بالدراسة والتحليل ان السياب وصوره الفنية تظل دائماً اكبر من كل دراسة نقدية ، لانها صور لشاعر ، عاش حالة خاصة ، وخاض تجربة شعرية كانت خاصة ، ولانه ارتبط ارتباطاً وثيقاً بتأريخ العراق في فترة ماضية ، فان شعره يصلح لأن يكون مدخلاً لدراسة احوال العراق ومن جميع جوانبها ، انه الأبن الاصيل لهذا البلد الطيب ، حامل كل تناقضاته وامراضه وتطلعاته وآلامه .

وبعد : فالسياب كما حاول هذا البحث أن يؤكده ، شاعر يمتلك رؤية حادة باهمية الصورة الفنية في تزيين مساحة القصيدة من جهة ، وتعميق المعاني التي يسعى الى ايصالها الى الآخرين ، عبر عملية دينامية لسبر اغوار الاشياء وتفكيكها ثم تشكيلها مجدداً وتقديمها بأطر تميزها عن آلاف الصور التي زخر بها تراث الصور الفنية عبر العصور من جهة أخرى .

ولن اجروء ولاسواي على القول ان البحث الواحد ممكن باستقراء كل انجازات السياب في رفد حضارة الشعر بالصورة الجديدة .. وحسبي اني حاولت واملي ثمين بأن محاولتي ستدفع الاخرين الى تناول جوانب مختلفة من تقنيات السياب في صناعة الصور الفنية .

مصادر ومراجع البحث :

١ — الاعمال الكاملة — بدرشاكر السياب — دار العودة / بيروت — ١٩٧١.

٢ — بدر شاكر السيّاب — دراسة في حياته وشعره د. احسان عباس . دار الثقافة / بيروت — ١٩٦٩ .

٣ — بدر شاكر السيّاب — ايليا حاوي — دار الكتاب اللبناني — الطبعة الثانية ١٩٨٠ .

٤ — بدر شاكر السياب — حياته وشعره — عيسى بلاطة دار النهار / بيروت — ١٩٧١ .

٥ — دفتر الثقافة العربية — عصام محفوظ دار الكتاب اللبناني — ١٩٧٣.

٦ — زمن الشعر — أدونيس دار العودة / بيروت ١٩٧٢ .

٧ — السيّاب — عبد الجبار عباس دار الحرية / بغداد — ١٩٧٢.

٨ — الشعر الحر في العراق منذ نشأته حتى عام ١٩٥٨ — يوسف الصائغ — مطبعة الاديب البغدادية ١٩٧٨ .

٩ — الشعر العربي المعاصر : قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية . د. عز الدين اسماعيل دار العودة / بيروت — ١٩٧٢ .

١٠ — الشعر كيف نفهمه ونتذوقه — اليزابيث درو — ترجمة د. محمد ابراهيم الشوش — مكتبة منيمنة / بيروت — ١٩٦١ .

١١ — الصورة الادبية — د. مصطفى ناصف دار مصر للطباعة — ١٩٥٨.

١٢ — الصورة الادبية في الشعر الأموي — محمد حسين الصغير (رسالة ماجستير) مطبوعة بالآلة الكاتبة مقدمة الى جامعة بغداد / كلية الاداب عام ١٩٧٥ .

١٣ — الصورة الشعرية — سي. دي. لويس ترجمة د. أحمد نصيف الجنابي وآخرين — دار الحرية / بغداد — ١٩٨٣ .

١٤ — الصورة الفنية في الشعر الجاهلي — د. نصرت عبد الرحمن — مكتبة الأقصى — عمان ١٩٨٢ .

١٥ — الصورة الفنية في شعر الاعشى الكبير — د. عبد الاله الصائغ (رسالة دكتوراه) مطبوعة بالالة الكاتبة مقدمة الى جامعة بغداد / كلية الاداب عام ١٩٨٤.

١٦ — الصورة الفنية في شعر ابي تمام — د. عبد القاهر الرباعي — شركة المطابع النموذجية — ١٩٨٠ .

١٧ — الصورة المجازية في شعر المتنبي — د. جليل رشيد (رسالة دكتوراه) مطبوعة بالآلة الكاتبة مقدمة الى جامعة بغداد / كلية الاداب عام ١٩٨٥ .

١٨ — العصر الجاهلي — د. شوقي ضيف — دار المعارف بمصر — الطبعة الخامسة ١٩٧١ .

١٩ — عصر السريالية — والاس فاولي . ترجمة خالدة سعيد — منشورات نزار قباني — ١٩٦٧ .





سعيد عدنان محمود
كلية التربية – جامعة الموصل

توطئة :

المقالة مقالتان ، مقالة غايتها أن تؤدي معرفةً ومعلومات ، ولايشترط فيها إلاسلامة اللغة وتماسك الافكار ، وهي «مشروع كتاب في موضوعها لمن يتسع وقته للاجمال ولا يتسع للتفصيل» (١) وهي قديمة عرفت في العربية وفي غيرها ، قدم الكتابة والتأليف ولك أن تُعد «الفصل» أصلاً لها في العربية انحدرت منه . ومقالة غايتها أن تصور انفعال كاتبها ، وأن تعبر عن حالة من حالاته ، كالفرح أو الحزن أو القلق أو الخوف ، أو ما أشبه مما ينتاب النفس (٢) . وقد سميّ الضرب الاول بالمقالة التعليمية وسميّ الضرب

(١) يسألونك : ١ .
(٢) ينظر محاضرات عن فن المقالة الأدبية : ٦١ وما بعدها .

الثاني بالمقالة الأدبية وتجد من يسمي الاول المقالة الموضوعية ، والثاني المقالة الذاتية (١) . ولا خلاف في أن «التعليمية – الموضوعية» غايتها أن توصل معرفةً ، وأن «الأدبية – الذاتية» غايتها أن تصور حالة ، وعلى هذا فهي الصق بذات الأديب .

واذا كانت المقالة التعليمية قديمةً ، لايهتدى الى ميلادها ، فان المقالة الأدبية ولدت سنة ١٥٧٢ اذ شرع مونتين بجمع ما تشابه من الحكم والامثال ويسجل عليها تعليقاته وتأملاته (٢) . وهي تعليقات تصور وقع الحياة على نفسه ، ثم شرع يستفيض في التأمل والتعليق ، وكأنه وجد الشكل الملائم ليعبر عما في نفسه ، واذ نشرت «مقالات» مونتين كان لها صدى لدى القراء ، فأعيد الطبع ، ولم تقتصر على اللغة الفرنسية – لغة مونتين وانما ترجمت الى الانكليزية ، فكان لها من القبول لدى ابناء الانكليزية كالذي كان لها عند ابناء الفرنسية ولقد حفزت الادباء الانكليز على مجاراتها والنسج على هيئتها ، ثم خرجوا – الأنكليز – من طور محاكاة «مقالات» مونتين الى الابداع في المقالة في فن المقالة ، «لقد تأصلت المقالة نوعاً أدبياً وتأثلت اذ تولاها الانكليز عموماً والصحافة الادبية لديهم خصوصاً» (٣) . واول من يذكر من مقاليي الانكليز فرنسيس بيكون ، واليه يرجع «الفضل في ادخال المقالة في الادب الانكليزي» (٤) فقد «أصدر عام ١٥٩٧ كتاباً بعنوان «مقالات» يحتوي على عشر مقالات هي نصائح سياسية وأخلاقية تنفع من يريد أن يتقدم في مدارج الحياة» (٥) ، واذا قيست «مقالات» بيكون الى «مقالات» مونتين بدت اقل منها طراوة وأبعد عن عنصر الذات ، وادخل في ميدان النفع العملي ، ثم توالى المقاليون في الادب الانكليزي ، كلٌّ يضيف الى الفن ويرتقي به .

لقد نهضت المقالة فناً أدبياً ، له أدباؤه المنشئون وله قراؤه المترقبون لما يصدر منه ، وتجد من الادباء من قام مجده الأدبي على أنه كاتب مقالة ، وعلى انه مقالي . ولقد تنوعت أساليب المقالة ، واختلفت من اديب الى آخر ، وساعد على ذلك أنها ليس لها شكل محكم لا ينبغي الخروج عنه،وانما هي أقرب الى حديث النفس يزجيه الاديب دون عناء ودون تكلف ، بل لعله يرسله كما يرد على نفسه . ، هي كما يقول الدكتور جونسون : «نزوة

(١) ينظر فن المقالة : ٦٦ .
(٢) ينظر مقدمة في النقد الأدبي : ٢٦٦ .
(٣) المصدر السابق : ٢٨٠ .
(٤) قصة الادب في العالم : ٢/١/٢٣٣ .
(٥) مقدمة في النقد الأدبي : ٢٨١ .

عقلية لاينبغي ان يكون لها ضابط من نظام ، هي قطعة لاتجري على نسق معلوم» (١).

لقد تنوعت الأنساق التي تجري عليها المقالة ، حتى صار لكل مقاليّ نسق يتبعه في مقالاته ، غير أنها تلتقي على شرط الذاتية ، والاقتراب من الشعر الوجداني في الاعراب عن النفس .

ولقد وجد الاديب العربي في مطلع النهضة الحديثة ، أن«المقالة»، شكل ملائم لتصوير افكاره وعرض آرائه ، فاتخذ منها اداة (٢) ، وكانت اولى المقالات التي كتبت تنحو منحى التعليم واداء الفكرة ، وكانت مما تقتضيه حاجة الصحافة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ويسجل لكتابها أنهم سعوا أن تخففوا من اعباء التكلف البديعي الذي أُثقلت به اللغةُ في عصر الانحسار الحضاري . حتى اذا توالت الاقلام واشتد الاحتكاك بالغرب ، واطلع الاديب العربي على نماذج شتى من المقالات، اخذ يقترب من «المقالة الادبية» ويزداد ادراكاً لشروطها ولما ينبغي أن تكون عليه ، ويذكر من اولئك الأدباء الذين شيدوا فن المقالة الأدبية : اديب اسحاق وفرج انطون وامين الريحاني وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة ومي زيادة والمنفلوطي وطه حسين والرافعي والزيات والمازني والعقاد واحمد امين و البشري ومحمد عوض محمد وزكي نجيب محمود (٣) .

«ويختلف حظ هؤلاء من الابداع وتتميز مقالاتهم بمقدار أصالتهم وتميز شخصياتهم ومنهم من كان اقرب الى الشعر الوجداني إن لم يكن شاعراً مثل جبران ، ومنهم من بدا هازلاً دون ان يكون هازلاً مثل المازني ، ومنهم من كان ساخراً لاذعاً مثل البشري ، وعرف طه حسين بجمال الايقاع والصور والموازنة بين نسب العاطفة والفكر ، والزيات يتخير اللفظ والمزاوجة على وجه يشعرك فيه بفنه ويدلك على صناعته ومنهم من كان أقرب الى العلم وشيء من الجفاف كأحمد أمين والعقاد» (٤)

وليس من وكدنا هنا ان نقف مفصلين في خصائص «المقالة» عند كل من هؤلاء الكتاب وانما هذه توطئة أو مدخل الى فن المقالة لدى زكي نجيب محمود .

---

(١) فن المقالة : ٩٣ - ٩٤ ، وينظر رواد المقالة الادبية : ١٠ .

(٢) ينظر الأدب وفنونه : ١٨٨ .

(٣) ينظر مقدمة في النقد الادبي : ٢٩٢ .

(٤) مقدمة في النقد الادبي : ٢٩٢ .

ولد زكي نجيب محمود بمصر ، سنة ١٩٠٧ ، ودرس دراسته الاولى فيها ، ثم اذ انتقل أبوه إلى السودان ، درس هناك بمدرسة انكليزية ، جلّ مدرسيها من الانكليز ، وجلّ موادها تدرس بالانكليزية ، فكان ذلك سبباً في اتقانه تلك اللغة منذ فجر حياته ، فاستطاع أن يطلع على الأدب الانكليزي خاصة والفكر الاوربي عامة .

نشأ زكي نجيب محمود وهو ينطوي على بذرة الأدب في نفسه ، ومن كان كذلك تلقف المؤثرات التي تغذي هذه البذرة وتمدها بالحياة ، وكان أمامه سبيلان يستمد منهما المعرفة هما : اللغة العربية واللغة الانكليزية . فشرع يقرأ فيهما ، ويتأمل ؛ وتدل كتابته على أن علمه بالعربية مكين ، فهو في كل ما كتب مشرق العبارة ، مستقيم الفكرة ، بعيد عن الالتواء والتعقيد والخطأ ، وهذا مالا ينبغي الا لمن أخذ نفسه مذ بدأ يعي بمصاحبة النصوص العربية القديمة .

عمل زكي نجيب محمود مدةً في التدريس الثانوي ، ثم ارتحل إلى لندن لكي يحصل على الدكتوراه في الفلسفة ، فحصل عليها وكان موضوعه «الجبر الذاتي» . ورجع استاذاً يدرس مادة الفلسفة الحديثة في جامعة القاهرة . وكان قد اتخذ لنفسه من مذاهب الغرب الفلسفية «مذهب الوضعية المنطقية»(*) ورأى فيها حلاً لمشكلات الفلسفة والفكر ، فراح يؤلف فيها ويدعو اليها ، ويسعى إلى أن يجعل منها تياراً من تيارات الفكر المعاصر عند العرب ، غير أنه بقي الداعية الوحيدَ اليها ، فلم يتهيأ لهذه الفلسفة أن تستقطب الاتباع والمناصرين .

بدأ زكي نجيب محمود أديباً يكتب المقالة الأدبية ، قبل أن يتخصص في الفلسفة ، ويسعى إلى أن يعبر عن وجهة نظره ازاء الحياة والمجتمع عبر هذه المقالات ؛ فلا غرو أن بقي يعالج الموضوعات الفلسفية بقلم الأديب ، ولا غرو أن استطاع أن يعرب عن

(*) الوضعية المنطقية : اتجاه فلسفي نشأ قائماً على «وضعية» أوكست كومت التي ترفض أي معرفة لا تقوم على خبرة حسية ، سميت اولا «حلقة فينا» نسبة إلى اعلامها الذين كانوا يجتمعون في تلك المدينة ، وهم : مورتس شليك ورودلف كارناب وفردريك وايزمان ، وغيرهم ، انكرت الوضعية المنطقية الميتافيزيقا ، وعدّها عبارات فارغة جوفاء لا تقول شيئاً فلا يصح أن تسمى كاذبة أو صادقة لانها لا تتحدث عن شيء يمكن التحقق منه ، ولقد قصرت الوضعية المنطقية عمل الفلسفة على تحليل اللغة تحليلا منطقياً ، فليس الفيلسوف على مذهب الوضعية المنطقية أن يخبر عن وقائع العالم الخارجي ، وانما ذلك الاخبار عن العالم ووقائعه متروك إلى العلماء ، وما عمل الفيلسوف الا تحليل عبارات اولئك العلماء . هي فلسفة تعنى بالشكل وتنسى المحتوى .

ينظر : الموسوعة الفلسفية المختصرة . ٤١٣ .

أدق الافكار الفلسفية بأجلى عبارة وأنصع بيان فكان من الذين اثبتوا أن الفلسفة ليست قرينة الغموض والالتواء والعسر ، ودلّ على أن من يكتب في الفلسفة يستطيع أن يكون عميقاً وواضحاً معاً ، اذا امتلك ناصية اللغة وأحسن التعبير .

بدأ زكي نجيب محمود أديباً يكتب المقالة الأدبية ، غير أنه بعد أن تخصص في الفلسفة واتخذ الوضعية المنطقية مذهباً يفسر به الفلسفات والافكار شرع يكتب مقالات يعرض بها وجهة نظره الفلسفية أو يترجم لبعض من الفلاسفة الاوربيين ، أي أنه أخذ يكتب مقالات غايتها أن تؤدي معرفة وأن توصل معلومات فأصدر في ذلك «فلسفة وفن» و «قشور ولباب» و«ثقافتنا في مواجهة العصر» و«في فلسفة النقد» و«مع الشعراء» هذه كلها مقالات كانت قد نشرت مفرقة في المجلات ثم جمعها في كتب اصدرها ، وهي من المقالة التعليمية التي غايتها عرض الافكار وتوصيل المعلومات ، وليس من شأننا هنا أن نقف عندها ، وانما البحث منصب على المقالات الأدبية .

أصدر زكي نجيب محمود: «جنة العبيط» سنة ١٩٤٧ ، وهو مقالات أدبية كان قد نشرها في الصحف والمجلات ثم جمعها في هذا الكتاب واختار عنواناً له ، أسم احدى مقالاته ، كما يفعل الشاعر إذ يصدر مجموعة شعرية ، وكما يفعل القاص اذ يصدر مجموعة قصصية .

وقد ابتدأ الكتاب باهداء عجيب غريب هو : «الى نفسي التي تعاني من جدّها العاثر» ولعلك تدهش كما دهشتُ اذ قرأت الكتاب اول مرة قبل سنوات ان يكون زكي نجيب محمود عاثر الجدّ ، ثم أصدر سنة ١٩٧٤ : « قصاصات الزجاج » وهو مقالات أدبية مختارة مما كان قد نشر سابقاً ، نشر منها في «جنة العبيط» (أثنتا عشرة مقالة) والأخرى نشرت في المجلات والصحف ، ابتدأ الكتاب الجديد كما ابتدأ الكتاب القديم بالاهداء نفسه : « الى نفسي التي تعاني من جد ها العاثر» ويعاودك الاستغراب والتعجب ، وتقول كيف يكون زكي نجيب محمود عاثر الجدّ ، وهو الاستاذ اللامع والفيلسوف المفكر والكاتب المبدع ، وتضع يدك على مفتاح تقرأ به المقالات والمسألة تعدُ مسألة أحساس شخصي ، لامسألة فيلسوف أو كاتب مبدع أو أستاذ ، ولندع هذه القضية الى حينها اذ نحلل المقالات .

لم يكن زكي نجيب محمود أديباً منشئاً فقط ، وانما كان أديباً ناقداً يزاول النقد بشطريه : النظري والتطبيقي . فكان لابد أن يصدّر مقالاته بدراسة يضع فيها مايريد من شروط

المقالة وماينبغي أن تكون عليه، فكتب «مقدمة» قصيرة أعقبها بمقالة تعليمية في فن المقالة سمّاها «أدب المقالة».وإذ تقرأ «المقدمة» القصيرة تحس أنه ممتلىء بشعور من يرتاد ويؤسس مالم يسبق اليه «كذلك رأيت في المقالة الأدبية رأياً أخالف به الذائع الشائع في أدبنا، وأوافق فيه رجال الأدب في الغرب فقدمت للكتاب بفصل في شروط المقالة الادبية وأوصافها ثم عقّبت على ذلك بمقالات هي بمثابة التطبيق لما بسطت من قواعد ... إن صاحب(هذا الكتاب) ليأمل أن يشق في المقالة الادبية طريقاً جديداً بهذه الصفحات»(١).

ولم يذكر أحداً من الذين سبقوه فكتبوا مقالات أدبية كما ينبغي أن تكون عليه وأول من يرد على الذهن المنفلوطي ، فلقد كتب مقالاته صادراً عن وعي صحيح بما يشترط في المقالة الادبيّة ، خلاصته ؛ انه كان يحدث الناس بقلمه كما يحدثهم بلسانه ، فلا تكلف ولا قيد يضعه على نفسه لأجل أن تكون للموضوع مقدمة وبراهين وما أشبه من ضوابط منطقية ، وانما هو حديث مسترسل ، ثم انه ما كان يحمل نفسه على الكتابة حملاً بل يرى فيفكر فيكتب فينشر ، وكذلك انه ما كان يكتب حقيقة غير مشوبة بخيال ولا خيالاً غير مرتكز على حقيقة ، لكي يجعل الحقيقة أدباً بالخيال ، ويجعل الخيال موثوق الصلة بالناس . ثم إنه ما كان يكتب للناس ليعجبهم بل لينفعهم ، اي انه كان يدلهم على عيوب الواقع لاجل اصلاحها (٢) . فاذا قارنت ما كتبه المنفلوطي بما جعله زكي نجيب محمود شروطاً للمقالة ـ سيأتي ذكره بعد قليل ـ وجدت أن المنفلوطي كان السابق ، وان زكي نجيب محمود لم يخرج في شروطه عما ساقه المنفلوطي ، ويرد على الذهن الزيات ومقالته «ولدي» في الصميم من النوع ، ويرد محمد عوض محمد وهو مقالي زاول «المقالة» تنظيراً وتطبيقاً ، فقد أصدر مجموعتي مقالات هما : «من حديث الشرق والغرب» و «ملكات الجمال» واصدر كتاباً بعنوان «محاضرات عن فن المقالة الأدبية» ، ولقد كتب الزيات مقالاته قبل زكي نجيب محمود واصدر محمد عوض محمد مجموعة مقالاته الأولى سنة ١٩٣٧ وقد كانت شروط النوع مجسدة فيها ، ثم اذ سنحت الفرصة عبّر عن تلك الشروط نظرياً سنة ١٩٥٩ إذ أصدر «محاضرات...» ولا ريب أن شروط المقالة التي وردت في هذا الكتاب كانت حاضرةً في ذهنه يوم كتب «من حديث الشرق والغرب» . واذن فان ما أوحى به زكي نجيب محمود من زيادة ، شيء في غير موضعه ، ومع هذا فانه كان ممتلئاً بشعور من يرتاد ويؤسس ويخرج بما ارتاده وأسسه عن السائد المألوف ، يقول :

(١) جنة العبيط : ١ ـ ٢ .
(٢) النظرات ج١ المقدمة .

ولكن الأديب المصري يكتب المقالة التي لو قيست بمعيار النقد الادبي لطارت هباءً ، ولأغلقت دولة الأديب من دونها الابواب» (١) .

يكتب هذا وهو لاريب على علم بمقالات طه حسين الأدبية ، ومقالات المازني والزيات ومحمد عوض محمد ، وما « فيض الخاطر » لأحمد أمين بالبعيد عنه :

ثم يسوق شروط المقالة قائلا انها « يجب أن تصدر عن قلق يحسه الأديب مما يحيط به ... على أن يجيء السخط في نغمة هادئة خفيفة ... او قل يجب أن يكون سخطاً مما يعبر عنه الساخط بهذه في كتفيه ومطّ في شفتيه ... شرط المقالة الأدبية أن يكون الأديب ناقماً وان تكون النغمة خفيفة يشيع فيها لون باهت من التفكه الجميل ... تريد من كاتب المقالة الأدبية أن يكون لقارئه محدثاً لا معلماً بحيث يجد القارىء نفسه إلى جانب صديق يسامره لا أمام معلم يعنفه ... يشترط أن تكون المقالة على غير نسق من المنطق ، أن تكون أقرب إلى قطعة مشعثة من الاحراش الحوشية منها إلى الحديقة المنسقة المنظمة ... ليس للمقالة الأدبية ، ولاينبغي أن يكون لها ، نقط ولاتبويب ولا تنظيم ... كاتب المقالة الأدبية على اصح صورها : هو الذي تكفيه ظاهرة ضئيلة مما يعج به العالم من حوله فيأخذها نقطة ابتداء ثم يسلم نفسه إلى احلام يأخذ بعضها برقاب بعض دون ان يكون له أثر قوي في استدعائها عن عمد وتدبير ... وما دمنا نشترط في المقالة الأدبية أن تكون اقرب إلى الحديث والسمر منها إلى التعليم والتلقين ، وجب أن يكون اسلوبها عذباً ، سلساً دفاقاً ... وأما من حيث الموضوع فلا يجوز عند الناقد الأدبي ان تبحث المقالة في موضوع مجرد ، كأن تبحث مثلاً فضل النظام الديمقراطي أو معنى الجمال ... لابد أن تعبر قبل كل شيء عن تجربة معينة مست نفس الأديب فاراد أن ينقل الأثر إلى نفوس قرائه ... ان المقالة الأدبية لابد أن تكون نقداً ساخراً لصورة من صور الحياة أو الأدب (٢)

انظر إلى شروط المقالة يسوقها زكي نجيب محمود تجد انها تلتقي في الجوهر منها مع ماسبق اليه المنفلوطي . انهما يلتقيان على أن الكاتب ينبغي أن يكتب وكأنه يحدث صديقاً حديثاً هامساً لا جلبة فيه ، وأنه ينبغي أن لايُعنى بالتبويب والتنظيم والبراهين المنطقية ، لأن ذلك يخرجه عن الحديث الهامس إلى ميدان البحث والتعليم ، وما هذا من طبيعة المقالة الأدبية ، ويلتقيان على أن الأديب ينبغي ان يتوخى الاصلاح ، بتصوير الفساد ودعو الناس إلى درئه .

---

(١) جنة العبيط : ٤

(١) جنة العبيط : ٤ — ١٠ .

وتبقى « النقمة» وقد جعلها زكي نجيب محمود شرطاً في المقالة ، واشترط في كاتبها أن يكون ناقماً ، فاذا لم يكن الأديب ناقماً سقط شرط من شروط المقالة ، فبطلت ان تكون كذلك . وليس الأمر على هذه الصورة ، ومايبنغي أن يكون ، لأن الشرط الآصل من « النقمة» هو أن يصدر الأديب عن انفعال صادق ، وقد يكون هذا الانفعال سخطاً ونقمة ، وقد يكون رضى وارتياحاً ، ولايلغي هذا أن تكون عوامل النقمة والسخط اكثر من عوامل الرضى والارتياح ، « وتبقى المسألة مسألة تهيؤ ومسألة فرحة غامرة تعدل — كما وكيفاً — الترحة الطاغية ولا يستحيل ان تتهيأ هذه الحال » (١) ، وان المقالة الأدبية تقوم على مايبهج ويفرح كما تقوم على مايحزن ويسخط ، غير أن زكي نجيب محمود استل هذا الشرط من مقالاته الادبية ، ذلك أن عنصري النقمة والسخط يشيعان في ثناياها .

تلك شروط المقالة الأدبية لدى زكي نجيب محمود ، جعلها صدر كتابه « جنة العبيط » لكي يكون قارىء الكتاب على علم بالمقالة الأدبية ، وكان قد صدر سنة ١٩٤٦ ، قبل سنة واحدة من صدور « جنة العبيط » ، كتاب « يسألونك » للعقاد ، وهو مجموعــــة مقالات كان قد نشرها في الصحف والمجلات ، ثم جمعها في هذا الكتاب وجعل لها مقدمة قصيرة عنوانها « أدب المقالة » ، وهو العنوان نفسه الذي ابتدأ به زكي نجيب محمود كتابه وأورد تحته شروط المقالة الادبية ، وكأنه اذ اختار عنوان العقاد أراد ان يقول هذا أدب المقالة ، لاماكتبه هو العقاد ، وكان العقاد . قد ذهب الى أن « كل مقالة في موضوع هي كتاب صغير يشتمل على النواة التي تنبت منها الشجرة لمن شاء الانتظار » (٢) . وهذا فهم ينطبق على المقالة التعليمية ، وكأن العقاد استله من مقالاته ، التي هي مشاريع كتب ، او انها كتب أوجزت في هذه المقالات . لقد انصب حديث العقاد على المقالة التعليمية ، وقد اتجه حديث زكي نجيب محمود صوب المقالة الأدبية ، فهما في ميدانين مختلفين .

ذلك مفهوم المقالة الادبية لدى زكي نجيب محمود ، وهو مفهوم ناضج صحيح ، يستند فيه الى أعلام هذا الضرب من الكتابة ، في مانظّروا وشرّعوا من شروط له ، وفي ماكتبوا من مقالات ، وهو يصدر قبل هذا عن طبع ساقه نحو المقالة دون غيرها ، فهو اذ يكتب يجمع بين الطبع المواتي ، والعلم الصحيح بشروط النوع .

---

(١) وراء الافق الادبي : ٢٠٣ .

(٢) يسألونك : ٢ .

يبدأ « جنة العبيط » بـ« البرتقالة الرخيصة »، ولايمكن ان تكون هذه اولى المقالات التي كتب ، فليس عليها من سمات البداية شيء ، وانما هي ناضجة مكتملة ، ولا بد ان يكون قد سبقها مقالات اخرى ، عانى فيها البداية والتجريب حتى اكتملت أداته ، فلما اراد ان يجمع المقالات في كتاب استبعد الاقل نضجاً واكتمالاً واستبقى الأنضج الاكمل، غير أن هذه المقالات التي ضمها « جنة العبيط » غير مؤرخة ، ابتدأ الكتاب بـ« البرتقالة الرخيصة» ، فلما اراد بعد سنوات أن يصدر « قصاصات الزجاج » ضمّ اليه بعضاً مما نشر في « جنة العبيط » وجعله يبتديء بـ« البرتقالة الرخيصة» ، أيكون ذلك لموقع خاص تقعه « البرتقالة الرخيصة» من نفسه ؟

تبدأ « البرتقالة الرخيصة » (١) بضمير المتكلم ، فالكاتب يحكي عن نفسه ، أنه ماكاد يفرغ من غدائه حتى جاءه الخادم بطبق فيه برتقالة وسكين ، فهمّ أن يحز البرتقالة، ثم أمسك ، وانصرف الى الاعجاب بها شكلاً ونضارة وأريجاً طيباً ، ثم يسأل الخادم قائلاً : عسى ألاتكون برتقالة اليوم معطوبة كتفاحة الامس ، ويجيب الخادم أن العطب في البرتقالة يبدأ من خارجها ، فاذا بدا ظاهرها سليماً فان باطنها سليم مثله ، وماهكذا التفاح ، ويستدعي اختلاف الظاهر عن الباطن خواطر شتى في نفسه ، فهذا هو التفاح قد يكون خادع المظهر ، يبدي غير ماينطوي عليه ، ومع ذلك فله القيمة الراجحة في السوق ، والبرتقال وقد اتسق فيه الظاهر مع الباطن ، فلايخفي شيئاً مما ينطوي عليه ، مرجوح القيمة في السوق . وتعجب لهذه المقارنة بين البرتقال والتفاح ، وماهي مقارنة لوجه المقارنة ، وإنما لها ماوراءها ، فلو كان المتأمل في البرتقالة غير زكي نجيب محمود لوقف عند الاعجاب والارتياح لها شكلاً وأريجاً ونضارةً ، ولما رآها مرجوحة ، ضائعة الفضل . مزهوداً فيها ، على ماتنطوي عليه من انطباق الظاهر على الباطن من دون خداع .

ولو كان المتأمل في البرتقالة زكي نجيب محمود ، في غير تلك الساعة من ذلك اليوم ، لما استدعت ما استدعت ، ولما تداخلت النفس (نفس الكاتب) مع البرتقالة فاحس شبهاً بينهما ، في أن كليهما ينبيء مظهره عن مخبره ، بلا خدعة ، ولا زيف ، وفي ان كليهما له فضائله النفسية مايقوم به ، ومع هذا فانهما مزهود فيهما في السوق ، مقدم عليهما من هو دونهما ، كأن الكاتب يقول للبرتقالة أنت مثلي .

---

(١) جنة العبيط : ١٢

ولكن ماالذي دعاه الى هذه المقارنة بينه وبين البرتقالة ، إن عوامل الاحساس بضياع الفضل ، وهدر القيمة ، قائمة في نفس زكي نجيب محمود ، — كما سيتضح خلال تحليل المقالات — ولكن ماالسبب المباشر الذي قدح الزند ، وأورى النار ؟ يذكر الكاتب بعد ان فرغ من البرتقالة أن طارقاً "نقر الباب » نقرةً خفيفة ، ثم دفعه في أناة وأقبل وأخذ يدنو بخطى ثقيلة حتى اقترب من المائدة ، فالقى عليها غلافاً مليئاً بأوراق ، ثم جلس ونظر اليّ نظرةً يشيع منها اليأس ، وابتسم ابتسامة خفيفة ينبعث منها القنوط وخيبة الرجاء ، فسألته : ماذا دهاك فأجاب : انظر وأشار بأصبعه الى الحزمة الملقاة قائلاً: لقد رفض الناشر أن يتعهد طبع الكتاب ، وهكذا ضاع مجهود أعوام ثلاثة أدراج الرياح ، فسألته : وماذا قال الناشر؟ فاجاب : زعم لي أن الكتاب جيد لابأس بمادته ، ولكنه لايتوقع له سوقاً نافقة » (١) ولم يكن هذا الطارق الذي يحمل مسودات كتابه غير زكي نجيب محمود نفسه ، وقد رجع قبل الغداء من الناشر وهو يعالج نفسه فكرة رفض كتابه ولعله حاول ان ينسى ، غير أن ذلك الرفض بقي يعتمل في نفسه ، ويستدعي حالات أخرى مشابهة كان قد اكتوى بها ، فلما قدم له الخادم البرتقالة انقدح في نفسه شبه بينه وبينها ، وحاول أن يكون موضوعياً وأن يصف الأشياء كما تقع في الخارج وأن يقارن بين البرتقالة والتفاحة ، غير أن الكلمات كان تمشي بما وراءها ، وانه لم يكن معنياً بالبرتقال والتفاح قدر عنايته بهذه الخيبة الجديدة التي لحقت به ، ثم لم يستطع أن يبقى في الموضوعية طويلاً فاخبرنا بهذا الطارق يحمل مسودات كتابه ، فكشف السرّ ودلّ عليه ، ثم ترجع به الذكرى إلى خيبة قديمة : « إن ذلك ليذكرني يوم أشقيت فيه نفسي بتحرير مقالة جيدة ممتازة وحملتها فخوراً إلى صاحب الصحيفة الاسبوعية وجلست أمامه ارقب كلمة التقدير تنحدر بين شفتيه ، فما راعني الا أن أراه ينفذ مسرعاً إلى آخر المقالة يقرأ الامضاء... ثم مط شفتيه مطاً فهمت معناه ، ودفعها بين اوراقه حيث استقرت إلى الابد»(٢) نعم لقد استدعت الخيبة الجديدة خيبات قديمة أحس بها حقاً أو باطلا فرأى نفسه كالبرتقالة تُعجب وتستمرأ ولا يدفع فيها الا ثمن قليل .

واذ تفرغ من « البرتقالة الرخيصة » أولى المقالات ، تتذكر الاهداء الذي جبهك على الصفحة الأولى من الكتاب : « إلى نفسي التي تعاني من جدّها العاثر » فيخفّ التعجب شيئاً وتقول ليس العبرة برؤية الانسان من خارجه ، وانما العبرة بما يحس به هو ازاء

(١) جنة العبيط : ١٤ – ١٥ .
(٢) جنة العبيط : ١٥

نفسه ، . فقد يكون صحيحاً معافى ويحس أنه مريض !! ، ولاريب أن الأديب مصدق على احساسه .

واما احساسه بضياع الفضل وهدر القيمة بالاحساس الطارىء الذي يمر بخاطر الاديب فيعبر عنه بمقالة واحدة وينتهي الامر ، وانما هو شيء .راسخ في نفسه ، يشيع في ثنايا المقالات ، يحاوره المرة تلو الاخرى ويصوره من مختلف نواحيه .

نقرأ في المقالة الثانية « ذات المليمين» (١) ، انه تسللت إلى جيبه قطعة نقدية من ذات المليمين ، فأقلقته وأحرجته ، فكلما همّ أن يخرج من جيبه مالاً ليقضي حاجةً ، خرجت بيده « ذات المليمين » فأربكته ، لأنها ضئيلة الشأن قليلة القيمة لاتقضي حاجةً ، فلايليق بامرىء ان تكون في جيبه ، « فهاناذا عند دار السينما أضرب بمنكبي مع الضاربين ، لعلي أجد السبيل إلى شباك التذاكر ، وقد ضربت حوله زحمة الناس نطاقاً بخنق الانفاس ... وحان الحين ... ووقفت أمام الشباك املأ عارضته بمرفقي ، ولكني اسرعت الحركة والكلام لتطمئن نفوس المنتظرين الناظرين فلا يحقدوا ، وضربت يدي في جيبي وأخرجتها فقذفت بما أخرجت لبائعة التذاكر ، فاذا بها ذات المليمين تتحرك على رخامة الشباك في رعونة الأيقاع » (٢).

هذا يوم لها ويوم آخر كان يجالس فئة من رفاقه وقد اشتد بينهم الجدال ، فجاء زميل يجمع قدراً من المال لسد حاجة محتاج ، فامتدت الأيدي ، وكان هو ذاهلاً منشغلاً بما هو فيه من جدال ، فدس يده في جيبه وأخرجها ليعطي ، فاذا بذات المليمين تخرج فتربكه وتحرجه ، .. ويدوم شأن ذات المليمين معه مدةً على هذا النحو . يجدها تدس نفسها بين الريالات وماهي منها ، فتردّ وتصدّ ، ثم لاتكف عن زجّ نفسها في مالم تخلق له . وتحسّ أن ذات المليمين رمز لها ماوراءها ، وتقول لعله جعلها رمزاً لفئة طفيلية من الناس ، تلقي بنفسها على الآخرين ، فأراد ان ينبه عليها ويدل على منقصتها، لكن شيئاً من العطف والرثاء تحسه وراء الكلمات متجهاً إلى ذات المليمين ، يجعل هذا التفسير غير صحيح ، فكأنه اذ يكتب عن ذات المليمين يندب حظّها ويرثي لها أكثر مما ينقدها فما عسى ذات المليمين ان تكون ؟ ينتقل الكاتب من ذات المليمين إلى من يشبهها من الناس : « فقد جلست بين جماعة ذات مساء ، وكان في الحاضرين أديب

(١) جنة العبيط : ١٧ .
(٢) جنة العبيط : ١٨ .

شاب لم يتجاوز العشرين ، هو الذي حشر نفسه في زمرة الأدباء حشراً بغير دعوة منهم ولاقبول ، ولست اعلم من ماضيه الأدبي الا مقالة نشرتها له مجلة اسبوعية ، ولو اكتفى بهذا الحدّ من الاحلام لكان جميلاً . لأن الاحلام الحلوة تنفع صاحبها ولا تؤذي الآخرين ليس بها بأس ولا ضرر ، ولكن الغرور أخذ من هذا السخيف مأخذاً شديداً ، فاذا به لا يكتفي أن يكون أديباً من من الأدباء ، ولكنه — لو انصف الزمان وعرف للناس أقدارهم — في الطليعة منهم ... قلت لنفسي : اليس هذا بين الناس قطعة من ذوات المليمين تستغل شبهها بذات القرشين ، فتدس نفسها بين الريالات وأنصافها دساً دنيئاً قد يخدع الغافلين » (١) .

ولا يختتم مقالته حتى يحكي لنا عن صديق حدثه أنه أراد لنفسه الصدارة فالتحق بجمعية أعضاؤها طائفة ممتازة من علية القوم ، فخالطهم ، ولكنهم لما يخالطوه ، وهش لهم وابتسم ، ولكنهم تولوا عنه وعبسوا ، وتسأل من هذا الشاب الذي القى بنفسه في زمرة الادباء إلقاءً ، ومن هذا الصديق الذي التحق بجمعية أدبية لم يجعل اعضاؤها له في نفوسهم موقعاً ، وما الذي دفع بهما إلى وعي الكاتب فصورهما في مقالته هذه ، وما عسى ذات المليمين ان تكون ؟ .

تقرأ في مقالة «٩ شارع الكردامي » (٢) ،ان الكاتب التحق بلجنة التأليف والترجمة والنشر— وهي لجنة لها موقع متصدر في حركة الادب والفكر في النصف الاول من القرن العشرين — غير أن اعضاءها لم يخالطوه بأنفسهم ، ولم يجعلوه يشعر أنه واحد منهم ، فخاب في نفسه أملٌ ، وانطفأت بهجة . تقرأ هذا فتعلم أن «الصديق» الذي تحدث عنه في « ذات المليمين » لم يكن غير زكي نجيب محمود نفسه ، وأن الجمعية لم تكن غير « لجنة التأليف والترجمة والنشر » ، وقد خيبت له أملاً فرجع مهيض الجناح ، قد استفاقت في نفسه خيبات أخر سابقات ، وراحت تعتمل وتبحث عن منقذ للتعبير ، وقد هانت عليه نفسه اذ رآها هينةً عند الناس ، غير أنها لو كانت ابتعدت عنهم لما هانت ولما وقع لها الاستصغار ، فاذا كان ثمة لوم وتقريع يوجهان فالى هذه النفس ، ووجد في ذات المليمين كتابة بارعة عن نفسه ، فشرع يبكتها ، لكنه تبكيت ممزوج بالشفقة والرثاء.

---

(١) جنة العبيط : ٢١—٢٢ .

(٢) قصاصات الزجاج : ١٤٣ .

وقد تعجب أن يكني عن نفسه هنا بذات المليمين ، وقد كنّى عنها قبلاً بالبرتقالة الرخيصة ، ولاعجب فهما احساسان مختلفان من جهة متفقان من جهة أخرى ، هي (نفسه) برتقالة رائعة عنده ، رخيصة عند الناس ضئيلة القيمة في موازينهم، هي عندهم « ذات المليمين » . فكأنه اذ كتب « ذات المليمين » نظر إلى نفسه من زاوية الآخرين .

تقول هذا وانت على مثل اليقين منه ، ثم تجد لدى الكاتب نفسه مايؤازره ويعضده: « فاذا نظر إلى نفسه من داخل تبدت له ضخمة فيها من النفاسة مايضمن لها أن تعيش مكتفية بذاتها مستقلة عن سائر الناس ، واذن فهي نفس تساوي العالم أجمع ؛ واذا نظر إلى نفسه من خارج ليراها واحدة من مجموعة أنفس تحيط بها في المجتمع الذي يعيش فيه ، رآها خفيفة الوزن في أعين الناس قليلة الشأن في اعتبارهم ، فيحدث له القلق ويصيبه التمزق بين مايظنه في نفسه وما يظنه الناس فيه ، فهو مرة يكتب عن نفسه انها تشبه قطعة النقود ذات المليمين قد دست نفسها بين الريالات ، راجية ان تكتسب قيمتها من وضعها فتعد ريالا من الريالات ، مع أن ذلك محال ، أو يقول عن نفسه انها كالبرتقالة الرخيصة ، يحبها الناس لجمال لونها ، ولذة طعمها وعطر أريجها ، لكنهم اذا ما حان وقت التقويم بالمال قوّموها بالملاليم » (١) .

واذ تختتم « ذات المليمين » بتفي التعجب الناشيء من الاهداء : « إلى نفسي التي تعاني من جدها العاثر » ، فلقد اتضح أن هذه النفس انطوت على عوامل متناقضة ، بعضها يرفعها ، وبعضها يخفضها ، ولا بد انها ترجع إلى عهد التكوين (الطفولة) ، ثم انها شبت معها واخذت تلوّن مواقفها من الحياة .

اذا كانت المقالتان السالفتان تنطلقان من الذات فانهما ليستا مقصورتين عليها ، وماهمُ الذات بالمعزول عن هموم الآخرين ، فلولا أن معايير المجتمع مضطربة ، وان ميزان القيم فيه مختل ، كما احست هذه « الذات » بالخيبة والاحباط ، وضياع الفضل .

وبعد، فانه يُسجل للكاتب أنه لم يعبر تعبيراً مباشراً عن أحاسيسه وانما تخيّر لها ماكنّى به عنها ، كناية تشفّ عما وراءها ، وتخرج بالخاص إلى العام ، وتجعل المتلقي يخرج من التأمل في الحالة الجزئية التي تعرضها المقالة إلى التأمل في ما يلتقي معها ويشبهها مما له طابع الشمول والعموم .

---

(١) قصة نفس : ٢٤٣ .

لك أن تجعل مقالات زكي نجيب محمود في صنفين ، صنف اعتمد في بنائه على شيء من سيرته الذاتية ، مما وقع له من حوادث أثرت في حياته وشكلتها ، فهو صنف من المقالات الصق بالذات وأقدر على الاعراب عنها ، وصنف آخر أراد الكاتب فيه أن يعالج قضية أعمّ وأشملّ فلم يدخل شيئاً من سيرته الذاتية فيه ، ومع هذا فهو لايخرج من نطاق الرؤية الشخصية .

وقد كانت المقالتان السالفتان من الصنف الاول .

اشترطزكي نجيب محمود النقمة شرطاً في المقالة الأدبية ، وكأن النفس الراضية لاتستطيع أن تكتب مقالة أدبية ، وما النقمة بالشرط عند جميع المقاليين ؛ وانما زكي نجيب محمود هو الذي لايستطيع ان يكتب إن كان راضي النفس مطمئن البال « إنه لم يكن في نشوته يجد الدافع الى الكتابة بالقوة التي كان يجده بها أيام الضيق » (١) وكلما ضاقت نفسه واشتدت عوامل الخيبة والاحباط ، وراح يسترجع الذكريات وينبش الماضي : كانت المقالة الادبية ابدع واروع وأرسخ في الفن ، وهل اقرب الى نفسه من « الظلم» إنه يكاد يصطدم به كلما فكر وحاور نفسه ، و« الظلم» وضع للاشياء في غير موضعها ، وقد كان في المقالتين السابقتين شعور به ، وان لم ينص عليه ، إنه موضوعه حيثما ادار الفكر ، فليكتب عنه وليجعل منه موضوع مقالة ، وليتعقب أصول الاحساس به في نفسه ، وليجعل عنوان المقالة « ظلم » (٢) .

تبدأ المقالة بالحكاية عن فتى في عامه الثاني عشر أو الثالث عشر في عينه اليمنى حَول ظاهر ، ولا يفارق عينيه منظار التوت ذراعاه فمال على أنفه ، فتعلم انه يحكي عن نفسه ، بدلالة المنظار وضعف العينين الذي لازمه منذ الصغر (٣) . يسأل الفتى اباه : ماالظلم ؟ ويرد الأب أين سمعتها ؟ ويجيب الفتى : « سمعت رجلاً يصيح بها في الطريق ، وهو يدفع عربة صغيرة عليها بطيخ وشمام ، وكان الشرطي من ورائه يصفعه ويركله » (٤) ، ولو لم تكن نفس الفتى مهيّأة للاحساس بالظلم ، لما استوقفتها الكلمة ولما راحت تبحث لها عن معنى ، ولعله وجد لصيحة ذلك الرجل صدى في نفسه ، وليس زيادة من دون معنى أن بدأ الكاتب بوصف الفتى إنه عليل العينين ، فلعل ضعف عينيه هذا دعاه

---

(١) قصة نفس : ١٩٥ .
(٢) قصاصات الزجاج : ٧٧ .
(٣) ينظر قصة نفس : ٩٨ .
(٤) قصاصات الزجاج : ٧٧ .

الى ان يفكر : أن من الاشياء مالم يوضع موضعه الصحيح ، فما ضرّ لو انه جعل صحيح البصر لايحتاج الى هذا المنظار وهو لما يزل حدثاً، ماضر لو جُعل سليم العينين فلم يسخر منه تلاميذ المدرسة الصغار(١) لعل هذه الافكار وأمثالها كانت تعتمل في نفسه ، فتطفو على السطح ثم ترسب في الأعماق فتشكل رؤيته للحياة ، وتزيد من نسبة القتامة فيها ،

سمع الفتى تفسير أبيه لكلمة « ظلم» : « الظلم هو أن يوضع الانسان في غير موضعه اللائق به » (٢) ، فتمتلىء نفسه بهذا المعنى ، وبهذه الكلمة ، ويمضي يكتبها في كل مكان من ارجاء البيت ، ثم يخرج بها الى الشارع فيكتبها على واجهات الدكاكين ، وعلى جدران بيوت الجيران .

ولقد جاءت «ظلم» اقرب ماتكون الى القصة ، في بدايتها وتفصيلاتها وخاتمتها ، غير انه الاقتراب فقط .

الحياة عبئها ثقيل على من اصابه في الحياة خذلان » (٣) ، هكذا بدأ كتابة « قصة نفس »، ولعل اول خذلان أصابه هو هذا البصر الضعيف ! وقد تبدى له الخذلان في حنايا نفسه ، فكلما رجع الى هذه النفس يسألها ويحاورها لم يرتد الابحديث الخيبة والندم ، حتى في يوم مولده ، بل إن هذا اليوم مدعاة لاستثارة الندم والخيبة ،

يكتب « شبكة الصياد» (٤)، ليصور ماتداعى الى ذهنه في يوم مولده ، إنه يكر راجعاً الى العام الذي أتمّ به دراسته العالية ؛ هنالك خرج مع فريق من الزملاء ابتغاء الصيد ؛ وقد اعد كل منهم شبكته كما يرتئي ، والقاها في البحر في الموضع الذي يحسبه أوفر صيداً ، وجاءته بالصيد ، وكان مختلفاً ، فقد كان منهم المغامر الذي جعل عيون شبكته قليلة لكنها واسعة ، تهمل السمك الصغير ، وتمسك الكبير ، ومنهم من خشي الخسران فجعل عيون شبكته ضيقةً ، كثيرة ، فاصطادت له صغار السمك ، وبين ذلك وهذا مراتب من الصيادين ، اما هو — زكي نجيب محمود — فقد كانت عيون شبكته اقرب الى الضيق منها الى المتوسط والسعة ، فامسكت بسمكات قليلات اقرب الى الصغر ،

---

(١) ينظر قصة نفس : ٩٨ .

(٢) قصاصات الزجاج : ٧٧ .

(٣) قصة نفس : ٥ .

(٤) قصاصات الزجاج : ٨٧ .

وكان السبب في قلة السمكات انه لم يحسن تخير موضع الصيد ، فلم يلق شبكته حيث يكثر السمك ومع ذلك فانه كلما أراد الصيد خرج الى الموضع نفسه من البحر والقى شبكته فيه ، وعاد بمثل ماعاد به أول مرة .

وهكذا يبدو محكوماً بما بدأ به ؛ لايستطيع الانفكاك منه ، والخروج عليه ،وكأنما ثمة قوة تدفعه الى ذلك الموضع القليل الصيد .

بدأت المقالة « شبكة الصياد» بحوار بينه وبين صديقته ، سألته عما شطح اليه فكره فانطلق يحدثها ويحكي لها حكاية الصيد والصيادين فكان الحوار هو الشكل الذي ادى به الكاتب مقالته .

ومهما تختلف مقالات الكاتب فانها تلتقي على خيط واحد ينتظمها من الخيبة والاحباط والشعور بالظلم .

اتسمت مقالات زكي نجيب محمود ، بروح كلاسيكي ، تجلى في الوضوح ورصانة التعبير ، والاعتدال ، والانتقال من فكرة الى أخرى انتقالاً موفقاً الا في مقالة واحدة رائعة كتبها على طريقة التداعي الحر ، على سبيل التجربة ، وقدم لها بمقدمة استشهد فيها بقول فرجينيا وو لف : « علينا ان نسجل الخواطر كما تقع في الذهن وبالترتيب الذي تقع به ، .. مهما تكن من التفكك في ظاهرها .. ان الحياة لاتتمثل في الذي يسمونه فكرةً عظيمة باكثر مما تتمثل فيما يزعمونه تافهاً حقيراً » (١)

تلك المقالة هي « عندما أطللت من النافذة » (٢) . اذ شرع يسجل ماتوارد على ذهنه من خواطر ، عندما اطلّ من النافذة ، وهي خواطر لاتجد رابطة ظاهرية بينها . لكنها لاريب تلتقي عند الجذر الذي صدرت عنه . وهو نفس الكاتب ، فتكشفها ، وتوضح مايشكل رؤيتها .

«الهوة سحيقة والأرض بعيدة ، بيني وبين الأرض سبعة طوابق ١ — ٢ — ٣ — ..٦ — ٧» ، هكذا تبدأ المقالة ، بداية تحس أن وراء كلماتها رغبة في الانتحار ، وانه لما اطل في نافذته في الطابق السابع ، ورأى الهوة والأرض البعيدة . انبثقت في ذهنه فكرة الموت ، وماهي بالفكرة الطارئة عليه ، فلقد تحدث ذات يوم عن منتحر ، ضاق بالحياة فأمسك أنفاسه وحبسها في صدره ، حتى تقطعت الأسباب بينه وبين الحياة ،

(١) قصاصات الزجاج : ١٣٢ .
(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

تحدث عن هذا الرجل قائلا إني « أكبره ، وأحبيه ، واشعر إزاءه بالضآلة والصغر لانه رأى الرأي ففعل ، واما انا فأرى ثم لا أفعل شيئاً » (١) .

خطرت في ذهنه فكرة الموت اذ رأى الهوة السحيقة ، غير انه لم يصرح بها ، فأراد طردها فانتقل من التحديق في الفراغ الى النظر الى الشرفات المتراصة فذكرته بمقصورات الاوبرا ، وقد كانت له في الاوبرا ذكرى اطلت عليه الآن : « ماكان اروع المشية التي مشيتها مع «ك» في بهو الاوبرا بباريس ، وكانت الاضواء لألاءة وزحمة الناس يفوح منها العطر ، ضاعت مني الفرصة التي سنحت لي حينئذ » .

ويحاول ان يتلهى بمراقبة سكّان العمارة ، علّه ينسى مانبه فيه الفراغُ المفتوح من رغبة دفينة بالانتحار ، وعلّه ينسى ماذكرته به الاوبرا من خيبة قديمة ماكان أغناه عنها الآن ، ولكن لايستطيع فاذا تلهى الوعي وابتعد عن مراكز الاستثارة فان اللاوعي لم يتله ، ولم يستطع أن يرى سوى الفراغ المفتوح وما أوحى به : « ١ — ٢ — ٣ ... ٦ — ٧ سبعة طوابق بيني وبين الارض ، مسافة هي الحد الفاصل بين الحياة والموت ، هي بضع ثوان قليلة كفيلة لك أن ينسدل الستار على كل شيء ، فلا عظيم ولا حقير بعدئذ ولا نجاح ولا فشل » (١).

بدأ المقالة والرغبة دفينة ، تشي بها الكلمات ، ويَنِمُّ عنها الجو ، لكنه لم يكد يمضي ، ولم يكد سيل الخواطر ينهمر على ذهنه ، وكلها مما يدعو تلك الرغبة الدفينة ويُمكن لهـا ، حتى صرح بها ، ويتصل التداعي وتبقى فكرة الانتحار خلف الخواطر المتداعية ، وقد طفت على السطح ست مرات ، وهي فكرة نشأت اذ اعتقد أن الحياة عبء ثقيل ، ولعل هذه المقالة تكشف سبب اعتقاده ذاك ، فقد توالت الخواطر في ذهنه يأخذ بعضها برقاب بعض ، واذا بها في جملتها أحاسيس تدور في النفس ، تبدأ منها ، وترجع اليها ، ولاتكاد تجد لها منفذاً الى عالم الفعل ، والحياة احساس يعقبه فعل يحققه ، فان انفصل الفعل عن الاحساس ، أحس المرء بالخيبة والاحباط والخذلان ، ورأى الحياة عبئاً ثقيلاً . لقد بدا أن أحاسيسه تدور على نفسها وبأكل بعضها بعضاً . يقول: « ذهبت الى الشاطىء مع الذاهبين ، فسرعان مابرزت من اهابي شخصية ساعي البريد : أقف على الشاطىء ولا

(١) قصة نفس : ٨ .

(٢) قصاصات الزجاج : ١٣٤ .

أغوص ، الناس يمرحون في الماء ويلعبون ، والاطفال يتقلبون مع الموج ويضحكون ، والنساء كعرائس الماء .. وليس لي من كل ذلك شيء » (١) .

ولك أن تفسر ذلك بما لقيه من كف ً » (*) في الطفولة ، ويستقيم لك التفسير اذا جمعت ماتناثر في مقالات الكاتب عن أبيه وعلاقته معه ، هنالك تعلم أن الاب لم يدع لابنه حرية الفعل والحركة ، وانما فرض عليه ضروباً من التقييد . « كنت اذا تصرفت ، تصرف الاطفال وانا طفل فعلاً ، نهرني ، لأني في رأيه ينبغي أن أصنع صنيع الرجال واذا تصرفت تصرف الرجال وأنا رجل فعلاً غضب مني قائلاً لاتنسى أنك في عيني طفل وستظل طفلاً » (٢) . وحيثما يرد ذكر أبيه في مقالاته يكن مقروناً بالاحساس بالقيد والاضطهاد . فلا غرو أن ينشأ بعد ذلك وهو لايدري كيف يوجد الانسجام بين الاحساس والفعل ، فيبقى الاحساس يدور على نفسه فيحس بالخيبة والخذلان ويعتقد أن الحياة عبء .

كشفت مقالة « عندما اطللت من النافذة » طوايا نفس الكاتب وقد وفق في ما اختاره لها من شكل جديد لم يسبق له ان كتب به ، ولم يشفعه بمثله ، وليته فعل ، فأنه نمط جديد إن كانت له نماذج في الرواية فان المقالة الأدبية لم تألفه ، ولاتخفى قدرته التعبيرية عما تنطوي عليه النفس ، ويسجل للكاتب أن توارد الخواطر كان تلقائياً ، بعيداً عن الافتعال .

تلك نماذج من مقالات الكاتب التي سرب فيها بعضاً من سيرته الذاتية ، فبدت ألصق بالذات وأنصع تعبيراً عنها ،وبقي أن نقف عند نماذج من الضرب الآخر الذي لم يعتمد في بنائه على شيء من حوادث سيرته الذاتية . وانما اراد أن يعالج قضية اعم واشمل ، ومع ذلك فأنه لم يفتقد الرؤية الشخصية في كتابتها .

تصور مقالة « شيطان الجرذ » (٣)صراعاً بين مبدئين ، الاول يدعو الى القناعة والخمول ، ابتغاء السلامة واتقاء الشر ، والآخر يدعو الى النشاط والحركة والفعل ، وان كان مع ذلك الخطر ، لان الحياة القوية النشيطة ، مع الخطر ، خير من الحياة المستكنة القانعة مع السلامة .

---

(١) قصة نفس : ٢٠١ .

(*) الكف : عملية نفسية تنشأ عن كثرة النواهي والممنوعات في الطفولة ، فينشأ الطفل حبيس ذاته ، لا يكاد يخرج احاسيسه إلى ميدان التحقيق .

(٢) قصاصات الزجاج : ١٢٨ ، وتنظر : ١٣٩ .

(٣) جنة العبيط : ٢٣ .

غير ان زكي نجيب محمود لم يعرض الصراع بين هذين المبدئين هذا العرض الفكري، ولو فعل لكانت مقالته تعليمية غايتها اداء فكرة ، وعرض مبدأ ، بل عرض الصراع مجسداً ، عرضه على هيئة حكاية تحكي عن جرذ صغير وأمه ، كان الجرذ يريد الحركة والنشاط والسعي ، وكانت أمه تخشى سطوة السنور ، ان يفتك به ، وقد بلغت به أن جعلته يخمد ويهجع ويقنع غير أن شيطانه يأتي اليه مزيناً له الحياة القوية النشيطة ، فيمتنع عليه ، فيقول له الشيطان : ماجدوى حياة خاملة مهما طالت ، بل ماقيمة الحياة من غير هذه الأخطار ، إنها هي التي تجعل للحياة طعماً ومتعة ، ويستجيب الجرذ لنداء شيطانه ، ويخرج الى النشاط والسعي ، غير أنه ماكان له أن ينجو من مخلب السنور ، فيهوي عليه ، وتنطلق من فمه صرخة وهو على شفا الموت « للموتُ بعد نعيم الغيش أشهى من الحياة في ظلمة الجحور »

والمغزى جلي واضح فقد كنى عن الانسان تتنازعه قوتان : قوة تدفعه الى الحياة مهما حفت بها من مخاطر ، وقوة تريه السلامة والقناعة خيراً من المخاطرة .

ويلاحظ ان الكاتب ينتصر للحياة الخصبة القوية ، مهما حفّ بها من خطر .

ولابد ان يسجل للكاتب مرة اخرى أنه لم يعرض فكرته عارية وانما كساها فأحسن كسوتها ، ويبدو أن الفكرة عرضت أولاً : الحياة ، وهل تكون مع الاستكانة والقناعة ، ومعهما السلامة ، أو تكون مع النشاط والاقدام ومعهما المخاطرة ؟ عرضت الفكرة هكذا في ذهنه ، ولو أراد ان يكتب مقالة تعليمية لجمع الحجج والادلة التي تؤازر كلتا الفكرتين لكنه يريد ان يكتب أدباً ، اذن فليكسُ هذه العظام (الفكرة) لحماً وليُجر في عروقها الدم وليصبها في حكاية الجرذ الصغير وامه .

تقرأ مقالة « شيطان الجرذ » فتقول ان لها نسباً في « كليلة ودمنة » يتضح في هذه الرمزية ، التي تجعل من الحيوان كنايةً عن الانسان ، ويتضح هذه الحكمة التي انتهت بها ، فلقد كانت حكايات « كليلة ودمنة » تختتم بحكمة ، تحس ان الحكاية كتبت لأجلها ، وهكذا أنت مع « شيطان الجرذ » . هو نسب يسجل للكاتب فضيلة حسن الانتفاع بالتراث .

هي مقالة تصطنع الرمز لتدعو الانسان الى حياة خصبة قوية وإن شابتها المخاطر .
ينظر الكاتب الى مجتمعه فيراه فئات ، بعضها يعلو ، وبعضها يسفل وبعضها يتوسط بين ذاك وهذا . ثم ينظر في موجبات العلو فيراها اشياء عارضة لاتمس الجوهر

ولاتصور القيمة الحقيقية للانسان ، فيتهيأ له مبدأ ، لو سار الناس عليه لنال كل حقه ، ذلك أن يعلو الانسان في سلّم المجتمع اذا كان راجح العقل ، واسع المعرفة ، حكيماً ، أي أن يجعل من العقل معياراً ، لانه الجوهر الذي ينبغي أن يتمايز به البشر . وتلك افكار أقرب الى الفلسفة إن لم تكن منها ، شغلت الفلاسفة والمفكرين على مدى قرون من الزمن وكل كان له معيار يحتكم اليه في تقويم البشر ، فاذا اراد زكي نجيب محمود أن يعالج هذه الافكار ، وجب عليه ان ينظر اليها في سياقها التأريخي ، وان ينقل من الافكار السابقة الى اللاحقة ، وان يرى استنارة المتأخر بالمتقدم لكنه هنا لايريد ان يكتب بحثاً في الفلسفة أو علم الاجتماع ، وانما يروم أن ينشيء أدباً ، فليتخير قالباً يضع فيه هذه الافكار ويجعله معبراً عنها ، وليكتب مقالة « ثورة في خزانة الكتب » (١) .

يحكي فيها أن له خزانة كتب لها ثلاثة رفوف رصت فيها كتبه رصاً يقع بين الفوضى والنظام . نام ذات ليلة بعد يوم مليء بالعمل والعناء ، وسبح في عالم الرؤى ، فرأى نفسه حاكماً في دولة يصرّف أمور شعبها ، ولم تكن تلك الدولة الاخزانة كتبه برفوفها الثلاثة ، ولم يكن شعبها سوى تلك الكتب المرصوصة في الرفوف الثلاثة، نظر في احوال شعبه فساءه مارأى ، رأى الفئة السفلى تكدح وتشقى ، فتذهب ثمار الكدح والشقاء الى الفئة العليا تتمتع بها ، وهي فئة تكاد لاتعمل ، فأقسم أن يقيم العدل ؛ واولى الخطوات أن يعرف موجبات علو الفئة العليا ، فارتقى الى الطابق الأعلى واخذ يسأل من فيه واحداً واحداً ؛ ماصنع حتى جاز له أن يصعد هذا المرتقى ؟ ، فاجابه اولهم إن اسمه ذو رنين قوي اذا نطق به ، وهو مكتوب بخط ضخم عريض ، وأجاب آخر ان جواز صعوده هو أن جناحيه وماتدلى على صدره من اوراق صنعت كلها من مادة جيدة مصقولة . واجاب ثالث : انه مطبوع في بلاد الانكليز ؛ وهكذا ... كلهم ارتقى بسبب لاينبغي أن يبيح الارتقاء ، عند ذلك عقد العزم على أن تسود في الدولة ارستقراطية العقل مكان ارستقراطية المال وغير المال من الاعراض . فرفع من رجحت عقولهم الى الطابق الاعلى ، وحشر من خوت عقولهم في الطابق الاسفل ووضع اصحاب العاطفة من شعراء وادباء في الطابق الاوسط ، ثم اطمأن انه اقام العدل وانزل الناس منازلهم غير ان الاطمئنان لم يطل ، فقد سمع ضجةً وصياحاً في ارجاء الدولة ، ثم علم ان من حشرهم في الطابق الاسفل ثاروا بمن اسكنهم الطابق الاعلى وانزلوهم مرغمين الى الدرك الاسفل ، فيفسد اصلاحه ويعزي نفسه قائلاً : « لم يأت بعدُ أوان الاصلاح لأمتي ،

(١) جنة العبيط : ٣٠ .

فلا بد ان تنقضي قرون اخرى يعلو فيها اصحاب الظاهر البراق ويسفل اصحاب الحق المبين » (١) .

لقد ألبس الكاتب افكاره ثوباً رمزياً ، أكسبها الطرافة والجدة . وجعلها أقدر على الانتقاد والسخرية . واذ تذكر « الرمزية» هنا فانها لاترد بما ينطوي عليه « المذهب الرمزي» الحديث من معنى ؛ وانما هي تأتي وصفاً لهذه المقالة وللمقالة السابقة كما توصف بها حكايات «كليلة ودمنة» .

لقد امتزج الحلم بالواقع ، بل إن الكاتب اتخذ من الحلم طريقة في التعبير عن الواقع فألبس الكتب ثياب الناس ، وخلع عليها صفاتهم ؛ وليس لك أن تنكر عليه ، فلقد جرى ذلك في الحلم ؛ ولم الافكار ؟ وهو لم يرد أن يتحدث عن الكتب الابقدر ماارتدت من ثياب الناس .

المقالة عند زكي نجيب محمود ناقدة؛ساخرة ، غايتها أن تنبه على نقص وتدل على فساد، ابتغاء الاصلاح،ارتقاء بالحياة نحو الأسمى والافضل؛ولقد توجه بمقالته«ثورة في خزانة الكتب» نحو المجتمع ينتقد المعايير التي بمقتضاها يعلو بعض الناس ويسفل آخرون . ثم نظر في ناحية أخرى من نواحي المجتمع ، هي الناحية الفكرية ، فوجد جدالا وخصاماً وافكاراً تعرض ثم تهدم ؛ وكل ذلك ليس مما يمس حياة الناس ، وانما هو قضايا مفتعلة رأى ذلك فكتب مقالة ساخرة أسماها « بيضة الفيل» (٢) تبدأ « قال الشيخ : الفيلة تلد ولاتبيض — والمشكلة المراد حلها هي هذه : لو كانت الفيلة تبيض فماذا يكون لون بيضها ؟ . » ويختلف العلماء ويدلي كل برأيه وبما يعضده من أدلة ، وينبري له الآخرون ناقضين عليه ماذهب اليه ، وهكذا تتشعب القضية ، وهي مفتعلة الأصل ، لاتجيب عن مشكلة من مشكلات الحياة .

ولا تخفى السخرية في هذه المقالة فانها في كل كلمة من كلمات . والسخرية سلاح فعّال في النقد .

وينتقد نظام التعليم الذي يقوم على العناية بالشكل الخارجي ، وينسى المتعلم نفسه ، فيكتب «الببغاء والقفص» (٣) ويتخذ اسلوب الكتابة والرمز ، اداة في التعبير ، فيحكي

---

(١) جنة العبيط : ٣٦ .
(٢) جنة العبيط : ٦٣ .
(٣) قصاصات الزجاج : ١٦٤ .

عن شخص اسمه عارف باشا عنده ببغاء أراد أن يعلمه النطق ، فأحضر العلماء ، وجمع الدفاتر والكتب والاقلام ، وأعدّ القصص ، ثم عهد بالببغاء الى العلماء ، وعبر زمن ، تذكر بعده ببغاءه ، فشدّ الرحال الى حيث يتعلم ، وهنالك استقبله القائمون على شؤون تعليم الببغاء ، فحدثوه عن كل شيء مما يتصل به ، من طعام الى شراب ، الى وصف للقفص ، وما اشبه ذلك ، فسرّ عارف باشا ورجع الى دياره ، وهناك سأله سائل ؟ كم تعلم الببغاء من فصاحة اللسان ؟ عندئذ تذكر عارف باشا أنه نسي الببغاء ولم يسأل عن تعليمه .

مقالة ساخرة كنّت بالببغاء عن التلميذ وبعارف باشا عن رجال المعارف وكأنه رأى التعليم في بلده يعنى بالمظهر الخارجي ، الشكلي ، وينسى جوهر العملية التعليمية .

ويرى الى دولة تدول وأخرى تقوم، فيرجو الناس من هذه النقلة خيراً، لكنه لايرى نقلةً ولاتغيراً، فليس عند النظام الجديد من الخير أكثر مماعند القديم، وما هو الاتبدل شكلي مظهري. رأى ذلك فأراد أن ينسج منه مقالة أدبية، فكانت «خيوط العنكبوت»(١) . بدأها أن صديقته طلبت اليه أن يكتب، ولم يكن لديه شيء يكتبه، فلما اقبل المساء خرج الى ناحية الهرم الكبير، وهناك رأى عجباً، رأى القمر عنكبوتاً، ورأى أشعته الفضية خيوط عنكبوت ،ورأى زمراً من الذباب تصطرع لكي تتسلق هذه الخيوط الفضية، فيقتل القوي منها الضعيف حتى ينفسح أمامه الدرب، والقمر العنكبوت هنالك ، يتلقف مايصله من زمر الذباب هذه .ثم كأنه أفاق من حلم فاذا لاعنكبوت ولا ذباب،وانما هو القمر الفضي وحده يحوط الفضاء بأشعته، عندئذ قفل راجعاً ،وشرع يكتب مارأى لكي يحمله الى صديقته ويقرأه عليها وماكاد يفرغ من قراءة ماكتب، حتى ضحكت ساخرةً وقالت: ماهذا؟ ان حديث العنكبوت والذباب، قديم؛ سمعته منك قبل الآن.

رأى الحال لم تتبدل وأن الجديد كالقديم ،وأن الناس لم يتغير من أمرهم شيء،وهذا رأي قد يشاركه فيه غيره من الناس ،وقد يكون رأياً مصيباً وقد لايكون ولايعنينا من هذا شيء، وانما تعنينا الطريقة التي عبّر بها عن رأيه ذاك، فخلع لمسةً شخصيةً على ماهو مشاع مشترك ،وجعل الرأي الذي قد يلتقي عليه مع غيره من النـاس ، ادباً يحمل سماته الخاصة، خلق جوّاً أليفاً اذ بدأ بالحديث عن صديقته الفاتنة، وما لعينيها من سلطان عليه. هو غير متعجل لايريد أن يلقي اليك برأيه القاءً مباشراً ،قبل أن يمهد لذلك، ويرسم الاطار ويضع الملامح وينتفع من الالوان .

(١) قاصات الزجاج : ٢٢٠ .

تقول هذا لانك تعلم أنه ماكتب «المقالة» الاليتنقد مارآه حرياً بالنقد. لكنه لايريد أن يأتي هذا النقد صحفياً مباشراً. وقد اعتدنا من الكاتب أن يتخذ من الرمز أداة في التعبير ، فأين الرمز الآن منه؟ وأين يجده؟ وليس الرمز والكتابة بالأمر السهل الميسّر. إنه يرى الناس يصطرعون، فيهلك بعضهم بعضاً، في سبيل مطامع ستبتلعهم جميعاً. فحالهم في النظام الجديد كحالهم في النظام القديم. وتلك حالة بعيدة عن الانسانية تستدعي من الكاتب التنبيه والنقد، شرط أن يكون التنبيه والنقد أدباً، يحقق شرط الجمال ،ويكون أبلغ في التأثير والتنبيه. ولايستعصي الرمز والكتابة على الكاتب ، فها هو ذا يرى القمر المضيء، ويرى أشعته منسابة ، فيصعد بصره مع الاشعة حتى يبلغ القمر ، ثم ينزله حتى يلامس الارض ؛ولعله أعاد ذلك مرة أخرى، فيلمع في ذهنه أن القمر عنكبوت وأن اشعته الخيوط التي يصطاد بها فريسته ، وليس صعباً بعد ذلك أن يختلق الذباب، ويجعله يتصارع . فتكتمل الصورة ويكتمل الرمز. والدلالة واضحة .

— لكنها تدل على تهالك الناس على المطامع ، ولاتدل على أن الحال الجديدة كالقديمة؟ والكاتب أمهر في فنه من أن يخبرك أن حال الذباب مع العنكبوت هي هي في القديم والجديد ، بل يترك الامر لصديقته تخبره أن حديثه ذاك قديم قد سمعته منه قبل الآن، فتعلم أنت أن مااقتضى منه ذلك الحديث قديماً اقتضاه حديثاً .

إنها مقالة انطوت على نقد؛ ابتعد عن الجلبة والصياح ،واقترب من الهمس، اتخذت من الرمز اداة تعبيرية ،فاتسع مداها وعمق..

تلك نماذج من مقالات زكي نجيب محمود تجلى فن المقالة الأدبية لديه وترسم اتجاهاتها مضموناً وشكلاً ، ولا يخرج ماتبقى من مقالاته عن دائرة هذه النماذج .

لقد انطلقت مقالات الكاتب من احساسه أن في ما حوله نقصاً ، فأراد أن يتمه في سبيل حياة أرقى ، رأى الطغيان ينشأ في البيت ، فيستبد الأب بأسرته ، ولا تكون كلمة إلاّ «لَهُ»؛ ورآه ينتقل الى المجتمع فيستبد القوي بالضعيف ، ويكاد يمحوه ، فتختل المعايير ، ويعلو من لايستحق العلو . رأى ذلك وما اشبهه مما يتصل به ، وباشر منذ طفولته فأحس المرارة والاسى ، ودام الاحساس حتى رميت المرارة وما ينتسب اليها في قاع النفس ، فسدّت منافذ الفرح ، حتى كادت نفسه تخلو منه ، والا لمَ لانجد مقالة واحدة في هذه المقالات الكثيرة تصور الفرح وتدل عليه ؟ ونقول إنه اشترط أن تكون المقالة ناقمةً ساخطة ؛ واقول إنه لو وجد في نفسه غير النقمة والسخط لصوره ، ولجعل

الفرح شرطاً آخر من شروطها . لكنه لم يجد . ولا لوم عليه فلقد كان صادقاً في التعبير لايتحدث عما لم يألف بل إن نفسه لكثرة ماانطوت على ما يحزن ويثير السخط والنقمة.

وألفت التعبير عن ذلك ، لاتستجيب اذا مادعاها داعٍ من دواعي الفرح ولاتحسن التعبير عنه ، إنه غريب عنها ، وطارىء سرعان ما يفارق .

لكنه إن فاته أن يفرح ، وأن يطرب بالحياة ولها ، لم يفته أن يقارع ما يُلقى في سبيل الحياة من عوائق ، وحواجز تمنع تدفقها . يحارب ذلك في نفسه ليتحرر مما رسب فيها ، ويدعو الآخرين لكي يحاربوه

كتب زكي نجيب محمود مقالاته الادبية وهو على وعيٍ تام بفن المقالة وما ينبغي له ، فلم يجرّ المضمون لديه على الشكل ، ولم يختر أقصر الطرق لتأدية ما يريد ، وانما كان يعنى بالفن ويعطيه حقه . تبدأ «المقالة» في الغالب بحكاية مما وقع له أو مما تخيل ، يجعلها مدخلاً ، فاذا استوفاها انتقل الى فكرة يفرعها على أصل الحكاية . وكأنه يريد أن يصوغ ما عبّرت عنه الحكاية صياغةً مباشرة . ثم الى فكرة أخرى تختلف عن السابقة وتلتقي معها في الغاية التي من اجلها كتبت المقالة . وهو لايأتي بالحكاية في صدر المقالة عبثاً وانما يأتي بها ويحملها معنى الكتابة عما يريد . ويقصد اليه وقد تقترب المقالة من القصة وقد يشتد القرب ، غير أنها لاتكونها .

وربما خلت المقالة من الحكاية — وهو القليل — واقتربت من التأمل ، والتفكير المباشر ، الذي لايكتفي عن نفسه بالرمز .

ويبقى بناء «المقالة» لديه كلاسيكياً رصيناً متزناً ، تحس انه يجري على العقل واحكامه أكثر مما ينساق مع نزوات العاطفة ، على الرغم من قوله ان «المقالة» لاينبغي أن تجري على نسق من المنطق، هذا في الأعم الأغلب؛ والا فانه قد خالفه وبنى احدى مقالاته بناءاً حديثاً مفيداً من تيار الوعي في الرواية . لكنه لم يكرر المحاولة ، وكأنه لم يرتح اليها . وليته كررها فانها دم جديد سينعش فن المقالة .

ولا يدع الكاتب «المقالة» تنتهي دون أن يضع في خاتمتها ماكتبت من أجله مركزاً ،أو مايشير اليه ، فيلمّ بذلك ماتشتت منها ، ويهدي القارىء الى هدفها .

ذلك بناء «المقالة» لدى زكي نجيب محمود . وهو بناء لاينقصه الاحكام ، ولا يبتعد كثيراً عن النسق المنطقي ، وليس كما اشترط الكاتب يوماً: «أن تكون أقرب الى قطعة مشعثة من الاحراش الحوشية منها الى الحديقة المنسقة المنظمة» (١) .

---

(١) جنة العبيط : ٦ .

اما عبارته فانها فصيحة ، بليغة ، تتنزه عن العامية ، تُبين عما يريد أجلى بيان ، عليها مسحة كلاسيكية فلا تخرج عما ألفت العربية من استعارة وتشبيه ، ولا تُدخل عليها مالم تعتد من تركيب .

ثم انها سمحة لا التواء فيها ولا تكلف . ولك أن تسميها لغة العقل المتزن الرصين ، لا لغة العاطفة الثائرة ، فمهما ثارت نفس الكاتب واضطرب وجدانه ، بقيت لغته متزنةً وقوراً .

وتسأل : أي مقالات الكاتب أبلغ ، والصق بروح الفن ، وادعى ان تستعاد قراءتها ؟ ولا تخطيء اذا اجبت انها تلك المقالات التي غذّاها بمادة من حياته ، واقامها على استذكاراته ، فانها إن بدت أشدّ مرارةً وأسى فانها أعلى في مدارج الفن .



المصادر

- الأدب وفنونه ، الدكتور محمد مندور ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ط٢ ، د . ت .
- جنة العبيط ، الدكتور زكي نجيب محمود ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ، ١٩٤٧ .
- رواد المقالة الادبية في الادب العراقي الحديث ، عبد الجبار داود البصري – وزارة الاعلام ، بغداد ، ١٩٧٥ .
- فن المقالة ، الدكتور محمد يوسف نجم ، دار الثقافة ، بيروت – لبنان ، د.ت .
- قصاصات الزجاج ، الدكتور زكي نجيب محمود ، دار الشروق ، ط١ ، ١٩٧٤ .
- قصة الادب في العالم ، احمد امين وزكي نجيب محمود ،القاهرة ،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٥ .
- قصة نفس ، الدكتور زكي نجيب محمود ، دار المعارف ، لبنان ، د.ت .
- محاضرات عن فن المقالة الادبية ، الدكتور محمد عوض محمد ، مصر ، ١٩٥٩ ، معهد الدراسات العربية العالية .
- مقدمة في النقد الادبي ، الدكتور علي جواد الطاهر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط١ ، ١٩٧٩ .
- الموسوعة الفلسفية المختصرة ، نقلها عن الانجليزية فؤاد كامل ، جلال العشري ، عبد الرشيد الصادق ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٣ .
- النظرات ، المنفلوطي ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ط١٦ ، ١٩٥٧ .
- وراء الافق الادبي ، الدكتور علي جواد الطاهر ، وزارة الاعلام ، بغداد سنة ١٩٧٧ .
- يسألونك ، عباس محمود العقاد ، مطبعة مصر ، القاهرة سنة ١٩٤٦ .



معركة اجنادين واثرها في فتوح الشام

د. صلاح الدين امين طه
كلية الآداب / جامعة الموصل

تعد حركة الفتوح وحروب التحرير العربية جزءاً من الخطة العامة للدولة العربية الاسلامية التي تهدف الى تحرير الامة العربية من السيطرة الاجنبية متمثلة في الدولتين الساسانية والبيزنطينية ثم العمل على نشر الاسلام بين القبائل العربية المختلفة التي تسكن خارج الجزيرة العربية .

وقد تجسدت هذه السياسة بشكل عملي بعد ان تمكنت المدينة من بسط نفوذها على سائر الجزيرة واعاد العرب المسلمون وحدتهم السياسية والدينية، فالاوضاع الجديدة التي برزت بعد القضاء على حركة الردة اضطرت ابا بكر الصديق (رض) الى اشغال الجيش العربي الاسلامي بالقتال، والتوجه الى الجهاد في سبيل الله ولاعلاء كلمته حسب ما وعد به المسلمين يوم بايعوه بالخلافة(١) وكذلك تنفيذاً لرغبة العربي من حب للجندية فهو مقاتل

(١) الدكتور عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ص ٤٥٧ .

من طراز خاص لايعرف لعطائه حدود وان الصحراء بالنسبة له مدرسة قتال متطورة خرجت العديد من القادة والمقاتلين الذين لعبوا دوراً في حركة التحرر العربية . بدأت حركة التحرر العربية بعد تصفية حركات الردة ،اذ كتب ابو بكر الصديق (رض) الى خالد بن الوليد يأمره بالتوجه الى العراق لتحريره،وامره ان يبدأ بفرج السند والهندوهي الابلة (١) واعد له مايحتاج من المقاتلين . كما أنفذ أبو بكر (رض) الجيوش العربية الاسلامية نحو الشمال بعد ان كتب الى اهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم فسارع اليه الناس من بين محتسب وطامع وأتوا المدينة من كل اوب (٢) وبعد اجتماعهم قسمهم ابو بكر الى ثلاثة الوية جعل على رأس كل لواء احد كبار الصحابة آنذاك وعين لكل قائد منطقة سماها له لتحريرها،كما حدد له طريقة الى الشام.،

وهؤلاء القادة هم:

١ — عمرو بن العاص السهمي ووجهته فلسطين.
٢ — يزيد بن أبي سفيان ووجهته دمشق
٣ — شرحبيل بن حسنة ووجهته وادي الاردن

وقد أمرهم ابو بكر (رض) ان يساعد بعضهم بعضاً ويجتمعوا عند الاخطار وأن يكونوا تحت أمرة أبي عبيدة عند الاجتماع(٣).

ولاشك ان العرب المسلمين عنوا بالشام كثيراً، فنجد ان الرسول (ص) ارسل حملة الى تبوك ،ثم اردفها بحملة ثانية بقيادة زيد بن حارثة ثم جهز حملة ثالثة بقيادة اسامة ابن زيد الاانه توفي قبل انفاذها، وقد تحمل الخليفة الجديد عبء ارسالها.

---

(١) الطبري : التاريخ ، ١ / ٢٠١٦ ، انظر ايضا احمد عادل كمال : الطريق الى المدائن ، ص ٢٠٦ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٢٨ ، انظر ايضا قدامة : الخراج وصنعة الكتابة ، ص ٢٨٤ ، د. محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية ، ص ٥١ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، انظر ايضا : الطبري ، التاريخ ١ / ٢٠٧٩ . قدامة : الخراج وصنعة الكتابة ، ٢٨٤ — ٢٨٥ .
الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ١ / ٢٢٤ .
الدكتور محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية عن الدولة العربية الاسلامية ، ص ٤٢ .

لقد استعد ابو بكر الصديق لحركة الفتوح وهيأ لهاكل وسائل نجاحها فيما يتعلق بالاعدادات البشرية والتجهيزات العسكرية والمواد التموينية،ولبى العرب المسلمون نداء الجهاد وجاؤوا من كل مكان فكانوا نواة الجيوش العربية التي خرجت للجهاد.

ان توجيه ابي بكر الصديق (رض) الجيوش العربية الاسلامية لتحرير العراق والشام في آن واحد يقدم دليلاً على قوة العرب والقيادة الفذة التي تمتع بها هذا الخليفة والاستقرار الذي ساد الجزيرة ،وكانت استجابة العرب المسلمين خير معين للقضاء على الوجود الاجنبي في الارض العربية بتوجيه ضربة قاتلة الى الدولتين الكبيرتين، من خلال معارك فاصلة خاضها العرب المسلمون مع اعدائهم وسجلوا فيها اروع الانتصارات، ومن هذه المعارك معركة اجنادين التي نحن بصددها.

١ – موقع اجنادين :

لم يحدد الجغرافيون العرب موقع اجنادين ، ولم يقدموا تفاصيل عنه وكل ماأورده ياقوت انه موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين (١) كما يذكر (خليفة) انه يقع بين الرملة وبين جبرين (٢).

ويبدو ان سبب عدم تقديم الجغرافيين العرب معلومات عنه يعود اما الى ان هذا الموضع غير موجود، أوانه يمثل مكاناً صغيراً ليس له اهمية تذكر ، وسبب ذكره يرجع الى اهمية المعركة التي وقعت فيه. ويؤيد كليتاني في حولياته الرأي الاول عندما يتكلم عن اجنادين ويقول عنه انه اسم محرف كما حرف النساخ كلمة ياقوصة الى واقوصة ،ويذكر انه يوجد في طرف ميدان المعركة موقعان يسميان الجنابة وتثنى على الجنابتين وان هذه الكلمة اذا كتبت بصورة المثنى بغير علامات فهي تشبه كثيراً كلمة اجنادين والمفهوم انه يعني قوله هذا ان اسم اجنادين ماهو الامحرف عن اسم الجنابتين (٣).

ومن المعلوم ان المؤرخين العرب اطلقوا على المكان الذي وقعت فيه المعركة بينهم وبين الروم اسم اجنادين فهل يفهم منهمانهم يعنون به المكان الذي اجتمع فيه جند المسلمين لصد هجمات البيزنطين، مع العلم ان الدكتور طه الهاشمي يرجح ذلك (٤).

---

(١) معجم البلدان : ١ / ١٣٦ ، انظر ايضا الحميري ، الروض المعطار ، ص ١٢ .
(٢) التاريخ : ٨٧٩ ، انظر ايضا الطبري : ١ / ٢١٢٥ ، ابن الاثير : الكامل ٢ / ٤١٧ ، فيصل : حركة الفتح الاسلامي ، ص ٣٨ ، بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٩٤ .
(٣) كما ورد عند الهاشمي : موقعة اجنادين ، ٢ / .
(٤) د. طه الهاشمي ، موقعة اجنادين ، الزمان والمكان ، ٢ / ٨٧ .

ولقد عرف جغرافيو القرن الرابع الهجري موقع اجنادين ، فالمسعودي يذكر ان ناتل ابن عيسى الجذامي التقى مع عبد الملك بن مروان في اجنادين وقتل ناتل في هذه المعركة(١) .

ومن خلال استعراض المعلومات المتوفرة عن موقع اجنادين يتبين انه موضع يقع جنوب فلسطين . ويتأكد ذلك من خلال الاشارة التي اوردها الشاعر زياد بن حنظلة عن معركة اجنادين بعد هرب فلول الروم الى القدس (المسجد الاقصى) اذ قال :

ونحن تركنا ارطبون مطيرا   الى المسجد الاقصى وفيه حسور
عشية اجنادين لما تتابعوا   وقامت عليهم بالعراء نسور

ومن خلال شعر زياد يمكن القول ان ميدان القتال كان يقع غربي المدينة او الى الجنوب الغربي منها أي جنوب فلسطين وليس الى شمالها(٢) والراجح ان اختيار هذا الموقع يعود لاهميته الستراتيجية اذ انه يعد مفترق طرق يؤدي الى مدينة الرملة وبيت جبرين وبيت المقدس ، وقد ذكر ابن حوقل ان المسافة مابين مدينة الرملة وبيت المقدس مسافة يوم واحد(٣) وبين قيسارية والرملة مرحلة واحدة(٤) ويمكن من خلال هذا المكان التوجه الى معظم مدن فلسطين .

سبب المعركة :

لاشك ان عمرو بن العاص كان اول قائد عربي من بين القادة الذين وجههم ابو بكر الصديق (رض) الى الشام ، وقد حدد له الطريق الساحلي منفذاً له الى هدفه النهائي لتحرير فلسطين ، وكان الطريق الذي سلكه عمرو بن العاص يعد من اقرب الطرق الموصلة الى فلسطين ، ولهذا فأنه يعد اول قائد اصطدم مع قوات الروم المرابطة في مدن فلسطين خاصة مدينة غزة التي حاصرها . وكانت للروم قواعد عسكرية في مدن قيسارية وغزة وبيت المقدس والرملة وغيرها . ويبدو ان هرقل كان يملك معلومات كاملة عن توجه القوات العربية الى الشام أو هدف هذه القوات والاماكن المتوجهة اليها من خلال العرب المتنصرة من سكان الشام فتقدم الى مدينة حمص واتخذها مركزاً لعملياته العسكرية مستفيداً من موقعها في وسط الشام وقربها من ساحة العمليات العسكرية ولا بد ان هرقل سيتخذ

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ، ٢ / ٩٨ .
(٢) الهاشمي : موقعة اجنادين ، ٢ / ٩٤ .
(٣) ابن حوقل : صورة الارض ، ١ / ١٧١ .
(٤) ن . م .

الاجراءات الحاسمة لايقاف تقدم العرب واخراجهم من الشام خاصة بعد ان خاضوا معارك محلية لم يقدم المؤرخون العرب تفاصيل دقيقة عنها ، في وادي عربة وبيسان ودائن وغيرها (١) ، حقق العرب في هذه المعارك انتصارات ساحقة على القوات البيزنطية مما جعلها تهرب من امام العرب . وبهذا فقد جمع هرقل جيشاً من اهل الجزيرة والشام وآسيا الصغرى واعطى قيادته الى اخيه تيودور (تذارى) وامره ان يتوجه لملاقاة العرب واخراجهم من الشام (٢) ولا شك ان سبب تعيين تيودور قائداً لهذا الجيش يعود الى المكانة الكبيرة التي كان يتحلى بها باعتبار انه اخو الامبراطور ثم ان الاندفاع والاخلاص الذي كان يتمتع به للدولة كان سبباً في اختياره ثم اخفاقه في هذه المهمة سيكون اثره كبيراً لانه جزء من الاسرة التي تحكم هذه الامبراطورية. وقد بلغ عدد قواته حوالي مئة الف مقاتل(٣) اما بالنسبة الى استعدادات العرب فهي مرسومة سابقاً، اذ ان توجيه الخليفة لأمرائه في مثل هذه الحالات هي اجتماع الجيوش العربية في مكان واحد ومهاجمة الاعداء بقوة موحدة وليست متفرقة . ولا شك ان اخبار استعدادات هرقل العسكرية قد وصلت الى عمرو بن العاص، لهذا فقد ارسل الى قادة الالوية العربية بالشام يأمرهم بالاجتماع . كما ارسل الى الخليفة ابي بكر الصديق (رض) يطلب منه الامدادات العاجلة لدعم قوته ، وقد جاءته قوات ابو عبيدة بن الجراح ويزيد بن ابي سفيان وشرحبيل بن حسنة ، حتى اصبح عدد قواته لاتزيد بأي حال على (٢٧) الف مقاتل (٤) .

ولما وصلت رسالة عمرو بن العاص الى ابي بكر الصديق (وكانت تحوي معلومات عن كثرة عدد مقاتلي الروم وتنوع اسلحتهم وسعة ارضهم ونجدة مقاتليهم واندفاعهم) كتب الى خالد بن الوليد المخزومي وهو بالعراق يأمره بالمسير الى الشام (٥) وأمره أن يدع

(١) انظر تفاصيل ذلك في البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٣٠ ، الطبري : التاريخ ، ١ / ١٠٨٦ ، ابن الاثير : الكامل ، ٢ / ٤٠٥ – ٤٠٦ .

(٢) الطبري : التاريخ ، ١ / ٢١٢٥ ، انظر ايضا : ابن كثير : البداية والنهاية ، ٧ / ٧ . الزهاوي : التاريخ المجهول ف ١١٠ ، المطبعة اليسوعية – بيروت سنة ١٩٠٠ . ويذكر اسمه تاودر في . د. سرور : الحياة السياسية من الدوله العربية الاسلامية ، ص ٤٣ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ١٣٥ ، انظر ايضا : قدامة الخراج ، ص ٢٨٨ ياقوت : معجم البلدان ، ١ / ١٣٦ – ١٣٧ .

(٤) الهاشمي : موقعة اجنادين ، ٢ / ١٠٢ .

(٥) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٣٩ ، اليعقوبي : التاريخ ٢ / ١٣٢ ، قدامة : الخراج ص ٢٨٥ .

العراق ويخلف اهله فيه وأن يمضي مخففاً في اهل القوة من الذين قدموا معه من اليمامة او الحجاز حتى يلق ابا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين ، ثم امره على الجماعة وطلب منه العودة عند انتهاء مهمته (١) وقد اورد الواقدي نص رسالته وهي (بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله عتيق بن ابي قحافة الى خالد بن الوليد سلام عليك اما بعد فاني احمد الله الذي لااله الا هو واصلي على نبيه محمد (ص) واني قد وليتك على جيوش المسلمين وأمرتك لقتال الروم وان تسارع الى مرضاة الله عز وجل وقتال اعداء الله وكن ممن يجاهد في الله حق جهاده (٢) .

فاستجاب خالد بن الوليد لهذا الامر واستخلف المثنى بن حارثة الشيباني وسار في شهر ربيع الاخر سنة ١٣هـ(٦٢٤م) وسلك طريق عين التمر وقطع الصحراء مسرعاً متوجهاً الى غسان واغار عليهم بمرج راهط ، ثم سارحتى نزل قناة بصرى (٣) . وكان عليها أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن ابي سفيان فاجتمعوا عليها وعقدوا مع سكانها الصلح (٤) ثم توجهوا الى فلسطين مددا لعمرو بن العاص الذي كان مقيماً بالعربات (٥) ويذكر الدكتور احمد الشريف ان سبب توجه هؤلاء القادة الى عمرو بن العاص هو اجهاض خطة هرقل الذي سير جيشاً قوياً الى جنوب فلسطين عن طريق طبرية فالناصرة فقيسارية ليضرب قوات عمرو بن العاص حتى اذا ماحقق النصر عليها استطاع ان يهدد مؤخرة الجيوش العربية الاسلامية الموجودة في الشمال فيضطرها الى الارتداد ، ولكن العرب احسوا بهذه الخطة والتقدم الرومي فاندفعوا جنوباً حتى اتصلوا بقوات عمرو واستطاعوا بخفة حركتهم ان يسبقوا الجيش الرومي وان ينتظروه في اجنادين (٦) .

---

(١) احمد عادل كمال : الطريق الى المدائن ص ٣١٩ .
(٢) فتوح الشام ، ص ١٣ .
(٣) البلاذري : الفتوح ١٣ — ١٣٢ ، انظر ايضا الواقدي : فتوح الشام ص ١٤ . اليعقوبي : التاريخ ٢ / ١٢٢ / ١٣٣ ، الطبري : التاريخ ١ / ٢١٢٤ — ٢١٢٥ ، قدامة : الخراج ص ٢٨٨ ، ابن الاثير : الكامل ٢ / ٤١٧ ، الهاشمي : موقعة اجنادين ٢ / ١٠٠ مع اختلاف .
(٤)
(٥) الطبري : التاريخ ١ / ٢١٢٤ — ٢١٢٥ ، انظر ايضا ابن الاثير : الكامل ٢ / ٤١٧ .
(٦) دور الحجاز في الحياة السياسية العامة ص ١٩١ — ١٩٢ .

المعركة :

كان موقف العرب من تحشدات البيزنطيين حرجا وذلك لكونهم لم يواجهوا جيشاً روميا في مثل هذه الضخامة والقوة ، وكان التراجع امامهم معناه التنازل عن الاهداف القومية من ناحية ويمكن ان يحدث مايسيء الى النظام الجديد . وكان تصميم ابي بكر على لقاء حشود الروم كبيراً وان اقدام الجيوش العربية على هذا اللقاء يعد خطوة في سبيل النصر (١) وتحقيق اهداف العرب في ايجاد موطىء قدم لهم لاستكمال تحرير الشام .

وكان هرقل قد خطط لهجوم واسع على العرب لاستئصالهم من خلال تحشيد قواته في اماكن متعددة مثل غزة وبيسان واجنادين اذ انزل بالرملة قوة عسكرية كبيرة وكذلك في مدينة بيت المقدس (٢) وقيسارية وغيرها . وازاء ذلك — عمد العرب الى شل قدر وطاقات هذه القوات عن طريق توجيه الجيوش لحصارها وابقائها في اماكنها ومدنها — فقد وجه عمرو بن العاص علقمة بن حكيم الفراسي ومسروق بن السكني الى بيت المقدس ووجه ابا ايوب المالكي الى مدينة الرملة . كما ارسل معاوية بن ابي سفيان ليحاصر اهل قيسارية واشغالهم عن دعم الروم (٣) وقد عزز عمرو بن العاص هذه القوات عندما جاءته الامدادات فارسل محمد بن عمرو مدداً لعلقمة ومسروق كما ارسل عمارة بن عمرو ابن امية الضمرى مدداً لابي ايوب . كما اقام عمرو بن العاص على اجنادين (٤) لمواجهة الجيش الرومي الذي كان هدفه الاول حماية مدينة القدس وبيت لحم من السقوط بأيدي العرب ،ولهذا فقد سيطر على الخط الموصل بين الرملة وبيت المقدس واختار قائده موضعاً يسد الطرق المؤدية الى القدس او قيسارية التي كانت قاعدة البلاد (٥) .

فجعل طريق القدس على جانبه الايسر وطريق الرملة — قيسارية على جانبه الايمن لذلك اختار موضعاً جنبياً كما يعبر في المصطلحات العسكرية كي يسد جميع الطرق القادمة من

---

(١) الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية العامة ص ١٩٢ .

(٢) ابن خلدون : العبر ٢ / ١٠٥ .

(٣) الطبري : التاريخ ١ / ٢٣٩٩ ، انظر ايضا ابن الاثير : الكامل ٢ / ٤٩٨ .
ابن خلدون : العبر ٢ / ١٠٥ .

(٤) ن . م ١ / ٢٣٩٩ .

(٥) ن . م ١ / ٢١٢٥ ، انظر ايضا الهاشمي : موقعة اجنادين ، الزمان والمكان٢ / ١٠٠ مع اختلاف .

الجنوب ويضطر العدو الى مهاجمته . ولا يمكن للقوات العربية ان تترك الجيش الرومي على جانبها وهي تتقدم نحو القدس او قيسارية (١) .

اما فيما يتعلق بتفاصيل المعركة فان المؤرخين العرب لم يقدموا صورة واضحة عنها . وكل ماورد عنها من معلومات مقتضب عموماً ويحتاج الى تدقيق ، فالبلاذري يذكر عن هذه المعركة ان العرب المسلمين قاتلوا الروم قتالاً شديداً وابلى خالد بن الوليد يومئذ بلاءً حسناً . ثم يشير الى تمزيق العرب لهم وكثرة من قتل منهم في هذه المعركة (٢) .

اما الرهاوي فيذكر ان الروم وصلوا الى المكان الذي نزل به العرب بغرور ونصبوا خيامهم بالقرب من معسكر العرب واقاموا متقابلين بعضهم امام بعض وهم يتهددون وفجأة اصطفوا قبالة بعضهم البعض وكانت ساعة واحدة تغلب الروم على العرب عندئذ صمد العرب وكروا على الروم فانخذل قلب الروم وفروا هاربين (٣) وهذه المعلومات انفرد بها الرهاوي وليست هناك اشارة في المراجع التاريخية العربية الى مايشير الى انكسار العرب اولاً ثم الحاق الهزيمة الساحقة بهم . ولا شك ان الروم كانوا يتوجسون من العرب وهم لاينكرون قوتهم ومقدرتهم العسكرية وشجاعتهم ، ولهذا فكانوا يجمعون المعلومات عنهم ويذكر ابن اسحق ان القبقلار ارسل رجلاً عربياً اسمه ثريد بن حيدان يقال له ابن هزاوف وطلب منه ان يدخل معسكر العرب وينقل اليه مالا يراه . وعند عودته قال له : انهم بالليل رهبان وبالنهار فرسان ولو سرق ابن ملكهم لقطعوا يده ولوزني رجم لاقامة الحق فيهم (٤) فقال له القبقلار (لئن كنت صدقتني لبطن الارض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها ولوددت ان حظي من الله ان يخلي بيني وبينهم فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم علي) (٥) ولا شك ان لمبادىء الدين الاسلامي السمح اثراً كبيراً في امتثال هذه السلوكية التي طبعت اخلاقهم وتصرفاتهم .

(١) الهاشمي : موقعة اجنادين الزمان والمكان : ٢ / ١٠٠ – ١٠١ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان : ص ١ – ١٧ ، انظر ايضا الطبري : التاريخ : ١ / ٢٤ قدامة : الخراج : ص ٢٨٨ ، ابن الاثير : الكامل : ٢ / ٤٩٩ ، ابن خلدون : العبر : ٢ / ١٠٥

(٣) التاريخ المجهول : فصل ١١٠ .

(٤) الطبري : التاريخ ١ / ٢١٢٥ – ٢١٢٦ ، انظر ايضا ابن الاثير الكامل ٢ / ٤١٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية : ٧ / ٧ فيصل : حركة الفتح الاسلامي : ص ٤٨ مع اختلاف التفصيل

لقد كان لانتصار العرب في هذه المعركة صدى كبير . ويذكر الدكتور أحمد الشريف ان معركة اجنادين بالنسبة للعرب المسلمين بعد وفاة الرسول (ص) كمثل معركة بدر في الاهمية في حياة الرسول(ص)وعدوا هذا النصر تأييداً من الله وحكماً لهم على اعدائهم(١).

وبعد تحقيق الانتصار كتب خالد بن الوليد الى ابي بكر الصديق رسالة يبشره بالفتح جاء فيها ((اخبرك ايها الصديق انا لقينا المشركين وقد جمعوا لنا جموعاً جمة باجنادين وقد رفعوا صلبهم ونشروا كتبهم وتقاسموا بالله لايفرون حتى يفنونا او يخرجونا من بلادهم فخرجنا اليهم واثقين بالله متوكلين عليه فطاعناهم بالرماح شيئاً ثم صرنا الى السيوف فقارعناهم بها قدر جزر جزور . ثم ان الله انزل نصره وانجز وعده وهزم الكافرون فقاتلناهم في كل فج وشعب وغائط فالحمد لله على اعزاز دينه واذلال عدوه وحسن الصنع لاوليائه والسلام)) (٢) .

وكانت هذه الوقعة في جمادي الاولى من سنة ١٣هـ (٣) (تموز ٦٣٤م) كما ذكر المؤرخون العرب عدا سيف الذي انفرد بالقول انها وقعت في سنة ١٥هـ (٤) اي جعلها بعد فتح دمشق وهذا يخالف منطق تسلسل الاحداث التاريخية الذي يضع هذه المعركة بعد معركة اليرموك ويتناقض مع تاريخ فتح دمشق وعزل خالد بن الوليد ووفاة ابي بكر الصديق (رض) .

لقد استشهد عدد من العرب المسلمين في هذه المعركة لايذكر المؤرخون اعدادهم أو اسماءهم اضافة الى كون المعلومات التي قدموها عن الشهداء غير دقيقة وان هناك خطأ في اماكن استشهادهم حسب معارك الشام فهناك من استشهد في فحل ومرج الصفر واليرموك وغيرها .وممن أورد المؤرخون العرب انه استشهد في هذه المعركة من العرب المسلمين هم:

---

(١) الحياة السياسية في الحجاز : ص ١٩٢ .

(٢) الحميري : الروض المعطار : ص ١٢ ، انظر ايضا الواقدي : فتوح الشام : ص ٣٨ .

(٣) المعارف : ابن قتيبة : ص ١٧٠ ، انظر ايضا خليفة : التاريخ : ١ / ٨٧ ، البلاذري : فتوح البلدان : ص ١٣١، اليعقوبي : التاريخ : ٢ / ١٢٣ ، الطبري / التاريخ م ١خ / ٢١٢٦ : الخراج : ص ٢٢٨٩ ابن الاثير : الكامل : ٢ / ٤١٧، ٤٣٢ ياقوت : معجم البلدان : ١ / ١٣٠ الحموي : الروض المعطار : ص ١٢ ابن خلدون / العبر : ٢ / ١٠٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية : ٧ / ٧ السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٧٦ سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية : ص ٤٣ بركلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية ص٤.

(٤) الطبري : التاريخ ١ / ٢١١١ - ٢١١٢ .

١ — عامر بن أبي وقاص الزهري (١).
٢ — العباس بن عبد المطلب (٢)
٣ — ابان بن سعيد (٣)
٤ — الفضل بن العباس (٤)
٥ — نعيم بن عبدالله بن النحام العدوى (٥)
٦ — هشام بن العاص بن وائل السهمي (٦)
٧ — سلمة بن هشام بن المغيرة (٧)
٨ — هبار بن الاسود بن عبد الاسد. (٨)
٩ — عبدالله بن الزبير بن عبد المطلب (٩)
١٠ — عمرو بن سعيد بن العاص بن امية (١٠)

(١) البلاذري : فتوح البلدان : ١٦١ .
(٢) خليفة : التاريخ : ١ / ٨٧ .
(٣) ن . م : ١ / ٨٧ ويذكر انه قتل يوم مرج الصفر ايضاً . انظر : البلاذري : الفتوح : ١٣٥، السالم الدولة العربية : ص ٤٧٤ .
(٤) خليفة : ١ / ٨٨، انظر ايضا : ابن الاثير : الكامل : ٢ / ٤١٨ .
(٥) خليفة : ١ / ٨٧، انظر ايضا: البلاذري : فتوح البلدان: ١٣٥، الطبري: التاريخ ١ / ٢١٢٦ . ابن الاثير : الكامل : ٢ / ٤١٤ .
(٦) خليفة : ١ / ٨٧، انظر ايضاً البلاذري : فتوح البلدان : ١٣٥ ويذكر ايضا انه قتل يوم اليرموك الطبري : التاريخ : ١ / ٢١٢٦. ابن الاثير : الكامل: ٢ / ٤١٧، السيوطي : تاريخ الخلفاء : ص ٦ .
(٧) البلاذري : فتوح البلدان ١٣٥ ، انظر ايضا الطبري : ١ / ٢١٢٦، ابن الاثير / الكامل : ٤١٧ .
(٨) البلاذري : فتوح البلدان : ١٣٥، انظر ايضا : الطبري: التاريخ: ١ / ٢١٢٦، ابن الاثير : الكامل : ٢ / ٤١٧ .
(٩) البلاذري : فتوح البلدان : ١٣٥، انظر ايضا : التاريخ : ١ / ١٣٢٦، ابن الاثير : الكامل ٢ / ٤١٨ : ياقوت : معجم البلدان : ١ / ١٣١ ، السالم : الدولة العربية : ٤٧٤ .
(١٠) البلاذري : فتوح البلدان ١٣٥ ، انظر ايضا ابن الاثير : الكامل ٢ / ٤١٨ ، السالم : الدولة العربية ٤٧٤ .

١١ — طليب بن عمير بن وهب بن عبد بن قصي(١)
١٢ — عكرمة بن أبي جهل (٢)
١٣ — عمر بن الطفيل بن عمرو الدوسي (٣)
١٤ — جندب بن عمرو الدوسي (٤)
١٥ — سعيد بن الحارث (٥)
١٦ — الحارث بن الحارث (٦)
١٧ — الحجاج بن الحارث (٧)
١٨ — قيس بن عدي السهمي (٨)
١٩ — الحارث بن هشام بن المغير (٩)
٢٠ — ضرار بن الخطاب الفهري (١٠)
٢١ — النضير بن الحارث بن علقمة (١١)
٢٢ — عمير بن هشام العبدلي (١٢).

ولم يذكر المؤرخون العرب استشهاد احد من الانصار (١٣) عدا الواقدي الذي تكلم عن شهداء المسلمين في هذه المعركة، فذكر ان مجموع شهداء المسلمين بلغ اربعمائة وخمسين

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ١٣٥، انظر ايضا ابن الاثير : الكامل ٤١٨ ٢ / .
(٢) البلاذري : فتوح البلدان ١٣٥ ، انظر ايضا ياقوت : ١ / ١٣٧، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٧٩ .
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ١٣٥، انظر ايضاً ابن الاثير : ٢ / ٤١٨ .
(٤) البلاذري : فتوح البلدان ١٣٥ .
(٥) البلاذري : فتوح البلدان ١٣٥، انظر ايضا ابن الاثير : الكامل ٣ / ٤١٤ .
(٦) البلاذري : فتوح البلدان ١٣٥ .
(٧) البلاذري : فتوح البلدان ١٣٥ .
(٨) البلاذري : فتوح البلدان ١٣٥.
(٩) البلاذري : فتوح البلدان ١٣٦ ، انظر ايضا ياقوت : معجم البلدان ١ / ١٣٧ .
(١٠) ابن الاثير : الكامل ٢ / ٤١٨ .
(١١) ابن الاثير : الكامل ٢ / ٤١٤ .
(١٢) ابن الاثير : الكامل ٢ / ٤١٥ .
(١٣) الطبري : التاريخ ١ / ٢١٢٦ .

شهيداً منهم عشرون من الانصار ،ومن اهل مكة ثلاثون رجلاً ومن حمير عشرون والباقي من اخلاط الناس (١). وبالرغم من عدم وجود احصائية وثيقة عن شهداء المسلمين الأان هذا الرقم يختلف عن الواقع كثيراً .

امابالنسبة الى خسائر الروم فيبدو انها كبيرة، ويذكر الرهاوي انهم لم يتمكنوا من النجاة بعد هزيمتهم امام العرب وكانوا يدارسون باقدام العرب الذين اجهزوا عليهم بالسيوف ولم ينج منهم الاتيودور وقلة من جيشه (٢)، ويشير الحميري الى عدد قتلى الروم فيقول ان عددهم زاد على ثلاثة الاف قتيل ، عدا من اتبعوهم لقتلهم (٣) ولم ترد معلومات عن أسرى الروم في هذه المعركة.

أهمية أجنادين على فتوح الشام :

تعد معركة اجنادين من المعارك المهمة الاولى التي وقعت في الشام بين العرب والروم كجزء من الصراع بينهم للسيطرة على هذا الاقليم وان الكفة الراجحة ستكون بجانب من له الارجحية في هذا الصراع. فانتصار العرب في هذه المعركة كان له طعم خاص ولون خاص، فقد احدث هذا النصر دوياً في البلادالروم قاطبة وفي بلاد العرب. بل احدث مااحدث في نفوس العرب خاصة ،واصبحوا بعد هذا النصر يتصرفون بعقلية جديدة .فهذه المعركة تعد بمثابة فتح الفتوح لاقليم الشام وبدأوا ينظرون الى المستقبل نظرة جديدة من حيث تنظيم نشاطهم العربي ورسم صورته المشرقة في تحقيق حلمهم فيعملية نشر الاسلام والتحرير (٤) كما عززت هذه المعركة ثقة العرب بأنفسهم وقدراتهم القتالية ،اذ كان هذا الانتصار حافزاً لهم للتقدم نحو المدن الشامية المهمة وخوضهم معارك لاحقة في فحل ومرج الصفر واليرموك كافتحوا مدن الشام المهمة مثل دمشق وحمص وطبرية وقيسارية وبيت المقدس وغزة ونابلس وعسقلان والرملة وعكا وغيرها. وبانتصار العرب في هذه المعركة اصبحت فلسطين كلها بيدهم،وقد نوه بذلك سفرنيوس رئيس اساقفة بيت المقدس في خطبة القاها في الاحتفال بعيد الميلاد في ٢٨ شوال سنة ١٣هـ (٢٥ كانون ثاني ٦٣٤م)

---

(١) فتوح الشام ص ٣٨ .
(٢) التاريخ المجهول فصل ١١٠ .
(٣) الروض المعطار : ص ١٢، اما الواقدي فيذكر ان قتلاهم زادت على ٥٠ الف وهو كلام عام غير دقيق : انظر فتوح الشام : ص ٣٨ .
(٤) الشريف : الحياة السياسية ص ١٩٢ .

اذ زعم ان المسيحيين اصبحو لايستطيعون الحج الى بيت المقدس لان بلاد فلسطين اصبحت في قبضتهم (١) يعني قبضة العرب).

أما بالنسبة لاثر هذه المعركة على الروم فلاشك انها ثبطت هممهم وزرعت في نفوسهم الخوف من النتائج التي ترتبت عليها المعركة فقتل الاعداد الكبيرة من قوات الروم ترك أثر نفسياً كبيراً عندهم مما أثر بشكل كبير في معنويات الجيش الرومي وفاعليته القتالية، كما جعل الروم يتخبطون بسرعة في لم شعثهم في محاولة للقضاء على حالة الفشل التي منوابها واليأس الذي انتابهم فكان لقاؤهم مع العرب في معركة فحل ومرج الصفر وغيرها وكلها معارك فاشلة مني بها الروم بخسائر فادحة مماعمق جرحهم (٢) .

وجعل هرقل يترك مدينة حمص هرباً من تقدم العرب ليستقر في مدينة انطاكية .
ومن خلال ماتقدم يمكن القول ان نتائج معركة اجنادين كان لها اثر كبير في تقدم العرب في عموم الشام من اجل تحريرمدنها وانقاذها من ايدي الروم كما أدى الى ضعف معنوياتهم وانكسار قوتهم وبالتالي فتح الباب امام العرب الى مزيد من الانتصارات المتلاحقة والتقدم مما عزز مكانتهم وهيبتهم في نفوس الناس .



(١) سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية ص ٤٣ .
(٢) الزهاوي : التاريخ المجهول فصل ١١٠، انظر ايضا الواقدي : فتوح الشام ص ٣٨ .

مصادر البحث

١ . ابن الاثير : عز الدين ابو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري (ت ٦٣٠هـ)
الكامل في التاريخ ١٢ جزءاً منشورات مكتبة خياط – بيروت ١٩٦٥م .

٢ . البلاذري : احمد بن يحيى بن جابر (ت ٣٧٩هـ)
فتوح البلدان ، جزأن تحقيق الدكتور صلاح الدين النجد ، مكتبة النهضة العربية .

٣ . بروكلمان : كارل
تاريخ الشعوب الاسلامية ، تحقيق بنيه امين فارس ومنير البعلبكي . دار العلم للملايين بيروت

٤ . حسن : الدكتور حسن ابراهيم
التاريخ السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، اربعة اجزاء ، الطبعة السابعة القاهرة ١٩٦٤ ، مكتبة النهضة المصرية .

٥ . الحميري : محمد بن عبد المنعم
الروض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٧٥ .

٦ . ابن حوقل : ابو القاسم محمد بن حوقل النعيمي
صورة الارض ، منشورات دار مكتبة الحياة ١٩٧٩ .

٧ . ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) .
العبر وديوان المبتدأ والخبر ٧ اجزاء ، منشورات دار الكتاب اللبناني ، بيروت

٨ . ابن خياط : خليفة
التاريخ ، تحقيق اكرم ضياء العمري ، جزأن ١٩٦٧ ، مطبعة الآداب . النجف الاشرف .

٩ . الزهاوي
التاريخ المجهول ، المطبعة البطريركية ، بيروت ١٩٠٠ بالسريانية

١٠. السالم : الدكتور السيد عبد العزيز
تاريخ الدولة العربية ، دار النهضة العربية ١٩٧٩
١١. سرور : د . محمد جمال الدين
الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة ، دار الفكر العربي ، الطبعة السادسة ١٩٧٩م .
١٢. السيوطي : الحافظ جلال الدين عبد الرحمن المتوفى سنة ٩١١هـ .
تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة المدني- القاهرة ط٣ ١٩٦٤ .
١٣. الشريف : الدكتور احمد ابراهيم
دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة .
دار الفكر العربي ١٩٦٨ .
١٤. فيصل : د . شكري
حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول الهجري
دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٠ ، ط٥ .
١٥. قدامة : قدامة بن جعفر
الخراج وصنعة الكتابة . شرح وتعليق الدكتور محمد حسين الزبيدي ، دار الرشيد للنشر ١٩٨١ بغداد
١٦. ابن قتيبة : ابو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢١٢هـ)
المعارف ، حققه وقدم له ثروت عكاشة ، مطبعة دار الكتب ١٩٦٠ .
١٧. الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير
تاريخ الرسل والملوك ، ١٥ جزءاً طبعة دي غويه ، ليدن ١٨٧٩م .
١٨. ابن كثير : عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) .
البداية والنهاية ١٤ جزءاً .
١٩. كمال : احمد عادل
الطريق الى المدائن ، دار النفائس ، بيروت ١٩٧٧ ط٣ .
٢٠. المسعودي : ابو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ)
مروج الذهب ومعادن الجوهر ٤ أجزاء ، دار الاندلس ، بيروت ١٩٦٥ .

النشاطات الطبية والخدمات الصحية

في العراق ١٢٥٨ - ١٩٢١

الدكتور ابراهيم خليل أحمد
كلية التربية/جامعة الموصل

١ - مقدمة :

تردت اوضاع العراق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بعد سقوط بغداد على يد المغول سنة ١٢٥٨ وكان للاحداث السياسية والعسكرية التي تعرض لها العراق منذ ١٢٥٨ وحتى ١٩٢١ انعكاسات سلبيةعلى مستوى سكانه . ومع انه حظي خلال هذه الفترة الطويلة ببعض محاولات الاصلاح ، الا ان هناك عوامل حالت دون ذلك ، لعل من ابرزها ابتعاد سكانه عن حكم انفسهم ووقوع امكانات البلد بيد العناصر الاجنبية المتسلطة. كما ادت الظروف المناخية السيئة وانتشار الامراض والاوبئة وتعرض البلاد لمحاولات القحط والمجاعة الى تدهور الاوضاع الصحيه والمعاشية للانسان العراقي.

ان دراستنا هذه معالجة تاريخية لجانب مهم من جوانب الحياة في العراق والذي يتمثل بالاوضاع الصحية والنشاطات الطبية منذ ١٢٥٨ وحتى تسلم العراقيين لادارة بلادهم

وتأسيس وزارة الصحة في ١٢ أيلول ١٩٢١. كما تهتم الدراسة بمتابعة انعكاس الاوضاع الصحية والنشاطات الطبية تلك على السكان ورصد البدايات الاولى لتأسيس الكيان الصحي الحديث في العراق.

٢ — الاوضاع الصحية والنشاطات الطبية في العراق ١٢٥٨ — ١٥٣٤

(آ) الاوضاع الصحية :

تعرض العراق خلال الفترة الواقعة بين الغزو المغولي لبغداد سنة ١٢٥٨ والسيطرة العثمانية سنة ١٥٣٤ لهجمات شديدة من الامراض الوبائية والمتوطنة. وظلت الملاريا والتيفوئيد تفتك بالسكان . ومما ساعد على ذلك حالات القحط والضيق الاقتصادي نتيجة لقلة الامطار أوتعدد الفيضانات وهجمات الجراد وامراض الحيوانات والآفات الزراعية فتقل المواد الغذائية الضرورية للجسم الانساني نباتية كانت أم حيوانية وتنتشر المجاعات وتضعف مقاومة الاجسام للامراض فتنتشر بينهم وتفتك بهم . هذا فضلاً عن ان العراق لم يعد بلاداً غنية مثل ماكان إبان ازدهار الدولة العربية الاسلامية في العصر العباسي بل صار يعتمد على مصادره الخاصة بعد ان انقطعت عنه الموارد التي كانت تصله قبل تعرضه للغزو، وقد ساعدت كثرة الاهوار والمستنقعات والبرك الآسنة في انتشار الامراض والاوبئة . ولم يكن ثمة مايدل على توفر نظام لتصريف المياه في المدن وكانت كثرة المقابر داخلها والدفن في الدور الخاصة والربط والمساجد وماشاكل ذلك من اساليب غير صحية تساعد على نشر الامراض خاصة ايام الوباء (١) .

ولم يكن مستوى الطب متقدماً من حيث المقدرة على تشخيص الامراض وعلاجها، وكان عدد المستشفيات (البيمارستانات) قليلاً جداً والعناية بها محدودة، ولم تكن تلك المؤسسات قادرة على تأدية الخدمات الصحية بالشكل المعروف الان، وذلك بسبب انخفاض مستوى الطب الانساني آنذاك. وقد اهملت السلطات الحكومية آنذاك ردم البرك والمستنقعات التي غدت بيئة خصبة لنمو الكثير من الجراثيم والديدان . كما لم تبذل اية محاولات لتحسين التغذية العامة وحصر الاوبئة ومنع الناس من مغادرة مناطق الوباء (٢) .

ان اية محاولة لتحديد الامراض الشائعة في تلك الفترة متوطنة كانت أم وافدة تقف أمامها مصاعب جمة منها قلة المعلومات التي وصلتنا عن هـذه الامراض وعدم دقة بعضها. فلقد وردت أوصاف غير دقيقة عن اسماء الامراض وطبائعها ومدى فتكها بالسكان(٣).

كما ان بعض الاخبار القلية التي وردت عن الامراض جاء في اطار مسميات عامة غامضة مثل الوباء، والوباء في دلالته يمثل انتشار اي مرض معد بشكل واسع مهلك كالملاريا اوالتيفوئيد أو الطاعون .ويبدو ان اخبار الامراض التي وصلت كانت قليلة مختصرة ولابد ان تكون في حقيقتها اوسع واكثر انتشاراً لان ظروف العراق الاقتصادية والاجتماعية والصحية السيئة كانت تساعد على انتشارها (٤).

(ب) النشاطات الطبية :

لم تكن المؤلفات الطبية التي تعود الى هذه الفترة تمثل حقيقة ماكان يمارسه الاطباء والمتطبيون، حيث لم يكن هناك نظام دائم تفرضه السلطات المسؤولة وتجيز من يريد احتراف الطب على ضرورة تلقي دروس معينة على ايدي اطباء معروفين بالكفاءة في حقول تخصصهم (٥). لذلك ظلت بغداد وغيرها من المدن العراقية لسنوات طويلة ميدانا فسيحاً لعبث المشعوذين ومرتعاً خصبا للمحتالين من المتطبيين (٦). والى شيء من هذا القبيل يشير الاستاذ عبد الحميد العلوجي حيث يقول: «وبعد نكبة بغداد تدهور الواقع الطبي في العراق واصبحت الطبابة صناعة خسيسة تنهض على الشعوذة والدجل وسيطرت على العقول خرافات واوهام ...ولم يسجل التاريخ لبغداد فضلاً طبياً في تلك الفترة المظلمة» فكانت بعض النساء يلعبن دور الاطباء ،فيصفن العقاقير والسموم ويداوين العيون ويفتكن بالصحة. وكان بعض الدجالين يستخدمون الادعية والطلاسم في مكافحة المرض وظلت كلمة حكيم أي: طبيب هي الشائعة؛ ومن الحكماء الذين عرفهم العراق آنذاك: العطارون، والحلاقون والختانون (٧). كما ورث بعض اهل البادية طباً يبنونه في غالب الامر على تجربة قاصرة على بعض الاشخاص متوارثاً على المشايخ والعجائز . فكانت امراض الروماتيزم والكبد والصداع النصفي وعرق النساء تعالج باعشابهم ومستحضراتهم الخاصة(٨)وكان الطب يقوم في أكثره على الادوية النباتية التي يمكن وصفها بالمسكنات. ولم يلجأ أطباء ذلك الزمان الى الادوية المركبة المعقدة التي يسمونها (الترياق) إلا في الاحوال المستعصية .وكانت اكثر اساليب المعالجة شيوعاً هي الفصد، والحجامة والاسهال (٩) .

ومهما يكن من امر فقد وردتنا من العهدين الايلخاني (١٢٥٨ — ١٣٤٠) والجلائري (١٣٤٠ — ١٤١١)اسماء بعض الاطباء البارزين، منهم شمس الدين الصباغ (توفي١٢٨٥) طبيب المستنصرية وكان من العلماء الماهرين بصناعة الطب (١٠) وابو منصور المعروف بكتيفات (توفي ١٢٩٣) (١١). وشمس الدين محمد بن دانيال الموصلي (توفي ١٣١٠)وكان

كحالاً أي طبيباً للعيون (١٢). ومحمد الدين سنجر البغدادي الذي ولي المستنصرية (توفي ١٣١٥) وكان ماهراً في صناعة الطب وقيل انهعمل ممتحنا لاطباء العراق (فمن ارتضاه أقره على عمله ،ومن لم يرضه يستبدله بغيره، ممن يعرف العلاج وحفظ الصحة» (١٣). ومنهم الحسن بن محمد شرف شاه الحسيني الموصلي وله شرح الحاوي وتوفي سنة ١٣١٥(١٤) ومنهم يوسف بن محمد بن موسى بن منعة كمال الدين ابو المعالي بن بهاء الدين بن كمال الدين بن رضي الدين بن قاضي الموصل (توفي ١٣١٧) وله شرح الحاوي كذلك (١٥).

كما عرف عن عماد الدين عبد الله بن محمد بن عبد الرزاق الحموي العراقي المعروف بـ (ابن الخوان) اهتمامه بالطب، حتى انه صنف فيه وقرأ عليه جماعة،تولى رياسة الطب ببغداد . ولد سنة ١٢٤٥ وتوفي سنة ١٣٢٤ (١٦) . وكان الحكيم العلامة علاء الدين علي بن قبان بن مختار البغدادي المعروف بـ(الخطائي) طبيباً (١٧) وفي سنة ١٣٣٨ توفي عبد المؤمن بن عبد الحق بن عبد الله بن مسعود بن شمائل البغدادي الحنبلي المعروف بابن عبد الحق وبابن شمائل وكان عالماً ، مشاركاً في الطب والحساب والفقه . ولد ببغداد سنة ١٢٦٠ ودرس بالمدرسة المجاهدية ببغداد (١٨) . وفي سنة ١٣٣٩ توفي ركن الدين شافع بن عمر بن اسماعيل الحنبلي الاصولي وكان عارفا بالطب (١٩) .

اما ابو عبدالله محمد بن ابراهيم بن مساعد الانصاري المعروف بابن الاكفاني (المتوفي سنة ١٣٤٨) فيعد من اكثر الاطباء العراقيين شهرة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر(٢٠) وقد ولد ابن الاكفاني وترعرع في سنجار ، وسعى منذ فترة مبكرة من حياته لطلب العلم (٢١) . وكان ذا ثقافة غير أن ميله الى العلوم الصرفة وتضلعه فيها كان اشهر من اهتمامه بالعلوم النقلية (٢٢) . اما مشاركته في الطب فقد عرف عنه «انه كان امام عصره وغالب طبه بخواص ومفردات يأتي بها الى المريض وما يعرفها أحد لانه يغير كيفيتها وصورتها حتى لاتعلم وله اصابات غريبة في علاجه» (٢٣) .

لقد صنف ابن الاكفاني عددا من الكتب في الطب منها كتبه «روضة الالبا في اختصار الاطباء» و «كشف الرين في امراض العين» و «نهاية القصد في صناعة الفصد» (٢٤) . اما كتابه ((غنية اللبيب عند غيبة الطبيب)) (٢٥) فيعد من اكثرها شهرة ذلك انه ، كما يقول ابن الاكفاني في المقدمة ((رسالة لطيفة الحجم غزيرة العلم تشتمل على مالا بد منه من علم الطب في حفظ الصحة والتحرز من الامراض ومعالجتها على العموم)) ورتبه

الرسالة لتشمل قواعد حفظ الصحة وتدبير المرض حيث لايوجد طبيب او يوجد مـــن لايوثق به . كما احتوت على وصايا نافعة وخواص مختبرية اكثرها طبية . وتناول المؤلف مااشتملت عليه اقسام الكتاب من فصول وكيفية تدبيرها ومعالجة ماورد فيها من امور بما يضمن سلامة المريض وتجنب الاضرار به . وقد عالج المؤلف في كتابه امراض البدن من الرأس الى القدم ، مع التأكيد على حفظ الصحة والوقاية من الامراض (٢٦) . ويبدو ان المؤلف كان ميالاً الى استعمال الادوية المفردة البسيطة دون المركبة كما يذكر من بدائل العلاج لمرض مااذا لم يتمكن المريض من الحصول على الدواء المطلوب (٢٧) .

اما يوسف بن اسماعيل بن الياس بن احمد البغدادي الجويني الشفعي المعروف بابـــن الكتبي والمتوفى سنة ١٣٥٤ فقد كان طبيباً معروفاً . ولد في المدينة المنورة ثم انتقل الى بغداد حيث نشأ وعاش بها واختير معيداً في المستنصرية وله من المؤلفات كتاب ((مالايسع الطبيب جهله)) والمؤلف سنة ١٣١١ وهو كتاب في الادوية والاغذية والمركبات الطبية وما يتعلق بها((جعله في مجلدين : المجلد الاول تناول فيه مفردات الادوية والاغذية . اما المجلد الثاني فتناول فيه المركبات وجعل لكل مجلد مقدمة تتعلق بقوانين واحكام يجب معرفتها قبل الخوض فيها (٢٨) .

كما شارك القاضي تقي الدين يحيى البغدادي المتوفى سنة ١٤٢٩ في عدة علوم ، ولـــه مصنف في الطب (٢٩) واشتهر الطبيب عبد المسيح المتوفى سنة ١٤٣٢ وكان طبيباً للشاه محمد القرهقوينلي الذي حكم بغداد منذ ١٤١١ بعد ان هزم السلطان احمد الجلائري(١٣٨٢ــ ١٤١٠) .

وخلال تعرض العراق للغزو التيموري (١٣٩٢ ــ ١٤٠٠) جرت محاولة واسعة لتهجير العلماء والاطباء والفنانين العراقيين الى سمرقند . وكان هدف تيمور من ذلك جعـــل سمــرقند مركزاً للنشاط السياسي والثقافي . ويذكر بعض المؤرخين انه جمع ألوفاً مـــن العلماء والاطباء والمهندسين في سمرقند . وكان عدد منهم من الاطباء العراقيين امثال : الضياء الطبيب الهروي ومجد الدين محمد المشيرقي وموفق الدين الهمداني الطبيب ومجـــد الدين التبريزي (٣١) .

ومهما يكن من امر فان مستوى الطب في العهدين الايلخاني والجلائري كان بدائياً بمقياسنا الحالي من حيث المقدرة على تشخيص الامراض وعلاجها . ولعل خير مايمثل هذا المستوى مانقله الدكتور جعفر خصباك عن ابن الغوطي في سيرة احد معاصريه وهو مجد الدين ابو عبد الله نوفل بن محمد بن وهجان البصري الطبيب حيث قال عنه :

((كان طبيباً حاذقاً ، له معرفة بالمزاج والعلاج. قرأت بخطه في رسالة كتبها لبعض تلاميذه ، قال جالينوس مادخل الرمان جوفاً قط فاسداً الا اصلحه ... وقال بقراط : الجسد كله يعالج جملة على خمسة اضرب مافي الرأس بالغرغرة وما في المعدة بالقيء وما في اسفل المعدة باسهال البطن . وما بين الجلدين بالعرق . وما في داخل العرق باخراج الدم ...)) (٣٢) .

(ج) المؤسسات الصحية :

اما المؤسسات الصحية التي وردت اخبارها في هذه الفترة فقليلة ومعظمها ترجع بجذورها الى العصور الوسطى الاسلامية ، وهي تقليدية في طبيعة الخدمات التي تقدمها . وكانت تختلف من حيث سعتها وعدد اطبائها ودرجة العناية بمرضاها . وتعيش على الاوقاف والهبات (٣٣) . اما ابرزها فهي المارستان العضدي الذي يعود تأسيسه الى سنة ٩٨٢م وكان يقع في الجانب الغربي من بغداد على نهر دجلة . وقد وردت اشارات تأريخية تقول بأن هذا المارستان ظل يعمل حتى العهد الايلخاني ، حين عولج به احد الاشخاص سنة ١٢٨٠ ولكن سرعان ماأخذ الاهمال يستولي على هذا المارستان (٣٤) .

وثمة مارستانات اخرى ظلت تواصل عملها خلال هذه الفترة منها المارستان الذي كان بباب الازج في الجانب الشرقي من بغداد ومارستان في البصرة ومارستانان في الموصل (٣٥). وفي العهد الايلخاني انشأ احد حكام بغداد وهو مجد الدين اسماعيل ابن الياس الكتبي المتوفى سنة ١٢٨٩ مارستانا على شاطيء الفرات في الحلة (٣٦) خانه .

وبنى امين الدين مرجان حاكم بغداد في عهد السلطان اويس الجلائري (١٣٥٦ – ١٣٧٥ مارستانا بأسم ((دار الشفاء)) . وقد نص على ذلك في وقفيته المنقورة فوق باب خانه الشمالي (الاورشمة) بباب الغربة الواقع على شاطيء نهر دجلة في بغداد (٣٧) .

٣ ـ النشاطات الطبية والخدمات الصحية في العهد العثماني ١٥٣٤ – ١٩١٤

(آ) الاوضاع الصحية

ظل العراق خلال العهد العثماني يعاني من الفقر والجهل والمرض وكانت الحالة الصحية للناس في غاية التدهور والانحطاط . وقد لعبت البيئة دورا كبيراً في التأثير على المستوى الصحي ، فكثرة البرك والمستنقعات والفيضانات أدت إلى انتشار الامراض المختلفة. ولم تبذل

السلطات العثمانية جهودا كبيرة في مجال تقديم الخدمات الصحية للسكان . اما المدن فقد بقيت منذ تشييدها إلى اواخر القرن التاسع عشر بقلاعها واسوارها ، وبأزقتها الضيقة وطرقها الملتوية خالية من الميادين والفسحات الكبيرة . وكانت المدن مقسمة إلى محلات تتوفر فيها المؤسسات العامة كالمساجد والكنائس والحمامات والمقاهي واسواق الاطعمة، علاوة على الاسواق الكبيرة للمدينة كسوق الحنطة وسوق اللحم وغيرهما ، وكانت طرقات المدينة تعج بالحيوانات من خيل وبغال وجمال وابقار وحمير ، تأوى إلى اصطبلات شيدت لها بجوار دور سكنى اصحابها او داخلها او إلى الخانات العامة المشيدة قرب الاسواق لايواء الحيوانات القادمة من القرى والمحملة بصنوف الغلال والمنتوجات الزراعية لبيعها في المدينة ، وكانت الطوابق العليا من هذه الخانات مقسمة إلى حجرات يأوى اليها المسافرون . لذلك كانت النظافة معدومة في شوارع المدن وازقتها غير المبلطة والمملؤة بالحفر ، اذ لايخفى ماتسببه نفايات هذا العدد الكبير من الحيوانات من اوساخ في الشوارع ، وكانت هذه الاوساخ تجمع من قبل بعض الاهالي للاستفادة منها كوقود : في حين تكدس في اكوام اوتلال صغيرة بجوار كل محلة ، وتكون مرتعا لتكاثر الذباب وغيره من الحشرات الضارة ، تلعب فيها الرياح وتنقلها مع ما تحمله من جراثيم لتسبب امراضاً عديدة (٣٨) . وقلما وجدنا من الولاة من يهتم بنظافة المدن والاطعمة والماكولات ومبادرة والي بغداد احمد توفيق باشا سنة ١٨٦٠ تعد فريدة من نوعها : عندما أمر القصابين واصحاب المأكولات بوضع ستر من الخام على مواذهم للمحافظة عليها من الغبار والذباب (٣٩) .

لقد تعرض العراق خلال العهد العثماني إلى كثير من الكوارث الطبيعية كالفيضان والمجاعة . كما توافدت عليه امراض متعددة كالطاعون والكوليرا والتيفوئيد والملاريا. ففي سنة ١٢٨٩ حدثت مجاعة شديدة في بغداد . اذ ملئت الازقة بالجثث وتبع المجاعة الطاعون الذي قضى على الاف كثيرة . وفي سنة ١٦٩٠ تفشى الطاعون في البصرة وكان الناس يموتون بمقدار خمسمائة في اليوم . وكانت سنة ١٧١٩ مفجعة بتفشي الطاعون الذي فتك بالناس فتكا ذريعاً . وفي سنة ١٧٤٧ افزع الاهالي الطاعون من جديد وصار العراق يئن تحت وطأة الطاعون خلال السنوات ١٧٧٣ و١٧٧٤ و١٧٧٦ و١٧٨٠ و١٧٩٠ و١٨٠١ وحدثت مجاعة مهلكة في الموصل سنة ١٨٢٧ نجم عنها انتشار الطاعون (٤٠) وتفشى الطاعون في بغداد وكركوك والسليمانية سنة ١٨٣٠. وشهدت السنوات ١٨٣٤ و١٨٦٥ و١٨٧٣ و١٨٧٤ و١٨٧٥ و١٨٧٦ و١٨٧٧ و١٨٨١ و١٨٨٢ و١٩٠١ و١٩٠٢

انتشار مرض الطاعون واتخاذه في بعض السنوات شكلا وبائياً ؛ وتفشى في السنوات ١٨٦٥ و١٨٧١ و١٨٨١ و١٨٨٩ و١٨٩٣ و١٨٩٤ و١٨٩٩ و١٩٠٤ مرض الكوليرا. وقد راح ضحية المرض عدد كبير من السكان في مناطق مختلفة من العراق (٤١) وخلال الحرب العالمية الأولى ، حدثت في الموصل مجاعة مروعة بدأت في خريف سنة ١٩١٧ ثم تفاقمت في الشتاء . ولقد ادت المجاعة وتفسخ الجثث إلى تفشي الاوبئة كالتيفوس والكوليرا والانفلونزا . وقد حصدت هذه الامراض اعداد كبيرة من الفقراء والمهاجرين خاصة وان العناية الصحية قد اصبحت معدومة الوجود . واستمرت المجاعة حتى صيف ١٩١٨ وقضى فيها قرابة عشرة الاف نسمة (٤٢) . اما في البصرة فقد انتشرت الكوليرا والطاعون خلال شتاء ١٩١٦ وربيع ١٩١٧ . وتفشى مرض الجدري وظهرت اصابات بمرض التهاب السحايا في السنة الاخيرة وعادت الكوليرا في الشهور الاخيرة منه وفي آيار ١٩١٨ وانتشر الطاعون بين شهري آيار وحزيران ١٩١٩ (٤٣).

(ب) النشاطات الطبية :

لقد سار الطب في العهد العثماني متخاذلا خاصة بعد ان عول على الكتب التي الفها بعض المتأخرين ممن لم يكونوا اطباء . وطبيعي جدا ان تجيىء بعض هذه الكتب حافلة بالتعاويذ والخزعبلات راسخة على افسد المبادىء الفسيولوجية او البيولوجية (٤٤) . وتشير بعض المصادر إلى ان الطب في هذه الفترة اقتصر على وجود متطببين لاتتجاوز مدى معارفهم بعض الحقائق الأساسية التي كانوا يتلقونها شفاهاً وكان اكثرها تقليدياً وتوسع بعض منهم في معلوماته فقرأ الكتب القديمة . ولم يكن في ذلك العهد وخاصة في بواكيره من يستحق ان يطلق عليه لقب طبيب حتى في المدن الكبرى ، اما في القرى والارياف فكان يتعاطى المهنة اشخاص توارثوها عن الاباء والاجداد يعتمدون فيها على بعض التجارب والادوية . وكان من بينهم نسوة يصفن العقاقير وبداوين العيون اشتهرت من بينهن في بغداد فرحة خاتون ، فأستشفى على يديها عدد كبير من الناس . وكان يوجد خلاف اولئك ممارسون جوالون كان لبعضهم خبرة في خلع الاسنان واجراء عملية الحصوة والساد (كارتاراكت). وكان يعول في الجراحة على الحلاقين الذين كانوا يتعاطون كذلك الحجامة والفصد . وكان للطب البدوي الذي يعتمد الكي والادوية النباتية شأن عظيم . وكانت هنالك وصفات يعتمدها الناس في المدن والقرى . منها معالجة لدغ الثعبان والعقرب بتدمية مكان العضة ومصه مع الربط فوق مكان اللدغ ثم الكي

بالنار على محل اللدغ ومعالجة البرداء الحاد بغلي اوراق الصفصاف ومعالجة النزلة الصدرية بالحجامة من الصهر وبمغلي الزهور مع ماء الشعير ومنها معالجة الهيضة بالمقط وهو اللبن المجفف والرمان الحامض المشوي بقشره كما يسقى المصاب خليط الثوم بالماء ويوقف الأسهال بدبس الرمان والسماق والشاي الكثيف ومنها علاج الرمد بقطرة من تفاح ومعالجة الزهري بتبخير المريض بالزئبق مع بعض عقاقير منها جوز السرو (٤٥).

الا أن تلك الفترة لم تخل من محاولات علمية حديثة جديرة بالتخليد . اذ ظهرت بعض البحوث والمؤلفات في مجال الطب والتي اعتمدت بعض مؤلفات الاغريق المعربة وكتب ابن سينا وابن داؤد وغيرهما من الاطباء واطباء العيون (الكحالين) العرب المعروفين كما برز عدد من الاطباء الذين تأثروا بما وصلهم من مؤلفات طبية اوربية (٤٦) .

وفي الحقيقة ظل الطب متخلفا غير قادر على كشف اسباب الأمراض وطبيعتها الا بعد التوصل إلى صنع المجهر وكشف الميكروبات والاشعة والاهتداء إلى العلاج باللقاح المضاد للجدري والطاعون والكوليرا وغيرها بالمركبات المضادة ، ولم يتحقق ذلك الا بصورة بطيئة وصعبة ابتداء من القرنين السادس عشر والسابع عشر . وكان اول اتصال بالتقدم العلمي الطبي في اوربا قد جرى عن طريق مؤلفات ابن سلوم صالح افندي بن نصر الله الحلبي رئيس الأطباء في الدولة العثمانية (ت ١٦٧٠) وقد ادرك هذا بدايات حركة التقدم الطبية عند الأروبيين واقتبس من مؤلفاتهم . ومما هو جدير بالذكر ان مؤلفات هذا الطبيب قد توفرت انذاك في معظم خزائن الكتب العراقية . ومن تلك المؤلفات : « برء الساعة » و «غاية الاتقان في تدبير بدن الانسان » وقد توفي الحلبي قبل ان يتم تأليف هذا الكتاب فأتمه وهذبه نجله يحيى افندي . وقد ترجم الكتاب إلى اللغة التركية بعنوان « نزهة الابدان » (٤٧) . وهذا الكتاب « في علم الأمراض وقوانين تركيب الأدوية والطب الكيماوي). ويقع في اربعة اقسام تتناول الامراض وقوانين تركيب الأدوية وبيان الحاجة إلى التركيب وكيفية استعماله والاقرباذينات الجامعة في المركبات والطب الجديد الكيماوي (٤٨) .

بيد ان موارد علمية محدودة كهذه لم تكن غذاءا كافياً لحركة ثقافية نامية كالتي شهدتها الموصل ابان عهد الجليليين (٤٩) . حيث برز عدد من الأطباء منهم الحاج محمد العبدلي (ت ١٧٥٠) . ويتحدث المؤرخ محمد أمين العمري (ت ١٧٨٨) عن مصادر ثقافة العبدلي الطبية بقوله : ان الحاج محمد العبدلي « قرأ الطب والتشريح على المهرة والحذاق ، ففاق جميع اقرانه ... وغلب عليه دون غيره من العلوم » . وقد عرف

عن العبدلي رحلاته واسفاره العديدة واطلاعه الواسع على كتب الطب والتشريح ، فارتفعت مكانته الاجتماعية وذاعت شهرته حتى غدا رئيساً لاطباء الموصل طيلة النصف الأول من القرن الثامن عشر . يقول امين العمري عنه « وعامة اطباء بلدنا ونواحيها اخذوا عنه الطب بواسطة وبدونها » (٥٠) .

وقد برز العبدلي مشرفاً على طباء الموصل وجراحيها في معالجة الالاف من الجرحى الوافدين الى الموصل اثر انحسار المعركة التي دارت بين القوات العراقية وقوات الغزو الايراني بقيادة نادر شاه بالقرب من نهر العظيم في اوائل حزيران ١٧٣٣ وان من نتيجتها هزيمة نادر شاه وتشتت جيشه وزوال الحصار عن بغداد (٥١) . كما قصده عدد كبير من المرضى من كل ناحية من نواحي العراق وكثيراً ما كان يستدعى الى بغداد لمعالجة الوالي او غيره من المسؤولين وقد يصيب المريض على يده شفاء فتخلع عليه خلع القبول والرضى (٥٢) .

لقد تتلمذ على الحاج محمد العبدلي تلاميذ عديدون منهم نعمان بن عثمان الدفتري الموصلي صاحب كتاب «الرياض النعمانية في فوائد الطب في الحكمة الطبيعية» وجاء في اول المخطوطة هذان البيتان لاحدهم مادحاً المؤلف :

سرح الطرف في كتاب طبيب حاذق في طبائع الانسان
حين ترعى تلك الرياض بفهم تدراكن ان لا شقيق للنعمان

وقد كتبت اول نسخة للمخطوطة خلال سنتي ١٧٥١ — ١٧٥٢ ومما جاء في المقدمة «الحمد لله منشىء التركيب الانساني من عنصر التراب ومرتب الهيكل الحيواني من عروق واعصاب ...» (٥٣) ومن تلاميذ العبدلي كذلك محمد امين بن اسماعيل حفيد ياسين المفتي صاحب اليد الطولى في الطب وتركيب الادوية (كان حياً سنة ١٧٩٣) ، ومن اثاره كتاب «الشفاء العاجل والدواء الكافل» الذي كتبه سنة ١٧٩٣ . وعليه تتلمذ كذلك امين العمرى في علمي الطب والتشريح وبرع ابنه عبد الله بن امين بك في العلم ذاته ، وعرف بتركيب الادوية والحبوب والترياقات والمعاجين (٥٤) .

لقد كان من نتائج السمعة العلمية التي حصل عليها الحاج محمد العبدلي ان تحفز عدد من الشباب الموصلي للتخصص بدراسة الطب والبروز فية خلال الفترات اللاحقة . وهكذا اصبحت الموصل تقدم الخدمات الطبية ليس الى سكانها فحسب بل ولسكان المناطق المجاورة الذين توافدوا عليها للاستفادة من خبرة اطبائها المشهورين في تلك المرحلة التي سبقت ظهور المؤسسات الصحية الحديثة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (٥٥) .

لقد كان الطبيب الموصلي محمد الجلبي (١٧٧٦ – ١٨٤٦) من ابرز الاطباء واكثرهم شهرة وتأثيراً في مجال تطوير العلوم الطبية في العراق خلال هذه الفترة (٥٦) . ولد محمد الجلبي في الموصل سنة ١٧٧٦ من اسرة اشتهرت بأهتمامها بالطب وعلومه (٥٧) . وقد تلقى دراساته الدينية الاولى في الموصل على يد كبار العلماء المعروفين في عهده بحيث اتقنها والف فيها . وفي عهده شاعت الرغبة في دراسة الطب خاصة لدى الاوساط الثرية في المجتمع الموصلي. لذلك اتجه الجلبي الى دراسة الطب ولجأ الى الترجمة عن المؤلفات الاوربية مباشرة وكان يتقن اللغات التركية والسريانية واللاتينية وهكذا ترجم كتباً قيمة في اللاتينية الى العربية منها الطب الجديد الكيماوي للعالم الالماني براكليسوس المتوفى (١٥٤١) وصناعة الطب الكيمائي لفروليوس ؛ وقد استفاد من تلك الكتب في اثراء معلوماته المستمدة من تجاربه الشخصية العملية وكتب الطب الكلاسيكية التي انتجها العقل العربي آبان عصور الازدهار ، وتدل مؤلفاته الطبية على مدى اطلاعه وعمق ثقافته العلمية (٥٨) . اما ابرز مؤلفاته المخطوطة فهي: شرح ارجوزة ابن سينا . في الطب ويقع الشرح في (٢١٢) ورقة والطب المختار ويقول في مقدمته «اني بعدما شرحت ارجوزة الشيخ ابي علي (ابن سينا) لاح لي ان اجمع كتاباً آخر في جزئيات الطب مقتصرا في الالفاظ عنياً في المعاني وان لايشذ منه مرض ولاسبب ، واذكر من العلاقات مابين المرض او السبب باوجز علاقة . وان ماورد فيه من المعالجات ما جربته فكان غاية فبادرت بتصنيفه ...» (٥٩) . وزاد في اهمية كتابه هذا انه شرح فيه كيفية اخذ لقاح الجدري واستعماله واعراضه في الموصل بعد ان كان (جنو) قد اذاع اكتشافه لهذا اللقاح سنة ١٧٩٨ ففي الورقة (١٤٣) يذكر لقاح الجدري قائلاً:

«استخرج اطباء الافرنج المعاصرون تجديرا سالماً بالتلقيح من جدرى البقر ، اذ لايخرج فيه غير موضع التلقيح ؛ يخرج سابع يوم التلقيح ، او مايقاربه مع حمى قليلة تنصرف بيومها او يزيد ولم يرالمجربون احدا مات في هذا او تجدر ثانية الااذا كانت الايام وبائية والجدرى قاتلاً ...» (٦٠)

ولم يلبث الطبيب محمد الجلبي ان اعقب كتابه الثاني بكتاب طبي ثالث سماه «مفردات الطب المختار» ويقع في مقدمة وثمانية وعشرين باباً بعدد حروف الهجاء . ويتميز هذا الكتاب بكثرة مصادره وبتنوعها . اما عدد صفحاته فقد بلغت (٤٧٠) ورقة . ومما قاله في المقدمة «... لاح لي ان اجمع كتاباً ثالثاً في المفردات على النمط المذكور من الايجاز مع الغنى جامعاً لما تشتت من الكتب الكثيرة ، مفيداً بأسهل العبارات ... ثم اتلوه

بكتاب رابع في المركبات» وذكر في المقدمة كذلك عشرة قوانين للمفردات . الاول ذكر اسمائه بالالسن (اللغات) المختلفة ليعلم . والثاني ذكر ماهيته في لون وريح وطعم وتكرح وخشونة وملامسة الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة . والخامس ذكر منافعه في جميع البدن ، او في مرض مخصوص . السادس كيفية التصرف في الدواء كالغسل والسحق والطبخ والحل والنقع والحرق والتصعيد والتقطير ... الخ» والسابع ذكر مضاره والثامن ذكر مايصلحه والعاشر ذكر مايقوم مقامه . وقد زاد بعضهم ذكر الزمان الذي يؤخذ فيه الدواء والبعد الذي يؤخذ منه ، وكيفيه ادخاره» (٦١) ..

ويعدد الطبيب محمد الجلبي مصادر كتابه فيقول : «وقد وقع جمع كتابي هذا من الكتب المشهورة والمقبولة ، مثل (المجلد) الثاني من القانون لابي علي (ابن سينا) و«مالا يسع الطبيب جهله» وهو المعروف بجامع البغدادي والتذكرة لداؤد الانطاكي ؛ وبحر الجواهر لمحمد بن يوسف الطبيب الهروي . وكتاب مفردات ترجمة بطرس اندراوس اللبناني من اللغة (الفرنسية) الى العربية وبعضاً من (التحفة) وبعضاً من (المنهاج) وبعضاً من (الغاية والبيان) لصالح افندى وبعضاً من (مفردات الموجز) لنفيس وبعضاً من (مفردات مقدسي يوسف . واستعنت على بعضها باللغة القاموسية وبعضها بكتاب اللغة السريانية وهو المعروف بكتاب «تعريف» البهلولي لابن بهلول ... ثم اني نقلت منه الكتاب المعروف بالطب الجديد وهو الطب الكيماوي ، مفردات عملية وهي متداولة الان» (٦٢) .

ثم الف محمد الجلبي كتاب «رسالة في النبض» في (٢٤)ورقة وفيه فصل في النبض مقتبس من «نور البيان» واخر في «كامل الصناعة» كما له كتاب «العطايا في شرح الوقاية» . واستنسخ بعضاً من الكتب الطبية المهمة وكلف طلابه باستنساخ بعض المصادر منها كتاب «نهاية القصد في صناعة الفصد» (٦٣) .

لقد ظهرت في هذه الفترة محاولات واسعة لاستعمال طريقة(جنر) في التطعيم الوقائي من الجدرى والطاعون ففي سنة ١٧٨٦ قام(اوانيس مراديان) في بغداد باستعمال طريقة جنر في التطعيم الوقائي من الجدرى واقنع البغداديين بجدوى التطعيم . وكانت زوجته «تيريزا» تساعده في ذلك وقد استطاع وزوجته تلقيح اكثر من (٥٤٠٠٠) طفلا في تسع سنوات . وكان لمبادرة مفتي بغداد انذاك في تطعيم اولاده وحفيدته ضد الجدرى اثر كبير في اقتناع البغداديين بجدوى العلاج (٦٤) . وتشير بعض المصادر الى ان (مراديان) علّم القس بطرس بن بشارة الموصلي اصول التطعيم ليناهض وباء الجدرى في مدينة الموصل (٦٥). اما لوريمر فيشير الى ان طبيب المقيمية البريطانية ببغداد ادخل نظام

التطعيم ضد الطاعون عقب ان تلقى قدرا من امصال اللقاح من فينا في ٣٠ أذار ١٨٠٢ . وقد استخدمت هذه الامصال في اثناء بداية ظهور الطاعون ببغداد والبصرة في نيسان وايار من السنة ذاتها (٦٦) .

لقد ظهر في هذه الفترة عدد من العراقيين كانت لهم مشاركة فعالة في مجال الطب منهم على سبيل المثال محمد بن عبد الحسين الكاظمي الطبيب المتوفي سنة ١٨٠١ (٦٧) . وعلي بن محمد الحسيني الشهير بالحكيم ، توفي بالنجف سنة ١٨٨٣ وذكرله المؤرخون (١٧) مؤلفاً منها «رسالة في الوباء والطاعون» ويقال ان صيته ذاع في بغداد حتى انه استعمل الموسيقى في معالجة مرضاه (٦٨) . وبرز الطبيب اسماعيل الموصلي (ت١٨٨٤) في العلوم النفسية والعقلية وهو من مواليد الموصل ، تلقى علومه في مدرسة الصنائع التي اسسها مدحت باشا في بغداد سنة ١٨٧١ (٦٩) . وكان علي بن السيد محمد الطباطبائي (ت١٨٩٢) من المتبعين الماهرين في علم الطب . وقد اشتهر امره في مدينة النجف الاشرف (٧٠) . اما نظام الدين بك فكان طبيباً مختصاً بالامراض الباطنية . عمل في مستشفى نامق باشا ببغداد اواخر ١٨٩٣ (٧١) . وعرف عن شرف الدين بن السيد محمد منجم المرعشي (ت١٨٩٨) انه كان طبيباً نجفياً (٧٢) . وعمل السيد موسى بن هاشم العلوي (ت١٩٠٨) طبيباً في الكاظمية (٧٣) . كما عمل في الكاظمية كذلك موسى بن هاشم العلوى الملقب موسى فخر الاطباء (ت١٩٠٨) (٧٤) . ومن الاطباء المعروفين باقر بن خليل الخليلي النجفي وقيل انه كان «مرجعاً في الامراض المعضلة» وكانت له حلقة تدريس كبيرة توفى سنة ١٩١٤ (٧٥) .

كان لاعيان ووجهاء المدن واثريائها والاسر الحاكمة والقنصليات الاجنبية اطباء ، متخصصون . ولعل من ابرز الاطباء الاوربيين الذين عملوا في العراق خلال هذه الفترة الدكتور دي اربل De Erpel الذي اصبح الطبيب الخاص لوالي بغداد عمر باشا (١٧٦٤ — ١٧٧٥) . ويقال ان طبابته راجت وخاصة بين اعيان بغداد واثريائها (٧٦) . كما اشتهر الدكتور شارت Shart طبيب المقيمية البريطانية ببغداد والذي كان خير عون ، لأوانيس مراديان في نشر طريقة (جنر) في التطعيم ضد الجدري (٧٧) . وممن اشتهر ، ببغداد وكذلك سنة ١٩٠٩ طبيبان المانيان وفدآ الى بغداد وعملا ضمن القنصلية الالمانية فيها ، هما الدكتور أدلر Adler والدكتور لازار Lazar وقد استخدم هذان الطبيبان في الادارة العلمية العثمانية فكان يرتديان الطربوش العثماني في اثناء مباشرة عملهما في المستشفى (٧٨) .

ومنذ اواخر القرن التاسع عشر ظهر مايؤيد استيراد الادوية الحديثة من خارج العراق فقد اشار السير واليس بدج Budge في رحلته الى العراق سنة ١٨٨٨ أن احد تجار ، بغداد كان يتولى استيراد صناديق الادوية المحتوية على سلفات الكنين والكلورود ين وما الى ذلك (٧٩) .

(ج) النشاطات الطبية للارساليات التبشيرية :

يعد الاباء الكرمليون والكبوشيون والدومنيكان من اقدم المبشرين الذين وفدوا الى العراق ففي سنة ١٦٢٣ حل الكرمليون في البصرة وصارت لهم في سنة ١٧٢١ ارسالية ببغداد (٨٠). . اما الكبوشيون فقد اسسوا رسالتهم في بغداد سنة ١٦٢٦ ثم قصد منهم جماعة الموصل في ١٦٣٢ . وعلى الرغم من ان اهداف المبشرين كانت دينية الأأنهم اتخذوا من التطبيب والتعليم وسيلة في الحصول على بعض المكاسب التبشرية (٨١) . فمنذ سنة ١٧٢٨ سمح والي بغداد للكرمليين بتوصية من فرنسا بأنشاء كنيسة ومدرسة للصبيان . و سنه ١٨١٥ افتتح أول مستوصف لهم ببغداد (٨٢) .

اما الاباء الدومنيكان الذين اسسوا رسالتهم في الموصل سنة ١٧٥٠ فقد كان يتقدمهم طبيبان ايطاليان مبشران هما الاب فرنسسكو توریاني Tuoriane والاب دومنيكو كود يلنشيني Codelinchieni . وقد استقبلهم الجليليون بحرارة وافسحوا لهم مجالاً للعمل ودافعوا عنهم . واشتهر الدومنيكان بصناعة الطب . ولم تقتصر خدماتهم الطبية على مدينة الموصل وانما قد موها لكل من التجأ اليهم . فعندما مرضى أحد اقرباء حاكم العمادية بهرام باشا ١٧٥٣ ارسل امين باشا والي الموصل الاب توریاني لمعالجته . وفي سنة ١٧٥٤ استدعي الحاج حسين باشا الجليلي وكان يومذاك والياً على قارص الاب المذكور من الموصل لمعالجته من مرض ألم به . وقد توفي الاب كود يلنشيني في القوش سنة ١٧٥٣ . وفي تشرين الاول ١٧٦٩ قدم الموصل الاب جان باتيستا بويتي Boeiti ولما توفي احد مرضاه اتهم بتسميمه فحبسه فتاح باشا والي الموصل ثم نفاه في حزيران ، ١٧٧٠ . واشتهر من المبشرين الدومنيكان الاب منصور روفو P. Mansour Ruvo والاب ليولد سويدني Soidni (٨٣) .

وظل نشاط المرسلين الايطاليين محدوداً . اما اسباب ذلك فتعزى الى مواجهتهم متاعب مالية اضافة الى عدم تمتعهم بالحماية من قبل احد السفراء الاوربيين في استانبول لذلك اضطروا الى مغادرة الموصل سنة ١٨١٥ لكنهم عادوا اليها سنة ١٨٤٠ . وكان الاب ؛ اوغسطين ماركيي Merciai من انشط اولئك المبشرين الناجحين خلال الفترة بين

١٨٤٠ ـ ١٨٥٦ (٨٤) . ـ فبالاضافة الى نجاحه في ادخال عدد كبير من اليعاقبة والنساطرة في الكاثوليكية، فقد «ذكرت له شفاءات غريبة خارقة حققت على يديه» (٨٥) ـ ويقول الاب فيه « ان ماركيي كان يتمتع باحترام الجميع له ومما يؤيد ذلك أنه كان في سنة ١٨٥٢ يتجول بحرية في كل مناطق ولاية الموصل لتقديم خدماته الطبية للناس (٨٦) .

ولكي تحصل الرسالة الدومينيكية على الحماية الضرورية ولخوف البابوية من توافد المبشرين البروتستانت الى العراق منذ اواخر العشرينات من القرن التاسع عشر فقد سارع البابا بيوس التاسع سنة ١٨٥٦ فأصدر قراراً بنقل قيادة البعثة التبشرية الدومينيكية في ، الموصل الى دومنيكان فرنسيين (٨٧) . ولقد برز من هولاء في مجال الطب الاب هياسانت بيسون Besson والاب لويس ليون Lion والاب الرئيس كالان Galland ، والدكتور دنيس كوليه Collet . وقد اشار الاب فيه الى ورود ذكر طبيب مدني اوربي الى جانب الاباء وكان برلوني الجنسية منذ سنة ١٨٥٩ . كما وردت سنة ١٨٦٤ اشار الى طبيب اوربي آخر في الموصل (٨٨) .

كان الاباء الدومنيكان حتى هذه الفترة يعانون من ضيق البناء المخصص للمستوصف والصيدلية . غير ان الجنرال الفرنسي ليجون Leseune مر بالموصل سنة ١٨٦٧ قادماً من ايران واثناء رحلته اصيب بمرض سبب له الوفاة بعد بضع سنوات . وفي سنة ١٨٧٤ تبرعت والدته بمقدار كبير من المال لانشاء مستشفى في الشرق . وفي ١٨٧٦ تم افتتاح مستشفى ليجون في مبان اكثر ملاءمة مما كانت عليه من قبل. وقد انضم الى الخدمة في هذا المستشفى راهبات التقدمة ، وكن في الموصل منذ سنة ١٨٧٣ يقدمن خدماتهن الطبية (٨٩). ويشير الاب فيه الى ان عدد المرضى الذين أموا المستشفى سنة ١٨٧٧ كان يتراوح بين (٨٠ و ١٠٠) مريضاً يومياً . وقام المستشفى خلال ايام المجاعة التي حدثت بين سنتي ١٨٧٩ و ١٨٨٠ ، الى جانب تقديم العلاج الطبي بتوزيع الغذاء في كنيسة الساعة الكبيرة التي اهدتها اليهم الحكومة الفرنسية اقراراً منها بجهودهم التبشرية . لذلك اخذ عدد المراجعين يزداد فبلغ سنة ١٨٨٧ (٣٠) ثلاثين الف مراجع . وقد التحق بالاب ، المسؤول عن المستشفى راهبات ومساعدان وخادمة . وفي سنة ١٨٨٨ بلغ عدد المراجعين (٣٨,٢٠٠) مريضاً . وفي سنة ١٨٩٠ ارتفع عددهم الى (٥٢,٠٠٠) مريضاً أي (١٠٠٠) مراجع اسبوعياً وبمعدل (٢٠٠) مراجع يومياً. ومنذ سنة ١٨٨٧ خصصت قاعة للمعوزين

من المسافرين الغرباء. وبعد سفر الاب كوليه سنة ١٨٧٧ كان يدير المستوصف طبيب بولوني هو الدكتور الكسند ركوستاف Gustave الذي توفي في الموصل سنة ١٩٠٣ . ومن بعده تولى ادارة المستوصف وللسنوات ١٩٠٣ — ١٩٠٥ طبيب لبناني . وفي ١٩٠٧ . استطاع المستوصف الاستفادة من خدمات طبيب موصلي تخرج حديثاً من كلية الطب الفرنسية ببيروت وهو الدكتور حنا خياط الذي اخذ يحضر يومي الاربعاء والسبت من كل اسبوع لعيادة المرضى (٩٠) . وكانت الرسالة الدومنيكية تدفع له اجوره في حين كانت معالجة المرضى مجانية . وكان معدل المرضى الذين يستقبلهم يومياً يتراوح بين (٣٥ و٤٥) مريضاً . اما بقية ايام الاسبوع فكانت الاستشارات الطبية تقدم من قبل الراهبات وبمعدل (١٥٠ — ٢٠٠) مريض يومياً او مايقارب العشرين الف مريض سنوياً وثمة احصائية ترجع الى سنة ١٩٠٩ تشير الى ان عدد الذين استفادوا من خدمات المستوصف خلال تسعة اشهر بلغ (١٦٨٦٧) مريضاً بينهم (٨١٢٤) مسيحياً و(١٣٥٦) مسلماً و(١٣٨١) يهودياً . وعلى اثر نشوب الحرب العالمية الاولى غادر الاباء الموصل لكنهم عادوا سنة ١٩٢٠ لينصرفوا الى عملهم التبشيري ويتخلون عن نشاطاتهم الطبية بعد ان تحملت الحكومة العراقية مسؤولية تنظيم الخدمات الصحية (٩١) .

اما جمعية بعثة الكنيسة Church Missionary Society فقد اسست سنة ١٨٨٢ مستشفى في بغداد. ثم مدت نشاطها بعد ذلك الى الموصل. ومن بين الذين عملوا في هذه البعثة انطوان كيفريلي Anton Givrail وروبرت بروس Robert Bruce (٩٢) :

كما اسست البعثة العربية التبشيرية Arabian Mission فرعاً لها في البصرة منذ آب ١٨٩١ واهتمت بالنشاط الطبي. ويذكر الكسندر أداموف: أن المساعدة الطبية المجانية للسكان كانت في مقدمة الوسائل التي حاول من خلالها المبشرون الاميركان تنفيذ اهدافهم التبشيرية ، اذ يقوم الطبيب في المستوصف بتلقين المريض حقائق تعاليم المسيح قبل ان يباشر فحصه (٩٣) وقد أنشأت وظيفة طبيب في ارسالية البصرة في ١٨٩٢ . واستقدمت البعثة التبشيرية بعض الاطباء المبشرين منهم الدكتور (جيمس وايكوف) الذي وصل البصرة سنة ١٨٩٤ ثم اعقبه الدكتور (لانكفور وورول) الذي وصل بعد زميله بسنة . وافتتح الاميركان لهم مراكز صحية في العمارة والناصرية .وفي سنة ١٨٩٧ بدأت السيدة زويمر Zwemer زوجة المبشر صموئيل زويمر بتطبيب النساء في البصرة ويقول أداموف « ان البعثة حرصت على ان يكون لها منذ تلك السنة امرأة طبية تمكنها من ان توصل الدعاية البروتستانتية الى النساء المسلمات» (٩٤) .ويذكر لوريمر بأن المبشرين كانوا يقدمون

الدواء والاستشارة الطبية للذين يحضرون صلاة الصباح التي كان يبدأ بها عمله اليومي (٩٥) .

(د) المؤسسات الصحية الحديثة :

١ ــ المستشفيات :

ظهرت المؤسسات الصحية الحديثة في العراق منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ولربما كان المستشفى الذي بناه محمد باشا البيرقدار والي الموصل سنة ١٨٤٤ هو اول ، مستشفى حديث في العراق (٩٦) . الان معظم المصادر تؤكد بأن مدحت باشا الذي يعد من اعظم الولاة المتنورين الذين حكموا العراق (١٨٦٩ ــ ١٨٧٢) وله فضل كبير في تحديثه ، قد بدأ الخطوات الاولى في تأسيس الكيان الصحي الحديث بتأسيسه مستشفى يتسع لـ (٥٠) سريراً على شاطيء دجلة في الجانب الغربي من بغداد بتبرعات الاهالي سنة ١٨٧٢ . وكان طبيب البلدية بمثابة المشرف العام على هذا المستشفى الذي ضم عدداً من الاطباء والجراحين وقد اغلق المستشفى في سنة ١٨٨٧ وذلك لقلة الكادر الطبي المؤهل وتحولت بنايته الى مدرسة اعدادية . وقد استمر هذا الوضع حتى فترة قصيرة من نشوب الحرب العالمية الاولى حين اعيد فتح المستشفى ثانية (٩٧) .

كما انشأ مدحت باشا المستشفى العسكري (الخسته خانة العسكرية) والذي وصفته جريدة الزوراء بعددها الصادر في ٢٣ جمادى الاول ١٢٨٦(١٨٦٩) ،بالمستشفى الكبير واحتوت بنايته على (١٨٠) سريراً ومعدات طبية حديثة . وبالرغم من محدودية هاتين المؤسستين الصحيتين لدى غالبية العراقيين الا ان مدحت باشا احدث نقلة نوعية في الميدان الطبي حيث بدأ الحملة الاولى للنهضة ضد التخلف والشعوذة والمرض المنتشر بين العراقيين آنذاك (٩٨)

اما الوالي الثاني الذي اهتم بتأسيس المستشفيات فهو نامق باشا (١٨٩٩ ــ ١٩٠٢)الذي يشبه مدحت باشا في اهتماماته الاصلاحية .ففي سنة ١٩٠٠ شيد مستشفى جديد في الباب الشمالي من بغداد على الجانب الايسر من نهر دجلة . وقد احتوى المستشفى على ردهة كبيرة وعدة غرف اعد بعضها لايواء المرضى وخصص البعض الاخر للامراض الباطنية والجراحة ولامراض العيون . اما ادارة المستشفى فكانت مؤلفة من الطبيب الاول (سر طبيب) والمدير والجراح والكحال .وكان الوالي يطمح لان يجعل هذا المستشفى من الطراز الاول فجلب اليه الادوية والالات الجراحية من اوربا . كما تعين فيه اطباء مختصون

امثال الفريق الطبيب حمدي باشا ، والدكتور ذهني بك للامراض الجلدية والدكتور، نظام الدين للامراض الباطنية والدكتور سامي سليمان لامراض العيون والدكتور محمد كاني بك الذي تولى ادارته قبيل الحرب العالمية الاولى(٩٩).وبعد سنة ١٩٠٨ اسندت وظائف التمريض فيه الى النساء حيث عهد الى بعض الراهبات بالعمل كممرضات. وفي ١٩١٤ سعى الوالي جاويد باشا لتطوير المستشفى وزيادة عدد الاسرة فيه ،حيث كانت لاتتجاوز الى (١٠٠) سرير (١٠٠) .

لقد خلق الانقلاب العثماني الذي تم في ٢٣ تموز ١٩٠٨ ظروفاً جديدة ملائمة ، ومشجعة للنشاط الطبي وللتوسع في الخدمات الصحية . فقد شهد العراق في أعقاب ذلك تأسيس بضعة مستشفيات حديثة منها المستشفى الذي أسسه الوالي نجم الدين ملا سنة ١٩٠٩ وجلب لادارته طبيب عسكري يحمل رتبة عالية (١٠١) وكان في البصرة خلال هذه الفترة مستشفى الغرباء الذي يقع في محلة عز الدين ومستشفى البحرية في التنومة وقد خصصت أحدى البنايات لتكون مستشفى لعزل Isolation المومسات المصابات بالامراض الزهرية (١٠٢). ومارس الاطباء العسكريون العثمانيون الموجودون في البصرة آنذاك التطبيب المدني وقد تأسس في الموصل مستشفى مدني بالاضافة الى المستشفى العسكري الذي بني سنة ١٨٤٤ (١٠٣) .

ومهما يكن من أمر فان عدد المستشفيات التي تأسست في العهد العثماني كانت قليلة فقد كان هنالك عند اندلاع الحرب العالمية الاولى مستشفى واحد بعشرين سريراً في كل من بغداد والموصل والبصرة (١٠٤) .

ولم تكن في العراق ادارة صحية خاصة حتى ١٩٠٥ . حين تشكلت خلالها رئاسة ، للصحة تألفت من اربعة اشخاص هم طبيبا البلدية ومفتش صحي وكاتب .. وفي ١٩٠٨ استحدث منصب مدير صحة الولاية . واستمر الوضع على هذا الحال حتى ١٩١٤ اذ ، تأسست مصلحة الصحة العامة بعد الاحتلال البريطاني (١٠٥) .

ومع مطلع القرن الحالي بدأ الرعيل الاول من الاطباء العراقيين يعمل على تقديم ، الخدمات الطبية للمواطنين . وقد تمثل هذا الرعيل بخريجي كلية حيدر باشا الطبية ، باستانبول (تأسست في مطلع القرن التاسع عشر) ومدرسة دمشق الطبية (تأسست سنة ١٩٠٣)والكلية الاميركية في بيروت (تأسست سنة ١٨٦٦) وكلية الطب الفرنسية في بيروت (تأسست سنة ١٨٨٣) ولعل في مقدمة هؤلاء: اسماعيل الصفار (تخرج ١٩٠٣) ومحمد

نصرت فؤاد (١٩٠٨) وعلي فكري البغدادي (١٩٠٨) وداؤد الجلبي (١٩٠٩) وحمدي زين العابدين (١٩١٢) وعبد الله الدملوجي (١٩١٣) ويحيى نزهت وجلال العزاوي، وداؤد الدبوني (١٩١٤) وفائق شاكر (١٩١٥) وحسين حسني (١٩١٦) ومحمد زكي وسامي شوكت (١٩١٧) وهاشم الوتري وصائب شوكت (١٩١٨)، وشوكت الزهاوي (١٩١٩) وابراهيم عاكف الالوسي وتوفيق رشدي وشاكر السويدي (١٩٢٠)، وبهجت خضوري وحنا خياط ونصوري فرج وفتح الله غنيمة ونور الله موسى وعبد الله قصير ورزق الله بحوشي. وقد تعاون هؤلاء مع الاطباء العرب والاجانب الذين عملوا في العراق وبلغ عدد هم سنة ١٩٢٢ (١٧٧) طبيباً ساهموا في وضع اسس الكيان الصحي الحديث في العراق (١٠٦).

٢ ــ مؤسسات الحجر الصحي (الكرنتينه):

لقد اثيرت قضية الوقاية الصحية في العراق والخليج العربي كلة في مؤتمر الصحة الدولي الذي انعقد في باريس سنة ١٨٩٤. وفي مؤتمر الصحة الذي انعقد في البندقية سنة ١٨٩٧. لذلك قررت السلطات العثمانية انشاء مركز للحجر الصحي (كرنتينة) في البصرة سنة ١٨٩٥.

وكان الهدف الرئيس في انشاء المركز هو درء عدوى انتشار الطاعون من الهند والكوليرا من موانىء الخليج العربي الى العراق. لذلك فان السفن القادمة من هناك بمافيها سفن البريد كانت تتعرض للحجر والمراقبة لمدة عشرة ايام ويعزل ركابها في مركز الحجر الصحي ويجري تطعيم امتعتهم في الغرف التابعة للمركز. اما السفن القادمة من اوربا فكانت تتعرض للحجر والمراقبة ولكن لفترة اقل من عشرة ايام. ولقد تغيرت هذه القواعد منذ ١٩٠٩ بحيث اصبح بامكان السفن القادمة من الهند مواصلة سيرها بعد اجراء الكشف الطبي اذا كان قد مضى عليها في الطريق اكثر من عشرة ايام. اما السفن التي مضى عليها اقل من عشرة ايام فانها تظل في مركز الحجر الصحي حتى تكمل الايام العشرة، كما ان السفن التي تحمل الزوار الهنود الى العتبات المقدسة فتكون مدة حجزها خمسة ايام (١٠٧).

كان مركز الحجر الصحي في البصرة يتبع ادارة المجلس الصحي الدولي العثماني في استنبول. وفي ١٩٠٠ عين الدكتور «بوريل» الفرنسي بوظيفة الضابط الصحي في البصرة. وفي كانون الثاني ١٩٠١ كتب تقريرا الى المجلس الصحي عن موضوع الوقاية الصحية.

وقد انتقد بقسوة صرامة النظام المعمول به في البصرة ، اذ مابين آذار ١٨٩٦ وايلول ١٩٠٠ خضع لهذا النظام مالايقل عن (٤٠٩) سفن تجارية ، كما خضع للعزل والتطهير (٨٠٠٠) مسافر و (٢٠٠٠٠) الف عضو من اعضاء أطقم السفن بلا فائدة سوى ذلك الربح الصافي الذي يقدر بحوالي (٤٠٠٠) جنيه استرليني عادت الى الدائرة الصحية من تلك العمليات (١٠٨) . ويرى لوريمر بان نظام الحجر الصحي الذي ظل حتى ١٩١٤ نظرا الى التشديد الزائد والتغيير الدائم في القوانين عائقا خطيرا في وجه التجارة والسياحة في العراق . هذا فضلا عن ان القيمة الوقائية لهذا النظام ضعيفة جدا ، حيث ان كثيرا من المسافرين يتفادون هذا النظام (١٠٩) . اما لونكريك فيرى في نظام الحجر الصحي العثماني سلاحا مزعجا يستخدم بسهولة ضد الاجانب لان كل فرد بوسعه ان يشتري السماح التام بدراهم معدودة (١١٠) .

وفيما يتعلق بالحجر الصحي على المواطنين في اثناء انتشار الاوبئة والامراض فان هناك الكثير من النقد الذي وجه الى الاجراءات الوقائية التي كانت السلطات العثمانية تتخذها (١١١) .

فيشير لوريمر الى ان هذه السلطات لم تكن جادة في اتخاذ اجراءات وقائية على نطاق واسع في العراق ، فقد اسيء تطبيق الحجر الصحي المنزلي . اذ كانت العائلات الفقيرة تحبس حتى يقضي عليها الوباء ، بينما نجد ان الاغنياء كانوا يدفعون الرشاوي لاخلاء السبيل وينقلون العدوى معهم في تحركاتهم (١١٢) .

ومهما يكن من أمر فان السلطات العثمانية لجأت في فترات مختلفة وخاصة عند انتشار الامراض الى اقامة نقاط للحجر الصحي في كل من خانقين والسليمانية ومندلي وشهرزور الا ان تدابير الحجر ظلت غير مجدية ولم تطبق على الوجه المطلوب خاصة وان مستوى المشرفين عليها من الجند ورجال الامن وغيرهم كان من شأن ان يجعل تدابير الحجر الصحي شيئاً لااهمية له . ومع هذا فان السلطات الصحية استمرت بأتخاذ الاجراءات لحماية العراقيين من الامراض الوافدة ، فعلى سبيل المثال منعت الايرانيين من زيارة المراقد المقدسة حين انتشرت الكوليرا في ايران سنة ١٨٧٠ مالم يتزودوا بشهادة السلامة الطبية في نقاط الحجر الصحي . كما فرضت الحجر على جميع القادمين من الموانىء الايرانية . الا ان مثل هذه الاجراءات اثبتت عدم فعاليتها (١١٣) . ويعتقد لونكريك بأن موقف القوى الرجعية والمتنفذة لعب دورا كبيرا في فشل تلك الاجراءات حيث ان هذه القوى كانت تعد كل عمل يتخذ للحيطة ضربا من الزندقة وكثيرا ماأذن للقوافل الواردة من المناطق التي حل فيها الطاعون من ايران في ان تدخل العراق بكل حرية (١١٤) . ويضيف

الدكتور القهواتي الى ذلك قوله : « ولا نجانب الصواب اذا قلنا بأن التشدد في تنفيذ تعليمات دوائر الحجر الصحي والمبالغة في تطبيقها من قبل السلطة العثمانية المحلية كانت تأخذ احيانا طابعا سياسيا تبعا لعلاقة الدولة العثمانية بالحكومات الاجنبية » (١١٥) .

ولكن رغم المبالغات والانتقادات التي وجهت لمراكز الحجر الصحي العثمانية وكوادرها الاانه من الانصاف القول بأن الاجراءات تلك تبعا للامكانات المحدودة كانت كفيلة بالحد من انتشار الامراض لعديد من السنين خاصة لوعلمنا بأن عدد الوافدين لزيارة العتبات المقدسة في العراق من الهند وايران والمناطق الموبوءة الاخرى كان كبيرا لدرجة لوسمح لهم جميعا وبدون اجراءات وقائية بالمرور لحصد المرضى السكان حصدا في كل سنة ، وهذا ماكان يحدث بالفعل في السنوات التي كانت السلطات فيها تتساهل بالسماح لهم بالعبور او عندما كانوا يتحايلون على السلطة ويتخلصون من مراقبتها (١١٦) .

حقا لم يكن في العراق خلال العهد العثماني وحتى نشوب الحرب العالمية الاولى واحتلال الانكليز البصرة في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٤، مؤسسات صحية كافية لمواجهة حاجات السكان المتزايدة الى الرعاية الصحية. كما ان عدد الاطباء العراقيين كان قليلا لهذا فانه لم يكن لدى العثمانيين عند انسحابهم من العراق مايمكن الاعتماد عليه في المجال الصحي (١١٧).

٤ — الادارة والمؤسسات الصحية في عهد الاحتلال البريطاني :

اسست سلطات الاحتلال البريطانية في البصرة نظاماً اداريا. استمدت خطوطه الرئيسة من نظام الادارة الهندية . كما اعطت للقضايا العسكرية المرتبة الأولى من اهتمامها وتم استبدال الموظفين المسؤولين في الادارة العثمانية السابقة بضباط من الحملة البريطانية لم يكن لمعظمهم دراية بشؤون الحكم. ولم تتخذ الترتيبات اللازمة لتنظيم الخدمات الصحية الا بعد وصول السيد وليم ويلكوكس Wilcox من لندن في ١٩١٥ ليكون طبيبا مستشاراً للقوات البريطانية . وكان لوصوله اثرمباشر في تجديد الاوضاع الطبية في البصرة . خاصة بعد ان ادرك البريطانيون بضرورة اتخاذ اجراءات عاجلة لمواجهة النقص في المؤسسات الصحية بعد ان امتلأت المدينة بالقوات البريطانية التي بدآت ظروفا صحية صعبة (١١٨).

لقد عمل مع السير ويلكوكس في البصرة عدد من الأطباء الذين استدعاهم من الهند وكان لبعضهم «معرفة كبيرة بالاوضاع الصحية في بلدان الشرق» منهم الكولونيل ملفل Colonel H.G.Melville وكان استاذا في كلية لاهور الطبية في الهند Lahore Medical College (١١٩) .

مرت السياسة الصحية البريطانية في البصرة خلال الفترة ١٩١٤ – ١٩٢٠ بثلاث مراحل انحصرت الأولى بين احتلال البصرة في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٤ واحتلال بغداد في ١١ آذار ١٩١٧. اما المرحلة الثانية فقد كانت بين احتلال بغداد واحتلال الموصل في ١٠ تشرين الثاني ١٩١٨ وامتدت المرحلة الثالثة بين احتلال الموصل وتأسيس «وزارة المعارف والصحة العمومية» في ١٠ أيلول ١٩٢١ .

المرحلة الاولى :

كان اتجاه سلطات الاحتلال يكمن في اعتبار الخدمات الصحية للمواطنين شيئا ثانويا وكان هدفها الاساس في هذه المرحلة العمل على ضبط الامن وترسيخ السيطرة البريطانية لكن هذه السلطات سرعان ماوجدت ان اقامة المؤسسات الصحية مسألة ضرورية للمحافظة على صحة القوات المسلحة البريطانية وابقائها في منأى عن الامراض والحفاظ على فاعليتها لذلك حددت اماكن معينة كمستشفيات لاستقبال ومعالجة المرضى والجرحى من الضباط والجنود، كان اهمها قصر الشيخ خزعل، حاكم الاحواز الواقع في محلة الرباط وقصر الحاج محمود النعمة في منطقة يوسفان والمطل على شط العرب (١٢٠). هذا فضلا عن العديد من السفن المهيأة كمستشفيات صغيرة. وكانت سلطات الاحتلال تنقل المرضى والجرحى الى الكويت ثم الى الهند او الى الهند مباشرة بقصد المعالجة او النقاهة هناك. وقد تضاعفت عملية نقل المرضى الى الهند بصورة خاصة في شهر تموز ١٩١٦ حين بلغ المرضى من رجال الحملة البريطانية قرابة (١٨٠٠٠) رجل (١٢١):

كما استفادت سلطات الاحتلال من الخدمات الكبيرة التي كان يقدمها «مستشفى لانسنك التذكاري» التابع الى البعثة العربية التبشيرية في البصرة (١٢٢) .

هذا وعينت السلطات المحتلة الميجر نورمان سكوت Scott ، الذي كان يشتغل طبيباً في المقيمية البريطانية في العهد العثماني في ٣٠ كانون الاول ١٩١٤ كأول طبيب مدني يشرف على الشؤون الصحية في البصرة (١٢٣) .

كما اتخذت الاجراءات اللازمة لفتح مستوصف عام في مدينة البصرة .وفي كانون الثاني ١٩١٥ بدأ المستوصف باستقبال المرضى (١٢٤). وفي هذه الفترة باشرت السلطات المحتلة بتأسيس مستشفى مدني . وقد بدأ المستشفى نشاطه الطبي لكنه لم يكن قادرا على استيعاب الاعداد الكبيرة من المراجعين . فبعد مضي اكثر من سنتين لم يكن فيه سوى أربع ردهات تسع كل منها ثمانية مرضى فقط. وفي ٣١ كانون الأول ١٩١٧ غدا

المستشفى يضم مائة وخمسين سريرا. كما تبرع احد المواطنين بمبلغ عشرة آلاف روبية لتطويره وتزويده بالمعدات الطبية الحديثة وبعد ان شعرت السلطات البريطانية بزيادة الأقبال على المستشفى وخاصة العيادة الخارجية فيه عمدت في ١١ نيسان ١٩١٧ الى فرض اثمان للعلاج والدواء تراوحت بين ثمانية آنات (الآنة اربعة فلوس) وروبية واحدة (الروبية ٧٥ فلساً) وذلك لتخفيف الضغط على المستشفى (١٢٥).

لقد اجرت السلطات المحتلة بضعة تحسينات على مستشفى البصرة ومن ذلك اضافة جناحين احدهما خاص بالجراحة في اليوم الأول من تموز ١٩١٧ تضم ستين سريرا والثاني للنساء يضم ثلاثين سريرا (١٢٦).

قامت سلطات الاحتلال بفتح بضعة مستوصفات في العشار والزبير والقرنة والعمارة والناصرية وسوق الشيوخ وعلي الغربي وقلعة صالح ،وقد اشرف على هذه المستوصفات اطباء عسكريون بريطانيون ويساعدهم في عملهم بعض الأطباء والمضمدين الهنود. وقد اقبل السكان على المستوصفات اقبالا شديدا. فعلى سبيل المثال بلغ عدد المراجعين لمستوصف العشار منذ افتتاحه في الأول من نيسان ١٩١٥ وحتى ٣١ آذار ١٩١٧ (٤٠٩٣٣) مراجعاً. لكن هذا العدد سرعان ماتناقص منذ ربيع ١٩١٧ على اثر فرض السلطات المحتلة ضريبة نقدية على الدواء والعلاج. كما ان هذه المستوصفات ظلت تشكو من قلة العاملين فيها وضعف كفاءتهم. هذا فضلا عن النقص في الوسائل الطبية اللازمة للعلاج (١٢٧).

واستفادت سلطات الاحتلال من مستشفى الحميات (العزل) العثماني لعزل المصابين بالامراض الزهرية. وقد استمر ذلك حتى اليوم الاول من تشرين الاول ١٩١٦ حين بدأت كذلك بأرسال المصابين بامراض معدية كالزحار والطاعون اليه. اما المصابون بالامراض العصبية فلم يكن من الممكن معالجتهم في البصرة لعدم وجود اطباء متخصصين لذلك كانوا يرسلون الى الهند للمعالجة (١٢٨).

وقامت سلطات الاحتلال بتطوير عمل المحاجر الصحية في البصرة بعد فترة تقل عن شهرين من تاريخ السيطرة على البصرة وذلك للحيلولة دون اصابة القوات المحتلة بالامراض المعدية التي كانت تأتي مع الاعداد الضخمة من جنود الامدادات وغيرهم من الوافدين الاجانب الذين يأتون بقصد العمل. وقد بدأ هذا الاهتمام حين عين الميجر اندرسن Anderson في ٩ كانون الثاني ١٩١٥ مديرا لصحة الميناء في البصرة. وفي آذار اتخذ الميجر اندرسن

بناية مستشفى البحرية العثمانية القديم في التنومة مركزا للحجر الصحي وافرد فيه اماكن محددة لمعالجة افراد السلطات المحتلة الذين يصابون ببعض الامراض المعدية كالطاعون والكوليرا والجدري. وفي ٤ أيلول ١٩١٥ انتقل المركز الى بناية الحجر الصحي العثماني وبنيت في المنطقة المجاورة له بضعة اكواخ تستوعب كل منها خمسين شخصا (١٢٩).

ان اهتمام السلطات البريطانية بالصحة العامة في البصرة لم ينطلق كما تقول المس بل، الا من وجهة النظر العسكرية وكأحتياطات ضرورية للمحافظة على صحة جنودها وضباطها والابقاء على فاعليتهم في القيام بواجباتهم العسكرية. أما الخدمات الصحية التي قدمت للمواطنين ،فقد كانت كذلك «وسيلة مقنعة من وسائل الدعاية (للبريطانيين) يفوق جميع الوسائل الاخرى التي ابتدعها الخطباء المصقعون او ابرع الناشرين من الكتاب (١٣٠) .

وبالرغم من الاجراءات الصحية التي قامت بها سلطات الاحتلال والتي سارت مع التدابير الوقائية في خط واحد لتحسين الاوضاع الصحية واشاعة النظافة واستخدام المباول والمراحيض والمحارق وتفتيش المجازر والاسواق وشن حملة على الذباب والفئران ، وترتيب جمع القمامة من الشوارع ، الا أن هذه الأجراءات لم تقف حائلا امام انتشار الكثير من الامراض والاوبئة التي وفدت مع القوات البريطانية نفسها فبعض الامراض مثلا لم تكن شائعة في البصرة ، لكنها اخذت تنتشر في اثناء الاحتلال وبعده كالبرداء (الملاريا) وقد كانت الملاريا سبباً في وفاة (٧ ٪) من الوفيات المسجلة بالبصرة سنة ١٩١٧ . كما جاءت النزلة الوافدة (الانفلونزا) مع العسكريين البريطانيين القادمين من الهند واوربا فسببت عددا هائلا من الوفيات وكذلك مرضا (التهاب السحايا) و(الحمى الراجعة) اللذان لم يكونا معروفين في البصرة قبل الاحتلال وقد جاءا اليها مع سفن الامدادات والتجهيزات البريطانية من مصر وافريقيا واوربا (١٣١) .

المرحلة الثانية :

احتلت القوات البريطانية بغداد في ١١ آذار ١٩١٧ . وبدأت سلطات الاحتلال بتنظيم الادارة على نحو اكثر تعقيداً من الادارة التي اسست في ولاية البصرة . كما رفعت درجة رئيس الضباط السياسيين بحيث اصبح حاكماً مدنياً عاماً Civil Commissioner وقد انيطت الشؤون الصحية بطبيب عسكري معار من احدى الفرق العسكرية يساعده في ذلك قسم من اقسام « دائرة الصحة العسكرية » وقد استمر ذلك حتى ربيع

١٩١٩ . وكانت جميع التجهيزات الطبية والجراحية تقدم من المخازن العسكرية علماً بأن المؤسسات الصحية المدنية لم تكن مترابطة بعضها ببعض ، نظراً لعدم وجود أية دائرة مركزية ترجع اليها لكن هذا النقص عولج من آب ١٩١٨ بتعيين نائب لمعاون مدير الخدمات الطبية يشتغل في دائرة المدير العسكرية للخدمات الطبية ويقوم بدور ضابط ارتباط لهذا الغرض . وفي شباط ١٩١٩ اصبح رئيساً (لمصلحة الطب) التي سميت بعد ذلك (مصلحة الصحة) . ثم عين« سكرتيرا للشؤون الصحية » في آذار ١٩١٩ حينما تكامل تنظيم مصلحة الصحة (١٣٢) . وكان يوجد يومذاك خمسون مستشفى ومستوصفاً مدنياً يدير ثلثاها موظفون مدنيون مع ان تسعة منها كان يشرف عليها اطباء عسكريون . وفي ١٩١٩ تكونت نواة المذخر الطبي الملكي في بغداد . وبدأت العناية بالصحة العامة تنتقل شيئاً فشيئاً الى السلطات المدنية . وتشمل هذه تفتيش السجون والاسواق والمجازر واعداد المياه المعقمة والاجراءات الضامنة للنظافة العامة ومكافحة الفئران والبعوض والذباب (١٣٣)

المرحلة الثالثة :

دخلت القوات البريطانية مدينة الموصل في ١٠ تشرين الثاني ١٩١٨ وعين الكولونيل ليجمن Leachman حاكماً سياسياً وعسكرياً فيها . وقد اتخذت السلطات المحتلة بعض الاجراءات الصحية منها توسيع مستشفى الهلال الاحمر العثماني في الموصل وجعله مستشفاً مدنياً فيه قاعات للنساء والرجال . وكان يساعد الجراح المدني فيه معاون طبيب انكليزي ورئيسة ممرضات مع ممرضتين انكليزيتين وعدد من المرضات الارمنيات وطبيبان او ثلاثة من العراقيين واحدهم تلقى دراسته الطبية في باريس . وقد فتحت المستوصفات في جميع مراكز الاقضية . كما قدم بعض الاطباء العسكريين البريطانيين في هذه المناطق خدماتهم الطبية (١٣٤) .

كما بدأت السلطات الصحية بمواجهة مخاطر انتشار الملاريا في المناطق الجبلية من ولاية الموصل . وتم ذلك بتوزيع (الكنين) مجاناً كتدبير من التدابير الصحية (١٣٥) .

التطورات الصحية في العراق ١٩١٨ ـ ١٩٢٠

لجأت السلطات البريطانية لتأمين الخدمات الصحية والطبية للناس الى استخدام عدد من الاطباء العراقيين الموجودين في البلاد او الذين عادوا بعد الهدنة الى العراق في المؤسسات الصحية المنتشرة في انحاء مختلفة . ولعل من ابرز الذين عينوا أو اعيد تعيينهم في فترة

الاحتلال : الاطباء نور الله موسى، فائق شاكر ، وجوركيان، وصموئيل اداتو ، وصبري مراد ، وف . بانا ، وستاوروز ، وأكوب جوبانيان في بغداد . والاطباء حنا خياط ، والساعاتي ، ويحيى رفعت ، وقليان ، ورؤوف ، في الموصل والدكتورين عيسى نوري وفتح الله في كركوك والدكتور بشير حنا سرسم في اربيل والدكتور جميل في كفري والدكتور محمد نصرت فؤاد في كويسنجق والدكتور فاجابديان في السليمانية والدكتور التونيان في مندلي والدكتور ن. فرج في بعقوبة (١٣٦) .

كما استقدم عدد من الاطباء من لندن، وتولت الاخوات الراهبات الخدمة في المستشفيات المدنية في البصرة وبغداد والموصل . وتأسست في بغداد والموصل مستشفيات خاصة ، بالنساء والاطفال وفتح في الناصرية مستشفى بأسم «تذكارمود» وقد تولت الممرضات البريطانيات والفرنسيات تدريب البنات العراقيات على مهنة التمريض (١٣٧) .

لقد اهتمت السلطات المحتلة في هذه المرحلة بتأسيس مذخر للوازم الطبية والمواد ، اللقاحية . واصبح في بغداد وحدها بضعة مؤسسات طبية وصحية فالى جانب مستشفى الرجال المدني ومستشفى النساء المدني كان هناك مستشفى للحميات ومعهد للاشعة السينية ومعهد لطب الاسنان ومستوصفات ودار تمريض للضباط ومستشفى للامراض الزهرية مخصص للنساء (١٣٨) .

كما جرت محاولة لاعادة تنظيم ترتيبات الحجر الصحي وانشاء مستوصف خاص لمعالجة الزوار . وتولت دائرة الصحة العناية بالجثث التي كانت تنقل لتدفن في كربلاء والنجف (١٣٩) ، وكمحاولة لتنظيم هذه العملية فقد فرضت السلطات المحتلة ضريبة بأسم « ضريبة الدفينة » تؤخذ على كل متوفي تجاوز عمره الثلاث سنوات ويجلب للدفن في كربلاء والنجف . وقد جمعت السلطات المحتلة مبالغ كبيرة من ذلك قدرت سنة ١٩١٨ (٤٨,٠٠٠) روبية لهذا تضايق العراقيون من ثقل هذه الضريبة وكانت سببا في تذمرهم من سياسة الانكليز (١٤٠) .

الادارة الصحية ١٩٢٠ ــ ١٩٢١ :

اعلن الانتداب البريطاني على العراق في ٢٦ نيسان ١٩٢٠ وشهد العراق اثر ذلك حركة مقاومة شديدة للسلطات البريطانية . اذ عقدت الاجتماعات الشعبية واقيمت المظاهرات في مناطق العراق المختلفة ثم تطورت الحركة الوطنية الى ثورة كبرى اندلعت في الثلاثين من حزيران ١٩٢٠ (١٤١) .

لقد كان على الحكومة البريطانية تغيران سياستها بعد الثورة ، فأصدرت اوامرها بنقل السر ارنولد ولسن وكيل الحاكم المدني العام ليحل محله السر برسي كوكس الذي وصل في ١١ تشرين الاول ١٩٢٠ . لذلك بدأت حركة استبدال الكوادر الطبية البريطانية ، بكوادر وطنية فازداد عدد الاطباء العراقيين في ١٩٢١ الى اكثر من (٨٠) طبيباً بينما انخفض عدد الاطباء البريطانيين من (٤٠) طبيبا الى (٢٠) طبيبا . اما الممرضات البريطانيات فقد انخفض من (٢٤) الى (١١) ، وانخفض عدد المساعدين الهنود من (٢٠٠) الى (٤) افراد فقط (١٤٢) .

لقد ترأس مديرية الصحة العراقية طبيب موصلي هو الدكتور حنا خياط وعين الدكتور هاليان Hallinan مفتشا بريطانيا عاما للصحة. وسرعان مانظمت بعض الدورات التدريبية في الصيدلة والتمريض . واستخدم بعض الاطباء العرب وخاصة من سوريا ولبنان للعمل في العراق (١٤٣) .اما ابرز الاطباء البريطانيين الذين قدموا خدماتهم الطبية في سنوات التكوين والممتدة من ١٩١٤ — ١٩٢٠ منهم ، الاطباء : بيشوب Bishop ووود Wood وفنش Finch ، والجراح نويل براهام Braham ووليم ولسن Wilson الذي كان طبيباً مختصاً في الانف والاذن والحنجرة (١٤٤) . واخيراً السير هاري سندرسن باشا Sinderson (١٤٥) .

تأسيس وزارة الصحة :

اذاع السربرسي كوكس في ١١ تشرين الاول ١٩٢٠ بياناً عاماً اشار فيه الى ان حكومته انتدبته لتشكيل حكومة وطنية في العراق باشراف الحكومة البريطانية(١٤٦) وقد تشكلت ، الحكومة العراقية الاولى برئاسة عبد الرحمن الكيلاني نقيب اشراف بغداد في ٢٥ تشرين الاول واصبح لقضايا التعليم والصحة وزارة واحدة سميت (وزارة المعارف والصحة العمومية) وقد تسلم مسؤولية هذه الوزارة عزت باشا الكركوكي وكان يشغل في العهد العثماني منصباً عسكرياً عالياً . وفي ٢٢ شباط ١٩٢١ اصبح محمد مهدي وزيراً للمعارف والصحة العمومية وبقي في هذا المنصب حتى ٢٣ آب ١٩٢١ ، وهو يوم استقالة الوزارة النقيبية الاولى بعد تتويج فيصل ملكاً على العراق وفي الوزارة النقيبية الثانية التي تشكلت في ١٢ أيلول ١٩٢١ اصبحت وزارة الصحة وزارة منفصلة وتولى الدكتور حنا خياط مسؤوليتها والى جانبه الكولونيل كراهام مستشاراً بريطانياً للوزارة (١٤٧) .

خلاصة واستنتاجات :

١ – على الرغم من ان العثمانيين وضعوا حجر الاساس في الكيان الصحي الحديث الاان سياستهم الصحية كانت مشوبة بالكثير من مواطن النقص والضعف التي استمر تأثيرها زمناً بعيداً . فالمؤسسات الصحية التي انشأوها لم تكن قادرة على تحسين اوضاع السكان الذين ظلوا يعانون من انتشار الامراض والاوبئة كالطاعون والكوليرا ولعل من اسباب فشل العثمانيين في هـذا الميدان النقص الكبير الذي كـان مـوجـوداً في الملاك الطبي . ولقد ادى ذلك الى ارتفاع نسب الوفيات في بعض الامراض . كما ان انتشار الرشوة بين الموظفين كان سبباً في تحايل الوافدين لزيارة العتبات المقدسة والحصول على بطاقات السماح للدخول (١٤٨) .

٢ – وخلال الاحتلال البريطاني ١٩١٤ – ١٩٢٠ سارت الامور في بعض الميادين على المنوال الذي كانت عليه في أيام حكم العثمانيين . لكن سياسة البريطانيين الصحية تميزت ببضعة امور ، منها ، ان الاهتمام بالصحة العامة جاء من زاوية مصلحة المحتلين في الحفاظ على افراد قواتهم العسكرية والحيلولة بينهم وبين المرض المعدي . كما عمدت سلطات الاحتلال وخاصة قبل ثورة ١٩٢٠ الى (عسكرة) الادارة الصحية واتضح هذا من خلال استخدام العديد من الضباط في الصحة امثال الكولونيل بتي Battye واللفتنت كولونيل كراهام Graham والكولونيل لين Lane واللفتنت كولونيل هامرتن Humertan ومعظمهم من العاملين السابقين في الخدمة الصحية في الهند The Indian Medical Service (١٤٩) . ويذكر الدكتور حنا خياط بأن ادارة الاحتلال في بغداد مثلا استخدمت حتى تكوين الحكومة العراقية المؤقتة (٤٥) طبيباً بريطانياً و (٨٠) موظفاً صحياً هندياً (١٥٠) .

٣ – ولم تكن الأحوال الصحية في عهد الاحتلال مرضية، فالغالبية العظمى من السكان كانت ترزح تحت وطأة اوضاع صحية متدهورة (١٥١) . فقد ذكر ريتشارد كـوك Coke انه لايوجـد قطر في العالم بحاجة الى الوقاية بقدر ماكان يحتاجه العراق آنذاك(١٥٢). اما الأيوبي فيشير في مذكراته بان تقارير الوضع الصحي في مدينة كربلاء كانت مفزعة. وقال بأنه وجد في البصرة مقاه مرخصة من السلطات البريطانية يتعاطى فيها الناس الافيون(١٥٣). ووصف كوينسي رايت Right حالة الاطفال في بغداد بقوله أن اكثرهم مرضى او فاقدوا النظر (١٥٤). ونقل عن فحص طبي اجري في سنة ١٩٢٠ بأن نتيجة

الفحص كشفت بأن (٤٤ ٪) ممن اجري عليهم الفحص كانوا مصابين اصابات خطيرة في عيونهم وان (١٢ ٪) فقدوا نظرهم. وقد ظلت امراض الكوليرا والطاعون و الجدري والحصبة والسعال الديكي والنكاف والتيفوئيد والزحار امراضا متوطنة في العراق (١٥٥). وكانت الاصابات المسجلة تزيد في هذه الفترة على عدة آلاف في بعض هذه الامراض وخاصة الجدري. اما الامراض الاخرى كالملاريا والانكلوستوما والبلهارزيا فقد كانت امراضا شائعة (١٥٦). وتفيد التقارير الصحية المرفوعة عن مدينة بغداد وحدها خلال الفترة ١٩١٨ – ١٩٢١ بأن – الوفيات كانت تزيد على الولادات في كل سنة من سنوات الفترة المذكورة كما توضحها الاحصائية التالية (١٥٧):

السنة	الولادات	الوفيات
١٩١٨	٢٤٠١	٣٣٧٤
١٩١٩	٢٣٠٢	٥١٤٤
١٩٢٠	٣٤٥٠	٣٨٨٩
١٩٢١	٢٠٢٢	٥٦٦٧

٤ – كما سارت سلطات الاحتلال في مجال الرعاية الصحية ببطء شديد . ويدل ما خصصته هذه السلطات من اعتمادات مالية ضئيلة جدا في الميزانية للصرف على شؤون الصحة رغم حاجة البلاد الى خدمات صحية واسعة النطاق . على اهمال السلطات البريطانية للصحة . ويوضح الاستاذ منتشا شفيلي ذلك بقوله : ان ماخصص للصحة خلال السنوات الاخيرة من الاحتلال لم يكن يتجاوز الـ (٦,٥ ٪) من مصروفات الميزانية وهي نسبة ضئيلة اذا ماقيست بما يصرف على بعض المصالح الاخرى في البلاد كالشرطة مثلا التي خصص لها نحو (١٤ ٪) من الميزانية العامة (١٥٨) .

٥ – وبعد تشكيل الدولة العراقية سنة ١٩٢٠ تأسست وزارة الصحة لتتسلم مسؤولية ادارة الصحة في البلاد والاشراف عليها . كما اتجهت جهود الوطنيين الى مزيد من العناية بالصحة وظهرت دعوات جادة بين المثقفين ومن خلال الصحف الوطنية تؤكد « بأن لاتقدم يرجى في حالة البلاد الصحية اذا لم يتوفر عدد من الأطباء العراقيين للعناية بصحة السكان وقائياً وعلاجيا » (١٥٩) . لذلك اختمرت فكرة تأسيس الكلية الطبية (١٦٠) وقامت الجمعية الطبية البغدادية التي تشكلت في ١٤ آب ١٩٢٠ بمناقشة الفكرة التي لم تتحقق

الا في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٢٧ حين فتحت الكلية الطبية ابوابها لعشرين طالبا (٧) منهم مسلمين و (٨) يهود و (٥) – مسيحيين (١٦١)

٦ – ثم قامت في وزارة الصحة محاولات اصلاحية لرسم سياسة صحية واضحة تساعد في تغيير الواقع الصحي في العراق . ويشير الى ذلك الدكتور حنا خياط ، اول وزير للصحة بقوله : انه شرح للملك فيصل الاول صباح يوم ٢٢ تشرين الاول ١٩٢٢ حالة البلاد الصحية السيئة فقال له الملك « هاهي اذن حالة بلادك ، وانت اول اطبائها فماذا اعددت لاصلاحها » فاجابه إنني أعد آلان منهجاً (خطة) لأعمال الصحة .. لمدة عشر سنوات ... » (١٦٢) . وقد تقررت الخطة وشرعت وزارة الصحة بتنفيذها ولعل من ابرزها تأسيس تشكيلات صحية حديثة واصدار تشريع ينظم المصالح الصحية والطبية وتهيئة ملاك طبي وتجهيز مصالح الصحة بأبنية ملائمة واتخاذ التدابير الفعالة لاعداد وتدريب العناصر العراقية والتخصص بالفروع الطبية وتأسيس المختبرات والمعاهد الطبية وتأمين الاشراف الصحي على بعض دوائر الدولة والمساهمة في رفع المستوى الصحي في المدن والقرى والارياف (١٦٣) . الا أن سياسة وزارة الصحة ظلت لسنوات تالية عرضة للنقد الشديد من لدن الاوساط المثقفة والوطنية وذلك بسبب ضعف فاعليتها في تقديم المساعدة الطبية للسكان ورفع مستواهم الصحي ، الا ان ذلك لم يكن من مسؤولية وزارة الصحة وحدها بل يتعلق بطبيعة الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي الذي كان بحاجة الى التغيير وقد تحقق ذلك في ١٤ تموز ١٩٥٨ حين بدأت بعد الثورة مرحلة جديدة في تاريخ العراق المعاصر (١٦٤) .

الهوامش والتعليقات :

(١) للتفاصيل انظر : د. جعفر حسين خصباك ، العراق في عهد المغول الايلخانيين ، (بغداد ، ١٩٦٨) ص ص ٢٠٦ — ٢٠٨ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ .
(٣) للتفاصيل انظر : عبد الحميد العلوجي ، تاريخ الطب العراقي ، (بغداد ، ١٩٦٧)
(٤) خصباك ، المصدر السابق ، ص ص ٢٠٩ — ٢١٣ .
(٥) المصدر نفسه ، ص ٢١٧ .
(٦) العلوجي ، المصدر السابق ، ص ١٤٦ .
(٧) المصدر نفسه ، ص ص ١٤٦ — ١٤٧ .
(٨) المصدر نفسه ، ص ١٤٧ .
(٩) خصباك ، المصدر السابق ، ص ٢١٩ .
(١٠) المصدر نفسه ، ص ٢١٩ .
(١١) عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج١ (بغداد ١٩٥٤) ص ٣٣٤ .
(١٢) المصدر نفسه ج١ ، ص ٤٣٧ .
(١٣) عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، ج٩ ، (بيروت ، لا ، ت) ، ص٢٩٥ .
(١٤) العزاوي ، تاريخ العراق ، ج١ ، ص ٤٣٧ .
(١٥) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٤٣٧ .
(١٦) عباس العزاوي ، تاريخ علم الفلك في العراق ، (بغداد ، ١٩٥٨) ص ٧٠، كحالة ، المصدر السابق ، ج٦ ، ص ١٢٦ .
(١٧) العزاوي ، تاريخ العراق ، ج١ ، ص ٤٥٩ .
(١٨) كحالة ، المصدر السابق ، ج٦ ، ص ١٩٧ .
(١٩) العزاوي ، تاريخ العراق ، ج٢ ، ص ٤٠ .
(٢٠) العزاوي ، تاريخ علم الفلك ، ص ٩٦ .
(٢١) للتفاصيل انظر : محمد بن ابراهيم بن ساعد الانصاري المعروف بأبن الاكفاني ، غنية اللبيب عند غيبة الطبيب ، تحقيق صالح مهدي عباس نشرة بالرونيو صادرة عن مركز احياء التراث العلمي العربي بجامعة بغداد ، (بغداد ، ١٩٨٤) ص١ .
(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٢ .
(٢٣) صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي ، ج٢ ، (استانبول ١٩٤٩) ص ٢٥ .
(٢٤) للتفاصيل انظر : مقدمة محقق مخطوطة ابن الاكفاني ، السيد صالح مهدي عباس ، المصدر السابق ، ص ص ٧ — ١٠ .

(٢٥) ورد اسمه في المخطوطة التي تضمها مكتبة المتحف العراقي المرقمة ٣٣٠٠١ « بغية اللبيب عند غيبة الطبيب » انظر : اسامة النقشبندي، مخطوطات الطب والصيدلة في مكتبة المتحف العراقي ، (بغداد، ١٩٨١) ص ٢٢٩ .

(٢٦) ابن الاكفاني ، المصدر السابق ، ص ص ٢٠ - ١٢٩ .

(٢٧) المصدر نفسه . ص ص ١٤ - ١٥ (مقدمة المحقق) .

(٢٨) توجد نسخة من هذه المخطوطة في مكتبة المتحف العراقي برقم ٢٣٤٦ .
انظر : النقشبندي ، المصدر السابق ، ص ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٢٩) العزاوي ، تاريخ العراق ، ج٣ ، ص ٧٦ .

(٣٠) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٨٦ .

(٣١) د. حسن فاضل زعين ود. نوري عبد الحميد خليل « الثقافة العربية ومراكز العلم في العراق في الفترة الجلائرية » مجلة دراسات للاجيال ، بغداد ، السنة (٥) ، العدد (١) آب ١٩٨٤ ، ص ٤١ .

(٣٢) خصباك ، المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .

(٣٣) المصدر نفسه ، ص ٢١٤ .

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ٢١٦ .

(٣٥) المصدر نفسه ، ص ٢١٧ .

(٣٦) المصدر نفسه ، ص ٢١٧ .

(٣٧) عبد الله بن فتح الله الغياثي ، التاريخ الغياثي ، الفصل الخامس ، دراسة وتحقيق د طارق نافع الحمداني ، (بغداد ، ١٩٧٥) ص ص ٩١، ٩٣. وللتفاصيل عن اوضاع العراق السياسية في العهد الجلائري (١٣٣٧ - ١٤١١) انظر بحثنا « اوضاع العراق السياسية في عهد السلطان احمد الجلائري » مجلة اداب الرافدين ، كلية الاداب ، جامعة الموصل ، العدد (٨) ١٠ آب ١٩٧٧ . ص ص ١٢٧ - ١٥٩ .

(٣٨) موسيس دير هاكوبيان ، حالة العراق الصحية في نصف قرن ، (بغداد ، ١٩٨١) ، ص ص ٢٧ - ٢٨ .

(٣٩) نمير طه ياسين ، بدايات حركة التحديث في العراق ١٨٦٩ - ١٩١٤ رسالة ماجستير ، باشرافنا ، غير منشورة قدمت الى معهد الدراسات القومية والاشتراكية بالجامعة المستنصرية ١٩٨٤ ، ص ٣٨ .

(٤٠) للتفاصيل انظر : ستيفن همسلي لونكريك ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر الخياط ، ط٥ ، (بغداد ، لا. ت) ص ص ١١٩، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٨ ، ١٩١ ، ٢١٧ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ، ٢٥٠ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٣٠٠) انظر حول عدد سكان العراق في اواسط القرن التاسع عشر والذي لم يكن يتجاوز المليون وربع

المليون نسمة ، د. محمد سلمان حسن ، التطور الاقتصادي في العراق ، (صيدا – بيروت لا . ت) ص ص ٣٧، ٤٠، ٥١

(٤١) ج. ج لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ح٦ ، طبعة جديدة معدلة ومنقحة اعدها قسم الترجمة بمكتب امير دولة قطر ، (الدوحة لا. ت) ص ص ٣٦٥٩، ٣٦٦٦ ، ٣٦٦٩، ٣٦٧٠، ٣٦٧٤، ٣٦٨١ .

(٤٢) انظر رسالتنا للماجستير « ولاية الموصل : دراسة في تطوراتها السياسية ١٩٠٨ – ١٩٢٢» قدمت لجامعة بغداد ١٩٧٥ ، وهي غير منشورة ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٤٣) حميد احمد حمدان التميمي ، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني (بغداد ، ١٩٧٩) ص ٣٩٢ .

(٤٤) العاوجي ، المصدر السابق ، ص ص ٧٣ – ٧٤ .

(٤٥) احمد شوكت الشطي ، العرب والطب ، « دمشق، ١٩٧٠ » ص ص ١٣٤ – ١٣٥

(٤٦) د. عماد عبد السلام رؤوف ، الموصل في العهد العثماني ، (النجف، ١٩٧٥) ، ص٣٩٥

(٤٧) للتفاصيل انظر : رؤوف ، المصدر السابق ، ص ص ٣٩٥ – ٣٩٦ ، النقشبندي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .

(٤٨) في مكتبة المتحف العراقي نسخة من هذا الكتاب برقم ١١٤٦٧ .
انظر : النقشبندي ، المصدر السابق . ص ٢٢٦ .

(٤٩) للتفاصيل انظر رؤوف ، المصدر السابق ، ص ٣٩٦ .

(٥٠) للتفاصيل انظر : محمد امين العمري ، منهل الأولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء ، تحقيق سعيد الديوه جي ح١ (الموصل ، ١٩٦٧) ، ص ص ٢٦٧ – ٢٦٨

(٥١) انظر مقالنا « محمد العبدلي الطبيب » جريدة الحدباء (الموصلية) ١٩ حزيران ١٩٨٤ .

(٥٢) رؤوف ، المصدر السابق ، ص ٤٠٠ .

(٥٣) داؤد الجلبي ، مخطوطات الموصل ، (بغداد ، ١٩٢٧) ص ١٥ .

(٥٤) رؤوف ، المصدر السابق ، ص ص ٣٩٨ – ٣٩٩، كحالة ، المصدر السابق ، ح٩ ص.٧ ،

(٥٥) انظر مقالنا « محمد العبدلي الطبيب » .

(٥٦) انظر مقالنا « الطبيب محمد الجلبي الموصلي » جريدة الحدباء ١٧ تموز ١٩٨٤ .

(٥٧) اسمه الاصلي القس عبد الاحد بن القس حنا بن عبد الاحد الصباغ من بيوتات السريان . وقد دخل الاسلام وتسمى محمدا . انظر : رؤوف المصدر السابق ، ص ٣٩٦ ، كحالة ، المصدر السابق ، ح١٠ ، ص ٧٢ .

(٥٨) رؤوف ، المصدر السابق ، ص ص ٣٩٦ – ٣٩٧ .

(٥٩) انظر : الجلبي ، المصدر السابق ، ص ص ٢٧٠ ، ٢٩٣ .

(٦٠) المصدر نفسه ، ص ٢٧٠ .

(٦١) المصدر نفسه ، ص ص ٢٨٤ – ٢٨٥ .
(٦٢) المصدر نفسه ، ص ٢٨٥ .
(٦٣) المصدر نفسه ، ص ص ٢٦٨ ، ٢٧٢ .
(٦٤) العلوجي ، المصدر السابق ، ص ص (ف ، ص) .
(٦٥) انظر : مجلة لغة العرب ، المجلد (٧) ، ١٩٢٩ .
(٦٦) لوريمر ، المصدر السابق ، القسم التاريخي ، ج٤ ، ص ١٩١٢ .
(٦٧) العلوجي ، المصدر السابق ، ص ٣٦٠ .
(٦٨) انظر : كحالة ، المصدر السابق ، ج٧، ص ١٩٣ ، العلوجي ، المصدر السابق ، ص٤٢٠ .
(٦٩) العلوجي ، المصدر السابق ، ص ٣٦٩ .
(٧٠) المصدر نفسه ، ص ٤٢٤ .
(٧١) المصدر نفسه ، ص ٤٥٤ .
(٧٢) المصدر نفسه ، ص ٤٢١ .
(٧٣) المصدر نفسه ، ص ٤٥٢ .
(٧٤) كحالة ، المصدر السابق ، ج١٢ ، ص ٥٠ .
(٧٥) العلوجي ، المصدر السابق ، ص ٣٧٣ .
(٧٦) العلوجي ، المصدر السابق ، ص ١٤٥ .
(٧٧) المصدر نفسه ، ص ١٤٧ .

(٧٨) Haskell Isaacs, Britain's contribution to Medicine and the teaching of Medicine Iraq, British society for Middle tastern s udies Bulletin, London , 1976, vol3 No, I, P.20
(٧٩) العلوجي ، المصدر السابق ، ص ٧٤ .
(٨٠) د. عبد الله الفياض ، الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠، . بغداد، ١٩٦٣ ص ص ٦٥ – ٦٦ .
(٨١) انظر رسالتنا للماجستير ولاية الموصل ، ص ١٣٥ .
(٨٢) الفياض ، المصدر السابق ، ص ٦٦ .
(٨٣) الاب جون فييه ، الاباء الدومنيكان وخدماتهم الطبية في مدينة الموصل ، مخطوطة نقلها عن الاصل السيد سهيل قاشا في ٣ أيلول ١٩٧٠ ص١ .
(٨٤) المصدر نفسه ، ص ٢ .
(٨٥) المصدر نفسه ، ص٥ .
(٨٦) المصدر نفسه ، ص٥ .

(٨٧) د. عبد العزيز سليمان نوار ، تاريخ العراق الحديث ، (القاهرة ١٩٦٨) ، ص ص٣٠٥ – ٣٠٦ .

(٨٨) فيه ، المصدر السابق ، ص ص ٥ – ٦ .

(٨٩) المصدر نفسه ، ص ٦ .

(٩٠) حنا خياط ولد في الموصل في ١٠ كانون الثاني ١٨٨٤ وحاز على درجة بكالوريوس في العلوم والاداب من كلية الطب الفرنسية في بيروت سنة ١٩٠٣ وعلى دبلوم الطب من جامعتي باريس واستانبول ١٩٠٨.وكان عضوا في الجمعية الطبية والجراحية في بروكسل وخلال الحرب العالمية الاولى عمل نائبا لرئيس جمعية الهلال الاحمر في الموصل ورئيسا للمستشفيات المدنية فيها من ١٩١٤ الى ١٩١٩. وقد الف كتابا طبيا منذ وقت مبكر من حياته العملية بعنوان «لمحة اختبارية وفنية في الحمى التيفوئيدية»وطبع في مطبعة الدومنيكان في الموصل سنة ١٩١١ ويقع في (٤٢) صفحة . انظر: الياهو دنكور ومحمود فهمي درويش ، الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦ ، (بغداد ، ١٩٣٦) ص ٨٧٩ .

(٩١) فيه المصدر السابق ، ص ص ٨ – ٩ .

(٩٢) Isaacs , op. cit ., p. 20

(٩٣) الكسندر آداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ترجمة هاشم صالح التكريتي، ح١ ، البصرة ، ١٩٨٢، ص ٢٢٩ .

(٩٤) المصدر نفسه ، ص ٢٣٠، لوريمر ، القسم التاريخي ، ح٦ ، ص ٣٢٩٥ .

(٩٥) لوريمر ، المصدر السابق ، القسم التاريخي ، ح٦ ، ص ٣٤٤١ .

(٩٦) للتفاصيل انظر : احمد علي الصوفي ، تاريخ المحاكم والنظم الادارية في الموصل ، (الموصل ، ١٩٤٩) ، ص ص ١٤ – ١٧ .

(٩٧) انظر : Isaacs ,Op. Cit p.21 ومما يلحظ ان المستشفى الذي انشأه مدحت باشا سمي مستشفى الغرباء وكان اشبه بدار العجزة واقبال المواطنين عليه كان محدوداً بسبب العرف السائد بينهم وهو ان الاعتناء بالمرضى يتم داخل الدور اما المستشفى فمعدة للغرباء . انظر : عبد الرزاق الهلالي ، معجم العراق ، ح٢ ، (بغداد ، ١٩٥٦) ص ٢٠٦ .

(٩٨) نمير طه ياسين ، المصدر السابق ، ص ١٧أ .

(٩٩) العلوجي ، المصدر السابق ، ص ص ١٥١ – ١٥٢ .

(١٠٠) المصدر نفسه ، ص ١٥٣، نمير طه ياسين ، المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

(١٠١) Isaacs, Op.Cit., p. 21

(١٠٢) التميمي ، المصدر السابق ، ص ٣٩٢ .

(١٠٣) المس بل ، فصول من تاريخ العراق القريب ، ترجمة جعفر الخياط ، ط٢ (بغداد ١٩٧١) ص ص ١٧٨ – ١٧٩ وكذلك محمد رؤوف الشيخلي مراحل الحياة في الفترة المظلمة ومابعدها ، ح٢ (البصرة ، ١٩٧٢) ص ٢٦٥ .

(١٠٤) التميمي ، المصدر السابق ، ص ٣٨٣ .

(١٠٥) صدرت في السنوات الاخيرة من العهد العثماني بضعة تشريعات طبية منها قانون الجرائم الصحية ١٨٨٢ وقانون الضابطية الصحية ١٩١١ . كما صدرت تعليمات منها منع الامراض السارية في المدارس ١٩١٠ ومنع سراية الامراض الزهرية ١٩١٣ وتعليمات الحمى – تيفوئيدية ١٩١٢ . انظر : العلوجي ، المصدر السابق ، ص ص ١١٠ ، ١٥٥ .

(١٠٦) العلوجي ، المصدر السابق ، ص ص ٢٧٤ – ٢٧٥ .

(١٠٧) ادامون ، المصدر السابق ، ص ص ١١٩ ، ١٢٢ .

(١٠٨) لوريمر ، المصدر السابق ، القسم التاريخي ، ح٦ ، ص ص ٣٦٩٠ – ٣٦٩١.

(١٠٩) المصدر نفسه ، القسم التاريخي ، ح٦ ، ص ٣٦٩٦ .

(١١٠) لونكريك ، المصدر السابق ، ص ٣٨٠ .

(١١١) د. حسين محمد القهواتي ، دور البصرة التجاري في الخليج العربي ، (البصرة ١٩٨٠) ص ص ٥٣ ، ٦٢ .

(١١٢) لوريمر ، القسم التاريخي ، ح٦ ص ٣٦٧١ .

(١١٣) القهواتي ، المصدر السابق ، ص ص ٥٤ ، ٥٥ .

(١١٤) لونكريك ، المصدر السابق ، ص ص ٣١٨ – ٣١٩ .

(١١٥) القهواتي ، المصدر السابق ، ص ص ٥٣ ، ٥٤ .

(١١٦) المصدر نفسه ، ص ٥٤ ويقول لوريمر على الصفحة (٣٦٧٢) من كتابه آنف الذكر ، القسم التاريخي ، ح٦ « ان البعض يعدون الاجراءات الوقائية تلك مصدرا للدخل وحسب » ويذكر آداموف ، المصدر السابق ، ص ١٢٥ ان اكثر مايقرب من نصف ايرادات مصلحة الصحة الدولية

(١١٧) التميمي ، المصدر السابق ، ص ٣٨٣ وهنا لا بد من الاشارة الى بعض المستوصفات والمستشفيات التي انشأها اليهود في العراق اواخر العهد العثماني منها المستوصف الحديث الذي انشاه اليهود في بغداد سنة ١٨٨٤ ومستشفى ميرإلياهو الياس الذي افتتح سنة ١٩١٠ وكذلك مستشفى (ريمه خضوري) للعيون وقد اقتصرت خدمات هذه المؤسسات الطبية على اليهود فقط انظر : Isaacs, Op., Cit., p. 23

(١١٨) للتفاصيل انظر : Isaacs, Op. Cit ., p.21.

(١١٩) Isaacs, Op. Cit., p. 22

(١٢٠) التميمي ، المصدر السابق ، ص ص ٣٨٤ – ٣٨٥ .

(١٢١) المصدر نفسه ، ص ٣٨٥ .

(١٢٢) المصدر نفسه ، ص ٣٨٧ .
(١٢٣) المصدر نفسه ، ص ٣٨٧ .
(١٢٤) المس بل ، المصدر السابق ،ص ٥٦ .
(١٢٥) المس بل ، المصدر السابق ، ص ٥٧، التميمي، المصدر السابق ، ص ٣٩٠ .
(١٢٦) التميمي ، المصدر السابق ، ص ٣٩١ .
(١٢٧) المس بل ، المصدر السابق ، ص ٥٧ ، التميمي ، المصدر السابق ص ص ٣٩٤ — ٣٩٧ .
(١٢٨) المس بل ، المصدر السابق ، ص ٥٧ .
(١٢٩) التميمي ، المصدر السابق ، ص ٣٩٨ .
(١٣٠) المس بل ، المصدر السابق ، ص ص ٥٦ ، ٥٨ .
(١٣١) المس بل ، المصدر السابق ، ص ٥٧ ، التميمي ، المصدر السابق ، ص ٤٠٢ .
(١٣٢) يقول سندرسن باشا انه والعقيد بتي ، اقترحا على السر ارنولد ولسن ان تسمى المؤسسة الصحية الحديثة بمصلحة الصحة بدلا من مصلحة الطب ذلك لانه لايوجد بنظرها سبب يستلزم ان يفضل الرفاه في العراق على العلاج ، وبعبارة اخرى ان يتم الاهتمام بالوقاية بدلا من العلاج . انظر مذكراته : عشرة الاف ليلة وليلة ، مذكرات سندرسن باشا ، ترجمة سليم طه التكريتي ، ط١ ، (بغداد ١٩٨٠) ص ٣١ .
(١٣٣) المس بل ، المصدر السابق ، ص ٣٣٩ .
(١٣٤) المصدر نفسه ، ص ص ١٧٨ — ١٧٩ .
(١٣٥) المصدر نفسه ، ص ١٧٩ .
(١٣٦) المصدر نفسه ، ص ٣٣٩ انظر كذلك دنكور ودرويش المصدر السابق ، ص ص ٩٦١ — ٩٧٠ .
(١٣٧) المصدر نفسه ، ص ص ٣٤٠ — ٣٤١ .
(١٣٨) المصدر نفسه ، ص ٣٤٠ وكذلك Isaacs, Op. Cit., p. 23
(١٣٩) المصدر نفسه ، ص ٣٤٢ .
(١٤٠) الفياض ، المصدر السابق ، ص ٣٣٤ .
(١٤١) المصدر نفسه ، ص ص ١٩٦ — ٢٠٦ .
(١٤٢) Isaacs, Op., Cit ., p. 23
(١٤٣) Ibid
(١٤٤) Ibid
(١٤٥) انظر : سندرسن ، المصدر السابق ، ص ص ٢١ وما بعدها .

(١٤٦) عبد الرزاق الحسني ، تاريخ الوزارات العراقية ، ط٥ ، ج١ ، (بيروت ، ١٩٧٨) ، ص ص ١٠ – ١١ .

(١٤٧) المصدر نفسه ، ص ص ١٣ ،٦٩ وكذلك عبد الرزاق الهلالي –تاريخ التعليم في العراق في عهد الاحتلال البريطاني ١٩١٤ – ١٩٢١ ، (بغداد ١٩٧٥) ، ص ٢٧٢ .

(١٤٨) لونكريك ، المصدر السابق ، ٣٨٠ ، التميمي، المصدر السابق ، ص ٣٩٢، القهواتي ، المصدر السابق ، ص ٥٤ .

(١٤٩) Isaacs, Op. Cit., p. 71

(١٥٠) هاكوبيان ، المصدر السابق ، ص ١٢ .

(١٥١) د. عماد احمد الجواهري ،تاريخ مشكلة الاراضي في العراق ،(بغداد ١٩٧٩)،ص٣٢

(١٥٢) انظر كتابه
The Heart of the Middle East . (London , 1926), p.264.

(١٥٣) علي جودت الايوبي ، ذكريات علي جودت الايوبي ، ١٩٠ – ١٩١٨ ،(بيروت ١٩٦٧) ص ص ١٦٠ ، ١٩٤ .

(١٥٤) كوينسي رايت ، حكومة العراق ، ترجمة اكـرم الركابي (القاهرة ١٩٢٧) ص ٣٧ .

(١٥٥) الجواهري ، المصدر السابق ، ص ٤٣٦ وكذلك
Coke, Op. Cit., p. 68

(١٥٦) الجواهري ، المصدر السابق ، ص ٤٣٦ .

(١٥٧) للتفاصيل انظر : بارين هيكز ، التقرير السنوي لادارة الصحة العامة لمدينة بغداد لسنة ١٩٢٠ ، (بغداد ١٩٢٢) ص ٢٢ وكذلك تقريره لسنة ١٩٢١ ، (بغداد ، لا. ت) ص ص ١ ، ١٣ .

(١٥٨) أ . م . منتشا شفيلي ، العراق في سنوات الانتداب البريطاني ، ترجمة د هاشم التكريتي (بغداد ، ١٩٧٨) ص٢٢٥ وتكشف ميزانيات الادارة المدنية للفترة من ١٩١٥ – ١٩١٨ كان قليلا . فمصروفات مقرات الادارة وبضمنها رواتب الموظفين قفزت من ١١٠٩٦٢٢ روبية في ١٩١٥ – ١٩١٦ الى ٧٦٠٧٤٨٦ روبية في ١٩١٧ – ١٩١٨ . بينما مصروفات التعليم والصحة في ١٩١٥ – ١٩١٦ كانت ٦١٣٤٥ روبية وارتفعت في ١٩١٧ – ١٩١٨ الى ١٧٥٣٨٧ روبية فقط انظر : صالح العابد تطور النظام الاداري في العراق ١٩١٤ – ١٩٥٨ في : حضارة العراق ، ج٩ ، (بغداد ٩٨٤) ص ٤٨ وعند انتهاء الاحتلال لم تتعد ميزانية الصحة ٢٠٠ الف دينار فقط .

(١٥٩) الشطي ، المصدر السابق ، ص ١٥٩

(١٦٠) انظر- Annual Administration Report of the Iraq Health services for the year 1921, p.R.o, Co69614 (1921— 1932).

(١٦١) د. ابراهيم خليل احمد ، تطور التعليم الوطني في العراق ١٨٦٩ – ١٩٣٢ (البصرة ١٩٨٢) ، ص ص ٢٤٦ – ٢٥١ .

(١٦٢) حنا خياط ، مقدمة كتاب هاكوبيان ، المصدر السابق ، ص ١٣ .

(١٦٣) للتفاصيل انظر : دير هاكوبيان ، المصدر السابق ، ص ١٣ ومابعدها .

(١٦٤) للتفاصيل انظر : هاشم جواد ، مقدمة في كيان العراق الاجتماعي ، (بغداد ١٩٤٦) ، ص ص ٨٤ – ٩٩ .





إدارة بلاد الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب «رض»

الدكتور : عبدالواحد ذنون طه
جامعة الموصل — كلية التربية

تمهيد :

تعد دراسة الشؤون الادارية في العصور الاسلامية المختلفة من المواضيع الصعبة بسبب قلة المعلومات المتوفرة عنها في المصادر. وتزداد هذه الصعوبة حينما تختص الدراسة بالبحث عن الفترات الاولى من تاريخ الدولة العربية الاسلامية. ولا يخفى ان معظم مصادرنا المعتمدة تركز على الناحية السياسية، ولا تشير الى القضايا الادارية الا عرضاً. وهذا بطبيعة الحال، لايتيح للباحث ان يحصل على مايريد من معلومات بسهولة، بل عليه ان يكون دقيقاً غاية الدقة في استخلاص مادته من خلال المعلومات المتناثرة في المصادر ؛ والتي لاتأتي عادة ضمن سياق منتظم.

وبالنسبة لهذا البحث نجد ان عددا كبيرا من المصادر تركز على مسألة الفتوح ومعارك التحرير التي خاضتها الجيوش العربية الاسلامية في بلاد الشام ، وتولي اهتماماً زائدا

لتحركات هذه الجيوش والانتصارات التي حققتها على البيزنطيين. وهذا امر على غاية من الاهمية لمن يريد دراسة الفتح ،ولكن الامر يختلف بالنسبة لمن يهتم بالمسائل الادارية والاحوال الاجتماعية والاقتصادية. ومع هذا، فلا يمكن اغفال ماتحويه بعض المصادر من معلومات اساسية عن الشؤون الادارية لهذا العهد المبكر ، واخص منها بالذكر : تاريخ خليفة بن خياط ، وكتاب فتوح البلدان للبلاذري ،وتاريخ الرسل والملوك لمحمد ابن جرير الطبري.

ان الطريقة التي اتبعت في كتابة هذا البحث تعتمد بالدرجة الأولى على استخلاص المعلومات الادارية من المصادر الاساسية ،وتحليلها ووضعها ضمن سياق حديث يخدم البحث، مع الاشارة الى بعض الاراء الحديثة للكتاب المحدثين : من اجل الوصول الى صورة قريبة من واقع النظام الاداري الذي كان سائدا في بلاد الشام في عهد الخليفة عمر ابن الخطاب (رض). ولم يتطرق البحث الى الحديث عن الفتح وكيفية انجازه ، وذلك لكثرة ماكتب عنه ، ولأنه لايدخل في صلب الموضوع الحالي. ولكن كان لابد من الكلام على الادارة العسكرية لبلاد الشام، ودور الخليفة في توجيه الفتح. كما اشار البحث ايضاً الى التقسيمات الادارية لبلاد الشام، والولاة وطريقة اختيارهم وسياسة الخليفة ازاءهم والى استقرار العرب في بلاد الشام، والاسس التي تم بموجبها هذا الاستقرار. كذلك تضمن البحث التنظيمات الادارية والمالية التي اعقبت الفتح،ووضع اهل البلاد ومدى تعاونهم مع الادارة الجديدة

كان دور الخليفة واضحاً جداً في الادارة العسكرية لبلاد الشام في اثناء الفتح ،فقد كانت المراسلات مستمرة بين القائد ابي عبيدة وبين الخليفة قبل معركة اليرموك وبعدها . فعلى سبيل المثال ، كتب الى الخليفة بشأن الغنائم التي جمعت في الجابية ، فجاء الرد بعدم التصرف فيها الابعد فتح بيت المقدس (١) : وكان ابو عبيدة يستشير الخليفة في معظم المسائل الحربية المهمة ، فحينما علم بتجمع عدد كبير من البيزنطيين في فحل من بلاد الاردن ووصول امدادات معادية من حمص الى دمشق ، تردد هل يبدأ القتال بفحل ام بدمشق ، فكتب الى الخليفة بذلك ، وجاء الرد : « أما بعد فابدؤا بدمشق فانهدوا لها فانها حصن الشام وبيت مملكتهم واشغلوا بخيلكم اهل فحل بخيل تكون بازائهم في نحورهم واهل فلسطين واهل حمص فان فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب ،وان

(١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، النجف ، ١٩٧٤: ٢ / ١٣٠، ١٣١، ١٣٥ ،

تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها وانطلق أنت ، وسائر الامراء حتى تغيروا على فحل فان فتح الله عليكم فانصرف انت وخالد الى حمص ودع شرحبيل وعمرا واخلهما بالاردن وفلسطين وامير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من امارته » (٢) .

ويدل هذا الجواب بطبيعة الحال على مدى اطلاع الخليفة عمر بن الخطاب (رض) على اوضاع بلاد الشام السياسية والعسكرية وخبرته الكبيرة في امورها . فقد كانت تقديراته صائبة في معظم الاحوال ، مما ادى الى التعجيل بالنصر للمسلمين . ونجد شواهد اخرى كثيرة على توجيه الخليفة للفتح وارشاداته للقادة بكيفية التحرك والتصرف . وكذلك على توجيه الاوامر للقائد الاعلى بتوجيه قائد معين الى منطقة معينة لمعالجتها وافتتاحها (٣).

ولم تقتصر توجيهات الخليفة لامراء الاجناد على الامور العسكرية البحتة ، بل كانوا يستشيرونه في معظم المسائل ذات الصلة بسلامة ومستقبل المسلمين وأحوالهم في المناطق المفتوحة . فبعد فتح انطاكية كتب الخليفة الى ابي عبيدة ان يرتب بها جماعة من المسلمين ويجعلهم بها مرابطة ، ولا يحبس عنهم العطاء (٤) . واشار الى معاوية بن ابي سفيان باجراءات مماثلة بالنسبة للسواحل (٥) . وكتب اليه ابو عبيدة ايضا يستشيره بشأن جماعة من المسلمين اصابوا الشراب ، فجاء جواب الخليفة : « ان ادعهم فان زعموا انها حلال فاقتلهم وان زعموا انها حرام فاجلدهم ثمانين جلدة ... » (٦) . وحين سماع الخليفة بانتشار الطاعون في بلاد الشام كتب الى ابي عبيدة يقول : « أما بعد فأنك انزلت الناس ارضا عميقة فارفعهم الى ارض مرتفعة نزهة ... » (٧) فلما جاءه الكتاب سار بالناس حتى نزل الجابية في هضبة الجولان .

---

(٢) الطبري (برواية سيف بن عمر التميمي) ، تاريخ الرسل والملوك ، نشر : دي غوية ، ليدن ، ١٨٧٩ — ١٩٠١ : ١ / ٢١٥٠ .

(٣) انظر على سبيل المثال : المصدر نفسه : ١ / ٢٣٩٣، ٢٣٩٧ — ٢٣٩٨، البلاذري فتوح البلدان ، تحقيق : رضوان محمد رضوان ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ١٤٨ . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، بيروت ، ١٩٧٩ : ٢ / ٤٩٧ .

(٤) المصدر نفسه : ٢ / ٤٩٥ .

(٥) فتوح البلدان ، ص ١٣٤ .

(٦) الطبري (برواية سيف) : ١ / ٢٥٧١، انظر : الواقدي، كتاب فتوح الشام، نشر وليم ناسوليس ، كلكتا ، ١٨٥٤ : ٢ / ٢٨ .

(٧) الطبري (برواية محمد بن اسحق): ١ / ٢٥١٨، ابن الاثير : ٢ / ٥٥٨ — ٥٥٩.

وهكذا كانت المراسلات لاتنقطع بين بلاد الشام ومركز الدولة العربية في المدينة المنورة ، وكان التعاون التام يسود بين القادة والخليفة . ولم يكن القادة معزولين عما يحدث في المدينة ، فحينما حلت بالحجاز ضائقة اقتصادية عام ١٨هـ / ٦٣٩ م كتب الخليفة الى امراء الامصار للمساعدة ، فكان اول من قدم عليه ابو عبيدة بن الجراح في اربعمئة راحلة من الطعام ، فقسمها بنفسه فيمن حول المدينة ، ثم رجع بعد ذلك الى الشام (٨) .

وعلى الرغم من المركزية التي تلاحظ على ادارة الخليفة عمر وتعامله مع قادته (٩)، يمكن للباحث ان يميز نوعا من حرية التصرف بالنسبة لامراء الاجناد ، لاسيما فيما يخص العمل على انجاز الفتح وتوجيه قادة الجند الى مناطق بلاد الشام المختلفة ، فبعد افتتاح دمشق على سبيل المثال ، استخلف ابو عبيدة ، يزيد بن ابي سفيان على دمشق ، وعمرو بن العاص على فلسطين وشرحبيل بن حسنة على الاردن كما استخلف على حمص بعد افتتاحها عبادة بن الصامت الانصاري مع تخويله صلاحيات عقد الصلح والاتفاق مع المناطق المجاورة (١٠) وفي سنة ١٥هـ /٦٣٦م افتتح شرحبيل بن حسنة الاردن كلها ، وذلك بأمر من ابي عبيدة . كما بعث ابو عبيدة خالد بن الوليد فسيطر على ارض البقاع وعقد الصلح مع اهل بعلبك (١١) وفي سنة ١٦هـ /٦٣٧م بعث ابو عبيدة عمرو بن العاص بعد فراغه من اليرموك الى قنسرين ، فصالح اهل حلب ومنبج وانطاكية ، وافتتح سائر ارض قنسرين عنوة (١٢) وحينما ولّى يزيد بن ابي سفيان بعد ابي عبيدة ، وكل اخاه معاوية لمحاصرة وفتح قيسارية ، ففتحها وكتب اليه بفتحها ، فكتب به يزيد الى الخليفة عمر بن الخطاب (رض) (١٣)

وكان التعاون يسود بين قادة بلاد الشام في أثناء الفتح ، وابرز مثال على ذلك ، كتمان ابي عبيدة بن الجراح لامر تعيينه قائداً بدلاً من خالد بن الوليد ، لان جيش المسلمين كان محاصراً لدمشق والناس في حرب ، وحينما سأله خالد عن سبب كتمانه للامر ، اجاب

(٨) الطبري (برواية سيف) : ١ / ٢٥٧٦ — ٢٥٧٧، ابن الاثير : ٢ / ٥٥٦ .

(٩) عن مركزية عمر انظر : سليمان محمد الطماوي، عمر بن الخطاب واصول السياسة والادارة الحديثة ، دراسة مقارنة ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٢٨٨ فما بعدها .

(١٠) فتوح البلدان ، ص ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩ .

(١١) ابن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق : سهيل زكار ، دمشق، ١٩٦٧ - ١ / ١١٧ .

(١٢) المصدر نفسه : ١ / ١٢٤ ، اليعقوبي : ٢ / ١٣٠ — ١٣١ .

(١٣) فتوح البلدان ، ص ١٤٦ .

ابو عبيدة : «كرهت أن اكسرك واوهن امرك وانت بإزاء عدو ...» (١٤) وقد اجاز ابو عبيدة عقود الصلح التي ابرمها القادة الذين كانوا يعملون معه ، ففي اثناء فتح دمشق دخل خالد بن الوليد من الباب الشرقي صلحاً ، بينما دخل ابو عبيدة من باب الجابية عنوة، فلما التقى القائد ان، اجاز ابو عبيدة صلح خالد وأمانه لاهل دمشق فقال بعض المسلمين «والله ما خالد بأمير فكيف يجوز صلحه ، فقال ابو عبيدة : انه يجيز على المسلمين ادناهم واجاز صلحه وامضاه ولم يلتفت الى مافتح عنوة ،فصارت دمشق صلحاً كلها وكتب ابو عبيدة بذلك الى عمر وانفذه ...» (١٥) وكذلك صالح السمط بن الاسود الكندي اهل حمص ، فلما قدم ابو عبيدة امضى صلحه ، كما اقر ايضاً صلح عياض بن غنم مع اهل حلب ومنبج (١٦)

« ٢ »

لقد كانت بلاد الشام قبل الاسلام مقسمة الى اربع مقاطعات عسكرية كل واحدة تدعى (جند) وكان في كل جند بعض المدن المتميزة ذلك ان النظام الاداري لهذه البلاد عني بالمدن سواء في عهد الاغريق او الرومان او البيزنطيين . وقد فسح المجال لهذه المدن بادارة نفسها وظلت تتمتع بمكانة جيدة على الرغم من تقليص بعض امتيازاتها على حساب السلطة المركزية في عهد الامبراطور البيزنطي جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥م) (١٧) وهذه الاجناد هي دمشق. وحمص والاردن ، وفلسطين . وكان العرب يعرفون هذا التقسيم ، فعندما قدموا لافتتاح الشام كان كل امير منهم يقصد الى ناحية ليحررها ، فتوجه عمرو بن العاص الى فلسطين وتوجه شرحبيل بن حسنة الى الاردن ، وتوجه يزيد بن ابي سفيان الى دمشق (١٨) ويشير

(١٤) المصدر نفسه ، ص ١٢٢، وانظر : رواية ابن اسحق عند الطبري: ١ / ٢١٤٦ ، وقارن : ابن عساكر ، التاريخ الكبير ، باعتناء الشيخ عبد القادر افندي بدران ، مطبعة روضة الشام ، ١٣٢٩هـ : ١ / ١٥١ — ١٥٢، قدامة بن جعفر ، الخراج وصنعه الكتابة ، شرح وتعليق : محمد حسين الزبيدي ، بغداد ، ١٩٨١ ، ص ٢٨٩ .

(١٥) فتوح البلدان ، ص ١٢٧ — ١٢٩ ، قدامة بن جعفر ، الخراج ص ٢٩٣ .

(١٦) فتوح البلدان ، ص ١٣٧ ، ١٥٢ ، ١٥٥ .

(١٧) انظر : صالح أحمد العلي ، امتداد العرب في صدر الاسلام، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٨١ ، ص ٥٨ .

(١٨) فتوح البلدان ، ص ١٢٣ .

البلاذري الى ان المسلمين اختلفوا في تسمية هذه الاجناد ، «فقال بعضهم ان المسلمين سموا فلسطين جندا لانه جمع كورا ، وكذلك دمشق ، وكذلك الاردن ، وكذلك حمص مع قنسرين ، وقال بعضهم : سميت كل ناحية لها جند يقبضون اطماعهم بها جنداً ...» (١٩) اي ان كل ناحية مفردة تعتمد في عطاء جندها على خراجها سميت (جند) .

وبعد الفتح قُسمت بلاد الشام ادارياً الى قسمين : احدهما حاضرته حمص، وكانت قنسرين تابعة له ، والثاني حاضرته دمشق ، ويتبعه الاردن (٢٠) أما فلسطين فظلت قسما قائماً بذاته ، ولكن الخليفة عمر بعد مجيئه الى بلاد الشام وحضوره الجابية سنة ١٧هـ/٦٣٨م قسم فلسطين الى نصفين ، الاول : وكان يحتوي على ايلياء وحيزها ، والثاني : وكان يحتوي على الرملة وحيزها. ويبدو ان هذا التنظيم الخاص بفلسطين جاء بناء على طلب من اهل ايلياء نفسها حينما قابلوا الخليفة (٢١) ولكن البلاذري يشير الى ان الرملة لم تكن قد بنيت قبل سليمان بن عبد الملك وكان موضعها رملة ، ويذكر ايضاً ان اللد هي التي كانت مركزا للجند في فلسطين (٢٢) ، مما يرجح ان العرب اتخذوا اللد وايلياء مركزين لهم في فلسطين ، كما اتخذوا ايضاً طبرية مركزاً لهم في الاردن (٢٣) .

ان التعرف بدقة على اسماء القادة الذين انيطت بهم ولاية هذه المناطق الادارية او الاجناد ليس بالامر الهين ، ذلك لانه لم تصل الينا وثائق معاصرة فيها سجلات وافية عن الوظائف والموظفين في بلاد الشام . وان كان هذا الامر صعباً بالنسبة للعهد الاموي (٢٤) فانه اكثر تعقيداً بالنسبة للفترة التي سبقت هذا العهد ، حيث نجد العديد من الاسماء التي عين بعضها مباشرة من قبل الخليفة عمر ، وعين البعض الاخر من قبل ابي عبيدة بن الجراح ويزيد بن ابي سفيان واخيه معاوية .

---

(١٩) المصدر نفسه ، ص ١٣٧ — ١٣٨ .

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ١٣٧ ، وانظر : حسن ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن ، النظم الاسلامية ، ط٣ القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ١٥٤ ، صبحي الصالح ، النظم الاسلامية نشأتها وتطورها ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ٣٠٩ .

(٢١) الطبري (برواية سالم بن عبد الله): ١ / ٢٤٠٣ ، ٢٤٠٧ ، وانظر / ابن الاثير : ٢ / ٥٠١ ..

(٢٢) فتوح البلدان ، ص ١٤٩ .

(٢٣) قارن : صالح احمد العلي ، امتداد العرب في صدر الاسلام ، ص ٦٤ .

(٢٤) انظر : صالح احمد العلي ، موظفو بلاد الشام في العهد الاموي ، مجلة الابحاث : السنة ١٩ ، جا ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٤٦

لقد كان القادة العسكريون في بلاد الشام، قبل تولي الخليفة عمر، يقودهم اذا ما اجتمعوا للحرب عمرو بن العاص ، حتى قدم خالد بن الوليد من العراق الى الشام ، فكان امير المسلمين في كل المواقع . فلما تولى الخليفة عمر عزل خالد بن الوليد وولي ابا عبيدة بن الجراح على بلاد الشام كلها (٢٥) وقد تولى هذه المهمة ابرز الولاة الاولين ، فبالاضافة الى ابي عبيدة ، شغل هذا المنصب بعده يزيد بن ابي سفيان ، ثم معاوية بن ابي سفيان . وكان لكل جند من اجناد الشام والياً ، وفيما يأتي محاولة لترتيب اسماء ولاة الاجناد الذين شغلوا مناصبهم في فترات مختلفة من عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) :

الولاة الذين استخلفهم ابو عبيدة بعد فتح دمشق سنة ١٤هـ/٦٣٥م :

على دمشق : يزيد بن ابي سفيان (٢٦)
ثم سويد بن كلثوم بن قيس الفهري (٢٧)
على فلسطين : عمرو بن العاص (٢٨)
على الاردن : شرحبيل بن حسنة (٢٩)
على حمص : عبادة بن الصامت (٣٠)
بعد ان افتتحت
عام ١٥ / ٦٣٦

(٢٥) فتوح البلدان ، ص ١٢٣ .
(٢٦) المصدر نفسه ، ص ١٣٧ .
(٢٧) الازدي ، تاريخ فتوح الشام ، تحقيق/ عبدالمنعم عبدالله عامر ، القاهرة ، ١٩٧٠ ص ١٤٨ ، ابن حجر ، الاصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٢ : ٣/٢٢٨ - ٢٢٩ ، تاريخ الرهاوي المجهول ، (بالسريانية) ، المطبعة البطريركية السريانية ، بيروت ، ١٩٠٠ ، الفقرة ١١٦ ، ص ٨٨ (وقد استعنت بترجمة عربية مخطوطة قام بها السيد بطرس قاشا) .
(٢٨) فتوح البلدان ، ص ١٣٧ .
(٢٩) المصدر نفسه ، ص ١٣٧ .
(٣٠) المصدر نفسه ، ص ١٣٧ ، ابن حجر ، الاصابة : ٣/٦٢٥ .

الولاة بعد مؤتمر الجابية سنة ١٧هـ/٦٣٨م (٣١) .

على حمص : ابو عبيدة بن الجراح ويعاونه على قنسرين خالد بن الوليد
على دمشق : يزيد بن ابي سفيان
على الاردن : معاوية بن ابي سفيان
على فلسطين : علقمة بن مُجَزِّز
على الساحل : عبدالله بن قيس

الولاة بعد طاعون عمواس سنة ١٨هـ/ ٦٣٩م :

على حمص وما والاها من قنسرين : عياض بن غنم (٣٢)
وبعد وفاة عياض أمّر الخليفة عمر مكانه :
سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي (٣٣)
عبدالله بن قرط الثمالي
تولى حمص لمدة سنة بعد وفاة يزيد بن ابي سفيان
ثم عزله الخليفة وولى مكانه :
عبادة بن الصامت (٣٤)

على الاردن : معاذ بن جبل (٣٥)
على دمشق : يزيد بن ابي سفيان

(٣١) الطبري : ٢٥٢٦/١ ، ابن الاثير : ٥٣٥/٢ - ٥٣٦ .
(٣٢) الطبري : ٢٨٦٥/١ ، اليعقوبي : ١٣٩/٢ .
(٣٣) الطبري : ٢٨٦٥/١ - ٢٨٦٦ ، ابن حجر ، الاصابة : ١١٠/٣ .
(٣٤) الازدي ، تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٧٤ ، وقارن : ابن حجر ، الاصابة: ٦٢٥/٣ الذي يشير إلى ولاية عبادة بن الصامت لحمص في زمن ابي عبيدة، وان الاخير عزله وولى عبدالله بن قرط بعده .
(٣٥) اليعقوبي : ١٣٩/٢ .

وبعد وفاته تولى :
معاوية بن ابي سفيان (٣٦)

الولاة في سنة ٢١هـ/ ٦٤١ – ٦٤٢م (٣٧) :

على دمشق والبثنية وحوران وحمص وقنسرين والجزيرة	:	عمير بن سعد الانصاري
على البلقاء والاردن وفلسطين والسواحل وانطاكية ومعرة مصرين وقلقية	:	معاوية بن ابي سفيان

الولاة سنة وفاة الخليفة عمر بن الخطاب ٢٣هـ/ ٦٤٣ – ٦٤٤م (٣٨) :

على دمشق والاردن	:	معاوية بن ابي سفيان
على حمص وقنسرين	:	عمير بن سعد الانصاري
على فلسطين	:	علقمة بن مُجزز

ومن ملاحظة جداول الولاة هذه يتبين لنا ان الاجناد لم تكن مستقرة خلال هذه الفترة وكذلك لم يكن الولاة ثابتين في ولاياتهم ، فهم في حالة تغيير دائم ، فبعد ان كانت دمشق منطقة ادارية واحدة ، أصبحت تضم بعد سنة ٢١هـ مناطق اخرى حولها ، مثل البثنية وحوران وحمص وقنسرين والجزيرة . ورجعت في سنة ٢٣هـ فاندمجت مع الاردن ، وأصبح لها وال واحد هو معاوية بن ابي سفيان . وكذلك الأمر مع حمص ، ففي بداية الفتح عين لها والياً خاصاً بها ، ثم الحق به من يعاونه على قنسرين ، ثم دمجت هي وقنسرين مع دمشق تحت امرة وال واحد هو عمير بن سعد الأنصاري . اما الاردن ، فقد عين لها في البداية ايضاً والياً خاصاً بها ، واستمر الأمر كذلك حتى سنة ٢١هـ حيث أصبحت ضمن امرة وال واحد مع عدد آخر من المناطق كالبلقاء ، وفلسطين والسواحل ، وانطاكية ومعرة مصر ين وقالقيلية وعادت حين وفاة الخليفة عمر الى الاندماج مع دمشق .

(٣٦) المصدر نفسه : ١٣٩/٢ ، الطبري : ٢٨٦٦/١ .
(٣٧) المصدر نفسه : ٢٦٤٦/١ ، ابن الاثير : ٢٠/٣ – ٢١ .
(٣٨) اليعقوبي : ١٥٠/٢ ، الطبري : ٢٧٣٧/١ ، ٢٨٦٦ ، ابن الاثير : ٧٧/٣ .

فهل يعني هذا التغيير وجود فوضى ادارية في بلاد الشام في هذا العصر ، ام ان العرب واجهوا قدراً من المشكلات بحيث اضطروا الى هذا التغيير والتعديل في القيادات والوحدات الادارية ؟ من المرجح ان ظروف البلاد ومشكلاتها الجديدة بعد الفتح ، وعدم حسم مسألة الاستقرار بالنسبة للقبائل العربية المساهمة بالفتح حتى زيارة الخليفة عمر الى الشام ، كانت أحد العوامل المساعدة في هذا التذبذب . ويبدو ايضاً ان طاعون عمواس كان له اثراً في ذلك ، فقد ترك فراغاً في القيادة ، مما أدى الى التغيير السريع في الولاة ، لاسيما بعد وفاة أبي عبيدة بن الجراح ، ويزيد بن أبي سفيان .

كان اول اجراء اداري قام به الخليفة عمر بن الخطاب (رض) بالنسبة لبلاد الشام ، هو تغيير خالد بن الوليد بأبي عبيدة بن الجراح ، وقد كثرت التعليلات بشأن هذا التغيير، فهناك من ارجعه الى طريقة معالجة خالد بن الوليد لردة مالك بن نويرة ،واستياء الخليفة عمر بن الخطاب من ذلك (٣٩) . وهناك من اشار الى قول الخليفة عن تبذير خالد للاموال وتوزيعها على أصحاب الشرف والبأس : وحبسها عن الضعفاء (٤٠) . وقد رجع احد المؤرخين المحدثين (٤١) ، ان هذا التغيير له علاقة بضمان انسجام الجند الموجود في بلاد الشام ، حيث كان ضمن هذا الجند عدد من الذين ساهموا في الردة ، وبما ان خالداً كان شديد المناهضة للمرتدين ، فقد استبدله الخليفة بأبي عبيدة بن الجراح : الذي لم يكن اكفأ من خالد ، لكنه كان اكثر اعتدالاً ، ويمكنه ان يتعاون بسهولة مع كل عناصر الجيش . ويمكن للمرء ان يوافق على ان ابا عبيدة كان اكثر اعتدالاً من خالد ، ولكن اقحام مسألة الردة غير جائز ، لان رجال القبائل الذين ساهموا في الردة وارسلهم الخليفة الى جبهة الشام كانوا قليلي العدد ، فهم في حدود سبعمئة رجل فقط بقيادة قيس إبن المكشوح المرادي ، وحتى هذه القوة لم تمكث في بلاد الشام كثيراً ، فقد حولت بعد اليرموك مباشرة الى العراق للمساهمة في معركة القادسية (٤٢) . وهذا العدد قليل جداً بالنسبة للجيوش التي كانت موجودة في بلاد الشام والتي بلغ مجموعها اكثر من عشرين

---

(٣٩) الطبري (برواية محمد بن اسحق) : ٢١٤٨/١ .

(٤٠) الواقدي ، كتاب فتوح الشام : ٥/٢ ، ابن الجوزي ، مناقب امير المؤمنين عمر بن الخطاب ، تحقيق : زينب ابراهيم القاروط ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ١٠٨ ، ١٥٦ .

(٤١) M:-A. . Shaban, Islamic History, Cambridge. 1971, vol.I. P.31.

(٤٢) فتوح البلدان ، ص ٢٧٥ ، الطبري (برواية ابن اسحق) : ٢٣٥٠/١ .

الف رجل (٤٣) . فكيف يغير الخليفة القائد من اجل وجود سبعمئة رجل فقط من اصل أكثر من عشرين الفاً ؟

ان المتتبع لكتب الخليفة الى ابي عبيدة يجد تأكيدات كثيرة على التروي وعدم تقديم المسلمين الى التهلكة (٤٤) . وهذا يفسر ان اعتدال ابي عبيدة كان هو السبب في اختياره.

وقد الح الخليفة عمر نفسه الى احد اسباب عزل خالد ، وهو افتتان الناس بـه وبانتصاراته الباهرة ، فعزله حتى يعلم ان الله ينصر دينه وليس خالد هو الذي يصنع الانتصارات (٤٥) ولم يبخس الخليفة حق خالد ، فحينما قدم الجابية قرب خالداً وادناه، وأمّره وسار في الناس على مقدمته (٤٦) وقد اعترف الخليفة بكفاءة خالد ، واشار الى حسن اختيار ابي بكر الصديق له ، وذلك بعد ما سمع عن موقف خالد في افتتاح قنسرين، حيث لم يقاتله اهل الحاضر (٤٧) : وارسلوا اليه يقولون انهم عرب وانما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه ، فقبل منهم وتركهم . وقد سر الخليفة عمر بهذا الموقف من خالد ، وقال : « أمّر خالد نفسه يرحم الله ابا بكر هو كان اعلم بالرجال مني ... » . وقال عن عزله هو والمثنى بن حارثة الشيباني : « اني لم اعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهمـا فخشيت ان يوكلوا اليهما فلما كان من امره وأمر قنسرين ماكان رجع عن رأيه » (٤٨).

وقد اشرنا الى مسألة تغيير خالد بن الوليد بأبي عبيدة بن الجراح لاهميتها في التعرف على نوعية الصفات التي كان الخليفة عمر يبتغيها فيمن يوليه قيادة الجند ، وولاية البلدان ، فكان يريدهم ان يتبعوا الحق والعدل ، ويعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ، وان يقسموا

(٤٣) فتوح البلدان ، ص ١١٦ ، الطبري (برواية سيف) : ٢٠٨٧/١ .

(٤٤) المصدر نفسه : ٢١٤٤/١ – ٢١٤٥ ، الواقدي ، كتاب فتوح الشام : ٦/٢ .

(٤٥) ابو يوسف ، الخراج ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٨٢هـ ، ص ١٤٨ ، ابن سعد الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨ : ٢٨٦/٣ ، وانظر : ظافر القاسمي ، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي ، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٢/ ٥١٥/١ .

(٤٦) اليعقوبي : ١٣٥/٢ .

(٤٧) حاضر قنسرين : حي كبير يسكنه اصناف من العرب من تنوخ، نزلوا به في خيـم الشعر اولا ، ثم ابتنوا به المنازل : ياقوت الحموي ، معجم البلدان، بيروت، ١٩٧٧ : ٢٠٦/٢ ، فتوح البلدان ، ص ١٥٠ .

(٤٨) الطبري : ٢٣٩٣/١ ، وانظر رواية سيف بن عمر /٢٥٢٨/١، ابن الاثير ٤٩٤/٢، ٥٣٧ .

فيهم الفيء بالقسط ، وان اشكل بعد ذلك عليهم شيء رفعوه اليه (٤٩) وكان يتحرى القادة ذوي الشخصيات القوية . وبالنسبة لبلاد الشام طبق الخليفة عمر هذه القاعدة ، ورجح الاقوى من الرجال على القوي . فقد استعمل عبد الله بن قيس على السواحل ، وعزل شرحبيل بن حسنة ، فقال له شرحبيل : «اعن سخطه عزلتني ياامير المؤمنين ؟ قال لا انك لكما احب ولكني اريد رجلاً اقوى من رجل ...» (٥٠) .

ولقد اعتمد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في ادارته للاقاليم وتتبعه لاحوال ولاته فيها على استخبارات منظمة تنقل له حركات وتصرفات عماله في الامصار المختلفة : فلم يكن له في قطر من الاقطار ولا ناحية من النواحي عامل ولا امير جيش الا وعليه له عين لايفارقه ماوجده ، ((فكانت)) كما يقول الجاحظ (٥١) ((الفاظ من في المشرق والمغرب عنده في كل ممسى ومصبح. وانت ترى ذلك في كتبه الى عماله وعمالهم حتى كان العامل منهم ليتهم اقرب الخلق اليه واخصهم به)) . وعلى الرغم من المبالغة الواضحة في كلام الجاحظ ، فقد كان الخليفة يهتم بأحوال عماله ، وأفعالهم ولهذا نجد ان رد فعله كان سريعاً جداً حينما علم باجازة خالد بن الوليد الذي كان عاملاً على قنسرين للاشعث ابن قيس الكندي بمبلغ كبير من المال . وطلب من ابي عبيدة التحقيق فيما اذا كانت الاجازة من مال خالد الخاص ام ((من اصابة اصابها)) وتبين بعد التحقيق ان المبلغ كان من مال خالد الخاص ، ولكن مع ذلك استقدمه الخليفة الى المدينة وطالبه بمبلغ كبير لبيت المال (٥٢) .

وبالاضافة الى الرقابة الشديدة التي اتبعها الخليفة عمر مع ولاته في بلاد الشام وغيرها من البلدان ، فقد طبق عليهم مايطلق عليه اليوم ((براءة الذمة)) او ماسمي ((بالمشاطرة والمقاسمة)) . فقد شاطر الخليفة جماعة عن عماله ، منهم سعيد بن ابي العاص . وعمرو

---

(٤٩) الطبري : ٢٧٤٠/١ .

(٥٠) المصدر نفسه : ٢٥٢٣/١ ، وانظر : ظافر القاسمي ، المرجع السابق : ٤٧٦/١ ، سليمان محمد الطماوي ، المرجع السابق ، ص ٢٧٢ – ٢٧٤ .

(٥١) التاج في أخلاق الملوك ، تحقيق : احمد زكي باشا ، القاهرة ١٩١٤ ، ص ١٦٨- ١٦٩ ، وانظر أيضاً : البيهقي ، المحاسن والمساوىء ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٠ ص ١٤٣ – ١٤٤ ، وقارن : محمد عبدالقادر خريسات ، عمربن الخطاب والولاة ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد ٢٥ ، ١٩٨٤ ، ص ١٦٨ .

(٥٢) الطبري (برواية سيف) : ٢٥٢٦/١ – ٢٥٢٧ ، ابن الاثير ٥٣٦/٢ ، وانظر الطماوي ، المرجع السابق ، ص ٢٨٥ – ٢٨٧ .

ابن العاص ، وابو هريرة ، وخالد بن الوليد ، وابو موسى الاشعري ، وسعد بن ابي وقاص ، وغيرهم (٥٣).وفي هذه السياسة، كما يشير الدكتور محمد عبد القادر خريسات(٥٤) نوع من سد الذرائع فلا يجوز اغناء فرد بافقار امة ، ولا اسعاد فئة باشقاء مجموع .

وكان مبدأ التدقيق مع الولاة يطبقه الخليفة عمر في كل المناسبات ، لاسيما في بلاد الشام حيث حظيت هذه البلاد بزيارته دون غيرها من البلدان الاخرى .

فحينما كان في الجابية وصلته شكاية عن بعض امراء اجناد الشام الذين يأكلون لحوم الطير والخبز النقي الذي لايتوفر لعامة الناس ، فالزم الخليفة هؤلاء الامراء بأن ضمنوا له القوت للمسلمين في كل يوم رغيفين لكل رجل وما يحتاجه من مواد غذائية ، كالحنطة والشعير والخل والزيت والعسل (٥٥) .

وقد توفر لبلاد الشام في عهد الخليفة عمر بعض الولاة الذين كانوا مثال النزاهـــة والبساطة ، من ابرزهم ابو عبيدة بن الجراح ، حيث زاره الخليفة في بيته بالشام : فلم ير فيه سوى لبد فرسه ، الذي هو فراشه وسرجه ووسادته في آن ، وبعض كسر يابسة من الخبز (٥٦) وكان ابوعبيدة يظهر للناس وعليه الصوف الجافي ، الذي لم يغيره رغم كثرة من كان يشير عليه بذلك (٥٧) وكذلك سعيد بن عامر بن حذيم ، عامله على حمص ، الذي شكاه اهل حمص الى الخليفة، لانه لايخرج اليهم كثيراً .وقد استدعى الخليفة هذا العامل الى المدينة ، وحقق معه فتبين انه رجل مخلص مؤمن تقي ، وانه لايخرج اليهم لانه مشغول بعمل بيته ، وبالعبادة . وقد امر له الخليفة بمبلغ من المال ليستعين به على قضاء حوائجه(٥٨).

---

(٥٣) ابن سعد ، الطبقات الكبرى : ٢٨٢/٣ ، اليعقوبي : ١٤٦/٢ .

(٥٤) «عمر بن الخطاب والولاة» ، ص ١٦٩ .

(٥٥) الواقدي ، كتاب فتوح الشام : ٢٦٣/٢ ، الازدي ، تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٥٦ ، اليعقوبي : ١٣٥/٢ — ١٣٦ .

(٥٦) الازدي ، ص ٢٥٥ ، ابن الجوزي ، مناقب امير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ص ١٥٠.

(٥٧) المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد، القاهرة ١٩٦٤ : ٣١٥/٢ .

(٥٨) المصدر نفسه : ٣١٤/٢ ، وانظر : ابن حجر ، الاصابة :٣/ ١١٠ .

تنفرد بلاد الشام عن بقية المناطق المفتوحة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) . انها حظيت بزيارته .وحسبما تذكر الروايات فانه زارها اكثر من مرة واحدة (٥٩)ولكن ما يتوفر لدينا من معلومات يؤكد ان الخليفة عمر زار بلاد الشام مرة واحدة في اثناء خلافته بعد معركة اليرموك في اواخر عام ١٧هـ /٦٣٨م (٦٠) اما بقية الزيارات فلم يرد عنها تفصيل يؤكدها ، اللهم الاما يذكر عن الزيارة الثالثة ، التي غادر فيها المدينة بالفعل متوجهاً الى بلاد الشام حتى وصل الى سرغ وهي مكان بين الحجاز والشام ويبعد عن المدينة ثلاث عشرة مرحلة (٦١) ولكنه عدل عن الاستمرار في رحلته بسبب انتشار مرض الطاعون في بلاد الشام (٦٢) .

وتعد زيارة الخليفة لبلاد الشام على درجة كبيرة من الاهمية لما تمخض عنها من نتائج اثرت على مستقبل البلاد . فما هي ياترى الاسباب التي دعت الخليفة الى القيام بها ؟ تشير بعض المصادر الى رواية تقليدية ، وهي ان اهل ايلياء ، وهي مدينة بيت المقدس ، طلبوا الى ابي عبيدة ان يكون المتولي لعقد الصلح معهم هو الخليفة عمر بن الخطاب (رض) نفسه فكتب بذلك الى الخليفة، فحضر الى بلاد الشام (٦٣) ويذكر ابن عساكر في رواية عن سفيان بن وهب ، ان امراء الاجناد ارسلوا الى الخليفة عمر ، حينما اجتمع لديهم الفيء ان يأتي الى بلاد الشام ليقسمه بين المسلمين (٦٤) والواقع ان هذين الامرين لايمكن ان

(٥٩) الطبري (برواية سيف بن عمر) : ٢٤٠١/١ ، ابن الاثير : ٥٠٠/٢ ، ابن عساكر ، التاريخ الكبير : ١٧٤/١ – ١٧٥ .

(٦٠) الطبري (برواية سيف بن عمر) : ٢٥٢٢/١ ، ٢٥٢٤ .

(٦١) ياقوت ، معجم البلدان : ٢١١/٣ – ٢١٢ .

(٦٢) ابن سعد ، الطبقات الكبرى : ٢٨٣/٣ ، تاريخ خليفة بن خياط : ١٢٦/١ ، الطبري (برواية سيف بن عمر) : ٢٥١١/١ – ٢٥١٣ ، ٢٥١٥ ، ابن الاثير ، ٥٥٩/٢ ، ابن الجوزي ، مناقب ، ص ٦٨ – ٦٩ .

(٦٣) الواقدي ، فتوح الشام : ٢٥٤/٢ – ٢٥٥ ، الازدي ، تاريخ فتوح الشام ، ص ٢٤٨ – ٢٤٩،فتوح البلدان ، ص ١٤٤،اليعقوبي ١٣٥/٢ ، الطبري (برواية سيف بن عمر) ٢٤٠٤/١ ، ابن الاثير : ٥٠٠/٢ ، تاريخ الرهاوي المجهول ، الفقرة ١٢٠ ، ص ٩٠ .

(٦٤) التاريخ الكبير : ١٧٥/١ .

يكونا السبب في رحلة الخليفة ، لان كل واحد من امراء الاجناد في الشام كان بامكانه ان يقوم بهما دون الحاجة الى مجيء الخليفة . ولكن يبدو انه كانت هناك بالفعل مشكلات خطيرة تطلبت حضوره ، لاسيما مسألة استقرار الفاتحين في البلاد (٦٥) فقد كتب الى امراء الاجناد ان يوافوه بالجابية ، وهي قرية من اعمال دمشق من ناحية الجولان قرب مرج الصفر شمالي حوران ويقال لها ايضاً جابية الجولان،ليوم معلوم سماه لهم(٦٦)، وان يستخلفوا على اعمالهم . فجاء اليه يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بن الجراح،وخالد بن الوليد اما عمرو بن العاص ، وشرحبيل بن حسنة ، فلم يحضرا اولا ، لان الموقف في فلسطين حيث كانا ، لم يُحسم بعد . ولكنهما جاءا بعد عقد الصلح مع اهل ايلياء (٦٧) وكانت مدة اقامة الخليفة بالجابية عشرين يوما (٦٨)

اما السبب في التوجه الى الجابية دون غيرها،فلانها كانت مركزاً لتجمع الجيوش العربية في بلاد الشام (٦٩) . فقد كان موقعها الجغرافي في هضبة الجولان ، وارتفاعهـا يؤهلها لان تكون مركزاً لانفاذ الجيوش القادمة من الحجاز ومناطق شبه الجزيرة الى بلاد الشام وفلسطين ومصر (٧٠) وكانت خطة العرب الاصلية هي انشاء حامية عسكرية فـي هذه المنطقة للسيطرة على كل بلاد الشام ، كما كان الحال بالنسبة للكوفة والبصرة فـي العراق . ولكن ظروف بلاد الشام كانت تختلف عن ظروف العراق ، لاسيما بعد معركة اليرموك ، لان انتصارات العرب لم تؤد الى القضاء على الدولة البيزنطية التي ظلت تهـدد العرب بجيوشها من الشمال ، وباساطيلها من الغرب . ولهذا فمن وجهة النظر العسكرية كان يجب تأسيس خطوط دفاعية كبيرة على كلتا الجبهتين ، مما كان يتطلب توزيع القوات العربية وانتشارها في عدة اماكن غير الجابية .

لقد كانت مشكلة توزيع القبائل العربية في بلاد الشام من اهم المشكلات التي واجهـت وجودهم هناك ، وكان لابد لهذه المشكلة من حل عاجل نظراً للظروف العسكرية الصعبة،

---

(٦٥) انظر : Shaban, Op. Cit., Vol.I. pp. 40—41.

(٦٦) ياقوت ، معجم البلدان : ٩١/٢ .

(٦٧) الطبري (برواية سيف بن عمر) : ٢٤٠١/١ – ٢٤٠٢ .

(٦٨) ابن سعد ، الطبقات الكبرى : ٢٨٣/٣

(٦٩) الازدي ، تاريخ فتوح الشام ، ص ٧٦ ، ٨٤ ، ٢٥١ .

(٧٠) انظر : صالح العلي ، امتداد العرب في صدر الاسلام ، ص ٧٥ .

وهجمات البيزنطيين ، ولهذا تحرك الخليفة لعلاج هذه المشكلة . ومما زاد في تفاقم الامر أن السكان العرب الذين كانوا يعيشون في بلاد الشام قبل مجيء المسلمين استغلوا فرصة وجود الكثير من المدن والمنازل والاراضي الصالحة للزراعة ، التي تركها البيزنطيون ومن تبعهم ممن غادر البلاد اثر انتصارات المسلمين ، فاستفادوا منها ، وسيطروا عليها اعتقاداً منهم ان المسلمين قد اقتنعوا بالجابية . وقد ادى هذا الوضع الى حرمان الفاتحين من ثمار فتحهم"، لان سكان البلاد العرب أكبر عدداً من الفاتحين المسلمين (٧١) .

لقد تمخض عن مؤتمر الجابية الذي حضره قادة الاجناد في بلاد الشام نتائج مهمة جداً لاسيما بالنسبة للاستقرار . فقد اعاد الخليفة توزيع الدور والاراضي بين جميع المسلمين والعرب ، سواء كانوا من السكان الاصليين ام من الفاتحين . ولم يكتف الخليفة بهذا . بل نظم امور الولاية تنظيماً جيداً ، فقسم الارزاق ، وفرض العطاء ، وسمى الشواتي والصوائف ، وقام بجولة في كور البلاد . كما اصدر بعض الاوامر الادارية ، منها تعيين عبدالله بن قيس على السواحل ، وعمرو بن عنبسة على الاهراء ، كما قسم مواريث الذين توفوا نتيجة العمليات العسكرية ، بين الاحياء من اقاربهم (٧٢) واستعمل عمير بن سعد الانصاري على قضاء حمص . واعطى الخليفة توجيهاته بالنسبة للخطة العسكرية القادمة. فأمر ابا عبيدة بالسير الى حلب ، كما امر يزيد بن ابي سفيان بقتال قيسارية حتى يفتحها الله عليه (٧٣) وتشير احدى الروايات التي اوردها ابن عبد الحكم الى اهتمام الخليفة بأمر مصر والتفكير في فتحها ، فقد عرض عليه عمرو بن العاص في اجتماع مغلق استعداده للمسير الى مصر وافتتاحها (٧٤) .

ونظراً لوجود الخليفة عمر في الفترة التي تم فيها الصلح مع اهل ايلياء ، فقد جاء وفد من هذه المدينة الى الجابية ، واكتتبوا منه على ايلياء وحيزها والرملة وحيزها ، فصالحهم الخليفة وكتب لكل كورة من كور فلسطين العشرة كتاباً واحداً باستثناء أهل ايلياء الذين كتب لهم كتاباً خاصاً للصلح (٧٥) .

(٧١) انظر : فتوح البلدان ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، وقارن:
Shaban Op. Cit., Vol . I. 41.

(٧٢) الطبري (برواية سيف بن عمر) : ٢٥٢٣/١-٢٥٢٤ ، ابن الاثير : ٥٦٢/٢ ، ابن عساكر : ١٧٥/١ ، وانظر : ابن الجوزي ، مناقب ، ص ١٠٠ ، ١٥٦ .

(٧٣) الواقدي ، فتوح الشام : ٢٧١/٢ .

(٧٤) فتوح مصر وأخبارها ، باعتناء جارلس توري ، نيوهيفن ، ١٩٢٠ ص ٥٦ ، وقارن: الواقدي ، فتوح الشام : ٢٧١/٢ .

(٧٥) الطبري (برواية سالم بن عبدالله) : ٢٤٠٣/١ ، ٢٤٠٤-٢٤٠٦ .

ونتيجة للسياسة الجديدة التي اقتضتها الظروف العسكرية بعدم الاكتفاء بالجابية مقراً للجيوش العربية الفاتحة ، فقد توسع المسلمون في الاستقرار في بلاد الشام لمواكبة المتطلبات العسكرية وظروف البلاد . وكانت اهم مدينتين اتخذهما العرب للاستقرار هما دمشق وحمص . ففي دمشق أُعطي رجال القبائل الفاتحين الدور والممتلكات التي شغرت بسبب لحاق عدد كبير من الناس بهرقل حينما كان في انطاكية ، فنزلها هؤلاء المسلمون (٧٦). اما في حمص ، فقد كانت نسبة الاستقرار فيها اكثر لقربها عن خط الدفاع في الجبهة الشمالية. وقد تولى هذه المهمة القائد السمط بن الاسود الكندي الذي (قسم حمص خططاً بين المسلمين حتى نزلوها واسكنهم في كل مرفوض جلا اهله او مساحة متروكة) (٧٧). وقد ساعد شرحبيل بن السمط اباه الذي طلبه من الكوفة ، فحوله الخليفة عمر الى الشام حيث نزل حمص مع ابيه (٧٨) .

اما بالنسبة للسواحل ، فقد كان الاستقرار فيها ايضاً ضرورياً من اجل مواجهة الخطر البيزنطي من البحر . فقد اوعز الخليفة عمر الى القائد ابي عبيدة بن الجراح ان يرتب بانطاكية جماعة من المسلمين ويجعلهم فيها مرابطة يأخذون العطاء (٧٩). كذلك اتخذت اجراءات مماثلة بالنسبة لبقية المناطق الساحلية الاخرى . مثل اللاذقية ، وانطرطوس ، وقورس ، ومرقية وبلنياس (٨٠) وقد اصبح الجند المستقرون في هذه السواحل قوة فعالة في الدفاع ضد الهجمات البيزنطية من البحر (٨١) وهكذا استمرت سياسة ابي عبيدة في توزيع القبائل العربية على المناطق المفتوحة ، فولى كل كورة فتحها عاملاً وضم اليه جماعة من المسلمين ، وشحن النواحي الخطرة بالرجال . ولم يقتصر الامر على المسلمين حسب بل شملت اجراءات ابي عبيدة العرب الذين كانوا في بلاد الشام ، فقد رتب ببالس ، وهي بلدة بين حلب والرقة ، جماعة من المقاتلة ، واسكنها قوما من العرب من اهل الشام

(٧٦) فتوح البلدان ، ص ١٢٩ .

(٧٧) المصدر نفسه ، ص ١٣٧ ، وانظر : الطبري (رواية سيف) ٢٣٩٢/١/ ، ابن الاثير : ٤٩٢/٢ .

(٧٨) فتوح البلدان ، ص ١٤٣ .

(٧٩) المصدر نفسه ، ص ١٥٣ .

(٨٠) المصدر نفسه ، ص ١٣٨ – ١٣٩ ، ١٥٤ وانظر : معجم البلدان : ٢٧٠/١ ، ٤١٢/٤ ، ٤٨٩ ، ١٠٩/٥ .

(٨١) فتوح البلدان ، ص ١٣٣ ، وقارن : shaban ,Op. Cit., I. p. 42

فأسلموا بعد قدوم المسلمين . واسكنها ايضاً قوماً لم يكونوا من البعوث ، جاءوا من البوادي من قيس ، وفعل الشيء نفسه مع قاصـرين بالقرب من بالس (٨٢).

ولم يقتصر الاستقرار على المدن والسواحل ، بل شمل مناطق أخرى تقع خارج المدن لاسيما الاراضي والمروج والقرى والمزارع التي تركها اهلها في اثناء الفتح وهربوا الى البيزنطيين في الشمال ، او الذين قتلوا في المعارك مع المسلمين ، فصارت تلك المزارع والقرى صافية للمسلمين ، فنزل فيها الجند ، ومن هذه المناطق مرج بـردى ما بين المـزة وبيـن مرج شعبان . وكذلك كانت هناك مروج مباحة فيما بين دمشق وقراها ، ليست لأحـد فاقاموا فيها وأحيا كل قوم محلتهم ، ورفعوا الامر الى الخليفة عمر ، فأقرهم على استقرارهم فبنوا الدور ، وغرسوا الشجر (٨٣)

(٤)

وبعد اكتمال إفتتاح بلاد الشام واستقرار القبائل العربية فيه كـان لابد مـن اتخـاذ اجراءآت ادارية وتنظيمات مالية تنظم الحياة العامة للمسلمين وللسكان المحليـيـن ايضاً وتستند التنظيمات الادارية التي وضعها الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في ادارة البـلاد والاقاليم المفتوحة عامة ، وبلاد الشام ، موضوع بحثنا بشكل خاص ، الى احترام اسس خلقية معينة ، والى تعاليم الاسلام ، كأحترام الانفس ، والاموال ، والاديان وغيرها (٨٤).

وكان القضاء من الامور المهمة التي تشغل بال الخليفة ، واهتمامه بهذا الجانب معروف بالنسبة لجميع الاقاليم (٨٥) ففي فترة الفتوح يبدو ان القادة العسكريين كانوا هم الذين يتولون مهمة القضاء . ويتضح هذا الامر من رسالة بعث بها الخليفة الى ابي عبيدة بـن الجراح يقول فيها : ((اما بعد فاني اكتب اليك بكتاب لم آلك ونفسي فيه خيراً ، الزم خمس خصال ، يسلم لك دينك وتحظ بافضل حظك ، اذا حضرك الخصمان فعليك بالبينات العدول والايمان القاطعة ، ثم ادن الضعيف ، حتى ينبسط لسانه ، ويجترىء قلبه ، وتعاهد الغريب ، فانه اذا طال حبسه ، ترك حاجته وانصرف الى اهله ، واذا الذي

---

(٨٢) فتوح البلدان ، ص ١٥٥ ، وانظر : معجم البلدان : ٣٢٨/١ ، ٢٩٧/٤ .

(٨٣) ابن عساكر : ١٨٢:١ – ١٨٣ ، ١٨٤ – ١٨٥ .

(٨٤) قارن : شكري فيصل ، المجتمعات الاسلامية في القرن الاول ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ٦٠ فما بعدها ، فاروق عمر فوزي ، النظم الاسلامية ، العين. ١٩٨٣ ، ص ٧١ – ٧٤ .

(٨٥) انظر : الطماوي ، عمر بن الخطاب واصول السياسة والادارة الحديثة ، ص ٢٣١ فما بعدها .

ابطل حقه ، من لم يرفع به رأساً . احرص على الصلح ، مالم يبن لك القضاء والسلام (٨٦).

ولكن بعد استقرار الامور وتوطيد السلطة العربية في بلاد الشام ، انيطت مهمة القضاء الى رجال متخصصين واعفي منها الولاة فكان الخليفة يعين رجالاً من اصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم لاستلام مهمة الصلاة والقضاء . فحينما ولي معاوية بن ابي سفيان على الشام بعد وفاة اخيه يزيد ، ولى معه رجلين للصلاة والقضاء ، الاول : ابو الدرداء ، تولى قضاء دمشق والاردن وصلاتهما ، والثاني : عبادة بن الصامت ، تولى قضاء حمص وقنسرين وصلاتهما (٨٧) وربما كان هذان الرجلان مسؤولين عن تعيين اشخاص آخرين لينوبوا عنهما في هذه المهمة بالنسبة للمناطق الادارية التي تتبع اجناد دمشق وحمص وقنسرين .

ومن أجل استمرار الحياة الأقتصادية ، وحركة التعامل التجاري في أثناء الفتح وبعده ، قبل الخليفة عمر نموذج النقود البيزنطية التي كانت سائدة في بلاد الشام . ويدل على هذا الكميات الكبيرة من القطع البرونزية التي تم العثور عليها ، والتي ضربت في عهد الخليفة عمر على الطراز البيزنطي . ومن استعراض هذه « الفلوس » نجد على احد وجهي القطعة صورة هرقل الامبراطور البيزنطي واقفا وتحيط به الشارات المسيحية وهي «الصليب» الذي يعلو التاج والصليب فوق عصا المطرانية بيده اليمنى والكرة التي يعلوها الصليب محمولة باليد اليسرى وعلى الوجه الثاني نجد الرمز النقدي M الذي يشير إلى الرقم ٤٠ في الابجدية اليونانية بمعنى ان القطعة تساوي اربعين نميا Nummia وفوق هذا الحرف نجد الصليب ، كما نرى التاريخ الهجري سنة ١٧ هـ مكتوباً باليونانية . وتحمل أقدم هذه النقود اسم دار الضرب دمشق باليونانية » (٨٨) .

ولكن ابتدأ العرب بالتدريج يقللون من التأثير البيزنطي على النقود ، لا سيما بعد ازدياد خبرتهم في هذا المجال ، وبعد احكامهم للسيطرة العسكرية على البلاد . وقد ابتدأت الكتابات العربية تظهر إلى جانب الكتابات اليونانية . فنجد مثلا ان دمشق تكتب باليونانية والعربية معا ، وكذلك حمص وطبرية . كما اخذت تظهر على القطع بعض العبارات التي تشير إلى الوزن الشرعي الصحيح ، مثل لفظ (طيب) او (جائز) او (واف) .

---

(٨٦) ابن الجوزي ، مناقب ، ص ١٣٠ ، وقارن : ابو يوسف ، الخراج ، ص ١١٧ .

(٨٧) فتوح البلدان ، ص ١٤٦ .

(٨٨) عبدالرحمن فهمي محمد ، النقود الاسلامية ماضيها وحاضرها ، القاهرة ، ١٩٦٤ . ص ٢٦ - ٢٧ .

ولكن مع ذلك ظلت صورة هرقل ومعه صورة ابنيه تظهر على النقود العربية . غير ان الكتابات العربية اخذت تميل بمرور الزمن إلى احتلال مكان اكبر على الفلوس البرونزية فظهرت البسملة (بسم الله) واعقبها بعد قليل شهادة الوحدانية والرسالة المحمدية (لااله الا الله محمد رسول الله) (٨٩) .

وقد اقتصر الضرب في عهد الخليفة عمر على الفلوس البرونزية . ولكن يحتمل ان تكون بعض الدراهم المضروبة على الطراز البيزنطي قد سكت ايضا في عهده (٩٠) ويبدو ان بعض قادة الجند في اثناء الفتح قد سكوا بعض النقود باسمهم على الطراز البيزنطي، فهناك من يرى أن خالد بن الوليد قد سك باسمه نقودا في طبرية على الطراز البيزنطي سنة ١٥ أو ١٦ هـ / ٦٣٦ أو ٦٣٧م . (٩١) وقد اسلفنا ان الخليفة عمر وافق ضمنا على سك مثل هذه النقود ، وربما يكون قد خول القادة للقيام بمثل هذا الاجراء حيثما كان ذلك ضرورياً لتسهيل التعامل بين الجيش الفاتح والسكان المحليين .

أما بالنسبة للتنظيم المالي الذي اتخذه العرب في بلاد الشام، فقد كان سهلا كتنظيم الاستقرار فيها، وهو يلائم هذا الاستقرار ومتعلق به (٩٢) . فقد كان المسلمون يدفعون عشورهم على الاراضي التي يمتلكونها ، وهي عادة تلك التي جلا عنها اهلها، واقطعت للمسلمين، فاحيوها وكانت مواتا لاحق لاحد فيها (٩٣) . اما غير المسلمين، فاستمروا في دفع ضرائبهم ، لاسيما الجزية ، استنادا الى النظام البيزنطي . وهذا يفسر بقاء العديد من موظفي الضرائب السابقين الذين ابقوا عليهم من أجل تسيير عجلة الادارة الجديدة(٩٤). وهكذا نرى ان الاسلام لم يستحدث الجزية، بل انها كانت قديمة ، حيث فرضها اليونان على سكان اسيا الصغرى في القرن الخامس ق.م . كذلك الزم الرومان والفرس والامم

---

(٨٩) المرجع نفسه ، ص ٢٧ – ٢٨ .

(٩٠) J. walker, A Catalogue of the Arab- Byzantine and post Reform Umaiyad Coins, London. 1956.p.46.

(٩١) Ibid, p. 47.

لمحة عن تاريخ النقود ، منشور مع كتاب النقود وعلم النميات للاب انستانس الكرملي ، القاهرة ، ١٩٣٩ ، ص ٩١ ، جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، بيروت ، ٣٥/١:١٩٦٧ .

(٩٢) انظر : Shaban, op. cit., vol I. p. 43.

(٩٣) فتوح البلدان ، ص ١٥٧ .

(٩٤) انظر : آرثر ستانلي ترتون ، اهل الذمة في الاسلام ، ترجمة وتعليق : حسن حبشي، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ١٣ ، ١٤ .

الي خضعت لهم بدفع الجزية، الا أنها كانت اضعاف الجزية التي وضعها المسلمون على اهل الذمة (٩٥).

وقد كانت الجزية في بادىء الامر في بلاد الشام جريبا من الحنطة عن كل جريب ارض (٩٦) ، ودينارا واحدا عن كل فرد من الفلاحين. ثم نظمها الخليفة عمر، فجعلها على كل الذكور من غير المسلمين الذين يعيشون في المدن والارياف ، بمعدل يتراوح بين دينار واحد الى دينارين الى اربعة دنانير ، تبعا لحالة دافع الضريبة المالية ، يستوي في ذلك اليهود والنصارى (٩٧). واما تحديد الطبقات فكان يتم على الشكل الاتي ، كما اورده قدامة بن جعفر (٩٨). «اهل العليا هم الذين لهم المال المشهور من الصامت والضياع والدور والرقيق الذي لايمكنهم ستره. واهل الوسطى هم الذين تعرف لهم دور ويسار ويوثق بهم في الأموال ويؤتمنون على المتاع. واهل الدون هم سائر من دون هذه الطبقة». ولم تكن الجزية تؤخذ من المسكين الذي يتصدق عليه . ولا من الاعمى الذي لا حرفة له ولا عمل، ولا من المقعد، ولا من الرهبان واهل الصوامع ،الا اذا كانوا من اهل اليسار ، ولا من الشيخ الكبير الذي لايستطيع العمل، ولا من المجنون (٩٩).

بالاضافة الى المبالغ النقدية كان على كل ذمي ان يدفع مايسمى بالارزاق ، وهي :

(٩٥) انظر : صبحي الصالح ، النظم الاسلامية ، نشأتها وتطورها ، ص ٣٦٤ .

(٩٦) مكيال (الجريب) في صدر الاسلام كان يساوي ٢٢,٧١٥ كغم قمح، والجريب مساحة يساوي ١٥٩٢ متر مربع : انظر : فالتر هنتس ، المكاييل والاوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري ، ترجمة : كامل العسلي ، منشورات الجامعة الاردنية ، عمان ١٩٧٠ ، ص ٦١ ، ٩٦ .

(٩٧) فتوح البلدان ، ص ١٣١ ، قدامة بن جعفر ، الخراج وصنعة الكتابة ، ص ٢٩٥ ، ابن عساكر : ١٧٩/١ .

(٩٨) الخراج وصنعة الكتابة ، ص ٢٢٥ – ٢٢٦ .

(٩٩) ابو يوسف ، الخراج ، ص ١٢٢ – ١٢٣ ، ابو عبيد ، الاموال ، القاهرة ، ١٣٥٣هـ ص ٣٧ فما بعدها ، الماوردي ، الاحكام السلطانية والولايات الدينية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ١٤٤ .

مدان من الحنطة (١٠٠)، وثلاثة اقساط من الزيت في كل شهر (١٠١)، وكميات اخرى من الودك (أي دسم اللحم)، والعسل، والثياب (١٠٢).

وبالنسبة للاراضي عمل الخليفة عمر بن الخطاب (رض) على ان تبقى في يد اصحابها الذين يقومون بالعناية بها وزراعتها، وفي مقابل ذلك يدفعون للمسلمين ضريبة الارض او الخراج بنسب معلومة على المنتجات التي تجبى كل سنة من الارض المزروعة، وبضمنها ايضا الواجبات العينية التي اشرنا اليها من حنطة وزيت وعسل وغيرها. وتختلف معاملة الاراضي حسب طبيعة الفتح، فاذا فتحت البلد صلحا يؤخذ عنها ضريبة الخراج، ويتفق على قيمة هذه الضريبة. اما اذا اخذت البلد عنوة، فتعتبر فيئا للمسلمين، ويؤخذ عنها الخراج ايضا اذا اراد الخليفة ان يتركها بيد اصحابها بدلا من ان يوزعها على المحاربين (١٠٣).

لقد كانت سياسة الخليفة عمر العامة ازاء مسألة الاراضي، هي عدم القسمة، وتركها بيد اهلها، كما فعل في ارض السواد (١٠٤). وبالنسبة لبلاد الشام يذكر أبو يوسف، ان ابا عبيدة بن الجراح كتب الى الخليفة يسأله امكانية تلبية طلب المسلمين الذين معه بشأن قسمة الأراضي عليهم، فاجابه الخليفه ان يترك الأرض بيد اصحابها لانهم «...عمار الارض فهم اعلم بها واقوى عليها ولا سبيل لك عليهم ولا للمسلمين معك ان تجعلهم فيئا وتقسمهم للصلح الذي جرى بينك وبينهم ولاخذك الجزية منهم بقدر طاقتهم... أرأيت لو أخذنا اهلها فاقتسمناهم ما كان يكون لمن يأتي بعدنا من المسلمين؟» (١٠٥). اذن نظر الخليفة الى المستقبل، واراد ان يشرك اكبر عدد ممكن من الناس في الاستفادة

---

(١٠٠) المد يساوي ٨١٢,٥ غرام (قمح)، انظر: فالترهنتس، المرجع السابق، ص ٧٤.

(١٠١) القسط: منه حجمان، القسط الصغير وسعته ١,٢١٥٨ لتر، والقسط الكبير كان ضعف الصغير تماماً، ولا يوجد لدينا ما يشير إلى اي القسطين هو المقصود هنا، انظر: هنتس، المرجع السابق، ص ٧٤.

(١٠٢) فتوح البلدان، ص ١٣١، قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢٢٦، ابن عساكر: ١٧٩/١.

(١٠٣) ابو يوسف، الخراج، ص ٥٩، ٦٩، أبو عبيد، الاموال، ص ٧٤، قدامة، الخراج، ص ٢٠٤، ٢٠٦.

(١٠٤) ابو يوسف، الخراج، ص ٢٦، ٣٦، ابو عبيد، الاموال، ص ٤٠ - ٤١، الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ١٤٨، ١٧٤ - ١٧٥.

(١٠٥) ابو يوسف، الخراج، ص ١٤٠ - ١٤١.

من الارض، لاسيما الذين يأتون بعد جيل الفتح، يضاف الى ذلك استخدام واردات هذه الأرض لسد نفقات الثغور وتحصين السواحل، ولتوفير المال اللازم لاعطيات المقاتلين، وارزاقهم حتى يستطيعوا ان يدافعوا عن الاراضي المفتوحة ، ويستمروا في جهاد العدو (١٠٦).

وقد نظمت الضرائب التي تؤخذ على التجارة ايضا. وكانت قاعدة العشور هي المعمول بها بالنسبة للتجارة . فكان على التجار المسلمين ان يدفعوا ربع العشر اي ٢,٥٪ ، وعلى اهل الذمة نصف العشر اي ٥ ٪. اما اهل الحرب ،اي رعايا الدولة البيزنطية، فكان عليهم دفع العشر اي ١٠٪ . ويبدو انه كانت هناك حالة من التبادل التجاري بين مناطق الحدود، اي الثغور، وبين المناطق التي وقعت بأيدي المسلمين فقد طلب قوم من اهل منبج التجارة في الاراضي الاسلامية، فكتبوا الى الخليفة عمر: «دعنا ندخل ارضك تجاراً وتعشرنا» فوافق الخليفة بعد ان شاور اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكان أهل منبج أول من عشر من اهل الحرب(١٠٧)، وبطبيعة الحال، لم يكن اهل منبج الوحيدين الذين مارسوا التجارة مع الاراضي الاسلامية، ولا شك ان هناك حالات اخرى كثيرة مشابهة . ولابد ان عشور التجارة كانت تشكل موردا لابأس به للدولة ، وليس ادل على اهميتها من ان الخليفة عين موظفا خاصاً لعشور العراق والشام. ولكن ابا يوسف، الذي ذكر لنا هذا الخبر ، لم يحدد موقعه بالضبط، وان كان مركزه بالنسبة لبلاد الشام (١٠٨).

وكانت واردات الضرائب بصورة عامة تستعمل في بناء التحصينات على السواحل(١٠٩)، وربما في الاعداد لبناء اسطول عربي في البحر المتوسط لصد الغارات البحرية البيزنطية . يضاف الى ذلك ، فان هذه الواردات كانت تغطي النفقات الادارية الاعتيادية . ورواتب القادة والجند. اي اعطياتهم . وعلى الرغم من ان نظام العطاء لم يكن قد استقر بعد في بلاد الشام في هذه الفترة المبكرة. ولكن المصادر تشير الى ان بعض الحالات التي قد تساعدنا في تكوين فكرة اولية عن العطاء في بلاد الشام في هذا العهد . فلقد كان اعلى عطاء للذين اشتركوا في عمليات الفتح الاولى ، اي معركة اليرموك وما قبلها الفي درهم في السنة ،

---

(١٠٦) انظر : فتوح البلدان ، ص ١٥٦ ، ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٦ – ٢٧ ، ابن عساكر ، ١/١٨٠ – ١٨١ .

(١٠٧) ابو يوسف ، الخراج ، ص ١٣٥ .

(١٠٨) المصدر نفسه ، ص ١٣٥ .

(١٠٩) المصدر نفسه ، ص ١٥٣ .

واهل البلاء البارع منهم الفين وخمسمئة (١١٠).وقد تدرج عطاء الجند من هذا الحد الاعلى الى ثلاثمئة، والى مئتي درهم. حسب بلائهم ومساهمتهم في الفتح اما الذين جاءوا الى بلاد الشام بعد معركة اليرموك، فقد فرض لهم الف درهم. ثم فرض للروادف من الذين جاءوا بعدهم خمسمئة درهم، ولمن بعدهم مئتين وخمسين درهماً ثم مئتي درهم وهكذا...» (١١١) اما المواد العينية ، كالحنطة والزيت وغيرها ، فربما كانت توزع على الجند الذين كانوا يسكنون في المدن، والذين لم يعطوا اراضي ، اما الذين استقروا في الأرياف ،فكان عليهم ان يكتفوا بانتاجهم (١١٢).

(٥)

وبعد هذا العرض السريع للاجراءات الادارية والمالية التي تمت في بلاد الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ، لابد من الاشارة إلى موقف السكان المحليين، ومدى تأثرهم بهذه الاجراءات . ولكن لابد من التنويه انه ليس من هدف هذا البحث الا ستطراد في الحديث عن مدى تسامح العرب مع السكان المحليين ، وتساهلهم معهم في شؤون الضرائب ، حيث ان هذا الامر كان ولا يزال من الحقائق المعروفة التي اشار اليها الكثير من الباحثين (١١٣) لقد كان هذا التسامح ، وسيرة المسلمين الحسنة مع أهل المنطقة احد العوامل الرئيسة في تعاون هؤلاء السكان مع الفاتحين . ولم يكن للدين المسيحي الذي يعتنقه كل من البيزنطيين واهل الشام اثر رابط بين الاثنين ، لان الاهالي كانوا على المذهب اليعقوبي الذي لم يعتنقه الحكام الارثدوكس ، مما زاد في تعاون اهل الشام مع الجيوش العربية . ولكن مع ذلك كانت هناك عوامل اخرى تحكمت في موقف اهل البلاد من المسلمين ، لاسيما قبل معركة اليرموك ، منها حال قوة المسلمين ومركزهم ازاء قوة البيزنطيين واغراءاتهم المادية ، وعلاقة البيزنطيين مع بعض امراء العرب الغساسنة

(١١٠) الطبري : ٢٤١٢/١ ، ابن الاثير : ٥٠٣/٢ .

(١١١) الطبري : ٢٤١٣/١ ، ابن الاثير : ٥٠٣/٢ ، ابن سعد ، الطبقات الكبرى : ٢٩٧/٣ .

(١١٢) انظر : Shaban ,Op. Cit., vol. I. 44

(١١٣) انظر على سبيل المثال : فان فلوتن ، السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية ، ترجمة : حسن ابراهيم حسن ، ومحمد زكي ابراهيم ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٢٦ ، سير توماس أرنولد ، الدعوة إلى الاسلام ، ترجمة : حسن ابراهيم حسن واخرون ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٧٤ ، ٧٥ ، كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ترجمة ، بدرالدين القاسم ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ٢٧/١ ،
Bernard Lewis, The Arabs in History, London, 1975,p. 58.

وغيرهم ، وميل بعضهم إلى بيزنطة طمعا في المال وابقـاء على سلطانهم ونفوذهم . وقد ادت هذه العوامل إلى اختلاف موقف عرب الشام من الفتح الاسلامي . ولكن بعد معركة اليرموك تغير الموقف لصالح المسلمين . وتضاءلت الاعتبارات التي كانت تغري بالانضمام إلى البيزنطيين امام انتصارات المسلمين المتلاحقة . فاقتنع العرب في بلاد الشام بعزل قضيتهم عن قضية البيزنطيين ، وان مصيرهم وقدرهم هو مع اخوانهم المسلمين (١١٤). وقد ادى هذا الموقف الايجابي إلى اقتناع الخليفة باهمية الأستفادة من عرب الشام للوقوف امام البيزنطيين ، فكتب إلى ابي عبيدة ان يستعين بهم في معارك الجبهة الشمالية من بلاد الشام (١١٥) .

ولقد وقف بالفعل بعض أهالي الشام موقفا مشرفاً مع المسلمين ،وتطوعوا بالعمل مع الجيش الفاتح، مثال ذلك الجراجمة بالقرب من انطاكية، حيث صالحوا حبيب بن مسلمة الفهري ،الذي ولاه ابو عبيدة على انطاكية: على ان يكونوا اعوانا للمسلمين ومسالح في جبل اللكام، وفي مقابل ذلك اعفوا من الجزية، واعطوا نصيبهم من الغنائم في المعارك التي شاركوا فيها (١١٦)، لان الجزية كما هو معروف كانت تؤخذ من الذمي القادر على حمل السلاح لقاء حمايته واعفائه من الخدمة العسكرية ،لكنه اذا مادخل في خدمة الجيش الاسلامي. سقطت عنه الجزية ،كما هو الحال مع الجراجمة الذين اشرنا الى موقفهم من المسلمين. وقد اعفى ابو عبيدة بن الجراح السامرة، وهم يهود في الاردن وفلسطين، من الخراج واكتفى بأخذ الجزية منهم، لانهم ساعدوا المسلمين بأن يكونوا عيونا وادلاء لهم على اعدائهم (١١٧). كما عمل بعض انباط الشام أيضاً جواسيس للمسلمين ينقلون اليهم أنباء اعدائهم من البيزنطيين (١١٨). بل ان قادة المسلمين وثقوا بهم الى درجة

---

(١١٤) انظر : محمد ضيف الله البطاينة ، العلاقة بين نصارى العرب وحركة الفتح الاسلامي في الجزيرة العربية والشام والعراق ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد ٢٢ ، ١٩٨٢ ، ص ٨١ — ٨٥ .

(١١٥) الطبري : ١/ ٢٣٩٣ .

(١١٦) فتوح البلدان ، ص ١٦٤ .

(١١٧) المصدر نفسه ، ص ١٦٢ .

(١١٨) ابن اعثم الكوفي ، كتاب الفتوح ، حيدر اباد الدكن ، ١٩٦٨ ، ٤ : ١/١٧٥ .

كبيرة، حتى ان ابا عبيدة بن الجراح استخدم أحد انباط الشام النصارى ليحمل كتابا الى الخليفة عمر في المدينة (١١٩).

وكانت شروط الصلح التي يعقدها المسلمون مع مدن الشام تتضمن تعهدات اساسية باحترام الشعائر الدينية للسكان المسيحيين ،والابقاء على كنائسهم، وعلى الا يمنعوا من التمتع باعيادهم (١٢٠). بل ان الخليفة عمر كتب الى ابي عبيدة ان يسمح للمسيحيين ان يخرجوا وهم يحتفلون برفع صلبانهم في عيد الفصح خارج المدينة (١٢١). وقد حرص الخليفة عمر حينما كان يزور بلاد الشام الا يأمر بأي اجراء قد يفهم منه نقض او تراجع عن عهود المسلمين للسكان المحليين (١٢٢). وكان يستمع الى شكاواهم ويأمر قادته بالرفق بهم ،وعدم تعذيبهم او تكليفهم بما لايطيقون من دفع الجزية او الخراج (١٢٣). ويشير البلاذري الى ان الخليفة عمر امر باعطاء الصدقات واجراء القوت على جماعة من النصارى المجذومين حينما رآهم في طريقه الى الجابية (١٢٤).

وليس ادل على حسن معاملة المسلمين لأهل الشام من انهم ردوا على اهل المدن أموال الضرائب التي اخذوها منهم، وذلك حينما اضطروا لترك هذه المدن والتجمع لقتال البيزنطيين في اليرموك. وقد كتب ابو عبيدة لسويد بن كلثوم عامله على الشام (١٢٥).

---

(١١٩) المصدر نفسه : ١٨٧/١ – ١٨٩ . وللاستزادة عن دور الانباط في الفتوح الاسلامية، انظر : صالح الحمارنة ، دور الانباط في الفتوح الاسلامية ، مجلة دراسات ، العلوم الانسانية ، م ٧ ، العدد ١ حزيران ، ١٩٨٠ ، ص ١٦٧ – ١٧٨ . وعن استخدام نصارى العرب كجواسيس وعيون للمسلمين ، انظر : احمد عادل كمال ، الطريق الى دمشق ، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٤٦٧ – ٤٦٨ .

(١٢٠) انظر : تاريخ خليفة بن خياط : ١١٢/١ ، فتوح البلدان ، ص ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٥٢ ، الطبري : ٢٤٠٥/١ ، ابن الاثير : ٤٩٥/٢ ، إبن عساكر : ١٧٨/١.

(١٢١) أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٤١ .

(١٢٢) فتوح البلدان ، ص ١٤٥ .

(١٢٣) الواقدي ، فتوح الشام : ٢٥٩/٢ ابو يوسف ، الخراج ، ص ١٢٥ ، اليعقوبي: ١٣٦/٢ ، ابن عساكر : ١٧٩/١ ، وانظر : ترتون ، اهل الذمة في الاسلام ، ص١٥٧ – ١٥٨ .

(١٢٤) فتوح البلدان ، ص ١٣٥ .

(١٢٥) تاريخ الرهاوي المجهول ، الفقرة ١١٦ ، ص ٨٨ .

ولولاته ان يقولوا لاهل البلاد : «انما رددنا عليكم اموالكم لانه قد بلغنا ماجمع لنا من الجموع وانكم اشترطتم علينا ان نمنعكم وانا لانقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم..» (١٢٦).
وقد اثار هذا الموقف السامي مشاعر اهالي المدن ،وعبروا لقادة المسلمين عن حبهم لولايتهم وعدلهم، واستعدادهم للدفاع عن مدنهم مع المسلمين، استوى في ذلك اليهود والنصارى في حمص ودمشق وغيرها من المدن التي اتفقت على الصلح مع المسلمين (١٢٧). وبعد انتصار المسلمين فرح اهل الشام وخرجوا لملاقاتهم بسرور عظيم، وأيدوا معهم الوعود والعهود السابقة بكل ود ومحبة (١٢٨).

بهذه الروح الأنسانية ابتدأ العرب ادارتهم لبلاد الشام وتعاملهم مع أهلها ، واستمروا على هذا الموقف في اثناء الفتح وبعده، يتبعون في كل ذلك توجيهات الخليفة عمر بن الخطاب (رض)، الذي وضع القواعد الاساسية السليمة لهذه الادارة. وقد سار على هذا النهج واكمله معاوية بن ابي سفيان، سواء في فترة ولايته لبلاد الشام ام في فترة خلافته اللاحقة بعد سنة ٤١هـ — ٦٦١م هو وبقية الخلفاء الامويين. وما الانجازات الكبيرة التي تمت في عهد عبد الملك بن مروان، وابنيه الوليد وهشام من تعريب للدواوين ، واصلاح للنقود، وفتوح عظيمة، الا ثمرة للسياسة الادارية الحكيمة التي وضعها الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في هذه البلاد.

---

(١٢٦) ابو يوسف ، الخراج ، ص ١٣٩ .
(١٢٧) فتوح البلدان ، ص ١٤٣ .
(١٢٨) تاريخ الرهاوي المجهول ، الفقرة ١١٦ ، ص ٨٨ .

قائمة المصادر والمراجع

(آ) المصادر الاولية :

ابن الاثير ، علي بن ابي الكرم .

١ — الكامل في التاريخ ،بيروت ، ١٩٧٩ .

الأزدي، محمد بن عبد الله

٢ — تاريخ فتوح الشام: تحقيق: عبد المنعم عبد الله عامر ،القاهرة، ١٩٧٠ .

ابن اعثم الكوفي ،احمد بن عثمان .

٣ — كتاب الفتوح ،حيدر اباد الدكن، ١٩٦٨ .

البلاذري، احمد بن يحيى بن جابر.

٤ — فتوح البلدان : تحقيق: رضوان محمد رضوان، القاهرة ، ١٩٥٩

البيهقي، ابراهيم بن محمد

٥ — المحاسن والمساوىء، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠ .

الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر.

٦ — التاج في اخلاق الملوك، تحقيق : احمد زكي باشا، القاهرة ١٩١٤

ابن الجوزي، ابو الفرج عبد الرحمن بن علي

٧ — مناقب امير المؤمنين عمر بن الخطاب، تحقيق: زينب ابراهيم القاروط، بيروت ، ١٩٨٠ .

ابن حجر ،احمد بن علي بن حجر العسقلاني.

٨ — الاصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق: علي محمد البجاوي ، مطبعة نهضة مصر ،القاهرة، ١٩٧٢

ابن خياط، خليفة بن خياط العصفري .

٩ — تاريخ خليفة بن خياط : تحقيق: سهيل زكار، دمشق، ١٩٦٧ .

الرهاوي، مجهول .

١٠ - تاريخ الرهاوي المجهول: بالسريانية، المطبعة البطريركية السريانية بيروت، ١٩٠٠.

[ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع.

١١ — الطبقات الكبرى: دار صادر: بيروت ، ١٩٦٨.

الطبري، محمد بن جرير.

١٢ — تاريخ الرسل والملوك ،نشر: دي غويه، ليدن، ١٩٧٩ — ١٩٠١ .
ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله .
١٣ — فتوح مصر واخبارها، باعتناء : جارلس توري (نيوهيفن ١٩٢٠ اعادت طبعه مكتبة المثنى ببغداد .
أبو عبيد ، القاسم بن سلام .
١٤ — الاموال ، القاهرة ، ١٣٥٣ هـ .
ابن عساكر ، ابو القاسم علي بن الحسن .
١٥ — التاريخ الكبير ، باعتناء : الشيخ عبدالقادر افندي بدران ، مطبعة روضة الشام ، ١٣٢٩ هـ .
قدامة ، ابو الفرج قدامة بن جعفر .
١٦ — الخراج وصنعة الكتابة ، شرح وتعليق : محمد حسين الزبيدي ، بغداد ، ١٩٨١ .
الماوردي ، ابو الحسن علي بن محمد .
١٧ — الاحكام السلطانية والولايات الدينية ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين .
١٨ — مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد، القاهرة ١٩٦٤ .
الواقدي ، محمد بن عمر .
١٩ — كتاب فتوح الشام ، نشر : وليم ناسوليس ، كلكتا ، ١٨٥٤ .
ياقوت ، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي .
٢٠ — معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧ .
اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب .
٢١ — تاريخ اليعقوبي ، النجف ، ١٩٧٤ .
ابو يوسف ، القاضي يعقوب بن ابراهيم .
٢٢ — الخراج ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٨٢ هـ .

(ب) المراجع الثانوية :
حسن ، حسن ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن .
٢٣ — النظم الاسلامية ، ط ٣ ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
زيدان ، جرجي زيدان .
٢٤ — تاريخ التمدن الاسلامي ، بيروت ، ١٩٦٧ .
الصالح ، صبحي الصالح .
٢٥ — النظم الاسلامية ، نشأتها وتطورها ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨.
الطماوي ، سليمان محمد الطماوي .
٢٦ — عمر بن الخطاب واصول السياسة والادارة الحديثة ، دراسة مقارنة ، القاهرة ١٩٦٩ .
العلي، صالح احمد العلي :
٢٧ — امتداد العرب في صدر الاسلام، مطبعة المجمع العلمي العراقي ،بغداد ١٩٨١
فوزي، فاروق عمر فوزي.
٢٨ — النظم الاسلامية، العين، ١٩٨٣
فيصل، شكري فيصل.
٢٩ — المجتمعات الاسلامية في القرن الأول، دار العلم للملايين، بيروت ، ١٩٧٨
القاسمي، ظافر القاسمي.
٣٠ — نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي، دار النفائس ،بيروت ، ١٩٨٢.
الكرملي، انستانس ماري الكرملي .
٣١ — كتاب النقود وعلم النميات، ومنشور معه لمحة عن تاريخ النقود ،القاهرة ١٩٣٩.
كمال، احمد عادل كمال
٣٢ — الطريق الى دمشق، دار النفائس ،بيروت ، ١٩٨٢ .
محمد ،عبد الرحمن فهمي محمد
٣٣ — النقود العربية ماضيها وحاضرها، القاهرة، ١٩٦٤ .

• • •

آرنولد ،سيرتوماس ارنولد
٣٤ — الدعوة الى الاسلام، ترجمة حسن ابراهيم حسن واخرون، القاهرة، ١٩٧١
ترتون، ارثر ستانلي ترتون

٣٥ – اهل الذمة في الاسلام ،ترجمة وتعليق: حسن حبشي، القاهرة، ١٩٦٧.
كاهن، كلود كاهن.
٣٦ – تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ،ترجمة: بدر الدين القاسم ،بيروت١٩٧٢
فلوتن، فان فلوتن
٣٧ – السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني امية، ترجمة: حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم : القاهرة، ١٩٦٥ .
هنتس ،فالتر هنتس
٣٨ – المكاييل والاوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري. ترجمة كامل العسلي منشورات الجامعة الاردنية، عمان، ١٩٧٠ .

• • •

* Lewis, B.
39— The Arabs in History , London, L975.
* Shaban , M.A.
40— Islamic History, vol.I cambridge, 1971 .
* Walker, J .
41— A Catalogue of the Arab— Byzantine and post Reform Umaiyad coins, London , 1956.

البطانية، محمد ضيف الله البطانية.
٤٤ – العلاقة بين نصارى العرب وحركة الفتح الاسلامي في الجزيرة العربية والشام والعراق. مجلة المؤرخ العربي، العدد ٢٢، طبع في لندن، ١٩٨٢
الحمارنة، صالح الحمارنة.
٤٥ – دور الانباط في الفتوح الاسلامية، مجلة دراسات ،العلوم الانسانية،م ٧ العدد ١، عمان ،١٩٨٠
خريسات، محمد عبد القادر خريسات.
٤٦ – عمر بن الخطاب والولاة، مجلة المؤرخالعربي، العدد ٢٥ ،بغداد ،١٩٨٤
العلي، صالح احمد العلي
٤٧ – موظفو بلاد الشام في العهد الاموي، مجلة الابحاث، السنة ١٩، العدد ١ بيروت ، ١٩٦٦ .

• • • •



المميزات والتصاميم المعمارية التراثية في الموصل وتأثيرها على النمو العمراني الحضري فيها

الدكتور احمد قاسم الجمعة
كلية الآداب /جامعة الموصل

يتناول البحث نبذة عن الخلفية التاريخية لمدينة الموصل ، وموقعها القديم ، وخططها وطبيعة المتغيرات التي طرأت عليها حتى آلت إلى شكلها التراثي ، مع التركيز على المميزات والتصاميم المعمارية لأبنيتها ، وتتبع اصولها ، والتطرق لوظائفها ، وكيفية معالجتها لمشكلات السكن المختلفة ، ووضع الحلول لها ، ومدى تأثير ذلك على النمو الحضري فيها.

فالموصل من المدن الموغلة بالقدم ظهرت على مسرح الأحداث بصورة جلية كقلعة في العهد الآشوري ، ثم وقعت في فترة من الزمن تحت تأثير الغزاة من فرس وبيزنطيين.

وفي سنة ١٦هـ / ٦٣٧ م حررها العرب المسلمون ، ومصرت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) (١) ، ثم حظيت باهتمام الخليفتين عثمان بن عفان وعلي بن ابي

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٥٧م ، ق٢ ، ص ٤٠٧ – ٤٠٨ ، ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ليدن ١٣٠٢هـ ، ص ١٢٨ .

طالب رضي الله عنهما ، حتى غدت من الامصار المهمة بالاسلام (١) .

ونالت اهتمام الأمويين (٢) ، والعباسيين (٣) من بعدهم ، ولما ملكها بنو حمدان (٢٩٣ – ٣١٧ هـ/ ٩٠٥ – ٩٢٩ م) توسعت احياؤها وكثرت اسواقها وفنادقها(٤)

وبلغت أوج عظمتها المعمارية والفنية في العهد الاتابكي (٥)(٥٢١ – ٦٦٠هـ ١١٢٧ – ١٢٦١م) ، ولكن سرعان ماتدهورت احوال المدينة بعد خضوعها للغزو الايلخاني (٦) والقبائل التركمانية ، والتيموري ، وأخيراً خضعت للسيطرة العثمانية التي ترجع اليها معظم المباني التراثية ، ولاسيما عهد الولاة الجليليين (١١٣٩ – ١٢٤٩ هـ /١٧٢٦ – ١٨٣٤)(٧)

والمباني التراثية التي نحن بصدد التطرق الى مميزاتها وتصاميمها المعمارية تتمركز في الموقع القديم لمدينة الموصل (تخطيط ١) .

ولقد لعبت عدة عوامل في رسم الخارطة المعمارية لمدينة الموصل ولا سيما التراثية منها : البيئة ، والظروف المناخية ، والخبرات المحلية ، والتقاليد والعادات الاجتماعية والدينية ، والاحداث السياسية ، ومواد البناء .

وقد أثرت تلك الخارطة تأثيرا ايجابيا على النمو الحضري في المدينة نتيجة معالجتها تلك العوامل ، ووضع الحلول العملية لبعض المشكلات التي تمخضت عنها ، وتعد نموذجا جيدا للمدينة العربية الاسلامية التي لبت متطلبات الانسان الضرورية .

والموصل تمتاز بمناخها القاري المتطرف حيث يسودها مناخ حاد جاف صيفا يصل الى ٥٠م° احياناً وبارد ممطر شتاء تصل فيه درجة الحرارة احيانا الى مادون الصفر ، تسقط

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، بيروت ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م ، م ١، ص ١٠٤
(٢) الحموي : معجم البلدان ، لايبزك ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م ، م ٢، ص ١٩٦ .
(٣) الازدي : تاريخ الموصل ، تحقيق الدكتور علي حبيبة ، القاهرة ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ، ج٢ ، ص ١٦٧ .
(٤) احمد قاسم الجمعة : محاريب مساجد الموصل إلى نهاية حكم الاتابكة ٦٦٠هـ ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة لجامعة القاهرة ١٩٧١ ، ص ٦ .
(٥) المرجع نفسه ، ص ١١ – ١٢ .
(٦) ابن كثير : البداية والنهاية في التاريخ ، القاهرة ١٣٥١هـ/١٩٣٢م ، ج ١٣ ، ص ٢٣٤.
(٧) عماد عبدالسلام رؤوف : الموصل في العهد العثماني ، النجف ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م ، ص ٤٣٠ .

عليها امطار اعصارية انقلابية ، وتسودها الرياح الشمالية الغربية لمعظم ايام السنة لأن المدينة تخضع الى نمط مناخ استبس المناطق الحارة (١) .

ويمتاز الموقع القديم للمدينة على الضفة اليمنى لنهر دجلة بتباين ارتفاعه الذي يتراوح بين (٢٤٠) مترا في الشمال الى (٢٢٠) مترا في الجوب بالاضافة، الى الانحدار التدريجي باتجاه الجنوب والشرق، كما يمتاز بانحدار عام نحو الشرق والجنوب الشرقي متخذا اشكالا مسطبية تركت بصماتها على المنظور الافقي للمدينة .

وطبيعة هذا الموقع عالجت مشكلة المياه حيث سهلت عملية تصريف مياه الامطار والمياه الثقيلة باتجاه مجرى دجلة (٢). وأبعدت خطر المياه الجوفية عن أسس المباني مما ساعد على اطالة عمرها .

والملاحظ ان مباني الموصل تتركز كثافتها باتجاه نهر دجلة، وهذه الميزة لها أهمية كبرى، لأن النهر اصبح واسطة ربط المدينة مع ظهيرها من المدن الممتدة خطيا مع امتداده وذا تاثير واضح في مناخ المدينة المحلي، كما ان النهر يعد مصدرا رئيسا لموارد المدينة المائية علما بان الانهار كانت في طليعة العوامل التي استقطبت المدن في بداية الاستيطان الحضري (٣)

وأدت الخصائص المذكورة للموقع القديم للمدينة الى احتضان النسيج التراثي فيها، المشتمل على احياء سكنية وعمائر خدمية كالأسواق وما تبعها من خانات وقيساريات وحمامات ومبان دينية كالجوامع وثقافية كالمدارس (تخطيط ٢) .

وقد تبوأت الاسواق ومايتبعها من مبان خدمية محور ذلك النسيج ومن حولها الاحياء السكنية .

وتركزت في الجزء الجنوبي من المدينة عند رأس جسر المدينة القديم (٤) (تخطيط ١). وهذا الجزء كان يمثل مساحة واسعة خالية من الابنية، لذا كان ملائما لوضع

---

(١) الدكتور ازهر السماك وآخرون : استخدامات الارض بين النظرية والتطبيق (دراسة تطبيقية عن مدينة الموصل الكبرى حتى عام ٢٠٠٠) ، جامعة الموصل ١٩٨٥م ، ص ٢٥.

(٢) : المرجع السابق ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) : المرجع نفسه .ص٥

(٤) بني من قبل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ومر بعدة تجديدات في العصور التالية ، ثم هدم عام ١٩٣٧م بعد انشاء الجسر الحديدي إلى الشمال منه بقليل عام ١٩٣٤م . (سعيد الديوهجي : جسر الموصل في مختلف العصور . مجلة سومر ، م١٢ ، لسنة ١٩٥٦ ، ص ٥ - ٩) .

الاسواق لأنه لم يحدث ظغطاً مكانيا على سكان المدينة، ويتماشى وتوسع المدينة نحو الجنوب، الذي بدأ منذ القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي نتيجة لتزايد للسكان والتوسع العمراني (١)، كما ان موقع الاسواق على النهر سهل عملية ربط المدينة تجاريا مع ظهيرها من المدن والقرى الممتدة خطيا مع امتداد النهر ، ويمثل في الوقت نفسه انسب محل لربط المدينة بالمناطق الكائنة الى الشرق من دجلة بواسطة سوق آخر كان يقع قرب رأس الجسر في الجهة المقابلة يقصده أهل تلك المناطق الى زمن قريب .(٢)

وتضم الاسواق التراثية المذكورة سوق باب الجسر او سوق تحت المنارة، ويشتمل بدوره على أسواق فرعية هي : (اسواق الكوازين والحدادين والنجارين والكوازين واليوزبكية) ،وسوق باب الطوب،وسوق باب السراي، وسوق الصاغة او القرطاسية (تخطيط ٢) .

وتتصف منطقة الأسواق هذه بأنها ذات وظيفة تجارية بحته يندر احتواؤها على وحدات سكنية عدا بعض المباني الخدمية المكملة لوظيفتها كالقيساريات والخانات والحمامات ولهذا يمكن عدها سوقا رئيسا لكافة سكان المدينة والمناطق الحضرية المحيطة بها او القريبة منها.

واهم مايميز هذا السوق او نظيره من الأسواق التراثية في مدن العراق او العربية الاسلامية كثرة رواده بسبب تكامله سلعيا وخدميا في منطقة محدودة المساحة وقد كان ظهور وتطور مثل هذه الاسواق نتيجة تراكمات حضارية عربية واسلامية وان مثل هذه الاسواق لازالت تلبي بشكل كبير متطلبات حاجياتنا اليومية. وقد تنبه كثير من مخططي المدن في البلدان المتقدمة ،وخاصة في اوربا الغربية الى نظام اسواقنا الشرقية ومنافعها المتعددة ولاسيما تركز البضائع المختلفة في اسواق كثيرة متخصصة في حيز مكاني صغير فقاموا بانشاء مايشابهها في العقدين الاخيرين حيث نشاهد مثل هذه الاسواق في الوقت الحاضر في مدن ايطاليا وفرنسا والمانيا الاتحادية (٣).

والجدير بالذكر ان تخطيط مدينة الموصل كان يختلف بعض الشيء عند فتحها

---

(١) الديوهجي : المرجع السابق ، ص ١٣ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ٩ .
(٣) الدكتور هاشم الجنابي : التركيب الداخلي لمدينة الموصل القديمة (دراسة في جغرافية المدن) مطبعة جامعة الموصل ١٩٨٢ ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

وتمصيرها من قبل العرب المسلمين سنة ١٦هـ – ٦٣٧م. فقد خطت مواضع سكناها داخل المركب العام للمدينة القديمة بنمط قطاعي لامركزي يلتقي في نواة مركزية (١)، يمثلها المسجد الجامع وبجانبه دار الامارة (٢)ثم تجاورهما الاسواق ويلي ذلك الاحياء السكنية (٣).

وبطبيعة الحال فان التغيير المذكور في تخطيط المدينة حدث لينسجم مع المميزات العامة العامة لتخطيط المدينة العربية الاسلامية فقد كان محورها المسجد الجامع ودار الامارة وحولهما الاسواق ويلي ذلك الاحياء السكنية كماكان عليه في البصرة والكوفة والفسطاط(٤) وهو التخطيط الذي أوصى باتباعه عند بناء الامصار الخليفة عمر بن الخطاب (رض) (٥)، ثم امتد الى المدن اللاحقة ولاسيما في المشرق العربي الاسلامي كمدينة واسط (٦) وبغداد (٧) وصنعاء (٨).

وهذا الترابط العضوي بين الوحدات الثلاث لنواة المدينة الاسلامية يرجع لاهميتها العامة لكافة السكان بخلاف بعض الخصوصيات التي تتعلق بالاحياء السكنية.

فالمسجد كان يؤدي وظائف متعددة وذلك لشمولية تعاليم الدين الاسلامي لكل انماط الحياة من دينية وثقافية وسياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية (٩).

---

(١) السماك، المرجع السابق، ص ١٨.

(٢) ابن الأثير: اسد الغابة في اخبار الصحابة، طهران ١٣٧٧هـ، جـ٢، ص ٢٦٦

(٣) الازدي: تاريخ الموصل، جـ٢، ص ١٦٧.

(٤) الدكتور عبدالرحمن الانصاري: «قرية» الفاو صورة للحضارة العربية قبل اسلام في المملكة العربية السعودية، جامعة الرياض ٣٧٧ – ١٤٠٧هـ،

(٥) الدكتور عيسى سليمان وآخرون: العمارات العربية الاسلامية في العراق، جـ١ (تخطيط مدن ومساجد)، بغداد ١٩٨٢م، ص ٢٥.

(٦) عبدالقادر المعاضيدي: خطط واسط في العصر العباسي، مجلة سومر، م ٣٤، لسنة ١٩٧٨، ص ١٨٦.

(٧) حمدان عبدالمجيد الكبيسي: اسواق بغداد حتى بداية العصر البويهي، ١٤٥ – ٣٣٤هـ رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لجامعة بغداد ١٩٧٧م، ص ٣٥.

(٨) الدكتور خالص الاشعب: تطور العمارة السكنية في صنعاء، مجلة سومر، م ٣٤، لسنة ١٩٧٨م، ص ١٩٨.

(٩) صالح لمعي مصطفى: المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري، بيروت ١٩٨١م، ص ١٢.

أما دار الامارة فتبرز اهميتها لالكونها تمثل مسكناً لممثل الخليفة فحسب بل لكونها تحوي مقرات مؤسسات الدولة المالية والادارية وغيرها فاصبحت تمثل سلطة الدولة وهيبتها وقوتها (١). في حين كانت الاسواق مركزاً للنشاط الاقتصادي.

والتخطيط المذكور للمدن الاسلامية قد استمد اصوله من النهج الذي احدثه الرسول(ص) في المدينة المنورة أول عاصمة للمسلمين لدى هجرته اليها، بنى مسجده وبيته ومنهما كانت تدار شؤون المسلمين، كما نقل السوق القديم الى غربي المسجد. وربما تأثر بدوره في تخطيطات بعض المدن العربية في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام، كما يلاحظ ذلك في «قرية» الفاو عاصمة مملكة كندة. وعليه فان المسلمين كانوا ينهلون من تراث محلي نقلوه من جزيرتهم العربية ولم يكونوا متأثرين بهذا الشأن بالاقوام الاجنبية كالرومان والفرس. (٢)

كما امتازت مدينة الموصل بتخطيطها الدائري، الآن وجود نهر دجلة في شرقها جعلها على هيئة نصف دائرية (تخطيط ١) . وهذا التخطيط الذي اتبع في مدن عربية في العهد الاسلامي والعهود السابقة له كمدينة بغداد (٣) والحضر (٤) . ويمتد بأصوله الى الحضارات المحلية القديمة ، كما هو الحال في مدينة نيبور في جنوب العراق (١٥٠٠ق.م)(٥) وتمثل بعد ذلك في المعسكرات الآشورية (٦)، كما ان التصميم الدائري للمدينة قد عرف في الكتابة المصرية منذ اكثر من ٢٠٠٠ق.م (٧) .

وللتخطيط الدائري فوائده الاقتصادية والدفاعية ،فان محيط قطعة ارض ذات شكل دائري من ناحية الاقتصاد والتوفير في نفقات البناء، أقل من المربع المتساوي في المساحة

---

(١) الدكتور عيسى سلمان وآخرون ـ: العمارات العربية الاسلامية في العراق ، جـ٢ (قصور ومشاهد) ، بغداد ١٩٨٢ م ، ص ١٢ .
(٢) الانصاري : المرجع السابق ، ص ٢٣ .
(٣) الدكتور محاد : تخطيط المدن وتاريخه ، ط ١ ، القاهرة ١٩٦٥ م ص ١٠٢ ، شكل ٥٤ .
(٤) شريف يوسف : تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور ، بغداد ١٩٨٢ م . ص ٢١٣ ، ٢١٤ ، خارطة ٩ .
(٥) حماد : المصدر السابق ، ص ٩٧ ، شكل ٥١ .
(٦) المرجع نفسه ، ص ٤٩ ، ١٠٥ .
(٧) المرجع نفسه ، ص ١٤٥ .

بنحو ١١,٢٧٪ ، كما ان التصميم الدائري للمدن يزيد من قوتها ويسهل المراقبة والحماية (١)

واتبع النسيج العمراني المتراص (المتضام) في ابنية الموصل المتمثل بتجمعها وملاصقة بعضها بيعض بجدران مشتركة لايفصل بينها في اغلب الاحيان سوى الطرق والازقة الضيقة المتعرجة (تخطيط١).

ولقد عالجت خاصية التكوين العمراني المتراص عدة امور مناخية واجتماعية واقتصادية وانشائية، فتجميع المباني ساعد على تقليل تعرض الاسطح الخارجية للمباني لاشعة الشمس صيفاً، كماأدى الى تظليل بعض المباني لما جاورها من مبان اخرى مما نتجعنه الحد من الطاقة الحرارية النافذة الى داخل المبنى (٢). كذلك فان الخاصية المذكورة أدت الى زيادة قوة المباني بفعل استناد بعضها الى بعض، مما يطيل عمرها الزمني.

أما الطرقات والازقة المتعرجة فكانت سبباً في تلطيف درجات الحرارة صيفاً وشتاء حيث أدت الى حماية المارة من اشعة الشمس خلال ساعات النهار بالصيف وذلك بفعل تظليل الممرات نتيجة ضيقها ومابها من انحناءات كثيرة ، اضافة الى التغطية الكلية لبعض اجزائها بالقناطر والمباني اوجزئياً لما لواجهاتها من بروزات كثيرة ترتكز عليها الشناشيل ، كذلك تعمل على تنقية الهواء حيث تؤدي الى اعاقة حركة الرياح المحملة بالأتربة والرمال خلال المدينة، والاحتفاظ بالهواء البارد المتجمع في طرقات المدينة في اثناء الليل لفترات طويلة خلال ساعات النهار ممايساعد على تلطيف درجة الحرارة بتلك الفراغات صيفاً، كمانه يحد من سرعة الرياح الباردة شتاء فيساعد على تدفئة المباني الواقعة على تلك الازقة والطرق (٣). وكذلك فان ضيق الازقة يقلل من تعرض الحيطان لاشعة الشمس المنعكسة من ارضيتها (٤).

وامتازت الازقة والطرق في الموصل بكثرة القناطر المعقودة عليها التي عرفت في الموصل منذ القرن الاول الهجري (٥). وقد حققت فوائد انشائية واجتماعية ومناخية حيث أدت الى

---

(١) حماد: المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(٢) محمد بدر الدين الخولي : المؤثرات المناخية والعمارة العربية ، جامعة بيروت العربية ١٩٧٥ م ، ص ٤٦ .

(٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٦ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٣٨ .

(٥) سعيد الديوهجي : البيت الموصلي ، مجلة التراث الشعبي ، العدد ٦ ، لسنة ١٩٧٥ م ، بغداد ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م ، ص ٤٣ .

تماسك حيطان الدور التي تستند اليها بحيث تكمل خاصية النظام المتراص، كما عملت على ربط الدار التي تفصلها تلك الطرق، وكانت وسيلة لتوسيع الدور ببناء الغرف فوقها وادت الى انتقال أهل الدار بحرية تامة بعيداً عن انظار المارة، علاوة على كونها وسيلة لحماية المارة من تحتها من الحر الشديد صيفاً والامطار شتاءً.

والجدير بالذكر ان بعض الموسرين وأرباب الحكم كانو يوصلون بين دورهم الواقعة على جانبي الطرق بممرات تحتها لاسباب دفاعية واجتماعية ومناخية (١).

اما المشربيات المظللة لبعض الطرق والازقة فهي الاخرى حلت مشكلات اجتماعية ومناخية وانشائية. اذ ساعدت اهل الدار على الاطلال على الخارج دون ان يراهم احد ومنعت الاشراف المتبادل في البيوت التي تتقابل طوابقها العليا؛ وخففت من حدة الضوء وحرارة الشمس صيفاً داخل البيت، وسمحت بادخال كمية كافية من الضوء، والهواء الى البيت، وساعدت على تصحيح الطابق الارضي غير المتجانس الى وضع متجانس وأصبحت الآن فكرة الشناشيل سمة ليست مميزة للعمارة العربية فحسب، وانما لكل عمائر الاجواء الحارة والتي طورها الاوربيون وسماها المعمار الفرنسي (لي كوربوزيه) كأسرة كأسرة الشمس وأدخلها في تصميم الابنية الحديثة (٢).

وربما كان القانون المعماري الذي أمر الخليفة عمر بن الخطاب (رض) باتباعه المتضمن جعل الشبابيك الكائنة في الطوابق العليا عالية لاسباب اجتماعية وراء ابتكار المشربيات في العهود اللاحقة (٣).

وتستند الشناشيل عادة الى كوابيل متعددة التحدبات، وهي من العناصر المعمارية التي وجدت في الطرز السابقة للاسلام كالطراز البيزنطي، وتطورت في العصر الاسلامي في مشرق العالم الاسلامي ومغربه حتى بلغت اوج تعقيدها وجمالها الفني في الموصل في القرن (٧-١٣م) (٤).

---

(١) الديوه جي : المرجع السابق ، ص ٤٤.

(٢) حميد محمد حسن : البيت العراقي في العهد العثماني ، رسالة ماجستير (غير منشورة قدمت لجامعة بغداد ١٩٨٢ م) ، ص ٣٠٥ .

(٣) الدكتور فريد شافعي : العمارة العربية الاسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ط ١، الرياض ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ، ص ٩ .

(٤) الدكتور احمد قاسم الجمعة : العناصر المعمارية والفنية لقبة الصخرة والمسجد الأقصى، مجلة آداب الرافدين ، العدد ١٥ ، لسنة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م ، ص ٣٦٥

وتفاوت مساحة الدور التراثية في الموصل وعدم انتظام مواقعها على الازقة .
ويرجع ذلك الى انعدام السيطرة البلدية أولكونها غير واضحة في القرون السابقة، هذا بالاضافة الى التلاعب الذي كان يمارسه المتنفذون باوضاع العقارات في مناطق سكناهم، وبمرور الزمن فقد تغير التنظيم الداخلي للدور السكنية القديمة، اضف الى ذلك ان الترابط الاجتماعي يجعل من غير المستطاع انيترك السكان الفائضون محلتهم، بل يحاولسكنة المحلة استيعاب الزيادة بواسطة بيع جزء من عقاراتهم الى ابناء جلدتهم وعلى مر الزمن وتكرار هذه العملية فان التصميم والمساحة الاصلية لدورهم واملاكهم سوف تتغير باستمرار وينتج عنها اشكال غير منتظمة ،ولهذه الأسباب فان التنظيم الداخلي للدور السكنية في الموصل التراثية لم يأخذ شكلاً هندسياً منسقاً على امتداد الطرق والازقة التي تقع عليها (١) وأن ساعدت على حل مشكلة اجتماعية.

والجدير بالذكر ان الطرقات وأراضي البناء لم تكن متعرجة في المدن التي أسست في عهد الخلفاء الراشدين والعهد الاموي، ولا سيما الامصار كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان (٢)، بل كانت وفق التخطيط الهندسي الذي أوصى به الخليفة عمر بن الخطاب حيث كانت الشوارع التي تفصل خطط المدن متوازية، عرض الرئيسة منها اربعون ذراعاً والمتوسطة عشرون ذراعاً والازقة سبعة أذرع، كما ان النظام المتراص هو السائد (٣) وربما كان ذلك لأسباب امنية واقتصادية واجتماعية.

وتمتد اصول التجمع المتراص في المباني والتي تتخللها الازقة الملتوية الى الطرز السابقة للاسلام ولا سيما في العراق (٤) ومصر (٥) وآسيا الصغرى (٦).

وقد وفق المعمار الموصلي في استخدام مواد في البناء ساعدت على معالجة كثيرمن

(١) الجنابي : المرجع السابق ، ص ٨٣ .

(٢) شافعي : المرجع السابق ، ص٢٥ .

(٣) الدكتور عيسى سليمان وآخرون : العمارات العربية الاسلامية في العراق (مدن ومساجد) بغداد ١٩٨٢ م ، ص٢٥ ، ٤٧ .

(٤) الدكتور شمس الدين فارس والدكتور سلمان عيسى الخطاط : تأريخ الفن القديم ، ط١ ، بغداد ، ١٩٨٠م ، ص٣٨ .

(٥) توفيق عبد الجواد : تأريخ العمارة والفن في العصور الاولى ، ج١ القاهرة ١٩٧١م ، ص١١ .

(٦) الدكتور سامي سعيد الاحمد : المستعمرة الآشورية في آسيا الصغرى . مجلة سومر ، م ٣٣ لسنة ١٩٧٧م ، ص٩٠ .

المشكلات ولا سيما المناخية والانشائية فقد أكثر من استخدام الاحجار الكلسية غير المهندمة والجص للملاط ومادة رابطة في كافة المباني التراثية نظراً لمزاياها الطبيعية ولكثرتها في منطقة الموصل .

فالحجارة الكلسية والجص من المواد التي تمتاز بايصالها البطيء للحرارة مع قابليتها الكبيرة على الاحتفاظ بها ، ولهذا ساعدت في معالجة الظروف المناخية القاسية في المدينة.

فخاصية الايصال البطيء للحرارة تعالج مشكلات المناخ صيفاً حيث تكون درجة الحرارة مرتفعة وتبلغ اقصاها وقت الظهيرة ولفترة زمنية بعدها مما يسبب ضغوطاً حرارية على المباني ، لذا فان الاحجار تعمل على تأخير تسرب الحرارة الى الداخل لوقت تبدأ درجة الحرارة بالخارج بالتدني . اما خاصية الاحتفاظ بدرجة الحرارة مدة طويلة ساعدت على معالجة المناخ شتاء لانها تعد مصدراً للاشعاع الحراري داخل المبنى وخارجه خلال الليل مما يحد من برودة الطقس (١) . ويمكن الحصول على حرارة معتدلة داخل المباني ، هـذا بالاضافة الى كون الحجارة غير المهندمة تترك بينها بعض الفراغات في اثناء بنائها مما يساعد على عملية العزل الحراري .

ومن المزايا الاخرى لهذه الاحجار عدم مساعدتها على نقل الصوت بالدرجة نفسها الملاحظة في المواد الاخرى ، كما انها اقل قابلية للتمدد والتقلص جراء التبدلات الحرارية (٢)

وتساعد على زيادة سمك الجدران اكثر من المواد الاخرى والذي بدوره يسهل عملية العزل الحراري ويؤدي الى متانة المباني لتستقيم طويلاً ولعدة اجيال وهي من المزايا البارزة في العمارة الموصلية .

والجدير بالذكر ان سمك جدران المباني من المزايا التي تمثلت في الطرز المعمارية القديمة ولا سيما في العراق (٣) ومصر (٤) والجزيرة العربية (٥) وامتد الى المباني العربية الاسلامية) (٦)

---

(١) الخولي : المرجع السابق ، ص٣٠ .

(٢) الاشعب : المرجع السابق ، ص٢٠٢ .

(٣) الدكتور حسن الباشا : تاريخ الفن في العراق القديم ، ط١ ، القاهرة ١٩٥٦م ، ص٥٣ ص٥٣ ، ٥٤ .

(٤) توفيق عبد الجواد : المرجع السابق ، ص٧٩ .

(٥) الانصاري : المرجع السابق ، ص٢٢ .

(٦) الدكتور سعد عبد العزيز الراشد : تقرير موجز لنتائج الموسم الاول للحفائر الاثرية في موقع زبدة الاسلامي ، مايو ١٩٧٩م ، مجلة كلية الآداب بجامعة الرياض ، م٧ ، الرياض ١٩٨٠م ، ص٢٦٥ .

اما الجص فهو خير مادة للربط بين الحجارة من حيث سرعة جفافه وقوة تماسكه ، كما ان لونه الابيض وملمسه الناعم اصبح بمثابة مادة عاكسة لاشعة الشمس صيفاً .

واستخدمت النورة في بناء أسس المباني لما لها من قوة التصلب وشدة التماسك مما يؤدي الى متانة وقوة تحمل الأسس (١) .

هذا واكثر المعمار الموصلي من استخدام الرخام في الاعمدة وتأطير الفتحات والمداخل والاواوين ومناطق القناطر والسراديب وتبليط ارضياتها وتأزير الجدران الداخلية لمطاوعته للعمل ويحول دون تآكل الجص وتصدع الجدران على المدى البعيد، وتبليط ارضيات المرافق الداخلية .اما الافنية الخارجية فكانت تبلط بالحلان لمقاومة تأثير الامطار اكثر من المواد الاخرى.

واذا تناولنا تصاميم المباني التراثية في الموصل مندور سكنية وجوامع ومدارس وأسواق وما يتبعها من مباني خدمية كالقيساريات والخانات والحمامات نجدها كانت تمثل أفضل التصاميم للايفاء بالاغراض التي انشئت من اجلها نتيجة معالجتها لكثير من المشكلات ووضع الحلول اللازمة لها ولاسيما المتعلقة بالنواحي المناخية والاجتماعية والاقتصادية والامنيـــة.

فتصميم البيوت السكنية التي تؤلف الاغلبية الساحقة لتلك المباني نجد أن الفناء المكشوف الذي يحيط بجانب أو اكثر من جوانبه اجنحة البيت وملحقاته هو القاسم المشترك بيها وهو التصميم الذي تمثل في منازل العراق القديم (٢).

ومع ذلك فهناك اختلافات وخصوصيات بين البيوت الموصلية ابعدتها عن صفة التماثل المملل مع الاحتفاظ بانسجامها وتناغمها مع بعضها وكانت أشبه ماتكون باختلاف اللهجات بالنسبة للغة الام .

وشملت تلك الاختلافات المساحة ونوعية وعدد اجنحة البيت أملتها عوامل متعددة منها القدرة المالية والمنزلة الاجتماعية وعدد افراد العائلة.فهناك بيوت العامة التي تمثلها بيوت الطبقات الفقيرة ومتوسطة الحال. فبيوت الطبقات الفقيرة تتكون من جناح واحد يتصدر البيت ،بينما بيوت الطبقة المتوسطة يضاف اليها مجنبات تتقدمها اروقة .
امابيوت الخاصة التي تمثلها بيوت الموسرين كبيت التوتونجي (١٢٢٢هـ – ١٨١٥م)

---

(١) علاء الدين أحمد العاني : المشاهد ذات القباب المخروطية في العراق ، بغداد ، ١٩٨٢ ، ص٧٨ .

(٢) سبتينو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة الدكتور سيد يعقوب بكر ، ، القاهرة ، ص١٠٧ .

وأرباب الحكم كبيت امين بك الجليلي (١١٦٢هـ – ١٧٤٨م) تتكون من قسمين رئيسين لاسباب اجتماعية احدهما للاستقبال والضيوف ويسمى (الحوش البراني) والآخر للعائلة ويسمى (الحوش الجواني) بالاضافة الى المطبخ وملحقاته (تخطيط٣) ، كما تميزت بوجود اكثر من طابق وبتعدد الاجنحة والملحقات والسراديب وسعة مساحتها ومداخلها (التخطيطات ٣، ٤، ٥، ٦، ١٢).

والجدير بالذكر ان بيوت الخاصة المكونة من قسمين للاستقبال وللعائلة وجدت في بيوت العراق القديم منذ العصر السومري (١)، وشاعت في العهد الآشوري(٢)، كما شوهدت امثلة لها في بيوت مصر القديمة من عهد الدولة الحديثة (٣) والبيوت السورية في العهد الروماني (٤).

وفي العهد الاسلامي طالعتنا امثلة لها في قصرحصن الاخيضر (٥) وقصور سامراء مثل الجوسق الخاقاني وبلكوارا (٦) واستخدمت في البيوت التراثية في البلاد العربية خلال العهد العثماني (٧) لاسباب اجتماعية.

وفي حالة وجود اكثر من جناح في البيت الموصلي تبنى الاجنحة بصورة متقابلة على الجهتين الشمالية والجنوبية لمعالجة مشاكل المناخ القاري المتطرف في المدينة .فالاجنحة الشمالية تكون شتوية لأنها تتعرض لاشعة الشمس في حين توافق الاجنحة الجنوبية فصل الصيف لأنها تتفادى شمس العصر ذات الضغط الحراري العالي.

---

(١) الباشا : المرجع السابق ، ص٥٥ . الخالصي : المرجع السابق ، ص٧٧ .
(٢) الباشا : المرجع السابق ، ص٥٣ .
(٣) كريستيان ديروش نو بلكور : الفن المصري القديم ، ترجمة محمود خليل النحاس ، واحمد رضا ومراجعة الدكتور عبد الحميد زايد ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص١٥٥ .
(٤) عفيف بهنسي : تكوين الفن العربي الاسلامي في ديار الشام ، الحوليات السورية ، م٢٢ لسنة ١٩٧٢ ، ص١٩
(٥) فيرنر كاسكل : الاخيضر ، ترجمة الدكتور خالد اسماعيل علي ، سومر ، م ٢٥ لسنة ١٩٦٩ ، ص٣٦ .
(٦) الدكتور فريد شافعي : العمارة العربية ، ماضيها ومستقبلها ، ط ١ ، الرياض ١٤٠٢هـ ١٩٨٢ م ، ص٢٩ .
(٧) الحوليات السورية : فن العمارة الاسلامية ، م١٣ لسنة ١٩٥٣ ، ص٨٤ .

وقد تنبه المعمار الموصلي الى هذه الخاصية منذ العهود الاسلامية المبكرة ، كما يلاحظ ذلك في حصن الاخيضر وبعض بيوت سامراء(١)، وشاعت في الوطن العربي لاسيما في العصر العثماني (٢).

ويتكون جناح البيت الموصلي عادة من ايوان وغرفتين على جانبيه وهو المعروف بالطراز الحيري ذي الكمين (تخطيط ٤ ،٥). وساد الطراز الحيري في العراق قبل الاسلام في قصور الحيرة كقصري الخورنق والسدير (٣)، ثم طالعنا هذا الطراز في العصر الاسلامي منذ العهد الاموي، كما في البيوت المكتشفة في الكوفة وواسط واسكاف بني جنيد والشعيبة (٤)، ثم تطور في العصر العباسي، كما في بعض البيوت المكتشفة في الرقة(٥). وحصن الأخيضر (٦)، واستمر الى فترة لاحقة.

والجدير بالذكر انه وجد مايماثل ذلك بعض الشيء في عهد الدولة الوسطى بمصر القديمة في منطقة اللاهون ،فقد كانت بعض بيوتها القديمة تتألف من قسم أوسط وجناحين(٧

وربما أصل الطراز الحيري مضيف بيت الشعر الذي اعتاد عليه العرب قبل الاسلام حيث يمثل وسط بيت الشعر المضيف الواسع المفتوح من امام وعلى جانبيه مساكن العائلة من القصب (٨). كما توجد في معظم البيوت الآبار لتوفير مياه الغسل عدا الشرب الذي يجلب من نهر دجلة بواسطة السقائين.

والتصميم المعماري للاسواق تتميز بالامتداد الطولي المتوازي لوحدات متماثلة من الدكاكين المتلاصقة على جانبي طرق وممرات ضيقة وملتوية (تخطيط ٧) كانت تعلوها سقوف عالية مقبية ذات فتحات جانبية للتهوية والاضاءة . وقد استعيض عنها مؤخراً بسقوف معدنية مسطحة او ذات هيئات جملونية .

---

(١) فريال مصطفى : البيت العربي في العراق في العصر الاسلامي ، بغداد ١٩٨٣م ، ص١٠٣
(٢) بهنسي : المصدر السابق ، ص٢١ .
(٣) المصدر نفسه ، ص١٩ .
(٤) فريال : المرجع السابق ، ص٢٢ .
(٥) بهنسي : المرجع السابق ، ص٢٠ .
(٦) سلمان : العمارات العربية الاسلامية ، ج٢ . ص٣١ .
(٧) الدكتور محمد انور شكري : العمارة في مصر القديمة ، القاهرة ١٩٧٠م ص١٠٥ .
(٨) الدكتور مصطفى جواد : الديوان والكنيسة في العمارة الاسلامية ،سومر ،م ٢٥ لسنة ١٩٦٩ ،ص١٦٦ .

وارتفاع السقوف عالج مشكلة مناخية وهي تخفيف حدة الحرارة صيفاً (١) .

وتتميز الدكاكين بصغر مساحتها وانفتاحها على الطرق بقوس من الرخام وسطحها المقبب (التخطيط السابق) .

وهذا النمط المعماري للاسواق اصبح السمة المميزة للاسواق التراثية في اغلب المدن العربية الاسلامية كمدينتي دمشق وحلب (٢) ؛ كما يمتد باصوله الى الطرز المعمارية القديمة كالطراز الآشوري (٣) .

والمباني الاخرى ذات العلاقة بالاسواق والمكملة لعملها فهي القيساريات والخانات .

فالقيساريات عبارة عن اسواق لها بعض الخصوصية من حيث نوعية البضائع والتحوير بطرازها اذ امتازت بتداول بضائع ثمينة تحتاج الى حماية وتواجد اصحابها بالقرب منها ، لذا استوجب اضافة طابق علوي من الغرف واحكام مداخلها ، ومن تلك القيساريات الباقية قيسارية البزازين (١١٤٧هـ – ١٧٣٤م) ؛ وسوق العتيق (١١٦٩هـ – ١٧٥٥م) ؛ (تخطيط ٨) ، واسباهي بزار (١٣١٢هـ – ١٨٩٤م) .

اما الخان فيتكون من فناء داخلي تحف به غرف تتقدم كل منها خزانة من كافة الجوانب وبعض الدكاكين التي تحف بالمدخل . وقد يضاف اليها طابق علوي وسرداب لخزن بضائع اصحاب المحلات والدكاكين المجاورة . ومن الخانات التراثية الباقية خان الكمرك (١١١٤هـ – ١٧٢٢م) (تخطيط ٩) وخان حمو القدو (١٣٠٠هـ – ١٨٨١) .

وبالنسبة للحمامات العامة فقد وجدت في منطقة الاسواق لاستخدامها من قبل روادها حيث غلبت على الحمامات الخاصة لعدم وجود اسالة للماء آنذاك ولحاجتها الى وقود لايمكن تهيئته بسهولة .

وقد صممت بشكل يضمن الانتقال التدريجي من البرودة الى الحرارة وبالعكس شأنها في ذلك شأن معظم الحمامات المماثلة في الطرز القديمة ومثيلاتها في البلاد العربية الاسلامية الاخرى . فاشتملت على مشلح محل (خلع الثياب) ، ثم المسبح وحجرة تفصل بينهما الغاية منها عدم الانتقال المفاجيء من البرودة الى الحرارة وبالعكس .

---

(١) كاسكل : المرجع السابق ، ص١٧ .

(٢) فن العمارة الاسلامية ، ص٧٣ .

(٣) الدكتور سامي سعيد الاحمد : المستمرة الآشورية في آسيا الصغرى ، ص٨٩ .

وتغطي جميع اقسام الحمامات القباب ويتميز المسبح بتكونه من ساحة وسطية تحف بها ثلاثة اواوين مقببة في كل منها ثلاثة احواض بالاضافة الى محل الدواء ، وتغطي كل ذلك قبة مشتركة فيها شبابيك عالية لادخال الضوء . وخير مثال على ذلك حمام العطارين (١١٦٩هـ — ١٧٥٥م) (تخطيط ١٠) .

ومن المباني التراثية الاخرى في المدينة الجوامع والمدارس .. فبالنسبة للمدارس التي تعتبر الاعدادية الشرقية مثلها الفريد المتبقي فتتكون من فناء مستطيل تحف به غرف الطلبة تتقدمها اروقة ويعلو ذلك طابق علوي مماثل للطابق الاضي .

اما الجوامع التي يعد جامع الاغوات مثالاً عليها فيتكون من مصلى يتقدمه رواق والى الغرب منه مدرسة دينية ملحقة به مثمنة التخطيط ، وأمام المصلى يقع الفناء الرئيس للجامع (تخطيط ١١) (١١١٤هـ — ١٧٠٢م) .

وهذا التخطيط يعد امتداداً للتطور العام الذي أصاب تخطيط المساجد منذ القرن ٦هـ — ١٢م في الموصل حيث صار المسجد يتكون من بيت للصلاة في القسم الجنوبي الغربي من مساحة المسجد وفناء مكشوف يحيط بالمصلى من جهات ثلاث بخلاف تخطيط اغلب مساجد العراق خلال القرون الهجرية الخمسة الاولى المتكونة من بيت للصلاة ومجنبتين ومؤخرة تحيط بفناء مكشوف .

ومن المحتمل جداً ان هذا التطور كان بسبب الظروف المناخية المتطرفة حيث اصبح بيت الصلاة يؤلف المصلى الشتوي . ورواق او (اسكوب) يتقدمه وينفتح عليه مباشرة المصلى الصيفي (١) .

ومما تقدم من استعراضنا لتصاميم مباني الموصل التراثية وجدناها تتألف من كثير من العناصر المعمارية بعضها تشترك فيها كافة المباني بدون استثناء تقريباً كالسقوف المقببة والفتحات الصغيرة في أعالي الجدران وبعض السقوف، وبعضها على الرغم من كونه محوراً لاغلب المباني كالفناء ، الا ّ ان بعض المباني خلت منه لخصوصيتها الوظيفية كالاسواق والحمامات ،وعناصر اخرى تركزت في مبان اخرى اكثر من غيرها كالسراديب والمداخل المنكسرة كما هو الحال في بيوت الطبقات الموسرة والحاكمة . وسوف نستعرض اسباب استخدام تلك العناصر والتنويه بأصولها.

---

(١) سلمان : العمارات العربية الاسلامية ، ج١ ، ص٢٨ .

فقد امتازت جميع الابنية التراثية في الموصل بتغطيتها بالسقوف المقببة من قباب وأقبية وأواوين وعقود لاسباب مناخية وانشائية واقتصادية (التخطيطات ٣ ـ ١٧) .

فالسقوف المقبية تحد من الحرارة المتسربة داخل المباني بسبب عدم تعرض سطحها المنحني بالكامل لاشعة الشمس خلال ساعات النهار صيفاً ، خلافاً لما يحدث بالنسبة للسطوح الافقية وبالتالي يقل الضغط الحراري على الفراغات الداخلية للمبنى ويحميها من التقلبات الجوية في الخارج ، كما ان حركة الهواء تنشط مابين الجزء المظلل الداخلي والجزء الخارجي المشمس منها مما يساعد على التخلص من الهواء الساخن الملاصق للجزء المشمس ويعمل على التخلص من مضاعفاته الحرارية باستمرار (١) . كذلك فان هذا الاسلوب المقبب للسطوح يساعد على تخفيف القوى الضاغطة على الحيطان والأسس التي ترتكز عليها وتكون اكثر تماسكاً من السقوف المستوية . هذا بالاضافة إلى اهميتها الخصوصية بالنسبة للمباني الدينية كالجوامع حيث تضفي على البناء قدسية وتعطيه نوعاً من الشموخ والعظمة فالتقعر الحاصل في سقف القبة من الداخل يقود الانسان إلى التأمل قلما يجده المرء في الأبنية المسطحة (٢) ، كما تكمل وظيفة المحراب لزيادة صوت الامام وايصاله إلى المصلين ؛ وفي الحمامات يعيق التقبب عملية تكاثف الابخرة ، اما الايوان في البيوت فبالاضافة لما تقدم فانه يعد فضاءاً مسقفاً يستخدم في المناسبات المختلفة للعائلة .

والعراقيون أول من ابتدع التقويس في البناء منذ العصر السومري . ففي مدينة اربدو وجد نموذج للعقد الكامل (٣) وبعض سراديب المقبرة الملكية كانت مغطاة بالأقبية (٤) واقتبسها الفرس من العراق ويغلب الظن انها انتقلت إلى الطراز الروماني (٥) .

وعرفت اولى نماذج الاواوين التي استخدمت في الاجنحة الحيرية لبيوت الموصل في الحضر واخذ الساسانيون هيئتها واستخدموها في طاق المدائن (طيسفون) (٦) .

---

(١) الخولي : المرجع السابق ، ص ٣٤ .

(٢) الدكتور احمد قاسم الجمعة : العناصر المعمارية والفنية لقبة الصخرة والمسجد الاقصى ، ص ٢٣٧ .

(٣) طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، ط١ ، بيروت ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص ٢٧٥ .

(٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٧٥ ، فارس : المرجع السابق ، ص ٧٩ .

(٥) الدكتور فريد شافعي : العمارة العربية في مصر الاسلامية ، م١ ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٦٦ .

(٦) جواد : المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

وقد عالج المعمار الموصلي الفراغ المتخلف بين الانحناءات الخارجية للايوان والغرف الجانبية فبنى فيه عدة عقد صغيرة وملأ بعضها بالاواني الفخارية حتى الاعلى ثم سوى كل ذلك بسقف اضافي مسطح واستخدم اجزاء منها كمخازن للحبوب والمواد الثمينة وقت الاضطرابات بعد تمويه مداخلها وتسمى الاخشيم (تخطيط ٥) . وبهذا حقق المعمار اقتصاداً بمواد البناء وعزلاً حرارياً وابعاد المياه عن تلك الفراغات واستفاد من السطح المستوى لاغراض متعددة منها المبيت عليه صيفاً .

اما وجود الفتحات الصغيرة في اعالي الجدران والاسطح في معظم المباني فساعد على ادخال الضوء تعويضاً عن الشبابيك التي انعدمت او كادت في الحيطان السفلى لاسباب اجتماعية وأمنية ، كما عملت على التخلص من الهواء الساخن المتجمع في اسفل سقوف الفراغات الداخلية وذلك بتحريكه قبل ان يحدث تأثير على درجة الحرارة الداخلية (١) ، اما صغر الفتحات فقد ساعد على تقليل الطاقة الحرارية المتسربة داخل المبنى كما حد من قوة الابهار بالفراغات الداخلية صيفاً (٢) .

ووجدت مثل هذه الفتحات في العهد الاسلامي المبكر في مدينة الفسطاط (٣) ، وتمتد بأصولها الى الطرز المعمارية السابقة للاسلام ، ولا سيما في العراق (٤) ومصر (٥) .

اما الفناء الذي يعد محوراً لمعظم الابنية فقد استمدت منه اغلب حاجتها من التهوية والانارة ، وحد من ظاهرة الابهار التي تشتد في الاقطار العربية الاسلامية جميعها من الاندلس حتى شمال الهند وكان بمثابة مرشح للهواء من الغبار والاتربة كما ساعد على تخفيف ضوضاء الطرق والازقة وكان يختزن الدفء في الشتاء عند غلق الابواب والفتحات الخارجية لتحول دون مرور تيارات الهواء ، وكان يحدث عكس ذلك في الصيف فيعمل على تلطيف شدة الحرارة اذ تركت لتيارات الهواء الحرية في الانطلاق من خلال الفناء وفتحات المبنى ، ويزيد ذلك النفع تلك الحدائق والنافورات التي تتوسط بعض المباني هذا بالاضافة الى تحقيقه غرضاً دينياً واجتماعياً بحجبه سكان المبنى ولا سيما النساء عن انظار المارة بالخارج (٦) .

---

(١) الخولي : المرجع السابق ، ص٣٤ .

(٢) المرجع نفسه ، ص٣٨ .

(٣) فريال :المرجع السابق ، ص١٦ .

(٤) الباشا : المرجع السابق ، ص٥٠ ، موسكاني : المرجع السابق ، ص١٠٨ .

(٥) عبد الجواد : المرجع السابق ، ص٧٩ ، شكري : المرجع السابق ، ص٣٧ .

(٦) شافعي : المرجع السابق ، ص٢٩ .

والفناء لازم معظم المباني في اغلب الطرز المعمارية القديمة ولا سيما التي سادت في الوطن العربي والامثلة كثيرة لاحصر لها واستخدم لنفس الأسباب .

ومن العناصر التي تركزت في البيوت ولا سيما الخاصة منها السراديب التي تمتد تحت بعض اجنحتها الارضية واحياناً تحت افنيتها على الرغم من اشتمال بعض الخانات على السراديب لغرض خزن البضائع (تخطيط ١٢) .

وتتميز سراديب البيوت بتفاوت عمقها وتباين مساحتها تبعاً للغرض الذي استخدمت لاجله وتميزت بعض السراديب الواقعة تحت الاجنحة ومرافق البيت بارتفاع سقفها قليلاً عن مستوى الفناء بغية استحداث بعض الشبابيك لعرض التهوية والاضاءة .

واستخدمت السراديب لخزن الحبوب والمواد الغذائية والوقود ومزاولة بعض المهن كالحياكة وبعضها كمربط للحيوانات ويأتي في مقدمة تلك السراديب (الرهرة) الذي يستخدم للقيلولة من قبل سكان البيت ويزود عادة بملاقف هوائية تصل بينه وبين السطح او الطابق العلوي لتلطيف درجات الحرارة (تخطيط ٥ ، ٦ ، ١٢).

وملاقف الهواء استعملها الآشوريون والبابليون في العراق القديم (١)؛ كمااستخدمها المصريون القدماء خلال الاسرة التاسعة (٢). وتطالعنا في العصر الاسلامي في قصور سامراء (٣).

هذا وترجع السراديب في العراق الى العصور السابقة للاسلام كالعصر السومري(٤)، والعصر الكلداني (٥).

اما الاروقة التي تتقدم الغرف وبعض المشتملات في البيوت وبعض الخانات فقد استخدمت بصورة عامة لوقاية الابنية التي تتقدمها من الحر الشديد صيفاً والبرد القارس والامطار شتاءً (تخطيط ١٢).

---

(١) حميد محمد حسن : المرجع السابق ، ص٣٠٣ .

(٢) شكري : المرجع السابق ، ص٣٨ . عكاشة : المرجع السابق ، ص٦٠ .

(٣) حميد محمد حسن : المرجع السابق ، ص٣٠٤ .

(٤) باقر : المرجع السابق ، ص٢٧٥ .

(٥) المرجع نفسه ، ص٢٦٨ .

وترجع ظاهرة استخدام الاروقة في العراق الى عصور بعيدة حيث وجدت اروقةفي بعض بيوت قرية حسونة (١) ثم تمثلت بعد ذلك في البيوت (٢)السومرية، والعهود التالية.

وفي العصر الاسلامي استخدمت الاروقة في ابنيته المبكرة. اما المسجد النبوي في المدينة(٣) ودار الامارة في الكوفة وقصر الأخيضر (٤) وشاعت بعد ذلك في قصور سامراء (٥). واستمرت حتى عهود متأخرة.

وبالنسبة للمداخل فقد شاع النوع المغطى بقنطرة في الاسواق والقيساريات والخانات والحمامات. اما في البيوت فمنها ماكان بسيطاً يفضي الى الفناء مباشرة، وبعضها على هيئة مجاز مقبب او عليه قنطرة ومنها ماكان على هيئة مدخل منكسر او متعرج وهو الذي اقتصر على بيوت الموسرين وأرباب الحكم (التخطيطات ٣، ٤) (٦).

والمجاز أو الدهليز وجدت نماذجه بالعراق منذ العهد السومري (٧)، وربما تطور منه عنه المدخل المنكسر أو المتعرج.

ويعد المدخل المنكسر من العناصر المبتكرة في العمارة العربية قبل الاسلام وذلك لوجوده بصورة واضحة في مدينة الحضر (٨). وفي العصر الاسلامي يطالعنا في بداية الامر في دار الامارة بالكوفة (٩)، ومدينة بغداد (١٠). ثم قلعة صلاح الدين في مصر (٨٦ – ١٢م) وتعداه الى المغرب العربي كما يلاحظ في مدخل الرواح بالرباط من فترة معاصرة (١١).

(١) فؤاد سفر: حفريات تل حسونة، سومر، م١ لسنة ١٩٤٥، ٣٤.

(٢) حميد محمد حسن: المرجع السابق، ص١٤٥.

(٣) الشافعي: المرجع السابق، ص٦٥.

(٤) حميد محمد حسن: المرجع السابق، ص٢٩٧.

(٥) مديرية الا ثار العامة: حفريات سامراء، ج١، ص٢٧.

(٦) التخطيطات الواردة بالبحث من عمل مكتب الا نشاءات الهندسي بالموصل.

(٧) الباشا: المرجع السابق، ص٥٥، الخالصي: المرجع السابق، ص٢٨.

(٨) فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى: الحضر مدينة الشمس، بغداد ١٩٧٤، ص١١

(٩) فريال: المرجع السابق، ص٤٥.

(١٠) طاهر مظفر العميد: بغداد مدينة المنصور المدورة، النجف ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م ص٢٢٠، ٢٣٢.

(١١) الدكتور أحمد قاسم الجمعة: اهم التأثيرات المعمارية والفنية المتبادلة بين العراق والمغرب العربي في العصر الا سلا مي، آداب الرافدين، العدد ٩، ايلول ١٩٧٨، ص١٩٧.

واتخاذ مثل هذه المداخل في البيوت كان لاسباب اجتماعية في حين كان استخدامها في المدن لأسباب أمنية .

ومما تقدم يتضح لنا أن المميزات والتصاميم المعمارية التي تمثلت في مباني الموصل التراثية لعبت دوراً كبيراً في النمو الحضري فيها، واستقطبت مايقارب ٨٠٪ من مجموع سكان المدينة حتى بداية الخمسينات لانها أخذت بنظر الاعتبار كافة الامور المؤثرة في حياة السكان ولاسيما المناخية منها وعالجت المشكلات الناجمة عنها، ووضعت الحلول اللازمة لها، وان معظمها كان يرجع بأصوله الى الطراز المحلية القديمة قبل مئات السنين بتواصل حضاري اثبت الزمن نجاحه ،ولهذا فلاعجب ان نجد بعضها معمولا به حتى الوقت الحاضر: كالسراديب والطارمات والنظام المتراص والاروقة واجنحة الاستقبال المفصولة عن بقية اجنحة الدار ومشتملاته والحديقة التي تتقدم البيت أو تدور حوله التي تقوم مقام الفناء التراثي وتؤدي بعض وظائفه وكثرة استخدمات الاحجار الكلسية ولاسيما في التكعيبات والجص في الملاط.

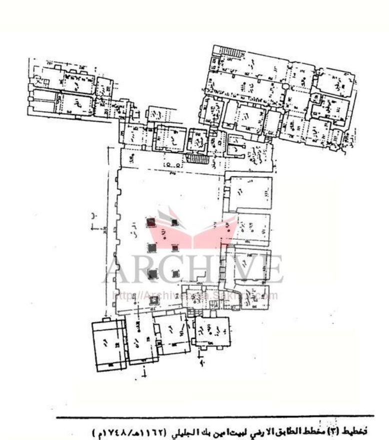




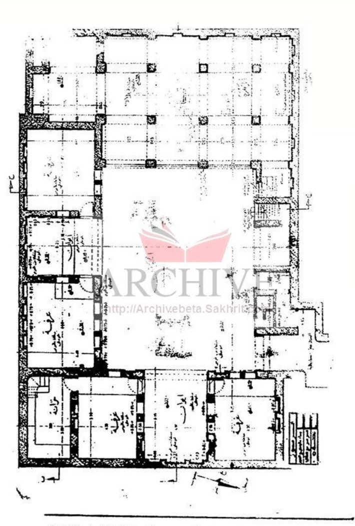
تخطيط (١) خارطة الموصل القديمة



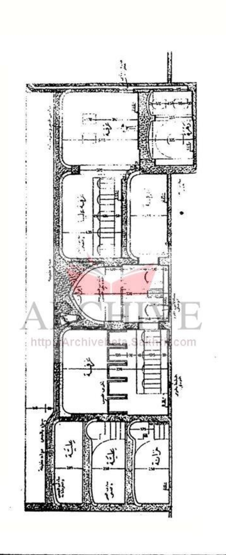
مخطط (٢) خارطة الاسواق والقيساريات والخانات والجوامع والحمامات التراثية بالموصل



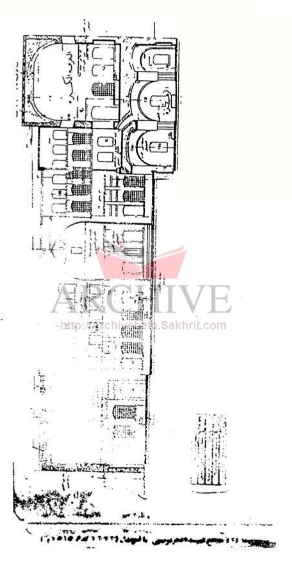
تخطيط (٣) مخطط الطابق الارضي لبيت امين بك الجليلي (١١٦٢هـ/١٧٤٨م)



تخطيط (٤) مخطط الطابق الارضي لبيت التوتونجي بالموصل (١٢٣٢هـ/١٨١٥م)



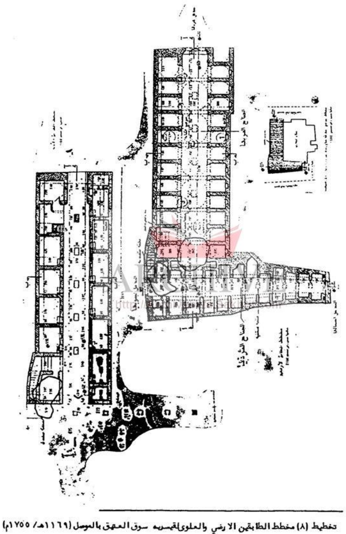
تخطيط (٥) مقطع من بيت التوتونجي بالموصل (١٢٢٢هـ / ١٨١٥م)



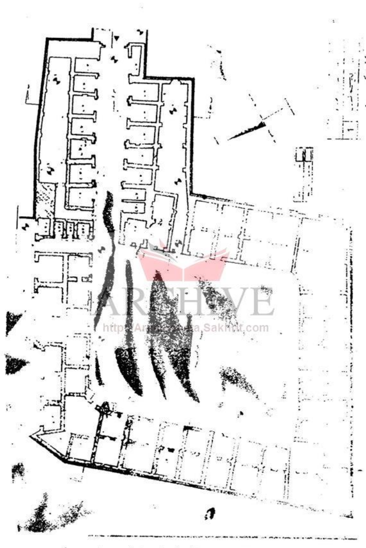
تخطيط (٦) مقطع لبيت التونجي بالموصل (١٢٢٢هـ / ١٨١٥م)



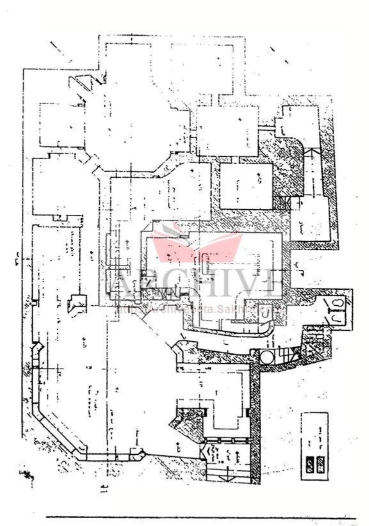
تخطيط (٢) مخطط لسوق تحت العارة والاسواق الفرعية له بالموصل



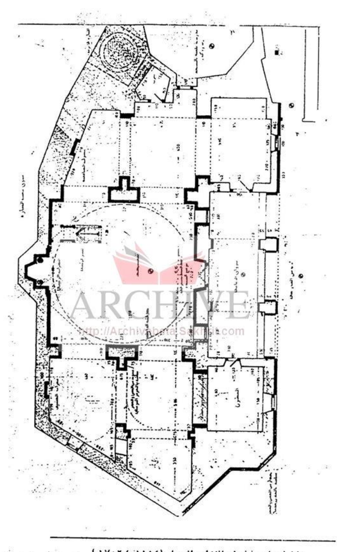
تخطيط (٨) مخطط الطابقين الارضي والعلوي لقيسرية سوق العتق بالموصل (١١٦٩هـ/ ١٧٥٥م)



تخطيط (٩) مخطط الطابق الارضي لخان الكمرك بالموصل (١١١٤هـ/١٧٠٢م)



مخطط (١٠) مخطط حمام العطارين بالموصل (١١٦٩هـ/ ١٧٥٥م)



(١١) مخطط جامع الاغوات بالموصل (١١١٤هـ/١٧٠٢م)

تخطيط (١٢) مقطع بيت امين بك الجليلي (١١٦٢هـ/١٧٤٨م)

المصادر والمراجع والبحوث المعتمدة

- ابن الأثير : عز الدين علي بن اكرم محمد بن عبد الكريم الجزري (ت ٦٣٠هـ).
أسد الغابة في اخبار الصحابة ، طهران ١٣٧٧هـ .
- ابن الفقيه : أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني (ت ٣٦٥هـ) .
مختصر كتاب البلدان ، ليدن ١٣٠٢هـ .
- ابن كثير : عماد الدين اسماعيل بن عمر القريشي (ت ٧٧٤هـ) .
البداية والنهاية في التاريخ ، القاهرة ١٣٥١هـ – ١٩٣٢م .
- احمد قاسم الجمعة (دكتور) :
– اهم التأثيرات المعمارية والفنية المتبادلة بين العراق والمغرب العربي.
في العصر الاسلامي ، مجلة آداب الرافدين ، العدد ٩ ، ايلول ١٩٧٨م
– العناصر المعمارية والفنية المميزة لقبة الصخرة والمسجد الاقصى ، آداب الرافدين ، العدد ١٥ ، ايلول لسنة ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م .
– محاريب مساجد الموصل الى نهاية حكم الأتابكة ٦٦٠هـ ، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لجامعة القاهرة ١٩٧١م .
- الأزدي : ابو زكريا يزيد بن محمد
تاريخ الموصل ، جـ٢ ، تحقيق الدكتور علي حبيبة ، القاهرة ١٩٦٧م :
- البلاذري ابو جعفر احمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ) .
فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٥٧م .
- توفيق احمد عبد الجواد :
تاريخ العمارة والفن في العصور الاولى ، جـ١ ، القاهرة ١٩٧١م .
- حسن الباشا (دكتور) :
تاريخ الفن في العراق القديم ، ط١ ، القاهرة ١٩٥٦م .
- حمدان عبد المجيد الكبيسي
أسواق بغداد حتى بداية العصر البويهي، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لجامعة بغداد ١٩٧٧م .
- حميد محمد حسن:
البيت العراقي في العهد العثماني، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لجامعة بغداد ١٩٨٢م.

– الحموى: ياقوت شهاب الدين أبي عبد الله (ت٦٢٦هـ).
معجم البلدان ،لايزك ١٢٨٦هـ – ١٨٦٩م.
– خالص الأشعب (دكتور):
تطور العمارة السكنية في صنعاء، مجلة سومر،م ٣٤، لسنة ١٩٧٨م.
– سامي سعيد الأحمد (دكتور):
المستعمرة الآشورية في آسيا الصغرى ،سومر ،م٣٣لسنة ١٩٧٧م.
– سعد عبد العزيز الراشد (دكتور):
تقرير موجز لنتائج الموسم الأول للحفائر الأثرية في موقع زبدة الاسلامي: مايو ١٩٧٩م، مجلة كلية الآداب بجامعة الرياض ،م ٧، ١٩٨٠م.
– سعيد الديوه جي:
البيت الموصلي ،مجلة التراث الشعبي ،العدد ١، ١٩٧٥م.
جسر الموصل في مختلف العصور، سومر، م١٢، لسنة ١٩٥٦م.
– شريف يوسف:
تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور، بغداد ١٩٨٢م.
– شمس الدين فارس (دكتور) وسلمان عيسى الخطاط:
تاريخ الفن القديم ،ط١ ، بغداد ١٩٨٠م.
– صالح لمعي مصطفى:
المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري ، بيروت ١٩٨١م.
– طاهر مظفر العميد (دكتور):
بغداد مدينة المنصور المدورة ، النجف ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م.
– طه باقر:
مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، ط١ ، بيروت ١٩٧٣م.
– عبد الرحمن الانصاري (دكتور):
«قرية» الفاو صورة للحضارة العربية قبل الاسلام في المملكة العربية السعودية جامعة الرياض ١٣٧٧هـ – ١٤٠٢م.
– عبد القادر المعاضيدي:
خطط واسط في العصر العباسي ، سومر ، ٣٤ ، لسنة ١٩٧٨م.
– عفيف بهنسي (دكتور):

تكوين الفن العربي الاسلامي في ديار الشام : الحوليات السورية ، م٢٢ ، لسنة ١٩٧٢م .
- علاء الدين احمد العاني :
المشاهد ذات القباب المخروطية في العراق . بغداد ١٩٨٢م .
- عماد عبد السلام رؤوف :
الموصل في العهد العثماني (فترة الحكم المحلي) ، النجف ١٩٧٥م .
- عيسى سلمان (دكتور) وآخرون :
العمارات العربية الاسلامية في العراق ، جزءآن ، بغداد ١٩٨٢م .
- فريال مصطفى :
البيت العربي في العراق في العصر الاسلامي : بغداد ١٩٨٣م .
- فريد شافعي (دكتور) :
- العمارة العربية في مصر الاسلامية ، م١ : القاهرة ١٩٧٠م .
- العمارة العربية الاسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ط١ ، الرياض ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
- فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى :
- حفريات حسونة ، سومر ، م١ ، لسنة ١٩٤٥م .
- الحضر مدينة الشمس ، بغداد ١٩٧٤م .
- كاسكل (فيرنر) :
الاخيضر . ترجمة الدكتور خالد اسماعيل ، سومر ، م٢٥ ، ١٩٦٩م.
- محمد ازهر السماك (دكتور) :
استخدامات الارض بين النظرية والتطبيق (دراسة تطبيقية عن مدينة الموصل الكبرى عام ٢٠٠٠) ، جامعة الموصل ١٩٨٥م .
- محمد انور شكري (دكتور) :
العمارة في مصر القديمة ، القاهرة ١٩٧٠م .
- محمد بدر الدين الخولي :
المؤثرات المناخية والعمارة العربية ، جامعة بيروت العربية ١٩٧٥م .
- محمد حماد (دكتور) :
تخطيط المدن وتاريخه ، ط١ ، القاهرة ١٩٦٥م .

- مصطفى جواد (دكتور) :

الايوان والكنيسة في العمارة الاسلامية ، سومر ، م٢٥ ، لسنة ١٩٦٩م .

- موسكاتي (سبتينو) :

الحضارات السامية القديمة ، ترجمة الدكتور سيد يعقوب بكر ، القاهرة.

- نوبلكور (كريستيان دبروش) :

الفن المصري القديم، ترجمة محمود خليل النحاس واحمد محمد رضا ومراجعة الدكتور عبد الحميد زايد ، القاهرة ١٩٦٦م .

- اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (٢٦٠هـ) .

تاريخ اليعقوبي ، بيروت ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م .



حكم يزيد بن عبد الملك ١٠١هـ - ١٠٥هـ / ٧٢٠م - ٧٢٤م

وجهة نظر تحليلية

الدكتور : خليل شاكر حسين
جامعة الموصل / كلية التربية

مقدمة :

يتصدى هذا البحث الى فترة حكم الخليفة الاموي يزيد بن عبد الملك التي تمتد من سنة ١٠١هـ وحتى سنة ١٠٥هـ. والبحث هو محاولة لتقويم السياستين الداخلية والخارجية لهذا الخليفة خصوصاً وانه اتبع سياسة تختلف في خطوطها الرئيسة عن سياسة سلفه عمر بن عبد العزيز ٩٩هـ - ١٠١هـ - .

ان سياسة يزيد بن عبد الملك مازالت محل نقد من لدن المؤرخين والباحثين . وهي بحاجة الى توضيح لمعالمها وازالة الغموض الذي يكتنف العصر الذي حكم فيه هذا الخليفة فالبحث - من ثم - هو جهد هدفه تسليط الضوء على الأحداث التي وقعت في خلافة يزيد بن عبد الملك وطريقة حكمه والعقلية التي رسمت القرارات السياسية والاقتصادية والادارية .

ومن خلال ماتمدنا به المصادر الأصلية من معلومات تأريخية فالبحث يحاول ان يقدم صورة موضوعية هي أقرب للواقع التاريخي وضمن قواعد النقد التاريخي الحديث والتحليل العلمي الذين يفرضان علينا الابتعاد عن الأفكار المسبقة والتحيز لكونهما لايخدمان الحقيقة التأريخية الرصينة التي ينشدها البحث التاريخي .

المبحث الاول : السياسة الداخلية :

أولاً : انتهاج نظرة جديدة للحكم :

يذكر احد مصادرنا التأريخية بأن يزيد بن عبدالملك قد اتبع سياسة مغايرة لسياسة سلفه عمر بن عبدالعزيز . وأنه الغى كافة الاجراءات والقرارات التي اتخذها سلفه والتي لم توافق هوى يزيد بن عبدالملك (١) . ولابد لنا والحال هذا ان نقف امام عبارة «هواه» ومناقشتها . فهذه العبارة تحتمل تفسيرين : أولهما . ان كلمة هوى تعني الرغبة والمزاج وفيما نعتقد ان ممارسة الحكم تتعدى مسألة المزاج والعواطف لأن الأمر يتعلق بمصلحة الدولة العربية الأسلامية وبمصلحة المسلمين . والثاني ان كلمة هوى التي أوردها بعض المؤرخين تعني طريقة الحكم وبعبارة أخرى المذهب السياسي للخليفة الأموي .

ويمكننا بذلك أن نستنتج ان يزيد بن عبدالملك قد جاء بقناعات سياسية وبآراء سياسية تختلف عن سياسة عمر بن عبدالعزيز اذ ان مجرد عقد مقارنة بين سياسة يزيد وسلفه عمر بن عبدالعزيز نجد البون الشاسع في طريقة ممارسة الحكم واتخاذ القرارات السياسية . ولا يمكن للباحث التاريخي أن يتخذ موقفاً متوازناً دون اظهار الانحياز امـام الصورة التي رسمتها مصادرنا التأريخية الأساسية .

وحرّي بنا أن نستفسر أكان يزيد بن عبدالملك قد الغى كافة قرارات عمر بن عبدالعزيز أم جزء منها . ويمكننا القول كخلاصة لمّا تقدم ان يزيد بن عبدالملك لم يبتدع سياسة جديدة للدولة العربية ، بل أنه سار على نفس السياسة التي وضع أسسها ابوه عبدالملك بن مروان ومشى عليها اخوته الوليد وسليمان بشأن الفتح والعلاقة مع المعارضة والسياسة المالية . ومهما يكن من أمر فان ليزيد رأيه الشخصي بصدد سياسة عمر بن عبدالعـزيز المالية والخارجية. وللمعارضة دور في التركيز على الثغرات التي حصلت من ممارسة يزيد للسلطة وهو يختص بالسلبيات فقط كخط عام ازاء الخلفاء الأمويين . (٢)

ثانياً : اثارة العصبية القبلية :

من المآخذ التي وجهت سياسة يزيد بن عبد الملك هي اثارته لروح العصبية القبلية والتي كانت كامنة في نفوس القبائل القيسية واليمانية. تلك العصبية التي بلغت ذروتها بعد معركة مرج راهط عام ٦٤هـ وكانت الغلبة فيها للقبائل اليمانية بقيادة مروان بن الحكم. وقد اعقبت تلك المعركة حروباً بين الطرفين ولم يخمد اوارها الا بجهود عبد الملك بن مروان وبمصالحته لزعيم قبائل قيس زفر بن الحارث الكلابي وضمن بذلك وحدة البنية الاجتماعية

للدولة العربية .(٣) والحق فان عبد الملك بن مروان قد وفق في اتباع سياسة التوازن بين هذه القبائل المتناحرة وتمكن من تخفيف حدة التوتر القبلي، وان ينصرف الى اعادة وحدة الدولة العربية داخلياً وقد استفاد ابناؤه من هذه السياسة في توظيف جهود هذه القبائل نحو توسيع رقعة الدولة العربية الاسلامية. بيد أن هــــذه السياسة لم يكتب لها الاستمرار اذ سرعان مااختل التوازن القبلي بانحياز يزيد بن عبد الملك الى جانب القيسية على حساب اليمانية. وجعل السيادة للقبائل القيسية . ولعل من الأنصاف ان نذكر هنا ان عمر بن عبد العزيز كان حكيماً في سياسته تجاه القبائل. فقد وضع نفسه فوق كل انحياز وأبعد نفسه عن اثارة اي صراع قبلي يمكن ان يفكك البناء الاجتماعي الداخلي للامة. وضروري ان نقول ان يزيد بن عبد الملك كان منحازا للقيسية المضرية بدافع المصاهرة مع آل الحجاج بن يوسف الثقفي .(٤) ونتيجة لهذا الموقف شعرت القبائل اليمانية بالغبن ازاء سياسة الخليفة الأموي خاصة وان غالبية الشام تتكون من اليمانية . في حين أن القبائل القيسية قد حصلت على امتيازات كثيرة في عهد يزيد بن عبد الملك خاصة بعد القضاء على تمرد يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي والذي يعتبر اندحار ه اندحارا للقبائل اليمانية. وحسب ماتذكره بعض المصادر الرئيسة فان يزيد بن عبد الملك عمد الى انقاص عطــاء القبائل اليمانية التي كانت محل رعاية واهتمام المروانيين والسفيانيين على السواء. وقد بذل السفيانيون والمروانيون الجهود المضنية من أجل كسب هذه القبائل الى جانبهم وجعلها عضد الدولة القوي في ظروف الأزمات الداخلية والخارجية. فان صحت الروايات التاريخية التي ذكرت خبر انقاص العطاء فان يزيد بن عبد الملك قد ارتكب خطأ سياسيا جسيما بحق القبائل اليمانية وجهودها في تثبيت الدولة الأموية امام جهود المعارضة في تقويض السلطة الأموية . (٥)

ان خطوة يزيد بن عبد الملك تعد انكارا لدور القبائل اليمانية ونكاية بماضيها الحافل بالخدمات . وكان يجدر بيزيد ان يحذو حذو أخيه سليمان بن عبد الملك الذي كان يكره آل الحجاج وحلفاءهم من القيسية ، الا أنه لم يغلب اليمانية على القبائل القيسية بل نظر الى مصلحة الدولة الاموية وبغض النظر عن الدوافع الشخصية . وبناء على هذه السياسة القبلية فان الصراع القبلي احتدم في أقاليم الدولة العربية وبرز الشرخ الاجتماعي في جسم هذه الدولة وبعثر جهودها بدلا من توجيهها نحو الفتح والعمران (٦) :

ثالثاً : تمرد يزيد بن المهلب بن أبي صفرة :

كان يزيد بن المهلب بى أبي صفرة الأزدى احد رجالات الدولة الأموية البارزين في خدمتها. وقد ورث يزيد مكانته السياسية والعسكرية عن أبيه المهلب بن أبي صفرة القائد المشهور في براعته بحرب الخوارج وإدارة اقليم خراسان . وتولى يزيد حكم خراسان بعد وفاة ابيه ، غير ان الحجاج بن يوسف الثقفي عزله وحبسه وعين محله احد أنصاره وهو قتيبة بن مسلم الباهلي (٧) ولابد من الاشارة هنا الى ان نفسية الحجاج لم تكن تطيق شخصا كيزيد بن المهلب الذي يعتد بنفسه كثيرا ويمتلك شخصية قوية. ومهما يكن من أمر فان يزيد بن المهلب استطاع الفرار من حبس الحجاج والالتجاء الى سليمان بن عبد الملك بالرملة في فلسطين . وتوسط سليمان عند أخيه الوليد للعفو عن يزيد بن المهلب وقد نجح في مسعاه. وأصبح يزيد بن المهلب من الرجال المقربين الى سليمان بن عبد الملك(٨) وبتولي سليمان الخلافة عين يزيد واليا على العراق. ثم ولاه اقليم خراسان وهي الولاية المحببة الى نفسه بعد مقتل قتيبة بن مسلم الباهلي. (٩) ومما تجدر اليه الملاحظة ان يزيد بن المهلب قد حقق انجازا عسكريا لم يحققه الولاة من قبله. وهو افتتاح جرجان وجهات بحر قزوين. وبوفاة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩هـ فقد يزيد سندا كبيرا له اذ سرعان ماعزله الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز وطالبه بالأموال التي وعد بها سليمان بن عبد الملك والقاه في الحبس وأراد ارساله الى الجزيرة دهلك لكنه تراجع عن قراره خوفاً من تدخل قبيلته القوية الأزد وحدوث الفتنة .(١٠) وانتهز يزيد بن المهلب اعتلال صحة الخليفة عمر بن عبد العزيز وورود الأنباء باحتمال وفاته فتمكن من الهرب من حبسه في قلعة حلب باتجاه البصرة سنة ١٠١هـ.(١١)

بيد ان رواية تأريخية تقول ان يزيد بن المهلب فر من الحبس قبل وفاة عمر بن عبد العزيز وأرسل رسالة الى الخليفة المحتضر يخبره فيها انه لم يهرب معصية له وانما خوفا من انتقام يزيد بن عبد الملك الذي كان يكره القائد المهلبي(١٢) وتمدنا بعض المصادر بمعلومات مفيدة حول أسباب ذلك البغض الذي يكنه يزيد بن عبد الملك لابن المهلب . فأول هذه الأسباب وجود نفور شخصي سابق بينهما بسبب وقوع حادثه تهدد بها يزيد بن عبد الملك ابن المهلب وجواب الأخير على شكل تحذير وتحد سافر بالوقوف ضده بمعونة قبيلته الأزد ان اراد يزيد بن عبد الملك الانتقام. (١٣)

وسبب ثان تورده المصادر هو رغبة يزيد بن عبد الملك في الانتقام من ابن المهلب لأنه عذّب في اثناء ولايته على العراق آل الحجاج المتصاهرين مع يزيد بن المهلب، ولعل هناك

أسباب خافية أخرى لم تذكرها المصادر بصدد تلك العداوة(١٤). وعلى أية حال فان يزيد بن المهلب تمكن من الوصول الى البصرة على الرغم من تحذيرات الخليفة لعماله ومحاولات عامل الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن في التصدي لابن المهلب والقبض عليه. (١٥)

وعبثاً ذهبت جهود والي البصرة عدي بن أرطأة الفزاري لمنع ابن المهلب من دخول البصرة سيما وان الخليفة الأموي قد اعلمه سلفاً بهروب ابن المهلب ومسيره نحو البصرة وأمره ان يأخذ اخوة ابن المهلب وأهل بيته ويحبسهم كاجراء احترازي يمنعهم من دعم ابن المهلب الهارب من الشام. وحاول عبد الملك بن المهلب اقناع والي البصرة بأن يبذل جهده من أجل تحويل وجهة سير يزيد الى فارس بدلا من البصرة ويطلب من هناك الامان من الخليفة حتى لاتقع الفتنة في البصرة. وتذكر لنا رواية تأريخية ان الوالي قد رفض هذا الاقتراح في حين اننا نجد رواية أخرى تذكر نجاح عبد الحميد بن عبد الملك بن المهلب في مهمته لدى الخليفة يزيد بن عبد الملك واستحصاله الأمان لعمه يزيد مما يدلل على قبول الوالي باقتراح عبد الملك بن المهلب.

ويبدو ان الامور لم تجر كما اتفق عليه والدليل على ذلك قيام محمد بن المهلب بحشد الأنصار والموالين لأخيه يزيد الذي دخل البصرة رغم اجراءات الوالي في نشر قواته في احياء البصرة. والطريف في الأمر ان يزيد قد تمكن من الوصول الى بيته دون أن تعترضه قوات الوالي باستثناء قوة المغيرة بن عبد الله الثقفي الذي تصدى له محمد بن المهلب وأخلى الطريق أمام يزيد. (١٦) وبدأت الناس تتوافد على يزيد في بيته وقد استطاع يزيد ان يستميل الناس بالمال بينما نجد ان الوالي كان شحيحاً مما جعل موقفه ضعيفاً امام يزيد بن المهلب. ورفض الوالي طلب يزيد باطلاق سراح أخوته وأهل بيته من السجن شريطة ان يترك البصرة ويسوي مشكلته مع الخليفة. (١٧) وترك حسم الخلاف للقوة وحشد الوالي قواته وفعل مثله ابن المهلب الذي تمكن من دحر الوالي وأسره وايداعه في الحبس وأطلق سراح إخوته وأصبحت البصرة تحت سيطرة يزيد بن المهلب. ويمكن القول ان يزيد بن المهلب قد أقدم على خطوة متسرعة وغير مدروسة النتائج، فقد شعر بقوته فخلع طاعة يزيد بن عبد الملك ودعا الى كتاب الله وسنة الرسول الكريم -ص- وبعث بعماله الى الاحواز وفارس وكرمان. وحث اهل البصرة على الجهاد وعد جهاد أهل الشام اكثر شرعية من جهاد الترك والديلم. (١٨) وهنا لابد لنا من الوقوف امام الموقف المعارض الذي اتخذه الفقيه المشهور الحسن البصري الذي نصح اهل البصرة بعدم الانجراف وراء دعوة يزيد بن المهلب. وحثهم على الاخلاد الى السكينة وعدم الانغماس بهذه الفتنة

خاصة مع رجل كان بالأمس احد رجالات الدولة الأموية المخلصين والذي عمل الكثير من أجل خدمتها واليوم يتمرد هذا الرجل بمجرد وجود خلاف وحساسية شخصية بينة وبين الخليفة الأموي والمفروض ان يكبل بالقيد ويرجع الى سجنه.

لقد اثبت الحسن البصري بموقفه هذا منهجاً سياسياً وفقهياً يجنبهم الانغماس في الفتن والانجراف وراء صيحات التمردات التي يراد منها الاغراض الشخصية وتفريق كلمة الأمة واراقة دماء المسلمين (١٩) .

ومن سوء حظ ابن المهلب ان مهمة الأمان التي سعى بها عبد الحميد بن عبد الملك قد فشلت بعد ورود الاخبار باستيلاء يزيد بن المهلب على البصرة وخلع يزيد بن عبد الملك وقبض عليه وعلى آل المهلب الموجودين في الكوفة حتى لايقدموا المساعدة لاخيهم المتمرد في البصرة . (٢٠)

وشكر الخليفة الأموي أهل الكوفة موقفهم بعدم تأييدهم لابن المهلب ووعدهم بزيادة عطائهم. وضروري أن نقول هنا أن المعارضة بالكوفة كانت متلهفة لاندلاع تمرد ضد السلطة الاموية غير ان تدابير والي الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن حالت دون انضمام الكوفة لتمرد ابن المهلب الذي توانى عن الاستيلاء على الكوفة (٢١) . ويبدو ان يزيد بن عبد الملك كان يتوقع قيام ابن المهلب بعمل معارض ضده ، لذا فهو لم يضيع الوقت بل أنه ارسل جيشاً كثيفاً الى العراق بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك القائد البارز في حروب الروم ومعه العباس بن الوليد وكان هدف يزيد حصر تمرد ابن المهلب في العراق ومنعه من الاستيلاء على الكوفة وامداد الأقاليم له ، وبالفعل وصل مسلمة الى النخيلة وهي موضع على مشارف الكوفة . (٢٢) وأما خط سير ابن المهلب فقد خرج من البصرة باتجاه واسط ومعه الخزائن والاموال وخلف وراءه مروان بن المهلب يستحث الناس للانضمام الى جيشه الذاهب لملاقاة جيش الشام. وأقام بن المهلب بواسط وشاور اخوته والمقربين اليه حول الخطة الواجب اتباعها لمواجهة اجراءات الدولة الأموية العسكرية .

فاقترح عليه أخوه حبيب أن يتوجه الى جنوب خراسان ويمتنع بشعابها ويكون قريباً من خراسان ويستعين بأهل الجبال ويتحصن بالقلاع . (٢٣) وقد أصاب اصحاب هذا الرأي باختيار منطقة جنوب خراسان لكون تضاريسها تصلح لمقاومة الدولة الأموية خاصة وان يزيد بن المهلب كان والياً على أقاليم خراسان لفترة من الوقت. وقد رفض يزيد هذا المقترح . وأجابه أخوه حبيب بأنه قد ارتكب خطأ عسكرياً يكمن في عجزه عن الاستيلاء

على الكوفة خاصة وانها مركز المعارضة وبذلك فوّت ابن المهلب عليه فرصة ثمينة لحشد الطاقات العسكرية لمواجهة تدابير الدولة الأموية . (٢٤) وأشار عليه بعض اخوته وخاصته ان يوجه قوة عسكرية الى الجزيرة هدفها الاستمكان بحصونها بما يمكن لأهل الموصل والثغور الانضمام الى هذه القوة، ويكون عندها العراق خطرجعة امام اي انكسار عسكري. بيدان يزيد رفض هذا العرض وبرر رفضه بأنه لايريد اقتطاع جيشه واختار العراق مكاناً للمنازلة الحاسمة.(٢٥) وخلف ابن المهلب ابنه معاوية على واسط ومعه بيت مال البصرة والخزائن والأسرى ونزل بموضع العقر القريب من بابل . (٢٦) وقدم مسلمة محاذياً لشاطيء الفرات وأقام جسراً على الفرات وعبره ونزل قبالة يزيد بن المهلب. وتذكر احدى الروايات التاريخية ان مسلمة كان يود حقن دماء المسلمين وان يراجع يزيد بن المهلب نفسه ، ويمكن القول ان ابن المهلب قد الزم نفسه بموقف اصبح الرجوع عنه يسيء الى سمعته وسمعة قبيلته، يضاف الى ذلك ان الخلاف الذي حدث بينه وبين الخليفة الأموي قد وصل الى حد القطيعة وانه لاسبيل للتفاهم الا القوة. (٢٧) وتوافدت جماعات المقاتلين الى ابن المهلب من الثغور والجبال والكوفة .(٢٨) وضروري ان نذكر هنا ان عدد المقاتلين المنضمين لجيش ابن المهلب لم يكن كبيرا خاصة وان والي الكوفة قد اتخذ اجراءات احترازية لمنع اهل الكوفة من الانضمام لابن المهلب. (٢٩) واراد ابن المهلب مباغته جيش مسلمة بن عبد الملك الا أن المعارضة دبت في صفوف انصاره وخاصة على لسان رئيس المرجئة السميدع الذي اكد على الجانب الديني الاجتماعي في محاربة الدولة الأموية ، بينما نجد ان ابن المهلب يشدد على الجانب الدنيوي والغرض الشخصي في قتاله الدولة الأموية. وثمة حقيقة تاريخية نجد أنفسنا ملزمين بذكرها ان جيش ابن المهلب كان خليطا غير متجانس لايجمعهم سوى معارضة السلطة الأموية ، اذ ان الغايات والأهواء مختلفة . (٣٠) وبقي مسلمة وابن المهلب ثمانية أيام وهما يستعدان للمواجهة العسكرية. وتؤكد مصادرنا الأولية ان مسلمة عمد الى حيلة حربية بحرقه الجسر المنصوب على نهر الفرات وعند ارتفاع الدخان ظن عسكر ابن المهلب انهم قد هوجموا من خلفهم فحلت الهزيمة في جيش ابن المهلب . وأراد ابن المهلب ان يردهم الى ساحة القتال بضرب وجوه المنهزمين ولكن محاولته لم تنجح. وجاءت الاخبار الى ابن المهلب بمقتل اخيه حبيب فاستمات في القتال مما دفع اصحابه الى الانفضاض عنه . ورفض ابن المهلب الانسحاب لواسط والتحصن فيها لأنه عاب على عبد الرحمن بن الأشعث هزيمته وفراره من الموت في ساحة الوغى. وحاول ابن المهلب اختراق صفوف اهل الشام للقضاء على مسلمة غير أن

خيل اهل الشام اعترضته ووقع صريعا امام محاولته الانتحارية وقتل معه السميدع ومحمد بن المهلب. (٣١) وجاءت اخبار الهزيمة الى معاوية بن يزيد بن المهلب فقتل الاسرى وعلى رأسهم عدي بن ارطأة والي البصرة وتوجه الى البصرة مع المال والخزائن. (٣٢) وركب آل المهلب السفن باتجاه قندابيل لكي يلجئوا بها فلحقتهم جيوش الدولة الأموية وقاتل آل المهلب ولاقى اغلبهم حتفه ، وأخذ الباقون أسرى مع نسائهم وذراريهم وأرسلوا الى مسلمة في الحيرة. (٣٣) وبهذا انتهت أسرة طالما خدمت الدولة الأموية وطمس سجلها الكبير بسبب العداوات الشخصية والتباين في الاراء السياسية.

رابعاً : عودة نشاط معارضة الخوارج :

تجمع المصادر الأساسية المتوفرة لدينا على أن يزيد بن عبد الملك لم تكن له يد في عودة نشاط الخوارج العسكري ضد الدولة الاموية . لقد كان السبب المباشر لاشعال القتال بين الخوارج والدولة الأموية هو عامل الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن الذي اراد الظهور بمظهر المتفاني في خدمة الدولة الأموية . (٣٤) وأنه لمن المفيد ذكره في هذا المجال اننا لم نعثر على أية أشارة تؤكد بأن الخليفة الأموي كان وراء استئناف القتال مع الخوارج بقيادة شوذب، بل ان المبادرة جاءت من لدن والي الكوفة الذي كلف الدولة العربية الكثير من الطاقات والانفس.

لقد استطاع الخوارج بقيادة شوذب ان يلحقوا الهزيمة بعدة جيوش قدرتها المصادر بأربعة جيوش ارسلتها الدولة للوقوف أمام الخوارج ولم ينقذ ماء وجه الدولة ويحفظ لها هيبتها الا جيش مسلمة بن عبدالملك الذي قدم للعراق للتصدي ليزيد بن المهلب. (٣٥) فقد ارسل مسلمة جيشا قوامه عشرة آلاف مقاتل بقيادة سعيد الحرشي لحرب الخوارج . واستمات الخوارج بقيادة شوذب حتى استطاعوا ان يكشفوا جيش الدولة مرات عديدة وخاف الحرشي من فضيحة الهزيمة أمام جيش لايتجاوز عدده الالف مقاتل فحث جيشه على الجد في القتال فهجموا على الخوارج هجمة رجل واحد . واستطاع جيش الحرشي من ابادة الخوارج وقتل قائدهم شوذب. (٣٦) بيد ان نشاطهم عاد من جديد بعد تعيين الوالي القيسي عمر بن هبيرة على العراق . ولاشك فأن الامر يعتمد على تصرف الولاة أنفسهم ازاء المعارضة بشكل عام والخوارج بشكل خاص مما ينعكس آثار ذلك التصرف، على سياسة الدولة كما فعل والي الكوفة.

ويحق لنا الـ ان ان يزيد بن عبد الملك قد نجح في تجنيب الدولة الأموية الخسائر في الأرواح والأموال بمعالجته تمرد رجل خارجي اسمه عقفان الذي تمكن من جذب بعض المعارضين حوله في ارض الموصل. وكان يمكن لحركة عقفان ان تتفاقم وتشيع الفتنة ويضيع الأمن في تلك الاصقاع . ان الاسلوب الذي اتبعته الدولة الأموية بجعل ذوي المتمردين يقنعون أنصار عقفان بالعدول عن حركتهم حيث استطاع أخ لعقفان من اقناعه بالدخول في الجماعة وترك الفتنة هو اسلوب حكيم .

والحق يقال ان اسلوب الخليفة الأموي كان عقلانيا في التعامل مع حركة عقفان ويعد موقفه من الايجابيات التي قلما تركز عليها الروايات المعادية (٣٧). ولم يقتصر نشاط الخوارج على هذه النواحي ،فقد ظهر قائد خارجي اسمه مسعود العبدي في البحرين وعمان وتمكن من السيطرة على المنطقة وحكمها تسعة عشر عاما. غير أن الدولة الأموية نجحت في القضاء عليه (٣٨). وظهر زعيم خارجي آخر اسمه هلال بن مدلج الذي جذب المناوئين للحكم الأموي اليه وقد توصلت الدولة الأموية الى القضاء عليه. ورغم جهود الدولة الأموية في محاربة الوجود الخارجي في هذه الاصقاع فان جذور الحركة الخارجية في عمان والبحرين ما زالت موجودة مما يدل على ظهور حركتها بشكل قوي مرة أخرى في المستقبل. (٣٩) وعند انحسار نشاط الخوارج في المشرق ازاء حزم الدولة الأموية انتقلوا الى افريقيا والمغرب ونشروا آراءهم واستطاعوا من كسب المغاربة لافكارهم وخاصة الصفرية والاباضية .

وقد لاقت الدولة الأموية العنت خلال حكم هشام بن عبد الملك الذي بذل الجهود الكبيرة في اعادة اخضاع المغرب لسيطرة الدولة الأموية (٤٠) .

خامساً : الوضع السياسي في افريقية والمغرب والأندلس :

يمكن القول ان الحالة السياسية في أفريقية والمغرب والأندلس لم تكن مستقرة بشكل نهائي منذ تحريرها . لقد حاول الولاة الأمويون من تحرير ساحل افريقيا الشمالي بيد انهم اصطدموا بمقاومة الروم البيزنطيين الذين كانوا يمتلكون حاميات لهم في المنطقة. وقد بذل الولاة العرب في خلافة عبدالملك وابنه الوليد جهودا جبارة في تحرير المغرب وتوجيه الجهود نحو فتح الأندلس (٤١) .

ومما تجدر الاشارة اليه ان بعض الولاة الأمويين قد أساءوا التصرف مع الرعية مما دفعهم إلى اعلان التمرد على السلطة المركزية فاستنادا إلى المعلومات التاريخية المتوفرة

في مصادرنا المبكرة نجد أن يزيد بن عبدالملك قد قام باجراء اداري وسياسي خطير وذلك بتوليته يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج بن يوسف وكاتبه على أفريقية . ولم تختلف المصادر التاريخية في وصف هذا الوالي بالخشونة وسوء معاملة الرعية في افريقية واراد ان يتبع سياسة هدفها اذلال الرعية فثاروا عليه وقتلوه ، وعينوا بدلا منه رجلا ارتضوه هو محمد إبن أوس الانصاري وأحاطوا الخليفة يزيد بما فعلوه ، وأقرهم على اختيارهم بل أنه انتقد سيرة واليه وتخلى عنه وجعله يتحمل وحده وزر عمله في حين ان المسؤولية الأساسية تقع على عاتق الخليفة الذي يتخذ وحده قرار التعيين ومراقبة العمال ويحاسبهم (٤٢) .

ويبدو ان يزيد بن عبدالملك قد راجع نفسه فوجد ان أفعال يزيد بن ابي مسلم لم تكن تصب في مصلحة الدولة التي هي فوق مصالح الأشخاص واهوائهم . وأرسل الخليفة الأموي خالد بن ابي عمران واليا جديدا على افريقية ، ولكنه استبدله بعامل آخر هو بشر بن صفوان الكلبي سنة ١٠٢ هـ الذي كان على ولاية مصر واستخلف عليها أخاه حنظلة بن صفوان (٤٣). وظل بشر بن صفوان عاملا على أفريقية حتى هلاك يزيد بن عبدالملك . والجدير بالذكر أن ولاية الأندلس كانت تابعة اداريا لولاية المغرب . فقد أشار مؤرخو المغرب والاندلس إلى النشاط الحربي الذي قام به الولاة في الأندلس فقد قام السمح بن مالك الخولاني بحملة عسكرية في فرنسا وتوغل إلى تولوز ودوقية اكيتانيا وتصدى له الفرنج بقيادة الدوق يودو سنة ١٠٢هـ وأكمل عنبسة بن سحيم الكلبي جهود السمح ففتح اقليم سبتمانيا وأقليم البروفانس ودخل مدينة ليون ، ثم توغل في اقليم برغونة (برجانديا). الا ان الفرنج كانوا يترصدون له فحاصروه واستشهد سنة ١٠٧ هـ ، أي بعد وفاة يزيد بن عبدالملك (٤٤) .

ومن خلال ماتقدم ان النشاط العسكري في الاندلس لم يتأثر في فترة حكم يزيد بن عبدالملك ضمن الاطار العام المرسوم له منذ خلافة الوليد بن عبدالملك .

المبحث الثاني : السياسة الخارجية :

أولاً : العلاقة مع الترك والخزر :

انه لمن الضروري ذكره ان عهد يزيد بن عبدالملك قد شهد نشاطا عسكريا متميزا في جبهة الترك والخزر . وبناء على ذلك فان الدولة العربية قد شهدت خلال حكم يزيد إبن عبدالملك اتساعا ملحوظا في ممالك الترك والخزر وهي الأصقاع التي لم تطأها قدم عربية من قبل . ففي سنة ١٠٢ هـ تولى أمر خراسان سعيد بن عبدالعزيز الأموي ، وقد اطلق عليه الناس لقب سعيد خذينة نظرا لتنعمه وترفه (٤٥) . ونتيجة للمصاهرة التي تجمع سعيد الأموي بمسلمة بن عبدالملك الذي ولاه اخوه الخليفة على العراق فانه عين سعيدا واليا على ثغر خراسان وبعث بعماله إلى الأقاليم التابعة لولاية خراسان .

ومما يجدر القول ان اهل الصغد رفضوا الخضوع للسلطة الأموية ، ولكنهم سرعان مابدلوا موقفهم وطلبوا الصلح . ويبدو انهم قد تحققوا من قوة الدولة الأموية وان لاطاقة لهم في مجابهتها . وقد طمع الترك في ممتلكات الدولة العربية وقاموا بحملة عسكرية على الصغد بقيادة كورصول . واستنجد أهل الصغد بعامل سمرقند عثمان بن عبدالله فأنجدهم واستطاع أن يهزم الترك وينقذ المسلمين المحاصرين في قصر الباهلي في الصغد وتم ارجاعهم إلى سمرقند (٤٦). وبنفس عام ١٠٢ هـ ،قام سعيد بغزوة الصغد لأنهم نقضوا العهد مع الدولة العربية وأعانوا الترك على المسلمين وتمت هزيمتهم (٤٧). والمفيد ذكره أن آخر نشاطات سعيد الأموي العسكرية هي حملته على أبواب سمرقند . وعندما حلّت سنة ١٠٣ هـ تم تعيين سعيد بن عمرو الحرشي على ولاية خراسان بدلا من سعيد الأموي من قبل والي العراق عمر بن هبيرة الفزاري . ولمّا قدم سعيد الحرشي كانت حالة العرب العسكرية غير مرضية فحث الناس على الجهاد لمواجهة خطر الترك الداهم . وخاف أهل الصغد من انتقام سعيد الحرشي لمساعدتهم الترك على المسلمين فاقترح عليهم ملكهم الاعتذار للمسلمين وان يدفعوا خراج السنوات الماضية ويقدموا العون للمسلمين في حربهم مع الترك. بيد انهم رفضوا اقتراحه وطلبوا من ملك خجندة اجارتهم لحين استرضاء سعيد الحرشي وتجديد الصلح . وتوجهوا إلى ملك فرغانة لايوائهم فقبل ايواءهم في أحد الرساتيق واشترط عليهم ان لاجوار لهم عنده طالما هم خارج ممتلكاته (٤٨). وبدخول سنة ١٠٤ هـ هاجمهم سعيد الحرشي الذي كان يترصدهم وحاصرهم قبل دخولهم اراضي ملك فرغانة وطلبوا الصلح من سعيد فأجابهم شريطة دفع الخراج

ورد الأسرى المسلمين وأن لايتعرضوا للمسلمين (٤٩). وكتب الحرشي بانجازاته العسكرية مباشرة الى الخليفة يزيد بن عبدالملك ، وتجاهل والي العراق رئيسه المباشر مما دفع ابن هبيرة إلى الحقد عليه (٥٠). وواصل الحرشي نشاطاته العسكرية فتوغل في كش ونسف وصالح أهلها وأعطى الأمان لملكها المدعو سبغري .

ومن اللافت للنظر حقاً ان بعض القادة العرب كانت تستهويهم الانتصارات السريعة بتوغلهم في ارض الأعداء دون معرفة جيدة بجغرافية المنطقة. ومن بعد فهم يجهلون ما يتربص بهم العدو، وما يعده لهم من كمائن وحيل عسكرية. فمما تجدر الاشارة اليه ان احد القادة العرب قد اندفع في أرض الخزر من جهة ارمينية فحشد الخزر جموعهم وانقضوا على الجيش العربي بموضع اسمه مرج الحجارة وحلت الهزيمة بالجيش العربي واستولى الخزر على عسكر الدولة الأموية مما دفع الخليفة الأموي الى توجيه اللوم للقائد العربي واتهمه بالجبن (٥١). ويمكن القول ان مثيلات هذه الهزيمة قد وقعت للمسلمين عند توغل جيش ابن ابي بكرة وجيش مصقلة بن هبيرة . وقد استغل الخزر نتائج هذه المعركة وبدأوا يضغطون على المسلمين من اجل احراز مكاسب جديدة على حساب الدولة العربية. عند ذاك قام يزيد بن عبد الملك بتعيين قائد جديد لجبهة الخزر وهو الجراح بن عبد الله الحكمي الذي كان مشهوراً باقدامه وبسالته. وكان الهدف الرئيسي للجراح هو وقف التداعي العسكري في جبهة الخزر وتمكن الجراح من حشد قوات جديدة توغل بها في أرض الخزر الذين تراجعوا بقصد الايقاع به كما فعلوا بالجيش العربي بمعركة مرج الحجارة. وكان الجراح الحكمي يقظاً في تقدمه ببثه العيون والارصاد. وتراجع الخزر نحو مدينة باب الابواب عند ذاك عسكر الجراح بجيشه في منطقة برذعة واستطاع خداع الخزر بالمسير ليلا فدخل مدينة باب الأبواب التي رحل عنها الخزر (٥٢). وبعث الجراح بسراياه في المناطق المجاورة للمدينة. والملاحظ ان الخزر جمعوا قواتهم بقيادة ابن ملكهم عندما رأوا الجد في توغل الجيش العربي فأصطدم بهم الجراح الحكمي على ضفاف نهر الران واندحر الخزر وانفتحت بلاد الخزر امام الجراح وجيشه وتمكن من فتح حصن بلنجر الشهير بمناعته. غير ان الجراح اعاد الحصن الى صاحبه واشترط عليه ان يكون عونا للمسلمين. وقد بلغ الجراح في تقدمه الى حصن الربندر وصالح اهله (٥٣). وأمام وصول اخبار حشود الخزر الكبيرة القادمة لملاقاة جيش الجراح الحكمي اضطر عندها الى التراجع الى رستاق ملي والتحصن به حيث حل الشتاء . وأرسل الجراح الى

يزيد بن عبدالملك يعلمه بانجازاته العسكرية وبآخر التطورات ، ويطلب منه المدد امام حشود الخزر الزاحفة نحوه (٥٤). وتذكر احد مصادرنا ان الخليفة الأموي قد وعده بارسال المدد غير أن المنية عاجلته قبل ان يسعف الجراح الذي لاقى حتفه على يد الخزر في خلافة هشام بن عبدالملك .

ويمكننا ان نقول ان النجاحات العسكرية التي تحققت في عهد يزيد بن عبدالملك قد احرزتها الجيوش العربية في أقليم أذربيجان ومناطق اقليم الران ونهر دبيل .

ثانياً : العلاقات العربية البيزنطية :

لم تذكر مصادرنا المبكرة جهدا عسكريا بارزا حدث في عصر يزيد بن عبدالملك على الجبهة البيزنطية . بل ان النشاط العسكري كان لايتعدى الحملات العسكرية المعدودة التي قام بها بعض القادة العرب في تلك الجبهة . وظلت حملات الصوائف والشواتي مستمرة في خلافة يزيد واستمرت الحالة العسكرية حسب قاعدة المد والجزر ، وهي القاعدة التي كانت تتحكم بطبيعة العلاقة العربية البيزنطية . ومع ذلك فان مانملكه من معلومات تاريخية تشير إلى عملية انزال قام بها الروم البيزنطيون على الساحل المصري ، ولكنها لم يكتب لها النجاح وكانت العملية عبارة عن مغامرة عسكرية وجس نبض للقوة العربية ولم تكن مدروسة بالشكل المطلوب وهدفها اضعاف الروح المعنوية لدى المسلمين(٥٥). وتمدنا المصادر التاريخية بمعلومات حول الغزوة التي قام بها والي الجزيرة عمر بن هبيرة على بلاد الروم من جهة أرمينية وتوغله في اراضي الروم وتمكنه من احلال الهزيمة بجيش رومي والعودة بعدد من الاسرى الروميين (٥٦) . وتشير المصادر كذلك الى غزوة قام بها العباس بن الوليد بن عبدالملك على بلاد الروم وتوغله فيها (٥٧). وتذكر أحد المصادر إلى غزوة سعيد بن عبدالملك لبلاد الروم (٥٨). وصفوة القول ان عهد يزيد بن عبدالملك قد شهد نشاطاً عسكرياً محدوداً على جبهة الروم البيزنطيين .

الخاتمة :

يعيب المؤرخون الأوائل من خلال ماقدموه لنا من مادة تاريخية على الخليفة الاموي يزيد بن عبد الملك ذلك الاضطراب في سياسته الداخلية والخارجية. وقد استند الى معلوماتهم التاريخية بعض المؤرخين والباحثين المحدثين فانتقدوا طريقة يزيد بن عبدالملك في ممارسة الحكم واتخاذ القرارات. وأشاروا في معرض بحوثهم ودراساتهم الى فقدان الوضوح في سياسة هذا الخليفة الأموي والافتقار الى الأسس والمعالم التي يمكن من خلالها رسم صورة واضحة عن عهد يزيد بن عبد الملك. وقد بينوا بأن لاخيه الوليد بن عبد الملك سياسة واضحة المعالم تعتمد على الفتح والعمران في خطوطها الرئيسة. واتخذوا من الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز نموذجاً مغايراً لسياسة الوليد بن عبد الملك وهو النموذج المثالي. وأكدوا ان سياسة يزيد بن عبد الملك تفتقر الى الاتزان الموجود في سياسة كلا الخليفتين المذكورين.

بيد أنه يمكننا القول بناء على ماأوردته بعض الروايات المعتدلة ان يزيد بن عبد الملك كان محبوباً عند قريش لجميل تصرفه وتواضعه ومسلكه بين الناس. وأخذت الرعية انطباعاً بأن الأمر اذا صار الى يزيد فانه سيسير بسيرة عمر بن عبد العزيز. غير أنه سار سيرة الوليد وأحتذى بأثره وكأن الوليد لم يمت. وتأسيساً على ماسبق فان يزيد كان محمود عند الناس وكانوا لايشكون في جميل سيرته اذا ماتولى الخلافة، الا أنه عند تسنمه مقاليد الأمور وجد نفسه يتبع سياسة مغايرة لسياسة عمر بن عبد العزيز ذلك لأنه لايمتلك مثل شخصية سلفه ولا استعداده النفسي والعقائدي (٥٩). وكان يزيد يظن ان سياسة عمر إبن عبد العزيز المالية قد اضرت بواردات الدولة فأراد ارجاع الأمور الى ماكانت عليه زمن أخيه الوليد بن عبد الملك متناسيا التبدل في الظروف الزمانية.

ويجدر بنا القول هنا ان كثيرا من الخلفاء وولاة الامور قد غيروا من طريقة حياتهم وسلوكهم عندما تسلموا الحكم ونستطيع ايراد اسم عبد الملك بن مروان مثالا على مانذهب اليه. فقد كان عبد الملك ملازما لمسجد المدينة وفنائها وكان يلقب بحمامة المسجد. الا ان هذه الصورة قد تغيرت عندما وصل الى الحكم الذي فرض عليه مسؤولية جسيمة وأعباء أبعدته عن نمط حياته السابقة.

هذا وان غالبية المؤرخين الأوائل والمحدثين يأخذون على يزيد انشغاله بلهوه واهماله امور الحكم. وقد شجع هذا الانشغال المعارضة وخاصة العلويين الى بث دعاتهم في الأقاليم

وقد ظهرت بالفعل اولى بوادر الدعوة العباسية على هيئة تجار في خلافة يزيد. وينتقد هؤلاء المؤرخون سياسة يزيد الادارية التي لم تكن مدروسة وواضحة الأسس ومحبوكة الجوانب اذ لم يكن ينتقي عماله بعناية بناء على مواصفات تؤهلهم لحكم الولايات كما كان يفعل معاوية بن أبي سفيان وأبوه عبد الملك بن مروان اللذان كانا يراقبان الولاة ويؤشران لهم اخطاءهم.

ولا بد لنا من الاشارة الى حقيقة ثابتة هي ان الاطار العام لسياسة البيت الأموي المرواني قد رسمه ووضع اسسه عبد الملك بن مروان وقد سار ابناؤه من بعده على نهج سياسته باستثناء فترة حكم عمر بن عبد العزيز القصيرة والتي لايمكن عدها كجزء من تاريخ الدولة الأموية في خطها العام .



الهوامش

(١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٦٧. ومن هذه الاجراءات ، اعاد أراضي اليمن خراجية ، بعد أن كانت عشرية في عهد عمر إبن عبدالعزيز ينظر ابن خلدون ، كتاب التاريخ ، م ٣ ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٧٦

(٢) نسبه بعض الباحثين المحدثين إلى لزوم الحذر امام الروايات المعادية للخلفاء الامويين . ينظر على وجه الخصوص : عبدالامير دكسن ، الخلافة الاموية ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٧ وما بعدها . ولابد من ذكر حقيقة تأريخية مفادها ان يزيد بن عبدالملك قام بمسح اراضي السواد عام ١٠٥ هـ على يد عامله في العراق وهي العملية التي تمتد مرة واحدة في السابعة في زمن عمر بن الخطاب وعلى يد عامله عثمان بن حنيف . اليعقوبي ، كتاب التاريخ ج ٢ دار صادر ،بيروت ، ص ٣١٤ .

(٣) ينظر إلى دور القبائل اليمانية في مساندة الحكم الاموي وتثبيت دعائمه في اطروحة ناجي حسن ، القبائل العربية في المشرق ، خلال العصر الاموي ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، ١٩٨٠ ، ص ٦٩ وما بعدها .

(٤) كان يزيد متزوجا بيت اخي الحجاج ، ينظر ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص٩٩ بصدد احترام الخلفاء السفيانيين والمروانيين لمشاعر القبائل اليمانية ينظر :

(٥) عبدالأمير دكسن ، المرجع السابق ، ص ١٤٢ . ينظر كذلك ناجي حسن ، المرجع السابق، ص ٦٦ ومابعدها .

(٦) ناجي حسن ، المرجع السابق ، ص ١٨٩ وما بعدها .

(٧) المقدسي ، المصدر السابق ، ج ٥ باريس ، ١٩١٦ ، ص ٣٧ . ابن اعثم الكوفي ، كتاب الفتوح ، ج ٨ ، حيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٩٧٥ ، ص ٢٠١ . ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ٧ ، ص ١٣٠ .

(٨) الطبري ، المصدر السابق ، ج ٥ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ ص ٤٥٢ – ٤٥٣. د. نافع توفيق العبود ، آل المهلب بن ابي صفرة ودورهم في التاريخ حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، مطبعة الجامعة ، بغداد ، ١٩٧٩ ، ص ٩٥ .

(٩) البلاذري ، فتوح البلدان ، دار الهلال ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ٣٣١. المقدسي ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٢ . الطبري ، المصدر السابق . ج ٥، ص ٢٣ ، ابن اعثم ، المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٤٠ ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص٢٣. د. نافع العبود ، المرجع السابق ، ص ٩٨.

(١٠) المقدسي ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٦ / ٤٧ . البلاذري ، المصدر السابق ، ص ٣٣١ ،الطبري،نفس المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٥٤/٥٥٨ . ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٩ .

(١١) الطبري ، المصدر السابق ، ص ٥٧٤ . ويؤكد الطبري أن يزيد بن المهلب اخبر عمر ابن عبدالعزيز بأنه لو يعلم ببقائه حيا لما هرب من السجن .
د. نافع توفيق العبود ، المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

(١٢) ابن اعثم ، المصدر السابق ، ج ٨ . ، ص ١. المسعودي ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص٢١٠.ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٨ يذكر ابن الأثير أن عمر بن عبدالعزيز قال : اللهم ان كان يريد بالمسلمين سوءاً فالحقه به وهضه فقد هاضني . ينظر : ابن خلدون المصدر السابق ، م٣ ، ص ٧٦ .

(١٣) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٨٦ ، ويضيف ابن الأثير ان يزيد بن عبدالملك قد توعد ابن المهلب بقوله : « والله لئن وليت يوما لاقتلنك » . فأجابه ابن المهلب : « والله لئن وليت هذا الأمر وأنا حي لأضربن وجهك بخمسين الف سيف» . ص ٨٧. ويذكر ابن خلدون ان ابن المهلب عذب زوجة يزيد بن عبدالملك ورفض تدخل الاخير مما جعله يضمر الكره له ، المصدر السابق ، م٣ ، ص ٧٦ .

(١٤) اليعقوبي ، المصدر السابق ، م٢، ص ٢٩٦ .

(١٥) الطبري ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٧٩ ، ابن اعثم ، المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢. ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٧١ .

(١٦) الطبري ، نفس المصدر السابق ، ص ٥٧٩ ، المقدسي ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص٤٧. ابن اعثم ، نفس المصدر السابق ، ص ٣ . المسعودي ،المصدر السابق،م٣،ص٢١٠ د. نافع العبود ، المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(١٧) الطبري ، نفس المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٨٠ . ابن الاثير ، نفس المصدر السابق، ج٥ ص٧٢
حول تمرد يزيد بن المهلب ينظر ، د. نافع العبود ، المرجع السابق ،ص. ١٠١ وما بعد

(١٨) الأزدي ، تاريخ الموصل ، ت : علي حبيبه ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٩ الطبري ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٧٩ / ٥٨٧ . ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص٧٣/٧ ابن خلدون المصدر السابق . م ٣ ص ٨٧

(١٩) الطبري ، نفس المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٨٨ . ابن اعثم ، المصدر السابق ، ج٨،ص ٨. ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٧٦ يذكر صاحب العيون والحدائق ان ابن المهلب نفى قتادة الفقيه إلى الأهواز بسبب معارضته له ، ص ٢٢ .

(٢٠) الطبري ، نفس المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٥٨٤ . ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص٧٣

(٢١) نفس المصادر .

(٢٢) ابن الأثير ، المصدر السابق الذكر ، ج ٥ ، ص ٧٤. ينظر إلى دور مسلمة ، عواد الاعظمي ، الامير مسلمة بن عبدالملك بن مروان ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، ١٩٨٠، ص ١٧٢ وما بعدها .

(٢٣) الطبري ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٨٨ . ابن اعثم ، المصدر السابق ، ج ٨ ، ص١٢. ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٧٦ .

(٢٤) نفس المصادر .

(٢٥) المصادر نفسها ، العيون والحدائق ، ج٣ مكتبة المثنى ، بغداد ، ص ٧٦.

(٢٦) المقدسي ، المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٤٨. الطبري ، المصدر السابق ،ج٥ ، ص٥٩.ابن اعثم ، المصدر السابق ، ج٨ ،ص ١٤.ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج٥، ص ٧٩ .

(٢٧) الطبري ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٩١ . المسعودي ، المصدر السابق ، م ٣ ، ص٢١٠ – ٢١١ .

(٢٨) الطبري ، المصدر السابق ، ج٥، ص ٥٩١ . .

(٢٩) نفسه ، ص ٥٩٣ .

(٣٠) نفسه . ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٨٠. يذكر الطبري في تاريخه، ج ٦، ص ٥٩٦ ندم السميدع بعد خدعه حرق الجسر وهزيمة عسكر ابن المهلب .

(٣١) المقدسي ، المصدر السابق ، ج ٥، ص ٤٨. اليعقوبي ، المصدر السابق ، م ٢، ص٣١١. الطبري المصدر السابق ، • ج٥، ص ٥٩٦ وما بعدها . ابن الأثير،المصدر السابق ، ج ٥، ص ٨٢ .

(٣٢) الطبري ، نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٦٠٠ .

(٣٣) نفسه ، ص ٦٠٢/٦٠١ .

(٣٤) ابن اعثم الكوفي ، المصدر السابق ، ج٨، ص ٢.

(٣٥) نفسه ، ص ٥٧٧ يذكر ابن الأثير ان ثلاثة جيوش قد تم دحرها من قبل شوذب ،ص ٩٦

(٣٦) ابن الأثير ، المصدر نفسه ، ج٥ ، ص ٧٠/٦٩

(٣٧) حول موقف الخليفة الأموي الذي أمن عقفان ينظر العيون والحدائق ، مؤلف مجهول ج ٣، مكتبه المثنى ، بغداد ، ص ٧٥ .

(٣٨) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج٥ ، ص ١١٩ .

(٣٩) د. محمد ارشيد العقيلي ، الخليج العربي في العصور الاسلامية ، مكتبة الصاحب العين، عمان ، الاردن ، ١٩٨٣ ، ص ١٢٨ وما بعدها .

(٤٠) ابن عذارى ، كتاب البيان المغرب ، ج١ ، دار الثقافة ، بيروت ، ص ٥٧ ، وما بعدها.

(٤١) نفسه ، ص ٤٢. ينظر ايضا عبدالواحد ذنون طه ، الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والأندلس ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ١٩٨٢ ص ١٦٢ وما بعدها .

(٤٢) الطبري ، المصدر السابق ، ج٥ ، ص ١٦١٧ ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج١ ،ت: كولان وبروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، ص ٤٩/٤٨. ابن عبدالحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ليدن ، ١٩٢٠ ، ص ٢١٤ وما بعدها . بينما نجد ان يزيد بن عبدالملك قد حاسب عامل المدينة عبدالرحمن بن الضحاك لانه اساء السيرة بحق فاطمة بنت الحسين بن علي ومحاولته اجبارها على الزواج منه فعزله واوكل بمن قام بتعذيبه رغم توسط مسلمة ابن عبدالملك لدى الخليفة الأموي . المسعودي ، المصدر السابق ، م٣ ، ص ٢٠٧ .

(٤٣) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٣٠٣ ابن عذارى البيان ج ١ ، ص ٤٩. اخبار مجموعة لمؤلف مجهول ، ت : ابراهيم الابياري ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت،١٩٨١ ص ٣١ . ابن عبدالحكم ، المصدر السابق ، ص ٢١٥ .

(٤٤) اخبار مجموعة ، ص ٣١ . البيان ، ج ١ ، ص ٤٩ . ينظر كذلك خليل ابراهيم السامرائي في بحثه الموسوم : جهاد المسلمين وراء جبال البرتات في المصادر العربية ، مجلة دراسات في التاريخ والآثار ، عدد الثاني،١٩٨٢

(٤٥) الطبري ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٦٠٥ ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٩٠. ابن خلدون ، المصدر السابق ، م ٣ ، ص ٨٠

(٤٦) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٥، ص ٩٥. ابن خلدون ، المصدر السابق، م٣ ،ص٨٠

(٤٧) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

(٤٨) نفسه ، ص ١٠٥/١٠٤ ، الطبري ، المصدر السابق ، ص ٨/٧.

(٤٩) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج٥ ، ص ١٠٩/١٠٨ .

(٥٠) نفسه ، ص ١١١/١١٠ .

(٥١) نفسه ، ص ١١٢/١١١ .

(٥٢) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ج ٢، ص ٣١٣ .

(٥٣) الازدي ،، المصدر السابق ، ص ١٧ .

(٥٤) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٥، ص ١١٢ - ١١٣. كذلك ينظر صلاح الدين امين الحياة العامة في ارمينيا ، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص٤٥/٤٧ ص ص ٥٤/٥٥.

(٥٥) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ج٢، ص ٣١٤.

(٥٦) نفسه .

(٥٧) الطبري ، المصدر السابق ، ج ٧، ص ٢١.

(٥٨) الطبري ، المصدر السابق ، ج ٧، ص ٢١. يذكر خليفة بن خياط تاريخ الحملة وهو عام ١٠٥ هـ، كتاب التاريخ ، ج١ ، ص ٣٤٦ التي قادها مروان بن محمد او افتتح حصن قونية وحصن كمخ.

(٥٩) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ٢ ، ت : طه محمد الزيني ، مؤسسة الحلبي ، ص١٠٣ . ينظر كذلك إلى التقويم المستفيض لعماد الدين خليل ،في التاريخ الاسلامي، مطبعة الزهراء ، الموصل ، ١٩٨٥ ، ص ١٤٧ وما بعدها .

دور العرب في الصراع بين الساسانيين والبيزنطيين

سالم احمد محل

كلية الآداب /جامعة الموصل



توطئة :

وضع العرب من القوى الكبرى قبل الاسلام .

(آ) الوضع الجغرافي :

يقع الوطن العربي في القسم الجنوبي الغربي من قارة آسيا ولمساحته الواسعة فانه يتوسط ثلاث قارات هي آسيا وأوربا وأفريقيا، ونظرا لهذا الموقع فقد اصبح عبر التاريخ حلقة الاتصال بين هذه القارات سواء عن طريق المواصلات البرية ،أو عن طريق مسطحاته المائيـــة.

وبالنظر للتنوع الطبيعي في جغرافية الوطن العربي من سهول خصبة وانهار، ومناخ ملائم للانتاج الزراعي لاسيما تلك التي تقع على اطراف الجزيرة العربية كالعراق والشام ومصر، وفي الزاوية الجنوبية من جزيرة العرب في اليمن. فقد استطاع سكان الوطن العربي ان يبنوا

اولى الحضارات الانسانية الاصيلة، فاخترعوا الكتابة والعجلة، وبنوا السدود والخزانات التي أسهمت في تحسين وتطور الانتاج الزراعي. ولم تقتصر ابداعات سكان الوطن العربي على الجانب المادي ،وانما كان لهم شرف حمل جميع رسالات التوحيد التي عرفتها البشرية مما أكمل الصورة الحضارية الابداعية لهم في شقيها المادي والروحي.

وطبقاً لهذه المعطيات فقد أصبح الوطن العربي محط انظار الغزاة والطامعين . فعبر فترات وحقب متباينة تعرض لغزو اجنبي جاءه من المشرق والمغرب على السواء . فقد احتل الكاشيون بابل منذ منتصف الالف الثاني قبل الميلاد ، وما كادت هذه الموجة تتكفيء وتتراجع على ايدي ابناء البلاد حتى تعرض لموجة اخرى هي الموجة الاخمينية التي تمكنت من احتلال بابل عام ٥٣٩ ق.م ولم يقتصر هؤلاء على العراق وانما اخضعوا بلاد الشام ومصر أيضاً (١) .

واما من جهة الغرب فقد تعرض الوطن العربي لغزو اليونان بقيادة الاسكندر المقدوني منذ الثلث الاول من القرن الرابع قبل الميلاد وبعد موته حكمته حكومات يونانية غريبة عن المنطقة في حضارتها وثقافتها وديانتها (البطالسة في مصر، والسلوقيون في العراق والشام) كما غزاه الرومان فسيطروا على المغرب ومصر وبلاد الشام (٢) .

وتعرض العراق لغزو البارثيين ثم الساسانيين (٣). كما تعرضت اليمن لغزو الاحباش مرتين . الاولى منذ منتصف القرن الرابع وحتى نهايته تقريباً ثم طردوا .

والثانية في اوائل القرن السادس حيث انهم قضوا على الدولة الحميرية بقيادة ذي نواس سنة (٥٢٥ م) (٤) وكانت هذه الاقوام الغازية للوطن العربي تتصارع فيما بينها وتقتتل مما جعل الوطن العربي ساحة لصراعها وقتالها ، كما كان « كل منها يمارس دوره في النهب الحضاري والاقتصادي ، ويعمل على طمس مقومات الشخصية العربية وتخريب الثقافة القومية ، وحرف التطور التأريخي في الوطن العربي عن مجراه الخاص بالشكل الذي يلائم سيطرته » (٥) .

ويمكننا ان نستنتج في ضوء هذه المعطيات الجغرافية لموقع الوطن العربي أن موقعه الوسط هذا قد حتم وقوعه دائما بين قوى دولية كبرى فثمة الاخمينيون والبارثيون والساسانيون في الشرق واليونان ثم الرومان والبيزنطيون من جهة الغرب : وكان لاهمية الموقع الجغرافي للوطن العربي على خطوط التجارة العالمية ومرورها عبر اراضيه ، والدور الحضاري المتميز لسكانه عبر التأريخ أثره في جعله المحور السوقي في سياسات تلك القوى

وصراعاتها فيما بينها . فكانت خسارة الوطن العربي فادحة على المستويين الاقتصادي والحضاري .

وكانت القوى الكبرى القائمة خلال الفترة موضوعة البحث ، والمؤثرة في الوطن العربي الساسانيين والرومان ثم البيزنطيين . ولهذا فعلينا ان نعالج اثر هذه القوى الكبرى على العرب والذي يتجسد في التبعية السياسية .

(ب) التبعية السياسية :

مما لاشك فيه انه لم يكن للعرب دولة موحدة قبل الاسلام يخضعون لها بالمعنى الذي يعنيه مفهوم الدولة الآن « من حيث هي نظام منفصل عن الجماعة ومستقل عنها في وظيفته، ومن حيث ان لهذا النظام سلطانا يخضع له الناس » (٦) .

وانما كانت القبيلة هي الوحدة السياسية التي يدين لها الافراد بالولاء وكان شيخ القبيلة هو زعيمها الذي يتولى قيادتها في الحرب ، او عقد المحالفات مع القبائل الاخرى ، او فض المنازعات التي قد تحدث بين افراد القبيلة نفسها ، غير ان القبيلة لم « تكن هيئة لها نظامها الخاص ، ولا كان لها ارض محددة ، فليس هنالك موظفون يديرون شؤون الجماعة بالمعنى الذي نعرفه في الدولة » (٧) . ولما كان العرب في الجزيرة باستثناء اليمن ، يتكونون من عدد كبير من القبائل ، لذا فقد تعددت ولاءات الافراد فأصبح كل فرد يوالي قبيلته التي يرتبط بها برابطة الدم . وهذا هو ماأخر ظهور مد وحدوي بحيث يصبح الولاء جميعا لهيئة تمثل مجموع العرب في الجزيرة العربية يمكن أنّ يطلق عليها مصطلح : الدولة .

غير انه كانت هنالك محالفات تتم بين قبيلتين او تتسع احياناً لتشمل مجموعة قبائل وفي هذه الحال يصبح ولاء الافراد للحلف القبلي ،فتتسع بذلك دائرة الولاء. وهذه الحالة اكثر تطورا من ظاهرة (الولاء للقبيلة،وهي تعد أيضاً خطوة الى امام على طريق اي شكل من اشكال الوحدة او الاتحاد. غير ان تلك المحالفات ليست ثابتة. فيمكن لقـــبيلة ان تخرج من ذلك التحالف وقد تدخل في تحالف اخر عندما ترى فيه القدرة على تحقيق مصالحها. الا أن اكثر التحالفات القبلية كانت لها صفة الدوام والاستمرار مدة جيل او جيلين احيانا. وهذا شعور من القبيلة الواحدة بان قوتها وهيبتها يكمنان في التحالف مع قبيلة او قبائل أخرى، وفي ذلك تقليل من النزعة الفردية (٨) . وقد تميزت الفترة التي

سبقت ظهور الاسلام بقرن تقريبا بكثرة المحالفات القبلية، بحيث تبدو وكأنها جاءت ممهدة للنهضة العظيمة التي جاء بها الاسلام (٩) .

وفي الجزيرة ايضا كانت هناك حواضر ذات طابع مدني كمكة. المدينة التجارية والدينية والطائف ،ويثرب غير ان هذه الحواضر كانت تقوم على الرابطة القبلية. ففي مكة قريش ببطونها وافخاذها المختلفة. وفي الطائف ثقيف. اما في المدينة فكان فيها الأوس والخزرج ثم اليهو د، ولهذا فلم تكن هذه الحواضر تشكل دويلات مدن كتلك التي كانت في زمن اليونان (١٠) اما اطراف جزيرة العرب فقد شهدت قيام كيانات سياسية، ففي اليمن كان يقوم نظام سياسي ملكي وصل الى درجة متطورة من النضوج وكان نظاماً ثابتاً ومستقراً. لأن مجتمع اليمن مجتمع مدني اعتاد الخضوع لحكومة مركزية (١١). غير ان الغزو الحبشي لليمن سنة ٥٢٥م ادى الى تدهور احوال اليمن ،ولما انتهت السيطرة الحبشية على اليمن حوالي سنة ٥٧٦م خضعت للساسانيين باستثناء فترة الحكم الوطني لسيف إبن ذي يزن التي تمتد من طرد الاحباش وحتى مقتله وقد احتلت عند ذلك من قبل الساسانيين واصبحت ولاية فارسية الى ان جاء الاسلام فصارت بعد ذلك جزءاً من الدولة العربية الاسلامية الموحدة التي مركزها المدينة (١٢). وفي الشمال الغربي من الجزيرة العربية كانت دولة الانباط ذات الموقع التجاري الممتاز حلقة الاتصال بين الشام ومصر والجزيرة العربية واليمن (١٣)

وقد سقطت هذه الدولة على يد الرومان سنة ١٠٦م مما افسح المجال لانتعاش دولة عربية اخرى تقع في البادية السورية هي مملكة تدمر (١٤) .

وكانت حياة تدمر قائمة على التجارة من خلال موقعها المتميز «في طرف البادية التي تفصل الشام والعراق» (١٥) فهو بمثابة «عقدة من العقد الخطيرة في العمود الفقري لعالم التجارة بعد الميلاد تمر بها القوافل تحمل اثمن البضائع في ذلك الوقت» (١٦) فكانت البضائع القادمة من الهند وايران والاجزاء الشرقية من الجزيرة العربية لابد لها ان تمر بتدمر. وكذلك فأنها كانت تستقبل البضائع القادمة من مصر والشام، وكانت على صلة ايضاً بتجارة العربية الجنوبية (اليمن) والهند وافريقيا وغرب الجزيرة العربية (١٧).

وقد اتاح هذا العامل انتعاش تدمر وازدهارها الحضاري في تلك المنطقة . غير ان قيام الدولة الساسانية (سنة ٢٢٦م) قد عاد بأضرار فادحة على تدمر . فقد احتل الساسانيـــون «مصبات دجلة والفرات» كما احتلوا «مملكة قرخيدونيا (ميسين) ذات الاستقلال الذاتي

عند شط العرب ، وسدت على التدمريين طريق الخليج العربي وخنقت تجارتهم في هذا الاتجاه» (١٨) فأصبحت الطرق التجارية تبتعد عن تدمر وتغادرها « نحو الشمال عبر سهول نصيبين والرها الى انطاكية » (١٩) . وكذلك نحو الجنوب عن طريق اليمن ومكة فكان ذلك موجباً على ملوك تدمر في اتخاذ كافة التدابير التي من شأنها مواجهة هذا التحدي فأخذوا «يؤازرون روما لاحباط مشاريع الساسانيين التوسعية» (٢٠). وكانت تدمر تعد ضمن البلدان التابعة للرومان منذ عهد الامبراطور طيبريوس (١٤ - ١٧م) ؛ غير انها لم تكن خاضعة لهم خضوعاً تاماً ؛ حيث كان الاشراف على شؤون تدمر من اختصاص اهلها ، غير انها كانت تقدم للرومان قوات من خيالتها المقاتلة بالنبال (٢١).

وقد اشتهرت بحكم تدمر اسرة وطنية هي اسرة اذينة بن خيران الذي أطلق على نفسه لقب «ملك» وبدأ يجمع الناس حوله فخاف الرومان مما يمكن ان يترتب على دعوة اذينة هذه من مخاطر على مصالحهم فأوعز القيصر الى احد القادة الرومان وهو روفينوس بأغتياله فقتله وتخلص الامبراطور منه (٢٢) . وقد خلف اذينة ابن له هو اذينة الثاني الذي طلب من الامبراطور فالريان (٢٥٣ - ٢٦٠م) ان ينزل العقاب بروفينوس ، غير ان هذا لم يأبه لطلبه مما زاد في كره اذينة وحقده على الرومان ، وظل يتحين الساعة التي يستطيع بها الانتقام منهم .

ولما هاجم سابور الاول (٢٤١ - ٢٧٢م) ملك ملوك الدولة الساسانية الامبراطورية الرومانية ونجح في أسر الامبراطور فالريان عند الرها مع مايقرب من (٧٠) الف جندي روماني وواصل زحفه فتوغل في سوريا حتى انطاكية وطرسوس وقيصرية كبدوكية سنة ٢٦٠م (٢٣) فرح أذينة الثاني بانتصارات الساسانيين على الرومان تشفياً بهم ، واراد ان يغيظهم فارسل رسله الى سابور الاول محملين بالهدايا ومعهم كتاب منه الى سابور يطلب منه مصالحته ومحالفته (٢٤) .

غير أن سابور رفض هدايا أذينة ، وعد طلبه في التحالف معه اهانة له وهو سابور آسر الامبراطور فالريان وهازمه ، وطلب من رسل أذينة ان يبلغوه أن يأتي الى سابور ويداه مغلولتان الى الوراء والا سوف يهلكه ويهلك اسرته ويدمر تدمر (٢٥) .

فلما عاد رسل اذينة واخبروه بما جرى لهم مع سابور غضب اذينة ؛ وجمع القبائل الموالية له على اطراف تدمر وجعلها تحت قيادة ولده (هيروديس) واعطى قيادة فرسان تدمر إلى (زيدأ) كبير قادته ، اما قائده (زباي) فقد ضم اليه قواسي تدمر . واستعان أيضاً

ببعض الكتائب الرومانية وبقايا فلول جيش فالريان الاسير . وقاد هذا الجيش بأتجاه المدائن ، عاصمة الساسانيين ، للانتقام من سابور ولفك أسر الامبراطور فالريان (٢٦) .

وأراد أن يستغل انتشار قوات سابور في سوريا وذلك بقطع خط الرجعة عليه بمهاجمة عاصمته وفي أثناء زحفه على المدائن بلغته انباء انتصار القائد الروماني كاليستوس) على الفرس فغير اتجاهه واسرع اليهم «وقد ادركهم قبل تمكنهم من عبور نهر الفرات، فالتحم بهم وتغلب عليهم وولى (سابور) مع فلول جيشه مذعوراً تاركاً امواله وحرمه غنيمة بيد التدمريين» (٢٧) .

وقد كتب اذينة إلى الامبراطور كاليانوس بن فاليريان يخبره بهزيمة الفرس ففرح الامبراطور بذلك وانعم على اذينة بلقب «قائد عام على جميع عساكر المشرق وحثه على مواصلة الحرب لانقاذ والريانوس (*) والده من الاسر» (٢٨) .

وكان لفعاليات اذينة العسكرية بوجه الفرس نتائج مثمرة فقد استعاد الجزيرة ونصيبين وحران . فلما عاد استقبل مع جنوده استقبالاً عظيماً يتناسب مع النصر الذي تحقق على يديه ضد الفرس (٢٩) .

ولم يكن النصر الذي حققه خاتمة فعالياته العسكرية ضد الساسانيين ، فقد كرر هجومه على بعض ممتلكاتهم بين عامي ٢٦٢م. و٢٦٧. ففي سنة ٢٦٤م سار بجيشه نحو العاصمة الساسانية المدائن فذعر سابور الاول وجمع كل ما عنده من قوة للدفاع عن العاصمة ؛ غير ان تدابير سابور لم تستطع ايقاف زحف التدمريين الذين وصلوا العاصمة وحاصروها، ووضعت المجانيق وآلات الحصار لفتحها ، فانهار سابور ، وأوشك ان يطلب الامان من اذينة . غير ان خروج القائد الروماني مكريانوس على الامبراطور كاليانوس واعلانه لنفسه قيصراً على آسيا الصغرى ومصر وفلسطين والشام اضطر اذينة إلى أن يرفع الحصار عن المدائن ويعود إلى تدمر لمواجهة التطورات الجديدة (٣٠) .

وكان اذينة يكره مكريانوس ويخشاه على سلطته وحكمه في تدمر ، غير ان مكريانوس قتل فتخلص منه اذينة (٣١) .

لقد كان لاذينة دور واضح في الصراع الساساني الروماني في عهد سابور الاول وكانت فعالياته في مجملها مؤثرة على الساسانيين وعلى جانب من الاهمية بالنسبة للرومان . وقد عبر عن هذه الحقيقة المؤرخ الانكليزي جيبون عندما قوّم انتصارات اذينة بقوله :

(*) والريانوس : اي فاليريان

وهكذا احتفظ سوري او عربي من تدمر لروما بعظمتها التي امتهنها الفرس» (٣٢)

واغتيل اذينة الثاني على يد ابن اخيه (معنى) الذي عدّ عمه مغتصباً لحقه في ارث والده وربما كان ذلك بمؤامرة دبرها الرومان ونفذها معنى ، غير ان معنى قتل ايضاً بسيوف اهالي حمص سنة ٢٦٧م فتولت ارملة اذينة الثاني زنوبيا العرش وصية على ولدها وهب اللات إبن اذينة الثاني (٣٣) .

اظهرت زنوبيا رغبتها في استقلال تدمر على الرومان وخلعها لنير التبعية الرومانية . وهو اتجاه ليس جديداً في هذه الأسرة ، فاحتلت مصر واجزاء من آسيا الصغرى (٣٤) .

ويبدو ان نزعة تدمر الاستقلالية ومحاولة انتهاجها سياسة حيادية بين الساسانيين والرومان هو خوفها من فقدانها لمكانتها الاقتصادية وهذا هو ما يؤدي إلى فقدانها لهيبتها بين القبائل العربية في سوريا . ولذلك فقد كانت زنوبيا تسعى من وراء احتلالها لآسيا الصغرى ومصر للحصول على مرافق اقتصادية جديدة ترفع من منزلتها وهيبتها في نظر القبائل العربية .

كما ان سياسة الدولتين الكبيرتين (الرومانية والساسانية) تعمل على اجهاض اية محاولة من جانب الكيانات الصغيرة التي تخضع لتبعيتها للاستقلال وخلع نير التبعية عنها .

لذلك فقد قضي على تدمر سنة ٢٧٢م من قبل الامبراطور اورليان واسرت زنوبيا ، وصارت تدمر إلى جماعة اخرى من العرب التنوخيين ، ثم السليحيين حتى تمكن الغساسنة من القضاء عليهم سنة ٢٩٢م (٣٥) .

فكان مصير تدمر شبيهاً بمصير الحضر التي سقطت على يد الساسانيين في عهد سابور الاول (حوالي سنة ٢٤٠م) (٣٦) .

وفي عهد سابور الثاني (٣٠٩ — ٣٧٩)م الذي عرف عنه كرهه وحقده على العرب ، حتى انه هاجمهم في خط (٥) والكاظمة وهجر والبحرين واليمامة فأعمل فيهم السيف قتلا ، وثقب اكتاف من أسرَهُ من العرب حتى لقبوه بذي الاكتاف (٣٧) . هاجم الامبراطور الروماني يوليان (٣٦١ — ٣٦٣م) بلاد فارس وتوجه صوب المدائن فأنضم العرب الى جيش يوليان الذي تمكن من احتلال سلوقية المواجهة للمدائن على الضفة الغربية من دجلة غير انه قتل في اثناء محاصرته للمدائن سنة ٣٦٣م (٣٨) .

---

(٥) من المرجح ان يكون سقوط الحضر بعد سنة ٢٤٠ م لأن اردشير توفي سنة ٢٤١ وتوج سابور الاول بعده ولهذا فان سقوط الحضر يجيء في ٢٤١ اوفيما بعدها الى سنة ٢٤٥ .

وعلى الرغم من عدم معرفتنا بحجم القوة العربية التي اشتركت في القتال الى جانب الرومان ضد الساسانيين ، والى اي حد كان دورها فعالاً ،الا ان تدابير سابور الثاني مع القبائل العربية التي سبق له ان بطش بها مؤشر على عدم تجاهل دورهم في تلك الحرب . فحاول((التقرب من العرب فأسكن قبائل تغلب وعبد القيس وبكر بن وائل كرمان توج والاحواز)) (٣٩) .

دوافع قيام امارتي الغساسنة والمناذرة :

ومن هنا فأن العرب الذين حكموا تدمر قد خضعوا للرومان بعد سقوط دولتهم في تدمر ، كما خضعت القبائل العربية الاخرى التي حاولت ان تسد الفراغ الذي تركه سقوط تدمر سواء كانوا من التنوخيين او السليحيين او الغساسنة .

وكان الغساسنة الذين استطاعوا ان يقضوا على نفوذ السليحيين ابتداء من سنة ٢٩٢م قد أخذوا يمهدون الطريق لأنفسهم لتأسيس كيان لهم في بلاد الشام ، غير ان الغساسنة سرعان ماوقعوا في شراك التبعية للرومان الذين ارادوا .. ان يستفيدوا منهم في ضبط حدود سوريا الشرقية المفتوحة ، وان يمدوا بواسطتهم نفوذهم على القبائل العربية ، ويجعلوهم دولة حاجزة بين سوريا والساسانيين ، ويستخدموهم في حروبهم وحملاتهم في الشرق الاوسط)) (٤٠). فأصبح بذلك العرب في بلاد الشام يرزحون تحت التبعية الرومانية .

اما في العراق فقد اخذت القبائل العربية التي اعتادت الانتقال من الجزيرة العربية الى العراق والاستيطان في الضفة الغربية من نهر الفرات ان تستفيد من حالة الضعف التي كانت تعيشها الدولة البارثية في اواخر حياتها ، فصارت تتمتع بشيء من الاستقلال ،وكان موقعهم على طرق التجارة بين البارثية والشام اضطر اصحاب القوافل والتجار من تدمر وغيرها الى استرضاء هذه القبائل بدفع مبالغ من المال لشيوخها وزعمائها (٤١) .وقد برز مالك إبن فهم وعمرو بن فهم وجذيمة الابرش زعماء اقوياء قادت تلك القبائل التي استقرت في وادي الفرات لاسيما جذيمة الذي عاش في اواخر عهد الدولة البارثية فعاصر بذلك سقوطها كما وسع نفوذه على حسابها في الضفة الشرقية من نهر الفرات (٤٢) .

ولما قامت الدولة الساسانية تحالف مع الساسانيين بخلاف موقف بعض القبائل العربية التي تركت العراق واتجهت للشام بعد قيام تلك الدولة (٤٣) .

ويلاحظ ان الساسانيين لم يتعرضوا لجذيمة ، بل تركوه يحكم المنطقة الواقعة قريباً من نهر الفرات . ويعود السبب في ذلك ربما الى رغبتهم في المحافظة على الأمن على حدودهم الغربية والحيلولة دون توغل القبائل البدوية داخل العراق (٤٤) .

وبذلك فأن الهدف الساساني السوقي من امارة الحيرة يكاد يطابق هدف الرومان نفسه في موضوع علاقتهم بالغساسنة فكل من الدولتين ارادت من هذين الكيانين العربيين ان يقف بوجه القبائل العربية القادمة من الجزيرة الى العراق والشام . وبذلك فأن سكوت الساسانيين عن قيام امارة عربية ، اتخذت من الحيرة عاصمة لها ، يعني محاولة الساسانيين استغلال هذه الامارة لأغراضهم السياسية مما انزل هذه الامارة بمنزلة التبعية للدولة الساسانية.

(ج) الكيانات العربية المستقلة :

والآن ننتقل من حالات التبعية التي رأينا العرب يقعون تحت وطأتها تحت حكم الساسانيين والرومان في كل من العراق والشام . فنتجه الى اليمن التي كانت تمثل الدولة العربية الوحيدة بمفهوم الدولة التي تنعم بالاستقلال ، الى جانب دولة كندة في نجد التي اعتمدت في سيطرتها وحكمها للقبائل العربية على ملوك اليمن .

لنرَ ماهو موقفها مما كان يحدث بين القوى الكبرى من حولها ؟

كانت اليمن بموقعها في الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة العربية تمثل نقطة اتصال تجاري بين عالمي جنوب آسيا وجنوب شرق افريقيا . وشمال الجزيرة والشام ومصر ، سواء بواسطة الطريق البري (القوافل) او الطريق البحري الذي يميز موقعها باطلالتها على البحرين (الاحمر وبحر العرب الذي يفضي الى المحيط الهندي) (٤٥) .

كما ان انتاج اليمن للأفاويه والعطور والبخور التي كانت اوربا ومصر بأشد الحاجة اليها لاسباب دينية (حيث كانت تستخدم في المعابد) زاد من نشاط الحركة التجارية من اليمن واليها (٤٦) .

وكانت الدولة الحميرية هي آخر دولة عربية حكمت اليمن منذ حوالي عام ١١٥ق.م ــ ٥٢٥م . وقد ازدهرت الحياة الاقتصادية في هذه الدولة ، مما جعلها عرضة لمطامع الاحباش الذين غزوها سنة ٣٤٠م ودامت سيطرتهم عليها مدة ثلاثين سنة تقريباً حتى تمكن الحميريون من طردهم (٤٧) .

وهناك رأي مفاده أن احتلال الاحباش لليمن جاء نتيجة للتحالف بين الاحباش والرومان

واراد الرومان من ورائه السيطرة على الجزيرة العربية والقبائل التي كانت تنتشر في وسطها وخاصة قبيلة كندة التي اصبح وجودها مثير لقلق الرومان . (٤٨)

وقد برز احد ملوك اليمن وهو ابو كرب اسعد عندما غزا المناطق الشمالية من الجزيرة العربية مستهدفاً توحيدها تحت نفوذه أو على اثر هذه الحملة التي قام بها ابو كرب اسعد ظهرت امارة كندة على يد «حجر آكل المرار» سنة ٤٢٠م ومنذ هذا التاريخ اصبحت دولة كندة حليفاً للحميريين في اليمن . (٤٩) وقد استطاع حجر هذا أن يوسع نفوذه على القبائل العربية في الحجاز والاجزاء الشمالية من الجزيرة العربية والبحرين واطراف العراق حيث غزا المناذرة هناك . (٥٠)

وقد كان لحفيده الحارث بن عمرو بن حجر اكبر اثر في توسع كندة وزيادة هيبتها على القبائل العربية في الجزيرة العربية عن طريق المصاهره او القوة في بعض الاحيان . فعين اولاده أمراء على بعض القبائل العربية ، فقد عين ولده «حجرا على اسد وكنانة وغطفان، وهم يقطنون عند وادي الرمة بين جبل شمر وخيبر . وعين شرحبيل على بكر وحنظلة والرباب وتميم ، وهم يقيمون في شرقي نجد بين الفرات والبحرين . وعين سلمة على تغلب والنمرين قاسط ومساكنهم بادية الشام . ومعد يكرب على قيس عيلان وهم يقطنون في تهامة واطراف الحجاز» (٥١) كما نجح في أن يمد نفوذه الى الحيرة في العراق ، ويزيل المنذر بن ماء السماء بتأييد من الملك الساساني قباذ ، غير انه لم يتخذ الحيرة عاصمة لــــه بل ظل جوالا . (٥٢) وربما يعود ذلك الى اهمية موقع كندة في القلب من المناطق التـي تخضع لنفوذه والتي يحكمها ابناؤه الاربعة . او انه لم يثق بالساسانيين فآثر ان لايكـون تحت سلطتهم المباشرة . وقد يكون في موقف الحارث هذا ماأثار الشبهات الساسانية من حوله مما جعل انوشوان ينحاز الى المنذر بن ماء السماء طريد الحارث فينصره على الحارث. (٥٣) وان كان هناك رأي يتناقله المؤرخون العرب عن موافقة الحارث لقباذ في انحيازه للمزدكية بعد ان رفض المنذر طلب قباذ فولى قباذ الحارث وطرد المنذر ، فلما ارتقى انو شروان العرش ونكل بالمزدكيين اعاد المنذر وطرد الحارث . (٥٤)

وقد نكل المنذر بآل آكل المرار وقتل عدد منهم مماضعف نفوذهم على القبائل العربية الامر الذي كان ايذاناً بزوال هذه الدولة العربية التي كانت محاولتها في ضبط القبائل العربية في صيغة اتحاد قبلي خطوة على طريق وحدة العرب يومذاك .

المعطيات التأريخية للدور العربي في الصراع بين القوى الكبرى :

(آ) البعد الحضاري :

تبين لنا مما سبق عرضه أن الامكانيات العربية في امكانية لعب دور جديد متوفرة جغرافياً واقتصادياً وسياسياً .

فموقع الوطن العربي المتوسط بين ثلاث قارات جعل منه جسراً يربط بين سكان وشعوب القارات الثلاث كما ان تراثه الحضاري يمكنه من اخذ زمام المبادرة ويرشح سكانه للقيادة وهي حالة فريدة يكاد يتميز بها الوطن العربي .فقد شهدت ارضه ولادة جميع رسالات التوحيد التي كانت ترتفع بالانسان إلى مدارج متطورة ومتقدمة من المثل والقيم الخيرة التي تنشدها الانسانية في كل مراحل حياتها .

وقدم للانسانية المفردات الحضارية الاساسية عندما اخترع الانسان في هذا الوطن الكتابة وهي عنصر أي تقدم بشري حضاري ، اذ انها الوعاء الذي حفظ التجارب البشرية . فضلاً عن اختراع العجلة وما وفرته على الانسان من جهود في اختصار المسافات .

كما ان موقع الوطن العربي في القلب من العالم القديم ، واحاطته بمسطحات مائية تفصل بينه وبين عوالم مختلفة عنه من ناحية طبيعة الانتاج وتنوع مصادره ، والظروف الطبيعية السائدة ، والمستوى الحضاري المتباين كعالم جنوب شرقي آسيا المختلف حضارياً وانتاجياً عن عالم شمال وغرب البحر المتوسط (جنوب وجنوب غرب اوربا) . وكذلك الحال بالنسبة لعالم غرب البحر الاحمر ، حيث تتنوع المنتجات الافريقية ، مع مستوى حضاري اقل تطوراً من عالم اوربا وجنوب شرق آسيا . استلزم ظهور حركة واسعة لنقل البضائع بين تلك العوالم المختلفة . وحتم ذلك مرور طرق التجارة عبر الوطن العربي سواء كانت برية أو بحرية . وهذا مما زاد من الازدهار الاقتصادي في بعض الاقاليم والحواضر العربية (اليمن – الانباط – الحضر – تدمر – مكة) . وعلى ذلك يمكننا ان نستنتج أن القاعدة الجغرافية التي تتمثل في الموقع واهميته قائمة في الوطن العربي ، بل ان موقعه المتميز يمنحه كثيراً من الاولويات السوقية ، كذلك فإن الركائز والدعائم الاقتصادية متوفرة وقادرة على ان تسد احتياجات دولة موحدة قوية ، كما ان التراث الحضاري للوطن العربي وتراكماته الثرة وتجاربه القديمة في اقامة امبراطوريات كبيرة موحدة قوية تجعل امكانية اعادة التجربة في بناء دولة مركزية عربية موحدة امراً قابلاً للتحقيق . غير انه لم يتحقق ، طيلة ما يقرب من الف عام (منذ سقوط بابل على يد الاخمينيين سنة ٥٣٩ حتى الفتوحات الاسلامية)

والسبب هو ان العرب لم يكن لديهم طيلة هذه الفترة فكرة او عقيدة يجتمعون عليها فتوحدهم ، فكان غياب القاعدة الفكرية هو الذي أخر من ظهور دولة عربية موحدة تجمع العرب جميعاً طيلة تلك الحقبة الطويلة (الف عام) على الرغم من توفر عناصرها الأخرى(البشرية والاقتصادية والحضارية) . كما لعبت القوى الكبرى يومذاك دوراً خطيراً في ابقاء العرب متفرقين وحاولت منع اية بوادر وحدوية تهدف إلى جمع شمل العرب في دولة واحدة فركزت بذلك التجزئة في الوطن العربي . بل انها استطاعت ان تدخل ثقافاتها الوثنية إلى الجزيرة العربية ، اذا اخذنا بالرواية القائلة بأن عمرو بن لحي هو الذي ادخل عبادة الأوثان إلى مكة «وهكذا انتشرت عبادة الاوثان في الجزيرة العربية ، وشاع في اهلها الشرك ، فأنسلخوا بذلك من عقيدة التوحيد واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره» (٥٦) . وقد جاء عمرو بن لحي بهذه الاصنام من الشام وقيل من العراق ولما كانت الشام محتلة يومذاك للرومان ،وكذلك العراق للساسانيين اذن فالرواية «توحي بتأثير ثقافات الدول الكبرى في العرب وتشجيعها للظواهر المخلة بجوهر التكوين الحضاري لهم»(٥٧).

(ب) البعد السياسي :

لم يكن الصراع الساساني ــ البيزنطي جديداً على المنطقة العربية ،بأعتبار انكلتا القوتين «الدولة الساسانية ــ والبيزنطية» تحتلان اجزاءاً مهمة من الوطن العربي ،وانما كان هذا الصراع بينهما امتداداً للصراع التأريخي بين الاخمينيين واليونان ، وبين البارثيين والرومان وانه لم يكن منفصلاً عنه في اهدافه وغاياته .

وكان احد الاسباب المهمة والرئيسة لكل هذه الصراعات هو السيطرة على الطرق التجارية التي يمر اكثرها واهمها عبر الوطن العربي . ولهذا اشتدت المنافسة بين تلك القوى الامر الذي كان يلجيء بعض هذه القوى او كلها إلى استخدام القوة من اجل ابقاء تلك الطرق تحت سيطرتها ، او السيطرة عليها عندما تكون تحت سيطرة قوة كبرى اخرى (٥٨) ولذلك اصبح الوطن العربي ساحة للصراعات الدامية بين تلك القوى المتصارعة . كذلك فإن تلك الصراعات بين القوى الكبرى تعكس رغبتها في الاستحواذ على مناطق النفوذ ، وفرض الهيمنة على الامم الاخرى . فضلاً عما كان يبغيه الحكام من العظمة والمجد . فقد اطلق كورش على نفسه لقب «ملك الجهات الاربعة ، ملك العالم ، ملك بابل» (٥٩) على اثر دخوله بابل سنة ٥٣٨ ق.م وهو لقب لا يخفى ما ينطوي عليه من الشعور بالقوة والعظمة والمجد ، كما لا يخفي ما كانت تشكله بابل في نظر ساسة العصر من مكانة وحضارة يومذاك .

ولم تكن هذه الصورة لبابل او للعراق بغائبة عن اذهان الساسانيين .

وهم الذين عدّوا انفسهم الورثة الشرعيين للاخمينيين (٦٠).ولهذا فلم يمض وقت طويل على قيام دولتهم سنة ٢٢٦م حتى نقلوا عاصمتهم من اقليم فارس إلى طيسفون في العراق .

فأقليم فارس لايناسب دولة قوية – كما يبدو – كالدولة الساسانية لا في حضارته ولا في امكانياته الاقتصادية . فأختاروا العراق .

وكان اختيارهم للعراق يشير الى رغبتهم في التوسع بأتجاه الغرب (بلاد الشام ، مصر) وهي البلاد التي سبق للاخمينيين السيطرة عليها . ويعكس رغبتهم في ان يكونوا قريبين من حدود خصومهم الرومان (٦١) .

الصراع واثره في تعميق ظاهرة الانقسام العربي :

لقد كان للصراع الساساني – البيزنطي(*) اثره الخطير على الوطن العربي . فبالاضافة الى كون الساسانيين والبيزنطيين يحتلون اجزاء مهمة من الوطن العربي (العراق والشام ومصر وشمال افريقيا) ويمارسون تخريباً حضارياً وثقافياً، وينهبون خيرات تلك البلاد، فقد دخلت اطراف عربية في هذا الصراع وهم المناذرة (في العراق) والغساسنة (في الشام) وتأثرت به اليمن أيضاً بشكل او بآخر .

وسنستعرض دور المناذرة والغساسنة واليمن في هذا الصراع والآثار التي ترتبت عليه وانعكاساته على المنطقة العربية ، من خلال الوقائع الكبرى التي وقعت بين المناذرة والغساسنة

(ج) العرب (المناذرة والغساسنة) ودلالات الوقائع التأريخية :

لاول مرة نسمع عن دور المناذرة في مساعدة الساسانيين ضد البيزنطيين سنة ٤٢١م في عهد المنذر بن النعمان ملك الحيرة .

فقد ذكر ان بهرام جور (٤٢٠ – ٤٣٨م) قام باضطهاد النصارى في الدولة الساسانية، فأدى ذلك الى تدخل البيزنطيين لدرء الاضطهاد عن اخوانهم في الدين في ايران بشن الحرب على الدولة الساسانية (٦٢) .

(*)لقد انتصر الصراع الساساني – الروماني على الفترة الممتدة من قيام الدولة الساسانية سنة (٢٢٦م – ٣٩٥م) حيث اصبحت التسمية بعد عام ٣٩٥ للامبراطورية الرومانية في الشرق هي «الامبراطورية البيزنطية» انظر فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين تعريب جورج حداد – عبد الكريم دافق دار الثقافة بيروت، ١٩٥٨ ج١ ٢ ص ٣٨٨ .

فطلب بهرام من المنذر ان يقدم له العون في هذه الحرب التي لم يكن موقفه فيها على مايرام . فلبى المنذر طلبه وهاجم البيزنطيين في بلاد الشام ، غير انه لم يحقق شيئاً ، بل ان عدداً من جنوده غرق وهو يحاول عبور نهر الفرات لكنه لم ييأس وعاود الهجوم الا انه فشل كذلك فعاد الى الحيرة (٦٣) .

وقد نقل عن احد المؤرخين المعاصرين لهذه الحرب أن عدداً من غرق من جنود المنذر في اثناء محاولته عبر نهر الفرات كان زهاء مائة الف رجل (٦٤) وقد ارتأب الدكتور جواد علي في صحة هذا العدد الكبير من الغرقى (٦٥) وفعلاً فان هذه الرواية لاتتناسب مع الواقع . فكم كان جيش المنذر لكي يكون عدد الغرقى منه فقط مائة الف ؟ وهل كان في امكان امارة الحيرة يومذاك تقديم مثل هذا العدد من الجنود ؟ وانتهت الحرب بصلح بين الطرفين جاء عموماً لصالح البيزنطيين (٦٦) .

وخلال الفترة من نهاية عهد المنذر الاول ٤٦٢م وحتى عهد النعمان بن الاسود سنة ٤٩٨م يسود الهدوء العلاقات بين المناذرة والغساسنة .

إلا أن النعمان يعلن الحرب على الغساسنة والبيزنطيين بمهاجمتهم غير أنه خسر في موقعة البئر التي وقعت سنة ٤٩٨م على مايرجحه جواد علي (٦٧) .

وفي سنة ٥٠٢م اندلع القتال بين الساسانيين والبيزنطيين فطلب قباذ من النعمان الثاني (ابن الاسود) ان يهاجم البيزنطيين ، وهو طلب ينطوي على مدى تبعية المناذرة للساسانيين فاستجاب النعمان وبدأ هجومه في منطقة حران غير انه هزم على يدي القائدين اولمبيوس واجينيوس ، ثم اعاد الكرة فانتصر عليهما في المعركة التي دارت رحاها قرب قرقيسياء على نهر الخابور بعد ان اصيب بجرح بليغ في رأسه مات على اثره (٦٨) وهناك رواية ترى انه قتل في اثناء حصار الرها من قبل قباذ سنة ٥٠٣ أو ٥٠٤م حيث كان النعمان يرافقه في هذا الحصار (٦٩) وفي اثناء غياب النعمان عن الحيرة ، يهاجمها بنو ثعلبة ، القاطنون في الشام والحيرة ، بقصد التأثير على جبهة الفرس وحلفائهم المناذرة وينهبونها. ولم يتمكن من كان فيها من رجال النعمان الدفاع عنها فآثروا الهرب نحو البادية (٧٠) .

وبنو ثعلبة هؤلاء حسب رواية ابن سعيد هم من الغساسنة ، بل ومن العائلة المالكة وهم ابناء ثعلبة بن عمرو بن جفنة (٧١) غير ان هذه المسألة ماتزال غير محسومة ولكن الاكيد في الامر هو ان الغساسنة كانوا وراء هذه العملية أو أنهم أيدوها وباركوها ، لان مهاجمة الحيرة ونهبها كان في مصلحة الغساسنة (آل جفنة) والبيزنطيين .

وطيلة فترة عشر سنوات وهي الفترة الممتدة من وفاة النعمان الثاني ابن الاسود سنة ٥٠٣ وحتى حكم المنذر الثالث ابن ماء السماء سنة ٥١٣م تتوقف الحرب بين المناذرة والغساسنة بسبب تطورات وقعت في امارة الحيرة بتنصيب الساسانيين لابي يعفر علقمة ملكاً عليها .

في سنة ٥١٣م اصبح المنذر الثالث ملكاً على الحيرة ، وقد كان المنذر من الملــوك الأقوياء ، وكانت له وقائع دامية مع البيزنطيين والغساسنة وقد وصف بأنه كان اكثر ملوك المناذرة عداء للبيزنطيين والغساسنة ، ولم يستطع القادة البيزنطيون والغساسنة مقاومة المنذر (٧٢) .

ففي عهده تجدد النزاع بين الساسانيين والبيزنطيين اذ ان البيزنطيين كانوا قد تعهدوا بدفع جزية سنوية للساسانيين بموجب الصلح الذي ابرم بينهما سنة ٥٠٦م . وكانت الدولة الساسانية ملتزمة بدفع جزية سنوية كبيرة للهياطلة منذ عهد فيروز (٤٥٩ ـ ٤٨٤م) والآن وقد استحق دفع الجزية سنة ٥١٩م ارسل قباذ وفداً الى الامبراطور البيزنطي (جستـــين الاول) (٥١٨ ـ ٥٢٧م) يطالبه بدفع الجزية كي يقوم قباذ بدفعها للهياطلة ولكن جستين لم يدفعها .فطلب قباذ من المنذر التحرش بحدود البيزنطيين كما قام بغزوهم سنة ٥١٩م (٧٣).

ويبدو ان جستين اراد ان يحرج موقف قباذ امام الهياطلة فيؤخر دفع الجزية على امل ان تسوء العلاقات بين الهاطلة والساسانيين مما يضعف موقف هؤلاء تجاه البيزنطيين .

اما عن هجوم المنذر سنة ٥١١م فقد تكلل بالنجاح ، حيث تمكن من أسر قائديـــن بيزنطيين هما (ديموستراتوس) و(يوحنا) (٧٤) . وهو نجاح يعد مفخرة لامير عربي لا تتجاوز امارته احدى مقاطعات الامبراطورية البيزنطية .

وفي الوقت الذي يهاجم فيه المنذر البيزنطيين فاننا لانسمع عن اي رد فعل تجاهه مــن جانب الغساسنة .

وانتهت الحرب بين الساسانيين والبيزنطيين بعقد صلح سنة (٥٢٢م) ودفع البيزنطيون في هذا الصلح غرامة حربية متساوية لكل من قباذ ملك الفرس وللمنذر (٧٥) . وهو أمر يعكس اهمية المنذر ودوره في ذلك الصراع الدموي بين الجانبين (٧٦) .

وفي هذا الوقت(حدود سنة ٥٢٣م) بدأ جستين يحرض الاحباش على احتلال اليمن ، التي اضطهد النصارى فيها على يد الملك الحميري ذي نواس.وربما كان جستين يهدف من احتلال حلفائه الاحباش لليمن توسيع دائرة التأييد للبيزنطيين والعمل على مضايقة الساسانيين فـي

المستقبل اضافة الى ضمان الطرق التجارية عبر اليمن براً وبحراً ، وقد نفذت عملية احتلال الاحباش لليمن في عهد الملك الحبشي (آل صبيحة) سنة ٥٢٥م (٧٧) .

وقد حاول الاحباش اخضاع الجزيرة العربية لحكمهم بعد احتلالهم لليمن ، فعملوا على غزو مكة بقيادة ابرهة الحبشي ، ولكن الحملة الحبشية عليها باءت بالفشل ، حيث تفشى فيها مرض الطاعون فهلك الكثير من افرادها (٧٨) .

وهناك من يعتقد بأن الحملة على مكة هي جزء من السياسة السوقية للبيزنطيين تلك التي استهدفت التحالف مع الاحباش لضرب الساسانيين من الجزيرة العربية (٧٩) . وهذا المخطط لو تهيأت له سبل النجاح فأنه يضع الساسانيين في كماشة من جهة الغرب (البيزنطيين) والجنوب الغربي (اليمن وبقية الجزيرة العربية) .

غير ان احتلال الاحباش لليمن لم يستطع ان يؤثر في توازن القوى لصالح البيزنطيين فبعد حوالي ٤٥ سنة تمكن سيف بن ذي يزن من تحرير اليمن بمساعدة الساسانيين ، غير ان اغتياله بعد فترة قصيرة من حكمه وربما وقع ضحية مؤامرة دبرها له الساسانيون ، اوقع اليمن في قبضة الاحتلال الساساني (٨٠) ومن الملاحظ هنا عدم ظهور أي دور ملحوظ لعرب اليمن في الصراع القائم بين الساسانيين والبيزنطيين .

وفي سنة ٥٢٤م ارسل الامبراطور جستين إلى المنذر وفداً الى الحيرة وصلها في ٢٠/ كانون الثاني /٥٢٤م . وقد تضمنت مهمة الوفد فك اسر القائدين اللذين اسرهما المنذر وعقد صلح وحلف مع المنذر (٨١) ، وهذه المحاولة من جانب جستين تعكس اهمية الدور الذي يلعبه المنذر في الصراع .

وقد اشار ابن العبري الى هذا الوفد فذكر بانه استهدف مصالحة المنذر الذي غزا بلادهم بسبب اضطهاد جستين للقائلين بالطبيعة الواحدة (٨٢) . وهذا يعني ان المنذر كان متنصراً في ذلك الوقت ، وانه كان من اتباع المذهب المنوفستي (اصحاب الطبيعة الواحدة) وانه هاجم البيزنطيين بسبب اضطهادهم لاهل نحلته . ونحن لانرى ماذهب أليه ابن العبري لسببين :

اولهما : هناك رواية تقول بأن المنذر كان وثنياً سنة ٥٢٩م اي حتى بعد وصول الوفد الذي ارسله جستين باربع سنوات تقريباً ، وانه اشترك في الحرب التي اندلعت بين الفرس والبيزنطيين سنة ٥٢٨م ، وانه احتل اراضي واسعة وأسر اربعمائة راهبة قدمهن ضحية

وقرباناً للالهة العزى (٨٣) . فكيف يكون نصرانياً سنة ٥٢٤م وعلى مذهب اصحاب الطبيعة الواحدة كما زعم ابن العبري ؟

وثانيهما : ان المسيحية كانت منتشرة في الحيرة ، وكانت هناك منافسة بين النساطرة واليعاقبة (القائلين بالطبيعة الواحده) غير ان النساطرة تفوقوا على اليعاقبة وانتشر مذهبهم فيها فكانت لهم اسقفية في الحيرة . اما اليعاقبة فقد اضطروا لانشاء مركز ديني لهم في عاقولاء (الكوفة) خارج الحيرة (٨٤) .

فلو كان المنذر من اصحاب الطبيعة الواحدة (اليعاقبة) لدعم مذهبه في الحيرة ، ولو سلمنا جدلا بانه كان منتصراً في ذلك الوقت (سنة ٥٢٢م) فالمنطق يقضي بأنه كان على المذهب النسطوري بسبب التفوق الذي كان لهؤلاء في الحيرة . فلا يعقل ان يضطهد اناس في العاصمة (الحيرة) وهم على مذهب الملك (اليعاقبة)

وفي سنة ٥٢٧م اندلعت الحرب بين الساسانيين والبيزنطيين بسبب طلب قباذ من الامبراطور البيزنطي تبني ولده أنوشروان ورفض الامبراطور ذلك الطلب، وما اظهره الفرس من رغبة في الحصول على لازيكا (لازستان) في منطقة القفقاس على البحر الاسود (٨٨) . فهاجم الساسانيون دارا واسرع المنذر لمهاجمة بلاد الشام ، فأغار على قنسرين وغنم وسبى . ثم تقدم في السنة التالية حتى وصل حدود انطاكية فاحرق بعض المواضع ومنها خلقيدونية ، واستطاع الاستيلاء على اراض واسعة من نصيبين وارض الخابور حتى بلغ حمص واباميا وانطاكية (٨٦) ؟

ولم يكتف المنذر بما حققه على حساب البيزنطيين ، فقد عاود الهجوم مرة أخرى وبمساعدة الفرس فهاجم (قوماجين) في منطقة السفرات ، غير انه تراجع بسبب تصدي القائد البيزنطي بليزاريوس له عند كليسنكيوم ومنعه لهم من التقدم باتجاه الاقسام الشمالية من سوريا . غير ان المنذر التقى ببليزاريوس مرة أخرى عند الرقة فانتصر عليه (٨٧)

لقد استطاع المنذر ان يعوض عن الفشل الذي مني به الساسانيون عندما اخفقوا في احتلال مدينة دارا ، بهذا النصر الذي حققه على البيزنطيين (٨٨) .

واذا كان هذا هو موقف المنذر المساند للفرس ، فكيف كان موقف الغساسنة المساند للبيزنطيين ؟ واين كانوا من المنذر وهو لا يكاد ينتهي من هجوم حتى يشن هجوماً اخر ؟

الواقع هو ان الغساسنة كانوا يحاربون إلى جانب البيزنطيين في معظم الحروب المعاصرة

التي وقعت بين القوتين الكبيرتين يومذاك . ويبدو أن الغساسنة اشتركوا في هذه الحرب التي خاض غمارها المنذر . فقد ذكر نولدكه استناداً إلى ملالا «ان الحارث بن جبلة حارب المنذر امير الحيرة وانتصر عليه في شهر نيسان سنة ٥٢٨م» (٨٩) .

لقد كان لفعاليات المنذر الحربية ضد البيزنطيين اثر سياسي مهم على وضع الغساسنة في بلاد الشام وعلى علاقتهم بالبيزنطيين فهي التي دفعت بالامبراطور جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٠م) إلى (نصب الحارث الجفني)(فيلارخا Phylarch) أي عاملا على عرب بلاد الشام لحماية الحدود من اعتداءات المنذر وعرب العراق» (٩٠) .

ويبدو أن اهمية الغساسنة اخذت بالازدياد من وجهة نظر البيزنطيين بعد هجمات المنذر المتكررة لبلاد الشام ، وانهم لم يتمتعوا بهذه الاهمية قبل سنة ٥٢٧م وهي السنة التي بدأت فيها هجمات المنذر المؤثرة على بلاد الشام . والدليل على ذلك أن ترقية الحارث إبن جبلة إلى رتبة فيلارخ كان سنة ٥٢٩م .

وفي ١٩/نيسان/٥٣١م وقعت معركة بين الفرس والبيزنطيين . اشترك فيها الحارث بن جبلة الغساني إلى جانب البيزنطيين ، انتهت بهزيمة البيزنطيين واسر الفرس فيها قائداً عربياً اسمه عمرا (٩١) .

ولا تسمع للمناذرة من ذكر في هذه المعركة . وهذا يعود إلى التطورات التي وقعت في الحيرة سنة ٥٢٩م واستمرت حتى سنة ٥٣١م والمتمثلة بطرد قباذ للمنذر وتوليته للحارث بن عمرو الكندي عرش الحيرة . وبقاء المنذر طريداً طيلة تلك المدة حتى اعاده انوشروان بعد ارتقائه العرش سنة ٥٣١م (٩٢) .

توفي قباذ سنة ٥٣١م وارتقى العرش انوشروان فعقدت هدنة بين الساسانيين والبيزنطيين ، ثم اتبعت بعقد اتفاقية «السلام الابدي» سنة ٥٣٢م (٩٣) . ولكن هذه الاتفاقية التي اريد لها ان تكون خاتمة الصراع بين الساسانيين والبيزنطيين ، كما يشير اسمها ، لم تكن كذلك .

فقد تجدد الصراع ثانية سنة ٥٤٠م بين الخصمين بسبب ما قيل عن ارسال الامبراطور جستنيان رسولا هو (سوموس) إلى المنذر مع كتاب خاص منه يحاول فيه التأثير على المنذر بالوعود ويمنيه بالاموال اذا انضم إلى جانبه وقد عدّ انوشروان ان هذا اخلال بشروط الصلح المعقود مع جستنيان وبدأ استعداداته للحرب (٩٤) .

كما ان النزاع الذي نشب بين المنذر وبين الحارث بن جبلة حول ملكية الأرض المعروفة (بسترا اتا) الواقعة بين تدمر ودمشق ، يعد السبب الثاني في وقوع تلك الحرب . خاصة وان

الحارث اغار على املاك المنذر في العراق فقتل وغنم ثم عاد . فشكا المنذر امر الحارث إلى انوشروان على امل ان يطلب الاخير من جستنيان ان يتدخل في انصاف المنذر من الحارث. وقد فعل انوشروان غير انه لم يجد اية استجابة من جستنيان فكان ذلك مبرراً لاعلان انوشروان الحرب على البيزنطيين (٩٥) .

كما ان انتصارات جستنيان في شمال افريقيا على الوندال ، وفي ايطاليا على القوط الشرقيين ، اثارت مخاوف انوشروان ، اضافة الى طلب القوط الشرقيين منه مساعدتهم(٩٦).

بدأ انوشروان هجومه على المدن الواقعة في شمال سوريا وهي دارا ومنبج ، وقنسرين وحلب وانطاكية ، فسارع الحارث بن جبلة للتقدم باتجاه الجزيرة لمعرفة قوة الفرس فيها وقام المنذر من جانبه بالشروع في غزو بلاد الشام ، وتوغل في عمقها حتى بلغ فينيقية لبنان (٩٧) . وفي سنة ٥٤١م حارب الحارث في العراق بجانب الروم تحت قيادة بليزاريوس وعبر نهر دجلة عن طريق اخرى غير الطريق التي اتبعها معظم الجيش ، فلم يحصل في حملته على نتائج تذكر» (٩٨) . وبالعكس فان تصرفه هذا كان مدعاة للشكوك والاتهام في ولائه للامبراطور (٩٩) .

ويبدو ان البيزنطيين كانوا حذرين في تعاملهم مع العرب ، وانهم كانوا يرصدون تحركاتهم بعناية ، لمنع اية صلة قد تسفر مستقبلاً عن تقارب بين عرب الشام وعرب العراق (المناذرة) وليس هناك من شك في ان الساسانيين يطابقون نظرة البيزنطيين في تعاملهم مع المناذرة لقد جعل تراجع الحارث في حملته هذه على العراق نولدكه يتعسف على العرب ويغمطهم حقهم عندما قال : «ولعل اصحاب السياسة في القسطنطينية كانوا يبالغون في مقدرة العرب على الحروب المنظمة . في حين ان هؤلاء لم يكونوا يحسنون الا النهب ومطاردة العدو ولو انهم يفاخرون بغير هذا» (١٠٠) ولا ندري كيف غاب على مؤرخ حصيف مثل نولدكه ان يقول هذا وهو يعلم ان احفاد هؤلاء وبعد فترة قرن من الزمن استطاعوا عندما توحدوا ان يقضوا على الدولة الساسانية نهائياً وان يقصموا ظهر الامبراطورية البيزنطية .

وفي سنة ٥٤٤ عاد المنذر والحارث الى القتال فوقع احد ابناء الحارث اسيراً بيد المنذر فقدمه ضحية للالهة العزى،وهذه الرواية ينقصها الدليل كما يرى الدكتور جواد علي(١٠١).

وفي سنة ٥٤٦م . عقدت الهدنة بين الفرس والبيزنطيين ، غير ان المنازعات والمناوشات

ظلت مستمرة بين الملكين العربيين المنذر والحارث (١٠٢) . وهي مظهر للعادة العربيـــة في أخذ الثأر والانتقام . حتى اذا كانت سنة ٥٥٤ حقق الحارث بن جبلة نصراً حاسمــاً على المنذر فأرداه قتيلاً في اثناء هجوم على (رومايا) التابعة للبيزنطيين ، ويعتقد نولدكه ان هذه المعركة هي التي خلدت في الادب العربي باسم «ذات الخيار» او «يوم الخيارين» (١٠٣) التي وردت في معلقة الشاعر الجاهلي الحارث بن حلزة اليشكري (١٠٤) .

خلف المنذر أبنه عمرو بن هند (٥٥٤ — ٥٧٠م) واهم مايميز علاقة عمرو هـــذا بالدولتين الكبيرتين هو امتناع البيزنطيين في عهد الامبراطور جستين الثاني (٥٦٥ — ٥٧٨م) عن دفع الاتاوة التي كانوا يدفعونها للفرس ومقدارها (٣٠) الف قطعة ذهبية و (١٠٠٠) الف قطعة من الذهب للمنذر بن ماء السماء فقد امتنعوا عن دفع حصة عمرو بن هند . فلما طالب بها امتنع الامبراطور جستين الثاني فتدخل انوشروان وطلب من جستين الثاني ان يدفع حصة عمرو قائلاً» بما ان العادة كانت جارية بينكم فافضل ان تتمسكوا بها وتتبادلوا الرسـل والهدايا» (١٠٥) .

بعث عمرو بن هند بوفد الى البيزنطيين لمفاوضتهم بشأن دفع الاتاوة غير ان وفده اهين مما جعله يشن حرباً على الحارث بن جبلة ، بوصفه حليف البيزنطيين ، وكان اخوه قابوس قائد جيشه وكان عمرو يتوقع دعم الفرس له غير ان هؤلاء خيبوا آماله . وكانت هـــذه الحرب قد وقعت سنة ٥٦٣م ثم كرر هجومه سنة ٥٦٦ و٥٦٧م (١٠٦) .

وتوفي الحارث بن جبلة الغساني سنة ٥٦٩م او ٥٧٠م فخلفه ابنه المنذر وفي وقت قريب من وفاة الحارث قتل عمرو بن هند وخلفه قابوس (١٠٧) .

ولم يتحدث التاريخ عن وقائع كبيرة بين المناذرة والغساسنة غير مايتصل بمعركة عين اباغ التي انتصر فيها المنذر على قابوس (١٠٨) .

ويبدو ان المنذر بن الحارث اصبح مهتماً ببناء قوة تمكنه من الوقوف بوجه الفرس فطلب من الامبراطور جستين الثاني ان يمده بالمال اللازم . غير ان الامبراطور رفض طلبه . ومرتاباً في ولاء المنذر بسبب اعتناقه للمذهب المنوفستي (اصحاب الطبيعة الواحدة) (١٠٩) وربما كان وراء رفض الامبراطور اكثر من العامل المذهبي . فليس هنالك مايمنع من استخدام هذه القوة في تحقيق اغراض تخدم قضية خلق كيان مستقل للغساسنة مستقبلاً. ولهذا فقد اصبح التخلص من المنذر هدفا مهما من اهداف جستين الثاني، لكنه كان يسعى لتحقيقه بطريقة مضمونة النتائج. فقد طلب من البطريق (مرقيانوس) «ان يحتال عليه ويقتله ان امكن» (١١٠) .

غير ان المنذر لم يكن سهل المنال ، ويبدو انه احس بتلك المؤامرة فاعلن الثورة « على دولة الروم وبقي ثائرا عليها مدة ثلاث سنوات »(١١١).

وقد ترك انسحاب المنذر وثورته حدود الروم المتاخمة للفرس مكشوفة امام هؤلاء وحلفائهم« عرب الحيرة» فأنتهز عرب الحيرة هذه الفرصة واغاروا على سوريا وعاثوا فيها ماشاءوا فوجد الروم انفسهم مضطرين لاسترضاء الامير الجفني مهما كلفهم الامر» (١١٢)

وبعد مصالحة المنذر قام بجمع رجاله وهاجم الحيرة هجوماً خاطفاً تمكن به من اطلاق من في سجونها من اسرى البيزنطيين سنة ٥٧٨ (١١٣).

فهل اراد المنذر ان يثبت حسن نيته تجاه البيزنطيين ؟ ام انه اراد ان يثبت لهم ان ما عجزوا عنه استطاع هو ان يحققه ؟

وفي سنة ٥٨٠م قام المنذر بالاشتراك مع موريس قومس الشرق بغزو احدى ولايات الفرس، فلما بدأ موريس الهجوم وجد الجسر القائم على نهر الفرات قد تهدم فأرتد خائبا دون ان يحقق شيئا . وقد اثار ذلك الشكوك في ولاء المنذر واتهم بالخيانة (١١٤) .

وكبرهان على اخلاص المنذر وولائه للبيزنطيين قام وحده بالاغارة على اراضي عدوه امير الحيرة، النعمان بن المنذر (٥٨٠ -٦٠٢م) مستغلا وجود النعمان خارج الحيرة فعاد بغنائم كثيرة (١١٥). غير ان النجاح الذي حققه المنذر اصبح مثار حسد البيزنطيين وكراهيتهم للمنذر. واصبحوا يرتابون في ولاء الجفنيين لهم (١١٦).

وأدى هذا السبب اضافة الى تأثير الاختلافات المذهبية بينهم وبين الجفنيين الى زيادة كرههم للمنذر (١١٧) فضلا عما سبق ان اشرنا اليه من توجسهم من قوة المنذر على مستقبل الغساسنة.

وقد استطاع البيزنطيون فيما بعد ان يدبروا مؤامرة ضد المنذر فيلقوا القبض عليه ويودعوه الأسر في القسطنطينية ، ثم نفي الى صقلية في عهد الامبراطور موريس (٥٨٣ - ٦٠٢ م) الذي كان شديد العداوة له . كما قطعوا الاعانة السنوية التي كانوا يدفعونها للغساسنة (١١٨) .

وقد احدث اسر المنذر ثورة ابنائه الاربعة ضد البيزنطيين بقيادة اخيهم الاكبر فأثاروا الرعب في نفوس افراد الحامية البيزنطية في بصرى واستطاعوا ان يستولوا على ذخائر ابيهم فيها (١١٩) .

شعر القيصر طبريوس بخطورة هذه الثورة على سوريا فأمر حاكمها بالقضاء على حركة ابناء المنذر . وقد تمكن هذا من القاء القبض على النعمان وارسله اسيرا الى العاصمة (١٢٠) .

وهكذا زال حكم هذه السلالة العربية التي كانت تحكم العرب في بلاد الشام .فتفرق هؤلاء من بعدها الى خمس عشرة فرقة كل منها برئاسة شيخ . فدخل قسم منهم العراق ؛ وبقي قسم منهم في بلاد الشام وكان ذلك في عهد الامبراطور موريس (٥٨٢ -٦٠٢م)(١٢١).

وبعد فترة وجيزة من انهيار الجفنيين في بلاد الشام قتل كسرى ابرويز ملك الفرس؛ سنة ٦٠٢ م النعمان بن المنذر (النعمان الاخير) فأفل بذلك نجم الحيرة ايضا ولم نعد نسمع شيئا عن دورها في الصراع بين الساسانيين والبيزنطيين (١٢٢) .

الصراع وتعميق ظاهرة الانقسام العربي :

من خلال استعراض دور المناذرة والغساسنة في الصراع بين الساسانيين والبيزنطيين يتبين انَّ نتائج هذا الصراع كانت سلبية على الامارتين العربيتين فزادت من تبعية المناذرة للساسانيين ؛ ومن تبعية الغساسنة للبيزنطيين فأصبحوا (المناذرة والغساسنة) جزءاً من السياسة السوقية لهؤلاء .

فاذا حارب الساسانيون البيزنطيين سارع المناذرة للهجوم على بلاد الشام دعما للساسانيين ، وكان الصدام على الاغلب يتم مع الغساسنة بوصفهم حلفاء للبيزنطيين وتبعا لهم . وكذلك كان موقف الغساسنة مع البيزنطيين ضد المناذرة والساسانيين.

ولم تتوقف نتائج هذا الصراع على الاثار السلبية على المناذرة والغساسنة بل تعدته الى مجمل وضع العرب يومذاك فزادت من ظاهرة الانقسام العربي بل وتعميقها .

ولقد كان للمناذرة والغساسنة دور اخر مع ابناء القبائل العربية على اطراف حدود : العراق والشام مع الجزيرة العربية ، فقد جعلت الدولتان الكبيرتان دور المناذرة والغساسنة متمثلا في كبح جماح تحركات تلك القبائل على حدودهما ، والحفاظ على الامن والاستقرار في المناطق الحدودية لهما والضرب بقوة لكل من تحدثه نفسه من شيوخ القبائل العربية بالتعرض لمصالح الساسانيين او البيزنطيين . فأدى ذلك الى شيوع حالة من الكراهيه من زعماء هذه القبائل للمناذرة او للغساسنة . وخوفاً من ان تتوحد كلمة بعض زعماء القبائل ضدهم (المناذرة والغساسنة) فلقد لجأ هؤلاء الى تقريب بعض زعماءَ القبائل لاتخاذهم اداة في ضرب زعماء يمثلون قبائل اخرى الامر الذي زاد من ظاهرة الانقسام العربي . فلقد شن عمرو بن هند اخو النعمان بن المنذر حرباً على قبائل تميم وتغلب وطيء استطاع ان ينتصر فيها عليهـم (١٢٣) .

فأدىذلك الى زيادة مشاعر العداء والشقاق بين الاشقاء وابناء العمومة وبدلا من ان تتوجه حراب المناذرة والغساسنة نحو العدو المشترك الذي يحتل ارضهم ، ويسلبهم حريتهـم، كان يوجها بعضهم نحو صدور بعض فتسيل الدماء العربية بايد عربية خدمة لقوى الاحتلال.

اضافة الى هذا فأنهم كانوا لايكادون يخرجون من حرب حتى يدخلوا في أخرى طبقاً لعادة الاخذ بالثأر التي كانت تحكم سلوك العرب يومذاك . الامر الذي زاد مـن تبديد القوى العربية واستنزاف طاقاتها فيما لاطائل تحته .

ولكي تطمئن قوى الاحتلال على تنفيذ هذا الدور بدقة واخلاص ، فقد وضع الساسانيون في الحيرة كتيبة فارسية ، يستطيع بوساطتها ملوك الحيرة ومع رجالهم من ضرب العرب من ابناء القبائل الذين كانوا يقلقون امن الساسانيين (١٢٤) .

وكذلك نجد البيزنطيين يضعون حامية لهم في بصرى لنفس الغرض مع الغساسنة ، وكان ضباط هاتين الكتيبتين بمثابة ضباط مخابرات بالنسبة للساسانيين والبيزنطيين كل ذلك من اجل احكام قبضتهم على العرب .

المؤشرات التأريخية لدورعربي جديد في المنطقة :

لم تكن اوضاع العرب التي تحدثنا عنها في سياق هذا البحث مؤشرات على ان حالة التجزئة والتفكك والتخلف ظواهر طبيعية ، وانها ستظل ملازمة لهم ، او ان العرب اعتادوا الاحتلال والخضوع للاجنبي. فالمقومات الحضارية مازالت قائمة بشكل او آخر ،بالرغم من محاولات طمسها وتخريب الثقافة العربية (دعوات التوحيد) من قبل قوى الاحتلال. فالعرب كانوا يتكلمون لغة واحدة ، وتحكمهم قيم وعادات وتقاليد واحدة او متماثلة.

كما ان معطيات ارضهم ،وامكاناتها الاقتصادية تمكنهم من ان يلعبوا مثل هذا الدور الجديد المرتقب. فلقد ضمنت ارض العرب في الماضي تهيئة كافة المستلزمات لقيام الدول الكبيرة (كالاكدية، الاشورية، والبابلية). بالاضافة الى ان الوطن العربي يتمتع بموقع متميز وحيوي ،حيث انه يمثل جسرا يربط بين القارات الثلاث. وهذا ماجعل شرايين التجارة العالمية مضطرة للمرور عبر اراضيه . الامر الذي عاد بفوائد اقتصادية كبيرة على سكانه.

كما ان هذا الموقع المهم اكسبه القدرة على التأثير في الشعوب والأمم المجاورة والمنتشرة في القارات الثلاث (فديانات التوحيد كلها ظهرت في الوطن العربي ابتداء بنوح ومرورا بابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام) .

واذا كان الامر كذلك ، فلماذا كانت فترات الاحتلال للوطن العربي طويلة بحيث امتدت لعشرة قرون تقريبا. بالرغم من رفض العرب للاحتلال ومقاومتهم للغزاة، ولماذا تأخرت الصحوة العربية كل هذا الوقت الطويل.

وعلى صعيد اخر فان قوى الاحتلال، وهي متنوعة في اصولها وثقافتها وأديانها ، كانت في حالة نزاع وصدام مسلح فيما بينها . وكانت ارض العرب ساحة فعالياتها ونشاطاتها العدوانية مما عاد بأضرار فادحة على الحضارة والسكان في هذه المنطقة. وكنموذج على هذا فان مدن بلاد الشام اصابها من الخراب والتدمير الشيء الكثير من جراء حروب الساسانيين ومن قبلهم الاخمينيين (١٢٥).

لقد كانت الحروب بين قوى الاحتلال تشن بمناسبة ومن غير مناسبة . كان شعوراحدى القوى بكونها قوية تجعلها تهاجم القوة الاخرى ، فكانت هذه الحروب استجابة لغرور الحكام ، والاستحواذ على المناطق الحيوية ذات الاهمية الاقتصادية .ومن هنا فأن تلك الحروب لم تكن دوافعها نبيلة ، او انها تهدف لنشر رسالة او عقيدة تحقق للانسانية العدالة والاخاء بين البشر .

وعلى العكس من ذلك فقد كانت تلك الحروب اذلالاً للانسان ، وكانت قيوداً ، ثقيلة يكبل بها الحكام الشعوب ، كما انها انهكت قوى الشعوب في هذه المنطقة وكلفتها اعداداً لاتحصى من القتلى والجرحى .

لذلك فالدلائل تشير الى ان هذه الاوضاع لايمكن ان تكون حالة طبيعية فلابد من قوه جديدة تبني ماهدمته قوى الاحتلال ، فتعيد للانسان كرامته وحريته اللتين امتهنتا حقباً طويلة من الزمن .

ولعل النعمان بن المنذر كان يتلمس طريق تلك القوة الجديدة ، ويتمنى ان يكون رائداً لها ، وقد ادرك انه لايمكن خلق قوة جديدة تستطيع ان تتصدى لقوى الاحتلال دون وحدة القبائل العربية . فأخذ يتقرب من زعماء تلك القبائل ويتودد لهم « انما انا رجل منكم ، وانما ملكت وعززت بمكانتكم .. ومايتخوف من ناحيتكم ، وليس شيء احب

الي مما سدد الله به امركم ، واصلح به شأنكم ، وأدام به عزكم .. » (١٢٦) :
وكان النعمان قد القى هذه الكلمة بجمع من وجوه القبائل العربية (٥)
وشكل منهم وفداً الى كسرى لكي يرد عليه مزاعمه في الانتقاص من العرب (١٢٧)وقد كانت وصية النعمان لاعضاء الوفد اظهار أنفة وكبرياء العرب امام كسرى « .. ولا تنخذلوا له انخذال الخاضع الذليل » (١٢٨) فلما قدموا على كسرى وقال كل منهم . كلمته قال كسرى « ماخفت من العرب كخوفي قط منهم اليوم واني لاحسب الامر الذي كنا نتوكفه (٥) من افضاء الملك قد دنا .. » (١٢٩) ومن هنا فقد ادرك كسرى ابرويز (٥٩٠ – ٦٢٨م) خطورة تحركات النعمان ، ومحاولة اذكاء الشعور القومي لدى القبائل العربية ; ولذلك فأنه عمل على استمالة عدد من شيوخ ورؤساء القبائل العربية ليملكهم على قبائلهم فيصبح تعاملهم مع كسرى مباشرة دون الحاجة الى وساطة النعمان الامر الذي يضعف من تأثير النعمان عليهم فيجهض من خططه في توحيد القبائل العربية تحت زعامة الحيرة (١٣٠) .

ان هذا التيار التحرري الذي قاده النعمان في هذه الفتره هو الدافع وراء قتله ، فقد اورد الدينوري نصا خطيرا جاء في رسالة جوابية بعثها كسرى ابرويز الى ولده شيرويه ، يفسر فيه سبب قتله للنعمان فيقول : « واما مازعمت من قتلي النعمان بن المنذر ، وازالتي الملك عن آل عمرو بن عدي إلى اياس بن قبيصة ، فان النعمان واهل بيته واطأوا العرب واعلموهم توكفهم خروج الملك عنا اليهم . وقد كانت وقعت اليهم في ذلك كتب فقتلته ... » (١٣١) .

لقد اسفر مقتل النعمان عن وقوع معركة ذي قار بين العرب وبين الفرس . فلقد رفضت قبيلة بني شيبان تسليم ودائع النعمان لديها الى كسرى فلما رأت اصراره على استخدام القوة ضدها طلبت المدد فجاءها من قبائل بكر وعبد القيس وحنيفة وغيرهم من بكر من اليمامة والبحرين (١٣٢) . كما وعدت قبيلة اياد الموجودة ضمن القوة الفارسية بأن تترك ساحة المعركة بمجرد احتدامها وتتظاهر بالهرب لاحداث الرعب في صفوف الفرس ، واضعاف معنوياتهم (١٣٣) . وكانت حركة القبائل العربية هذه صورة مصغرة لتضامن عربي ايجابي أسفر عن نتائج ايجابية لامة العرب .

لقد انتصر العرب في معركة ذي قار سنة ٦١٣ م وهزم الفرس ، وقال فيها النبي صلى الله عليه وسلم « هذا اول يوم انتصف العرب فيه من العجم وبي نصروا » (١٣٤) .

اذن فالدلائل تشير الى اقتراب ولادة تلك الصحوة في المنطقة العربية فمعركة ذي قار . وحلف الفضول ، وفعاليات « قطبة بن قتادة » السدوسي في منطقة الابلة — البصرة — والمثنى بن حارثة الشيباني في وسط العراق » (١٣٥) ضد الساسانيين ، ومواجهة عرب الشام للبيزنطيين المتمثلة في ثورة ابناء المنذر بن الحارث بن جبلة ، ومحاولة إعادة دعوة التوحيد من جديد في المنطقة العربية والتي تتمثل في دعوات السامرية والاريوسية . والاحناف كلها انعكاسات لحالة القلق التي كان يعيش العرب في خضمها ، وحالة رفض لكل معاني الاحتلال والتفكك والتجزئة والتخلف ، وحالة ترقب صادقة لولادة جديدة تأخذ بزمام المبادأة . فتعيد للامة كيانها الموحد القوي ، ودورها التاريخي الفاعل في الحضارة الانسانية (١٣٦) .

اذن فلقد كانت هناك امكانات عديدة بيد العرب ، وكلها تنبيء عن امكانية حدوث صحوة عربية جديدة، ومع ذلك فان العرب كانوا يفتقدون الى عنصر خطير اخر : حان فقدانه الى عدم قدرتهم على ان يلعبوا دورا متميزا جديدا فعالا في المنطقة : ذلك هو افتقارهم الى الفكر الموحد الى العقيدة الواحدة التي تستطيع ان توحدهم ؛ وقد كان فقدان هذا العامل السبب الرئيس في اخفاق النعمان بن المنذر في خلق جبهة موحدة في مواجهة الفرس وبالتالي اجهاض محاولته الجريئة الرائدة في اقامة كيان عربي موحد ومستقل عن الفرس .

وكان غياب القاعدة الفكرية الموحدة للامة هو الذي اخرت ميلاد تلك الصحوة وكانت هذه القاعدة من الاهمية بحيث لايمكن تجاوزها او القفز من فوقها باتجاه تحقيق وحدة الامة .

كان على التغيير المرتقب ، الذي سيبني اساسه على العقيدة الواحدة والفكر الواحد بأن يأخذ بنظر الاعتبار حالة التفكك والتخلف والتمزق التي تعاني منها الامة ، كما كان عليه من ناحية اخرى ان يوضع بمستوى يكاد يكون موازيا للحالة الاولى وهي وضع الانسانية المعذبة التي اثقلت كواهلها حروب الجبابرة والطواغيت، فاضطرت مذعنة لعبادة اسيادها مطأطأة الرؤوس لجلاديها وساليبها حريتها وامنها . فكانت ولادة رسالة الاسلام العظيم .

. . . .

« الهوامش »

(١) الحديثي ، نزار عبداللطيف : محاضرات في التأريخ العربي . مطبعة جامعة بغداد ١٩٧٩ ص ١٣ .
(٢) م . ن : ١٣ .
(٣) سليمان ، عامر واحمد مالك الفتيان : محاضرات في التأريخ القديم . مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر – جامعة الموصل ، ١٩٧٨ ، ص ٢١١ – ص٢٣٣ .
(٤) الطبري : – تأريخ الرسل والملوك . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . دار المعارف ١٩٦٢ ، جـ٢ ص ١٢٥ بافقيه ، محمد عبدالقادر : تأريخ اليمن القديم . المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ١٩٧٣ ، ص ١٦٧ .
(٥) الحديثي : ١٣ .
(٦) الشريف ، احمد ابراهيم : مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول .
دار الفكر العربي . مطبعة مخيمر ، القاهرة /١٩٦٥ ص ٢٣ .
(٧) م . ن : ص ٢٣ .
(٨) م . ن : ص ٦٢ .
(٩) م . ن : ص ٦٢ .
(١٠) م . ن : ص ٢٣ .
(١١) العلي ، صالح احمد : محاضرات في تأريخ العرب ، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة الموصل ، ١٩٨١ ، جـ ١ ص ٢٤ – ٢٦ .
(١٢) الحديثي :– ١٥ .
(١٣) العلي : – ١ / ٣٦ – ٤٢ .
(١٤) نفس المرجع : ٣٨/١ .
(١٥) زيدان ، جرجي : العرب قبل الاسلام . دار الهلال : ص ٩٨ .
(١٦) جواد علي : المفصل في تأريخ العرب قبل الاسلام – دار العلم للملايين ط ٢ بيروت ١٩٧٨ ، جـ٣ ص ٨١ .
(١٧) م . ن : ٣/ ٨١ .
(١٨) البني ، عدنان : تدمر والتدمريين . منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ١٩٧٨ ، ص ٧٤ .

(١٩) م.ن : ص ٧٤ .
(*) نصيبين : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على طريق القوافل التجارية من الموصل إلى الشام ، انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٢٨٨ .
(*) الرها : مدينة بالجزيرة على الطريق بين الموصل والشام : انظر : الحموي ٣/١٠٦ج .
(*) انطاكية : مدينة بالشام ، كانت فيما مضى قصبة الثغور الشامية وهي من اعيان وامهات مدن الشام ، لطيب هوائها وعذوبة مائها وكثرة فواكهها : انظر : الحموي ١/٢٦٦ .
(٢٠) البني : ص ٧٤ .
(٢١) جواد علي : ٣/٨٦ ، العلي : ١/٤٧ .
(٢٢) م.ن : ٣/٩١ – ٩٣ .
(٢٣) رستم ، اسد : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب . دار المكشوف ، بيروت ١٩٥٥ ط١ ، ج١ ، ص ٤٧ . العلي : ١/٢٧ .
عاقل بنيه : تاريخ العرب القديم وعصر الرسول دمشق ١٩٦٨ ، ص ١٣٢ .
(٢٤) جواد علي : ٣/٩٣ ، زيدان : ١٠٠ ، طه باقر وآخرين : تاريخ ايران القديم مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٠ ، ص ١١٧ .
(٢٥) جواد علي : ٣/٩٣ .
(٢٦) م.ن : ٣/٩٣ – ٩٤ .
(٢٧) م.ن : ٣/٩٤ . طه باقر : نفس المرجع ص ١١٨ .
(٢٨) جواد علي : ٣/٩٤ .
(٢٩) م.ن : ٣/٩٥ .
(٣٠) م.ن : ٣/٩٥ .
(٣١) م.ن : ٣/٩٥ .
(٣٢) جيبون ، ادوارد : اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها . تعريب محمد علي ابو درة دار الكاتب العربي للطباعة والنشر مصر ، ١٩٦٩ ، ج١ ، ص ٢٥٢ .
(٣٣) زيدان : ١٠١ ، عاقل : ١٣٧ ، جواد علي : ٣/١٠٣ وانظر : سيديو ، ل.أ . تاريخ العرب العام . تعريب عادل زعيتر . مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢٦٧ .
(٣٤) جواد علي : ٣/١١٣ : زيدان : ١٠١ ، عاقل : ١٣٧ .
(٣٥) سيديو : ٤١ ، زيدان : ١٣٠ .
(٣٦) سليمان ، عامر وزميله : محاضرات في التأريخ القديم . مطبعة جامعة الموصل (د.ت) ، ص ٢٢٧ .

(٣٧) الطبري : ٥٧/٢ ، الثعالبي ، ابو منصور : تاريخ غرر السير . طهران ١٩٦٣ ص ٥١٨ – ٥١٩ ، المقدسي : البدء والتاريخ – مطبعة برتراند شالون ١٩٠٣ ، ج٣ ، ص ١٦١ وانظر : محل ، سالم احمد : العلاقات العربية الساسانية خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد . رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الموصل ١٩٨١ ، ص ١٤٨ .

(٣٨) الطبري : ٥٨/٢ – ٥٩ ، رستم : ٨٣/١ ، محل : ١٤٩ .

(٣٩) الطبري : ٦١/٢ . محل : ١٥٠ .

(*) خط : موضع على الساحل الغربي من الخليج العربي . في ساحل عمان والبحرين مـــع اختلاف في التقدير لدى الجغرافيين العرب .

(*) هجر : مدينة كانت في الماضي قاعدة البحرين : انظر : الحموي ٣٩٣/٥ .

(*) كاظمة : جوعلى سيف البحرين في طريق البحرين من البصرة : الحموي ٤٣١/٤ .

(*) كرمان : ولاية مشهورة ، كثيرة القرى والنواحي تقع بين فارس ومكران كثيرة الزروع والمواشي : الحموي ٤٥٤/٤ .

(*) توج : مدينة تقع في اقليم فارس اشتهرت بصناعة الثياب ،فتحت ايام عمر بن الخطاب (رض). الحموي : ٥٦/٢ .

(٤٠) العلي : ٥٦/١ .

(٤١) م.ن : ٦٤/١ .

(٤٢) م.ن : ٦٥/١ .

(٤٣) الاصفهاني ، حمزة : تاريخ سني ملوك الارض والانبياء عليهم الصلاة والسلام – مطبعة كاوياني – برلين ١٣٤٠هـ ص ٦٥ – ٦٦ .
الطبري : ٤٢/٢ .

(٤٤) العلي : ٥٢/١ .

(٤٥) العلي : ١٨/١ ، زيدان : ١٧٨ ، حوراني ، جورج فضلو : العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة واوائل القرون الوسطى . تعريب يعقوب بكر . مطابع دار الكتاب العربي ، القاهرة (د.ت) ص ٩٤ .

(٤٦) العلي : ١٧/١ .

(٤٧) حتي ، فيليب ... واخرين : تاريخ العرب مطول . دار الكشاف ١٩٦٥ ط٤ ، ج١ ص ٧٩
العلي : ١٩/١ ، جواد علي : ٤٥٢/٣ – ٤٥٦ .

(٤٨) العسلي ، خالد : الاعراب في النقوش العربية – مجلة العرب ج٥ ، عدد ك ٩٧١٢ ، ص ٤٠٤ – ٤٠٥ .

(٤٩) الطبري : ٩٦/٢ ، وانظر : الحديثي ، نزار عبداللطيف :محاضرات في التأريخ العربي مطبعة جامعة بغداد ١٩٧٩ ، ص ١٥ .

(٥٠) العلي : ١/٨٥ .
(٥١) م.ن : ١/٨٥ .
(٥٢) الاصفهاني : ٧٢ .
(٥٣) م.ن : ٧١ ، ابن حبيب ، محمد : المحبر ، اعتنت بتصحيحه الدكتورة ايلزة ليختن منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر بيروت – ص٣٦٩ . وانظر : ابن قتيبة : الشعر والشعراء . دار الثقافة ط٢ ، بيروت ١٩٦٩ ج١ ، ص ٥٧ .
(٥٤) ابن حبيب : ٣٦٩ ، المقدسي : ٣/١٦٨ ، ابو الفداء ، عمادالدين اسماعيل : المختصر في اخبار البشر . المطبعة الحسينية المصرية ط١ . (د.ت) ج١ ، ص ٧١ وانظر /ابن سعيد : نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب . تحقيق الدكتور نصرت عبدالرحمن . مطبعة جمعية عمال المطابع التعاونية . عمان – ١٩٨٢ ج١ ، ص ٢٤٥ .
(٥٥) ابو الفداء: ١/٧٤ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ دار صادر ، دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت ١٩٦٥ ، ج١ ، ص ٤٣٥ ، ابن سعيد : ١/٢٤٦ .
(٥٦) البوطي ، محمد سعيد رمضان : فقه السيرة – دار الفكر – ط٣ ، ١٩٧٠ ص ٣٧ . وانظر : الحديثي : ص ١٥ .
(٥٧) الحديثي ، نزار : هامش ٢ ، ص ١٥ .
(٥٨) طه باقر وآخرون : ص ٩٧ ، العلي : ١/٩٦ .
(٥٩) ابن خلدون ، عبدالرحمن : العبر وديوان المبتدأ والخبر . مصحح الاصول علال الفاسي وعبدالعزيز ابن ادريس . مطبعة النهضة مصر ١٩٣٦ – الناشر محمد مهدي الحبابي ج١ ، ص ٢٥٣ .
(٦٠) سليمان ، عامر : محاضرات في التأريخ القديم : ص ٢٢٩ .
(٦١) كريستنسن . آرثر : ايران في عهد الساسانيين . تعريب يحيى الخشاب . دار النهضة العربية – بيروت . ص ٨٢ .
(٦٢) طه باقر وآخرون : ص ١٣٤ وانظر : عمرو بن متي : اخبار بطاركة كرسي المشرق. من كتاب المجدل . روما ١٨٩٦ . ص ٢٣ – ٣٤ وكذلك : بابو اسحاق تاريخ نصارى العراق منذ انتشار النصرانية في الاقطار العربية الى ايامنا . مطبعة المنصور ، بغداد ١٩٤٨ ص ١٢ – ١٣ ، كريستنسن : ص ٢٦٧ .
(٦٣) جواد علي : ٣ / ٢٠٨ . روتشتاين : تاريخ السلالة الخمية – مجلة كلية الآداب جامعة البصرة عدد ١٦ ، ١٩٨٠ ص ٢٤٥ وانظر كذلك :
O' Leary, De lacy- Arabia before Muhammad Kegan paint Trench Tiubnerand co. L.T.D. 1927, P-158.
(٦٤) جواد علي : ٣ / ٢٠٨. نقلا عن المؤرخ سقراط الذي عرفه الدكتور جواد علي بأنه توفي سنة ٤٣٩م .
(٦٥) م. ن. : ٣ / ٢٠٨ .

(٦٦) رستم : ١ / ١١٧ – ١١٨، طه باقر وزميله : ص ١٣٤ وانظر :
Ross, Derision ; The Persians . oxford. Ist. publishecal 1931. P. 49 .

(٦٧) جوادعلي : ٣ / ٢١٥ ، محل : ص ١٨٢ .

*حران : تقع حران على الطريق بين الموصل والشام واسيا الصغرى وهي قصبة ديار مضر العربية . وقد اشتهرت بأنتشار الصابئة فيها . انظر الحموي ٢ / ٢٣٥ .

* قرقيساء :

تقع قرقيساء عند مصب الخابور بنهر الفرات في بلاد الشام انظر : الحموي : ٤ / ٣٢٨ .

(٦٨) جواد علي : ٣ / ٢١٦ ، زيدان : ٢٣٢، محل : ١٨٢ .

(٦٩) زيدان : ٢٣٢ .

(٧٠) نولدكه ، تيودور : امراء غسان : تعريب قسطنطين زريق وبندلي جوزي – المطبعة الكاثوليكية . بيروت ١٩٣٣ . ص٤ . جواد علي : ٣ / ٢١٦ .

(٧١) ابن سعيد : ١ / ٢٠٠ .

* يعتبر روتشتاين بداية حكم المنذر سنة ٥٠٥ – ٥٥٤م . راجع روتشتاين : ٢٤٧ .

(٧٢) سيديو ، ل. أ : تاريخ العرب العام . تعريب عادل زعيتر . مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٤٨ ص ٤٣، محل : ١٩٣ .

(73) GhirshmanR. ,: Iranfrom. The earliest Teimstto the Islamice conquest . Rishard chayand company LTD, Bungay, suffylk , 1954 p. 301302 .

(٧٤) جواد علي : ٣ / ٢١٩، ابن العبري ، غريغوريوس : تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية ١٨٩٠ ص ٨٧ ، محل : ١٩٥ .

(٧٥) الحوفي ، احمد محمد : تيارات ثقافية بين العرب والفرس . مطبعة نهضة مصر ص ١٣. محل : ١٩٤ .

(٧٦) محل : ١٩٤ .

(٧٧) غنيمة ، يوسف : الحيرة المدينة والمملكة العربية – مطبعة دنكور، بغداد ١٩٣٦ ص١٦٧ – ١٦٨، جواد علي : ٣ / ٢١٩ ، محل : ١٩٥ وانظر :

(٧٨) الحديثي : ١٥ وانظر : بافقيه ، محمد عبد القادر : تاريخ اليمن القديم . المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٧٣ ص ١٦٧ وكذلك بلاشير ، : تاريخ الادب العربي . تعريب ابراهيم الكيالي . دمشق ١٩٧٣ ج١ ص ٥٨ .

(٧٩) ابن هشام : السيرة النبوية : تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الابياري ، عبدالحفيظ شلبي . مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٣٦ ج١ ص ٤٤ – ٥٥ ، البلاذري ، احمد بن يحيى بن جابر : انساب الاشراف . تحقيق محمد حميد الله . دار المعارف ١٩٥٩ ج١ ص ٦٧ .

(٨٠) انظر :

محل : ٢٣٦ .

(٨١) الطبري : ٢ / ١٤٨ ، ابن قتيبة : المعارف . تحقيق ثروت عكاشة . مطبعة دارالكتب ١٩٦٠، ص ٦٣٨. المقدسي ، المطهر بن طاهر : البدء والتاريخ : مطبعة طراند - شالون ١٩٠٣ ج٣ ص ١٩٥، وانظر : ماجد ، عبد المنعم : التاريخ السياسي للدولة العربية . مطبعة الرسالة مصر ، ١٩٥٦ ص ٧٥ .

(٨٢) جواد علي : ٣ / ٢١٩، محل : ١٩٢ - ١٩٥ .

(٨٣) ابن العبري : ٨٧ .

(٨٤) جواد علي : ٣ / ٢٢١ نقلا عن ملالا .

(٨٥) العلي : ١ / ٧٩ - ٨٠، حتي: ١ / ٤١١ .

* النساطرة : نسبة الى نسطوريوس اسقف القسطنطينية . سنه ٤٢٧م .

غير انه حكم عليه من قبل مجمع افسس بسبب قوله : انه يوجد في المسيح (ع) شخص آلهي (الكلمة)

وشخص بشري يتصلان احدهما بالآخر بانسجام تام في العمل . ولكن ليس بتلك الوحدة التي تظهر في شخص واحد . انظر حتي : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ١ / ٤١١ .

(٨٦) كريستنسن : ٣٤٦ ، رستم ١ / ١٨٥

(٨٧) نولدكه : ١٠ ، رستم : ١ / ١٨٦، عمران ، محمود سعيد : معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية . بيروت ١٩٨١ ص ٥٤، جواد علي : ٣ / ٢٢٠ - ٢٢١

* قنسرين : احدى مدن الشام تقع بين حلب وحمص . فتحت على يد ابي عبيدة بن الجراح سنة ١٧هـ . انظر: الحموي ٤ / ٤٠٣ - ٤٠٤ .

* اباميا او افامية : مدينة قديمة بنيت في العهد السلوقي ، وهي من المدن الحصينة على سواحل الشام ، وهي كورة من كور حمص . انظر : الحموي ١ / ٢٢٧ .

(٨٨) رستم : ١ / ١٨٦، جواد علي : ٢ / ٢٢١، محل : ١٩٥ - ١٩٦ .

(٨٩) جواد علي : ٣ / ٢٢١ .

(٩٠) نولدكه : ١٠ ، حتي : ١ / ٤٤٧ .

(٩١) جواد علي : ٣ / ٢٢١، نولدكه : ١١ العلي : ١ / ٤٥، محل : ١٩٥ - ١٩٦

(٩٢) نولدكه : ١٧ ، ١٨ .

(٩٣) محل : ١٩١ .

اعتبر اولندر أن بداية حكم الحارث الكندي للحيرة كانت سنة ٥٢٥م ثم انتهى سنة ٥٢٨م الا ان اشتراك المنذر الى جانب الفرس في الحرب ضد البيزنطيين سنة ٥٢٧ م و ٥٢٨ تجعلنا نستبعد صحة ماأورده . انظر : اولندر ، جيوتار : ملوك كندة من بني آكل المرار تعريب عبد الجبار المطلبي . دار الحرية للطباعة بغداد سنة ١٩٧٣، ص ١١٤ .

(٩٤) Ghirshman ; 304
Ostrogorsky ;History of the Byzantine state. trans, lated by Jean Hussey. oxford 1968 p. 71 .

(٩٥) جواد علي : ٣ / ٢٢٢ وانظر . – : Ghirshman 304 5

(٩٦) الطبري : ٢ / ١٤٩، ابن الاثير : ١ / ٤٣٧–٤٣٨ نولدكه ١٠ ، محل : ١٩٧ – ١٩٨ وانظر . Ostrogorsky; 74

(٩٧) عمران : ٥٥ .

(٩٨) جواد علي : ٣ / ٢٢٢ ، Ghirashman 304

(٩٩) نولدكه : ١٨ .

(١٠٠) م. ن. : ١٨، محل : ١٩٨ .

(١٠١) ثولدكه : ١٨ .

(١٠٢) العلي : ١ / ٤٨، جواد علي : ٣/ ٢٢٤، محل : ١٩٨ .

(١٠٣) جواد علي : ٣ / ٢٢٤، نولدكه : ١٨ – ١٩، محل : ٩٨

(١٠٤) نولدكة : ١٩ .

(١٠٥) طبانة ، بدوي : معلقات العرب . بيروت ١٩٧٠ ط٣ ، انظر معلقة الحارث .

(١٠٦) غنيمة : ١٨٣ – ١٨٤ .

(١٠٧) جواد علي : ٣ / ٢٥٤، غنيمة : ١٨٣ – ١٨٤، محل : ٢٠٠ .

(١٠٨) نولدكه : ٢٤، جواد علي : ٣ / ٢٥٥ .

(١٠٩) جواد علي : ٣ / ٢٥٨ ، نولدكه : ٢٥ .

(١١٠) جواد علي : ٣ / ٢٥٩، نولدكه : ٢١ .

(١١١) نولدكه : ٢٥ .

(١١٢) م. ن : ٢٥ .

(١١٣) م. ن : ٢٥ – ٢٦ .

(١١٤) جواد علي : ٣ / ٢٥٩ .

(١١٥) نولدكه : ٢٩ .

(١١٦) م. ن : ٢٩ .

(١١٧) م. ن : ٢٩ – ٣٠ .

(١١٨) م. ن : ٣٠ .

كان البيزنطيون على المذهب الارثوذكسي ، بينما كان الحفنيون ، عموما ، ومنهم المنذر من أصحاب الطبيعة الواحدة (المنوفستي) انظر حتي : ١ / ٤١٣ – ٤٤٨.

(١١٩) نولدكه : - ٣١ .
(١٢٠) م. ن : ٣١ .
(١٢١) م. ن : ٣٢ .
(١٢٢) العلي : ١ / ٧٠ .
(١٢٣) م . ن : ١ / ٦٩
(١٢٤) الطبري : ٢ / ٦٧، الاصفهاني : ٦٨، ابن الاثير : ١ / ٤٠٠ .
(١٢٥) طه باقر وآخرون : ٦١ - ١٥٦ .
(١٢٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٥ ج٢ ص ١٠ .
(١٢٧) نفس المصدر : ٢ / ١٠ .
(١٢٨) نفس المصدر : ٢ / ١٠ .
كان الوفد العربي الذي اختاره النعمان يتكون من: اكثم بن صيفي،حاجب بن زرارة من تميم ، الحارث بن عباد ، قيس بن مسعود من بكر بن وائل ، خالد بن جعفر ، علقمة بن علاثة ، عامر بن الطفيل من بني عامر ، عمرو بن الشريد السلمي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي ، الحارث بن ظالم المرى : انظر العقد الفريد ٢ / ١٠ .
(١٢٩) نفس المصدر : ٢ / ١٠ - ١٤ .
(١٣٠) العبيدي ، محمود عبد الله ابراهيم : بنو شيبان ودورهم في التأريخ العربي والاسلامي حتى مطلع العصر الراشدي . دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٨٤ ، ص ١٣٣ .
(١٣١) الدينوري ، ابو حنيفة : الاخبار الطوال ، تحقيق : عبد المنعم عامر . مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ط١ القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٠٨ .
(١٣٢) انظر كتاب : الصراع العراقي الفارسي .تأليف نخبة من المؤرخين العراقيين ،دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٨٣ ، ص ١١٦ .
(١٣٣) ابن سعيد : ١ / ٢٨٦، الطبري : ٢ / ٢٠٨ - ٢٠٩ .
(١٣٤) الطبري : ٢ / ١٩٣ .
(١٣٥) الحديثي : ١٨ - ١٩ .
(١٣٦) نفس المرجع : ١٩ .



د. موفق حياوي علي	د. مجيد مهدي محمد
كلية التربية / جامعة الموصل	كلية التربية / جامعة الموصل

أهمية البحث والحاجة اليه

اصبح للمعرفة العلمية والتكنولوجية في مجتمعنا المعاصر دور كبير في نشر اسباب التقدم الاقتصادي والاجتماعي وتنمية الموارد المادية والبشرية وحسن استخدامها . فقد اكد احد الباحثين ان العلم يمثل المحرك الذي لابد منه لعملية النمو الاقتصادي في كل بلد متقدم كما ان التطورات العلمية وتطبيقاتها العملية تؤدي الى زيادة الانتاج وتحسينه (٧ : ص ٥١)

لقد مضى العصر الذي كان فيه يعتقد بعض الناس ان العلم للعلم فقط ، فقد بات العلم العنصر الحاسم بين التقدم والتخلف ، فأتساع المعرفة وتشعبها وتنوع مجالات الحياة وفنونها التطبيقية المختلفة جعل حل المشكلات الاقتصادية والاجتماعية الناتجة عنها وتنمية الثروة البشرية ورفع كفايتها الانتاجية ومستواها الحضاري والاجتماعي ضرورات ملحة في مجتمعنا المعاصر .

وتعد الضرورات التي فرضها التقدم العلمي ركناً اساسياً من اركان الجامعة في الوقت الحاضر انطلاقاً من مكانة الجامعة المرموقة كطليعة متقدمة تقود حركة التقدم والتطور في اثراء المعرفة وتنميتها في كافة المجالات وتنهض بالمجتمع وتحقق له مستقبلاً زاهراً ، وبذلك اصبح للتعليم الجامعي رسالة خطيرة ومهمة في تقدم المجتمع ، فلم تعد الجامعات ابراجا عاجية تطل منها على المجتمع تُعنى فقط بأمر طلابها وبالدراسات النظرية البحتة المجردة بل اصبحت منفتحة على المجتمع ومرتبطة به ارتباطاً وثيقاً تمده بالدراسات التطبيقية وباحتياجاته من الطاقة البشرية كماً ونوعاً .

ان الوفاء برسالة الجامعة في تنمية المجتمع يتوقف على توجيه عناية كبيرة واعطاء مزيد من الجهد للبحث العلمي باعتباره من الوظائف الاساسية للجامعة ولارتباطه الوثيق بالعلم وتقدمه ، فما ينفق على البحث العلمي لايعد هدراً بل ستثماراً يزيد من الدخل القومي ، فالبحث العلمي يمثل المدخل لزيادة معدلات النمو الاقتصادي وتقليل النفقات وتخفيض التكاليف وسبيلا الى سد الفجوة الكبيرة التي تفصل بينه وبين الدول المتقدمة وركيزة اساسية في مواجهة جميع التحديات(٥: ص ٣٥) واذا تخلت الجامعة عن وظيفتها في البحث العلمي فقدت احدى اركانها الرئيسة كمؤسسة تعمل على تنمية الموارد البشرية للمجتمع وتزويدها بالمعارف والمهارات المتخصصة والمتجددة . ومن هنا حرصت جميع الدول خاصة المتقدمة على توفير الامكانات اللازمة للنهوض بالبحث العلمي في شتى المجالات ودعمه باستمرار ، واخذت تتسابق في هذا المجال حتى تضمن لمجتمعاتها تحقيق التقدم والتنمية بخطى واسعة وسريعة ، وتحافظ على وجودها في عالم يشتد فيه الصراع وبناء التقدم وتحقيق التنمية ، ولذلك فالنجاح الذي حققته الدول المتقدمة في مجال البحث العلمي كان كبيراً اذا ماقيس بمدى النجاح الذي احرزته جامعات الدول النامية .

ان البحث العلمي في الدول النامية ومنها الوطن العربي لايحظى بالعناية الكافية اذ يبلغ ماينفق على البحث العلمي في الوطن العربي لايزيد على ٢٠٠ مليون دولار ، وهو يمثل نسبة ١ : ١٧٠ مما تنفقه الولايات المتحدة الامريكية علماً ان الناتج القومي العربي الاجمالي يزيد الآن على ٢٠٠ بليون دولار في عام ١٩٨٢ أي ان مجموع ماتنفقه الدول العربية على البحث العلمي لايزيد على واحد في الألف من اجمالي الناتج القومي لها (٥ : ص٣٥) . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان ماينفقه العدو الصهيوني على البحث العلمي يربو على مجموع ماينفقه الوطن العربي في هذا المجال (٦: ص١٢٤) .

لقد أصبح توفير وسائل البحث واتاحة الوقت للقيام به احد المقاييس المهمة للمستوى الجامعي ، فالتدريس يرتفع الى اعلى مستوياته عندما يرافقه شيء من الاكتشاف ، ويفترض أن الاستاذ الجامعي هو عالم باحث في نفس الوقت يستطيع ان ينقل الى طلبته شيئاً من الاثارة التي تصاحب العمل في آفاق المعرفة (١ : ص٦١) .

ان الوظائف التي يقوم بها التدريسيون تتباين بتباين الجامعات وتختلف من قطر لاخر تبعاً لاختلاف تكوين الجامعات ومراحل تطورها. ففي الولايات المتحدة الامريكية أظهرت دراسة اورلانز orlans (١٣ : ص٣١٦ - ٣٢٧) التي أجراها على ٣٦ جامعة وكلية عام ١٩٦٣ أن ٢٩,١٪ من وقت التدريس الاسبوعي يصرف على مهمات البحث العلمي في حين اخذت العملية التدريسية واعداد المحاضرات والقاؤها والمهمات الادارية والاكاديمية الاخرى البقية الباقية من الوقت. اما في انكلترا فقد اشار تقرير للتعليم العالي في ١٩٦٣ قدمته لجنة روبنز (١٠ : ص٥٦) الى ان مهمة البحث العلمي في الجامعات البريطانية تبلغ ١٣,٣ ساعة اسبوعياً من اصل ٥٧ ساعة عمل اسبوعية مخصصة للتدريس والأعمال الاخرى في الجامعة ومن ضمنها البحث العلمي. اي ان مايخصصه التدريسي للبحث العلمي من مجموع وقته في العمل الجامعي يمثل ٢٣,٣٪ .

وهكذا يتبين انه بالرغم من هذا التباين فان الجامعات الامريكية والبريطانية تخصص اكثر من خمس ساعات للعمل العلمي وهذا يعكس حجم الاهتمام الذي توليه هذه الجامعات لنشاط البحث العلمي. والجدير بالذكر ان النسب المخصصة للبحث العلمي على النطاق العالمي لاتزال محافظة على مستواها الى حد ما. فقد اشارت احدى الدراسات الى ان النشاط في مجال البحث العلمي يشكل ٣٣٪ من اعباء التدريسي في الجامعات المتقدمة (٣: ص ١٠) .

ولكن الأمر يختلف بالنسبة للجامعات في الوطن العربي، فنجد الاختلال واضحاً في الوقت المخصص لكل من البحث العلمي والتدريس والغلبة فيه لصالح التدريس فالغالبية العظمى من اعضاء هيئة التدريس في الجامعات العربية تنفق معظم وقتها في التدريس والقاء المحاضرات واجراء الامتحانات ولا تعطي الوقت الكافي لاجراء البحوث ، فقد اشارت احدى الدراسات الى ان نشاط البحث العلمي لايمثل اكثر من ٥٪ من اعباء هيئة التدريس الجامعي (٣: ص ١٠). ففي الجامعات المصرية نجد ان التعليمات الجامعية قد حددت ساعات تدريسية لكل تدريسي حسب المراتب العلمية وتراوحت من ٨ - ١٢

ساعة اسبوعيا (٨ص ٦٣ – ٦٤)، ولكن واقع الحال يشير الى ان مايصرف على التدريس اكثر من الساعات المحددة في التعليمات وقد يصل الى الضعف او اكثر، وهذا يعني عدم توفير الوقت الكافي للبحث العلمي . اما في العراق فقد اشارت دراسة الكناني (٤) التي اجريت على جامعة بغداد في ١٩٧٤ أن اساتذه الجامعة ومن مختلف الرتب العلمية والتخصصات يصرفون الجزء الاكبر من وقتهم في التدريس والتحضير حيث بلغت ٢٨,٣١ ساعة اسبوعية في حين يصرفون ٨,٥٥ ساعة اسبوعية للبحث العلمي فقط من اصل ساعات العمل الاسبوعية البالغة ٤٨,٥٧ اي ان نسبة مايخصص للبحث العلمي من وقت يبلغ ١٧,٦٪ من اصل ساعات العمل الاسبوعية . والجدير بالذكر ان التدريسيين يرغبون في زيادة الوقت المخصص للبحث العلمي من خلال تخفيف اعبائهم التدريسية وتقليل عدد المحاضرات المكلفين بالقائها في الجامعة. فقد اعربوا عن رغبتهم في تخصيص ١٢,٦٨ ساعة اسبوعية والتي تمثل نسبة ٢٧,٢٪ ومن هذا العرض لنتائج هذا البحث يتضح لنا ان ما يخصص للبحث العلمي في جامعة بغداد باعتبارها اكبر الجامعات في العراق قليل مقارنة بالجامعات الاجنبية.

اما على نطاق جامعة الموصل فقد اظهرت دراسة السماك وزملائه في ١٩٨١ وجود اختلال بين نسبة نمو اساتذة الجامعة وزيادة نتاجهم العلمي معبراً عنه بعدد البحوث المنجزة من قبلهم. ففي حين كانت نسبة نمو اعداد الاساتذة ٥,٣١ للفترة ٧٧ / ٩٧٨ – ٧٩ / ١٩٨٠ نجد ان نسبة نمو عدد البحوث المنجزة لنفس الفترة لم تتجاوز ١,١ (٢: ص ٢١٤). وكشفت دراسة هرمز وطه عام ١٩٨١ وجود العديد من المشكلات التي يعاني منها اساتذة الجامعة والتي انعكست على البحث العلمي بشكل سلبي، منها كثرة الساعات التدريسية حيث اشار ٧٠,٢٠٪ من اساتذة الجامعة الى اعتبارها عائقاً للبحث العلمي، كما اكد ٨٦,٦٪ عدم كفاية الدوريات والمراجع، في حين اعتبر ٨٠,٤٪ منهم قلة الاجهزة المستخدمة في البحث العلمي معوقاً ،وأوضح ٧٨,٤٪ ان هناك نقصاً حاداً في عدد المجلات المتخصصة لنشر بحوثهم المنجزة (٩: ص ٨٩ – ١٢٥) .

يتبين من عرض الأدبيات السابقة في مجال البحث العلمي ان هناك تبايناً في الوقت المخصص للبحث العلمي ،ويظهر التباين بشكل كبير بين الجامعات الاجنبية والعربية، ويعود الاختلاف هذا الى وجود معوقات تواجه البحث العلمي على مستوى الوطن العربي. فقد اشارت دراسة مرسي ١٩٨٤ الى وجود معوقات تتمثل في قلة اعداد العلماء العاملين

في مجال البحث العلمي وظروف العمل التي يعيش فيها العلماء والباحثون وعدم الاهتمام الكافي بحضور العلماء والباحثين المؤتمرات العلمية ، وعدم ملاءمة جو البحث العلمي الذي يساعد على نمو العلماء، وكثرة الأعباء الادارية والتدريسية، ووضع العلماء والباحثين في المجتمع ،ونظام الترقيات العلمية، ومشكلات النشر في البلاد العربية وغيرها (٥ : ص ٢٧ — ٦٩)

ومن هذا الواقع تبرز الحاجة الى تخطيط البحث العلمي. فالتخطيط لهذا النشاط يعتبر مطلباً له اولوية واسبقية على العديد من الانشطة الاخرى نظراً لان الأنشطة الاخرى لن تتحقق بكفاءة دون نشاط البحث العلمي ،فالتخطيط للبحث العلمي يلعب دوراً في رفع كفاءة الجامعة ويزيد فاعليتها وتكون اقدر على تجاوز العقبات التي تعترضها. ولاريب ان التخطيط في البحث العلمي يتطلب وجود معوقات محددة سواء كانت ذات ابعاد ادارية او مالية او فنية وغيرها . ومن هنا تبرز الحاجة الى البحث العلمي الحالي في تحديد المقومات التي ينبغي توافرها للبحث العلمي والتي تشكل مجتمعة نموذجاً يمكن اعتماده في الجامعة، خاصة اذا ماعلمنا ان جامعة الموصل لايتوفر لديها في الوقت الحاضر نموذج متكامل لمقومات البحث العلمي.

ومما يعزز القيمة العلمية لهذه الدراسة امكانية اعتمادها والاستفادة من نتائجها في الجامعات العراقية الأخرى نظراً لتماثل اهدافها.

اهداف البحث

يهدف البحث الى :

١ — التعرف على آراء التدريسيين بالنموذج المقترح لمقومات البحث العلمي في جامعة الموصل حسب اهميتها

٢ — مقارنة آراء التدريسيين في الاقسام العلمية والانسانية لتحديد الأهمية النسبية للنموذج المقترح لمقومات البحث العلمي في جامعة الموصل

حدود البحث

يشمل البحث اعداد مقومات للبحث العلمي في جامعة الموصل للكليات الانسانية والعلمية كافة ، ويقتصر على رؤوساء الاقسام والفروع والتدريسيين العاملين في وقت اجراء البحث ، ويستثنى المعارة خدماتهم أوالموفدون أوالملتحقون لاداء مهام اخرى خارج الجامعة وكذلك المعاهد الفنية ومراكز البحوث التابعة لجامعة الموصل .

تعريف المصطلحات

النموذج Model

النموذج هو نظام اوخطة اوطريقة جيدة تعد لتبع وتطبق (١٤:ص٧٣٨)

منهج البحث واجراءاته

سيتضمن هذا الفصل وصفاً لعينة البحث واسلوب اختيارها وبناء النموذج المقترح للبحث العلمي وتطبيقه واسلوب تحليل البيانات والوسائل الاحصائية .

عينة البحث واسلوب اختيارها :

لغرض الحصول على العينة الاستطلاعية والاساسية قام الباحثان بالاجراءات الاتية :

١ - حصر المجتمع الأصلي للبحث والذي تألف من جميع التدريسيين في اقسام وفروع كليات جامعة الموصل الموجودين في الخدمة وقت اجراء البحث واستثني منهم من كان متمتعاً باجازة دراسية اوبعثة او زمالة او مهمة تحول دون قيامه بالعملية التدريسية وقت اجراء البحث كما هو موضح في الجدول رقم (١)

٢ - اختيار جميع رؤوساء الاقسام والفروع في كليات جامعة الموصل والبالغ عددهم (٥١) كعينة استطلاعية لغرض جمع البيانات الضرورية لبناء النموذج المقترح لمقومات البحث العلمي نظراً لما يتمتعون به من خبرة علمية وادارية في مجال البحث العلمي ومقوماته.

٣ - اختيار عينة البحث الاساسية بواقع تدريسي واحد لاتقل خدمته الجامعية عن ثلاث سنوات من كل لقب علمي ، وقد استخدمت الطريقة العشوائية في الاختيار في حالة وجود اكثر من تدريسي ضمن اللقب العلمي الذي يتوافر فيه شرط الخدمة ، وفي حالة وجود تدريسي واحد ضمن اللقب العلمي قام الباحثان بضمه الى العينة الاساسية . وقد استخدم هذا الاجراء في اختيار التدريسيين ضماناً لتمثيل كل الاقسام والفروع والالقاب العلمية فيها . ووفقا لهذا الاسلوب في الاختيار بلغت العينة الاساسية ١٥٧ تدريسياً ينتمون الى جميع اقسام وفروع كليات الجامعة ومن مختلف الالقاب العلمية كما هو موضح في الجدول رقم (٢) .

الجدول رقم (١)

توزيع التدريسيين في جامعة الموصل

حسب الكليات والالقاب العلمية

اسم الكلية	اللقب العلمـي					المجموع
	مدرس مساعد	مدرس	استاذ مساعد	استاذ مشارك	استاذ	
التربية	٩٥	٤٧	٣٠	١	—	١٧٣
الادارة والاقتصاد	٣٣	١٧	٣	—	٢	٥٥
الهندسة	٥٦	٣٧	١٦	—	٤	١١٣
الآداب	٣٢	٢٣	١٤	—	٤	[illegible]٣
الطبية	١٤	٣٨	٣١	١	٢	٨٦
العلوم	٧٣	٦١	٢٨	٢	٢	١٦٦
طب الاسنان	٤	٦	—	—	—	١٠
التربية الرياضية	١٤	١٤	١	—	٢	٣١
الطب البيطري	٢٩	٢٧	٤	—	١	٦١
الزراعة والغابات	٦٤	٦٣	٢٢	١	٦	١٥٦
القانون	٨	٧	—	—	—	١٥
المجموع	٤٢٢	٣٤٠	١٥٢	٥	٢٣	٣٩

الجدول رقم (٢)

توزيع التدريسيين في العينة الاساسية حسب الكليات والالقاب العلمية

اسم الكلية	اللقب العلمي					المجموع
	مدرس مساعد	مدرس	استاذ مساعد	استاذ مشارك	استاذ	
التربية	٩	٨	٨	١	—	٢٦
الادارة والاقتصاد	٣	٣	٣	—	١	١٠
الهندسة	٥	٥	٤	—	٣	١٧
الآداب	٣	٣	٣	—	٢	١١
الطبية	٥	٨	٧	١	١	٢٢
العلوم	٥	٥	٥	٢	١	١٨
طب الاسنان	١	١	—	—	—	٢
التربية الرياضية	١	١	١	—	١	٤
الطب البيطري	٦	٦	٤	—	١	١٧
الزراعة والغابات	٨	٧	٨	١	٤	٢٨
القانون	١	١	—	—	—	٢
المجموع	٤٧	٤٨	٤٣	٥	١٤	١٥٧

: إعداد النموذج المقترح لمقومات البحث العلمي وتطبيقه

تتباين الادوات المستخدمة في جمع البيانات والمعلومات التي يحتاجها الباحث لتحقيق اهداف بحثه ، ويرجع هذا التباين الى طبيعة البحث واهدافه احياناً او الى حجم العينة المستخدمة ومافيها من متغيرات متباينة ومتشعبة احياناً اخرى .

ويعتبر الاستبيان احدى الادوات الشائعة الاستخدام في جمع البيانات في البحث التربوي — وقد قام الباحثان باستخدامه في بناء النموذج المقترح لمقومات البحث العلمي نظراً لملاءمته لأهداف البحث الحالي ولحجم العينة وتوزيعها وانتشارها في اقسام وفروع كليات الجامعة ولسهولة تطبيقه وتحليل بياناته ولكونه يفسح المجال لتقديم الاستجابة بحرية وصراحة .

وقد اعتمد الباحثان الاجراءات الاتية في إعداد النموذج المقترح :

١ — بعد اطلاع الباحثين على ماتوفر لديهم من ادبيات عن البحث العلمي ومقوماته ومعوقاته كدراسة الكناني (٤) ودراسة هرمز وطه (٩) ودراسة مرسي (٥) ، تم بناء الاستبيان الاستطلاعي الذي تكون من اربعة اسئلة تمثل مقومات للبحث العلمي ، وطبق على العينة الاستطلاعية التي تألفت من جميع رؤوساء الاقسام والفروع في كليات الجامعة وقد بلغ عددهم ٥١ وكان التطبيق يتم من قبل الباحثين مباشرة حيث كانا يلتقيان برؤوساء الاقسام والفروع في كلياتهم ، واستلم الباحثان (٣٩) أستبياناً استطلاعيــاً تمثل نسبة ٧٦,٤ ٪ من مجموع الاستبيانات الموزعة على العينة الاستطلاعية .

٢ — بعد استلام الاستبيانات الاستطلاعية من رؤوساء الاقسام والفروع تم تفريغ بياناتها وصياغتها بشكل فقرات واضيفت اليها فقرات جديدة من الأدبيات السابقة ذات الصلة بالبحث العلمي ، وبذلك تكونت لدى الباحثين قائمة تضم (٣٩) فقرة مقترحة تمثل نموذجاً لمقومات البحث العلمي في جامعة الموصل بصيغته الاولية .

٣ — قام الباحثان بقراءة فقرات النموذج بصيغته الاولية قراءه ممحصة ودقيقة عدة مرات ، وقد اشار الى هذا الاجراء Helmstadter (١٢: ص٨٩ — ٩٠) حيث أكد أن استخدام هذا الاسلوب يعتبر مهماً لتحقيق الصدق ، وللتأكد من الصدق الظاهري Face Validity عرض الباحثان الفقرات بصيغتها الاولية على لجنة من المحكمين

من تدريسيي جامعة الموصل يمثلون الاقسام العلمية والانسانية ويحمل كل منهم لقب استاذ(*) لما يتمتعون به من خبرة في مجال البحث العلمي ، وطلب الباحثان من المحكمين الحكم على مدى صلاحية فقرات النموذج المقترح من حيث كونها تمثل مقومات البحث العلمي وطبقاً لآراء المحكمين فقد تم حذف اربع فقرات لم تحصل على الاغلبية كما تم اعادة صياغة فقرات اخرى واضافة فقرتين جديدتين ، وبهذا الاجراء توصل الباحثان الى اعداد نموذج مقترح لمقومات البحث العلمي في جامعة الموصل صادقاً يتألف من (٣٧) فقرة (**).

٤ — ولغرض التعرف على آراء التدريسيين بالنموذج المقترح قدم الباحثان النموذج المقترح الى عينة البحث الاساسية بعد وضع مقدمة له تتضمن تعريفاً للبحث واهدافه واسلوب الاجابة عليه ، ووضع الباحثان خمسة بدائل امام كل فقرة للاجابة عليها وهي ضروري جداً ، ضروري ، غير متأكد ، ليس ضرورياً ، ليس ضرورياً على الاطلاق . وطلب من كل تدريسي اختيار البديل المتفق مع رأيه لكل فقرة من فقرات النموذج المقترح . لقد قدم النموذج المقترح الى ١٥٧ تدريسياً في كافة اقسام وفروع كليات الجامعة يمثلون جميع الألقاب العلمية واستغرقت عملية التطبيق وجمع الاداة عدة اسابيع ابتدأت في كانون الثاني ١٩٨٥ وقد استلم الباحثان (١١٠) أجابة تمثل ٧٠٪ من اصل الاستفتاءات الموزعة على التدريسيين .

(*) تكونت لجنة المحكمين من الاساتذة :

(١) الدكتور هاشم الملاح / قسم التاريخ في كلية الآداب .

(٢) الدكتور محمد انيس الليلة / قسم الهندسة المدنية في كلية الهندسة .

(٣) الدكتور سمير عبد الرحيم سعيد / قسم الكيمياء في كلية العلوم .

(٤) الدكتور يوئيل يوسف عزيز / قسم اللغات الاوربية في كلية الآداب .

(٥) الدكتور محمد ازهر السماك / قسم الاقتصاد في كلية الادارة والاقتصاد .

(٦) الدكتور طاهر قاسم الدباغ / قسم الطب الباطني في كلية الطب .

(**) انظر الجدول رقم (٣) المتضمن أداة البحث في صيغتها النهائية .

اسلوب تحليل البيانات والوسائل الاحصائية :

١ - لتحقيق الهدف الأول من البحث قام الباحثان بحساب درجة كل فقرة من فقرات النموذج وتكرارها لجميع المستجيبين بعدما اعطيت للبدائل في النموذج الدرجات التالية :

(٢) لبديل ضروري جداً
(١) لبديل ضروري
(صفر) لبديل غير متأكد
(-١) لبديل غير ضروري
(-٢) لبديل ليس ضروري على الاطلاق

ولغرض ترتيب فقرات النموذج حسب اهميتها فقد استخدم الباحثان المعادلة الآتية للوزن المئوي للفقرات :

$$\text{درجة الحدة} = \frac{٢\times ت١ + ١\times ت٢ + \text{صفر}\times ت٣ + (-١)\times ت٤ + (-٢)\times ت٥}{\text{التكرار الكلي}}$$

حيث ان :

ت١ = تكرار البديل الاول ، ت٢ = تكرار البديل الثاني
ت٣ = تكرار البديل الثالث ، ت٤ = تكرار البديل الرابع
ت٥ = تكرار البديل الخامس

$$\text{الوزن المئوي} = \frac{\text{درجة الحدة}}{\text{الدرجة القصوى}} \times ١٠٠$$

حيث ان :

الدرجة القصوى = درجة اعلى بديل وهي (٢)

٢ - ولتحقيق الهدف الثاني من اهداف البحث قام الباحثان باستخدام الاختبار التائي (t-test) للتعرف على الفروق بين آراء التدريسيين في كل من الاقسام العلمية والانسانية وقد اختبرت دلالة الفروق للاختبار التائي عند مستوى ٠,٠٥ (١١: ص١٧٨) .

تحليل ومناقشة النتائج

سيقوم الباحثان في هذا الفصل بعرض هدفي البحث كل هدف على انفراد وعلى النحو الآتي : —

اولاً : آراء التدريسيين بالنموذج المقترح لمقومات البحث العلمي : —

كان الهدف الاول للبحث هو التعرف على آراء التدريسيين بالنموذج المقترح لمقومات البحث العلمي في جامعة الموصل ،ولتحقيق هذا الهدف عرضت مقومات النموذج المقترح حسب أهميتها على التدريسيين ،ورتبت فقرات النموذج ترتيباً تنازلياً طبقاً لوزنها المئوي ونوقشت الفقرات الخمس الاولى لانها تمثل اكثر المقومات أهمية وضرورة للبحث العلمي. لقدتباينت تقييمات التدريسيين للنموذج المقترح، ومع ذلك فجميع فقراته البالغة (٣٧) فقرة قيمها التدريسيون في جامعة الموصل على أنها ضرورية جداً وضرورية وبنسبة عالية تراوحت بين ٢٧ , ٩٧٪ و٨٢ , ٦١٪ فقد جاءت فقرة «توفر الدوريات والمصادر المختلفة بشكل منتظم في المكتبة المركزية» في مقدمة النموذج حيث أجمع التدريسيون على أنها من المقومات الضرورية جداً للبحث العلمي . في حين جاءت فقرة « فتح دورات في اللغات الاجنبية للباحثين الذين يشعرون بالحاجة اليها» في مؤخرة النموذج وحصلت على أدنى نسبة من الاستجابات وقد يرجع هذا الانخفاض لحاجة قلة من التدريسيين لمثل هذه الدورات في تطوير لغتهم وهم خريجو الجامعات العراقية والعربية . أنظر الجدول رقم (٣).

وأشارت نتائج البحث المبينة في الجدول رقم(٣) أن هناك سبعة مقومات للنموذج المقترح للبحث العلمي اكثر أهمية من غيرها من المقومات وتمثل أربعة مقومات منها عوامل مساعدة للبحث العلمي لايمكن الاستغناء عنها، وتتمثل في توفير الدوريات وتسهيل عملية طبع البحوث المنجزة وتوفير أجهزة التصوير والاستنساخ في المكتبة المركزية للباحثين لأن عدم توفرها يجعل عملية البحث العلمي محفوفة بالصعوبات والعراقيل ولأن استمرار البحث العلمي ونموه يتوقفان كثيراً على توفيرها. وهناك مقومان مهمان للبحث العلمي ذوا طبيعة . ادارية ومالية هما توفير الاعتمادات المالية الكافية في ميزانية الجامعة لاغراض البحث العلمي وتذليل العقبات الادارية التي تعوق اجراء البحوث، وهذان المقومان لايقلان أهمية عن المقومات السابقة لأن وجود العقبات الادارية كعدم توفير

الجدول رقم (٣)

فقرات النموذج المقترح لمقومات البحث العلمي في جامعة الموصل مرتبة تنازلياً وفقاً للوزن المئوي

رقم الفقرة	الفقرة	ضروري جداً %	ضروري %	غير متأكد %	ليس ضرورياً %	ليس ضرورياً على الاطلاق %	الوزن المئوي
٢٥	توفير الدوريات والمصادر المختلفة بشكل منتظم في المكتبة المركزية .	٨٥،٤٥	١١،٨٢	١،٨٢	٠،٩١	-	٦٠،٦
٢٠	تسهيل عملية طبع البحوث المنجزة في كليات الجامعة .	٧٩،٠٩	١٨،١٨	١،٨٢	٠،٩١	-	٥٨،٣
٨	تقليل العقبات الادارية التي تعيق اجراء البحوث	٧٧،٢٧	٢٠	١،٨٢	٠،٩١	-	٥٨،٠
٢	توفير الاعتمادات المالية الكافية في ميزانية الجامعة لاغراض البحث العلمي .	٧٢،٧٣	٢٤،٥٥	٢،٧٢	-	-	٥٦،٧
١٠	اطلاق البعثات والاجازات الدراسية داخل وخارج القطر لتطوير الكوادر في الجامعة .	٧٣،٦٤	٢٢،٧٢	٣،٦٤	-	-	٥٦،٧
٢١	توفير المواد والادوات الضرورية للأجهزة المستخدمة في البحث العلمي .	٧٥،٤٥	١٩،٠٩	٤،٥٥	٠،٩١	-	٥٦،٣
٢٤	توفير أجهزة التصوير والاستنساخ في المكتبة المركزية للباحثين .	٧٠،٩١	٢٦،٣٦	٢،٧٣	-	-	٥٦،٠
١٩	توفير الورش لصيانة اجهزة البحث العلمي .	٧٢،٧٣	٢٠،٩١	٥،٤٥	٠،٩١	-	٥٥،٠
٢٨	توفير فرص كافية للتدريسيين للمشاركة في الندوات والمؤتمرات العلمية داخل وخارج القطر .	٧٠	٢٧،٢٧	٠،٩١	١،٨٢	-	٥٥،٠

٢٧	تشجيع التفرغ الكلي للتدريسيين لاغراض البحث العلمي داخل وخارج القطر .	٦٥,٤٥	٢٦,٣٧	٥,٤٥	١,٨٢	٠,٩١	٥١,٣
٣١	اعتماد البحث القيم لاغراض الترقية والتعضيد في آن واحد .	٧٠	١٨,١٨	٥,٤٥	٥,٤٥	٠,٩٢	٥٠,٣
٢٦	تتولى هيئة البحث العلمي في جامعة الموصل تسهيل نشر البحوث القيمة .	٦٣,٦٤	٢٥,٤٥	٨,١٨	١,٨٢	٠,٩١	٤٩,٧
٤	اعطاء الحرية للتدريسيين في اختيار البحوث بما ينسجم وخطة القسم.	٦٤,٥٥	٣٠	٠,٩٠	٤,٥٥	-	٤٩,٠
٧	تشجيع عقد الندوات والمؤتمرات في الجامعة .	٥٤,٥٥	٣٦,٣٥	٤,٥٥	٤,٥٥	-	٤٧,٠
١٨	استخدام الاجهزة المتطورة في خزن وتصنيف نتائج البحوث المنجزة داخل وخارج القطر .	٥٥,٥٥	٣٣,٦٤	٦,٣٦	٣,٦٤	٠,٩١	٤٦,٣
١٤	تتولى هيئة البحث العلمي في جامعة الموصل تبادل البحوث المنجزة مع الجامعات والمؤسسات ذات العلاقة داخل وخارج القطر .	٥٠,٩١	٤٠	٥,٤٥	٣,٦٤	-	٤٦,٠
١٧	توفير الكوادر الوسطى لبحث العلمي .	٥٤,٥٥	٣٠,٩٠	٨,١٨	٤,٥٥	١,٨٢	٤٤,٣
٣٠	اتفاق الجامعة مع المؤسسات الاخرى في تخصيص مكافأة مالية للبحوث المنجزة لصالحها .	٤٤,٥٥	٤٥,٤٥	٥,٤٥	٤,٥٥	-	٤٣,٣
١٥	تشجيع التدريسيين للقيام بزيارات ميدانية للمؤسسات خارج الجامعة للوقوف على مشكلاتها .	٤٢,٧٣	٤٨,١٨	٤,٥٥	٤,٥٥	-	٤٣,٠
٣	اعداد خطة سنوية للبحث العلمي من قبل الاقسام بالتنسيق مع هيئة البحث العلمي .	٣٤,٥٤	٤٢,٧٣	١٠	١٢,٧٣	-	٤٢,٠
٥	تشجيع التدريسيين من قبل أقسامهم لانجاز البحوث المعروضة من هيئة البحث العلمي في الجامعة .	٤٥,٤٥	٣٩,٠٩	٩,٠٩	٦,٣٧	-	٤١,٣
٦	متابعة الاقسام للبحوث المسجلة ضمن خططها .	٤٠,٩١	٤٦,٣٦	٧,٢٧	٤,٥٥	٠,٩١	٤٠,٧
٢٩	تشجيع التفرغ الجزئي للتدريسيين لأغراض البحث العلمي .	٣٠,٩١	٤٥,٤٥	١٧,٢٧	٤,٥٥	١,٨٢	٣٨,٧

٣٢	منح التدريسيين سنة واحدة تفرغاً لأغراض الترفيع عند ترقيتهم علمياً.	٥٠,٩١	٢٨,١٨	٨,١٨	١٠	٢,٧٣	٢٨,٣
١٢	تحول هيئة البحث العلمي في جامعة الموصل أعلام الجامعات العراقية والمؤسسات ذات العلاقة بالبحوث قيد الانجاز.	٣٩,٠٩	٤٦,٣٦	٤,٥٥	١٠	-	٢٨,٣
٢٤	تخصيص أماكن ملائمة لبحث العلمي في كل قسم.	٤٠	٤٢,٦٤	٦,٣٦	٨,١٨	١,٨٢	٢٧,٣
٣٣	رفع حدود المكافآت المالية عند تغطية البحوث.	٣٨,١٨	٤٠,٩١	١١,٨٢	٩,٠٩	-	٣٦,٠
٩	تشجيع تكوين الفرق البحثية في الجامعة.	٤٠	٣٢,٧٣	١٥,٤٥	٩,٠٩	٢,٧٣	٣٥,٣
٢٣	توفير الخدمات المكتبية بعد انتهاء الدوام الرسمي.	٣٤,٥٥	٤٥,٤٥	١٠	١٠	-	٣٥,٠
١٣	تشجيع التدريسيين لمشاركة في اللجان العلمية في المؤسسات خارج الجامعة.	٣٠,٩١	٤٨,١٨	٩,٠٩	١٠,٩١	٠,٩١	٣٢,٣
٣٦	تحول هيئة البحث العلمي التأكد من كون البحوث المزمع القيام بها لا تسبب اجراءاتها ضرراً للانسان.	٤٠,٩١	٢٦,٣٦	٢٠	١١,٨٢	٠,٩١	٣١,٧
٣٥	منح جائزة تقديرية سنوية من قبل هيئة البحث العلمي لأفضل بحث مقيم في كل قسم.	٤٠	٣٠,٩	١٣,٦٤	١٣,٦٤	١,٨٢	٣١,٣
١١	اعتماد صيغة العقود بين الباحثين في الجامعة والمؤسسات خارجها في تنفيذ البحوث.	٤٥,٤٥	٢٣,٦٤	١٧,٢٧	١٠,٩١	٢,٧٣	٢٩,٣
١	إستحداث هيئة لبحث العلمي لتخطيط وتنظيم البحث العلمي في الجامعة.	٣٤,٥٥	٣٩,٠٩	٧,٢٧	١٦,٣٦	٢,٧٣	٢٧,٧
٢٧	تشجيع طلبة الدراسات العليا للقيام بالبحوث التي تعرضها هيئة البحث العلمي.	١٥,٤٥	٥٦,٣٦	١٤,٥٥	١٠,٩١	٢,٧٣	٣٣,٧
١٦	تحول هيئة البحث العلمي في الجامعة التنسيق بين الاقسام المتناظرة فيها.	٢٤,٥٥	٤٥,٤٥	١٤,٥٥	١٢,٧٢	٢,٧٣	٣٢,٣
٢٢	فتح دورات في اللغات الاجنبية للباحثين الذين يشعرون بالحاجة اليها.	١٨,١٨	٤٣,٦٤	١٨,١٨	١٨,١٨	١,٨٢	١٩,٣

المعلومات والبيانات أو حجبها عن الباحثين وغير ذلك يعتبر معوقاً وكذلك الحال بالنسبة لتوفير الأموال اللازمة للصرف على متطلبات البحث كشراء الاجهزة المستخدمة في البحث والمواد وصرف المكافآت للباحثين وغيرها. اما المقوم الآخر في قائمة المقومات التي لها أولوية في النموذج المقترح للبحث العلمي فهو اطلاق البعثات والاجازات الدراسية داخل وخارج القطر لتطوير الكوادر في الجامعة، ذلك ان اتاحة الفرصة للكوادر لاكمال دراستهم العليا داخل وخارج العراق يسهم كثيراً في تطوير البحث العلمي في الجامعة. وقد أعرب ٩٦،٣٦٪ من التدريسيين بأن هذا المقوم ضروري جداً أو ضروري، وهذا يعبر عن واقع الكوادر التدريسية في الجامعة وحاجتها الى التطوير، والجدير بالذكر ان التدريسيين الحاصلين على شهادة الماجستير والذين هم بدرجة مدرس مساعد يشكلون نسبة قدرها ٤٤،٩٪ من الكادر التدريسي في الجامعة وقت اجراء البحث

ثانياً: الفروق في آراء التدريسيين في الأقسام العلمية والانسانية للنموذج المقترح

تحدد الهدف الثاني من البحث بمقارنة آراء التدريسيين في الاقسام العلمية والانسانية للنموذج المقترح لتحديد مقومات البحث العلمي الاكثر أهمية لكل منهم: وقد استخدم الباحثان الاختبار التائي t-test لايجاد الفروق في آراء التدريسيين في الاقسام العلمية والاقسام الانسانية لكل مقوم من مقومات النموذج المقترح. وقد أظهرت نتائج الاختبار التائي وجود فروق ذات دلالة احصائية عند مستوى (٠،٠٥) في ثمانية مقومات كما هو موضح في الجدول رقم(٤).

وطبقاً للنتائج السالفة الذكر يتبين أن جميع فقرات النموذج المقترح للبحث العلمي لجامعة الموصل البالغة (٣٧) فقرة ضروري للاقسام العلمية باستثناء فقرتين هما رقم(١٤) ورقم(٢٢) فهما أقل ضرورة للاقسام العلمية. أما فقرات النموذج المقترح الضرورية للاقسام الانسانية فقد بلغ عددها (٣٢) فقرة من أصل فقرات النموذج البالغة (٣٧) فقرة حيث كانت الفقرات ذوات الارقام(٣٦) و (١٧) و (١٩) و(١١) و (٢١) و (٦) أقل ضرورة بالنسبة للارقام الانسانية.

الجدول رقم (٤)

مقومات البحث العلمي التي ظهرت فيها فروق ذات دلالة احصائية بين آراء التدريسيين في الاقسام العلمية والانسانية

رقم الفقرة	الفقرات	الاقسام العلمية		الاقسام الانسانية		القيمة التائية
		المتوسط	الانحراف المعياري	المتوسط	الانحراف المعياري	
٣٦	تتولى هيئة البحث العلمي التأكد من كون البحوث المزمع القيام بها لا تسبب اجراءاتها ضرراً للانسان .	٠,٩٨	١,١٨	١,١٢	٠,٣٩	٣,٥١*
١٧	توفير الكادر الوسطي للبحث العلمي .	٠,٧٢	١,٥٣	١,١٨	٠,٨٢	٣,٢٢*
١٩	توفير الورش لصيانة أجهزة البحث العلمي .	٠,٤٠	١,٨١	٠,٨٨	١,٣٠	٣,١٣*
١٤	تتولى هيئة البحث العلمي في جامعة الموصل تبادل البحوث المنجزة مع الجامعات والمؤسسات ذات العلاقة داخل وخارج القطر .	٠,٨٢	١,٢٧	٠,٤٩	١,٦٤	-٢,٨٨
٢٢	فتح دورات في اللغات الاجنبية للباحثين الذين يشعرون بالحاجة اليها .	١,٠٤	٠,٤٣	٠,٩٧	٠,٩٤	-٢,٤٨
١١	اعتماد صيغة العقود بين الباحثين في الجامعة والمؤسسات خارجها في تنفيذ البحوث .	١,١٨	١,٢٩	١,١٦	٠,٧٠	٢,٤٣*
٢١	توفير المواد والادوات الضرورية للاجهزة المستخدمة في البحث العلمي .	٠,٥٥	١,٧٨	٠,٦٧	١,٤٨	٢,٢٣*
٦	متابعة البحوث المسجلة ضمن خطتها .	٠,٦٤	١,٣٥	١,١٣	٠,٩١	٢,١١*

* ذات دلالة احصائية عند مستوى ٠,٠٥

التوصيات

في ضوء النتائج التي أسفر عنها البحث ولتعزيز البحث العلمي في جامعة الموصل يوصي الباحثان بما يأتي :

١ – اغناء المكتبة المركزية للجامعة بالدوريات والمصادر وتوفير عدد كاف من أجهزة التصوير والاستنساخ واعتماد الاساليب الحديثة في خزن المعلومات .

٢ – التخفيف من الاجراءات الروتينية لاجراء البحوث وزيادة الاعتمادات المالية لهذا الغرض.

٣ – توفير الفرص المناسبة لزيادة الكفاءة العلمية للتدريسيين ورفع مستوياتهم بالاطلاع على الخبرات الاجنبية من خلال زيادة عدد المبحوثين والمشاركة في المؤتمرات العلمية داخل وخارج العراق.

٤ – ضرورة مراعاة خصوصية الاقسام العلمية والانسانية في أمور البحث العلمي والتعامل مع هذه الاقسام بصيغ مرنة تتفق مع طبيعة تخصصها.



المصادر

١ – فلتشر ، باسل (١٩٧٢) . الجامعات في العالم المعاصر . ترجمة موفق الحمداني ، بغداد : دار الحرية للطباعة .

٢ – السماك ، محمد ازهر وآخرون (١٩٨١) ، البحث العلمي في جامعة الموصل وخطط التنمية القومية ، الموصل : وقائع الندوة العلمية والتربوية لجامعة الموصل للفترة ٢٨ – ٣٠ تشرين الثاني ١٩٨١ . ص ٢١٣ – ٢٣٢ .

٣ – صيداوي ، احمد (١٩٨٤) ، التعليم العالي العربي من الواقع ,النوعي الى التطور النوعي ، المجلة العربية لبحوث التعليم العالي . العدد الثاني ص ٣ – ٣١ .

٤ – الكناني ، ابراهيم عبد الحسن (١٩٧٤) . المهمات المهنية لأعضاء الهيئة التدريسية في جامعة بغداد . رسالة ماجستير في التربية وعلم النفس غير منشورة .

٥ – مرسي ، مد عبد العليم (١٩٨٤) ، معوقات البحث العلمي في الوطن العربي . رسالة الخليج ، العدد ١٨ ، السنة الرابعة . ص٢٧ – ٦٩ .

٦ – المؤتمر العام الثاني (١٩٧٣) . الجامعات العربية والمجتمع العربي المعاصر . القاهرة : جامعة القاهرة .

٧ – النشار ، محمد حمدي (١٩٧٦) . الادارة الجامعية : التطوير والتوقعات القاهرة : مطابع الاعلانات الشرقية .

٨ – النقيب ، عصام (١٩٨٥) ، دور العلم في التنمية والتغيير في الوطن العربي : افكار اولية ، المستقبل العربي ، السنة ٨ ، العدد ٨١ ص٤٧– ٦٧.

٩ – هرمز ، صباح حنا وصلاح طه (١٩٨١) . مشكلات اعضاء الهيئة التدريسية في جامعة الموصل . الموصل : وقائع الندوة العلمية والتربوية لجامعة الموصل ٢٨ – ٣٠ تشرين الثاني ١٩٨١ ، ص٨٩ – ٢٦.

10. Brit, G. (1963) . *Commitee on Higher Educiaon* . LLondon HMSO.

11. Ferguson,G.. A (1981) . *statistical Analysis In sychologg and Education* . (5th ed), N.Y. McGraw- Hill Book com - pany.

12. Helmstadfer, G.C. (1964) *Prin ciples of Psychological Me - asurement* . N.Y. Appleton- Century- Crofts .

13. Orlans, H. (1963) . *The Effects of Federal Programms on Higher Education* . Washington: Brookings Institution.

14. Wyld, H.C. (1974). *The Universnl Dictionary of the Englash* Language. Tokyo: Toppan company.



بياجيه « واركسن » والنمو الذهني والنفسي

زيد عبدالكريم جايد
كلية الآداب — جامعة الموصل

هناك اسس وقواعد عامة تخضع لها الكائنات البشرية في نموها خلال المراحل المختلفة اضافة الى وجود خصائص يتفرد بها كل انسان وترتبط بالظروف والعوامل الداخليــة (الذاتية) والخارجية المحيطة به . لذلك فان التنبؤ بما سيكون عليه الكائن البشري) والطفل خاصة) مستقبلاً أمر متعذر مالم تؤخذ تلك العوامل والخصائص التي ينفرد بهـا الطفل بنظر الاعتبار . فالنمو العقلي مثلاً يختلف في مقداره من طفل لآخر حتى فـي حالة تساوي هؤلاء الاطفال في عمرهم الزمني اذ يتقدم الموهوب بعمره العقلي على اقرانه في العمر الزمني ويتخلف لدى المعوقين ذهنياً عن العمر الزمني .

لقد درس العالم السويسري «جان بياجيه» JEAN PIAGET النمو العقلي للأطفال من خلال ملاحظاته لهم منذ ان كان يبحث في مختبر مدرسة العالم النفسي «بينيه» ، ALFRED BINET عن استجاباتهم حول فقرات اختبارات الذكاء التي وضعها بينيه ثم في العيادة النفسية بمدينة زيورخ فكان يقابل الاطفال في محاولة لاكتشاف الطرائق

والاساليب التي يتمكنون من خلالها التوصل الى الاجابة ، وهذا ما حفزه لدراسة النمو العقلي مستخدماً اسلوب الملاحظة والمقابلة ، كما انه استفاد كثيراً من ملاحظاته عن اطفاله جاكلين و لوسين ، ولورنت . وقد تركزت اهتماماته على دراسة الفرق بين تفكير الطفل والراشد ، حيث يرى ان مفاهيم وافكار الطفل غريبة جداً عن افكار ومفاهيم الكبار ؛ ومن جهة اخرى فان افكار الطفل ذي السبع سنوات تتمركز حول ذاته EGO CENTRIC وتتأثر بحاجاته ورغباته الشخصية اكثر من تأثرها بفهم ما يجري في بيئته .

لقد انعكس تخصص بياجيه بعد حصوله على الدكتوراه في العلوم الحياتيه من جامعة لوزان ، انعكس على مسيرة بحوثه ودراساته حين تبنى اطارا بايولوجيا BIOLOGICAL MODEL للنمو ، اضافة الى تأكيده دور البيئة . فهو يرى ان النمو العقلي للطفل لايمكن ان يتم بشكله الصحيح الاعند وجوده في بيئة يتفاعل معها ، لكونه بحاجة لاقامة علاقات مع الاطفال والكبار الاخرين ومواد البيئة حيث تؤدي الى اكتساب قدرات جديدة يمكن ان ترتسم لها ملامحها المحددة من خلال عملية التنشئة (NURITION) . وتأكيداً لذلك فان هيب (HEBB,1949) قد اشار في دراسة له عام ١٩٤٩ الى ان اختلاف نمو القدرات العقلية لدى الافراد يعود للفروق في العوامل الوراثية والى الفروق في المثيرات النفسية/العضلية Psychomotor خلال السنة الاولى والثانية من حياة الفرد .

اما أريك أريكسون فهو احد رواد الفرويدية الحديثة حيث يؤكد على سيكولوجية الانا . ولقد بذل اهتماماً كبيراً في دراسة مشكلات « كينونة الفرد » وفي كتابه « CHILDHOOD AND SOCIETY » افترض وجود ثماني مراحل متتابعة للنمو يتخللها تقاطعات المهمات النفسية التي ينبغي للفرد ان يجتازها بنجاح من اجل الوصول الى النضج النفسي والاجتماعي . كما تكتسب مرحلة المراهقة في نظرية اريكسون اهمية كبيرة تحتوي على اهم التقاطعات النفسية ، اذ يحاول المراهق مواصلة تشكيل شخصيته من خلال فعاليات الانا او النفس الواعية « Conscious self » .

وكنتيجة لاهتمامات اركسن بصراعات كينونة الفرد فانه قام بدراسة مختلف الشخصيات التاريخية والفلسفة الهندية ، ويبدو ذلك واضحاً في كتابه « Young Man Luther » وما فيه من اهتمام واسع «بالتاريخ النفسي» « Psychohistory » (١) .

واثارت نظريته اهتمام العديد من الباحثين النفسانيين في ميدان النمو الانساني وظهور اتجاهات جديدة تقلل من الاعتماد على مرحلة الطفولة في دراسة الشخصية كما كانت عليه الفرويدية القديمة ، وفضلاً عن ذلك فقد وجهت نظريته الاهتمام لدراسة مرحلة المراهقة وما يبرز فيها من صراعات ونمو نفسي لـه دوره الكبير في تشكل الشخصية وكذلك في دراسة حياة الفرد بأكملها .

من جانب آخر ، فان نظرية اركسن تفترض بأن تحليل التداخل بين خبرات الحياة اليومية والمؤثرات البايلوجية ضروري جداً لفهم الشخصية اذ تستحيل دراستها خارج نطاق هذين المؤثرين . وخلال نموه في المراحل الثماني التي حددتها النظرية فان الفرد يتعرض لصراعات (CRISES) ناجمة من تعارضه مع البيئة ، وقد اكدت النظرية على وجود هذه الصراعات في كل مرحلة من مراحل النمو النفسي الاجتماعي للفرد كما ان هذه الصراعات تستلزم معالجتها قبل ان يكون الفرد مهيأ للدخول في المرحلة القادمة اي انه سيظل يعيش احداث مرحلة دونية حتى بعد تجاوز عمره لفئة تلك المرحلة عند فشله في حل صراعاتها .

تفترض نظريتا بياجيه واركسن محتوى منظما من المراحل لهما وتصميماً فعالاً بنظمه ، حيث يعتقد ان الشخص له مساهماته الفعالة في نموه الخاص ، وعلى الرغم من كون بياجيه يهتم بالنمو المعرفي واركسن في التحليل النفسي — الاجتماعي فأن نظرية بياجيه تدرس الانسان منذ ولادته وحتى دور المراهقة لحوالي سن الخامسة او السادسة عشر بينما تهتم نظرية اركسن بالفرد في مراحل حياته كلها والتي قسمتها الى ثماني مراحل سيرد ذكرها في هذا البحث لاحقاً . وترى النظرية الاخيرة ايضاً ان العلاقات الاجتماعية اليومية واتجاهات الآخرين ممن يحيطون بالطفل تظهر تأثيراتها في ردود فعله سواء في مواقف الحياة العادية أو عندما يكون في موقف اختباري ، لذلك فانه يعتقد بان الموقف الامتحاني يمثل نوعاً مصغراً للحياة الاجتماعية (VERNON 1979) .

لقد حدد اركسن الى جانب المراحل الثماني ثلاث مراحل اخرى للنمو الاخلاقـــي تحتل مكانتها بصورة تلقائية خلال نمو الكائن البشري ، وهي : —

١ — المرحلة الاولى : وتتضمن القضايا والقواعد الاخلاقية التي تعلم للطفل في مرحلة الطفولة .

٢ – المرحلة الثانية : وتشتمل على الخبرات الايديولوجية التي يكتسبها الفرد في مرحلة مراهقته .

٣ – المرحلة الثالثة : وتتضمن امتزاج ماتعلمه الفرد من القواعد الاخلاقية واكتسابها المتانة والصلابة في مرحلة الرشد للحد الذي يصبح فيه قادراً على تبنيها والدفاع عنها .

تعتمد نظرية علم النفس – اجتماعي Psychosoclal لاركسن على مبدئين اساسيين هما : –

١ – ان تقدم الفرد من مرحلة الى اخرى لايمكن ان يتم الا عندما يكون مهيأ من النواحي البايلوجية ، النفسية ، والاجتماعية التي تؤهله للانتقال للمرحلة القادمة .

٢ – تساوي وامتزاج فهم الفرد مع الفهم الاجتماعي يعد هدفاً رئيسياً يحققه الفرد في نموه . ان من اهم مايميز هذه النظرية النفسية – الاجتماعية هي ان اركسن صاغ مراحلها واطارها النظري اعتماداً على رصده ومراقبته للحياة الاجتماعية العامة والاساليب التي يتصرف بها الافراد في مجتمعهم ، وهذا ماجعلها تختلف عن بعض النظريات الاخرى التي اعتمدت في صياغتها على البحوث او الحالات المرضية والشاذة منها كما هو الحال في نظرية فرويد في التحليل النفسي او نظرية الذات لكارل روجرز .

يعتقد اركسن بأن التغيرات التي تحصل في البيئة وما ينجم عنها من متطلبات جديدة غير تلك التي اعتادها الفرد سابقاً ستجعله يواجه صراعاً جديداً تزداد حدته تحت وطأة التناقض بين الفرد والمتطلبات القديمة من جهة وبين تلك المتطلبات الجديدة من جهة أخرى وهذا ما دفع اركسن لتسمية التعارض الناجم بين الفرد والبيئة «بالصراع» Crise

ولنعد الى بياجيه الذي يرى ان النمو العقلي عملية تنظيم واعادة تنظيم مستمرة لمواد وخبرات البيئة ، فلقد افترض اربع مراحل متتالية لنظريته هي : –

١ – المرحلة الاولى : الحسية الحركية SENSORIMOTOR PE RIOD
وتبدأ من الولادة وحتى عمر سنتين .

٢ – المرحلة الثانية : فترة ماقبل التفكير الاجرائي PREOPERATIONALPERIOD
وتبدأ من السنتين الى عمر السبع سنوات .

٣ – المرحلة الثالثة : مرحلة العمليات الحسية CONCRET OPERATIONAL PERIOD
من عمر السبع سنوات الى الحادية او الثانية عشرة من العمر .

٤ـ المرحلة الرابعة: مرحلة العمليات الرسمية FORMAL OPERATIONAL PERIOD وهي الاخيرة اذ تمتد من الحادية او الثانية عشرة وحتى الخامسة عشرة عاما من العمر .

يجتاز الاطفال هذه المراحل بالتتابع وفق الاعمار الزمنية المذكورة باستثناء الاطفال المعوقين ذهنياً الذين يظهرون تأخراً وابطاء في اجتيازهم لهذه المراحل ، فلا يمكن ان يعبر الطفل لمرحلة اعلى دون المرور بالفترة التي قبلها ، فالمرحلة الجديدة دائماً تظهر وتتشكل على اساس المرحلة السابقة وكما ذكر فان الابطاء او التوقف في اجتياز اية مرحلة يعد دليلاً على انخفاض المستوى الذهني او الذكاء الذي يرى بياجيه انه شكل من اشكال التكيف البايلوجي بين الفرد او البيئة اي انه (الذكاء) يتمثل بقابلية الطفل على التكيف للمواقف البيئية في الاعمار المختلفة وكدليل على ما تقدم فقد وجد (لوفل واخرون (LOVELII etoals 1962) ان الاطفال المعوقين بعمر ١٤ ــ ١٥ سنة ينجزون ما يستطيع اطفال السبع سنوات والنصف من انجازه فقط وخاصة في المفاهيم العددية Ceometrecal Concept

سيستعرض الباحث في أدناه طبيعة كل مرحلة لكلتا النظريتين لتسهيل مهمة دراستها:

١ ــ **الفترة الأولى** منذ ولادته ، يستطيع الطفل ان يقوم باعمال محدودة جداً كالرضاعة وطرح الفضلات وتتكون انشطته من حركات كلية MASS MOVEMENTS مع استجابات قليلة متخصصة ومتوافقة بحدود معقوله . كما انه يولد لديه تهيج عام يعبر عنه بالصراخ الذي يتعدل ويتحول من خلال البيئة ،وخلال نموه في هذه المرحلة فان سلوكه يتحول من استجابات حادة ومتطرفة الى انماط سلوكية معدلة، يكون قادراً من خلالها على تأجيل بعض طلباته لبضع ساعات ثم ايام . فالطفل بعمر ستة اشهريتمكن من التنسيق بين حركة عينيه ويديه،وفي الشهر التاسع يستطيع الوصول الى لعبة تخفي عن بصره اذا ما راقب عملية اخفائها . وفي عمر ١٨ شهراً فانه يقوم بمحاكاة سلوكية تعبيرية كتحريك العين أو تغيير تعابير الوجه ، وفي حوالي الستين فانه يكون قادراً على تأجيل اداء الحركة التي يقلد بهـا غيره لبضعة ايام بعد ان شاهدها للمرة الاولى .

ويعزو بياجيه قدرة الطفل على محاكاة انماط سلوكية تمت ملاحظتها ام لا، يعـزوها الى زيادة الاتساق بين مختلف الاعضاء الحسية من جهة والى اكتساب وتكوين الصـور الذهنية لتلك الانماط.

يسحب الطفل في هذه المرحلة قطعة القماش التي وضعت اللعبة فوقها ليقربها لمتناول يده بعد ان ادرك العلاقة بين قطعة القماش واللعبة، وهذا مااطلق عليه بياجيه (خطة الفعالية « ACTION SCHEME » والتي عرفها (MUSSEN et.al1979) بانها استجابة عامة يستخدمها الطفل لمعالجة المشكلات المختلفة التي يمربها. كما يستطيع الطفل في نهاية هذه المرحلة البحث عن اللعبة التي اخفيت دون علمه أو ملاحظته لاخفائها. فهو في نهاية هذه الفترة يعرف ان اية مادة لها وجود دائم لاينتهي او يتلاشى بمجرد اختفائها عن نظره (PIAGET,1947) كما انه يستطيع تقليد نماذج مكعبات بسيطة لم ير طريقة تركيبها في حين انه لم يكن قادراً على ذلك في عمر ١٢ شهراً انما يستطيع تقليد مايرى طريقة تركيبه من نماذج بسيطة في هذا العمر. ويستطيع الطفل في هذه المرحلة معالجة بعض الاشياء يدوياً بطريقة المحاولة والخطأ ولهذا فهو لايستخدم اللغة ورموزها في ذلك، كما يتعلم خلال هـــــذه المرحلة كيفية تطوير فكرته عن «مفهوم السببية» CASUALTY CONCEPT والتي تعرف بأنها «مقدرة بسيطة نسبياً لتوقع سلسلة متتابعة من الاحداث تتبع سبباً محـــدداً او بأنها تحديد السبب الذي تنجم عنه نتيجة او اجراء محدد، انه يكون قادراً على ادراك العلاقات ذات التسلسل المرتبط بنموه الزمني.

يعتقد بياجيه ان الطفل في هذه المرحلة يمر بثلاثة احداث مهمة هي: —

١ — تعلمه من خلال خبراته ان الاشياء لاتتوقف عن الظهور او لايمكن ان تختفي نهائياً عند غيابها عن بصره فيقوم بتكوين صورة ذهنية لهذه الاشياء.

٢ — اكتشافه بأن الاشياء الموجودة في البيئة اشياء دائمة حتى اذا ماكانت تلك الاشياء او (الافراد) تبدو في اشكال واوضاع مختلفة وهذا كما يرى بياجيه يعد دليلاً على سلوك ذكي يقوم به الطفل، فهو يتعرف على امه مثلاً اذا ماغيرت ثيابها او تسريحة شعرها او زينتها.

٣ — تعلمه الربط السببي بين الاحداث. اي ان نتيجة معينة لسلوك محدد ستكون سبباً لحدث جديد، فاستمراره في الصراخ سيجبر الوالدين على الاستجابة لحمله، ومسكه للمدفأة سيسبب له الماً حاداً فيتعلم تجنبها.

تكتسب هذه الاحداث الثلاثة اهميتها في نظر بياجيه من كونها تجعل الطفل قادراً على الابتعاد التدريجي عن التمركز حول الذات MOVE AWAY FROM EGO-CENTRIC

تقابل المرحلة الاولى في نظرية بياجيه مرحلة الطفولة المبكرة» في نظرية اركسن الذي يسمي السنة الاولى من الحياة «بالفترة الحرجة» في تنمية الثقة بالآخرين .

يؤكد اركسن على هذه المرحلة «EARLY INFANCY STAGE» والممتدة خلال السنتين الاوليين من الحياة تأكيده على المراحل الاخرى في نظريته ، لكنه يربط الفترة الزمنية لكل مرحلة بالفروق الفردية التي يعطيها الدور الرئيسي لتمديد طول أو قصر أية مرحلة من مراحل النمو (FONTANA, 1978) ويرى اركسن ان الطفل سيمتلك فهما او حساً للثقة (TRNST) اذا ما حصل على امومة جيدة، بينما يكون كثير الخوف والقلق وان عليه ان يحصل على ما يريد عن طريق الاعتداء على الآخرين او الصراع معهم عندما تكون امومته سيئة وغير مراعية لحاجاته بالشكل الصحيح، وقد اعطى اهمية للفروق الفردية اذ اعتمد عليها بشكل رئيسي في تحديد طول اوقصر الفترة التي يقضيها الطفل لاجتياز مرحلة معينة. ومن جهة اخرى فقد اكد اركسن على تأثير الفم في نمو الطفل النفسي الاجتماعي لكونه الوسيلة الاساسية التي تربطه بالحياة وشبهه «حزمة ضوئية تحقق اول ارتباط عام بالحياة »

AS THE FOCUS OF GENERAL FIRST APPROACH TO LIFE وخبرات الطفل الاولى THE CORPORATIVE APPROACH للوظائف التي يقوم بها لها دور آخر اضافة لمهمتها في حفظ الحياة واستمرارها ،فهي تساعد الطفل على تنسيق عملياته الذاتية في تخلصه من الفضلات مثلاً او القيام بالاعمال ذات الطابع اليومي المتكرر «CIRCULATORY RHYTHMS» كما ان احساس الطفل الاول«بالثقة» يساعده على النمو السيكولوجي وتقبله للخبرات الجديدة بمحض ارادته (ERIKSON).

٢ — مرحلة ما قبل التفكير الاجرائي :—

يعتبر بياجيه هذه المرحلة الجانب الاعدادي للمرحلة القادمة (مرحلة العمليات الحسية)، ويختلف اتباعه في النظر اليها كمرحلة مستقلة ام تابعة؛ (FLAVELL) يذهب للرأي نفسه بينما يراها (DONALDSON)جزءاً فرعياً من مرحلة طويلة اسماها مرحلة العمليات الحسية الطويلة. وتمتد هذه المرحلة من عمر سنتين الى سن السابعة او الثامنة من العمر وقد تعامل بعض العلماء النفسيين معها على انها مرحلة مستقلة حيث يرون معظم محتوياتها المعرفية سلبية اذا ما قورنت مع المراحل الاخرى، لذلك فان الجزء الاكبر من هذه المرحلة يحدد في ضوء غياب القابليات الواضحة الصريحة.

وقد اشار بياجيه الى هذه المرحلة من النمو الذهني كما لو انها مرحلة لعرض او تمثيل الذكاء، فالطفل يكتسب القدرة على اجراء عمليات لاكتشاف التشابه والاختلاف من خلال استخدامه اللغة والصور الذهنية، لكنه مع نمو قدرته في استخدام اللغة والتفكير الرمزي سيظل يعاني من صعوبات في استيعاب وجهة نظر طفل او راشد آخر، اذ يستخدم الكلمات الجاهزة التي ترد على ذهنه حول موضوع معين مباشرة، واستخدام كهذا يكون بشكل ينقصه التنظيم والترتيب. كما ان استخدام الاسماء في هذه المرحلة هو الخطوة الاولى لاستخدام اللغة فهو يمكنه من التفريق والتعرف الغامض ـ الى حد ما ـ على الاشياء المادية الثابتة.

ان بداية الاستخدام الحقيقي للغة هي التي تحدد نهاية مرحلة الطفولة الاولى (INFANCY) للاطفال الاسوياء، اما نهاية المرحلة الحسحركية فتكون باستخدام الطفل للصور والرموز واللغة في تفكيره. فالطفل عندما يميز أباه بصرياً ثم يسميه (بابا) يظل يتعرف عليه ويعرفه حيث يكون له من بعد فكرة واضحة حتى عند غيابه، وهـو في هذه المرحلة لايستطيع ان يحصر انتباهه على كل من الكمية والحجم في تعامله مع جوانب اخرى للمادة نفسها فلو اعطيناه كـرة من الطين الاصطناعي، ثم قمنا بعد تفحصه لها بتحويلها لشكل اسطواني فان الطفل يستنتج من ان الكرة والاسطوانة يحتويان كميات مختلفة من الطين الاصطناعي مع انهما في الحقيقة يحتويان على الكمية نفسها.

يظل النمو في بداية هذه المرحلة غير متكامل في الجانب المعرفي، فهو يستمر بأفكاره ذات الطابع المتمركز حول ذاته «EGO CENTRIC» وهذا ماتدل عليه استجاباته المبنية في معظمها على اهتماماته الخاصة، لكنه من جهة اخرى يصبح قادراً على استخدام الرموز التي تؤهله للثبات في تصرفاته ويتدرج بـه النمـو ليكون قادراً عـلى تمثيل واسترجاع تلك التصرفات دونما حاجة لاعادتها وتنفيذها عملياً. وهـو يرى الاشياء من زاويته الخاصة فقط ويصفها اعتماداً على ادراكه لها، فعندما يسلط انتباهه عـلى بعض مكونات موقف معين فأنه سيتجاهل العوامل او المكونات الاخرى لذلك الموقف مـع انها تمتلك ذات الاهمية في ذلك الموقف. فاذا ماعرضنا قدحين متشابهين تماماً ومملوئين بكمية متساوية من الماء، ثم سكبنا احدهما في قدح طويل وضيق فان الطفل سيقول بان الماء في القدح الاخير اكثـر منه في القدح الآخر وذلك لكون مستوى الماء قـد ارتفع فيه اكثـر بسبب ضيقه. يـرى

بياجيه ان الطفل لايستطيع فهم ماتعنيه «الكمية» ، لذلك فهو غير قادر على فهم ان كمية الماء بقيت كما هي على الرغم من تغيير شكل القدح .

والطفل في هذه المرحلة ايضاً لايستطيع الرجوع في الاتجاه المعاكس لنقطة معينة فهو يضيف أربعة الى ثلاثة لتكون سبعة لكنه لايجد الأمر سهلاً للحصول على الاربعة من طرح ثلاثة من السبعة اذا ماطلبنا منه ذلك بعد فترة وفي موقف منفصل عن الموقف السابق. ويمكن عكس العمليات العقلية عندما يتمكن الفرد ذهنياً من الرجوع بتفكيره الى الخلف للعودة الى النقطة الاصلية التي ابتدأ منها اولاً . ومن جهة اخرى فان الطفل في هذه المرحلة يعتقد ان كل مادة لها شعور واحساس ، فالباخرة تشعر بثقل حمولتها والمدفأة تعاني من حرارة اللهب المشتعل بداخلها . لكن هذا الاعتقاد يتطور تدريجياً ليشمل الاشياء المتحركة فقط فتظل الباخرة والسيارة تشعران وتدركان اتجاه رحلتهما ، اما الصخور والحيطان فهي لاتشعر او تحس بما حولها . اما في عمر المرحلة القادمة ٨ — ٩ سنوات فهو يكتشف ان الاشياء التي تشعر هي الاشياء التي تتحرك بذاتها حيث تنحسر صفة الشعور عن السيارة والحيطان .

طلب بياجيه من بعض الاطفال ان يتعرفوا على الطفل المقصر : هل هو الفتاة التي كانت تساعد امها في المطبخ فكسرت عشرة اطباق ام الطفلة التي كسرت طبقاً واحداً عندما ارادت الوصول الى علبة الحلوى التي وضعتها امها فوق الرف . اجاب الاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين ٥ — ٧ سنوات روتينياً بأن الطفلة الاولى اكثر تقصيراً اما الاطفال الذين تجاوزت اعمارهم هذه المرحلة فقد اجابوا بعد مناقشة بينهم توصلوا من خلالها الى ان الطفلة الثانية اكثر تقصيراً لكون هدفها اقل خلاصاً من هدف الطفلة الاولى.

ان عالم الطفل في هذه المرحلة تبعاً لرأي بياجيه هو عالم اكثر استقراراً ويتسع لكثير من المواد والاجسام الثابتة التي بدأ بادراكها خلال المرحلة السابقة . كما ان فكرة الماضي والمستقبل وكذلك الحاضر تصبح من الامور التي بامكانه التعامل معها . اما العلاقات التي تنشأ بين المواد والاحداث فهو يعتقد بانها غير مستقرة .

في نظرية اركسن هناك مرحلتان تقعان في الحدود العمرية لمرحلة ماقبل التفكير الاجرائي هما المرحلتان الثالثة والرابعة اللتان تتضمنان الفترة الاخيرة من الطفولة المبكرة جداً (INFANCY) ومرحلة الطفولة المبكرة . يصل الطفل لنهاية فترة الرضاعة وهو في سنوات الحضانة (٣سنوات) ثم في عمر رياض الاطفال التي تقابلها فترة (Infant School) اذ يتطور

بنموه البايولوجي كي يكون مستقلاً عن الاخرين لكنه في بعض الاوقات يشد نفسه لامه بيئة ا يبتعد عنها في احيان أخرى ويبدأ بالتدريب على السيطرة على مثانته والتخلص من فضلاته ويتدرج في طريق الاستقلال التام كنتيجة لصراعات الارادة الناجمة بينه ووالديه والهادفة لضبط وضعه الجسمي والسيطرة على طرح فضلاته . يعتقد اركسن ان هذه الفترة تبدو وكأنها تقدم احساساً بالانفصال والكآبة الشاملة حول ما يسميه اركسن «بالجنة المفقودة» وعندما يشعر الطفل بعارضه مع الكبار الذين يظنون ان التحكم الذاتي يختلف بمفهومه عما يكوّن عليه الطفل فانه يشعر بنقص في الضبط الذاتي SELF CONTROL ويشعر بالشك والارتباك والخجل والحياء من رغبته في استقلالية اكبر. ويشير اركسن الى عدم وجود قيم موحدة تسود المجتمع فقيم اي سلوك ايجابية كانت ام سلبية تختلف من ثقافة وحضارة لاخرى وكذلك من عائلة لاخرى . (ERIKS ON, op. cit)

المرحلة الثالثة من مراحل نظرية اركسن تضم سنوات ماقبل المدرسة الابتدائية ويمكن ان يصلها الطفل وهو في مرحلة INFANT SEHOOL «البريطانية» حيث النمو السريع والمهارات اللغوية النامية يسمحان له بالاتصال بالاخرين والاشياء (بشكل اكثر اتساعاً واشمل مما كان عليه) التي تحيط به ، كما ان سلوكه الاخلاقي ينمو بالاعتماد على اللغة التي يستخدمها مع الكبار لشرح وتفسير الجوانب الاخلاقية اضافة لذلك فانه يتأثر بسلوك الناس الكبار من حوله) ويحتل الاب مكاناً ذا اهمية تؤثر في حياة الطفل ويبدأ بتنمية افكاره حول الصواب والخطأ والملاءمة كما انه يميل لاستخدام واختيار لغته النامية حديثاً وقدراته العقلية وخلال هذه المرحلة ايضاً يكون قادراً على طرح اسئلة تدل على فهمه لكثير من الاحداث الغامضة قديمها وحديثها وهو يعدل ويصفي نشاطاته ومهاراته العضلية والذهنية ويبدأ بملاحظة الفروق الجنسية بين الافراد في محيطه مما يهيءله مضامين تتعلق بمشاعر شخصيته ومستلزمات اجتماعية لحياته في مجتمعه ، ويبدوا جلياً ان ذاته في تكونها تتأثر بكل من ملاحظاته وتعديل انشطته ومهاراته . كما يمتلك الطفل طاقة كبيرة تساعده على نسيان فشله بسرعة ، وهذا مايؤهله لبداية جديدة ثانية مع غايات افضل وأكثر تأثيراً ((FONTANA, op. cit)

ونمو المبادرة لدى الطفل له مضامين ترتبط بنوع التربية التي ينبغي للكبار ان يهيؤها ، للاطفال في هذه المرحلة ، لذلك ينبغي ان تهيأ للطفل انواع من التعليم تمكنه على ان يكون شجاعاً ، مبادراً ، لايتردد .

٣ ـ المرحلة الثالثة :ـ

تمتد هذه المرحلة من ٧ ـ ١٢ سنة ،وقد وصفها بياجيه بانها مرحلة المنطق LOGIC PERIOD كما قسمها البعض منهم الى قسمين« العمليات الحسية» و« العمليات الرسمية» لكن الاخيرة اعتبرت مرحلة منفصلة من قبل كثير من اتباع بياجيه في حين عدها البعض كمرحلة فرعية تأتي بعد مرحلتين فرعيتين أخريين هما مرحلة ماقبل التفكير الاجرائي ومرحلة التفكير الاجرائي .

ينمي الطفل في هذه المرحلة سلسلة جديدة من العادات اطلق عليها اسم « التجميع» GROUPING اذ تنفرد بخصائص منطقية خاصة بها . كما يتمكن الطفل ايضاً من تتبع الحقائق المنطقية التالية ادناه عند فهمه لعادات او قوانين الاشياء .

١ ـ لايحتاج الطفل ان يستخدم مرة ثانية العمليات التي سبق ان استخدمها لايجاد ما اذا كان احمد يمتلك عشرة دراهم ام لا ، اذا كان الطفل يعرف مسبقاً ان كلا من أحمد ومحمد يمتلكان كمية متساوية من النقود ، وان المبلغ الذي يمتلكه محمد مساو لما عند علي والذي يعرفه الطفل اصلا وهو عشرة دراهم .

٢ ـ لايحتاج الطفل الى قياس وزن الحجر «أ» لايجاد ماإذا كان اثقل من الحجر «س» ام لا اذا كان ذلك الطفل يعرف مسبقا ان الحجر «أ» اثقل من الحجر «ب» ، والاخير اثقل من الحجر «ج» ، والحجر «ج» اثقل من الحجر «س» . فالطفل في هذه المرحلة يعرف صدق استنتاج كهذا حتى عند عدم تهيوء الفرصة لمشاهدة الاحجار أ، ب ، ج ، (MUSSEN. et. al 1979) .

٣ ـ يستطيع الطفل تصنيف الاشياء تبعا لعلاقتها فيما بينها ، اذ يضع البرتقال والتفاح والعرموط تحت صنف واحد هو « الفاكهة » ، ويضع كل الفواكه تحت صنف « الطعام» كما انه يستطيع عكس العملية باعادة اصناف الفاكهة كل الى خانتها مثلا ثم تكوينها مرة اخرى لكونه اصبح قادرا على ادراك ان الطعام يتكون من الفاكهه ومواد اخرى لايطلق عليها اسم « الفاكهة » .

٤ ـ من الممكن ان يقتنع الطفل بأن مادة معينة تنتمي الى اكثر من صنف واحد او اننا نستطيع تكوين اكثر من علاقة معها في وقت واحد . فاذا طلب من الطفل اجراء تصنيف « للطيور » « والحشرات » من جهة ثم « الكائنات التي تطير » « والكائنات غير

القادرة على الطيران » من جهة اخرى سيضع الطفل « النعامة » ضمن مجموعة « الطيور » وضمن مجموعة الكائنات « غير القادرة على الطيران » في وقت واحد .

يقول بياجيه بأن عمل الاطفال للتنظيم قبل بلوغهم السابعة من العمر : فهم يقارنون ازواجا من الاشياء ثم يصححون نتائج مقارناتهم . ولكنهم في مرحلة العمليات الحسية بامكانهم اختيار اكبر دابة ضمن مجموعة من العلب في المرة الاولى . ثم يختارون العلبة الاكبر من المتبقيات في المرة الثانية وهكذا اذ يتسم عملهم بالانتظام ، كذلك فان الترتيب والمزج والتصنيف تصبح احدى السمات المميزة للنمو العقلي لاطفال هذه المرحلة ، كما انهم يضعون الاشياء وفق ترتيب معين حسب علاماتها وأطوالها ، واوزانها ، ويستطيع الطفل ذو الثماني سنوات من العمر ترتيب ثماني عصي تبعا لاختلاف اطوالها كما ان ادراك الصفات المشتركة التي تربط بين خمس قطط وخمس كرات (خمسة) . لكنه يفهم ايضا ان القطط والكرات الخمسة مختلفة بانواعها والوانها .

ومن بين مايميز الطفل في هذه المرحلة انه يتعرف على ان العديد من المصطلحات النسبية مثل « الاصغر » ، « الاضعف » ، الالمع » تشير الى علاقات بين احداث معنوية وليست الى خصائص مادية ملموسة على الرغم من كونه لايزال يربط بعفوية بين الجزء والكل .

لو عرضت ثمانية اقلام خضراء وخمسة اقلام حمراء على اطفال وسئلوا ما اذا كانت الاقلام الخضراء اكثر ام الاقلام فان اطفال الثمانية اعوام سيجيبون « توجد اقلام كثيرة » بينما لايستطيع الاطفال بعمر خمس سنوات اعطاء الجواب المناسب اذ يقولون « يوجد الكثير من الاقلام الخضراء » .

ومما يراه بياجيه لهذه المرحلة ان الطفل الصغير لايستطيع تعليل العلاقات بين الجزء والكل بعفوية ، كما ان قدرة الطفل على التفكير تمكنه من المبادرة والسيطرة على محيطه ، ومن البديهي هنا القول بأن تلك المبادرة والسيطرة تختلف نسبيا عما هي عليه عند الكبار ، وهنا ينبغي الاشارة الى اعتقاد بياجيه الذي يتضمن كون الطفل يتشابه مع الكبار في شعورهم لكنه يختلف عنهم في تفكيره ، وهذا على العكس تماما مما ذهبت اليه مدرسة التحليل النفسي التي ترى ان الطفل والكبير متشابهان في تفكيرهما ومختلفان في شعورهما فيما يتعلق بتصورات وتخيلات كل منهما (ELKIND ,1969) .

من جهة اخرى فان تفكير الطفل لايزال محدودا ، اذ يميل الى وصف محيطه اكثر من ميله الى فهم وتوضيح مايدور فيه ، وهذا يبين السبب الذي يكمن خلف كون الاطفال

يجدون الامر في ذكر امثلة من الاشياء ايسر لهم من ذكر ادلة وبراهين محددة عن تلك الاشياء ويتجلى عند الطفل في عمر السبع سنوات ادراكه لعملية الطرح ، اما ادراكه لمفهوم الوزن فهو يتأخر لما بعد سن الثامنة من العمر ، وفي سن الثانية عشرة من العمر فانه يكون قادرا على ادراك مفهوم الاحجام .

هناك تغيرات في النمو العقلي خلال هذه المراحل الثلاث . يبدو اولها في ادراك الطفل اذ يحدث خلال العمليات العقلية في المرحلتين الثانية والثالثة . أما التغير الثاني فهو الذي يتم بموجبه نقل سيطرة الفعاليات الذهنية الى مايسمى بالذكاء العملي الناضج (MATURE OPERATIONAL INTELLIGENCE) وقد حددت نظرية بياجيه ثلاثة فروق في الذكاء بين المرحلتين الاولى والثالثة من النظرية عند مقارنتها هي : —

١ — ان ذكاء المرحلة الاول الحسحركية اكثر استقرارا واقل حركة لكونه يعتبر ان الاشياء تصطف واحدا خلف الاخر بدون اي ترتيب لنظرة عامة او اكتشاف خصائص شاملة لتلك الاشياء في حين ان ذكاء المرحلة الثالثة افضل كثيرا في تعامله مع التحولات والروابط الحاصلة بين الاماكن والمواقف وكيفية ارتباط كل منهما بالاخر .

٢ — يهدف ذكاء المرحلة الاولى تحقيق نجاحات عملية بينما يهتم ذكاء المرحلة الثالثة بالايضاحات والشرح والفهم .

٣ — لذكاء المرحلة الاولى سلسلة مكانية وزمانية ضيقة لكونه محدداً بالتصرفات الواقعية المنجزة لاشياء ملموسة ، بينما يكون ذكاء المرحلة الثالثة اوسع افقا واكثر حرية حركية .

هذه المرحلة تقابل المرحلة الرابعة من نظرية اركسن والتي اطلق عليها اسم « مرحلة العمر المدرسي» (ERIKSON, 1959) اذ يرى ان الطفل بحاجة لأن يجد مكانا ضمن الاطفال الاخرين في مجموعته العمرية لكنه عاجز عن احتلال مكان مساو لذلك في المجتمع الذي يحتل الكبار امكنته ، وهذا مايعتبره اركسن وكأنه الوجه القطبي الذي يتجلى عند تعارض المفهوم الصناعي للمجتمع ومشاعر النقص عند الطفل . واحساس الكبار بان الطفل مازال كائناً غير مكتمل يؤثر عليه من خلال تأثير مشاعر النقص الناجمة عن عدم كفاية الحلول للصراعات المتقدمة ، والطفل عندما يقارن نفسه مع والده فانه سيعاني من احساس بالذنب وشعور بالنقص يتولد نتيجة هذه المقارنة ، لذلك فانه يحاول علاج مشاعر الذنب والنقص باستثمار كل الفرص ليتعلم من خلال تصرفاته وتجاربه ومن خلال مهاراته الاولية

INTIATIVE SKILLS للانماط الحضارية التي يتطلبها مجتمعه . ويتمتع الطفل بحرية لعمل الاشياء بشكل جيد فهو يستخدم بعض مواقف الحياة الواقعية في ممارسة لعبته وفعالياته . كما يميل الاولاد والبنات للانفصال بعضهم عن بعض في لعبهم وعاداتهم ، ومع ذلك فانه يلاحظ اشتراك احد افراد الجنس الاخر في اللعب مع الجنس المغاير في بعض الاحيان .

لقد اعطى اركسن اهمية لمراحل نظريته الثلاث الاولى فهو يقول بأن اجتياز الطفل لهذه المراحل الثلاث بنجاح سيؤهله لاداء اعمال صعبة نسبياً ويعزز ثقته بنفسه ليكون نشطا مثابرا وفعالا "TO BE INDUSTRIOUS" لكن فشله في ذلك يشعره بالنقص والاحباط والتردد .

ان نهاية هذه المرحلة ستكون على عتبة الدخول لفترة المراهقة والبلوغ حيث يفقد اللعب اهميته ، ويبدأ الفرد بالتخلي التدريجي عن عاداته الطفولية. ولدى مقارنة الافراد فيما بينهم فاننا سنجد الكثير من الاختلافات الواسعة بينهم في هيئاتهم وقدراتهم ، اضافة الى ذلك فهناك استجابات واسعة الاختلاف لدى الفرد نفسه تبعا لمواقف حياته وخصائصه الذاتية. ويبدأ الفرد في هذه المرحلة بالتفكير في ما اصبح يدركه على انه قيود عائلية حيث يشعر بضرورة كسر الطوق والخروج من دائرة حياته العائلية المعتادة. كما انه يعطي ابويه وآباء اصدقائه قيما وأهمية جديدة اذ يصبحون الى جانب غيرهم من معلمي المدرسة والجيران ذوي دلالات اجتماعية تترك اثرها الواضح في تحديد شخصيته ، ويحتل اقرانه اهمية كبيرة لكونه يحتاج نجاحهم او فشلهم للتعرف من خلاله على قدراته الذاتية (SELF-ESTEEM). فلقد وجد (COOPERSMIH) ان الطفل الذي يدرك انه غير قادر على اداء عمل معين وتقبل حالته هذه مسبقاً، ثم طلب منه اداء ذلك العمل نفسه فان هذا سيؤدي للجهر بالعدوانية او التظاهر بأن هذا العمل لا يستحق ان يعمل لذلك فانه سيبرر فشله عن الوصول الى المستوى المدرسي المطلوب بسبب خطأ المعايير المستخدمة وليس بسبب عدم كفائته الذاتية وهنا تبدو معاناة الفرد مما اطلق عليه « الذات المتدنية » (LOW SELF-ESTEEM).

٤ ــ المرحلة الرابعة : مرحلة العمليات الشكلية :

تدخل بعض فترة المراهقة ضمن هذه المرحلة من مراحل النمو الذهني والتي تبدأ من سن الثانية عشرة من العمر لذلك سيكون الحديث هنا عن المراهق، فهو اذ يبدأ بالتفكير فيما وراء الاحداث الواقعية والصيغ النظرية كأن يضع فرضيات معينة ثم يبدأ تدريجيا بتطوير جوانب يصل من خلالها لاستنتاجات قد تكون بعيدة عن فرضياته وتحليلاته الأولى.

ويتعامل المراهق في هذه المرحلة مع العبارات والبديهيات والاحداث وصولا الى حل المشكلة التي تواجهه . كما ان مايصل اليه من استنتاجات قد يكون نتيجة تصنيفاته ، او استخدامه لتسلسل الاحداث او العمليات الاخرى التي يحتمل ان يكون قد طورها خلال المرحلة السابقة ، حيث كان يتوقف عن التقصي عند عثوره على الوسيلة النافعة او معرفته للطريقة التي يمكن ان تعالج وضعاً معيناً في حين انه يستمر في هذه المرحلة بعد وصوله للحل المطلوب ، اذ يستمر في تقصيه وتتبعه لاكتشاف ومعرفة النظام الكلي الذي كان يبحث في جزئياته ، فهو قادر على اكتشاف الاسباب وتعليل الاحداث وربط الافكار وصولا الى أستنتاج معين .

لقد قارن (ميوسن وجماعته) (NUSSEN ET.AL-1979). بين المراهق في هذه المرحلة والطفل في المرحلة السابقة فأشاروا الى ان طفل المرحلة الثالثة يميل الى التعامل بشكل واسع مع الحاضر (الان وهنا) لكن المراهق يصبح مهتماً بالامور الفرضية والمستقبلية القريبة منها والبعيدة .

وحيث يعتقد بياجيه بأن هذه المرحلة تمثل الجانب المتقدم في تدعيم الذكاء والسلوك الذكي فان الاطفال المعاقين في نموهم يصبحون غير قادرين على الوصول الى هذه المرحلة اما الذين يصلونها متأخرين عن أقرانهم بالعمر الزمني فلابد ان يكونوا قد عانوا من بعض الانحراف او الاعاقة الذهنية بشكل او بآخر(WYNE and O CONNOR,1977) .

كما ان بامكان المراهق في هذه المرحلة وضع صيغ نظرية لمعالجة مشكلاته مع الاحتفاظ بالكثير من المتغيرات في ذهنه بشكل عفوي بسيط . لكنه من جانب اخر لايزال يختلف في تفكيره ن تفكير الراشدين على الرغم من تشابههم النوعي (MUSSEN,1970)وقبل وصول المراهقين الى حياة الراشدين العقلانية فانهم غالباً مايذهبون بافكارهم لاراء ، ووجهات نظر يبغون منها تغيير العالم وفق مايعتقدونه صحيحاً(FONT ANA, op. cit). والشخص في هذ ه المرحلة يكون قادراً على التعامل في تفكيره مع الامور الاحتمالية اذ ان بامكانه التعليل المنطقي لمواقف حقيقية اوغير حقيقية تعرض لها خلال المرحلة السابقة، وهو ايضاً قادر على التعليل العلمي ووضع الصيغ المنطقية ، وبامكانه ايضاً تتبع اسلوب الجدل والمحاججة حتى في القضايا التي لايقيم اعتباراً لمحتواها الاصلي . (MUSSEN et- al op. cit) . كما يقوم بتنظيم العمليات وترتيبها وفق طرق رفيعة المستوى من خلال تجريد بعض القوانين التي تعالج نوعاً من المشكلات ، وهنا يلاحظ اختلافه عن

طفل المرحلة السابقة الذي يعالج مشكلاته باستخدام المحاولة والخطأ . وبأمكانه أيضاً (المراهق) ادماج بعض العمليات المعقدة والمنفصلة وصولا الى صيغة جديدة من البناء ، المتكامل مع بعضه لمعالجة مشكلة جديدة .

ومما يميز هذه المرحلة عن غيرها من المراحل ان المراهق يبدأ بأستخدام طريقة التعليل من خلال الاستنتاجات الافتراضية والتي تعرف بانها أي نمط من التعليل الذي يأخذنا خارج حدود خبراتنا اليومية ، ويتعامل مع اشياء ليست لدينا خبرات مباشرة عنها (Modgil, 1974) .

وتصبح اللغة اكثر اهمية هنا لاحتلالها المركز الرئيسي في الاستنتاج والتعليل فهي ؛ وسيلة مهمة بسبب ماتحتله من دور في التعليل المنطقي الذي يعتبر اهم صفة تميز هذه المرحلة حيث يتمكن الفرد من صياغة الافكار والبديهيات ومعالجة مايتعرض اليه من مشاكل.

وتعد هذه المرحلة في نظرية بياجيه المرحلة الاخيرة اذ تقابلها المرحلة الخامسة في نظرية علم النفس/ اجتماعي (Psychosociology) . فالمراهق حسب وجهة نظر اريكسن هو الذي يبني لنفسه تدريجياً صورة « الشخص الجديد » حيث تتشكل كينونته ، وتتشكل الشخصية في نهاية مرحلة المراهقة فمن يحدد شخصيته بنجاح سيكون الفرد الاكثر ثقة وواقعية في حياته (ERIKSON, 1950) اما من يفشل في انجاز مهمة «اكتشاف ذاته «SELF-DISCOVERY فأنه سيعاني من تعارض القوانين ROLE CONFUSION التي تحيط به مما يؤدي بالتالي الى اخفاقه في تكوين فكرة واضحة عن نفسه . وربما ان الشعور بالثقة مهم جداً في مرحلة الطفولة المبكرة لانجاز مهمات نجاحه واجتيازه لخبرات الطفولة فان بناء كينونته «IDENTITY» تعد مسألة جوهرية في هذه المرحلة ومايترتب عليها من اتخاذ القرارات المهمة في حياته كاختيار المهنة وشريكة الحياة . وبما ان النمو الجسمي والجنسي يصل الى مرحلة النضج في هذه المرحلة فان المراهق سيجد نفسه مهيأ للانتقال من حياة الطفولة الى مرحلة الرشد حيث سيواجه مشكلات عديدة تختلف الى حد ماعن تلك المشكلات التي سبق ان مر بها والتي افادته في تكوين خبرات سابقة عنها . فثقته السابقة بقدراته البدنية والذهنية تتغير وتضعف ، وهنا تبرز حاجته لمراجعة جديدة لخبراته السابقة حيث يتقدم تدريجياً من خلال تلك المراجعة لتقييم ذاته في ضوء مرحلته الجديدة والتطور الذي وصل اليه ويتوقع الكبار منه كما يتوقع هو من نفسه الكفاح المستمر لانجاز ماتتطلبه الحياة الاجتماعية كي يكون مؤهلا لحياه الرشد على الرغم من ان حياته

ومشكلاته الجديدة تختلف كثيراً عن مشكلات مرحلة الطفولة .وقد اثبت علماء النفس والاجتماع ان مشكلات هذه المرحلة ناتجه في معظمها من الحضارة والتيارات الثقافية المصطنعة اكثر من كونها ناتجة بسبب من التغيرات البايلوجية للكائن (FONTANA, 1978) .

«ان احساس الشباب بالوحدة والاغتراب هذه الايام هو المسبب الرئيسي لانصرافهم الى تعاطي المخدرات او انهيارهم النفسي الذي يكون اضافة لتعاطي المخدرات سبباً مباشراً في تباعدهم او على الاقل في تخلف بناء علاقاتهم الوجدانية» Erikson. op. cit p. 66 وتحتل مجموعة الاقران في هذه المرحلة اهمية كبيرة ليست فقط من كون ان المراهق يحتاج للتعرف على قدراته الذاتية من خلال مقارنة وضعه الذاتي بأقرانه كما في المرحلة السابقة في نظرية اركسن انما تكتسب اهميتها من كون المراهق ينتفع منها في استعارته لقوتها عند ضعف اناه العليا ، وهذا مايفسر نزوع بعضهم للالتحام بمجموعة معينة على الرغم من التباين الملحوظ بينه وبين تلك المجموعة في القدرات او الخصائص الاخرى .

كما يظل المراهق في محاولاته لتأكيد ذاته من خلال محاولاته في الانتماء الايديولوجي الذي يرى انه سيجعله جيداً اخلاقياً ومتوافقاً مع مجتمع الكبار .لكن نزعات بعض المراهقين وانحرافهم الفكري قد يفسر ايضاً بأنه تأكيد لذات هؤلاء المراهقين الان ذلك يتبع حالات الفشل والاخفاق التي عانوا منها خلال المراحل النفسية / الاجتماعية التي مروا بها ابشكل اوبأخر (RIKSON, OP CIT) .

كما يرى اركسن ان التزام المراهق بايديولوجية ايجابية متوائمة مع حركة مجتمعة تعد نافعة لكونها تتولى حراسة كينونته (IBID (GARDIAN OF IDENTITY.

لذلك يمكن الاستنتاج بان النجاح في اجتياز هذه المرحلة يمكن الفرد من بناء هويته المهنية وتحقيق التوازن بين ذاته واقرانه. اما الفشل في اجتياز هذه المرحلة فانه سيؤدي الى عجز المراهق عن تنمية هوية ايجابية وجنسية مقبولة اجتماعياً اذ يكون الفرد عند فشله في اجتيازها عرضة للوقوع في الجنوح .

بعد ان اكتمل ذكر مراحل نظرية بياجيه الاربع وما يقابلها من مراحل في نظرية اركسن فان الباحث سيقدم في مايلي ماتبقى من مراحل لنظرية النمو النفسي - اجتماعي PSYCRISOCIAL THEORY

٥ ـ مرحلة الشباب :

تعد هذه المرحلة ،المرحلة الخامسة في نظرية اركسن اذ يرى ان الفرد يستطيع ان ينمي شخصيته من خلال مايتاح له من فرص مشاركة للاخرين. والاجتياز السليم لهذه المرحلة يمكنه من بناء علاقات ايجابية مع الاخرين من كلا الجنسين. وقد اسمى اركسن قابلية الفرد في اقامة علاقات مع الاخرين (INTIMACY)التي تعرف بانها «القدرة على اقامة روابط وعلاقات وجدانية لصيقة مع اخرين من كلا الجنسين وتتضمن الجوانب العاطفية والعلاقات الاخرى كالزواج والصداقة». ويرى اركسن ان علاقة طالب ـ معلم تدخل ضمن مفهوم «المودة او الالفة» INTIMACY .

اما الفشل في اجتياز هذه المرحلة فإنه يؤدي الى معاناة من خوف فقدان كينونته وميل لان يكون انانيا وغير سوي (SELF ABSORB) كما انه يعاني من التمييز في صداقاته«كأن يكون معجبا بكل واحد ولايحب اي واحد» .

٦ ـ مرحلة الرجولة

وهي المرحلة السادسة ويسميها اركسن ايضاً بالمرحلة المشيجة(GENERATIVITY) لكون الفرد يميل فيها للارتباط بعلاقات زوجية وعائلية، اذ ان اهم حوادث هذه المرحلة هو الزواج والابوة او الامومة كما تنجز خلالها كثير من الاعمال الابداعية من خلال اهتمام الكبار بالبنوة الشخصية بسبب التأثيرات الاجتماعية. وعادة ماينشغل الافراد في هذه المرحلة بمهمة تربية وتوجيه النسل. ويعلق اركسن حول مسألة اعتماد الاطفال على الكبار اذ يرى ان هذا الاعتماد هو السبب المباشر الذي يجعلنا نبتعد عن ادراك حقيقة ان الجيل الاقدم يعتمد على الجيل الجديد ايضا حيث يشعر الرجل الكامل « بالحاجة الى ان يحتاجه الاخرين» (ERIKSON, 1950, 258) .

٧ ـ اما المرحلة الاخيرة فهي مرحلة الشيخوخة او ما يسميها اركسن احياناً بالرجولة المتأخرة

اذ يتطور نمط الكمال INTEGRITY في خط الثقافة السائدة وجوهها التأريخية لكي تصبح ارثا روحيا للشخص «PATEIMONY OF HIS SOUL» .

ان معالجة المواقف المتضادة لانماط الحياة المختلفة ومعالجة مايسميه اركسن «الخوف من الموت» «DEATH FEAR»كنهاية غير مرضية لمالم يتم انجازه من مشاريع واهداف

حياته هما الشرط المطلوب للكمال. والوصول الى الكمال هذا يراه اركسن بانه الامر الرئيس الذي يقضي على مايسببه الخوف من الموت من الام. ويقول اركسن في هذا المجال :

ان العلاقة بين كمال الكبار والصدق الطفوني يدرك
بالقول بأن الطفل السليم سوف لا يخاف الحياة اذا
ماكان لاهله كمال كاف يبعدهم عن الخوف من الموت .

ويرى اركسن ان الشخص كثير الشك هو الذي يشعر بانه لايوجد وقت كاف لمحاولة تطوير حياة اخرى او لاكتشاف طرائق جديدة للكمال الذي فشل في الوصول اليه. كما يمكن القول هنا ان هذه المرحلة تتضمن شعورا بالحكمة والاتجاهات الفلسفية التي غالبا ما تمتد الى ما بعد دورة حياة الفرد الاعتيادية اذ يتم تطويرها من قبل الاجيال القادمة .

الملاحظات

١ ــ Psychohistory ميدان حديث في علم النفس لدراسة الاحداث والشعوب بدأ لاول مرة عند فرويد في دراسته للفنان الايطالي ليوناردو دافنشي « LEONARDO DAVINCI »وقد ظهرت خلافات حول الاهتمام بهذا الميدان حتى الان كما ظهرت جوانب اخرى شملت تاريخ المفاهيم النفسية كالعقل والجنون واللاشعور ، وتاريخ الطفولة كما اشتمل على المحاولات التي تبذل لتفسير الاسباب والاحداث المؤدية لتغيير الاتجاهات خلال مرحلة زمنية معينة .

المصادر

Elkind, D. (1969)
Children and Adolescents
ترجمة الدكتور صبحي عبد اللطيف المعروف البصرة – مطبعة حداد

Erikson, E. (1959)
Identity and Life Cycle
New York: International University Press

Fontana, D. (1978).
Personality and Education
London; Openbook Publishing

Hebb, D.O.A. (1949).
The Organization of Behavior
New york : wiley

Lov ell, k. et- al. (1962)
Growth of some geometrical concept. *Children* Development ,33, 4, 751- 767.

Modgil, s. (1974)
Piagetian Research: A Handbook of Recent of ...
Studies
Windsor: NEER.

Mussen, P.H., et- al. (1979)
Children Development and Personality
New york: Harper and Row

Mussen, S. (1970)
Manual of Child Psychology
New york: John wiley and Sons.

Piaget , J. (1947)
The Psychology of Intelligence
London: Rontled and Kegan Paul

Vernon, p.E. (1979)
Intelligence : Heredity and Environment
San Francisco: Freeman and Company

Wyne and Oconnor (1977) ..
The Exceptional Children
New York: Wiley





التفسير الاجتماعي لمشكلة جنوح الاحداث

هادي صالح محمد / كلية الآداب

المقدمة

تعد مشكلة جنوح الاحداث من المشكلات التي حظيت باهتمام مركز من المتخصصين في العلوم الجنائية والاجتماعية والنفسية. وقد لانبتعد عن دائرة الصواب فيما اذا قلنا ان سر هذا الاهتمام يعود من ناحية الى اتصال هذه المشكلة بشريحة مهمة من شرائح المجتمع الا وهي شريحة الاحداث التي تعقد عليها الامم الامال الكبيرة في عملية بناء مستقبلها، وتعود من ناحية اخرى الى ماتمثله من خسارة مادية كبيرة تتحملها الهيئة الاجتماعية من خلال عمليات التحقيق مع الاحداث الجانحين ومرافعات المحاكم والعلاج داخل المؤسسات الاصلاحية والرعاية اللاحقة على اطلاق السراح والمجتمعات البشرية عبر مراحل تطورها لم تقف مكتوفة الأيدي ازاء هذه المشكلة بل تصدت لها تصدياً يتراوح مابين الشدة او التسامح والاصلاح، ففي قانون حمورابي لم يكن هناك نص صريح على جرائم الصغار الا ان المادة السابعة منه كانت تشير الى ان الشخص الذي يشتري بضاعة مسروقة من عبد او قاصر (اي حدث) كان ينزل العقاب فقط بذلك الشخص دون العبد او القاصر، وكان

القانون الروماني يجعل الصغير مسؤولا جنائيا بعد السابعة، ومع ذلك فهو يحاسب – احياناً – الطفل مادون السابعة اذا ارتكب عملا بنية الاضرار بالغير، وكانت الشريعة الاسلامية تقرر عقوبات تأديبية لاجنائية على الاحداث الجانحين من سن (٨ – ١٥) سنة وبعض الفقهاء جعلها ١٨ سنة (١)، وبموجب قوانين العصور الوسطى فقد كانت معاملة الاحداث الجانحين تتسم بالقسوة، فعلى سبيل المثال كان يشير قانون ولاية جيرسي الشرقية – عام ١٦٨٨ – في امريكا على ان الطفل الذي يهين ويسب والديه او يكون عاقا او مشاكسا تكون عقوبته الاعدام، وبأنبثاق الثورة الفرنسية وانتشار افكار الحرية وحقوق الانسان ارتفعت اصوات المفكرين(مونتسكيو، فولتير، روسو، بكاريا، بنثام...) التي طالبت بتبني النظرة الانسانية في معاملة المجرمين سواء كانوا بالغين ام احداث، ومع تزايد هذه المطالبة تتابعت تعديلات قوانين الجزاء وظهرت قوانين ومحاكم الاحداث في معظم اقطار العالم. واصبح للعقوبة وظيفة اجتماعية تقوم على اسس علاجية واصلاحية ولم يكن العراق بعيدا عن هذه السياسة الاصلاحية فهو كذلك اتبع نهجا انسانيا سليما في معاملة الاحداث واصلاحهم (٢)، وهذا ماشارت اليه المادة العشرون من قانون الاحداث العراقي رقم ٦٤ الصادر سنة ١٩٧٢ (المعدل) حينما اشارت الى انه (يجب ان يؤخذ الحدث بالرفق عند التحقيق معه او محاكمته وان تستعمل بشأنه كلمة ادانة بدلا من كلمة تجريم وكلمة جانح بدلا من كلمة مجرم، وان يلفت نظر ذوي العلاقة في الدعوة الى عدم التهجم عليه عند الادلاء بأقواله ولايجوز تكبيله بالسلاسل او تقييد يديه بالاصفاد).

وبحثنا هذا هو محاولة هدفنا منها التعرف على التفسير الاجتماعي لمشكلة جنوح الاحداث متبعين في عرضه تدرجاً يبدأ بتحديد المفاهيم المركزية للبحث (الجنوح ، الحدث) ، ثم التفسير الاجتماعي للجنوح والذي غالبا مايدور حول مؤثرات اجتماعية معتلة تحتويها العائلة ، الاحياء المتخلفة ، البيئة المدرسية ، بيئة العمل، ورفقة السوء (الزمرة) وقضاء وقت الفراغ بنشاطات ضارة .

---

(١) عن د . فخري الدباغ ، جنوح الاحداث ، الطبعة الاولى ، دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة الموصل ، ١٩٧٥ ، ص٢١-٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٢٣-٢٤ .

تحديد المفاهيم

يعد تحديد المفاهيم من الامور البالغة الاهمية في العلوم الطبيعية والاجتماعية ، فالظاهرة موضوع الدراسة لابد لها من تحديد علمي دقيق حتى يسهل ادراك معناها وابعادها (١) ، وكلما اتسم هذا التحديد بالدقة والوضوح سهل على الذين يتابعون البحث ادراك المعاني والافكار التي يريد الباحث التعبير عنها بدقة ووضوح (٢) وبما ان موضوع بحثنا هذا يدور حول مفهومين مركزيين هما الجنوح والحدث فأننا سنقوم بتحديدهما تباعا .

مفهوم الجنوح :-

يشير الفعل جنح الى معنى الخروج على قاعدة او اتفاق فهو ينطوي على التجاوز وعدم الالتزام ، ومن الوجهة الفنية يشير الفعل جنح الى جانب مما يشير اليه مفهوم السلوك المنحرف ، ويرى بعض الدارسين ان مفاهيم الجنوح والانحراف والسلوك اللااجتماعي او المضاد للمجتمع هي مفاهيم مترادفة (٣) بينما نرى ان السلوك المنحرف او اللااجتماعي مصطلح يتميز بالعمومية ، فهو يشمل الاحداث والراشدين ، اما الجنوح فهو مصطلح ذو دلالة محددة يشير الى منحرفين تنحصر اعمارهم بين حدين معينين تنعدم قبل احدهما المسؤولية الجنائية وتنطبق بعد ثانيهما على المنحرف هذه المسؤولية (٤) هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فأننا نميز بين انحراف الاحداث وبين جنوح الاحداث فالاول يشير الى مظهر من مظاهر السلوك السيء كعدم طاعة الوالدين والاعتياد على الهروب من المدرسة او مخالطة ذوي السيرة السيئة (٥) . اما الثاني فيشير الى انتهاك قاعدة سلوكية تبلورت في صيغة قانونية بحيث تضمنت اجراءا عقابيا معينا . وعلى ذلك فأن كل جنوح هو انحراف لكن العكس ليس صحيحا دائما (٦) . بعد هذا الايجاز لما يعنيه مصطلح الجنوح لغويا

(١) هادي صالح محمد ، عوامل العود الى الجريمة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد ، ١٩٨٤ ، ص١١ .

(٢) د . عبد الباسط محمد حسن ، اصول البحث الاجتماعي ، الطبعة الثالثة ، الناشر مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ، ١٩٧١ ، ص١٧٢ .

(٣) سعد المغربي ، انحراف الصغار ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص١٧ .

(٤) ناهدة عبد الكريم ، بعض الاطر التفسيرية لمشكلة جنوح الاحداث ، مديرية الشرطة العامة ، مركز البحوث والدراسات ، بغداد ، ١٩٨٣ ، ص١٠٤ .

(٥) د. اكرم نشأت ابراهيم ، جنوح الاحداث ، عوامله والرعاية الوقائية والعلاجية لمواجهته ، مديرية الشرطة العامة ، مركز البحوث والدراسات ، بغداد ١٩٨٣ ، ص ٣٥ .

(٦) ناهدة عبد الكريم ، مصدر سابق ، ص ١٠٤ ، ٢ ينظر كذلك د. محمد ابراهيم زيد ، مقدمة في علم الاجرام والسلوك اللااجتماعي ، مطبعة دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص٣٥٥ .

ومايحمله من تداخل مع مفهوم الانحراف بقي ان نقول ان مصطلح الجنوح تتعدد معانيه بتعدد وجهات النظر القانونية والنفسية والاجتماعية ،فهو من الناحية القانونية يشير كما يذهب تابان – Tappan – الى اي فعل او موقف يمكن ان يعرض الحدث للمثول امام المحكمة واصدار حكم قضائي بحقه (١) ، في حين يقضي التعريف النفسي للجنوح ، على حد رأي « اوجست ايكهورن » – بأنه اضطراب ناشيء عن عدم اشباع الحاجات الغريزية للحدث بسبب عوامل اجتماعية ونفسية مختلفة (٢) .

اما من الناحية الاجتماعية فهو يشير الى صور متكررة من الافعال المنحرفة عن النموذج المتوسط (٣) . والنموذج المتوسط يمثل – وفقا لهذا الاتجاه – صورة الحدث المتكامل في نموه النفسي والجسدي والعاطفي بحيث يستطيع التكيف مع جماعته الأسرية والمدرسية والمهنية وجماعات اللعب واوقات الفراغ (٤) .

مفهوم الحدث : –

ان مفهوم الحدث هو الاخر يختلف بأختلاف وجهات النظر اللغوية والنفسية والاجتماعية والقانونية ، فمن الناحية اللغوية تكاد تجتمع قواميس اللغة العربية على ان الحدث هو صغير السن ، فأن ذكر السن يقال « حديث » السن ، وغلمان (حدثان) اي احداث وجنوح الاحداث تخصيص نوعي الحالة من السلوك تقترن بصغر السن (٥) .

اما من الناحية النفسية والاجتماعية ، فأن مفهوم الحدث يشير بموجبهما الى الصغير منذ ولادته حتى يتم نضوجه النفسي والاجتماعي وتتكامل لديه عناصر الرشد (٦) . في

---

(١) Tappan .p., juvenile, delinquency, Mc, Graw Hill book comp, New york, 1949, p. 30 .

(٢) اوجست ايكهورن، الشباب الجامع ، ترجمة السيد محمد غنيم ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٤ ، ص ٢٢ – ٢٣ .

(٣) اميل دوركايم ، قواعد المنهج في علم الاجتماع ، ترجمة د. محمود قاسم ، و د. السيد محمد بدوي ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١ ، ص ١٣٦ – ١٣٧ .

(٤) د.محمد طلعت عيسى واخرون ، الرعاية الاجتماعية للاحداث المنحرفين ، مكتبة القاهرة الحديثة بلا تاريخ ، ص ٥٠ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٤٩ .

(٦) طه ابو الخير ومنير العصرة ، انحراف الاحداث ، الطبعة الاولى ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦١ ، ص ٢٢ .

حين يقضي التعريف القانوني للحدث بأنه الصغير الذي أتم السن التي حددها القانون للتمييز ولم يتجاوز السن التي حددها لبلوغ الرشد .

هذا وتختلف القوانين في تحديد سن الحداثة . فبموجب المادة الاولى من قانون ، الاحداث العراقي رقم ٦٤ الصادر سنة ١٩٧٢ (المعدل) الحدث هو (من اتم السابعة من عمره ولم يتم الثامنة عشر ذكراً كان ام أنثى ..) وهذا ماذهبت اليه ايضاً المادة ٦٦ من قانون العقوبات العراقي رقم ١١١ الصادر سنة ١٩٦٩ ، وترفع بعض القوانين الحد الادنى لسن الحدث الى ثماني سنوات كالقانون الانكليزي والى تسع سنوات كالقانون الاردني في حين ان بعض القوانين تخفض الحد الاقصى لسن الحدث الى ١٦ سنة كالقانون الهندي والباكستاني والسيلاني ، ومنها ماترفعه الى ٢١ سنة كالقانون السويدي والشيلي . وغالباً مايرجع اختلاف القوانين في تحديد سن الحداثة الى عوامل طبيعية واجتماعية وثقافية ولعل من ابرز هذه العوامل المؤثرة في هذا الاختلاف بين قطر وآخر يعود لظروف البيئة الطبيعية وخاصة المناخية التي تؤثر في درجة النمو (سريع ، بطيء) وحصول البلوغ ، الجسدي (١) .

التفسير الاجتماعي للجنوح : —

ينصب التفسير الاجتماعي لمشكلة جنوح الاحداث على دراسة العوامل الاجتماعية المعتلة التي تؤثر سلباً على تكيف الحدث لمقتضيات الحياة الاجتماعية السليمة وتتدرج هذه العوامل وتتداخل فيما بينها مولدة حالات جنوح الاحداث وتنحصر اغلب هذه العوامل في البيئة العائلية ، والاحياء المتخلفة ، والبيئة المدرسية وبيئة العمل ، ورفقة السوء (الزمرة) ،وقضاء وقت الفراغ بنشاطات ضارة (٢). وسنتناول تأثير هذه العوامل تباعاً:

(١) د. اكرم نشأت ابراهيم ، مصدر سابق ، ص ٣٣ .

(٢) للمزيد عن اسباب الجنوح ، ينظر :

Travis Hirschi, Causes of delinquency, University of california press, 1969.

١ - البيئة العائلية(١) : -

العائلة هي المنفذ الاول الذي يطل منه الانسان على الحياة الاجتماعية وفيها تتكون ملامح شخصيته الاولى ومنها يستمد المقومات النفسية والاجتماعية الاولى لمواجهة متطلبات الحياة الخارجية، الاان هذه المسؤولية التي تضطلع بها العائلة قد لاتأخذكامل ابعادها الايجابية فيضطرب دورها فينعكس هذا الاضطراب على ابنائها فينساقون بأتجاه الفعل الجانح . ومن بين العوامل العائلية المؤدية للجنوح هو الخلافات بين الابوين ، فقد تبين بموجب الدراسة التي اجراها مكتب الخدمة الاجتماعية في مصر بأن ٣٠,٢٥٪ من حالات ، الاحداث التي عرضت على المحاكم للسنوات ١٩٥٦/١٩٥٧كانت ترجع لعوائل تفتقر الى الوفاق (٢) وكذلك وجد الباحثان Jephcott & Charter في البحث الذي اجرياه في مدينة رادبي بأنجلترا ان الصفات المميزة لأسر الأطفال الجانحين كانت تتجسد في عدم التوافق بين الوالدين والذي يظهر في كثرة الشجار والنزاع بينهما(٣).ومن بين العوامل العائلية الاخرى المؤدية لجنوح الاحداث تصدع العائلة بسبب وفاة الوالدين اواحدهما او لحصول الطلاق بينهما اوالانفصال الفعلي دون الطلاق (٤) . فالاولاد في مثل هذه الحالات ينشأون على عدم الاكتراث والطاعة والحرمان والحقد ، والانتقام ولايجدون امامهم من سبل لمواجهة الحياة سوى الانحراف الانتقامي ، ويعيشون رغم قسوتهم الظاهرية في حالة اسى داخلي وحسرة على الحب المفقود (٥) ، هذا فضلا عن حرمانهم من المربي الذي يلقنهم دروس الحياة والعائل الذي يهيء لهم اسبابها (٦) . وقد اثبتت الدراسات وجود

(١) عن اثر البيئة العائلية على الجنوح ينظر :
Sheldon and Eleanor Glueck , Family environment and delinquency, Routledge & Kegan paul, London 1962.

(٢) سعد المغربي ، مصدر سابق ، ص ١٥٤ .

(٣) عن د. محمد طلعت عيسى واخرون ، مصدر سابق ، ص ١٣٧ - ١٣٨ .

(٤) د. اكرم نشأت ابراهيم ، مصدر سابق ، ص ٤٧ .

(٥) د. زكية عبد الفتاح محمد ، الاسرة وانحراف الاحداث ، مديرية الشرطة العامة ، مركز البحوث والدراسات ، بغداد ، ١٩٨٣ ص ٢٣٣ .

(٦) احمد محمد خليفة ، اصول علم الاجرام الاجتماعي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ١٤٣ .

صلة بين التصدع العائلي وجنوح الاحداث ومنها دراسة كل من الدكتور احسان محمد الحسن من العراق والدكتور حسن الساعاتي من مصر اللذين وجدا ان هناك علاقة بين التصدع العائلي والجنوح حيث كانت نسبة تأثير هذا العامل على الجنوح بموجب دراستيهما كالاتي (٦٦٪ (١) ، ٦٧،٤٠٪ (٢) على التوالي) كذلك وجد ناتانيل كانتران ٤٧٪ من بين ٣٠٠٠ حدث جانح جاءوا من اسر مفككة (٣) .

وتعد اساليب التربية الخاطئة من العوامل العائلية المهمة المؤدية لجنوح الاحداث ، فعدم اتفاق الوالدين على اتباع اسلوب موحد في التنشئة وتطرف احدهما اوكليهما في المعاملة مابين القسوة والتدليل او التمييز بين الابناء في المعاملة كلها تعد مقدمات اساسية للجنوح ، وقد اثبتت الدراسات ان لاساليب التربية الخاطئة اثراً على الجنوح ومنها ، دراستا سعدي لفته موسى وجعفر عبد الامير الياسين — من العراق — اللذين وجدا ان اسر الجانحين تشيع فيها اساليب التربية الخاطئة مقارنة بعوائل غير الجانحين(٤) وكذلك وجد بيرت Burt علاقة بين الجنوح واساليب التربية الخاطئة (٥) ومن بين العوامل العائلية الاخرى المؤدية لجنوح الاحداث هي الممارسات السلوكية السيئة للاسرة فأدمان احد الوالدين اوكليهما على الخمر والمخدرات اوسير احد افراد الاسرة في طريق الجريمة كلها تعد عوامل مؤثرة تدفع الحدث الى الجنوح نتيجة تأثره اوتقليده لهذه الممارسات السلوكية السيئة (٦) فبموجب دراسة جعفر عبد الامير الياسين تبين ان آباء

(١) د. احسان محمد الحسن ، اثر تفكك العائلة في جنوح الاحداث ، مديرية الشرطة العامة ، مركز البحوث والدراسات ، بغداد ١٩٨٣ ، ص ١٧٩ .

(٢) د. محمد عارف ، الجريمة في المجتمع ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص٥٤٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ٥٤٧ .

(٤) سعدي لفته موسى ، معاملة الوالدين وعلاقتهما بجنوح ابنائهم ، رسالة ماجستير غير منشورة بغداد ١٩٧٣، ص ٩٣ — ١١٢. وينظر كذلك جعفر عبد الامير الياسين ، اثر التفكك العائلي في جنوح الاحداث ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد ١٩٧٥، ص ٢٣٦ .

(٥) Cyril Burt , The young Delinquant, University of London Press, 1961. p. 96 .

(٦) د. زكريا ابراهيم ، الجريمة والمجتمع ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ ، ص ١٩٢ . وينظر كذلك هيام نوري عبد الله ، العوامل الاجتماعية لجنوح الاحداث في العراق ، رسالة ماجستير غير منشورة بغداد ، ١٩٨١ ، ص ٤٥ .

الجانحين كانوا يتناولون المسكرات بصورة دائمة اومتقطعة بنسبة ٣٤,٣٣٪ (١) ، ومن دراسة اجريت في المانيا قام بها Stury لعينة تكونت من ١٤٤ حدثاً جانحاً تبين ان ٣٥٪ منهم كان اباؤهم مدمنين على المسكرات وان ٢٢ ٪ منهم كان اباؤهم مجرمين (٢) .

ويعد انخفاض المستوى الاقتصادي للعائلة من بين العوامل الاجتماعية الاخرى المؤدية لجنوح الاحداث، فعدم تمكن العائلة من سد حاجات ابنائها قد يدفع الابناء الى السير في طريق الجريمة للحصول على هذه الحاجات ومن الدراسات التي اكدت وجود علاقة بين الجنوح وانخفاض المستوى الاقتصادي للعائلة دراسة شلدون جلوك واليانور Sheldon Glueek&Eleanor اللذين توصلا من دراسة خمسمائة حدث جانح في اميركا الى ان نسبة كبيرة منهم تنتمي الى عوائل تعاني ضيقاً اقتصادياً (٣) .

٢ — الأحياء المتخلفة

ان الاحياء المتخلفة التي تضم مجموعات بشرية تعيش في ظروف سكنية سيئة تؤثر تأثيرا بالغا في معايير الحدث وانماط سلوكه ، ففي اطار هذا النوع من الاحياء السكنية تتجمع فئات من معتادي الاجرام والهاربين من العدالة حيث يعيشون في اوكار يستخدمونها في تحقيق اهدافهم المنحرفة . ولهذا تعد الاحياء المتخلفة مناخا اجتماعيا يساعد على نمو الجنوح بأنواعه المختلفة ، كما ان افتقار هذه الاحياء الى المتنفسات الطبيعية كالحدائق والمتنزهات والاندية والساحات قد يؤدي الى تجمع الاحداث في الطرقات ، وكثيرا ما يترتب على ذلك اخلال بالتنظيمات المحلية الخاصة بالمرور ، او اقلاق راحة السكان ، وقد تتسع هذه المخالفات الى حد التخريب المتعمد للمركبات والقاطرات والمحلات التجارية والمساكن وما الى ذلك مما يدخل في اطار الجرائم (٤) .

وقد دلت الدراسات على وجود علاقة بين الاحياء المتخلفة والجنوح ، ومنها دراسة فتحية الجميلي من العراق التي وجدت من دراسة (١٠٠) حالة من حالات الجنوح التي عرضت على المحاكم للسنوات (١٩٦٦ — ١٩٦٩) ان ٨٧ ٪ منها جاءت من مناطق

(١) جعفر عبد الامير الياسين ، مصدر سابق ، ص ١٩٥ — ١٩٦ .
(٢) د. محمد عوض ، مبادىء علم الاجرام وعلم العقاب ، دار أنجاح بالاسكندرية ، ١٩٧١ ، ص ٣٠٣ .
(٣) د. رؤوف عبيد ، اصول علمي الاجرام والعقاب ، الطبعة الرابعة ، دار الفكر العربي القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ١٧٧ .
(٤) د. محمد طلعت عيسى وآخرون ، مصدر سابق ، ص ١٦٢ .

متخلفة (١) . وكذلك وجدت نتائج مماثلة سواء في الدراسة المقارنة التي قام بها سيد عويس بين حي روكسبري بأميركا وحي بولاق بالقاهرة ، او سواء في دراسة العلامة شو Show في مدينة شيكاغو Chicago (٢) .

٣ — البيئة المدرسية :

المدرسة هي البيئة الثانية للطفل وفيها يقضي جزءا كبيرا من سني حياته لاستكمال بناء وضع اساسه في المنزل (٣) . وفي هذه البيئة الجديدة يتعرض الطفل الـذي اصبح تلميذا لاول تجربة اجتماعية لاضطراره الى الاعتماد على نفسه خلال فترة وجوده في المدرسة . مع وجوب التزامه بالتكيف مع مجتمعه الجديد ، واحتياجه للقدرة على الاندماج الملائم مع زملائه المحيطين به ، بأختياره صحبة الصالحين منهم وتجنب مخالطة اشرارهم . فـاذا قُدر للتلميذ الحدث مصاحبة الاخيار من اقرانه وتشرب فضائلهم مع السعي والاجتهاد في دروسه ، فأن ذلك ايذان بنجاحه في حياته ، اما اذا انقاد للاشرار من زمـلاء المدرسة وانساق معهم في نزواتهم وتقاعسهم عن الدرس ، اصبح مهددا بالجنوح ، ومما يجب العناية به للحفاظ على سلامة البيئة المدرسية ، تحاشي كل مايؤدي الى نشوء عقدة النقص وتصدع اعتبار الذات في نفوس التلاميذ بتجنب الحط من كرامتهم على النحو الـذي يثير شعورا مريرا لديهم بالقصور وانحطاط الذات (٤) مما قد يدفع بعضاً منـهم الى ترك الدراسة وقد يسهل ذلك عملية انزلاقهم باتجاه الافعال الجانحة .

٤ — بيئة العمل :

يلجأ الاحداث الى العمل نتيجة لظروف عائلية ومجتمعية مختلفة ، والمهم في هـذا المجال هو سلوكية المشرف على عمل الحدث وسلوكية زملائه من جهة ونوع العمل الذي يقوم به الحدث من جهة أخرى ، فالمشرف على العمل بالنسبة للعمال الاحـداث يكون بمثابة

(١) فتحية الجميلي ، الاحياء الشعبية والمشاكل الاجتماعية ، مجلة البحوث الاجتماعية والجنائية ، السنة الاولى ، العدد الاول ، بغداد ، ١٩٧٢ ، ص ٥٤ .

(٢) عن عبد اللطيف عبد الحميد العاني ، اثر المناطق المتخلفة في جنوح الاحداث ، مديرية الشرطة العامة ، مركز البحوث والدراسات ، بغداد ، ١٩٨٣ . ص ٢٦٦ ، ٢٦٩ .

(٣) سعدي بسيسو ، قضاء الاحداث علما وعملا ، الطبعة الثانية ، مطبعة الشرق ، دمشق ، ١٩٥٨ ، ص ٦١ .

(٤) د. اكرم نشأت ابراهيم ، مصدر سابق ، ص ٤٨ — ٤٩ .

القدوة و المثل الاعلى لهم ، فأذا كان مستقيماً صالحاً ارشدهم الى الاستقامة والصلاح وان كان منحرفاً طالحاً دفعهم الى مزالق السلوك الجانح ، كذلك يكون دور زملاء الحدث في التأثير على سلوك الحدث الذي يزاملهم ، فـأذا وجد بينهم من ذوي السيرة السيئة فأن هذه السيرة ستسرى مثالبها الى الحدث الذي يزاملهم فتدفعه الى التقليد ثم الى الجنوح.

اما بالنسبة لنوع العمل الذي يمارسه الحدث فهو الاخر له تأثير على سلوكيته فأن كان العمل ملائماً لقدرات الحدث الجسمية والعقلية والنفسية ومنسجماً مع رغباته الشخصية تمكن من انجازه بأتقان فيحوز بذلك على تقدير رؤسائه وزملائه (١) . امـا اذا كان العمل لايتناسب مع قدراته فأن ذلك سيسبب له النفور والكراهية لهذا العمل وربما سيضطر الى تركه ، مما يوقعه تحت طائلة البطالة التي غالباً مانعرضه للجنوح (٢) .

٥ ـ رفقة السوء (الزمرة) :

الحدث بعد تراجعه امام محيطه غالبا مايفتش عن الهرب من هذا المحيط عن الارتواء العاطفي ، وغالبا مايجد ضالته مع احداث يتماثلون معه في البحث عن هذا الارتواء . ويبدو هذا البحث بشكل واضح في ملاحظة عصابات او زمر الاحداث التي تتألف من احداث يعوضون بتجمعهم ورفقتهم قصور الوسط العائلي وقسوة البؤس . فالزمرة التي تمثل لهم قوة وقدرة تشبع في الوقت ذاته حاجتهم الى الطمأنينة ، وتوحيد الذات . فيشعرون بأنهم مترابطون وانهم عناصر كل واحد فيتوغلون بجرأة في اللااجتماعية . كما ان مشاعر انتمائهم للزمرة تبدد شعورهم بالذنب والكآبة والوساوس الفردية ، والمغامرة التي يقومون بها تمنح كل منهم فرصة الشعور بقوة الذات التي تساندها الذات الجماعية للزمرة . ان هؤلاء الاحداث يكتسبون سريعا عادات وتقاليد الزمرة فهي تمثل لهم معنى من معاني الشرف ، واستعداداً للتعاضد داخل المجموعة واهتماماً بالعيش في جماعة مغلقة منيعة في وجه من هم خارجها وتعاذي غالبا الزمر الاخرى (٣) . وضمن هذا التصور السلبي الذي تحمله الزمرة تنطلق الافعال الجانحة صوب الهيئة الاجتماعية .

---

(١) د. اكرم نشأت ابراهيم ، مصدر سابق ، ص ٤٩ – ٥٠ وينظر كذلك د. مأمون محمد سلامة ، اصول علم الاجرام ، الناشر دار النهضة العربية القاهرة ، ١٩٦٧ . ص ٣٠٣ .

(٢) د. مصطفى العوجي ، الجريمة والمجرم ، الطبعة الاولى ، مؤسسة نوفل ، بيروت ، ١٩٨٠ ص ٣٩٠ .

(٣) جان شازال ، الطفولة الجانحة ، ترجمة انطوان عبدة ، الطبعة الثالثة ، منشورات عويدات بيروت ، باريس ، ١٩٨٣ ص ٣٨ – ٣٩ وينظر كذلك د. سامح السيد احمد جاد ، مبادىء علم الاجرام وعلم العقاب، الناشر دار الكتاب الجامعي، القاهرة ١٩٧٦، ص١٢٥.

٦ - انشطة الفراغ الضارة :

لقضاء وقت الفراغ بأنشطة ضارة اثر سلبي كبير على شخصية الحدث، فالتسكع في الطرقات والتردد على الحانات ودور البغاء والملاهي ، والمقامرة ، والاطلاع والمشاهدة غير الموجهين كلها تعد مقدمات اساسية لجنوح الاحداث ولعل من اكثر هذه الانشطة الضارة التي اعطاها المهتمون بالدراسات الجنائية اهتمامهم هي العلاقة بين الاطلاع والمشاهدة غير الموجهين وصلتها بجنوح الاحداث نظرا للوقت الكبير الذي يستنزفه الحدث في متابعة هذه الانشطة من جهة ، ولكون بقية الانشطة الضارة (التردد على دور البغاء والحانات والملاهي ، والمقامرة) قد لايعتاد عليها الحدث خلال الفترة العمرية التي حددتها القوانين لسن الحداثة والتي غالبا ماتقع مابين (٧ — ١٨) سنة . وعليه فنحن سنناقش بشيء من التركيز والايجاز اثر المشاهدة والاطلاع غير الموجهين في جنوح الاحداث . وضمن هذا المجال نلاحظ انه كثيراً مايثار موضوع صلة السلوك الاجرامي بالاطلاع على اخبار الجرائم في الصحف والمطبوعات ومشاهدة افلام الشاشة المبتذلة لما عرف عن الانسان من ميل لتقليد الاخرين (١) ، فعن تأثير الصحافة على الجريمة يذهب « سذرلاند وكريسي » الى انها قد تعمل على تشجيع الجريمة (وخاصة الصحف الامريكية) من خلال تضخيمها وتمجيدها لبعض المجرمين فتزيد تبعا لذلك مكانتهم بين المجرمين وبعض الاولاد المقيمين في مناطق الجناح (٢) ، وتبين كذلك ان للروايات الرخيصة (الضارة) اثراً على الجنوح فمن خلال مقارنة عينة تجريبية تكونت من ٢٣٥ حدثا جانحا واخرى ضابطة من غير الجانحين تبين ان الجانحين يقرأون غالبا الكتب الضارة بشكل اكثر مما يفعله غير الجانحين (٣) اما عن اثر مشاهدة الافلام الهابطة على الجنوح فيذهب جان شازال الى التأكيد على أن الافلام المطبوعة بالشذوذ والمرض والافلام التي تغلب عليها مشاهد العنف والتعذيب والخطف والحجز والافلام التي يسودها مناخ من الهيجان الجنسي والحيوانية « كلها » تدفع الحدث الى طريق الجنوح وذلك بسبب ميله الى التمثل بعض

---

(١) د. رؤوف عبيد ، مصدر سابق ، ص ١٤٨

(٢) ادوين هـ. سذرلاند، ودونالد ركريسي، مبادىء علم الإجرام ، ترجمة محمود السباعي ود. حسن صادق المرصفاوي ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨، ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

(٣) عن المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ .

شخصيات الشاشة (١) ، وذلك لان الحدث لم تكتمل لديه ملكة النقد ونضوج الذهن على نحو يمكنه من وزن الفكرة تمهيداً لدحضها واستبعادها (٢) .

---

(١) جان شازال ، مصدر سابق ، ص ٢٨ - ٢٩. وينظر كذلك علياء الدلي ، اثر مشاهد العنف في التلفزيون على جنوح الاحداث ، مديرية الشرطة العامة ، مركز البحوث والدراسات ، بغداد ، ١٩٨٣، ص ٤٢٤ - ٤٣٠ .

(٢) د. ومسيس بهنام ، المجرم تكوينا وتقويما ، الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية ، بلا تأريخ ، ص ١٤٧ .

الخاتمة

تبين من العرض السابق ان مشكلة جنوح الاحداث من المشكلات التي اثارت اهتمام المجتمعات منذ اقدم العصور وحتى عصرنا الحالي ، نظراً لما تمثله من خسارة لطاقات شابة كان من المفروض ان تسهم في عملية البناء المستقبلي للشعوب ، والمجتمعات البشرية عبر مراحل تطورها تصدت لهذه المشكلة تصدياً يتراوح ما بين الشدة والتسامح والاصلاح كما تبين ان مصطلحي (الجنوح والحدث) هما من المصطلحات التي لم يتم الاتفاق حول مفهومهما بتحديد واحد محدد ولعل ذلك مرده الى اختلاف وجهات النظر التي تناولتهما بالدراسة والتحليل سواء كانت وجهات لغوية او اجتماعية او نفسية اوقانونية ، كما اشار هذا البحث كذلك إلى ان اختلافات البيئة العائلية والمدرسية وبيئة العمل والاحياء المتخلفة ورفقة السوء (الزمرة) وقضاء وقت الفراغ بنشاطات ضارة، تعد كلها العوامل الاساسية التي يدور حولها التفسيرالا جتماعي لمشكلة جنوح الاحداث وعليه فأن دعم وتوجيه الاسرة حول مسؤولياتها تجاه اولادها وهدم واعادة تخطيط وبناء الاحياء المتخلفة بما يتلائم مع تخطيط المدن الحديثة ،على ان تتدخل الدولة لتوفير السكن المؤقت لاصحاب هذه الاحياء لحين اكتمال البناء الجديد لكي نبعد احتمال نشوء احياء متخلفة جديدة ، كما ان عمل ادارات المدارس على اتباع الاساليب التربوية الانسانية في التعامل مع التلاميذ ، وعدم السماح لاصحاب المعامل والورش بتشغيل الاحداث الابموجب الضوابط التي اشار اليها قانون العمل العراقي رقم ١٥١ لسنة ١٩٧٠ والتي منها عدم تشغيل الاحداث الذين لم يكملوا الخامسة عشرة من العمر ،وان يأخذ بنظر الاعتبار عند تشغيل من هم خارج هذا السن من الاحداث تنظيم اوقات عملهم وراحتهم تبعاً لاعمارهم وامكانياتهم وبموجب تعليمات قانون العمل السابق الذكر، كما ان التوسع في توفير الاندية والساحات الرياضية والمتنزهات وفرض الرقابة على دور العرض السينمائي وعلى مواد التلفزيون اضافة الى المطبوعات وجعلها تتماشى مع التوجه العام لنهج الثورة في بناء الانسان الجديد ،ان كل ذلك سيكون له بالغ الاثر في توفير مستلزمات التصدي الوقائي والاجتماعي لمشكلة جنوح الاحداث . وتجدر الاشارة الى ان هذه التوصيات لاتعني انه ليس هناك معالجات جدية لمثل هذه السلبيات ، فالثورة تعمل جاهدة على توفير كل ماينهض بالانسان في مجتمعنا فالاعتناء بالنشيء الجديد ، ورفع مستوى العائلة ، وهدم الكثير من الاحياء المتخلفة ،وتوفير السكن الملائم، كلها شواهد على عظمة الانجاز الجديد ، فالتوصيات اذن جاءت لتؤكد اهمية تكثيف العمل ضمن هذا الاتجاه مما سيكون له بالغ الاثر في توفير العلاج المناسب لمشكلة جنوح الاحداث .

«المصادر العربية والمترجمة إلى العربية»

اولا : الكتب والرسائل :

١ – ابراهيم ، د. زكريا ، الجريمة والمجتمع ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ .

٢ – ابو الخير ، طه ، ومنير العصرة ، انحراف الاحداث ، الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٦١ .

٣ – ايكهورن ، اوجست ، الشباب الجامح ، ترجمة السيد محمد غنيم ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٤ .

٤ – بسيسو ، سعدي ، قضاء الاحداث علما وعملا ، الطبعة الثانية ، مطبعة الشرق ، دمشق ، ١٩٥٨ .

٥ – بهنام ، رمسيس ، المجرم تكوينا وتقويما ، الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية (بلا تأريخ) .

٦ – جاد ، د. سامح السيد احمد ، مبادىء علم الاجرام ، الناشر دار الكتاب الجامعي ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

٧ – حسن ، د. عبد الباسط محمد ، اصول البحث الاجتماعي ، الطبعة الثالثة ، الناشر مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧١ .

٨ – خليفة ، د. احمد محمد ، اصول علم الاجرام الاجتماعي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

٩ – الدباغ ، د. فخري ، جنوح الاحداث ، الطبعة الاولى ، دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة الموصل ، ١٩٧٥ .

١٠ – دور كايم ، اميل ، قواعد المنهج في علم الاجتماع ، ترجمة د. محمود قاسم ود. السيد محمد بدوي ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١ .

١١ – زيد ، د. محمد ابراهيم ، مقدمة في علم الاجرام والسلوك اللاإجتماعي ، مطبعة دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٨

١٢ — سذرلاند ، ادوين هـ . ، ودونالد ركريسي ، مبادىء علم الاجرام ، ترجمة محمود السباعي ، ود. حسن صادق المرصفاوي ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٨ .

١٣ — سلامة د . مأمون محمد ، اصول علم الاجرام ، الناشر دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

١٤ — شازال ، جان ، الطفولة الجانحة ، ترجمة انطوان عبدة ، الطبعة الثالثة ، منشورات عويدات، بيروت : باريس ، ١٩٨٣ .

١٥ — عارف ، د. محمد ، الجريمة والمجتمع ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

١٦ — عبدالله ، هيام محمد ، العوامل الاجتماعية لجنوح الاحداث في العراق ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد ، ١٩٨١ .

١٧ — عبيد ، د . رؤوف ، اصول علمي الاجرام والعقاب ، الطبعة الرابعة، دار الفكر العربي، القاهرة ، ١٩٧٧ .

١٨ — العوجي ، د . مصطفى ، دروس في العلم الجنائي (الجريمة والمجرم) ، الطبعة الاولى ، مؤسسة نوفل ، بيروت ، ١٩٨٠ .

١٩ — عوض ، د. محمد ، مبادىء علم الاجرام وعلم العقاب ، دار النجاح بالاسكندرية ، ١٩٧١ .

٢٠ — عيسى ، د. محمد طلعت وآخرون ، الرعاية الاجتماعية للاحداث المنحرفين ، مكتبة القاهرة الحديثة (بلا تأريخ) .

٢١ — محمد ، هادي صالح ، عوامل العود الى الجريمة .. ، رساله ماجستير غير منشورة ، بغداد ، ١٩٨٤ .

٢٢ — المغربي ، سعد ، انحراف الصغار ، دار المعارف، القاهـرة ، ١٩٦٠ .

٢٣ — موسى ، سعدي لفتة ، معاملة الوالدين وعلاقتها بجنوح ابنائهم، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد ، ١٩٧٣ .

٢٤ — الياسين ، جعفر عبد الامير ، اثر التفكك العائلي في جنوح الاحداث ، رسالة ماجستير غير منشورة، بغداد ، ١٩٧٥ .

ثانياً : البحوث :

١ – ابراهيم ،د. اكرم نشأت، جنوح الاحداث ، عوامله والرعاية الوقائية والعلاجية لمواجهته ،مديرية الشرطة العامة ،مركز البحوث والدراسات، بغداد ،١٩٨٣.

٢ – الجميلي، فتحية، الاحياء الشعبية والمشاكل الاجتماعية، مجلة البحوث الاجتماعية والجنائية، السنة الاولى،العدد الاول، بغداد، ١٩٧٢.

٣ – الحسن ،د. احسان محمد ،اثر تفكك العائلة في جنوح الاحداث. ، مديرية الشرطة العامة، مركز البحوث والدراسات ،بغداد، ١٩٨٣.

٤ – الدلي، علياء ، اثر مشاهد العنف في التلفزيون على انحراف الاحداث، مديرية الشرطة العامة ،مركز البحوث والدراسات ،بغداد ١٩٨٣.

٥ – العاني، عبد اللطيف عبد الحميد، اثر المناطق المتخلفة في جنوح الاحداث، مديرية الشرطة العامة، مركز البحوث والدراسات، بغداد، ١٩٨٣.

٦ – عبد الكريم، ناهدة، بعض الاطر التفسيرية لمشكلة جنوح الاحداث، مديرية الشرطة العامة، مركز البحوث والدراسات، بغداد، ١٩٨٣.

٧ – محمد، د. زكية عبد الفتاح ،الاسرة وانحراف الاحداث، مديرية الشرطة العامة، مركز البحوث والدراسات ،بغداد ،١٩٨٣.

ثالثاً : القوانين :

١ – قانون الاحداث العراقي رقم٦٤ الصادر سنة ١٩٧٢ (المعدل)

٢ – قانون العقوبات العراقي رقم ١١١ الصادر سنة ١٩٦٩.

٣ – قانون العمل العراقي رقم ١٥١ الصادر سنة ١٩٧٠.

المصادر الاجنبية

1. Burt, Cyril, The young delinquancy, University of London Press, 1961 .
2. Glueck, Sheldon, and Eleanor. Family environment and delinquancy, Routledge,& Kegan Paul, London, 1962.
3. Hirschi, Travis, Causes of delinquancy, University of California, Press, 1969.
4. Tappan. p., juvenile delinquancy , Mc, Graw Hill book comp, New york, 1949.



الوزن الجيوبولتيكي للنفط العربي ومستقبله

الأستاذ الدكتور محمد أزهر سعيد السماك
استاذ الجغرافيا /جامعة الموصل

هدف البحث ومنهجه :

يحظى النفط بأهمية متميزة في عالمنا المعاصر : اقتصادياً وحضارياً . فهو يشكل السلعة الاولى في التجارة العالمية فالصادرات النفطية تسهم بحوالي ١٥,٧٥٪ من قيمة الصادرات العالمية عام ١٩٨١ مقابل ٤,٩٢٪ عما كانت عليه عام ١٩٧٠ (١) . وهذا يشير الى معدلات نموها المتسارعة التي بلغت خلال هذه الفترة ٧٠ / ١٩٨١ زهاء ٣١,٣٪ ولواضفنا اليها قيمة تجارة المنتجات النفطية لاضحت الاهمية النسبية للنفط ومنتجاته قرابة ٢٠,٣٦٪ أي زهاء خُمس قيمة اجمالي صادرات العالم (عام ١٩٨١) . والنفط يظفر بنحو ٤٤٪ من اجمالي هيكل استهلاك الطاقة العالمي . وهو بذلك يشكل نصف اجمالي مصادرها . وينعم الوطن العربي بالمرتبة الاولى في هذا المجال . فهو يهيمن على زهاء ٥٥,٩٪ من احتياطيه

المؤكد (عام ١٩٨٤) مقابل ٥١،٣٪ عما كان عليه عام ١٩٧٣ . وهذا يؤكد الوزن النسبي المتميز للوطن العربي في هذا الخصوص . زد على ذلك ان هذا الاقليم ، قد اسهم بنحو ٣٤٪ من اجمالي انتاج النفط العالمي عام ١٩٧٩ مقابل ٣٢،٢٪ ماكان عليه عام ١٩٧٣ . وهو بذلك يظفر بالرقم القياسي لوزنه النسبي العالمي في مجال انتاج النفط الخام . الا ان السنوات الخمس التالية قد شهدت تناقصاً واضحاً . اذ لم يتخط الانتاج العربي من النفط العالمي عام ١٩٨٣ ال١٩،٩٪ فقط . ارتفع نسبياً في العالم التالي (عام ١٩٨٤) . اذ بلغ زهاء ٢٠،٣٪ فقط . وبتعبير اخر فان الوزن العالمي للنفط العربي انحسر من الثلث الى الخمس تقريباً خلال الفترة ٧٣/ ١٩٨٤ .

وقد ترتب على ذلك ان تأثرت سلبياً حجم عائداته النفطية بالرغم من ارتفاع الاسعار فقد بلغت هذه العائدات عام ١٩٨٤ زهاء ١٠٢ بليون دولار مقابل نحو ٢١٢ بليون دولار ماكانت عليه عام ١٩٨٠ أي حوالي نصف ماكانت عليه قبل اربع سنوات فقط .

والنفط مورد الثروة الاول في الوطن العربي ، وهو مورد ناضب وقابل للاحلال والابدال وهو يسهم بزهاء ٨٢٪ من ايرادات العملات الاجنبية لاقطار هذا الاقليم . واذا كان الامر كذلك فان الهزات المرتقبة في السوق النفطية الدولية والتي بدأت تلوح بوادرها منذ نهاية عام ١٩٨٢ وحتى الان سوف تلحق اضراراً سلبية كبيرة قد لايقدر على درء أخطارها لا الاقتصاد العربي فحسب بل حتى السيادة العربية ايضاً .

صحيح ان النفط العربي بخاصة قد لعب دورا معيناً في العلاقات الدولية لاسيما بعد حرب (تشرين الاول) اكتوبر عام ١٩٧٣ . الا ان هذا الدور اخذ في التدهور منذ تأسيس وكالة الطاقة الدولية عام ١٩٧٤ ، وبدء تنفيذ استراتيجياتها المعروفة في مجال السياسة النفطية ولعل في التمحيص في ميزان العلاقات بين منتجي النفط الخام (متمثلين بمنظمة الاوبك) والمستهلكين (متمثلين بمنطقة التعاون الاقتصادي والتنمية OECD) يرقب عن كثب ، التكافؤ شبه التام في الميزان مع الارجحية غالباً للدول المستهلكة . وهذا يشير الى حقيقة المبدأ الاقتصادي المطروح : الثروة ذات اعتماد متبادل (٢) ولعل في هذا اشارة الى ان النفط لم يعد كما كان ابان عصره الذهبي منذ ثورة اوبك عام ١٩٧٣ . وحتى مطلع العقد الحالي وقد يكون الامر كذلك في السنوات التالية .

(*) القي هذا البحث في سمنار قسم الجغرافيا في ١٩٨٦/١/٨ .

الجدول (١)

تطور الأهمية النسبية لاحتياطي النفط العربي من الانتاج العالمي للسنوات ٦١/١٩٨٤(١)

السنوات	٪	السنوات	٪	السنوات	٪
١٩٦١	٥١,٢	١٩٧٠	٥٤,١	١٩٧٨	٥٣,٣
١٩٦٢	٥٣,٧	١٩٧١	٥٣,٠	١٩٧٩	٥٢,٤
١٩٦٣	٥٣,١	١٩٧٢	٥١,٦	١٩٨٠	٥١,٩
١٩٦٤	٥٥,٦	١٩٧٣	٥١,٢	١٩٨١	٥٠,٠
١٩٦٥	٥٥,٠	١٩٧٤	٥٠,٨	١٩٨٢	٥٣,٢
١٩٦٦	٥٦,٢	١٩٧٥	٥٠,٨	١٩٨٣	٥٤,١
١٩٦٧	٥٨,٥	١٩٧٦	٥٣,٣	١٩٨٤	٥٥,٩
١٩٦٨	٥٦,٢	١٩٧٧	٥١,٤		
١٩٦٩	٥٩,١				

السنوات ٦١ الى ١٩٦٧ عن :

د. صاحب ذهب : البترول العربي الخام في السوق العالمية / القاهرة ١٩٦٩ / جدول رقم ٢٨ ص٣٦١ .

— السنوات ٧٣ : ١٩٧٩ عن :

منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول : تقرير الأمين العام السنوي السادس / ص٥٤

— السنوات ٨٠ / ١٩٨٤ عن :

منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول : تقرير الأمين العام السنوي الحادي عشر ١٩٨٤ /ص٧٢.

الجدول (٢)

توزيع كثافة الحفر الاستكشافي في الاقطار العربية وبعض مناطق العالم الاخرى (١)

المنطقة	مساحة المناطق الرسوبية مليون كم٢	العدد الكلي للابار الاستكشافية المحفورة بالالاف	كم٢ للبئر الاستكشافي
الاقطار العربية (*)	٦,٧٦	٤	١٦٩٨
الولايات المتحدة	٦,٣	٥١٢	١٢,٤
الاتحاد السوفيتي	٨,٩	١٠٠	٨٩
كندا	٤,٨	٢٨	١٧٠
اوربا الغربية	٣,٤	١٣	٢٥٥
امريكا اللاتينية	١٢,٣	١٥	٨٢٠

(١) عن د. احمد علي عتيقة : الطاقة من اجل التنمية في الوطن العربي اوراق **الاوابك** / عدد٢ / الكويت ١٩٨٢ / ص٢٧ .

(*) هي : الامارات العربية المتحدة والبحرين والجزائر والمملكة السعودية وسوريا والعراق وقطر والكويت وليبيا ومصر والمغرب وتونس والسودان وعمان .

وفي ذلك ما يدفعنا للتساؤل عن الدور الذي لعبه النفط في الوطن العربي فهل دفع في اقتصادياته ام دافعها ؟ هل غذاها ام غزاها ؟ وبعبارة اخرى : ماهو التقويم الموضوعي لتأثيرات النفط في الوطن العربي ظاهرها وباطنها في الاقتصاد والمجتمع سواء ذلك مما يعبر عنه بتأثيرات النفط المباشرة وما وراءه اي في مجال العائدات النفطية وتكلفة التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وتأسيساً على ما تقدم فان مشكلة هذا البحث تنطلق من التساؤل الرئيسي اعلاه وتمثل التساؤلات الاتية الفروض العلمية الرئيسة المعتمدة في هذا البحث . وهي :

اولا : ما هو الوزن النسبي الدولي للنفط العربي ؟

ثانياً : ما هي الصورة الحالية لعناصر التقويم الاقتصادية للنفط العربي ؟

ثالثاً : ما هو واقع التكلفة الاجتماعية له ؟

في محاولة لطرح بعض الخيارات السياسية والاقتصادية من خلالها . من اجل تعظيم دور هذا المورد في الوزن الجيوبولتيكي للوطن العربي عالمياً ؟

ولعل التصدي لمثل هذه المشكلات تتطلب جهداً علمياً متميزاً او خبرة تخصصية قادرة على تحديد الفروض العلمية المراد اعتمادها . وعليه ، فان الاصالة في المعالجة هذه : منهجاً ومضموناً كانت الدافع الاساسي لاختيار مشكلة البحث . لذلك فان الاهمية النظريـة والتطبيقية لهذا البحث تنبع من المضمون العلمي لمناهج تحليل القوة المكانية : الستراتيجية والجيواستراتيجية طبقاً للمفاهيم الجيوبولتيكية كما نراها . وعليه ، فان هذا البحث يحاول تحديد الوزن الجيوبولتيكي للنفط العربي قومياً ودولياً من خلال تقويم تأثيراته الاقتصادية والاجتماعية : صورة حالية وافاقاً مستقبلية بسواء . من خلال مستويات تلك المؤشرات في الدول المتقدمة كاهداف استراتيجية عليا .

وقد يكون من الموضوعية ان نشير إلى ان دراسة مشكلة كتلك التي يتصدى لها هذا البحث تقتضي الرجوع إلى البيانات الموثوق بها . وفعلا فقد شكلت احصاءات هيئة الامم المتحدة ومنظمة اوابك والبنك الدولي للانماء والاعمار ومركز دراسات الوحدة العربية . المصادر الرئيسه لبيانات هذا البحث

اولا : الوزن النسبي الدولي لنفط العرب :

في هذه النقطة سنحاول قياس الوزن النسبي الدولي للنفط العربي من خلال مؤشرات مختلفة منها : حجم الاحتياطي المؤكد ، وأمد النضوب ، وتطور الانتاج والاستهلاك السنوي . ومن خلال العلاقة بين الناتج القومي الاجمالي وعدد السكان في الوطن العربي وبعض الدول الصناعية المختارة واستيرادات هذه الدول من النفط الخام العربي .

١ ــ حجم الاحتيـاطي المؤكد :

تظهر البيانات المتاحة في الجدول (١) و (٢) ان الوطن العربي يحظى باهمية متميـزة في كمية الاحتياطي المؤكد من النفط الخام والغاز الطبيعي بسواء . فقد تراوحت الاهميـة النسبية له بالنسبة للنفط الخام بين ٥٠,٨ ٪ و ٥٨,٥ ٪ طيلة السنوات ١٩٨٤/٦١ وتشير بيانات عام ١٩٨٤ إلى ان وزن هذا الاحتياطي بلغ ٥٥,٩ ٪ من اجمالي الاحتياطي العالمي. وعموماً يمكن القول ان الوزن النسبي لاحتياطي النفط المؤكد في الوطن العربي يزيد قليلا عن نصف الاجمالي العالمي .

اما احتياطيه من الغاز الطبيعي فقد بلغ اكثر من سبع الاجمالي العالمي بقليل (١٥,٥٪ عام ١٩٨٣) .

وقد تضيف البيانات المتاحة في الجدول (٢) بعداً جديداً عن حجم المكامن النفطية المكتشفة اولا . وكمؤشر بنفقات الانتاج ثانياً . فقد بلغت كثافة الحفر الاستكشافي في الدول العربية نحو ١٦٩٨ كم٢ للبئر الاستكشافي الواحد مقابل ٩٢,٤كم٢ فقط للبئر الاستكشافي الواحد في الولايات المتحدة الامريكية وزهاء ٨٩كم٢ للبئر في الاتحاد السوفيتي وهكذا في بقية دول العالم .

من هنا ندرك ضآلة عدد الآبار المحفورة رغم تزايد الانتاج وتطوره الذي يعكس غزارة المكامن النفطية في المنطقة العربية . ولهذه الحقيقة آثارها الايجابية في انخفاض نفقات الانتاج بالتالي .

غير ان هذه الحقائق كانت مدعاة لتزايد الصراع الدولي على النفط العربي لاغتنام موارده وتعظيم ارباح دول الشركات الاجنبية بالتالي .

وعموماً فان هذه البيانات تؤكد عناصر القوة في الخريطة العربية التي يمكن اعتمادها لتطوير الوزن الجيوبوليتيكي للدول العربية في الخريطة السياسية العالمية .

٢ ـ امد النضـوب :

ولعل في احتساب أمد النضوب لموارد الثروة المتاحة في العالم مايضيف بعداً جديداً في معادلة تقدير الوزن الجيوبولتيكي . فمن حساباتنا لهذا المؤشر اتضح ان امد النضوب ـ الجدول (٣). او العمر المنتظر كما اعتدنا ان نطلق عليه في الوطن العربي يبلغ زهاء ثلاث مرات ما عليه الحال بالنسبة لجملة النفط العالمي . فقد بلغ عام ١٩٨٤ نحو ١٠١ سنة مقابل ٣٦ سنة فقط للاجمالي العالمي .

زد على ذلك ان الاهمية النسبية لأمد النضوب للنفط العربي تضاعفت حتى بلغت مرتين ونيف تقريباً عما كانت عليه عام ١٩٨٠. اذ لم يتجاوز العمر المنتظر للنفط العربي عام ١٩٨٠ الـ٤٨ سنة مقابل ١٠١ عام ١٩٨٤ في حين ان العمر المنتظر لاجمالي النفط العالمي كان بحدود ٣١ سنة فقط عام ١٩٨٠ ارتفع عام ١٩٨٤ الى قرابة ٣٦ سنة. وهذا يعكس حجم احتياطي المكامن النفطية المكتشفة في الوطن العربي بالمقارنة مع نظيراتها في العالم.

ولعل بمقارنة الوضع العربي مع كتلتي الدول المتقدمة: الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي مايضيف ابعاداً جديدة في هذا الصدد . فالعمر المنتظر للنفط الامـريكي

الجدول (٣)

تطور العمر المنتظر للنفط الخام العربي خلال السنوات ٨٠ / ١٩٨٤ ومقارنته ببعض الدول المتقدمة (١)

« الوطن العربي »

السنوات	الاحتياطي المؤكد بليون برميل في نهاية كل عام	الانتاج السنوي الف برميل يوميا	العمر المرتقب بـ السنوات
١٩٨٠	٦, ٣٣٩	٢٠, ٣٩٤	٤٨
١٩٨١	٨, ٣٣٧	١٧, ٠٠٠	٥٦
١٩٨٢	٨, ٣٧٠	١٢, ٨٨١	٩٢
١٩٨٣	٦, ٣٧٦	١١, ٣٥٩	٩٤
١٩٨٤	٤, ٤٠٥	١١, ٨٤٥	١٠١

الولايات المتحدة الامريكية

السنوات	الاحتياطي المؤكد بليون برميل في نهاية كل عام	الانتاج السنوي الف برميل يوميا	العمر المرتقب بـ السنوات
١٩٨٠	٤, ٢٦	١٠, ٢٨٣	٧
١٩٨٤	٣, ٢٧	١٠, ٤٢٠	٨

الاتحاد السوفيتي

السنوات	الاحتياطي المؤكد بليون برميل في نهاية كل عام	الانتاج السنوي الف برميل يوميا	العمر المرتقب بـ السنوات
١٩٨٠	٠, ٦٣	١١, ٩٨٢	١٥
١٩٨٤	٠, ٦٣	١٢, ٣٢٢	١٤

الاجمالي العالمي

السنوات	الاحتياطي المؤكد بليون برميل في نهاية كل عام	الانتاج السنوي الف برميل يوميا	العمر المرتقب بـ السنوات
١٩٨٠	١, ٦٥٠	٥٩, ٧٤٠	٣١
١٩٨٤	٢, ٧١٩	٥٦, ٣٤٠	٣٦

(١) حسابات الباحث

$$\text{العمر المنتظر} = \frac{\text{الاحتياطي المؤكد في نهاية كل عام}}{\text{الانتاج السنوي بالاف البراميل يومياً} \times 360}$$

البيانات عن : تقرير الامين العام السنوي الحادي عشر ١٩٨٤/ص ٦٠ وص٧١.

الجدول (٤)

تطور الاهمية النسبية لانتاج النفط العربي من اجمالي الانتاج العالمي / للسنوات ١٩٨٤/٤٦ (١)

السنوات	/	السنوات	/	السنوات	/
١٩٤٦	٤	١٩٥٧	١٦,٢	١٩٧٣	٣٢,٢
١٩٤٧	٥,٣	١٩٥٨	١٩,٣	١٩٧٤	٣٢,٤
١٩٤٨	٧	١٩٥٩	١٩,١	١٩٧٥	٣٠,٤
١٩٤٩	٩,٥	١٩٦٠	٢١,٣	١٩٧٦	٣٢,٦
١٩٥٠	١٠,٩	١٩٦١	٢١,٧	١٩٧٧	٣٣,٥
١٩٥١	١٣,٨	١٩٦٢	٢٢,٩	١٩٧٨	٣٠,٩
١٩٥٢	١٧	١٩٦٣	٢٥,٥	١٩٧٩	٣٤,٠
١٩٥٣	١٨,٦	١٩٦٤	٢٥,٣	١٩٨٠	٣٣,٧
١٩٥٤	١٩,٨	١٩٦٥	٢٧,٢	١٩٨١	٢٩,٩
١٩٥٥	١٩,٢	١٩٦٦	٢٧,٧	١٩٨٢	٢٢,٥
١٩٥٦	١٧,٥	١٩٦٧	٢٨,٤	١٩٨٣	١٩,٩
				١٩٨٤	٢٠,٤

(١) السنوات ٤٦ إلى ١٩٦٧ عن :

د. صاحب ذهب : البترول العربي الخام في السوق العالمية / القاهرة ١٩٦٩/ جدول رقم ١١/ ص ص ١٠٢ – ١٠٣ .

السنوات ١٩٧٩/٧٣ عن :

منظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول : التقرير السادس / ص ص ٤٦/ ٤٧

السنوات ١٩٨٤/٨٠ عن :

منظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول : تقرير الامين العام الحادي عشر ص ص ٦٠/ ٦١ .

لم يتجاوز الثمانية سنوات فقط طيلة السنوات ٨٠ – ١٩٨٤ ولم يتخط الاتحاد السوفيتي ضعف هذا العمر للفترة ذاتها (١٥سنة فقط) وبتعبير آخر فان الوطن العربي لـه اهمية نسبية تبلغ زهاء ١٢ مرة عما عليه الحال بالنسبة للولايات المتحدة. وقرابة سبع مرات بالنسبة للاتحاد السوفيتي.

وبالرجوع الى الاطار النظري لمفهوم التعبئة الاقتصادية خاصة مايتعلق منها بتقسيم اصناف موارد الثروة بالنسبة للاهمية القومية للدولة القائم على اساس الزمن (موارد متاحة وموارد يمكن الحصول عليها بعد تنميتها.... والخ ، اضفنا بعداً جديداً للخريطة العربية اولا. وادركنا مدى تعاظم الصراع الدولي لبسط كل شكل من اشكال التأثير او المصالح او النفوذ من قبل الدول الكبرى .

٣ – الانتاج والاستهلاك السنوي :

تعكس البيانات المتاحة في جدول (٤) عدة حقائق لعل اهمها تنامي الاهمية النسبية للوطن العربي في مجال الانتاج النفطي طيلة العقود الثلاثة المنصرمة . فقد نمت هذه الاهمية من حوالي عشر اجمالي الاهمية النسبية العالمية عام ١٩٥٠ (٩ : ١٠٪) الى قرابة ثلث الاهمية النسبية العالمية عام ١٩٧٩ (٣٤٪) . بيد ان السنوات التالية: ٨٠ / ١٩٨٤ كشفت عن حقائق جديدة مفادها تناقص الوزن النسبي العالمي للنفط العربي الذي انحسر من زهاء ثلث الاجمالي العالمي الى قرابة الخمس تقريباً (٢٠,٣٪ عام ١٩٨٤) . وفي ذلك مايؤكد ابعاد السياسة الاقتصادية للدول الصناعية متمثلة بنشاطات دولها ذاتياً اولا . ووكالة الطاقة الدولية ثانياً . وكان من محصلتها رفع حجم الانتاج في العديد من مناطق العالم المكتشفة كبحر الشمال والاسكا والمكسيك بالاضافة الى اجراءات ترشيد استهلاك الطاقة وتباطؤ النمو الاقتصادي العالمي (٣) مما كان له تأثيراته الواضحة في تناقص حجم الطلب على النفط الخام بعامة ونفط الاوبك بخاصة والعرب يشكلون زهاء ثلثي الاوبك وزناً في الانتاج. وهكذا يمكن ان يتحول الموقف العربي النفطي من منتج مغذ للسوق العالمية الى منتج متمم لهذه السوق، غير ان حقائق الاحتياطي المؤكد وأمد النضوب الموارد تقييمها فيما تقدم يمكن ان تغير ابعاد هذه الصورة لاحقاً وتضيف بعد جديد للوزن الجيوبوليتيكي الدولي للنفط العربي . على ان ذلك رهين بالسياسات النفطية العربية الموحدة بعامة وسياسات منظمة الاوبك بخاصة .

الجدول (٥)٣

تطور الاهمية النسبية لاستهلاك الوطن العربي من النفط بالنسبة للاجمالي العالمي للسنوات ١٩٨٣/٧٣ (١)

السنوات	٪
١٩٧٣	٠,٦٠
١٩٧٤	٠,٦٦
١٩٧٥	٠,٧٧
١٩٧٦	٠,٩٠
١٩٧٧	١,٠٤
١٩٧٨	١,١٦
١٩٧٩	١,٣٢
١٩٨٠	٢,٤٣
١٩٨١	٢,٨٤
١٩٨٢	٣,٠٨
١٩٨٣	٣,٤٤

(١) السنوات ١٩٨٠/٧٣ عن :

BP: Statistical Review of the World of Oil Industry 1980.

ود. ابراهيم ابراهيم (واخرون) : توقعات الطلب على الطاقة في الاقطار العربية / آذار ١٩٨٢ .

ود. علي احمد عتيقة : المصدر السابق / ص ٣٨

السنوات ١٩٨٣/٨١

عن منظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول : التقرير الحادي عشر / بدلالة جدول ١٢/١ ص‌ص٢٢ — ٢٣ وجدول ١٤/١ ص‌ص ٢٩ — ٣٠ .

الجدول (٦)

توزيع النسبة المئوية للناتج القومي الاجمالي والسكان لمجموعة دول الاوبك والاقطار العربية إلى دول صناعية مختارة (١٩٨٠) (١)

الدول	مجموعة دول الاوبك		اجمالي الوطن العربي	
	الناتج القومي الاجمالي ٪	السكان ٪	الناتج القومي الاجمالي ٪	السكان ٪
الولايات المتحدة	١١,٨	٤٢,٠	١٣,٥	٧٠,٨
اليابان	٢٦,٤	٨٢,٠	٣٠,٣	١٣٨,٠
المانيا الغربية	٣٦,٧	١٥٦,٩	٤٢,٢	٢٦٤,١
فرنسا	٤٨,٤	١٧٨,٦	٥٥,٧	٣٠٠,٧
بريطانيا	٦٨,٦	١٧١,٥	٧٩,٠	٢٨٧,٩
ايطاليا	٨٢,٤	١٦٧,٩	٩٤,٨	٢٨٢,١
كندا	١٢٥,٣	٣٩٩,٣	١٤٤,٢	٦٧٢,٢
هولندا	١٨٨,٢	٦٧٨,٩	٢١٦,٦	١١٤٢,٨
بلجيكا	٢٥٣,٧	٩٧٢,٠	٢٩١,٩	١٦٣٦,٣
سويسرا	٢٨٥,٩	١٤٧٨,٢	٣٢٨,٩	٢٤٨٨,٣
الدانمارك	٤٥٨,٠	١٨٦٦,٠	٥٢٧,٠	٣١٤١,٢

I.B.R.D. World Bank Atlas 1981.

ود. علي احمد عتيقة : الطاقة من اجل التنمية في الوطن العربي / المصدر السابق / ص ١٩ .

بيد ان صورة الاستهلاك السنوي من النفط الخام في الوطن العربي — الجدول (٥) — ليست لصالح هذه الرقعة بل لطالحها . فالوطن العربي لايستهلك سوى ٤٤,٣٪ من اجمالي النفط الخام عالمياً (١٩٨٣) صحيح ان هذه النسبة قد نمت من ٠,٦٪ عام ١٩٧٣ الى ٤٤,٣٪ عام ١٩٨٣ . اي نحو ستة امثال ماكانت عليه قبل عقد واحد من الزمن الا انها لازالت متدنية بالمقارنة مع الوزن الدولي للوطن العربي في مجالات الاحتياطي والانتاج وحجم الناتج القومي وغيرها .

واذا تذكرنا حقيقة مهمة وهي ان حجم الوفورات الاقتصادية المتحققة عن تصنيع النفط واستهلاكه يمكن ان تبلغ حوالي ستة امثال حجم الوفورات المتحققة من بيع النفط الخام ادركنا حجم الخسارة الاقتصادية الناجمة ، ناهيك عن حجم الوفورات الاجتماعية التي يمكن ان يخلفها النفط في بيئات توطنه التي تتلخص بزرع بذور حضرية جديدة تسهم في عملية التحضر التي تنشدها شعوب العالم .

وعموماً ، يمكن القول ان تعظيم الوزن الجيوبولتيكي الدولي للوطن العر. رهين بسياسات الاستثمار النفطي الى ابعد الحدود . وعليه ، يمكن القول بأنه لابد للعرب من تحديد استراتيجيات واضحة في مجال الاستهلاك النفطي يعبر عن المصلحة القومية العليا بما يعزز الامن القومي العربي بمفهومه الواسع .

٤ ـ العلاقة بين الناتج القومي الاجمالي والسكان للدول العربية وبعض الدول الصناعية ومجموعة دول الاوبك .

تؤكد البيانات المتاحة ـ الجدول (٦) ان الدول العربية ليست بالغنى الذي حاولت تعظيم صورته الدول الصناعية المتقدمة . فالناتج القومي الاجمالي العربي لايتجاوز ١٣,٥٪ من الناتج القومي للولايات المتحدة الامريكية رغم انه يعول حوالي ٧٠,٨٪ من اجمالي سكان الولايات المتحدة . وهو لايتجاوز ثلث الناتج القومي الياباني (٣٠,٣٪) رغم انه يعول حوالي ١٣٨٪ بالنسبة لسكانها (اليابان). وتزداد الصورة حدة لو قارنا الوطن العربي مع كل من المانيا الغربية وفرنسا . فالناتج القومي العربي لايتجاوز ٤٢,٢٪ و٥٥,٧٪ لكل منهما على التوالي في حين انه يعول نحو ضعف ونيف سكان الاولى وثلاثة امثال سكان الثانية على الترتيب . وحتى لو قارنا الوطن العربي مع افقر دول اوربا (ايطاليا) لاتضح لنا ان الناتج القومي للدول العربية لايتجاوز ٩٤,٨٪ ماعليه في ايطاليا رغم انه يعول نحو ٢٨٢,١٪ من سكانها .

من ذلك لعلنا ندرك المقصود من التهويل في حجم العائدات المالية النفطية للدول العربية التي لاترمي لأبعد من الامعان في ايهام هذه الدول بغير حقيقة اوضاعها الاقتصادية الفعلية التي تتلخص في كونها دولاً نامية بطيئة النمو ليس الا . وكما سنرى فيما بعد .

٥ ـ استيرادات الدول الصناعية من النفط الخام العربي :

تشكل استيرادات الدول الصناعية من النفط العربي الخام نحو ٤٠٪ من اجمالي استيراداتها النفطية بموجب بيانات عام ١٩٨٣ . وفي ذلك مايشير الى تراجع اعتماد هذه الاسواق على

النفط العربي بالمقارنة مع بيانات عام ١٩٨٠ . التي تظهر ان الوزن النسبي لاستيرادات هذه الدول من النفط العربي كان بحدود ٥٤٪ من اجمالي استيراداتها .

وعموماً فان الوطن العربي يغذى بموجب بيانات عام ١٩٨٣ السوق النفطية اليابانية بنحو نصف احتياجاتها وزهاء ثلاثة ارباع اجمالي متطلبات اسواق دول الاوقيانوسية ونحو نصف احتياجات اسواق اوربا الغربية . وقرابة سبع متطلبات اسواق دول امريكا الشمالية (الجدول (٧) .

الجدول (٧)

توزيع استيرادات الدول الصناعية من النفط الخام ١٩٨٣/٨٠ الف برميل يومياً (١)

المناطق والدول المستوردة		اجمالي الاستيراد	من اجمالي الدول العربيـــة	نسبة الاستيراد من الدول العربية ٪
امريكا الشماليـة	١٩٨٠	٥٨٦٨	٢٩٧٥	٥٠,٦٩
	١٩٨٣	٣٥٦٥	٤٨٥	١٣,٦٠
اوربـا الغربيـة	١٩٨٠	١١٣٩٨	٧٦٤٢	٦٧,٠٤
	١٩٨٣	٦٨٩٠	٣٣١٩	٤٨,١٧
اليابـــان	١٩٨٠	٤٣٣٩	١٠٢٢	٢٣,٥٥
	١٩٨٣	٣٥٨٠	١٨٢٠	٥٠,٨٣
اوقيانوسية	١٩٨٠	٢٨٨	١٨٤	٦٣,٨٨
	١٩٨٣	١٣٠	١٠١	٧٧,٦٩
الاجمـــالي	١٩٨٠	٢١٨٩٣	١١٨٢٣	٥٤,٠٠
	١٩٨٣	١٤١٦٥	٥٧٢٥	٤٠,٤١

(١) عن :
منظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول : تقرير الامين العام السنوي الحادي عشر ١٩٨٤/ ص ٢٦ .

واختصاراً يمكن القول ان حاجة الدول الصناعية إلى النفط العربي ستظل قائمة وبذات الوزن الذي لاحظناه آنفاً . وعليه ينبغي على الدول العربية اغتنام هذا العنصر الايجابي من عناصر الوزن الجيوبولتيكي لصالح قضايا التنمية العربية اولا وتعزيز الاستقلال السياسي بالتالي ثانياً .

ثانياً : ماهي الصورة الحالية لعناصر التقويم الاقتصادية للنفط العربي

قد يكون من الموضوعية ان تستهل الاجابة بالتأكيد على أن فهم الوضع الاقتصادي للوطن العربي ينبغي ان يتم من خلال كلمتين هما : التخلف والنفط ،لان الكلمة الاولى قاسم مشترك اعظم للدول العربية كافة ــ رغم مرارة الحقيقة ــ والثانية تعني الدول العربية النفطية . صحيح ان خطى التنمية الاقتصادية قد تسارعت في الدول العربية مع انها ليست منظمة لكن العامل الزمني والموارد اللازمة لازالة معالم التخلف وارساء دعائم اقتصادية متينة تعد امور غاية في الاهمية .

ان تقويم الاداء الاقتصادي يجب ان يتم من خلال حسابات توزيع الدخل ونمو الناتج المحلي ومعدلات النمو السنوية للاستهلاك والاستثمار وانماط الانفاق الحكومي والتغيرات الهيكلية في الانتاج والتضخم والبطالة والحساب الجاري والتغير في نسب المدخرات وسلوك الصادرات وزيادة الانتاجية الصناعية والزراعية . وقد لا يكون من الميسور احتواء كل هذه المؤشرات من اجل تقويم موزون يحكم طبيعة هذا البحث . وعليه سنؤشر البحث عن بعضها .

١ ــ توزيع الدخل ونمو الناتج القومي الاجمالي :

تتيح البيانات المتوفرة من تطور الناتج القومي الاجمالي الجدول (٨) في الوطن العربي عن نمو مطرد لاسيما في السنوات التالية لعام ١٩٧٣ . اي بعد تصحيح اسعار نفط الاوبك في العام المذكور . وقد بلغ اجمالي هذا الناتج عام ١٩٨١ زهاء ٤٢٤ بليون دولار مقابل ٤٥ بليون دولار فقط عما كان عليه عام ١٩٧١ . على ان هذا لا يعني نمو الرخاء المطلق او المفاجيء للدول العربية او دليلا على تحسن الاداء بشكل ملموس في الاقتصادات العربية او على رغد مضمون وبعيد المدى ولا هو دليل على حسن الطالع للجميع . ذلك ان هذا الرخاء لا تزال تلازمه حالة التخلف . وهو ثمن مورد ناضب من موارد الثروة الا وهو

الجدول (٨)

تطور الناتج القومي الاجمالي باسعار السوق في اجمالي الوطن العربي للفترة ١٩٨٣/٧١ بملايين الدولارات وبالاسعار المحلية (١)

السنوات	الناتج القومي الاجمالي
١٩٧١	٤٥٥٠٣
١٩٧٢	٥٤٣٧٥
١٩٧٣	٧٠٧٧٨
١٩٧٤	١٢٦٥٤٧
١٩٧٥	١٥٠٤٨٩
١٩٧٦	١٧٧٤٤٣
١٩٧٧	٢١٣٠٢٧
١٩٧٨	٢٤٤٥١٣
١٩٧٩	٢٩٢٦٥٥
١٩٨٠	٣٩١٣٥٠
١٩٨١	٤٢٤٢٦٨
١٩٨٢	٤١٣٤٧٦

(١) عن الامانة العامة لجامعة الدول العربية :
صندوق النقد العربي : الحسابات القومية للدول العربية ١٩٨٣/١٩٨٢/٧١
عن نشرة الاوابك : كانون الاول /١٩٨٢/ ص ٣٤ .

النفط الخام . وحسن الطالع هذا لا يزال لا يغطي سوى ربع اجمالي سكان الوطن العربي وهي الدول العربية النفطية فقط .

بالاضافة إلى وجود تباين كبير في مستوى الدخل والشراء داخل كل بلد وبين افراد البلد الواحد . فالبيانات المتاحة تظهر هذه الحقائق ـ الجدول (٩) . فما يصيب الفـرد الواحد في الامارات العربية المتحدة يبلغ حوالي اكثر من مائة مرة مما يصيب الفرد الواحد باليمن الديمقراطية (٣٧,٢٢٢ و٣٦٤ دولار لكل من الامارات واليمن على التوالي(٥)

جدول رقم (٩)

اجمالي الناتج القومي واجمالي الناتج المحلي للوطن العربي (*)

١٩٦٠ – ١٩٨١

البلد	اجمالي الناتج القومي المجموع ١٩٨١ (مليون دولار)	للفرد الواحد ١٩٨١ (دولار)	معدل الانماء السنوي للفرد الواحد ١٩٦٠–١٩٨١
١	٢	٣	٤
الاردن	٥٥٠٠	١٦٢٠	٥,٧ (٢ × ٣)
الامارات العربية المتحدة	٢٧١٢٦	٢٤٦٦٠	٤,٣ (٢ × ٣)
البحرين	٣٥٨٤	٨٩٦٠	–
تونس	٩٢٣٠	١٤٢٠	٤,٨ (٢)
الجزائر	٤١٩٤٤	٢١٤٠	٣,٢
الجماهيرية العربية الليبية	٢٦١٩٥	٨٤٥٠	٤,٧
الجمهورية العربية السورية	١٤٦٠١	١٥٧٠	٣,٨
جيبوتي	١٩٢	٤٨٠	–
السودان	٧٢٩٦	٣٨٠	—٠,٣
الصومال	١٢٣٢	٢٨٠	—٠,٢
العراق	٤٠٩١٨	٣٠٣١ (١)	٥,٣(٣)
عمان	٥٣٢٨	٥٩٢٠	٨,٣ (٢ × ٣)
قطر	٥٥٤٤	٢٧٧٢٠	٢,٦ (٣)
الكويت	٣١٣٥٠	٢٠٩٠٠	—٠,٤(٢)
لبنان	٣٤٢٩	(١)١٢٧٠	–
مصر	٢٨١٤٥	٦٥٠	٣,٥
المغرب	١٧٩٧٤	٨٦٠	٢,٤
المملكة العربية السعودية	١١٧١٨٠	١٢٦٠٠	٧,٨(٢)
موريتانيا	٧٣٦	٤٦٠	٥,٥
اليمن	٣٣٥٨	٤٦٠	١,٥
اليمن الديمقراطية	٩٢٠	٤٦٠	١٢,٥ (٢ × ٣)
المجموع	٣٩١٧٨٢ (٦)	٢٢٩٦ (٧)	

اجمالي الناتج المحلي								
بالاسعار الجارية					بالاسعار الثابتة لعام ١٩٧٥ (اجمالي الناتج المحلي الحقيقي)			
المجموع (مليون دولار)		للفرد الواحد (دولار)	معدل الانمــاء السنوي الاجمالي للناتج المحلي (٪)		معدل الانمــاء السنوي للفرد الواحد (٪)		معدل الانماء السنوي الاجمالي للناتج المحلي الحقيقي (٪)	
١٩٨٠	١٩٨٢	١٩٨٠	١٩٦٠-١٩٧٠	١٩٧٠-١٩٨١	١٩٦٠-١٩٧٠	١٩٧٠-١٩٨٠	١٩٦٠-١٩٧٠	١٩٧٠-١٩٨٠
٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣
٢٩٠٦	٢٨٨٠	٩١١	٦,٦	-	٣,٧	صفر	٦,٩	٣,٤
٢٩٦٢٩	٢٩٦٥٧	٣٧٢٢٢	-	-	-	-	-	-
٢٧٦٦	٤٩٦٨	٩١٥٩	-	-	-	-	-	-
٨٧٢٨	٧٧١٤	١٣٧٢	٤,٧(٤)	٧,٣	٢,٢	٥,٥	٤,٣	٧,٨
٤٠٥٩٤	٣٩٩٨٨	١٨٣	٤,٣	٦,٩	٠,١-	٤,٩	٨,٨	٨,٥
٣٥٢٣٨	٣٢٣٨٩	١١٨٣٧	٢٤,٤	٢,٣	١٠,٦	٤,٥	٢٤,٨	٨,٨
١٢٩٠٥	٦٨٢٤٧	١٤٩٣	٤,٦	١٠,٠ (٥)	٢,٤	٦,٥	٥,٧	١٠,٠
٤٠٤	٥٨١	-	-	-	١٢,٣	-٠,٧	١٤,١	١,٦
٩٠٥٣	٦٣٧٨	٤٩٣	١,٣	٤,١	٠,٢	١,٢	٢,٥	٣,٩
٩٧٨	٧٤٥	٣٦٨	١,٠	٣,٩	-٠,٦	٠,٩	١,٧	٣,٧
٣٩٦٦١	٣٠٥٥٠	٣٠٣١	٦,١	-	٢,٤	٤,٨	٥,٧	٨,٣
٥٢٨٠	٦٤٥٩	٥٩٣٢	-	-	-	-	-	-
٦٠٢٠	٧٧٨٢	٢٧٣٦٤	-	-	-	-	-	-
٢٧٥٩٦	٦٩٩٢٨	٢٠١١٤	(٤)٥,٧	(٥)٢,٣	-	-	-	
٤٠١٦	٢٥٧٤	١٢٧٠	٤,٩	(٥)-٥,٤	-	-	-	

١٩٤٧٨	٣٤٠٥٧	٤٦٤	٠,٣	١,٨(٥)	١,٩	٣,٨	٤,٥	٦,٢
١٧٧٨٥	١٤٧٦٥	٨٧٦	٤,٤	٥,٢	١,٢	٢,٨	٣,٩	٥,٩
١٢٨٩١٥	٦٢٦٨٣٥	١٥٤٠٨	-	١٠,٦(٥)	٧,٠	٥,٩	٩,٨	٩,٢
٩٧٩	٧١٦	١٠٠٢	٦,٧	١,٧	٥,٥	-٠,٨	٨,١	١,٩
٣٢٤٥	٣١٣٧	٥٤٨	-	٨,٧	٢,٣	٧,٠	٤,٢	٩,٢
٦٨٤	٨٩٦	٣٦٧	-	-	-٤,٩	٢,٣	-٢,٨	٤,٧
٣٩٦٨٦٥	٣٩٢٢٤٦	٢٤٣٨,٢(٨)						

(ه) لا يشمل هذا الجدول والجداول التالية فلسطين ، لعدم توفر المعلومات الاحصائية التفصيلية عنها .

(١) اجمالي الناتج المحلي للفرد عام ١٩٨٠ . (٢) البيانات هي لسنة تختلف عن السنة المبينة (عموماً لا يزيد الفرق عن سنتين) .

(٣) البيانات لعام ١٩٦٠-١٩٨٠ . (٤) البيانات لعام ١٩٦١-١٩٧٠ . (٥) البيانات لعام ١٩٧٠-١٩٨٠ .

(٦) احتسب اجمالي الناتج القومي بضرب معدل الناتج القومي للفرد الواحد عام ١٩٨١ عمود(٣)في عدد سكان كل بلد عربي في منتصف عام١٩٨١.

(٧) احتسب بقسمة اجمالي الناتج القومي لعام ١٩٨١ عمود (٢) على عدد سكان الوطن العربي في منتصف عام ١٩٨١ .

(٨) احتسب بقسمة اجمالي الناتج المحلي عام ١٩٨٠ عمود (٥) على عدد سكان الوطن العربي في منتصف عام ١٩٨٠ .

ملاحظة عامة : تشير العلامة ـــ الى ان البيانات غير متوفرة .

المصدر : احتسبت من :

World Bank, World Development Report, 1983 (Washington, D.C., 1983), tables I and 2, pp. 148-149 and 150-151 respectivelys World Bank, World Development Report, 1979 (Washington D.C., 1979). table 2,pp. 112-113; World Bank, World Development Report, 1979 (Washington D.C., 1979) table 2 pp. 128-129; Unkle Nations Conterence on Trade and Development Handbook of International Trade and Development Statistics,1983 (New York, 1983). tables 6.1 and 6.2, pf:436-437 and 441-443 respectively.

الامانة العامة لجامعة الدول العربية ، صندوق النقد العربي ، الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي، ومنظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول،التقرير الاقتصادي العربي الموحد ١٩٨٣، جدول رقم(٢-٥)، ص٢٠٨ . وقد احتسب فيه بناء على تقديرات الجهاز الفني لكل منصندوق النقد العربي والصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي، وقد تم تقريب ارقام اجمالي الناتج المحلي لعام ١٩٨٢ الى اقرب مليون دولار .

نقلاً عن المستقبل العربي : العدد ١٩٨٤/٤ .

ومايصيب الفرد الواحد في الدول العربية النفطية الصحراوية يزيد بالمتوسط على خمسة عشر الف دولار سنوياً. مقابل نحو ٦٠٠ دولار فقط للفرد الواحد في الدول العربية غير النفطية.

زد على ذلك ان معدلات الانماط السنوي للدخل تبلغ زهاء الضعف في الدول العربية النفطية خلال الفترة ٦٠ ــ ١٩٨١ بالمقارنة مع الدول العربية غير النفطية.

ان تباين الدخول في الدول العربية في اعتقادنا عمل على رفع درجة الانحدار الجيوبولتيكي بين هذه الدول فعزز من آليات تنافرها اكثر مما دفع بآليات وحدتها.

ويزداد هذا الانحدار اتساعاً ضمن الدولة الواحدة بما يخلق من فروقات غير معقولة في حجم ثروات الافراد مما خلف وسيخلف اعباء اجتماعية كبيرة قد لاتعمل على تحقيق الوحدة الاثنوغرافية المتماسكة التي تنشدها الدول او الوحدات السياسية في قوتها. وتشير بعض المصادر (٤) الى ان نسبة دخل الفئة الاقل دخلاً الى دخل الفئة الاكثر دخلاً في بعض الدول النفطية بلغت الى ٢٠,٠٠٠ اذن فان افراد فئات الثروة والدخل العليا يستطيعون بفضل مواقعهم ونفوذهم ان يجمعوا ثروات تفوق بكثير المستوى الذي تتيحه لهم قدراتهم وامكانياتهم الذاتية.

واذا نظرنا من ثقب واحد من المصفاة الى الدول العربية النفطية او وسعنا زاوية النظر لتشمل كل الوطن العربي فاننا نرى ان الوزن الجيوبولتيكي المرغوب للعرب ينبغي ان يأخذ بعين الاعتبار مسألة الانسجام الاجتماعي والاقتصادي بحيث يحقق نمط التوزيع عدالة اكثر. واختصاراً فانه من غير المعقول السماح بهذه الحالة بالتنامي لان ذلك يعني الانفصال الصارخ او شبه الطلاق بين الجهد وعائده لدى شريحة صغيرة جداً من مواطني الدول النفطية. ذلك مايقود الى مانسميه بالاحباط الاجتماعي . الذي لايقود الا الى تفتت النظام الاجتماعي والعنف السياسي بالتالي.

٢ ــ معدلات الانماء السنوي في الاستهلاك والاستثمار والتغيرات الهيكلية في الاقتصاد العربي: تعكس البيانات المتاحة عن نمو الاستهلاك والاستثمار في الدول العربية للسنوات ١٩٨١/٦٠ جدول (١٠) ضالة نسبة اجمالي الاستثمار المحلي بالنسبة لاجمالي الناتج المحلي فهي لم تتجاوز الثلث تقريباً (٣٤٪) في الدول العربية النفطية (ليبيا)ونحو٤١٪ في الدول العربية غير النفطية (الاردن)وعموماً فان نسبة الاستثمار المحلي للدول العربية غير النفطية) في نمو واضح بالمقارنة مع نظيراتها الدول النفطية. زد على ذلك ان هناك

تناقضاً بارزاً في نسبة الاستثمار المحلي بالنسبة للناتج المحلي في بعض الدول النفطية . كما عليه الحال في ليبيا. الذي بلغت فيها نسبة اجمالي الاستثمارات المحلية الى اجمالي الناتج المحلي عام ١٩٨١ نحو ٣٧٪ مقابل ٤٢٪ هما كانت عليه عام ١٩٦٠.ولعل ذلك مايؤكد الجوانب السلبية للعائدات النفطية العربية التي غذت المغذي الرئيسي للناتج المحلي للدول النفطية .

فلا غرابة ان يحقق الاستهلاك العام والاستهلاك الخاص معدلات نمو سنوية متسارعة في الدول النفطية خلال السنوات ٧٠/ ١٩٨١ بالقياس مع نظرائهم الدول غيرالنفطية. ذلك يقترن بتنامي عائدات النفط خاصة بعد تصحيح الاسعار عام ١٩٧٣ .

زد على ذلك ان معدلات نمو الاستهلاك الخاص كانت اكبر من نظيراتها الاستهلاك العام. وذلك يقترن بارتفاع المستوى المعاشي للسكان . وبروز قيم جديدة للارتقاء الاجتماعي كالسيارات والجواهر فبلغت الدول النفطية حالة متطرفة من الاستهلاكية وفي الواقع فان عنصر الاستهلاك المرتفع حسب تعبير الاقتصادي روستو (٥)قد حل بيننا فجأة دون اكتمال الشرط المسبق الواجب استيفاؤه وهو (التنمية المرتفعة) ففي غالبية الدول النفطية تشخص ظاهرة الاستهلاك المرتفع وسط حالة الاداء الاقتصادي المنخفض.

والاستهلاك العام (الحكومي) يستحق الملاحظة ذلك ان غالبية الانفاق هو في جانب سباق التسلح وان كان لهذا الجانب بالنسبة لبعض الدول العربية مايبرره لاسيما لدرء اخطار العدوان الاجنبي ولتحرير الارض المغتصبة في فلسطين. بالاضافة الى الاسراف في تقويم الخدمات فيما يحقق نظام الرفاه الاجتماعي للسكان مما زاد من الاعتماد المغري على الحكومات في هذا المجال .

كما طرأت تغيرات في هيكل الانتاج وفقاً لانماط نموذجية معينة . فقد تناقصت الاهمية النسبية لقطاع الزراعة في اجمالي الناتج المحلي خلال السنوات ٦٠/١٩٨١ (الجدول ١١) خاصة في الدول النفطية . فقد بلغت نسبة مساهمة هذا القطاع عام ١٩٨١ في المملكة السعودية زهاء ١٪ مقابل ١٠٪ مما كان عليه عام ١٩٦٠ وفي العراق ٧٪ عام ١٩٨١ مقابل ١٧٪ عما كان عليه عام ١٩٦٠ . وفي ليبيا ٢٪ عام ١٩٨١ مقابل ١٤٪ مما كان عليه عام ١٩٦٠ . وفي الجزائر ٦٪ عام ١٩٨١ مقابل ١٦٪ عام ١٩٦٠ . وحتى الدول العربية غير النفطية كمصر مثلاً فقد بلغت نسبة مساهمة القطاع الزراعي نحو ٢١ ٪ عام ١٩٨١ مقابل ٣٠٪ عما كان عليه عام ١٩٦٠ . وفي سوريا بلغت مساهمته ١٩٪ عام ١٩٨١ مقابل ٢٥٪ عما كان عليه عام ١٩٦٠ .

الجدول(١٠)

نمو الاستهلاك والاستثمار في الوطن العربي ١٩٦٠ – ١٩٨٠(نسب مئوية)

البلد	معدل الأنماء السنوي للاستهلاك العام(٪)		معدل الأنماء السنوي للاستهلاك الخاص (٪)	
	١٩٦٠ – ١٩٧٠	١٩٧٠ – ١٩٨١	١٩٦٠ – ١٩٧٠	١٩٧٠ – ١٩٨١
١	٢	٣	٤	٥
الاردن	٨,٩	—	٠,٤	—
الامارات العربية المتحدة	—	—	—	—
البحرين	—	—	—	—
تونس	(١) ٥,٢	٩,٠	(١)٣,٢	٨,٢
الجزائر	١,٥	١١,٤	٢,٣	٩,٢
الجماهيرية العربية الليبية	—	١٥,٦	—	١٨,٥
الجمهورية العربية السورية	—	(٢)١٦,٠	—	(٢)١٢,١
جيبوتي	—	—	—	—
السودان	١٢,١	(٢) – ٤,٢	–١,٦	٦,٩
الصومال	٣,٧	—	٠,٤	—
العراق	٨,١	—	٤,٩	—
عمان	—	—	—	—
قطر	—	—	—	—
الكويت	—	(٢)١٠,٨	—	(٢)١٣,١
لبنان	٥,٩	—	٤,٤	—
مصر	(١)	(١)	٦,٧	(٢)٦,٠
المغرب	٤,٤	(٢)١٤,٢	٤,١	(٢)٤,٣
المملكة العربية السعودية	—	(١)	—	(٢)١٨,٨
موريتانيا	(٠)	٩,٠	٢,٦	٣,٢
اليمن	—	(٢)١٠,٨	—	(٢)١٠,٠
اليمن الديمقراطية	—	—	—	—

(١) البيانات لعام ١٩٦١ – ١٩٧٠.

(٢) البيانات لعام ١٩٧٠ – ١٩٨٠.

البلد	معدل الأنماء السنوي لاجمالي الاستثمار المحلي (٪)		اجمالي الاستثمار المحلي كنسبة من اجمالي الناتج المحلي (٪)	
	١٩٦٠ — ١٩٧٠	١٩٧٠ — ١٩٨٠	١٩٦٠	١٩٨١
	٦	٧	٨	٩
الاردن	٩,٩	—	١٧	٤١(٤)
الامارات العربية المتحدة	—	—	—	٢٨(٤)
البحرين	—	—	—	—
تونس	٤,٢(١)	١٠,٨	١٨(٣)	٣١
الجزائر	٢,٠	١١,٨	٤٢	٣٧
الجماهيرية العربية الليبية	—	١٠,٧	—	٣٤
الجمهورية العربية السورية	—	١٦,٧(٢)	—	٢٤(٤)
جيبوتي	—	—	—	—
السودان	٣,١ —	٢,٥	١٢	١٣
الصومال	٣,٤	—	١٠	١٦(٥)
العراق	٣,٠	—	٢٠	٣٣(٥)
عمان	—	—	—	—
قطر	—	—	—	—
الكويت	—	١٧,٥(٢)	—	١٧
لبنان	٦,٢	—	١٦	—
مصر	٣,١	١٦,٢(٢)	١٣	٣٠(٤)
المغرب	٨,٨	٩,٢(٢)	١٠	٢٣
المملكة العربية السعودية	—	٤٢,٦(٢)	—	٢٦(٤)
موريتانيا	٢,٠ —	٦,٤	٣٨	٣٨
اليمن	—	٢٤,٦(٢)	—	٤٤
اليمن الديمقراطية	—	—	—	٢٤(٦)

(٣) البيانات لعام ١٩٦١.

(٤) البيانات لعام ١٩٨٠.

(٥) البيانات لعام ١٩٧٩.

(٦) البيانات لعام ١٩٧٧.

(أ) الارقام الخاصة بالاستهلاك العام غير متوفرة وبالتالي فالاستهلاك الخاص يشتمل على الاستهلاك العام.

ملاحظات عامة: (١) تشير العلامة « — » الى ان البيانات غير متوفرة.

(٢) تشير العلامة (٠) الى ان الرقم اقل من ٠,٥ بالمائة

تابع جدول (١٠)

المصادر : احتسبت من :

World Bank, World Development Report, 1983, tables 4 and 5, pp. 154–155 and 156–157 respoctievely; World Bank, World Development Report, 1982, tables 4 and 5 pp. 116–117 and 118–119 respoctively; World Bank, World Development Report, 1979, tables 4 and 5, pp. 132–133 and 134–135 respoctively, and World Bank, World Development Report, 1978, table 5, pp. 84–85.

عن : مجلة المستقبل العربي / العدد٤/١٩٨٤.



الجدول (١١)

هيكلية الانتاج : توزيع اجمالي الناتج المحلي على القطاعات الرئيسية في الوطن العربي ١٩٦٠ و ١٩٨١ (نسب مئوية)

	اجمالي الناتج المحلي (مليون دولار)		الزراعة		الصناعة التعدينية
	١٩٦٠	١٩٨١	١٩٦٠	١٩٨١	١٩٦٠
١	٢	٣	٤	٥	٦
الاردن	٢٧٥	٣٢١٨	—	٨(٥)	١٤
الامارات العربية المتحدة	—	٣١٠٩٩	—	١(٥)	—
البحرين	٤٤(٢)	٣٨١٠	—	—	—
تونس	٧٧٠(٣)	٧١٠٠	—	١٦	١٨(٣)
الجزائر	٢٧٤٠	٤١٨٣٠	—	٦	٣٥
الجماهيرية العربية الليبية	٣١٠	٢٧٤٠٠	—	٢	٩
الجمهورية العربية السورية	٨٩٠	١٥٢٤٠	—	١٩	٢١
جيبوتي	٢٤	٤٨٥	—	—	—
السودان	١١٦٠	٧٥٤٠	٥٠٠	٣٨	١٥
الصومال	١٦٠	١٢٣٠	٧٠	٦٠(٦)	٨
العراق	١٥٨٠	٢١٥٧٠	١٧	٧(٦)	٥٢
عمان	٢٥٦(٢)	٦٦٧٩	١٠٠(٢)	٢(٥)	٦٧(٢)
قطر	١٥٩(٢)	٦٢١٢	—	صفر(٥)	—
الكويت	١٩٠٢(٤)	٢٤٢٦٠	—	—	—
لبنان	٨٣٠	٤٠١٦	١	—	٢٠
مصر	٣٨٨٠	٢٦٣٣٥	٣٠	٢١(٥)	٢٤
المغرب	٢٠٤٠	١٤٧٨٠	٢٣	١٤	٢٧
المملكة العربية السعودية	١٦٨٥	١٢١٣٠٥	١٠(٤)	١(٥)	—
موريتانيا	٩٠	٦٣٠	٤٤	٢٨	٢١
اليمن	٢٣٤	٣٧٧٠	—	٢٨	—
اليمن الديمقراطية	٢٢٤(٤)	٥٧٠	—	١٣(٥)	—
المجموع		٧٨٠٧٩ —			

	الصناعة التعدينية	الصناعة التحويلية(١)		الخدمات	
	١٩٨١	١٩٦٠	١٩٨١	١٩٦٠	١٩٨١
	٧	٨	٩	١٠	١١
الاردن	٣٠(٥)	٨	١٤(٥)	٧٠	٦٢(٥)
الامارات العربية المتحدة	٧٧(٥)	—	٤(٥)	—	٢٢(٥)
البحرين	—	—	—	—	—
تونس	٣٧	٨(٣)	١٤	٥٨(٣)	٤٧
الجزائر	٥٥	٨	١١	٤٩	٣٩
الجماهيرية العربية الليبية	٧١	٩	٣	٧٧	٣٧
الجمهورية العربية السورية	٣١	١٦	٢٦	٥٤	٥٠
جيبوتي	—	—	—	—	—
السودان	١٤	٥	٦	٢٧	٤٨
الصومال	١١(٦)	٣	٧(٦)	٢١	٢٩(٦)
العراق	٧٣(٦)	١٠	٦(٦)	٣١	١٩(٦)
عمان	٧٠(٥)	صفر	١(٥)	٧(٢)	٢١(٥)
قطر	٧٠(٥)	—	٤(٥)	—	٢٣(٥)
الكويت	٧١	—	٤	—	٢٩
لبنان	—	١٣	—	٦٨	—
مصر	٣٨(٥)	٢٠	٣٢(٥)	٤٦	٤١(٥)
المغرب	٣٤	١٦	١٨	٥٠	٥٢(٥)
المملكة العربية السعودية	٧٨(٥)	٨(٤)	٤(٥)	—	٢٠(٥)
موريتانيا	٢٤	٣	٧	٣٥	٤٨
اليمن	١٦	—	٦	—	٥٦
اليمن الديمقراطية	٢٨(٥)	—	١٤(٥)	—	٥٩(٥)

(١) الصناعة التحويلية هي بالطبع جزء من القطاع الصناعي ولقد رأينا ان نعطي على حدة حصتها من اجمالي الناتج المحلي لانها تمثل الجزء الأكثر دينامية في القطاع الصناعي

(٢) البيانات لعام ١٩٧٠.

(٣) البيانات لعام ١٩٦١.

(٤) البيانات لعام ١٩٦٣.

(٥) البيانات لعام ١٩٨٠.

(٦) البيانات لعام ١٩٧٩.

ملاحظة عامة: تشير العلامة «ـ» الى ان البيانات غير متوفرة.

المصدر: احتسبت من

World Bank, World Development Report, 1983. table 3 pp. 1982, table 3. pp. 114–115. and World Bank, World Development Report, 1979, table 3, pp. 130–131.

ـ بالنسبة لبيانات العمود (٥) (٧) (٩) و(١١) لكل من عمان وقطر فقد احتسبت من:

UNCTAD, Ibid, tables 6.1 and 6.4, pp. 436 and 460–461 respectively.

ـ بالنسبة لبيانات العمود(٣) لكل من الاردن، الامارات العربية المتحدة البحرين، جيبوتي العراق، عمان، قطر، مصر، والسعودية فقد احتسبت من: التقرير الاقتصادي العربي الموحد ١٩٨٢، جدول رقم(٢ـ٢) ص١٤٨.

ـ بالنسبة لبيانات العمود (٣) لكل من الاردن، البحرين، جيبوتي، عمان، قطر، الكويت المملكة العربية السعودية، اليمن واليمن الديمقراطية، كذلك بالنسبة لبيانات المملكة العربية السعودية في العمود(٤) و(٨) فقد احتسبت من:

United Nations, Yearbook of Naional Accounts Staistics, 1977, Vol. 2 (New York, 1978), tables 1A and 3, pp. 3–9 and 106 respectively.

عن: المستقبل العربي /العدد ١٩٨٤/٤

ولعل تفسير هذه الظاهرة يقترن بتنامي الاهمية النسبية لقطاع الصناعات التعدينية (النفط) اولا . وتزايد الاعتماد على عائداته في تموين الناتج المحلي ثانياً . وقد يكون التدهور النسبي الذي شهده القطاع الزراعي بسبب الهجرة الريفية المتفاقمة لاسيما في الدول النفطية عاملاً ثالثاً .

غير ان قطاع الصناعة (التعدينية) قد شهد نمواً متسارعاً خاصة في الدول العربية النفطية فقد بلغت الاهمية النسبية لهذا القطاع في ليبيا عام ١٩٨١ نحو ٧١٪ مقابل ٩٪ فقط عما كان عليه عام ١٩٦٠ وهذا يرتبط باكتشاف وانتاج النفط في ليبيا بعد منتصف الستينات وفي المملكة العربية السعودية نحو ٧٨٪ عام ١٩٨١ . وبنسبة مقاربة للكويت والعراق : ٧١٪ و٧٣٪ لكل منهما على التوالي .

ولقد نما قطاع الصناعة التحويلية ايضاً لكن ببطء شديد بالمقارنة مع نظيره قطاع الصناعة التعدينية هذا ، وقد تضاءلت الاهمية النسبية لقطاع الخدمات خاصة في الدول النفطية :

واجمالاً للقول يمكن ان نؤكد ان النفط قد الحق تغيرات في هيكلية الانتاج في الاقتصاد العربي . لكن هذه التغيرات كانت ملازمة للقطاع النفطي وسبباً له . مما ألحق — ولو بشكل غير مباشر — تأثيرات غير مرغوب فيها في قطاعين متجددين هما : الزراعة والخدمات .

٣ — التضخم والبطالة والحساب الجاري والاستثمارات الخارجية :

وقد تمخضت الثورة النفطية العربية عن اخطار اقتصادية اخرى لحقت باقتصادياتها منها : بروز ظاهرة التضخم اذ بلغ معدل التضخم في الدول العربية النفطية نحو ١٢,٩٪ عام ١٩٨٠ مقابل ٧,٩٪ عما كان عليه عام ١٩٧٨ . الا انه اخذ في الهبوط حتى بلغ عام ١٩٨٤ نحو ٥٪ فقط (٧) في حين ان معدلات التضخم في الدول المصدرة له وهي الدول الصناعية اقل منه بكثير . فقد بلغ معدل التضخم في اليابان والمانيا الغربية عام ١٩٨٤ نحو ٢٫٢٥٪ لكل منهما على التوالي (٨) .

وقد يحسن بنا الاشارة الى ان ظاهرة التضخم هذه الحقت اضراراً بالغة في اسعار النفط العربي الخام . ولعل في بيانات الجدول (١٢) مايؤكد هذه الحقيقة ، فاسعار النفط الخفيف (محسوبة بمعدلات التضخم في دول منظمة التعاون والتنمية) في الولايات المتحدة مثلاً عام ١٩٨٤ كان بحدود ١٣٫٨٩ دولاراً فقط مقابل ٢٩ دولاراً للسعر الرسمي للنفط العربي الخفيف . وفي اليابان نحو ١٦٫٨٤ دولاراً وفي فرنسا نحو ١٠٫٥٩ دولاراً . وفي ايطاليا حوالي ٦,٩٠ دولاراً فقط . وهكذا يمكن ان نقف على الحجم الفعلي لعائدات النفط العربية .

ولم يأمن الاقتصاد العربي حتى من ظاهرة البطالة فقد بلغ معدلها في الدول العربية النفطية نحو ٥,٨٪ عام ١٩٨٤ مقابل ١,٥٪ عما كانت عليه عام ١٩٧٩ . في حين لم تزد في اليابان عن ٢,٣٪ فقط . وفي المانيا الغربية نحو ٨,٢٥٪ وفي الولايات المتحدة الامريكية ٧,٥٪ غير انها في ايطاليا حوالي ١٠,٠ ٪ (٩) .

ولعل في الرجوع إلى البيانات المتاحة عن الحساب الجاري للدول العربية (١٠) يظهر الاهمية المطلقة للصادرات السلعية النفطية المقارنة مع نظيرتها الصادرات السلعية غير النفطية اولا . وتنامي حجم المستوردات السلعية للدول النفطية العربية التي فاقت احياناً الصادرات السلعية كما هي عليه الحال في الدول العربية غير النفطية كسوريا وتونس ومصر ثانياً . وظهور عجز بارز في الحساب الجاري في الدول النفطية وغير النفطية بسواء كما عليه الحال في المملكة العربية السعودية والجزائر وليبيا وسوريا ومصر ثالثاً .

اضف إلى ما تقدم فان اجمالي الوطن العربي يظهر عجزاً في الحساب الجاري بلغ عام ١٩٨٣ نحو ١٣٧٠٨ مليون دولار مقابل فائض عام ١٩٨٢ بلغ قرابة ٤٨٩٢٠ مليون دولار.

ولعل في هذه البيانات ما يؤكد حقيقة التنمية المعتمدة في اقتصاديات الدول العربية النفطية منها بخاصة . التي كان من المفروض أن تعمل على فك أسر القطاع النفطي لبنية الاقتصاديات الوطنية في هذا الاقليم . فاذا كانت صورة حسابه الجاري كما سبق تحديدها بظل الحقبة النفطية الذهبية فكيف ستكون صورته لاحقاً لا سيما وان ملامح السوق النفطية الدولية لا تبعث على التفاؤل الكبير في ظل زيادة حجم المعروض من النفط على الطلب الفعلي الواقع عليه اولا . وتدني الاسعار كمحصلة لهذا الواقع ثانياً ؟

سؤال لا نطمح الاجابة عنه كباحثين بل نترك الاجابة لمراكز صنع القرار في الدول العربية ذاتها بما يمكن من الحفاظ على حد ادنى من الوزن الجيوبولتيكي لهذه الخريطة قومياً .

ورغم ابعاد هذه الصورة المحددة للنفط العربي في بيئات توطنه اقتصادياً ترانا نجد ابعاداً لظواهر مناقضة في هذا الاتجاه .

فحجم الاستثمارات الخارجية للدول العربية النفطية لا يزال كبيراً . بلغ بنهاية عام ١٩٨٣ حوالي ٣٥٧,١ بليون دولاراً (١١) ، ٦٤ ٪ منها في استثمارات طويلة الاجل . والباقي (٣٦ ٪) في استثمارات قصيرة الاجل .

الجدول (١٢)

الاسعار الرسمية النفط العربي الخفيف محسومة بمعدلات التضخم في دول منظمة التعاون والتنمية ١٩٨٤/٧٤ . دولار امريكي (١٩٧٤=١٠٠) (١)

	١٩٧٤	١٩٧٩	١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤
السعر الرسمي	٩,٥٦	٦٧,٨٤	٢٨,٦٧	٣٢,٥٠	٣٤,٠٠	٣٠,٠٣	٢٩,٠٠
السعر الحقيقي							
الولايات المتحدة	٩,٥٦	١٢,١٠	١٧,١٤	١٧,٦٠	١٧,٣٥	١٤,٨٥	١٣,٨٩
اليابان	٩,٥٦	١٢,٥٦	١٨,٦٩	٢٠,١٩	٢٠,٣٨	١٧,٨٣	١٦,٨٤
المانيا الغربية	٩,٥٦	١٤,٥٣	٢٢,١٢	٢٣,٧٠	٢٣,٥٣	٢٠,٠٥	١٨,٨٩
فرنسا	٩,٥٦	١١,٠١	١٥,٥٨	١٥,٥٧	١٤,٥٧	١١,٧٤	١٠,٥٩
المملكة المتحدة	٩,٥٦	٨,٦٧	١١,٨١	١١,٩٦	١١,٥٢	٩,٧٣	٨,٧٨
ايطاليا	٩,٥٦	٨,٥٧	١١,٣٦	١٠,٧٨	٩,٦٧	٧,٦٥	٦,٩٠
مجموعة دول OECD	٩,٥٦	ـ١,٤٣	ـ٦,٦٩	١٦,٧١	١٦,٢٢	١٣,٦١	١٢,٥٢

(١) منظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول :
التقرير السنوي للامين العام الحادي عشر ١٩٨٤/ ص ٨٥ .

لكن يظل التساؤل قائماً : اين وظفت هذه الاموال ؟ في الدول العربية غير النفطية ام في الدول النامية الاخرى ؟

ان الاجابة تحديداً ليست هنا ولا هناك بالشكل البارز . اذ امتصت الدول الصناعية نحو ٧٩٪ من اجماليها . فقد ظفرت الولايات المتحدة الامريكية بحوالي ٢٣,٢٪ . والمملكة المتحدة ١٧,٤٪ والدول الصناعية الاخرى بنحو ٣٦,٥٪ .اما الدول النامية فلم تنعم سوى بحوالي ٢٢,٩٪ من اجمالي هذه الاستثمارات فقط .

زد على ذلك ان حجم الودائع المصرفية للدول العربية المصدرة للنفط يجب اخذه في الحساب هنا ايضاً . فقد بلغ عام ١٩٨١ نحو ١١١,٦ بليون دولار هبط عام ١٩٨٣ إلى قرابة ٨٠,٣ بليون دولار فقط .

وقد يحسن بنا التذكير هنا ان الاستثمارات المالية تعد أحد العناصر الرئيسة في تقدير قوة الدول اقتصادياً في منهج تحليل القوة الستراتيجية والجيوستراتيجية بسواء . ولعلنا نتذكر كيف ان المملكة المتحدة اضطرت في الحرب العالمية الثانية إلى ان تبيع بعضاً من مستعمراتها الجزرية في المحيط الاطلسي لكي تحصل على المال فيما يمكنها من ديمومة تواجدها اقتصادياً وعسكرياً . ذلك ضمن اطار من المفاضلة الجيوبولتيكية الدقيقة .

ولعل من نافلة القول ان نشير إلى ان تثميرات الدول العربية النفطية في نمو متزايد في اراضيها بشكل عام وطبقاً لامكانياتها الجغرافية المتاحة للاستثمار . على ان هذا لا يعني ان الدول النفطية القليلة السكان ذات الامكانيات المالية الكبيرة محرومة من فرص الاستثمار الهادفة طالما ان شقيقاتها الدول العربية الاخرى تعد عمقاً جغرافياً لتثميراتها اقتصادياً واستراتيجياً ذلك ان الايمان بهذه الحقيقة — رغم القلق الذي يراود البعض احياناً — يشكل الطريق السليم لتحقيق توزيع اكفاء للموارد . وبذلك يجنبنا مغبة اعباء تكلفة اجتماعية لا مبرر لها .

ولعل في التذكير بهذا الموضوع مايقود الى دراسته فيما يمكن من اتخاذ قرارات هادفة خاصة في وقت يسود الاقتصاد العالمي المبدأ المعروف« بالثروة ذات اعتماد متبادل» الذي غدا احد قوانين التاريخ الاقتصادي المعاصر.

ثالثاً : ماهو واقع التكلفة الاجتماعية للنفط العربي :

كشفت النقطة السابقة من واقع تكلفة التنمية الاقتصادية للعائدات النفطية في الوطن العربي وهنا سنحاول ايجاز ملامح الصورة الحالية لتكلفة التنمية الاجتماعية لهذا المورد في هذا الاقليم ايضاً.

لعل تفاقم الاستهلاك بنوعيه الحكومي والخاص كان من بين السمات المميزة للوضع الاقتصادي وقد نجم عنه آثار اجتماعية مثارة تقف بمقدمة عناصر التكلفة الاجتماعية. ومن هذه الآثار الاختلال الواضح في قيم المجتمع والعلاقات والبنى الاجتماعية وحتى الاعتبارات الخلقية في المجتمع النفطي الجديد. وبرزت ظواهر سلبية جديدة في هذا المجتمع .منها تفاقم ظاهرة الهجرة الريفية (الطفح القروي كما اعتدنا ان نسميها) الى المراكز الحضرية الرئيسة نمت هذه المراكز وتضخمت دون أن يواكبها خلق او توفير مراكز المرافق العامة والخدمات الاجتماعية فبرزت مشكلات عديدة كاهمال القطاع الزراعي والسكن والمواصلات وغيرها. وتنامت ظاهرة جنوح الاحداث وتسيبهم وهبوط مستوى الاحساس بالمسؤولية الذي لازم الارتفاع الملموس في الدخل الفردي المتاح للاستهلاك. وبرزت ظاهرة التسابق في اقتناء السيارات ومظاهر الحياة العصرية الترفيهية .

ونقل النفط قيم المجتمع الاصيلة التقليدية الى قيم جديدة تنظر الى المال نظرة مقدسة كونه اداة الرفاه والرقي والمكانة الاجتماعية دون منازع.

فلا غرابة ان يكون قطاع المال والمقاولات والتجارة وخاصة تجارة العقارات مراكز الجذب المركزية لشريحة المواطنين من ذوي الدخول المرتفعة فاتجهت مداخيلهم للمضاربة في اسواق المال والعقار بسواء – وبرزت ازمات مالية حادة . كانت أزمة سوق المناخ في الكويت عام ١٩٨٢ احداها:

هذا بالاضافة الى ان هذه الشريحة من القوى العاملة قد تحولت الى قطاع يكاد يكون «طفيلياً» فهي تنعم بدخولها الناجمة عن فوائد رؤوس اموالها بشكل كبير. وتحولت الى مايعرف بطبقة الريع.

وقد نجم عن مظاهر الانفاق العام الحكومي مظاهر تتصل بالانفاق الاستهلاكي والانمائي بسواء فبغية تلبية حاجة الجهاز الحكومي المتنامية من الكوادر لتنفيذ المهمات تشعبت هذه الاجهزة وتضخمت بشكل لم يسبق له مثيل وبوتائر دون انتاجيتها بشكل واضح في هذا المجال يدفعها الى ذلك خلق فرص العمل كهدف اجتماعي ليس الا بعيداً عن الحاجة

الفعلية لاولئك الموظفين . وتعقدت سلسلة الاعمال الادارية (الروتين) بدلامن اختزالها وهجرت العديد من الخدمات من قبل ابناء الدولة النفطية. ليضطلع بمسؤولياتها الوافدون من الاجانب على وجه التحديد رغم مايكمن من مخاطر جسيمة على تركيب المجتمع واداء افراده في هذا المجال وانخراط غالبية مواطنو الدول النفطية في الوظائف الحكومية امعاناً في البطالة المقنعة فيها.

صحيح ان توسيع قاعدة الجهاز الحكومي يعني توسيعاً في قاعدة توزيع الدخل وفرص العمل الا أن المغالاة في هذا الامر له نتائجه السلبية الاجتماعية والاقتصادية بسواء خاصة مايتعلق بخلقية العمل لدى القوى العاملة في المجتمع.

على انه من الموضوعية الا نغفل بعض التأثيرات الايجابية للنفط في المجتمع العربي منها التطور والنمو السكاني وتطور معدل كافة الخدمات التعليمية والصحية وغيرها. فقد ارتفع متوسط العمر للفرد العربي الواحد في الدول النفطية من نحو ٤٩ سنة عام١٩٦٠ الى زهاء ٦٠سنة عام١٩٨١.وارتفع متوسط العمر للفرد في كافة ارجاء الوطن العربي من ٤٤سنة عام ١٩٦٠ الى قرابة ٥٨ سنة عام ١٩٨١ (١٤) لكنه ظل دون نظرائه في الدول المتقدمة الذي بلغ متوسط العمر فيها نحو ٧٠ سنة وهذا يعني ان ماخلفه النفط في بيئات توطنه رغم عمره الذي قارب على النصف قرن مازال محدوداً.

ويشابه الوطن العربي في درجة التحضر (١٥) نظرائه من الدول النامية : نفطية وغيرها ايران وتركيا (تبلغ درجة التحضر في كل منهما نحو ٥٠ ٪ و٤٧ ٪ لكنه يختلف تماماً عن الدول المتقدمة التي تصل درجة تحضر بعضها الى ٩١ ٪ كما في المملكة المتحدة ـ واذا كانت درجة التحضر تعد احد مقاييس التقدم وبالتالي احد مظاهر القوة الاقتصادية والسياسية للدولة فان الواقع الحالي للخريطة العربية قد لايظهر ذلك على الاقل حالياً . على انه ينبغي التذكير بان ارتفاع درجة التحضر يعني التركز السكاني في مساحات صغيرة من الحيز المكاني (المجال الحيوي) للاقليم السياسي مما يعرضه لاخطار جسيمة في حالات الازمات والحروب خاصة في عصر يمكن تسميته ((عصر الطيران والصواريخ)) فاذا كانت المراكز الحضرية تهيء فرص التنظيم والسيطرة الاقتصادية والسياسية والايديولوجية الا انها ستعرض تلك الكتل البشرية الى مغبة تدمير الاسلحة المتطورة كما كشف عن بعض من ذلك في الحرب العالمية الثانية .

ولعل من المبادىء المعروفة في اقتصاديات الحرب هو اعلى تدمير بأقل استثمار ممكن وهذا يعني ان الصواريخ الباهظة التكاليف ذات الرؤوس النووية لاتوجه الا لمراكز حضرية

لاتقل عن ربع مليون نسمة في الحجم للمركز الواحد . اللهم الا اذا كانت تحتضن منشآت عسكرية ضخمة وذات صناعات استراتيجية (كصناعات الدفاع) تبرر استخدام القنابل النووية (١٦) .

وقد يكون من المفيد ان نتنبه الى ان النمو الحضري السريع الذي يشهده الوطن العربي ليس ناجماً عن ارتفاع معدلات الزيادة الطبيعية فحسب بل نتيجة للطفح القروي ، كما اشرنا اليه سابقاً ، من هنا ينبغي ان يتجه اهتمام رجال التخطيط والسياسة نحو هذا الموضوع لما قد يترتب عليه من مشكلات حضرية معقدة . وحسبنا القول ان ضبط النمو الحضري غير المنضبط امر غاية في الاهمية جيوبولتيكياً استراتيجياً وجيواستراتيجياً .

حاصل ماتقدم كشف عدة حقائق لعل اهمها :

١ — يتمتع الوطن العربي بأهمية جيوبولتيكية متميزة في مجال النفط الخام احتياطياً وانتاجاً وعائدات ، الا ان اغتنام هذا الوزن في تطوير الوزن الجيوبولتيكي الكلي للوطن العربي اقتصادياً واجتماعياً لازال محدوداً .

٢ — كشفت عناصر التقويم المعتمدة الاقتصادية والمجتمعية عن مظاهر سلبية نجمت عن الثروة النفطية بشكل مباشر او غير مباشر .

٣ — ان مستقبل الوزن الجيوبولتيكي الدولي للنفط العربي رهين بالخيارات التالية التي ينبغي مراعاتها عند رسم استراتيجية نفطية عربية موحدة . وهذه الخيارات هي :

آ — ان النفط المخزون في مكامنه افضل من ذلك المصدر خاماً . وعليه فان تناقص حجم الطلب الفعلي حالياً على النفط العربي حالياً لايشكل عائقاً كبيراً مستقبلاً طالما ان امد النضوب هو لصالح هذا الاقليم بشكل بارز .

ب — عدم الخلط بين مفهومي الدخل المتولد والمبادلة بين الاصول ان الفهم الحقيقي لهذا الخيار يحول دون الرغبة في المزيد من الانتاج النفطي الخام سعياً وراء تزايد العائدات المالية .

جـ — ان الدول العربية غير النفطية بخاصة تشكل العمق الجغرافي الاكيد للتثميرات المالية العربية النفطية . ذلك ان استمرار الاستثمارات العربية في الدول الاجنبية يعني استمراراً في تبديد الموارد وبالتالي اختلال تام في توازن التنمية .

د - ضرورة الالتزام بالمبدأ القائم : الثروة ذات اعتماد متبادل - فالنفط الخام هـو الروح في جسد الحضارة الاوربية والامريكية المعاصرة . او ليس من الانصاف ان تجني دول الانتاج بعضاً من هذه الثمار بشكل اكثر عدالة ويقرب من هدف النضال العالمي من اجل نظام اقتصادي دولي جديد قائم على نظرية جديدة لتقسيم العمل الدولي . ؟

هـ - ان النفط الخام يمثل اول عنصر من عناصر التقويم الجيوبولتيكي للخريطـة العربية فاغتنام هذه الحقيقة ضرورة قومية . تأخذ بالاعتبار تعزيز الاستقلال الاقتصادي والسياسي لهذا الاقليم التالي ذلك عن طريق المشاركة الجادة في توفير التكنولوجيا المطلوبة.

و - ان النظرة للتنمية ينبغي ان تكون اكثر دقة وتحديداً وضمن سلم من الاولويات يكون تدريب الانسان وتأهيله في المقام الاول . بعيداً عن المظاهر الترفيهية والاستهلاكية التي لاتحقق ابعد مما نطلق عليه ((تنمية التخلف)) .

ز - ان سوء توزيع الدخل بشكل خاص بين سكان الدولة العربية الواحدة بشكـل انحداراً جيوبولتيكياً حاداً قد يخلق احباطاً اجتماعياً . يؤول في النهاية الى التفتت الاجتماعي والعنف السياسي ، وعليه لابد من مواجهة هذه المسألة باجراء اصلاحات مالية هادفـة كاعتماد ضريبي لا من اجل زيادة الايرادات بل نحد من الفوارق ويخلق علاقـات جديدة بين الجماهير والمؤسسات والحكومات .

وتشكل المرونة في تدفقات العمل ورأس المال بين الدول العربية النفطية وغير النفطية مجالاً آخر للتخفيف من الانحدار الجيوبولتيكي بين ارجاء الوطن العربي بأسره .

ختاماً ان ماتقدم لايمكن ان يؤتي ثماره طيبة الا من خلال ارادة سياسية مؤمنة بوحدة المصير قادرة بحق على صنع القرار المستقل .

«ومن الله سواء السبيل»

ثبت الهوامش والمصادر

(١) استمدت معظم البيانات في هذا البحث عن :

United Nations: Energy Statistics Yearbook 1982, New York 1984, Varrious Pages.

United Nations: Demographic Yearbook 1981, New York 1982.

United Nations: International Bank For Reconstruction and Development Report, 1981, New York, June 1981, pp. 134-176.

United. Nations: Handbook of International Trade and Development Statistics 1984, Supplement, New York 1985

منظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول : النشرة الشهرية حتى عهد تموز ١٩٨٥ .

ومنظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول : التقرير السنوي للامين العام (الحادي عشر) / الكويت ١٩٨٤ .

(٢) منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول : مجلة التعاون العربي/ المجلد السادس/ العدد ٢/ الكويت ١٩٨٠ ص ١٧٥ .

(٣) للتفاصيل انظر :

(أ) د. محمد ازهر السماك : الوزن الجيوبوليتكي ومستقبله / مجلة الامن القومي / العدد ٣/ ١٩٨٥ .

(٤) د. يوسف صايغ : الكلفة الاجتماعية للعائدات النفطية / من ابحاث الطاقة في الوطن العربي/ الجزء الاول/ الكويت ١٩٨٠ / ص ٤٠٣ .

(٥) نفس المصدر : ص ٣٤٧

(٦) للتفاصيل انظر :

Jacques. Soppelsa: Geographie des Armenetts, Paris, Masson 1980

ولمعرفة البيانات وحجم الصفقات للاسلحة للاقطار العربية خلال السنوات ١٩٨٠/٧٣ تفصيلا انظر :

معهد الانماء العربي / مجلة الفكر الاستراتيجي / العددان ١ و ٢ / بيروت ١٩٨٠ (احصاءات استراتيجية) .

(٧) منظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول : تقرير الامين العام السنوي الحادي عشر ١٩٨٤/ الكويت ١٩٨٤/ ص ١١ .

(٨) نفس المكان

(٩) نفس المصدر : ص ١٣

(١٠) نفس المصدر : ص ٨٩=٩٣

(١١) نفس المصدر ص ٩٨

(١٢) Petroleum· Intelligence Weekly 23 Ap.. 1984

(١٣) للتفاصيل انظر /

د. يوسف صايغ : المصدر السابق / ص‌ص ٢٩٦ - ٢٩٩ .

(١٤) United Nations: Demographic Yearbook 1982, New York 1983

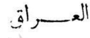
(١٥) للتفاصيل انظر :

(أ) د. محمد ازهر سعيد السماك : الانماط الرئيسة للتركيب السكاني في الوطن العربي دراسة في منهج تحليل القوة / سلسلة دراسات/ العدد ٣/ تنمية الرافدين / ١٩٨٤ .

(١٦) أ.د. محمد محمود الديب : الجغرافيا السياسية (اسس وتطبيقات) مكتبة الانجلو المصرية/ القاهرة ١٩٧٦/ ص‌ص ١٢٤/١٢٥ .



التبـايـن المكـانـي
لقدرة الريح التبريدية ودرجة التحسس بها في
العـــراق





عدنان هزاع البياتي
كلية التربية

اولاً : هدف البحث ومشكلته :.ــ

تقوم الرياح بنقل الحرارة والرطوبة ، وتعد منظماً أساسياً مهماً للغلاف الجوي، وتؤثر في تحديد الكثير من الخصائص المناخية ، لذا ينبغي على الباحث عدم دراستها عنصراً مستقلاً ، وانما يتعين ربطها بعنصري المناخ (درجة حرارة الهواء ورطوبته) لايجاد حدود الراحة للانسان ولاحساسه بقسوة الشتاء ووطأة الصيف .

يهدف هذا البحث إلى قياس قدرة الرياح التبريدية عندما تكون معدلات حرارة الهواء اقل من معدلات حرارة سطح جلد الانسان ، ثم قياس درجة احساس الانسان بها في العراق من خلال ثلاثة محاور هي : ــ

١ — ايجاد قدرة الريح التبريدية ودرجة احساس الانسان بها على اساس معدلات سرعة الريح ودرجات الحرارة .

٢ — ايجاد قدرة الريح التبريدية ودرجة احساس الانسان بها على اساس معدلات سرعة الريح ودرجات حرارة الليل .

٣ — ايجاد قدرة الريح التبريدية ودرجة احساس الانسان بها على اساس معدلات سرعة الريح ودرجات حرارة النهار .

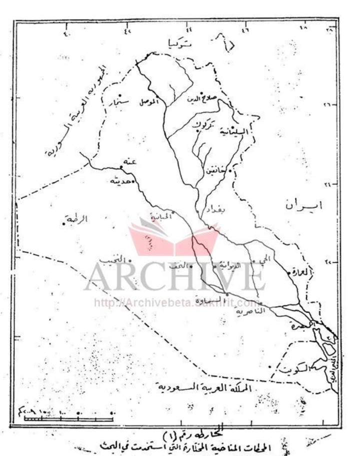
ثانياً : المعطيات المناخية التي استخدمت في البحث : —

لقد استخدمت في هذا البحث المعطيات المناخية لتسع عشرة محطة مناخية موزعة على كل مساحة القطر ، كما توضحه الخارطة رقم (١) . ولقد اختيرت هذه المحطات لتوفر المعلومات المطلوبة عن معدلات الحرارة والرياح بالاضافة إلى معدلات الحرارة والرياح لليل والنهار . وتشكل هذه المحطات الشبكة الاساسية للمحطات المناخية الرئيسية فيه . ويتباين عدد سنوات الرصد بين محطة واخرى . اذ بلغت ٤٠ سنة (١٩٤١ — ١٩٨٠) في محطات الموصل وكركوك وبغداد والرطبة وخانقين والحي والديوانية والناصرية والبصرة. وثلاثين سنة (١٩٤١ — ١٩٧٠) في محطة الحبانية . وعشرين سنة (١٩٦١ — ١٩٨٠) محطتي سنجار وعنه ، وثماني عشرة سنة (١٩٦٣ — ١٩٨٠) في محطتي النجف والنخيب . واربع عشرة سنة (١٩٦٧ — ١٩٨٠) في محطة صلاح الدين ، وعشر سنوات (١٩٧١— ١٩٨٠) في محطات السليمانية وحديثة والعمارة ، وثماني سنوات في محطة السماوة (١٩٧٣ — ١٩٨٠) .

وسنحاول اعطاء صورة تفصيلية عن معدلات الحرارة وسرعة الرياح ، من حيث توزيعها المكاني والزماني في القطر العراقي .

معدلات الحرارة : —

تتباين معدلات الحرارة في العراق من شهر لاخر ، ومن محطة مناخية إلى اخرى. وعموماً يعد شهر تموز احر اشهر السنة ، لصفاء الجو ولطول فترة النهار فيه ، ولقرب زاوية سقوط اشعة الشمس من العمودية ، وتتراوح معدلات حرارة شهر تموز كما يوضحه الملحق رقم (١) بين ٣٠ درجة مئوية (٨٦ درجة فهرنهايتية) في محطة صلاح الدين ، ترتفع تدريجياً بالتقدم نحو الجنوب ، وتبلغ اقصى معدل لها في محطة النجف اذ تصل إلى ٣٦٫٣



الخارطة رقم (١)

المحطات المناخية المختارة التي استخدمت في البحث

درجة مئوية (٩٧ درجة فهرنهايتية) ؛ اي ان معدلات حرارة الهواء في فصل الصيف تتميز بأن تغييراتها المكانية ليست كبيرة ؛ ويرجع ذلك إلى ان فترة النهار في شمال القطر تكون اطول مما هي عليه في جنوبه ، وهذا الفرق الزمني مهم في تساوي حرارة فصل الصيف .

اما ابرد اشهر السنة فهو كانون الثاني ، وذلك بسبب صغر زاوية سقوط اشعة الشمس، وقصر طول فترة النهار ، اذ يبلغ معدل حرارة الهواء (٣,١) درجة مئوية (٣٨ درجة فهرنهايتية) في صلاح‌الدين ، ترتفع تدريجياً بالتقدم نحو الجنوب حتى تبلغ إلى اقصى معدل لها (١٢,٤) درجة مئوية (٥٤ درجة فهرنهايتية) في محطة البصرة.

ويرجع هذا التدرج المنتظم في تناقص درجات الحرارة بالتقدم نحو الشمال في فصل الشتاء إلى تأثير عاملي الارتفاع عن مستوى سطح البحر والموقع بالنسبة لدوائر العرض .

وتتعرض معدلات الحرارة إلى تغيير منتظم عبر ساعات اليوم ، فتصل إلى معدلاتها العظمى في ساعات الظهيرة ، بينما تبلغ نهايتها الصغرى قبيل الفجر . ويوضح الملحق رقم (٢) معدلات حرارة الليل للمحطات المختارة في هذا البحث ، فنجد انها تتباين مكاناً وزماناً ، اذ تصل إلى ادنى معدلاتها في شهر كانون الثاني في جميع المحطات المختارة ؛ وتزداد تدريجياً بالتقدم نحو الجنوب ، فتبلغ ١,٧ درجة مئوية (٣٥ درجة فهرنهايتية) في محطة صلاح‌الدين ، تزداد تدريجياً حتى تصل إلى اقصى معدلاتها لنفس الشهر في محطة البصرة حيث تبلغ (١٠) درجات مئوية ؛ ويرجع ذلك إلى موقع المحطة بالنسبة لدوائر العرض والارتفاع الواطىء لها .

أما في فصل الصيف فأن الحرارة تصل الى اقصى معدلاتها في شهر تموز ،كما يلاحظ ايضاً تقارب معدلات حرارة الليل في جميع المحطات.

ويوضح الملحق رقم(٣) معدلات حرارة النهار حيث تتباين مكاناً وزماناً، فتصل الى ادنى معدلاتها في شهر كانون الثاني في جميع المحطات المختارة، اذ تتدرج في الزيادة من الشمال الى الجنوب ،من (٤,٦) درجة مئوية (٤٠درجة فهرنهايتية) في صلاح الدين الى

١٤,٩ درجة مئوية (٥٩درجة فهرنهايتية) في محطة البصرة، كما انها تصل الى اقصى معدلاتها في شهر تموز وفي جميع المحطات.

معدلات سرعة الرياح :

تتميز معدلات سرعة الرياح كما يوضحه الملحق رقم (٤)، بأن تغييراتها المكانية والزمنية ليست كبيرة ،حيث ترصد أوطأ سرعة شهرية في شهري تشرين الثاني وكانون الاول في أغلب مناطق القطر، في حين ترصد القيم العليا لسرعة الرياح، اما في شهر آذار (محطات صلاح الدين والرطبة وخانقين)، أوفي شهر مايس (محطة كركوك)، أوفي شهر حزيران (محطات الموصل وعنه والحي والبصرة)، أوفي شهر تموز (محطات سنجار والسليمانية وحديثة وبغداد والنخيب والنجف والديوانية والعمارة والسماوة والناصرية).

وتتعرض سرعة الريح الى تغييرات منتظمة خلال ساعات اليوم، وفي الحالات الجوية الهادئة تبلغ سرعة الرياح اقصاها في ساعات الظهيرة بسبب تزايد نشاط تيارات الحمل. بينما تبلغ نهايتها الصغرى في ساعات الليل حيث يكون الهواء السطحي مستقراً ويوضح الملحق رقم(٥) متوسط سرعة الرياح خلال ساعات الليل حيث يظهر قلة التغيير المكاني والزماني .وعموماً يحتل شهر كانون الاول الحد الادنى لسرعة الرياح ليلاً كما هو الحال في محطات الموصل والحي والنخيب والنجف والديوانية والسماوة والناصرية والبصرة بينما يسيطر شهر تموز على الحد الاقصى لسرعة الرياح كما هو الحال في محطات سنجار والموصل والسليمانية وعنه وحديثة والحبانية وبغداد والرطبة والحي والعمارة والناصرية.

اما متوسطات سرعة الرياح في النهار، فكما مبين من الملحق رقم (٦) بأنها اعلى من متوسطات سرعة الرياح ليلاً ،كما انها تتغير مكاناً وزماناً. وعموماً تصل الى اقصى معدل لها في اشهر الصيف، بينما تصل الى معدلاتها الدنيا في اشهر الشتـــاء .

ثالثاً: وسيلة أو اداة البحث : —

١ — ايجاد قدرة سرعة الريح التبريدية ، او مايسمى بعامل برد الريح (Wind chill factor) باستخدام المعادلة الآتية (١) : —

$$K=(91.4-T)\left(4\sqrt{u}+5-\frac{u}{4}\right)$$

حيث ان

K— عامل برد الرياح

T— معدل حرارة الهواء بالفهرنهايتية

U— معدل سرعة الريح ميل / ساعة

ولاجل تطبيق المعادلة تم تحويل معدلات الحرارة من مئوية الى فهرنهايتية ، وسرعة الريح من م/ ثا الى ميل/ ساعة.

ولقد استخدمت درجة الحرارة ٩١,٤ درجة فهرنهايتية في المعادلة لانها تمثل معدل درجة حرارة جلد الانسان ، وذلك لان جلد الانسان يحافظ على درجة حرارة ثابتة تقريباً تقدر بنحو ٩١,٤ درجة فهرنهايتية (٣٣,٣ درجة مئوية) (١) . فاذا زادت درجة الحرارة على ٩١,٤ درجة فهرنهايتية فأن الريح تفقد قدرتها على التبريد ذلك لان سطح جلد الانسان يكتسب حرارة اكثر ، اما اذا قلت عن ذلك فتكون لسرعة الرياح قدرة تبريدية تزداد هذه القدرة بدرجة كبيرة عندما تكون درجة الحرارة قليلة وسرعة الرياح عالية .

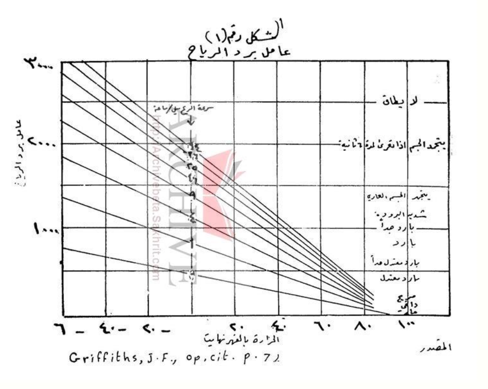
والمعادلة مبينة على المعدل الذي يبرد فيه الجسم العاري ، ويتغير هذا العامل بوجود الملابس ، ويمكن الاستدلال على هذا العامل عن طريق اليدين والوجه . كما يمكن ايجاد عامل برد الرياح عن طريق استخدام الشكل البياني رقم (١) .

٢ — ايجاد مقياس الاحساس بعامل برد الريح وذلك بمقارنة النتائج التي توصلنا اليها من تطبيق المعادلة الآنفة الذكر بالجدول الآتي : —

---

(1) J.F.Griffiths, Applied climatology An Introdution, London, Oxford university press, 1966, p. 72.

(2) Joseph, E.Van Riper, Man's physical world, 2nd edition, McGraw Hill Book I Company, New york, 1971, p. 135.



الشكل رقم (١)
عامل برد الرياح

المصدر
Griffiths, J.F., op. cit. p. 72

الجدول (١)

عامل برد الرياح ودرجة احساس الانسان به (١)

عامل برد الرياح (كيلو كالوري/م٢/ساعة)	درجة الاحساس به	عامل برد الرياح (كيلو كالوري/م٢/ساعة)	درجة الاحساس به
٥٠ —	حار	١٠٠٠ —	بارد جداً
١٠٠ —	دافىء	١٢٠٠ —	شديد البرودة
٢٠٠ —	مريح	١٤٠٠ —	يتجمد الجسم العاري
٤٠٠ —	بارد معتدل		
٦٠٠ —	بارد معتدل جداً	٢٠٠٠ —	يتجمد الجسم اذا تعرى لمدة ٦٠ ثانية
٨٠٠ —	بارد		
		٢٥٠٠ —	لا يطاق (غير قابل للتحمل)



ويجب ان يلاحظ ان عامل برد الرياح يصل الى ١٤٠٠ تحت اى من الظروف الآتية:
٢٠درجة فهرنهايت ٤٥ ميل/ ساعة (٦,٧٠٠ درجة مئوية و ٢٠,١م/ثا)
١٠ درجة فهرنهايت و ١٨/ ميل/ساعة (١٢,٢٠٠ درجة مئوية و ٨,١م/ثا)
— ١٠ درجة فهرنهايت و ٧/ميل/ ساعة (٢٣,٣٠٠ درجة مئوية و ٣,١م/ثا)
— ٤٠ درجة فهرنهايت و ٢ ميل/ ساعة (— ٤٠ درجة مئوية و ٩,٠م/ثا)
ويوضح هذا مدى الأهمية التي تنطوي عليه سرعة الرياح في درجات الحرارة المنخفضة

(1) J.F.Griffiths, Op. Cit. p. 72.

رابعاً : نتائج البحث :ـ

١ ـ قدرة الريح التبريدية على اساس معدلات سرعة الريح ومعدلات حرارة الهواء ودرجة احساس الانسان بها في العراق : ـ

(أ) تتباين قدرة الريح التبريدية من شهر الى آخر كما يوضحه الجدول رقم (٢) حيث تصل قيمة عامل برد الريح الى اقصى معدلاتها في شهر كانون الثاني وتنخفض تدريجياً بالاقتراب من فصل الصيف، ويلاحظ انعدام قدرة الريح التبريدية في شهري تموز وآب لاغلب المحطات المناخية المختارة عدا محطات صلاح الدين والسليمانية وعنه والرطبة ، وانعدامها في شهر حزيران في محطات البصرة والسماوة والعمارة والنجف والحي. ويرجع ذلك الى ارتفاع معدلات الحرارة فيها عن ٩١,٤ درجة فهرنهايتية .

وبمقارنة الجدول رقم(٢) بالجدول رقم(١) توصلنا الى الجدول رقم (٣) والذي يمثل درجة الاحساس بعامل برد الرياح في ضوء العلاقة بين معدلات الحرارة وسرعة الرياح . ويلاحظ ان درجة الاحساس بعامل برد الرياح تتباين من شهر لاخر ومن محطة لاخرى،اذ تجد ان درجة الاحساس بعامل برد الرياح في شهر كانون الثاني بارد معتدل جداً في محطات صلاح الدين وسنجار والسليمانية وعنه وحديثة والرطبة وبارد معتدل في المحطات الاخرى .

اما في شهر شباط فأن درجة الاحساس بعامل برد الرياح تبقى كماهي عليه في شهر كانون الثاني عدا محطة سنجار فيتغير فيها درجة الاحساس من بارد معتدل جداً الى بارد معتدل.

وفي شهر آذار فان درجة الاحساس بعامل برد الرياح يكون بارداً معتدلاً في اغلب المحطات المناخية، عدا محطات النجف والعمارة والسماوة والناصرية والبصرة ،حيث يكون الاحساس مريحاً .

الجدول (٢)

[illegible]: الرياح (كيلوكالوري/م٢ /ساعة) على اساس معدلات الحرارة والرياح في المحطات المختارة

المحطة	كانون الثاني	شباط	اذار	نيسان	مايس	حزيران	تموز	إب	ايلول	تشرين الأول	تشرين الثاني	كانون الأول
صلاح الدين	٦٩٦	٦٩٣	٥٩٩	٤٦٥	٢٩٣	١٥٣	٦٨	٦١	١٤٧	٣٠٣	٤٧٨	٦٤٦
سنجار	٦٣٠	٥٩٦	٥٠٨	٣٩٤	٢٢٤	٦٩			٩٥	٢٦٤	٤١٢	٥٧٧
الموصل	٥٧٩	٥٥٦	٤٧٨	٣٦٤	٢٢٥	٦١			١١٦	٢٦٥	٤٠٢	٥١٨
السليمانية	٧٥٢	٦٧٢	٥٤٥	٣٩٤	٢٦٧	١٠٢	٢٥	٢٦	١٢٤	٢٧٧	٤٦٤	٦٣٨
كركوك	٥٨٤	٥٦٥	٤٧٥	٣٤٢	١٧٠	١٩			٦٣	٢١٢	٣٨٢	٥١٤
عنه	٦٣٤	٦٧٢	٤٧٣	٣٥٦	١٧٠	٧٠	٦	٢٧	١٠٣	٢٥٩	٣٩١	٥٧٧
خانقين	٥٣١	٥٠١	٤٢٨	٢٩٩	١٣٢	١٥			٥٨	١٩٥	٣٦٨	٥٠٠
حديثة	٦٣٥	٦٣٤	٤٥٩	٣١٧	١٤٤	٤٥			٩٠	٣٢٠	٤٢٣	٥٧٢
الحبانية	٥٦٠	٥٣٠	٤٣٧	٢٨٧	١٢٢	١٠			٧٤	٢٠٢	٣٦٥	٥٠٨
بغداد	٥٦٢	٥٢٤	٤٣٢	٢٨٤	١٢٢	٣			٦١	٢٠٨	٣٧٤	٥١٩
الرطبة	٦٥٠	٦٦٤	٥٤٣	٣٩٠	٢٤٠	١٣٣	٦٧	٩٧	١٨٩	٢٨٧	٤٤٠	٥٨٢
الحي	٥٣٩	٥٠٠	٤٠٤	٢٥٨	٩١				٣٢	١٧٢	٣٤٧	٤٩١
النخيب	٥٩٣	٥٤٦	٤٥٦	٣٠٦	١٥٦	٣٦			٦٢	٢٣٨	٤٢٩	٥٢٩
النجف	٥٦٩	٤٩٩	٣٩١	٢٥١	٩١				١٢	١٧٧	٣٦٦	٥١٧
الديوانية	٥٥٨	٥١٧	٤١٠	٢٦٦	١٠١	٧			٦٦	١٩٣	٣٦٦	٥١٦
العمارة	٥٥٥	٤٧٣	٣٨٢	٢٢٣	٨٤				٢٠	١٩٨	٣٦٥	٥٠٣
السماوة	٥٤٥	٥٠٧	٣٨٨	٢٤٦	٦٧				٥	١٧٤	٣٥٨	٥٠٥
الناصرية	٥٥٦	٤٩٦	٣٨٩	٢٤٩	٨٨	٦			٣٧	١٧٤	٣٥٤	٥٠٢
البصرة	٤٩٨	٤٥٦	٣٥٩	٢٢٥	٨٣				٥٨	١٦٥	٣٢٠	٤٥٦

الجدول (٣)

درجة الاحساس بعامل برد الرياح في ضوء العلاقة بين معدلات الحرارة وسرعة الرياح

المحطة	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان	مايس	حزيران
صلاح الدين	بارد معتدل جداً	بارد معتدل جداً	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء
سنجار	بارد معتدل جداً	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	مريح	حار
الموصل	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	مريح	حار
السليمانية	بارد معتدل جداً	بارد معتدل جداً	بارد معتدل	مريح	مريح	دافيء
كركوك	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء	حار ـ أ
عنه	بارد معتدل جداً	بارد معتدل جداً	بارد معتدل	مريح	دافيء	حار
خانقين	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء	حار جداً
حديثة	بارد معتدل جداً	بارد معتدل جداً	بارد معتدل	مريح	دافيء	حار جداً
الحبانية	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء	حار جداً
بغداد	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء	حار جداً
الرطبة	بارد معتدل جداً	بارد معتدل جداً	بارد معتدل	مريح	مريح	دافيء
الحي	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	حار	
النخيب	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء	حار جداً
النجف	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	مريح	حار	حار جداً
الديوانية	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء	حار جداً
العمارة	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	مريح	حار	
السماوة	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	مريح	حار	
الناصرية	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	مريح	حار	حار جداً
البصرة	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	مريح	حار	

الجدول تتمة (٣)

تموز	آب	أيلول	تشرين الأول	تشرين الثاني	كانون الاول
حار	حار	دافىء	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل جداً
		حار	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل
		دافىء	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل
حار جداً	حار جداً	دافىء	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل جداً
		حار	مريح	مريح	بارد معتدل
حار جداً	حار جداً	دافىء	مريح	مريح	بارد معتدل
		حار	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل
		حار	مريح	مريح	بارد معتدل
		حار	مريح	مريح	بارد معتدل
حار	حار	دافىء	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل
		حار جداً	دافىء	مريح	بارد معتدل
		دافىء	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل
		حار جداً	دافىء	مريح	بارد معتدل
		حار	دافىء	مريح	بارد معتدل
		حار جداً	دافىء	مريح	بارد معتدل
		حار جداً	دافىء	مريح	بارد معتدل
		حار جداً	دافىء	مريح	بارد معتدل
		حار	دافىء	مريح	بارد معتدل

ويكون الاحساس بعامل برد الرياح مريحاً في شهر نيسان وفي جميع المحطات المناخية عدا صلاح‌الدين اذ يكون بارداً معتدلاً .

اما في شهر مايس فيكون الاحساس مريحاً في المحطات الشمالية والغربية ودافئاً في المحطات الوسطى وحاراً في المحطات الجنوبية .

وفي شهر حزيران يكون الاحساس حاراً في محطتي صلاح‌الدين والرطبة وحاراً جداً في محطتي السليمانية وعنه ، بينما لا تكون لسرعة الريح قدرة تبريدية في المحطات الاخرى لارتفاع معدلات الحرارة فيها عن ٩١,٤ درجة فهرنهايتية .

ويكون الاحساس بعامل برد الرياح حاراً في محطتي صلاح‌الدين والسليمانية ولشهري تموز وآب . بينما لا تكون لسرعة الريح اية قدرة تبريدية في بقية المحطات .

اما في شهر ايلول فيكون الاحساس حاراً جداً في محطات الناصرية والسماوة والعمارة والنجف والحي ، وحاراً في محطات البصرة والديوانية وبغداد والحبانية وحديثة وخانقين وكركوك وسنجار ، ودافئاً في المحطات الاخرى .

وفي شهر تشرين الاول يكون الاحساس دافئاً في المحطات الجنوبية البصرة والناصرية والسماوة والعمارة والديوانية والنجف والحي وخانقين ومريحاً في المحطات الاخرى اي ان فصل الخريف يتقدم بشهر في المحطات الشمالية عنه في المحطات الجنوبية . ويكـون الاحساس في شهر تشرين الثاني بارداً معتدلاً في المحطات الشمالية والغربية (صلاح‌الدين وسنجار والموصل والسليمانية وحديثة والرطبة والنخيب) ومريحاً في المحطات الاخرى .

اما في شهر كانون الاول فيكون بارداً معتدلاجداً في محطتي صلاح‌الدين والسليمانية . وبارداً معتدلاً في المحطات الاخرى .

(ب) امكانية تحديد فصول السنة لاعلى اساس فلكي . وانما في ضوء معيار كمي محدد، ونقترح ان يكون عامل برد الرياح اساساً لذلك وحسب الجدول الآتي : —

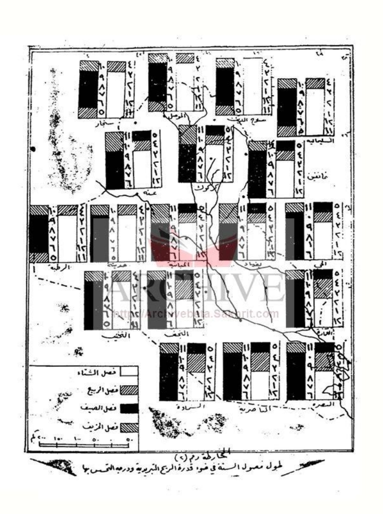
الجدول (٤)
المعيار المقترح لتحديد فصول السنة

عامل برد الرياح (كيلو كالوري/م٢/ساعة)	درجة الاحساس	الفصل
اقل من ٢٠٠	حار جداً ، حار ، دافيء	صيف
٢٠٠ـ	مريح	ربيع او خريف
٤٠٠ فأكثر	بارد معتدل جداً ، بارد	شتاء
	معتدل ، بارد	

وعند اعادة ملاحظتنا للجدول رقم(٢) والجدول رقم(٣) وفي ضوء المعيار اعلاه تم رسم الخارطة رقم(٢) والتي توضح فصول السنة في ضوء عامل برد الرياح، اذ نجد ان فصل الشتاء يمتد من شهر تشرين الثاني في محطات صلاح الدين وسنجار والسليمانية والموصل وحديثة والرطبة والنخيب، وينتهي بنهاية نيسان في محطة صلاح الدين ،وبنهاية شهر آذار في المحطات الاخرى ،بينما يمتد من كانون الاول في محطات كركوك وعنه وخانقين والحبانية وبغداد والحي والديوانية والعمارة والسماوة والناصرية والبصرة، وينتهي بنهاية شهر آذار في محطات كركوك ،وعنه وخانقين والحبانية وبغداد والحي والديوانية وبنهاية شهر شباط في محطات النجف والعمارة والسماوة والناصرية والبصرة.

اما فصل الربيع ، فانه يقتصر على شهر مايس في محطة صلاح الدين ،وشهر نيسان في محطات كركوك وعنه وخانقين وحديثة والحبانية وبغداد والحي والنخيب والديوانية. اما في المحطات الجنوبية (النجف والعمارة والسماوة والناصرية والبصرة) فانه يبدأ بشهر آذار وينتهي بنهاية شهر نيسان وهذا يؤكد ماجاء به الدكتور الشلش بان فصل الربيع يتقدم في الجنوب بشهر عنه في الشمال (١) .بينما يمتد من شهر نيسان الى مايس في محطات سنجار والموصل والسليمانية والرطبة.

(١) علي حسين الشلش ،القيمة الفعلية للامطار واثرها في تحديد الاقاليم النباتية في العراق مجلة كلية الآداب ، جامعة البصرة، العدد العاشر، السنة التاسعة، ١٩٧٦ ،ص ٥٣ .



الخارطة رقم (٢)

طول فصول السنة في ضوء قدرة الريح التبريدية ودرجة التحسس بها

ويبدأ فصل الصيف في محطات البصرة والناصرية والسماوة والعمارة والديوانية والنجف والحي وخانقين في شهر مايس، وينتهي بنهاية شهر تشرين الاول، بينما يستمر خمسة اشهر (مايس – ايلول) في محطات النخيب وبغداد والحبانية وحديثة وعنه وكركوك ويمتد اربعة اشهر (حزيران – ايلول) في المحطات الشمالية صلاح الدين وسنجار والموصل والسليمانية بالاضافة الى محطة الرطبـــة.

ويقتصر فصل الخريف على شهر تشرين الاول في المحطات الشمالية والغربية (صلاح الدين وسنجار والموصل والسليمانية وحديثة والرطبة والنخيب) ، بينما يقتصر على شهر تشرين الثاني في المحطات الجنوبية (البصرة والناصرية والسماوة والعمارة والديوانيـــة والنجف والحي) . ويمتد شهرين (تشرين الاول – تشرين الثاني) في المحطات الاخرى.

جـ – يلاحظ من الجدول رقم (٣) بأن افضل المحطات المناخية هي محطة الرطبـــة وبهذا نؤكد ماجاء به الدكتور الشلش (١) بالاهتمام بالتخطيط السياحي لهذه المدينة لتكون من المدن السياحية الرئيسة في القطر .

٢ – قدرة الريح التبريدية على اساس معدلات سرعة الرياح والحرارة ليلاً ودرجة احساس الانسان في العراق بها :–

يلاحظ من الجدول رقم (٥) ان قيم عامل برد الرياح ليلاً هي اعلى من قيم عامل برد الرياح المستخرجة على اساس معدلات حرارة الهواء وسرعة الرياح . وفي جميع المحطات المناخية لكل اشهر السنة ، وبطبيعة الحال ينعكس هذا على احساس الانسان بالقدرة التبريدية للريح : كما يوضحه الجدول رقم (٦) ؛ حيث تبدأ الاشهر الباردة المعتدلة ، والباردة المعتدلة جداً من شهر تشرين الثاني في جميع المحطات المناخية عدا محطة البصرة حيث تبدأ بشهر كانون الاول وتنتهي بنهاية شهر نيسان في محطات صلاح الدين وسنجار والموصل والسليمانية وكركوك وعنه والرطبة والنخيب ، وبنهاية شهر آذار في المحطات الاخرى .

اما الاشهر المريحة فأنها تقتصر على شهر مايس في محطات صلاح الدين وسنجار والموصل والسليمانية وكركوك وعنه والنخيب ، وعلى شهر نيسان في محطات البصرة والناصريـــة والسماوة والعمارة والنجف والحي ، وعلى شهري نيسان ومايس في محطات خانقيـــــن وحديثة والحبانية وبغداد والديوانية ، وعلى شهري مايس وحزيران في محطة الرطبة.

(١) علي حسين الشلش ،المناخ واشهر الحد الاقصى للراحة ولكفاءة العمل في العراق. مجلة كلية التربية بجامعة البصرة، العدد الثالث ١٩٨٠ ص ٢٤ .

الجدول (٥)

قيم عامل برد الرياح (كيلو كالوري / م٢/ ساعة) ليلا في المحطات المختارة

المحطة	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان	مايس	حزيران	تموز	آب	ايلول	تشرين الاول	تشرين الثاني	كانون الاول
صلاح الدين	٧٠٤	٧١٨	٦٢٣	٥٤٦	٣٢٤	١٩٤	١٢٣	١١٢	١٩١	٣٤٠	٥٠٣	٦٧٦
سنجار	٦٦٩	٦٣٧	٥٥٠	٤٣٤	٢٧٩	١٣٠	٤١	٤٢	١٥٥	٣٠٧	٤٤٢	٦١٧
الموصل	٥٨٧	٥٧٨	٥٠٦	٤١٩	٣٠٢	١٧٨	١٠٤	١٢٦	٢٣٢	٣٥٠	٤٤٩	٥٣٠
السليمانية	٧٦٣	٧١١	٥٧٢	٤٢١	٣١٣	١٧٢	١١٨	١٠٣	١٩٢	٣٣٨	٥١٩	٦٦٤
كركوك	٦٢٠	٦٠٩	٥٢٨	٤٠٤	٢٥١	١١٩	٥١	٥٨	١٥٨	٢٩٤	٤٤٤	٥٦٥
عنه	٦٣٤	٦٣٦	٥٣١	٤١٤	٢٣٦	١٨٢	١٠٩	١٢٧	١٧٦	٣١٦	٤٠٤	٥٨٣
خانقين	٥٦٧	٥٣٩	٥٠٤	٣٦٠	٢٢٥	١١٢	٦٧	٦٨	١٦٤	٢٩٣	٤٣٨	٥٣٤
حديثة	٦٧٧	٦٠٦	٥٣٩	٣٨٦	٢١٨	١٥٢	١١٢	١٩٥	١٩٥	٣٢٥	٤٨٦	٦١١
الحبانية	٥٨٦	٥٦٩	٤٨٧	٣١٤	٢١٤	١٢٥	٧٦	٩٣	١٧٣	٢٧٤	٤٠٨	٥٣٤
بغداد	٥٨٨	٥٦٣	٤٨٦	٣٤٧	٢١٣	١١٧	٧٦	٨٩	١٧٩	٢٩٨	٤٣٢	٥٥٧
الرطبة	٦٨١	٦٥٠	٥٩٦	٤٦٤	٣٢٦	٢٢٩	١٧٢	١٧٤	٢٤٤	٣٥٠	٤٩٥	٦٠٥
الحي	٥٨٩	٥٥٥	٤٧٣	٣٤٠	١٩٧	١١٣	٦١	٧٤	١٥٤	٢٧٦	٤٣٠	٥٤٨
النخيب	٦٠٨	٥٨٤	٥٢١	٤١١	٢٦٠	١٥٥	٩٠	٨٢	١٥٨	٣٣٢	٤٥٩	٥٥٢
النجف	٦٠٥	٥٤١	٤٥٢	٣٢٦	١٨٣	٧٧	٢٠	٣٠	١١٥	٢٦٦	٤٢٩	٥٦٤
الديوانية	٦٠٨	٥٧٦	٥٣٣	٣٥٤	٢١٣	١٣٤	٩٩	١٠٦	١٩١	٣٠٣	٤٤٢	٥٦٤
العمارة	٥٦٣	٥٢٧	٤٢٥	٢٨٢	١٧٣	١٠٠	٦٥	٧٨	١٤٨	٢٨٩	٤٣٢	٥٤٢
السماوة	٥٩١	٥٥٧	٤٤٥	٣٢٦	١٦٦	٨٨	٣٧	٦٤	١١٩	١٣٣	٤٣٥	٥٣٢
الناصرية	٥٨٤	٥٤٣	٤٥٧	٣٢٥	١٧٨	١٠٣	٨٠	٩٢	١٦٨	٢٨٦	٤٣٠	٥٥٢
البصرة	٥٣١	٤٩٩	٤١٧	٢٨٧	١٥٨	٨٥	٥٦	٧٩	١٥٨	٢٥٩	٣٨٤	٤٩٢

الجدول (٦)

درجة احساس الانسان بالحرارة ليلا

المحطة	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان	مايس	حزيران
صلاح الدين	بارد معتدل جداً	بارد معتدل جداً	بارد معتدل جداً	بارد معتدل	مريح	دافيء
سنجار	بارد معتدل جداً	بارد معتدل جداً	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء
الموصل	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء
السليمانية	بارد معتدل جداً	بارد معتدل جداً	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء
كركوك	بارد معتدل جداً	بارد معتدل جداً	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء
عنه	بارد معتدل جداً	بارد معتدل جداً	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء
خانقين	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	مريح	دافيء
حديثة	بارد معتدل جداً	بارد معتدل جداً	بارد معتدل	مريح	مريح	دافيء
الحبانية	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	مريح	دافيء
بغداد	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	مريح	دافيء
الرطبة	بارد معتدل جداً	بارد معتدل جداً	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	مريح
الحي	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء	دافيء
النخيب	بارد معتدل جداً	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء
النجف	بارد معتدل جداً	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء	حار
الديوانية	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	مريح	دافيء
العمارة	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء	دافيء
السماوة	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء	حار
الناصرية	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء	دافيء
البصرة	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء	حار

تتمة الجدول (٦)

تموز	آب	أيلول	تشرين الاول	تشرين الثاني	كانون الاول
دافىء	دافىء	دافىء	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل جداً
حار جداً	حار جداً	دافىء	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل
دافىء	دافىء	مريح	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل
دافىء	دافىء	دافىء	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل جداً
حار	حار	دافىء	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل
دافىء	دافىء	دافىء	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل
حار	حار	حار	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل
دافىء	حار	دافىء	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل جداً
حار	حار	دافىء	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل
حار	حار	دافىء	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل جداً
دافىء	دافىء	مريح	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل جداً
حار	حار	دافىء	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل
حار	حار	دافىء	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل
حار جد	حار جداً	دافىء	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل
حار	دافىء	دافىء	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل
حار	حار	دافىء	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل
حار جداً	حار	دافىء	دافىء	بارد معتدل	بارد معتدل
حار	حار	دافىء	مريح	بارد معتدل	بارد معتدل
حار	حار	دافىء	مريح	مريح	بارد معتدل

ويلاحظ ان اشهر الصيف دافئة في بعض المحطات مثل صلاح الدين والموصل . والسليمانية وعنه ، وحارة في بعض أشهر الصيف في المحطات الاخرى ، وحارة جداً في شهري تموز وآب في سنجار والنجف وحارة جداً في شهر تموز في محطة السماوة .

ويلاحظ من الجدول نفسه ان افضل ليالي الصيف مناخياً محطة الرطبة حيث انها مريحة في شهر حزيران ،ودافئة في شهري تموز وآب .

وفي شهر ايلول تكون جميع المحطات دافئة عدا الموصل والرطبة حيث يكون الاحساس فيها مريحاً ومحطة خانقين اذ يكون فيها الاحساس حاراً .

اما في شهر تشرين الاول فان الاحساس بالحرارة يكون مريحاً في جميع المحطات عدا محطة السماوة حيث يكون الاحساس دافئاً .

بينما يكون الاحساس بالحرارة بارداً معتدلا في شهر تشرين الثاني في جميع المحطات المناخية عدا البصرة اذ يكون الاحساس فيها مريحاً .

وان الإحساس بالحرارة في شهر كانون الاول يكون بارداً معتدلاجداً في محطات صلاح الدين وسنجار والسليمانية وحديثة والرطبة ويكون الاحساس بها بارداً معتدلا في المحطات الاخرى .

٣ – قدرة الريح التبريدية على اساس معدلات سرعة الريح والحرارة نهاراً ودرجة احساس الانسان بها في العراق :

يلاحظ من الجدول رقم (٧) والجدول رقم (٨) ان قدرة الريح التبريدية تكون معدومة من شهر مايس حتى نهاية شهر ايلول في محطات الناصرية والسماوة والعمارة والديوانية والنجف والحي، ومن شهر تموز حتى نهاية شهر آب في محطات سنجار والسليمانية والرطبة ومن شهر حزيران حتى نهاية شهر ايلول في محطات الموصل وكركوك وعنه وخانقين وحديثة والحبانية وبغداد ، ، وشهر آب فقط في محطة صلاح الدين ويرجع ذلك الى ارتفاع معدلات حرارة الهواء نهاراً في هذه الاشهر عن ٩١،٤ درجة فهرنهايتية لذا تكون هذه الاشهر حارة جداً نهاراً . ويكون شهر ايلول حاراً جداً في جميع المحطات المناخية عدا محطتي صلاح الدين والرطبة حيث يكون الاحساس حاراً .

وفي شهر تشرين الاول يكون الاحساس بالحرارة مريحاً في محطتي صلاح الدين والسليمانية ودافئاً في محطات سنجار والموصل وكركوك وعنه وحديثة والحبانية والرطبة والنخيب وحاراً في المحطات الاخرى .

الجدول (٧)

قيم معامل برودة الرياح (كيلو كالوري/م٢/ساعة) نهاراً في المحطات المختارة

المحطة	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان	مايس	حزيران	تموز	آب	أيلول	تشرين الاول	تشرين الثاني	كانون الاول
صلاح الدين	٦٧٤	٧٠٢	٥٧٢	٤٦٠	٢٥٧	١٠٤	٦		٩٦	٢٨١	٤٤٨	٦١٧
سنجار	٦٠٥	٥٤٧	٤٧١	٣٩٢	١٧١	٦			٣٥	١٩٩	٣٧٠	٥٤٢
الموصل	٦٨٣	٥٢٨	٤٣٠	٢٧٧	١٠٣					١٦٨	٣٣٩	٤٩٢
السليمانية	٦٩٥	٦٣٥	٥١٥	٣٦٢	٢٠٨	٨٨			٤٩	٢١٢	٤١٣	٦٠٥
كركوك	٥٤٣	٥٢١	٤١٩	٢٧٥	٧٣					١٢٨	٣٢٣	٤٧١
عنه	٦٢٣	٥٤٧	٤١٠	٢٦٧	١٢٢					١٧٥	٣٤٢	٥٥٧
خانقين	٤٨٤	٤٥٩	٣٦١	٢٢٩	٢٨					٨٧	٢٩٦	٤٦١
حديثة	٥٩٢	٥١٦	٣٩٤	٢٤٣	٦٢					١٢٥	٣٥٠	٥٣٧
الحبانية	٥٣٠	٤٨٠	٣٦٩	٢٠٢	١٧					١١٣	٣١١	٤٧٥
بغداد	٥٣٢	٤٧٤	٣٧٠	٢٠٧	١٧					١٠٧	٣٠٨	٤٧٧
الرطبة	٦١١	٥٦٤	٤٨١	٣١٠	١٤٢	١١			٥٣	١٩٤	٣٧٣	٥٣٧
الحي	٤٨٤	٤٣٩	٣٢٩	١٧١						٦٩	٢٦٧	٤٣٣
النخيب	٥٦٣	٤٩٣	٣٨٢	١٨٥	٤٨					١٤٤	٣١٨	٤٩٣
النجف	٥٢١	٤٤٧	٣٢٢	١٦٩						٨١	٣٠٠	٤٧٠
الديوانية	٥٠٤	٤٤٧	٣٢٩	١٦٧						٧٣	٢٨٠	٤٥٧
العمارة	٥٣٣	٤٣٤	٣٢٧	١٦٠						٧١	٢٨٧	٤٥٤
السماوة	٥٠٦	٤٥٠	٣٩٢	١٥٨						٨١	٢٧٣	٤٥٨
الناصرية	٤٩٤	٣٧٦	٣١٩	١٥٨						٥٥	٢٧٢	٤٤٥
البصرة	٤٥٧	٤٠٩	٢٩٧	١٥٢	٣					٧٣	٢٥١	٤١٣

الجدول (٨)

. درجة احساس الانسان بالحرارة نهاراً

المحطة	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان	مايس	حزيران
صلاح الدين	بارد معتدل جداً	بارد معتدل جداً	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	حار جداً
سنجار	بارد معتدل جداً	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء	
الموصل	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء	
السليمانية	بارد معتدل جداً	بارد معتدل جداً	بارد معتدل	مريح	مريح	
كركوك	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	حار	
عنه	بارد معتدل جداً	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء	
خانقين	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	مريح	حار جداً	
حديثة	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	مريح	حار	
الحبانية	بارد معتدل	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	حار جداً	
بغداد	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	مريح	حار جداً	
الرطبة	بارد معتدل جداً	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء	
الحي	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء		
النخيب	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء		
النجف	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء		
الديوانية	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء		
العمارة	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء		
السماوة	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء		
الناصرية	بارد معتدل	مريح	مريح	دافيء		
البصرة	بارد معتدل	بارد معتدل	مريح	دافيء		

تتمة الجدول (٨)

تموز	آب	ايلـــول	تشرين الاول	تشرين الثاني	كانون الاول
		حار جـــداً	دافـــيء	مريـح	بارد معتدل جداً
			دافـيء	مريـح	بارد معتـدل
		حار جـداً	مريـح	بارد معتـدل	بارد معتدل جداً
			دافـيء	مريـح	بارد معتـــدل
			دافـيء	مريـح	بارد معتـــدل
			حـــار	مريـح	بارد معتـــدل
			دافـيء	مريـح	بارد معتـــدل
			دافـيء	مريـح	بارد معتـــدل
			دافـيء	مريـح	بارد معتـــدل
			دافـيء	مريـح	بارد معتـــدل
			حـــار	مريـح	بارد معتـــدل
			دافـيء	مريـح	بارد معتـــدل
			حـــار	مريـح	بارد معتـــدل
			حـــار	مريـح	بارد معتـدل
			حـــار	مريـح	بارد معتـــدل
			حـــار	مريـح	بارد معتـدل
			حـــار	مريـح	بارد معتـدل
			حـــار	مريـح	بارد معتـدل

اما في شهر تشرين الثاني فيكون الاحساس بارداً معتدلا في محطتي صلاح الدين والسليمانية ومريحاً في المحطات الاخرى .

ويكون الاحساس بالحرارة بارداً معتدلا جداً في محطتي صلاح الدين والسليمانية ، وبارداً معتدلا في المحطات الاخرى في شهر كانون الاول .

وفي شهر كانون الثاني فان الاحساس بالحرارة يكون بارداً معتدلا في جميع المحطات المناخية عدا محطات صلاح الدين وسنجار والسليمانية وعنه والرطبة حيث ان الاحساس بها يكون بارداً معتدلا جداً .

وتستمر الحالة هذه في شهر شباط عدا محطات سنجار وعنه والرطبة حيث يتغير الاحساس بالحرارة من بارد معتدل جداً الى بارد معتدل ومحطة الناصرية حيث يصبح الاحساس ، بالحرارة فيها مريحاً .

اما في شهر آذار فان الاحساس بالحرارة هو بارد معتدل في محطات صلاح الدين وسنجار والموصل والسليمانية وكركوك وعنه والحبانية والرطبة ، ومريحاً في المحطات الاخرى .

وفي شهر نيسان فان الاحساس بالحرارة يكون بارداً معتدلا في محطة صلاح الدين ومريحاً في محطات سنجار والموصل والسليمانية وكركوك وعنه وخانقين وحديثة والحبانية وبغداد والرطبة ، ودافئاً في المحطات الاخرى .

اما في شهر مايس فان الاحساس بالحرارة يكون مريحاً في محطتي صلاح الدين والسليمانية ودافئاً في محطات سنجار والموصل وعنه والرطبة ، وحاراً في محطتي كركوك وحديثة وحاراً جداً في محطات خانقين والحبانية وبغداد والنخيب والبصرة ، وتنعدم قدرة الريح التبريدية في المحطات الاخرى لارتفاع معدلات الحرارة فيها عن ٩١.٤ درجة فهرنهايتية .

ويعد الاحساس بالحرارة في شهر حزيران دافئاً في محطة صلاح الدين ، وحاراً في محطة السليمانية وحاراً جداً في محطتي سنجار والرطبة ، ولا تكون للريح قدرة على التبريد في المحطات الاخرى .

اما في شهر تموز فان الاحساس بالحرارة حاراً جداً في محطة صلاح الدين ولا تكـون للريح قدرة تبريدية في المحطات الاخرى .

وبهذا فإن افضل المحطات المناخية نهاراً هي محطة صلاح الدين في فصل الصيف ، والمحطات الجنوبية في فصل الشتاء .

نستنتج من ذلك ما يأتي :

١ ــ امكانية تحديد فصول السنة لا على اساس فلكي ، وانما على اساس عامل برد الرياح في ضوء المعيار الذي اقترح في هذا البحث .

٢ ــ امكانية تحديد افضل الاماكن السياحية في ضوء قدرة الريح التبريدية ودرجة احساس الانسان بها ، ورسم خرائط سياحية توضح ذلك ليتسنى للمواطن قضاء امتع الاوقات فيها ، وبناء وتطوير المرافق السياحية في افضل مناطق القطر مناخياً في ضوء النتائج التي تم التوصل لها في هذا البحث .

ومن الله التوفيق .



الملحق (١)

معدلات حرارة الهواء بالمئوية في المحطات المختارة (١)

المحطة	دائرة العرض	الارتفاع م	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان	مايس
صلاح الدين	٣٦° ٢٣َ	١٠٨٨	٣,١	٤,٦	٩,١	١٤,١	٢٠,٢
سنجار	٣٦° ١٩َ	٥٣٨	٦,٢	٨,١	١٢,٢	١٦,٩	٢٣,٩
الموصل	٣٦° ١٩َ	٢٢٣	٧	٨,٩	١٢,٣	١٧,٤	٢٤,١
السليمانية	٣٥° ٣٣َ	٨٥٣	٣,٣	٥,٣	١٠,٢	١٥,٣	٢١,٣
كركوك	٣٥° ٢٨َ	٣٣١	٨,٦	١٠,٢	١٣,٧	١٩,٢	٢٦,٣
عنه	٣٤° ٢٨َ	١٣٩	٦,٥	٦,٤	١٤,٣	١٩,٤	٢٦,٣
خانقين	٣٤° ١٨َ	٢٠٢	٩,٩	١١,٥	١٥,٥	٢٠,٥	٢٧,٥
حديثة	٣٤° ٠٤َ	١٠٨	٦,٢	٦,٥	١٤,٢	٢٠,١	٢٧,٣
الحبانية	٣٣° ٢٢َ	٤٤	٩,٦	١٢	١٦,١	٢١,٧	٢٨,٢
بغداد	٣٣° ١٤َ	٣٤	١٠	١٢,٤	١٦,٣	٢١,٩	٢٨,٣
الرطبة	٣٣° ٠٢َ	٦١٦	٧,٦	٩,٤	١٢,٩	٦٨,٢	٢٣,٨
الحي	٣٢° ١٠َ	١٥	١١,١	١٣,٢	١٧,٢	٢٢,٦	٢٩,٤
النخيب	٣٢° ٠٢َ	٣٠٨	٨,٧	١١,٤	١٥,٨	٢١,٤	٢٧,١
النجف	٣٢° ٠١َ	٥٠	٩,٧	١٣,١	١٧,٩	٢٣,٣	٢٩,٥
الديوانية	٣١° ٥٩َ	٢٠	١٠,٥	١٣	١٧,٢	٢٢,٧	٢٩
العمارة	٣١° ٥١َ	٧,٥	٩,٤	١٢,٩	١٧,٢	٢٣,٥	٢٩,٦
السماوة	٣١° ١٨َ	٦	١٠,٢	١٣,٥	١٨,٣	٢٣,٨	٣٠,٤
الناصرية	٣١° ٠٥َ	٣	١١,٦	١٣,٩	١٨,٢	٢٣,٥	٢٩,٧
البصرة	٣٠° ٣٤َ	٢	١٢,٥	١٤,٦	١٨,٩	٢٤,١	٢٩,٧

(١) المصدر : الهيئة العامة للأنواء الجوية العراقية ، سجلات غير منشورة.

حزيران	تمـوز	آب	أيلول	تشرين الأول	تشرين الثاني	كانون الأول
٢٦,٢	٣٠	٣٠,٢	٢٦,١	١٩,٤	١١,٥	٥,٥
٣٠,٤	٣٣,٨	٣٣,٧	٢٩,٣	٢٢,٦	١٤,٩	٨,٢
٣٠,٥	٣٣,٩	٣٣,١	٢٧,٩	٢٠,٧	١٣,٩	٨,٤
٢٨,٦	٣٢	٣١,٩	٢٧,٥	٢١,١	١٢,٨	٦,١
٣٢,٢	٣٥,٢	٣٤,٧	٣٠,٤	٢٤	١٦,٦	١٠,٦
٣٠,٥	٣٢,٨	٣٢	٢٨,٦	٢٢	١٥,٢	٨,٩
٣٢,٤	٣٤,٧	٣٤,٨	٣٠,٤	٢٤,٢	١٦,٣	١٠,٨
٣١,٣	٣٣,٤	٣٣,٣	٢٩,٣	١٩,٣	١٤	٨,١
٣٢,٦	٣٤,٨	٣٤,١	٢٩,٩	٢٤,١	١٦,٨	١٠,٩
٣٢,٩	٣٤,٨	٣٤,٤	٣٠,٦	٢٤,٥	١٧,١	١١,١
٢٨,٣	٣٠,٥	٣٠,٤	٢٦,٨	٢١,٣	١٤,٣	٩
٣٣,٥	٣٥,٣	٣٤,٩	٣١,٧	٢٥,٩	١٨,٥	١٢,٥
٣١,٦	٣٣,٧	٣٣,٦	٣٠,٥	٢٣,٤	١٥,٧	١٠,٥
٣٤,٣	٣٦,٣	٣٦	٣٢,٥	٢٥,٨	١٧,٧	١١,٤
٣٢,٧	٣٤,٢	٣٣,٩	٣٢,٥	٢٥,١	١٧,٩	١١,٩
٣٤,٢	٣٥,٥	٣٥,٢	٣٠,٤	٢٥,٢	١٧,٦	١١,٦
٣٤	٣٦,١	٣٥,٣	٣٢,٢	٢٥,٧	١٧,٨	١١,٧
٣٢,٨	٣٤,٣	٣٤,٥	٣١,٦	٢٦,١	١٨,٩	١٢,٨
٣٢,٨	٣٤	٣٣,٦	٣٠,٦	٢٦	١٩,٤	١٣,٦

ملحق (٢)

معدلات درجة حرارة الهواء ليلا بالمئوية في المحطات المختارة

المحطة	دائرة العرض	الارتفاع(م)	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان	مايس
صلاح الدين	٣٦° ٢٣´	١٠٨٨	١,٧	٣,٤	٧,٣	١٢,٣	١٨
سنجار	٣٦° ١٩´	٥٣٨	٤,٣	٦,٧	١٠,٥	١٥,١	٢١,٨
الموصل	٣٦° ١٩´	٢٢٣	٥,١	٦,٢	٩,٣	١٣,٦	١٩,٣
السليمانية	٣٥° ٣٣´	٨٥٣	١,٨	٣,٧	٨,١	١٣	١٨,٥
كركوك	٣٥° ٢٨´	٣٣١	٦,٧	٧,٩	١١,٢	١٦,١	٢٢,٥
عنه	٣٤° ٢٨´	١٣٩	٤,٥	٦,٨	١١,١	١٥,٧	٢٢,٤
خانقين	٣٤° ١٨´	٢٠٢	٧,٢	٨,٨	١٢,٤	١٧	٢٣
حديثة	٣٤° ٠٤´	١٠٨	٤,٢	٧,٢	١٠,٣	١٦,٩	٢٤
الحبانية	٣٣° ٢٢´	٤٤	٧,٢	٩,٢	١٢,٩	١٩,٨	٢٣,٩
بغداد	٣٣° ١٤´	٣٤	٧,٧	٩,٥	١٣,٣	١٨,٥	٢٤,٣
الرطبة	٣٣° ٠٢´	٦١٦	٥,١	٦,٦	٩,٧	١٤,٧	١٩,٨
الحي	٣٢° ١٠´	١٥	٨,٤	١٠,٣	١٣,٨	١٨,٨	٢٤,٨
النخيب	٣٢° ٠٢´	٣٠٨	٦,٣	٨,٤	١٢,٥	١٦,٦	٢٣
النجف	٣٢° ٠١´	٥٠	٧,٧	١٠,٦	١٤,٨	١٩,٨	٢٥,٦
الديوانية	٣١° ٥٩´	٢٠	٧,٦	٩,٨	١٣,٦	١٨,٥	٢٣,٣
العمارة	٣١° ٥١´	٧,٥	٧,٤	١٠,٣	١٤,١	١٩,٨	٢٥,٤
السماوة	٣١° ١٨´	٦	٨,٣	١١,١	١٥,٣	٢٠,٤	٢٦,٢
الناصرية	٣١° ٠٥´	٣	٩,١	١١,١	١٤,٩	١٩,٩	٢٦
البصرة	٣٠° ٣٤´	٢	١٠	١,١٨	١٥,٨	٢٠,٩	٢٦,٥

١ – المصدر : الهيئة العامة للانواء الجوية العراقية ،سجلات غير منشورة.

تتمة الجدول (٢)

حزيران	تموز	آب	ايلول	تشرين الاول	تشرين الثاني	كانون الاول
٢٣,٨	٢٧,٤	٢٧,٥	٢٣,٣	١٧,٣	٩,٧	٣,٨
٢٨,١	٣١,٥	٣١,٤	٢٧,١	٢٠,٦	١٣	٦,٨
٢٥,١	٢٨,٥	٢٧,٤	٢٢	١٥,٧	١٠,١	٦
٢٥,٣	٢٨,٧	٢٨,٥	٢٤,١	١٨,٣	١٠,٧	٤,٨
٢٧,٩	٣٠,٨	٣٠,٣	٢٦	٢٠,٣	١٣,٨	٨,٥
٢٦,١	٢٨,٩	٢٧,٦	٢٣,٩	١٧,٨	١١,٤	٦,٥
٢٧,٥	٢٩,٨	٢٩,٦	٢٥,١	١٩,٣	١٢,٧	٨,٣
٢٧	٢٨,٩	٢٩,٣	٢٤,٧	١٨,٧	١٠,٥	٥,٨
٢٧,٧	٣٠	٢٩	٢٤,٩	١٩,٨	١٣,٦	٨,٣
٢٨,٣	٣٠	٢٩,٤	٢٥,٧	٢٠,٢	١٣,٨	٨,٥
٢٤,٠٢	٢٦,٤	٢٥,٩	٢٢,٣	١٧,٣	١١,٠٢	٦,٨
٢٨,٥	٣٠,٦	٣٠	٢٦,٨	٢١,٤	١٤,٩	٩,٧
٢٦,٧	٢٩,٣	٢٩,٥	٢٦,٣	١٩,٥	١٢,٤	٧,٩
٣٠	٣٢,٢	٣١,٨	٢٨,١	٢١,٩	١٤,٨	٩
٢٧,٦	٢٩,٠٢	٢٨,٦	٢٥,٠٧	٢٠,٢	١٤,٢	٩
٢٩,١	٣٠,٥	٢٩,٩	٢٦,٧	٢٠,٣	١٣,٨	٨,٩
٢٩,٣	٣١,٥	٣٠,٢	٢٧,٨	٢١,٦	١٣,٩	٩,٦
٢٩,١	٣٠	٢٩,٤	٢٦,٢	٢١,٣	١٥,٤	١٠,٢
٢٩,٧	٣٠,٨	٢٩,٨	٢٦,٣	٢١,٦	١٦,١	١١,١

الملحق (٣)

معدلات درجة حرارة الهواء نهاراً بالمئوية في المحطات المختارة (١)

المحطة	دائرة العرض		الارتفاع (م)	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان	مايس
صلاح الدين	٢٣َ	٣٦°	١٠٨٨	٤,٦	٦,٤	٩,٩	١٥,١٠	٢٢,٤
سنجار	١٩َ	٣٦°	٥٣٨	٧,٥	٩,٦	١٣,٩	١٨,٧	٢٦,١
الموصل	١٩َ	٣٦°	٢٢٣	٨	١١,٤	١٥,٣	٢١,٣	٢٩
السليمانية	٣٣َ	٣٥°	٨٥٣	٤,٨	٧	١٢,٢	١٧,٥	٢٤,٢
كركوك	٢٨َ	٣٥°	٣٣١	١٠,٦	١٢,٤	١٦,٣	٢٢,٣	٣٠,٢
عنه	٢٨َ	٣٤°	١٣٩	٨,٧	١٢,١	١٧,٥	٢٣,٢	٣٠,٢
خانقين	١٨َ	٣٤°	٢٠٢	١٢,٦	١٤,٢	١٨,٧	٢٤	٣١,٩
حديثة	٠٤َ	٣٤°	١٠٨	٨,٣	١١,٩	١٧,٣	٢٣,٤	٣٠,٦
الحبانية	٢٢َ	٣٣°	٤٤	١١,٩	١٤,٨	١٩,٤	٢٥,٥	٣٢,٤
بغداد	١٤َ	٣٣°	٣٤	١٢,٢	١٥,٠٢	١٩,٣	٢٥,٣	٣٢,٤
الرطبة	٠٢َ	٣٣°	٦١٦	١٠	١٢,٢	١٦,٠٢	٢١,٨	٢٧,٧
الحي	١٠َ	٣٢°	١٥	١٣,٧	١٦,١	٢٠,٥	٢٦,٤	٣٣,٦
النخيب	٠٢َ	٣٢°	٣٠٨	١١,٢	١٤,٤	١٩,١	٢٦,٢	٣١,٢
النجف	٠١َ	٣٢°	٥٠	١٢,٢	١٥,٧	٢١	٢٦,٧	٣٣,٤
الديوانية	٥٩َ	٣١°	٢٠	١٣,٥	١٦,٣	٢٠,٩	٢٦,٨	٣٣,٧
العمارة	٥١َ	٣١°	٧,٥	١١,٥	١٥,٥	٢٠,٢	٢٦,٧	٣٣,٨
السماوة	١٨َ	٣١°	٦	١٢,١	١٦	١٨,٧	٢٧,٢	٣٤,٦
الناصرية	٠٥َ	٣١°	٣	١٤,٨	١٦,٨	٢١,٤	٢٧,٢	٣٣,٤
البصرة	٣٤َ	٣٠°	٢	١٤,٩	١٧,٤	٢١,٩	٢٧,٣	٣٢,٩

(١) المصدر : الهيئة العامة للانواء الجوية العراقية ، سجلات غير منشورة .

تتمة الملحق (٣)

حزيران	تموز	آب	أيلول	تشرين الاول	تشرين الثاني	كانون الاول
٢٨,٦	٣٢,٧	٣٢,٩	٢٨,٨	٢١,٤	١٣,٣	٧,٢
٣٢,٨	٣٦,٢	٣٦	٣١,٦	٢٤,٦	١٦,٨	٩,٧
٣٥,٩	٣٩,٣	٣٨,٧	٣٣,٨	٢٥,٧	١٧,٨	١٠,٩
٢٩,٤	٣٥,٣	٣٥,٣	٣٠,٩	٢٤	١٥	٧,٥
٣٥	٣٩,٩٢	٣٩,٢	٣٤,٩	٢٧,٨	١٩,٤	١٢,٨
٣٤,٨	٣٦,٧	٣٦,٤	٣٣,٢	٢٦,٢	١٨,٩	١١,٣
٣٧,٣	٣٩,٦	٤٠,١	٣٥,٨	٢٩,٢	٢٠	١٣,٢
٣٥,٦	٣٧,٨	٣٧,٣	٣٤	٢٧,٨	١٧,٦	١٠,٤
٣٧,٧	٣٩,٥	٣٩,٢	٣٤,٩	٢٨,٤	٢٠,٤	١٣,٤
٣٧,٥	٣٩,٦	٣٩,٣	٣٥,٤	٢٨,٨	٢٠,٤	١٣,٨
٣٢,٦	٣٤,٧	٣٤,٨	٣٠,٩	٢٥,٣	١٧,٧	١١,٧
٣٨,٥	٣٩,٩	٣٩,٩	٣٦,٦	٣٠,٥	٢٢,٢	١٥,٣
٣٦,١	٣٨	٣٧,٨	٣٤,٨	٢٧,٣	٢٠	١٣,١
٣٨,٥	٤٠,٤	٤٠,٢	٣٦,٧	٢٩,٨	٢٠,٢	١٣,٨
٣٧,٨	٣٩,٤	٣٩,٣	٣٥,٧	٣٠	٢١,٧	١٤,٩
٣٩,٣	٤٠,٤	٤٠,٤	٣٧,٧	٣٠,١٧	٢١,٥	١٤,٣
٣٨,٧	٤٠,٨	٣٩,٨	٣٧,١	٢٩,٨	٢١,٧	١٤,٤
٣٦,٦	٣٨,٦	٣٩,٦	٣٥,٧	٣٠,٩	٢٢,٤	١٥,٥
٣٥,٩	٣٧,١	٣٧,٥	٣٥,١	٣٠,٠٢	٢٢,٧	١٦,٠٥

ملحق (٤)

معدلات سرعة الرياح (م/ثا) في المحطات المختارة (١)

المحطة	دائرة العرض		الارتفاع (م)	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان	مايس
صلاح الدين	٢٣´	٣٦°	١٠٨٨	٢,٤	٢,٩	٣,٢	٣	٢,٣
سنجار	١٩´	٣٦°	٥٣٨	٢,٥	٢,٧	٢,٩	٢,٩	٣
الموصل	١٩´	٣٦°	٢٢٣	٢	٢,٣	٢,٣	٢,٤	٢,٧
السليمانية	٣٣´	٣٥°	٨٥٣	٢,٩	٢,٨	٢,٧	٢	٢,٢
كركوك	٢٨´	٣٥°	٣٣١	٢,٧	٣,١	٣	٣,١	٣,٣
عنه	٢٨´	٣٤°	١٣٩	٢,٧	٣,٣	٣,٣	٣,٨	٣,٣
خانقين	١٨´	٣٤°	٢٠٢	٢,٣	٢,٤	٢,٩	٢,٧	٢,٧
حديثة	٠٤´	٣٤°	١٠٨	٢,٦	٢,٧	٢,٩	٣	٣,٢
الحبانية	٢٢´	٣٣°	٤٤	٢,٧	٣,٣	٣,٦	٣,٤	٣,٥
بغداد	١٤´	٣٣°	٣٤	٢,٩	٣,٤	٣,٦	٣,٥	٣,٦
الرطبة	٠٢´	٣٣°	٦١٦	٣,٥	٣,٧	٤,٣	٤,١	٣,٧
الحي	١٠´	٣٢°	١٥	٣	٣,٣	٤,٥	٣,١	٣,٣
النخيب	٠٢´	٣٢°	٣٠٨	٢,٩	٣,٨	٤	٣,٩	٤
النجف	٠١´	٣٢°	٥٠	٢,٩	٣,٢	٣,٦	٣,٦	٣,٦
الديوانية	٥٩´	٣١°	٢٠	٣,١	٣,٦	٣,٧	٣,٦	٣,٦
العمارة	٥١´	٣١°	٧,٥	٢,٥	٢,٥	٢,٨	٢,٥	٣,١
السماوة	١٨´	٣١°	٦	٢,٧	٣,٧	٣,٩	٤,١	٣,٥
الناصرية	٠٥´	٣١°	٣	٣,٣	٣,٧	٣,٩	٣,٨	٤,١
البصرة	٣٤´	٣٠°	٢	٢,٨	٣,١	٣,٤	٣,٣	٣,٤

(١) المصدر : الهيئة العامة للانواء الجوية العراقية ، سجلات غير منشورة .

تتمة الملحق (٤)

حزيران	تموز	آب	ايلول	تشرين الاول	تشرين الثاني	كانون الاول
٢,١	٢,١	١,٩	١,٧	٢	٢	٢,٥
٣,٩	٤	٣,٣	٣,٥	٢,٩	٢,٢	٢,٤
٢,٨	٢,٧	٢,٦	٢,٢	١,٨	١,٦	١,٦
٢,٤	٣	٢,٦	٢,١	٢,٤	٢,٣	٢,٦
٣	٢,٨	٢,٤	٢,٧	٢,٥	٢,٤	٢,٣
٥,١	٥	٤,١	٢,٦	٢,٥	١,٩	٢,٧
٢,٧	٢,٤	١,٩	٢	٢	١,٩	٢,١
٣,٨	٥١	٣,٩	٢,٨	٢,٤	٢	٢,٣
٣,٨	٤,٣	٣,٦	٢,٦	٢,٢	٢,١	٢,٣
٤,٢	٤,٥	٤	٣,٤	٢,٩	٢,٥	٢,٦
٣,٧	٤,٢	٣,٥	٢,٧	٢,٦	٢,٥	٢,٨
٤,١	٤	٣,٦	٣,٣	٢,٨	٢,٧	٢,٧
٣,٨	٤,١	٣,٦	٣	٣,١	٢,٤	٢,٥
٤,٥	٥,١	٤,١	٣	٢,٩	٢,٧	٢,٧
٤,١	٤,٢	٣,٨	٣,٣	٢,٩	٢,٨	٢,٩
٥,١	٥,٢	٤,٢	٣,٤	٢,٦	٢,٦	٢,٥
٣,٩	٤,٣	٣,٥	٢,٩	٢,٧	٢,٥	٢,٦
٤,٧	٤,٨	٤,٤	٤	٣,٣	٣,٢	٣,١
٤,١	٣,٧	٣,٤	٢,٩	٢,٥	٢,٥	٢,٥

ملحق (٥)

معدلات سرعة الرياح ليلا (م/ثا) في المحطات المختارة (١)

المحطة	دائرة العرض	الارتفاع (م)	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان	مايس
صلاح الدين	٣٦° ٢٣´	١٠٨٨	٢٫١	٢٫٨	٢٫٨	٣	١٫٨
سنجار	٣٦° ١٩´	٥٣٨	٢٫٤	٢٫٨	٢٫٩	٢٫٨	٣
الموصل	٣٦° ١٩´	٢٢٣	٣٫٦	٤	٣٫٨	٤	٤٫٣
السليمانية	٣٥° ٣٣´	٨٥٣	٢٫٩	٢٫٨	٢٫٣	١٫٦	١٫٨
كركوك	٣٥° ٢٨´	٣٣١	٢٫٦	٢٫٨	٢٫٨	٢٫٧	٢٫٧
عنه	٣٤° ٢٨´	١٣٩	٢	٢٫٨	٢٫٦	٢٫٧	٢
خانقين	٣٤° ١٨´	٢٠٢	١٫٩	٢	٢٫٩	٢٫١	٢٫١
حديثة	٣٤° ٠٤´	١٠٨	٢٫٥	٢٫٥	٢٫٦	٢٫٧	٢٫٨
الحبانية	٣٣° ٢٢´	٤٤	٢٫٢	٢٫٧	٢٫٨	٢٫٦	٢٢
بغداد	٣٣° ١٤´	٣٤	٢٫٤	٢٫٧	٣	٢٫٧	٫٩
الرطبة	٣٣° ٠٢´	٦١٦	٢٫٩	٣٫٠٢	٣٫٥	٣٫٣	٣
الحي	٣٢° ١٠´	١٥	٢٫٧	٢٫٩	٣٫[illegible]	٢٫٧	٢٫٧
النخيب	٣٢° ٠٢´	٣٠٨	٢٫٢	٢٫٦	٣٫٤	٣٫٢	٣٫٧
النجف	٣٢° ٠١´	٥٠	٢٫٧	٢٫٨	٣٫١	٣	٣٫١
الديوانية	٣١° ٥٩´	٢٠	٢٫٧	٣٫١	٤٫٦	٢٫٩	٢٫٩
العمارة	٣١° ٥١´	٧٫٥	١٫٩	١٫٨	٢٫١	١٫٧	٢٫٢
السماوة	٣١° ١٨´	٦	٢٫٧	٣٫٤	٣٫٢	٣٫٦	٢٫٩
الناصرية	٣١° ٠٥´	٣	٢٫٩	٣٫١	٣٫٣	٣٫١	٣٫٤
البصرة	٣٠° ٣٤´	٢	٢٫٣	٢٫٥	٢٫٨	٢٫٦	٢٫٨

(١) المصدر : الهيئة العامة للانواء الجوية العراقية ، سجلات غير منشورة .

تتمة الملحق (٥)

حزيران	تموز	آب	أيلول	تشرين الاول	تشرين الثاني	كانون الاول
١,٦	١,٩	١,٤	١,٢	١,٨	١,٨	٢,٣
١,٤	٤,٧	٣,٦	٣,٩	٣,١	٢,٢	٢,٥
٤,٧	٥,٢	٤,٧	٣,٦	٣,١	٢,٧	٢,٧
٢	٢,٩	٢,٣	١,٨	٢,٣	٢,٤	٢,٥
٢,٤	٢,١	١,٧	٢,١	٢,٣	٢,٣	٢,٢
٤	٤	٢,٥	١,١	١,١	١	١,٩
١,٤	١,٥	١,٣	١,٥	١,٧	١,٨	١,٨
٣,٣	٤,٤	٣,٤	٢,٥	٢,٢	١,٨	٢,١
٢,٦	٣,٤	٢,٤	١,٧	١,٥	١,٦	١,٨
٣,١	٣,٣	٣	٣	٢,٤	٢,١	٢,٢
٣,٤	٣,٧	٢,٩	٢,٢	٢	٢,١	٢,٣
٣,٢	٣,٤	٣	٣,١	٢,٦	٢,٦	٢,٥
٣	٢,٨	٢,٥	٢,٥	٣	٢	١,٩
٣,٥	٣,٨	٣,١	٢,٥	٢,٧	٢,٥	٢,٥
٣,١	٣,٠٧	٢,٨	٢,٨	٢,٦	٢,٥	٢,٥
٣,٥	٣,٧	٣,٢	٢,٥	٢,٢	٢,١	٢,١
٢,٥	٢,٩	٢,٣	٢,٢	٢,٢	٢,٢	٢,٢
٤,-	٤	٣,٥	٣,١	٢,٩	٢,٩	٢,٨
٣,٦	٣,٢	٢,٩	٢,٥	٢,٢	٢,٢	٢,١

تتمة ملحق(٦)

معدلات سرعة الرياح نهاراً (م/ثا) في المحطات المختارة (١).

المحطة	دائرة العرض	الارتفاع (م)	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان	مايس
صلاح الدين	٣٦° ٢٣′	١٠٨٨	٢,٦	٣	٣,٦	٣	٢,٨
سنجار	٣٦° ١٩′	٥٣٨	٢,٦	٢,٧	٣	٣	٣,١
الموصل	٣٦° ١٩′	٢٢٣	٥,٤	٦,٥	٦,٣	٦,٩	٧,٦
السليمانية	٣٥° ٣٣′	٨٥٣	٣	٢,٩	٣,١	٢,٤	٢,٦
كركوك	٣٥° ٢٨′	٣٣١	٢,٨	٣,٣	٣,٢	٣,٥	٣,٩٢
عنه	٣٤° ٢٨′	١٣٩	٣,٥	٣,٨	٤	٤,٥	٤,٥
خانقين	٣٤° ١٨′	٢٠٢	٢,٦	٢,٩	٣,٣	٣,٤	٣,٤
حديثة	٣٤° ٠٤′	١٠٨	٢,٧	٢,٩	٣,٢	٣,٣	٣,٧
الحبانية	٣٣° ٢٢′	٤٤	٣,٢	٣,٩	٤,٤	٤,٣	٤,٦
بغداد	٣٣° ١٤′	٣٤	٣,٥	٣,٩	٤,٣	٤,٢	٤,٤
الرطبة	٣٣° ٠٢′	٦١٦	٤	٤,٤	٥,٢	٤,٩	٤,٣
الحي	٣٢° ١٠′	١٥	٣,٢	٣,٧	٣,٩	٣,٦	٣,٩
النخيب	٣٢° ٠٢′	٣٠٨	٣,٦	٤	٤,٦	٤,٥	٤,٤
النجف	٣٢° ٠١′	٥٠	٣,٢	٣,٦	٤,٢	٤,٢	٤,٢
الديوانية	٣١° ٥٩′	٢٠	٣,٦	٤,١	٤,٤	٤,٢	٤,٣
العمارة	٣١° ٥١′	٧,٥	٣,١	٣,١	٣,٥	٣,٤	٤,٢
السماوة	٣١° ١٨′	٦	٢,٨	٤	٤,٦	٤,٥	٤,١
الناصرية	٣١° ٠٥′	٣	٣,٨	٤,٢	٤,٦	٤,٥	٤,٧
البصرة	٣٠° ٣٤′	٢	٣,٣	٣,٨	٤,١	٤	٤

(١) المصدر : الهيئة العامة للانواء الجوية العراقية ، سجلات غير منشورة .

تتمة الملحق (٦)

حزيران	تموز	آب	أيلول	تشرين الاول	تشرين الثاني	كانون الاول
٢,٦	٢,٤	٢,٤	٢,٢	٢,٨	٢,٢	٢,٧
٣,٧	٣,٤	٣	٣,١	٢,٦	٢,٢	٢,٤
٧,٨	٧,٢	٦,٩	٦,٣	٥,٢	٤,٥	٤,٥
٢,٨	٣,٢	٣	٢,٤	٢,٥	٢,٣	٢,٦
٣,٦	٣,٦	٣	٣,٤	٢,٩	٢,٦	٢,٤
٦,٢	٦,٥	٥,٧	٤,١	٣,٦	٢,٨	٣,٤
٣	٣,٤	٢,٦	٢,٤	٢,٣	٢,٢	٢,٤
٤,٣	٥,٧	٤,٦	٣,١	٢,٧	٢,٢	٢,٦
٥,١	٥,٦	٤,٨	٣,٥	٢,٩	٢,٧	٢,٨
٥,٢	٥,٣	٥,٢	٤,٢	٣,٤	٢,٩	٣,١
٤,٣	٤,٧	٤,٧	٣,٣	٣,٢	٢,٩	٣,٣
٤,٩	٤,٦	٤,٢	٣,٦	٤,٦	٢,٨	٢,٩
٤,٨	٥,٣	٤,٨	٣,٦	٣,٢	٢,٩	٣,١
٥,٦	٦,٣	٥,١	٣,٥	٣,٢	٢,٨	٢,٩
٥,٢	٥,٤	٤,٨	٣,٨	٣,٢	٣,٩	٣,٣
٦,٨	٦,٧	٥,٢	٤,٣	٣	٣,٢	٢,٨
٥,٣	٥,٧	٥,٩	٣,٧	٣,٢	٢,٨	٣
٥,٥	٥,٧	٥,٢	٤,٩	٣,٦	٣,٥	٣,٤
٤,٧	٤,٢	٣,٩	٣,٣	٢,٨	٢,٩	٢,٩

مصـــادر البحث

اولاً : العربيـة

١ ــ د. علي حسين الشلش :
القيمة الفعلية للامطار واثرها في تحديد الاقاليم النباتية في العراق ، مجلة كليـة الآداب ــ جامعة البصرة ــ العدد العاشر ، السنة التاسعة ، ١٩٧٦ .

٢ ــ د. علي حسين الشلش :
المناخ واشهر الحد الاقصى للراحة ولكفاءة العمل في العراق ، مجلة كلية التربية /جامعة البصرة ، العدد الثالث ، ١٩٨٠ .

٣ ــ الهيئة العامة للانواء الجوية العراقية ، سجلات غير منشورة .

ثانياً : الاجنبية

1- John F. Griffiths, Applied climatology, An introdation, London, oxford university press, 1966.

2- Joseph E. van Riper, man's physical world, 2nd edition, mcGraw Hill book company, New york. 1971.



الدكتور صلاح داود الحديثي
كلية القانون

المقدمة

كما هو واضح في عرف السياسة الدولية فان الدولة بحد ذاتها كوحدة قانونية معترف بها لاتتصرف على المستوى القانوني والسياسي، الامن خلال من يمثلها «ولذلك تفهم الدولة سياسياً على انها تلك المنظمة الاجتماعية المتكاملة التي تتمتع قيادتها السياسية (أي صانعو القرار المسؤولون رسمياً) بالسيادة الكاملة وباستقلالية في اتخاذ القرارات السياسية الخارجية» (١).

---

(١) فكرت نامق عبد الفتاح ، سياسة العراق الخارجية في المنطقة العربية ١٩٥٣ – ١٩٥٨ (بغداد ١٩٨١) ،ص٢٠ .

ومن الواضح فان سياسة العراق الخارجية تتم في الفترة موضوع البحث. بقيادة الرئيس صدام حسين (حفظه الله)، و عليه فان صنع القرار السياسي المناسب يدل على قدرة الشخصية واهميتها. فالعراق الذي يمثل موقعاً بارزاً في منطقته التي تعتبر من اشد المناطق حساسية والتهاباً في عالمنا المعاصر اصبح يحتل مركزاً متميزاً ليس في الوطن العربي فحسب. وانما في العالم الثالث اجمع .

لقد صنع العراق بفعل قيادته الحكيمة مواقف ايجابية على المستوى الدولي برهنت على حرية واستقلالية وقومية القرار بعيداً عن استراتيجيات الدول الكبرى وهيمنتها ، ودلت من غير شك على الوضع الفكري والسياسي وعلى الواقعية بعيداً عن كل السياسات الليبرالية والماركسية والرجعية التي ترتكز عليها بعض انظمة الوطن العربي باتجاه اعادة الشخصية العربية حفاظاً على هويتها وربط مسارها بالعصر الحاضر بما يتناسب والتقدم الحضاري وصولاً الى بناء مجتمع عربي اشتراكي موحد.

ان هذه السياسة الخارجية التي يتبناها الرئيس القائد صدام حسين هي المنهج السياسي والترجمة الواقعية لمبادىء حزب البعث العربي الاشتراكي وعقيدته الثورية. كما هو حال الترجمة الفعلية لواقع الحزب وانعكاساته العملية على واقع البنيان الداخلي للقطر العراقي على صعيد المجتمع والفرد والتي اصبح بفضلها العراق قطراً متميزاً بين أقطار الوطن العربي بل والعالم اجمع لما عرف عنه من وضوح في جانب السياسة الخارجية والعلاقات الدولية .

وقد جاء هذا البحث ليوضح بجلاء سياسة عدم الانحياز في علاقات العراق الدولية من خلال فكر الرئيس القائد صدام حسين (حفظه الله) وعقيدة حزب البعث ، وقد شمل دراسة جوانب عديدة منحت سياسة الاستقطاب الدولي وسياسة عدم الانحياز من وجهة نظر العراق، اضافة الى دراسة مضمون سياسة عدم الانحياز في علاقات العراق الدولية على المستوى السياسي والاقتصادي .

وقد بدا من خلال البحث بالدليل مشروعية التأكيد على استقلالية العراق وعلى عدم جريانه في فلك الدول العظمى، والتعاون فيما بينه وبين دول العالم بمستوى التعادل والحفاظ على الشخصية الذاتية والكرامة الوطنية ، وكذلك الابتعاد عن التبعية الاقتصادية للدول الاستعمارية خاصة ماعرضه العراق لدول العالم الثالث من ضمانات اقتصادية وتسهيلات مالية وقروض طويلة الامد عبرت من غير شك عن صدق العراق — ليس في الحفاظ على العراق

بعيداً عن التبعية للدول العظمى – بل والحفاظ على دول العالم الثالث من ان تنخرط في سياق التبعية للاجنبي .

ان سياسة عدم الانحياز هذه التي يسير عليها العراق حالياً انما تدل على قوة الدولة على كافة المستويات . اذ ان اهم العوامل المؤثرة في السياسة الخارجية هي «قوة الدولة»(١) وقد جاءت قوة العراق هذه من القيادة الحكيمة، وسلامة العقيدة وتلاحم الجماهير مع تلك العقيدة والقائد .

كذلك لاننسى القومية (٢) التي هي القوة الديناميكية الثانية التي تتحكم في سياسة الدولة الخارجية. وهذه القومية هي حجر الزاوية التي ينطلق منها حزب البعث العربي الاشتراكي. مما اعطى لسياسة العراق هذه ميزة خاصة عبرت عن شخصيتها القومية بعيدة عن الاقليمية العنيفة والمصالح الشخصية، استهدفت اولا وقبل كل شيء حماية السيادة الاقليمية للعراق ودعم الامن القومي، والحفاظ على العقيدة ،وكذلك تنمية مقدرات العراق من القوة مما يتيح للقطر العراقي مستوى جيداً من الثراء الاقتصادي .



---

(١) لمعرفة العوامل المؤثرة في سياسة الدول الخارجية انظر : عبد الفتاح ، نفس المصدر السابق ، ص٢٢ – ٥٠ .

(٢) كان للقومية ولايزال في العلاقات الدولية اثر واضح اذ بفضلها قامت العديد من الدول في العالم ولاجلها تغيرت سياسات العديد من الدول وللاستزادة في هذا الجانب انظر : اسماعيل صبري مقلد ، العلاقات السياسية الدولية (الكويت ١٩٧٩) ، ص٩٧وص ١٠٢ – ١٠٦ .

١ ـ سياسة الاستقطاب الدولي :

من النتائج التي تمخضت عن الحرب العالمية الثانية زوال الحكم النازي في المانيا والحكم الفاشي في ايطاليا، وخروج بريطانيا وفرنسا كدولتين من الدرجة الثانية، وظهور الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي كأقوى دولتين تتمتعان بقوة فاعلة في المجتمع الدولي وفي مساحة جغرافية واسعة . وبذلك انتقلت مراكز الاستقطاب من بريطانيا وفرنسا والمانيا وايطاليا الى الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي، وحل نظام الثنائي الاستقطاب محل النظام المتعدد الاستقطاب .

وقد اتخذ التنافس بين الدولتين العظميين صورة حرب باردة جرى فيها الصراع على مناطق النفوذ وأقامة الحواجز الدولية للمحافظة على أمنهما والدفاع عنهما. فضلاً عن الصراع الدعائي والاقتصادي. وهكذا قسمت اوربا الى اوربا الغربية التي اصبحت تحت وصاية الولايات المتحدة الامريكية، واوربا الشرقية تحت نفوذ الاتحاد السوفيتي. وانفرد القطبان الدوليان برسم السياسة الدولية والتأثير في احداثها وتطوراتها. كما عملا على عقد المحالفات، فظهر ميثاق ريو ١٩٤٧ وحلف الاطلسي ١٩٤٩، وميثاق الأمن المتبادل مع اليابان والحلف الثلاثي مع استراليا ونيوزيلندة والمعاهدة الدفاعية مع الفلبين كلها في ١٩٥١. ومعاهدة الدفاع المتبادل مع كوريا الجنوبية وحلف جنوب شرقي آسيا في ١٩٥٣، ومعاهدة الدفاع المتبادل مع فرموزا ١٩٥٤. وعقدت بريطانيا حليفة الولايات المتحدة الامريكية ميثاق حلف بغداد ١٩٥٥ (بعد خروج العراق منه ١٩٥٩ دعي بالحلف المركزي). كما عقدت الولايات المتحدة الامريكية مجموعة من الاتفاقيات الثنائية العسكرية والاقتصادية مع العديد من الدول كالعراق والسعودية وايران (١).

اما بالنسبة للاتحاد السوفيتي فانه هو الاخر ارتبط بمجموعة من الاحلاف والمعاهدات، فعقد اتفاقية مع جيكوسلوفاكيا ١٩٤٣، وبولونيا ١٩٤٥، وبلغاريا والمجر ورومانيا ١٩٤٧. وفي عام ١٩٥٥ أقيم حلف وارشو ليحل محل المعاهدات السابقة . وانشأت منظمة الكوميكون COMECON لتطوير التعاون الاقتصادي مع دول اوربا الشرقية .

وقد قاد الصراع بين الدولتين العظميين الى السباق على تملك وانتاج الاسلحة النووية والتدميرية الاخرى .

---

(١) للتفاصيل : انظر ،د. روزيل ،ج.ب، التاريخ الدبلوماسي : تاريخ العالم من الحرب العالمية الثانية الى اليوم (ترجمة نور الدين خاطوم) ، بيروت ١٩٦٦ .

وعلى المستوى الايديولوجي اعتقدت الدولتان بأنهما تملكان الحقائق التي تصلح لكل زمان ومكان ، واخذتا بالترويج لأيديولوجياتها عن طريق تقديم الاعانات المالية والمساعدات الاقتصادية والتكنولوجية ، فضلا عن تكوين الاحزاب والتنظيمات السياسية الموالية لهما .

٢ ـ سياسة عدم الأنحياز من وجـهة نظر العراق

ان المفهوم العام لمبدأ عدم الانحياز قد تبلور نتيجة الحرب العالمية الثانية التي تمخضت عنها اوضاع دولية جديدة ، لقد جاء ليعبر عن رفض التبعية وهيمنة الدول الكبرى ، وبخاصة الدولتين العظميين ، واقامة عالم يتحقق فيه التكافؤ في التعامل الدولي .

وقد تعمقت المضامين التقدمية لمفهوم عدم الانحياز نتيجة التجارب التي خاضتها شعوب العالم الثالث في نضالها من اجل استكمال تحررها وتحقيق سيادتها . فأخذ مفهوم عدم الأنحياز يؤكد على رفض كل انواع السيطرة ورفض أية محاولة لربط تبعي بين دول العالم الثالث وبين اي من مركزي الاستقطاب (١) وهذا موقف يبرر الصراع الدولي السياسي والاقتصادي والعقائدي الذي يسود العالم ، فضلا عن ان الالتزام بمبدأ عدم الأنحياز يعد ضمانة لحماية المصالح الوطنية من مخاطر التأثير والتدخلات الخارجية في الشؤون الداخلية .

والتزم حزب البعث العربي الاشتراكي منذ تأسيسه بمبدأ عدم الانحياز واعدها ركناً مهماً في موقفه من العلاقات الدولية (٢) .

لقد وقف حزب البعث العربي الاشتراكي ضد سياسة الاحلاف والتكتلات الدولية ، وبخاصة تلك التي تهدف إلى ربط العراق والاقطار العربية بمعاهدات او الدخول في مشاريع ترمي إلى وضعها في مخططات سياسية او اقتصادية او عسكرية تخدم مصالح الدول الكبرى .

وناضل حزب البعث العربي الاشتراكي ضد حلف بغداد ، كما طالب الحكومات التي تعاقبت على الحكم في القطر العراقي منذ ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وحتى ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز ١٩٦٨ بضرورة الالتزام بمبدأ عدم الانحياز نصاً وروحاً .

وقد اعتمدت قيادة الحزب والثورة نهج المصلحة الوطنية والقومية المستندة إلى المبادىء في ستراتيجية العلاقات الدولية . وعليه فتمسك العراق بسياسة عدم الانحياز يعد نتيجـــة

(١) انظر : الياس فرح ، البعث وفلسفة عدم الانحياز ، بغداد ١٩٨٣ ،ص١٩ .

(٢) انظر : حـزب البعث العربي الاشتراكي / القطر العراقي ، التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر القطري الثامن ، كانون الثاني ١٩٧٤، بغداد (١٩٧٤) ،ص٤٩ .

منطقية لتمسكه بهذا النهج ، القائم على رفض تقسيم العالم إلى مراكز نفوذ تابعة لمراكز الاستقطاب الدولي ، وجرها لخدمة مشاريعها واهدافها المعبرة عن مصالحها وسياساتها الخاصة (١) .

ان التزام العراق بمبدأ عدم الانحياز يعني الالتزام «... بموقف حضاري جديد وخلاف بين الحضارتين المتصارعتين لا يتبنى تبنياً كلياً القيم الشرقية ولا الغربية ، ولا يقبل التعصب الأعمى لمذهب معين ، ولا العداء الأعمى لنظام او فلسفة معينة» (٢) . والعراق بذلك يعكس موقفاً قومياً ذا ابعاد حضارية تتعلق بتحقيق الشخصية القومية الانسانية للامة العربية في المجتمع الدولي (٣) .

ويعتبر العراق «الاستقلالية» جوهر سياسة عدم الانحياز ، لذا فانه يؤكد على ضرورة تحقيق الاستقلالية كشرط اساسي انجاح سياسة عدم الانحياز والاستقلالية لاتعني عدم التبعية السياسية فحسب ، بل ايضاً عدم تبعية الاقتصاد والنهج ، وحرية اتخاذ القرار السياسي دون تأثير او تدخل من اية دولة كانت. وبذلك اقام العراق سياسة عدم الانحياز على قاعدة صلبة وحدد معالمها بشكل واضح لايقبل الاجتهاد والتأويل.

ومبدأ الاستقلالية لايمنع العراق من اقامة علاقات صداقة مع اية دولة من الدول الكبرى اساسها تلافي الستراتيجيات. «.... ولكن ليس بصيغة الانحياز او بصيغة الارتباط الميكانيكي وانما بصيغة الانتقاء، حسب تلافي كل موقف مع مصلحة العراق. ومصلحة الامة العربية او مع ستراتيجيتها (٤). وانطلاقاً من ذلك فان العراق يعطى موقفاً متميزاً للاصدقاء في علاقاته الدولية ولن يساوي بينهم وبين الاعداء الذين يريدون الحاق الضرر به (٥).

---

(١) انظر : صدام حسين ، حركة عدم الانحياز : هكذا نفهمها ، بغداد ١٩٨٠ ص١١ .
(٢) ميشيل عفلق ، في سبيل البعث ، بغداد ١٩٨٢، ص٣٣٤ .
(٣) انظر : الياس فرح ، البعث وفلسفة ...، مصدر سبق ذكره ، ص١٣٤ .
(٤) صدام حسين ، معركة الاستقلالية والسياسة الدولية ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ص٧٧ .
(٥) انظر : نفس المصدر السابق ، ص٧٣ .

٣ ـ مضمون سياسة عدم الانحياز في علاقات العراق الدولية

٣ ـ ١ المضمون السياسي

يعد العراق سياسة عدم الانحياز ركنا اساسيا في علاقاته الدولية ، مؤكدا على مضمونها التحرري والتقدمي والديمقراطي المعادي لجميع انواع الهيمنة والتمييز بين الشعوب (١)

والتزام العراق لهذه السياسة ينبع من ايمانه بضرورة تحقيق التعايش السلمي بين الانظمة والامم المختلفة ، فضلا عن ايمانه بحق الشعوب بأختيار طريقها الخاص والمستقل دون ان تكون سائرة في فلك الدولتين العظميين (٢) .

وان اية خطوة نحو تحقيق الأمن والتعايش السلمي يجب ان تهدف الى ازالة او التقليل من اسباب الصراع والتوتر الدولي . ولا يمكن ان يتحقق ذلك إلا من خلال :

- عدم الانتماء الى التكتلات والاحلاف العسكرية .
- نزع السلاح واخضاعه للرقابة او تخفيضه الى الحد الادنى .
- حل النزاعات الدولية كافة بالطرق السلمية بما يتماشى مع القانون الدولي وميثاق الامم المتحدة .
- الامتناع عن اعمال التهديد والعدوان واستعمال القوة ضد وحدة اراضي اية دولة او استقلالها السياسي .
- الاعتراف بالمساواة بين كافة الدول ، كبيرها وصغيرها ، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية .

وقد تبنى العراق سياسة دولية متوازنة ازاء مختلف القوى في العالم وذلك لمواجهة سياسة التكتلات الدولية . وما ينطوي عليها من احتمالات خطيرة تهدد الامن القومي العربي والامن والسلم في العالم .

وانطلاقا من ايمان العراق من ان قضية الامن والسلم الدولي لا يمكن تجزئتها ومن اجل تخفيف حدة التوتر في المنطقة العربية وفي العالم ، اصدر السيد الرئيس صدام حسين الاعلان القومي في شباط ١٩٨٠ . الذي جاء ليعطي سياسة عدم الانحياز بعدا عمليا فرفض

---

(١) انظر : حزب البعث العربي الاشتراكي / القطر العراقي ، التقرير السياسي .. ، مصدر سبق ذكره ، ص٢٠٩ .

(٢) انظر : ميشيل عفلق ، في سبيل البعث ، مصدر سبق ذكره ، ص٣٣٢ .

العراق «.... تواجد الجيوش والقوات العسكرية واية قوات وقواعد أجنبية في الوطن العربي او تسهيل تواجدها بأية صيغة من الصيغ وتحت أية ذريعة او غطاء ولأي سبب من الاسباب ، وعزل اي نظام عربي لا يلتزم لهذا المبدأ ومقاطعته سياسيا واقتصاديا ومقاومة سياساته بكل الوسائل المتاحة» (١) .

ومن اجل تحجيم المساحة الجغرافية التي يمكن ان تتعرض للحرب والدمار نتيجة الصراع بين الدولتين العظميين ، يدعو العراق الالتزام بمبدأ «.. الحياد التام وعدم الانحياز ازاء اي طرف من اطراف الصراع او الحرب مالم ينتهك احد اطراف الصراع او الحرب السيادة الاقليمية العربية والحقوق الثابتة للاقطار العربية ... وامتناع الاقطار العربية عن اشتراك قواتها العسكرية كلا او جزءا في الحروب والمنازعات العسكرية في المنطقة وخارجها نيابة عن اية دولة او جهة اجنبية (٢) .

ولم يقتصر العراق دعوته هذه على الاقطار العربية فحسب ، بل شملت دول العالم الثالث ايضا ، اذ يطالبها بالعمل الدؤوب من اجل تكوين « .... قوى انسانية ضخمة ترفض التبعية وفكرة اقتسام العالم بين المعسكرين .. ويوجد منطقة سلام منيعة واسعة تساعد كل معسكر على مواجهة ازمته وتصحيح اوضاعه وتعزز ظروف التعايش والتقدم الانساني السلمي (٣) .

وانطلاقا من ذلك يرفض العراق مبدأ وصاية الدول الكبرى على دول العالم الثالث ، ويدين مبدأ «... تقسيم العالم الى مراكز محددة للقوى لاخيار لهذه الشعوب سوى الانحياز الى اي منها بغض النظر عن توافق مصالحها الوطنية مع هذا الموقف» (٤) . ولا تتمكن شعوب العالم الثالث تحقيق ذلك الا من خلال اتخاذ المواقف الدولية التي تتماشى مع مصالحها الوطنية والقومية وكسر الطوق الذي تفرضه عليها الدول الكبرى ، الذي يحجبها عن اداء دورها الحقيقي في المجتمع الدولي لمواجهة سياسات التبعية والهيمنة (٥) .

---

(١) صدام حسين ، الاعلان القومي : استجابة لدواعي المسؤولية القومية ، بغداد ١٩٨٠ ، ص٤٤

(٢) نفس المصدر السابق ، ص٤٦ .

(٣) دار الطليعة (العاشر) نضال البعث ، الجزء الرابع ، بيروت ١٩٧٦ ، ص٥٩

(٤) صدام حسين ، حركة عدم الانحياز ... ، مصدر سبق ذكره ، ص١٠

(٥) انظر : الياس فرح ، البعث وفلسفه ...، مصدر سبق ذكره ، ص٨٨

٣ ـ ٢ المضمون الاقتصادي

تفترض سياسة عدم الانحياز ابتداءاً عدم التبعية الاقتصادية ، اذ انه لا يمكن ان يتحقق الاستقلال السياسي بدون تحرر اقتصادي . وانطلاقا من ذلك يؤكد السيد الرئيس صدام حسين على ضرورة ترك شعوب العالم الثالث تقرر مصيرها بنفسها لأجل الخروج من حالة التخلف التي تعيشها (١) .

ويأخذ العراق على عاتقه تحقيق العمل المشترك مع دول العالم الثالث ليس في الميدان السياسي فحسب ، بل في الميدان الاقتصادي ايضا ، لتحقيق الاستقلال الاقتصادي التام والنهوض بالمستويات الاجتماعية لشعوبها ، بغض النظر عن اختلاف النظم السياسية فيها وقد أنهى العراق من جانبه هيمنة شركات النفط الاحتكارية على الثروة الوطنية بتأميم جميع شركات النفط الاجنبية ، فضلا عن استثمار الثروة الطبيعية استثمارا وطنيا بعيداً عن هيمنة الدول الكبرى والشركات التابعة لها ، كشرط اساس لاقامة اقتصاد وطني مستقل .

ولما كانت دول العالم الثالث المتمثلة بحركة عدم الانحياز توجد بين الدولتين العظميين والتكتلات الاقتصادية التابعة لهما ، فان العراق يبذل جهودا صادقة في علاقاته الدولية لأستحصال الحقوق والمصالح المشروعة للدول النامية ، واحداث تغيير جذري في هيكل العلاقات الدولية وصولا لتحقيق نظام اقتصادي عادل تحصل فيه دول العالم الثالث على حقوقها ، ويؤمن لها السيطرة الكاملة والفاعلة على ثرواتها الطبيعية ، وانهاء كل انواع الاستغلال والتمييز على الصعيد الاقتصادي ، المتمثلة بالاستعمار الجديد (٢) .

وكخطوة في طريق ايجاد النظام الاقتصادي العادل يدعو العراق الدول الصناعية المتقدمة الى ايجاد الوسائل الفعالة لمكافحة آثار التضخم المصدر الى الدول النامية والذي يعد من اهم الاسباب التي تؤثر تأثيرا سلبيا في اقتصادياتها ، ويعرقل عملية التقدم والتنمية الاقتصادية ولتحقيق هذا الغرض اقترح العراق انشاء صندوق عالمي طويل الأجل لمساعدة دول العالم الثالث تساهم فيه الدول الصناعية المتفرقة ، فضلا عن الدول المصدرة للنفط (٣) .

---

(١) انظر : صدام حسين ، معركة الاستقلالية ...، مصدر سبق ذكره ، ص٨٠

(٢) انظر : نفس المصدر السابق ، ص ص١٦-١٩ .

(٣) للتفاصيل انظر : صدام حسين ، حركة عدم الانحياز ...، مصدر سبق ذكره ، ص ص٢٠- ٢١

وان هذا الاقتراح اذا ما أخذ به فانه كفيل «... بحل جانب مهم واساسي من هذه الحالة الجائرة في العلاقات الاقتصادية التي تربط اقتصاديات الدول النامية بأقتصاديات الدول الصناعية المتقدمة ، وتشكل ركنا اساسيا في تحقيق النظام الاقتصادي الدولي الجديد (١)

وبخصوص العلاقات النفطية يطالب العراق ببحث مسألة الطاقة على اساس ايجاد معادلة متوازنة مابين حاجة الدول المنتجة للنفط لكميات الحقيقية المصدرة منه وبين حاجة الدول الصناعية والعالم له . ان الوصول الى حل لمسألة الطاقة وتنظيمها بصورة شاملة وعادلة يحقق شرطا مهما في تأسيس علاقات دولية مستقرة . وفي هذا الخصوص يدعو السيد الرئيس صدام حسين الدول الصناعية الى عدم الحاق الضرر بالدول النامية . والى «... تنظيم استهلاكها وتنويع مصادر الطاقة لتلبية احتياجاتها محسوبة على اساس نظرة شمولية لحاجة الانسانية وليس على اساس تمتع الدول الصناعية بما ترغب به بغض النظر عن حاجة العالم الى الطاقة وما يلحق به من اضرار من الاستهلاك غير المنظم» (٢)

ولكي تكون لسياسة عدم الانحياز فاعلية واقعية ومؤثرة في العلاقات الدولية يدعو العراق دول العالم الثالث الى عدم الاعتماد على الدول الكبرى في الحصول على الاعانات والمساعدات المالية ، الامر الذي يجعلها تابعة لها وسائرة في فلكها . وقد ادرك العراق اهمية هذا الجانب . فقدم السيد الرئيس صدام حسين مشروعا في مؤتمر هافانا لتقديم تسهيلات مالية لدول العالم الثالث التي ارتبطت مع العراق بعقود نفطية ، فضلا عن تقديم قروض طويلة الأجل وبدون فائدة (٣) .

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص٢١

(٢) نفس المصدر السابق ، ص٢٤ .

(٣) انظر : خطاب السيد الرئيس صدام حسين في مؤتمر القمة السادس لحركة عدم الانحياز ، هافانا ٣-٧ أيلول ١٩٧٩ .

الخاتمة

اذا كان العراق يحتل موقعا بارزا في منطقة من اشد المناطق حساسية والتهابا في عالمنا الان ، فان تجربة السيد الرئيس القائد صدام حسين تحتل لا في اطار هذه المنطقة فحسب ، بل في اطار العالم الثالث كله ، موقعا متميزا في اتجاهاتها السياسية الداخلية والخارجية وتوجهاتها الايديولوجية التي تدافع دفاعا لا هوادة فيه عن حرية واستقلالية وقومية القرار العربي بعيدا عن استراتيجيات الدول الكبرى وهيمنتها على عالمنا المعاصر من خلال انتهاج سياسة عدم الانحياز وفي هذه المرحلة السياسية من تاريخ العالم والعالم العربي بوجه خاص التي تختلط فيها الاوراق وتتداخل الخنادق يبدو الوضوح الفكري والسياسي اهم من اي وقت مضى . لان اختلاف الواقع العربي جعل من المرتكزات السياسية للسيد الرئيس القائد تختلف عن المرتكزات السياسية في الوطن العربي سواء كانت سياسات ليبرالية او ماركسية .

وان استقراء آراء الرئيس في هذا المجال نجدها تمثل في :

١ — انطبقت المرتكزات بسمات المرتكزات السياسية لحزب البعث العربي الاشتراكي .

٢ — اكد على استيعاب قوانين الواقع العربي باتجاه خلق الطليعة (الصورة المصغرة للامة) القادرة على ولادة الامة من جديد ، بسمة انسانية .

٣ — توحيد الامة العربية في كيان سياسي واحد

٤ — تغيير الواقع العربي نهجا ثوريا انقلابيا

٥ — اعادة بناء الشخصية العربية من جميع الجوانب لتساهم في الحفاظ على هويتها .

٦ — النظرة المستقبلية التي لاتقف عند حدود الحاضر العربي دائما تتطلع الى مستقبل عربي افضل .

٧ — الاهتمام بالعلم لان عليه التعويل في ربط مسار الامة العربية بالعصر وتيار التقدم الحضاري وصولا الى بناء مجتمع عربي اشتراكي موحد .

وعندما نتناول سياسة عدم الانحياز فاننا دائما نذكر السيد الرئيس القائد صدام حسين لانه هو قائد التجربة الثورية الان في القطر العراقي الذي اعطاها ابعادا خاصة في سياسة العراق الخارجية .

المصادر

١ ــ حسين ، صدام ، الاعلان القومي : استجابة لدواعي المسؤولية القومية ، بغداد ١٩٨٠ .

٢ ــ حسين ، صدام ، حركة عدم الانحياز : هكذا نفهمها ، بغداد ١٩٨٠

٣ ــ حسين ، صدام ، خطاب السيد الرئيس صدام حسين في مؤتمر القمة السادس لحركة عدم الانحياز ، هافانا ٣ ــ ٧ ايلول ١٩٧٩ ، بغداد ١٩٧٩ .

٤ ــ حسين ، صدام ، معركة الاستقلالية والسياسة الدولية ، بغداد ١٩٧٨ .

٥ ــ حزب البعث العربي الاشتراكي ــ القطر العراقي . التقرير السياسي الصادر من المؤتمر القطري الثامن ، كانون الثاني ١٩٧٤ بغداد (١٩٧٤) .

٦ ــ دار الطليعة (الناشر) ، نضال البعث ، الجزء الرابع ، بيروت ١٩٧٦ .

٧ ــ دروزيل ، ج . ب التاريخ الدبلوماسي : تاريخ العالم من الحرب العالمية الثانية الى اليوم (ترجمة نور الدين خاطوم) بيروت ١٩٦٦ .

٨ ــ عبدالفتاح ، فكرت نامق . سياسة العراق الخارجية في المنطقة العربية ١٩٥٣ ــ ١٩٥٨ بغداد ١٩٨١

٩ ــ عفلق ، ميشيل ، في سبيل البعث . بغداد ١٩٨٢ .

١٠ ــ فرح ، الياس ، البعث وفلسفة عدم الانحياز ، بغداد ١٩٨٣

١١ ــ مقلد ، اسماعيل صبري ، العلاقات السياسية الدولية . الكويت ١٩٧٩ .



حجية التلكس والرسائل المرسلة عن طريق البريد الالكتروني في الاثبات

عباس زبون العبودي
كلية القانون والسياسة / جامعة الموصل

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

شهد العالم في تقدمه الحضاري انعطافات حادة ، كانت احداها اختراع الكتابة قبل آلاف السنين . وقد كان لسكان العراق القديم ، فضل السبق في الاستعانة بها منذ تاريخ موغل في القدم ، فكانت الكتابة تعتبر في القانونين البابلي والاشوري في مقدمة الأدلة القانونية ، فالوثائق المثبتة للمعاملات اليومية والتي كان يحررها الأفراد فيما بينهم من بيع وشراء ورهن وزواج ، كان لها المرتبة الاولى في الاثبات عند التقاضي ، فابراز المدعى وثيقة محررة ، يعني اقامة قرينة في مصلحته ، بحيث يمتنع التصدي لاثبات عكسها (١) .

(١) الدكتور صبيح مسكوني –تاريخ القانون في العراق القديم ، الطبعة الاولى بغداد، ١٩٧١ ص١٥٦ .

ولقد أمر القرآن الكريم بالكتابة في آية الدين بقوله تعالى : «ياايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه » (١) . وكذلك حرصت التشريعات المختلفة في العصر الحديث على تنظيم قوة الكتابة ، فاعتبرت ان الأصل في الاثبات في المواد المدنية أن يكون بالكتابة ، الا ما استثنى باعتبارات قدرها المشرع (٢) . وكذلك لانجد بين ؛ الفقهاء واحكام القضاء خلافا على ان الكتابة تأتي في المرتبة الأولى بين طرق الاثبات ، لما تمتاز به من اهمية لكونها دليلا يمكن اعداده مقدما وقت نشوء التصرف القانوني ، فتعتبر مستندا عليه ، وحجة ملزمة يتقيد بها القاضي . وبذلك تسهم في تحقيق الاستقرار اللازم للتصرفات القانونية .

والكتابة كما نظمها القانون لم تتخذ سوى الشكل الكتابي ، كالسند الرسمي والسند العادي ، وسائر السندات الأخرى المعتمدة في الاثبات كالرسائل والبرقيات والدفاتر التجارية والأوراق الخاصة والتأشير على السندات في يد المدين ؛ ألا ان تقدم الوسائل العلمية الحديثة في الاثبات المدني كشف عن طرق أخرى لاعداد الادلة كتسجيل الصوت على شريط التسجيل والتصوير الشمسي والالكتروني . وأحدث هذه الأدلة في الوقت الحاضر هو التلكس Telex والرسالة المرسلة عن طريق البريد الالكتروني (الفاكسيمل) وجهاز نظام الكومبيوتر ، الذي سيحل محل سندات الشحن التقليدية في ابرام عقد النقل البحري (٣) .

---

(١) سورة البقرة– الآية رقم ٢٨٢ .

(٢) حالة وجود مبدأ ثبوت بالكتابة ، حالة الموانع المادية والادبية ، واخيراً اذا وجد اتفاق على الاثبات بالشهادة . راجع المادتين ٧٧–٧٨ من قانون الاثبات العراقي .

(٣) بدأ تطبيق هذا النظام بالفعل منذ سنة ١٩٧١ ، ويرجع سبب ظهوره الى تطور التجارة الحديثة في الخطوط الملاحية المنتظمة .لا ن نظام سندات الشحن التقليدية أصبح لا يتفق مع هذا التطور الذي سوف يستبدل المستندات الورقية ببيانات غير ورقية يثبتها الحاسب الالكتروني حيث يقدم الشاحن بضاعته الى الناقل في ميناء الشحن . وتثبت هذه البيانات في الكومبيوتر الخاص بالناقل وتنقل الى الكومبيوتر المقابل في ميناء الوصول ،حيث تبلغ البيانات الى المرسل اليه أو البنك الذي يتعامل معه عن طريق مماثل أو بطاقة بريدية ويتم بموجبها استلام الرسالة للمزيد من التفصيل–راجع
Kurt Gronfors, Transport Documents and Computerization
اشار الى ذلك الدكتور صلاح محمد المقدم–تنازع القوانين في سندات الشحن ومشارطات ايجار السفينة ، طبع بيروت ، ١٩٨١ ص٣٤ .

وعلى الرغم من أن هذه الاختراعات الحديثة ، اعترف لقسم منها في تشريعات الدول المتقدمة بقيمة تامة في الاثبات ، فأن التشريعات العربية لم تذكر شيئا عن كيفية اثبات التعاقد بالتلكس أو البريد الالكتروني ، رغم صدور قوانين حديثة لبعض هذه الدول في الاثبات ، كقانون الاثبات المصري رقم ٢٥ لسنة ١٩٦٨ ، وقانون الاثبات العراقي رقم ١٠٧ لسنة ١٩٧٩ ، وقانون الاثبات الكويتي رقم ٣٩ لسنة ١٩٨٠ ،وقانون الاثبات السوداني لسنة ١٩٨٣ .

وقد أجاز المشرع في قانون الاثبات العراقي في المادة (١٠٤) القاضي أن يستفيد من وسائل التقدم العلمي في استنباط القرائن القضائية . واذا كان هذا النص يبدو جيدا قياسا على التشريعات العربية التي لم يرد بها اي نص يسمح فيه القانون بالاستفادة من وسائل التقدم العلمي فانه يبدو في تصورنا غير ذلك ، لأنه كان بأمكان المشرع العراقي أن يأخذ من هذه الرسائل موقفا واضحا ، ويتدخل بتحديد حجيتها في الاثبات ، ولكنه ترك الامر قضاء واعتبر هذه الامور مجرد قرائن قضائية ، والقاعدة في الاثبات بالقرائن القضائية مقيد إلا فيما يجوز إثباته بالشهادة . ويقول الدكتور سعدون العامري بهذا الصدد (١) : «إن ماورد في نص المادة (١٠٤) مجرد توجيه جاء على استحياء في الأخذ بما تحقق بالتقدم العلمي ، وكان يجب أن يكون من الاسس التي يقوم عليها القانون (٢).

من هنا تبدو أهمية وصعوبة هذا البحث ، فاهميته تتمثل بتناوله أموراً جديدة تقتضي المصلحة العلمية دراستها . أما صعوبته فترجع الى نقص المراجع العلمية العربية ، مما يترتب تكملة النقص بمجهود ذهني مضاعف .

وستقتصر دراستنا على حجية التلكس والرسائل المرسلة عن طريق البريد الالكتروني ، لاتساع نطاق استعمالهما في معاملات الاشخاص الطبيعية والمعنوية ، مما يستلزم وجودهما

---

(١) الدكتور سعدون العامري ، طاولة مستديرة حول قانون الا ثبات-مجلة العدالة ، العدد الثاني السنة السادسة ١٩٨٠ ص٣٧٣.

(٢) وتجدر الا شارة ان قانون النقل المرقم (٨٠) لسنة ١٩٨٣ ، ساير التطورات الكبيرة الحاصلة في مجال التقدم العلمي للنقل البحري ، فأجاز في المادة (٤٢) رابعاً ، ان يكون التوقيع بخط اليد أو أية طريقة مقبولة كأن تكون مثلا عن طريق الجهاز الا لكتروني ، مخالفاً لقانون الا ثبات العراقي الذي يشترط ان يكون التوقيع بخط اليد أو ببصمة الابهام. للمزيد من التفصيل : راجع الدكتور مجيد حميد العنبكي ، قانون النقل ، المبادىء والا حكام بغداد-مركز البحوث القانونية ١٨٤ ص٣٥ .

تنظيماً قانونيا في تشريعاتنا العربية ، لكي تساير بذلك ركب التطور الهائل الذي ستصل اليه تكنولوجيا وسائل الاتصال ونقل المعلومات في المستقبل .

وسنتناول دراسة هذا البحث في فصلين .

الفصل الأول : حجية التلكس في الاثبات .

المبحث الأول : قوة التلكس في الاثبات

المبحث الثاني : المشكلات القانونية التي يثيرها الأثبات بالتلكس

الفصل الثاني : حجية الرسائل المرسلة عن طريق البريد الالكتروني في الاثبات

المبحث الأول : قوة الرسائل الالكترونية في الاثبات

المبحث الثاني : المشكلات القانونية التي تثيرها الرسائل الالكترونية في الاثبات .



الفصل الأول

حجية التلكس في الأثبـات

التلكس هو احدى وسائل الاتصالات الالكترونية الحديثة، التي تحتل موقعاً مهماً في ظل التطور العلمي الحديث لنظام الاتصالات. ورغم ان خدمة التلكس في قطرنا حديثة نسبيا، الا أن هذه الخدمة اخذت تتطور تطور سريعاً ، مما شجع كثيرا على التوسع بهذه الخدمة وإيلائها المزيد من الاهتمام والرعاية .

وقد اتسع نطاق استعمال التلكس في معاملات الأشخاص وخاصة التجارية منها باعتباره وسيلة للأثبات ،يتم بواسطتها ابرام كثير من العقود، وأصبح استخدامه مألوفاً من قبل التجار في الوقت الحاضر ،كاستخدامهم للهاتف.(١)، ذلك ان طبيعة التعامل التجاري تتطلب السرعة في انجاز المعاملات خصوصا عندما لايتسنى للاطراف المتعاقدة الاجتماع في مجلس عقد واحد، فيستطيع المتعاقدان ان يحددا التزامهما بدقة عن طريق التلكس الذي لايستغرق سوى لحظات معينة.

والتلكـس ، هو عبارة عن جهاز برقية متصلة بدالة يستطيع المشترك بواسطتها الأتصال مباشرة مع أي مشترك آخر يمتلك نفس الجهاز ،وارسال الرسائل واستلامها،

---

(١) تجدر الاشاره الى ان اثبات المتعاقد بالهاتف ، هو بمثابة تعاقد شفوي يسري مفعوله على مالا يجب في اثباته الكتابة ، بل هو في الحقيقة أقل شأناً من التعاقد الشفوي ، لذلك يندر أن يجري التعاقد بالهاتف في المسائل المدنية ، بل أنه لم تعد له أهمية حتى بالنسبة للأمور التجارية خاصة وأن المشرع العراقي أوجب الاثبات بالدليل الكتابي اذا كانت قيمة التصرف القانوني تزيد على خمسين ديناراً (المادة ٧٧ اثبات) سواء كان هذا التصرف مدنياً أو تجارياً .

لذلك اتسع استخدام التلكس في المعاملات التجارية بين مختلف انحاء العالم لكونه يترك اثراً مادياً مكتوباً ، تكون له قوة معينة في الاثبات ، وقد الزم المشرع العراقي في المادة (١٧) من قانون التجارة الجديد رقم (٣٠) لسنة ١٩٨٤ ، التاجر أو ورثته الاحتفاظ بأصول الرسائل والبرقيات والتلكس مدة سبع سنوات تبدأ من تاريخ اصدارها أو ورودها. للمزيد من التفصيل في اثبات التعاقد بالهاتف ـ راجع الاستاذ المرحوم أحمد نشأت ـ رسالة الاثبات ، الجزء الأول ، الطبعة السابعة ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص٣٥١ .

سواء كان داخل القطر ام خارجه، وذلك بتزويل الرقم المخصص للمشترك المطلوب، فتظهر المعلومات مكتوبة بسرعة عالية خلال ثوان في كلا الجهازين. (١)

ويمتاز مشترك التلكس ،بأنه يستلم المعلومات مطبوعة تلقائيا بواسطة جهازه، وفي أي وقت كان أي أن الأتصال لايتم كلاميا بل تحريريا وعلى ورق خاص ، حيث يمكن طلب أي مشترك بواسطة زر طلب النداء الموجود في الجهاز ،كما يمكن الغاء أي نداء بواسطة زر الألغاء . كذلك يستطيع المشترك في حالة حدوث خطأ في الطبع على الورق، من اعادة المعلومات ،بواسطة شريط اضافي يكون الطبع فيه بشكل تخريم ، اذ يعتبر هذا الشريط بمثابة مخزن للمعلومات التي يمكن ارسالها والرجوع اليها في أي وقت.

ولما كان الغرض من ارسال التلكس هو محاولة احداث اثار قانونية لفائدة المتعاقدين فقد يثير وصول التلكس مشكلات قانونية من حيث مدى اثبات وصوله، ومن حيث مدى قوته في الأثبات وعليه سنتناول بحث هذا الفصل في مبحثين :

المبحث الأول: قوة التلكس في الاثبات .

المبحث الثاني: المشكلات القانونية التي يثيرها الاثبات بالتلكس .

---

(١) التلكس ، كلمة مشتقة من كلمتين (تلبرنتر)Teleprinter ، وتعني الآلة الطابعة المبرقة و (Exchanger) وتعني البدالة البرقية راجع المادة الثانية من نظام التلكس رقم ٤٠ لسنة ١٩٧٥ لا ردني والمادة الاولى من مرسوم رقم ١٠٠٨٧ لسنة ١٩٦٢ اللبناني المتعلق بالتلكس . والمادة الأولى من نظام خدمة التلكس السوري ٩٠٧ لسنة ١٩٧٤ .

المبحث الأول
قوة التلكس في الاثبات

ان الاثبات بالتلكس، نظام جديد يختلف عن الأدلة التقليدية الحالية في الأثبات، فهذا النظام الجديد يهدف الى استبدال البيانات الموجودة في الرسائل والبرقيات الورقية التقليدية بأخرى تلقائية غير ورقية، تستلم فيها هذه البيانات وتصل الى الطرفين المتعاقدين بطريقة الكترونية مكتوبة، وخلال ثوان، مهما بعدت المسافة الزمنية بينهما.

ولم تتطرق كثير من التشريعات الى هذا النظام الجديد، رغم سرعة اتساع نطاق استعماله في المعاملات، لذلك يثار التساؤل حول بيان قوة التلكس في الاثبات فهل يمكن ان نعتبره دليلا في قانون الاثبات العراقي رغم خلو القانون من نص عليه، اذ ان المشرع العراقي أخذ بمبدأ تقييد حرية القاضي في الأثبات بالنسبة لتحديد طرق الاثبات، فوردت هذه الطرق محددة في القانون، ولايجوز للقاضي أن يأخذ بأدلة أخرى لم ينص عليها القانون(١) وهذا قصور في التشريع كان الاجدر بالمشرع تلافيه.

والواقع ان الاثبات بالتلكس لايدخل ضمن الأدلة التقليدية المكتوبة والتي يقصد بها كل كتابة يمكن أن يستند عليها أحد الطرفين، في اثبات حقه أو نفيه ويعول عليها في الأثبات باعتبارها دليلا كاملا. وتنقسم هذه الأدلة في غالبية التشريعات الى نوعين هما السندات الرسمية والسندات العادية (٢). فالتلكس لايمكن أن نعتبره سندا رسميا لان هذا الاخير يثبت فيه موظف عام او شخص مكلف بخدمة عامة، مايتم على يديه وما ادلى به ذوو الشأن، طبقاً للاوضاع القانونية وفي حدود اختصاصه (٣) وكذلك لايمكن أن نعتبر التلكس سندا عاديا لان هذا الأخير لكي يكون دليلا كاملا في الاثبات، يستلزم أن يتضمن

---

(١) جاء في الاسباب الموجبة لقانون الاثبات العراقي رقم ١٠٧ لسنة ١٩٧٩، ان المشرع في صدد طرق الاثبات تخير الاتجاه الوسط بين الاثبات المقيد والاثبات المطلق، فعمد إلى تحديد طرق الاثبات ولكنه جعل للقاضي دورا ايجابيا في تقدير الأدلة.

(٢) للمزيد من التفصيل في الدليل الكتابي، راجع رسالتنا الموسومة بـ «اهمية السندات العادية في الاثبات القضائي» – رسالة ماجستير / جامعة بغداد ١٩٨٤ ص ٤ وما بعدها. وما بعدها.

(٣) الفقرة الأولى من المادة (٢١) من قانون الاثبات.

شرطين هما الكتابة والتوقيع عليه من قبل الشخص المنسوب اليه السند (١) أما التلكس فينعدم فيه التوقيع والذي يعتبر شرطا اساسياً في كيان السند العادي ، اذ ان هذا السند لايمكن اعتماده في الاثبات مالم يوقع عليه ممن نسب اليه .

وكذلك لايمكن ان نعتبر التلكس من قبيل الرسائل العادية، لان الرسائل لكي تكون لها حجية السندات العادية ،يقتضي ان تخضع لكل ماتخضع له حجية السندات العادية من شروط ،بل ولا يمكن ان نطبق على التلكس الاحكام المطبقة على البرقية، لان هذه الاخيرة لكي يكون لها قوة السند العادي في الاثبات يجب أن يكون أصلها المودع في مكتب الأصدار موقعاً عليه من المرسل وان لايكون هذا الأصل قد اتلف من قبل دائرة البريد (٢). وهذا مالا نجده في التلكس .

وأمام هذه الصعوبات في بيان قوة التلكس في الاثبات ذهب بعض الفقهاء (٣) الى القول : «أن على الفقه ان يتريث ويرقب نوعية المشاكل القانونية التي تنجم عن قبل هذه الانظمة الجديدة التي اوجدها التطور الحديث في الاتصالات» وخاصة نظام الكومبيوتر (Computerized – Methods) فهو يرى أنه من السابق لأوانه الخوض في مثل هذه المشكلات في الوقت الحاضر ، اذ يتعين التريث حتى يأخذ هذا النظام قسطا وافيا من التطبيق العملي ، وحتى يمكن التصدي للمشكلات القانونية التي قد تنجم عن تطبيقه .

وقد سبق ان بينا ان المشرع العراقي أجاز للقاضي في المادة(١٠٤)من قانون الاثبات ان يستفيد من وسائل التقدم العلمي في استنباط القرائن القضائية ،وبموجب هذه المادة ،يستطيع القاضي أن يعتمد على التلكس دليلا في الاثبات، ولكن دور القاضي في هذه المادة مقيد، لان القاعدة تقضي بأن الأثبات بالقرائن القضائية مقيد، بما يجوز اثباته بالشهادة، اذ ان المشرع العراقي اشترط وجوب الدليل الكتابي متى زادت قيمة التصرف القانوني على خمسين دينارا(٤).

---

(١) اقتصرت غالبية القوانين العربية في نصوصها ، على شرط التوقيع فحسب لاجل انشاء السند العادي وصحته، ولم تتضمن نصوصها على شرط الكتابة ، لان اشتراطها في السند أمر بدهي ، اذ بدون الكتابة لايوجد السند . راجع المادة (٢٥) أولا من قانون الاثبات العراقي والمادة (١٤) من قانون الاثبات المصري رقم (٢٥) لسنة ١٩٦٨ ، والمادة (١٣) من قانون الاثبات الكويتي رقم ٣٩ لسنة ١٩٨٠ .

(٢) المادة (٢٧) من قانون الاثبات .

(٣) الدكتور صلاح محمد المقدم – المرجع السابق – ص ٣٤وص ٢٠٦ .

(٤) راجع المادة (٧٧) من قانون الاثبات .

ونعتقد ان الوقت قد حان لكي يتدخل المشرع في بيان قوة التلكس في الاثبات لاسيما وأن استخدامه اصبح مألوفاً في المعاملات اليومية فهو يقدم ضمن مستندات الدعوى في المحاكم الادارية في العراق . وخاصة اذا كان النزاع يتعلق بصدد مسؤولية الناقل البحري، غير أن الملاحظ ان المحاكم العراقية ،لاتذكر في قراراتها انها استندت على التلكس دليلا من أدلة الأثبات . لذلك نرى بأن التلكس يمكن أن نعتبره سندا عاديا من نوع خاص رغم عدم توفر شروط السند العادي فيه، ذلك ان شرط الكتابة يمكن تذليله بفهم واسع للفظ الكتابة في ظل التطور العلمي الحديث بحيث يشمل هذا اللفظ التلكس لان هذا الاخير يترك اثرا مكتوباً (١). اما بالنسبة لشرط التوقيع فان هناك سندات عادية قد تكون لها قيمة بدون توقيع ، من ذلك ماجاءت به المادة (٣٣) من قانون الاثبات في حالة التأشير على سند في المدين، فالقانون في هذه الحالة ،قد جعل من سند صادر من شخص معين دليلا كاملا على هذا الشخص مع ان السند غير موقع منه (٢).

واذا كان عذر المشرع أن مصلحة العدالة تقتضي في الوقت الحاضر عدم الأخذ بالتلكس والتريث في تنظيمه باعتباره نظاما حديثا، فان المصلحة في تصورنا تقتضي باعتبار التلكس في قطرنا، مبدأ الثبوت بالكتابة (٣) يعزز بأدلة اخرى، كالشهادة والقرائن ،سيما وان هناك من الضمانات التي تجعل من وجود التلكس أمرا حتميا ، لايستطيع الخصم أن ينكر وجوده وذلك لوجود جهاز مراقبة مونتر (Monitor) في المؤسسة العامة للبريد ، يسجل

(١) وتجدر الاشارة أن هذا الفهوم الواسع للكتابة ، أخذت به شروط الكوميكون لسنة ١٩٥٨ ولسنة ١٩٦٨ . اشار إلى ذلك — الدكتور حمزة حداد — قانون التجارة الدولي ، طبع الجامعة الاردنية ١٩٨٠ ، ص ١٠٢ . وقد اخذ به قانون الاثبات السوداني الجديد لسنة ١٩٨٣ في الفقرة الأولى من المادة (٣٧) فعرف المستند بانه البيانات المسجلة بطريقة الكتابة او الصورة أو الصوت . فالمستند اصبح لايعني فقط الكتابة وانما الافلام والاشرطة المسجلة والاسطوانات .. المزيد من التفصيل راجع الدكتور البخاري عبدالله الجعلي — قانون الاثبات — ط ١ ، الخرطوم — ١٩٨٤ ص ٢٥٨ .

(٢) راجع رسالتنا في السندات العادية — المرجع السابق — ص ٢٤٧ ، لمعرفة المزيد من التفصيل في التأشير على السندات المثبتة للدين .

(٣) مبدأ الثبوت بالكتابة ، هو كل كتابة تصدر من الخصم ويكون من شأنها أن تجعل وجود الحق المدعى به قريب الاحتمال (مادة ٧٨) اثبات عراقي كما في رسالة مكتوبة بخط المدعى عليه ، ولكنها غير موقعة من قبله .

كل النداءات التي يرسلها ويستلمها الطرفان المتعاقدان عن طريق جهاز الكومبيوتر ، ففي بداية كل نداء ونهايته يتم تبادل العناوين ، وفي حالة اختلاف الطرفين يعطي تسلسل النداء للبدالة المونتر ، والتي بدورها تعطي النداء كاملا اذ تقوم المؤسسة العامة للبريد باصدار دليل سنوي للمشتركين لديها ، يتضمن عناوينهم المختصرة وارقامهم كما هو الحال في الهاتف ، ويلزم المشترك بشرائه وفقا للاسعار المحددة من قبل المؤسسة (١) .

المبحث الثاني

المشكلات القانونية التي يثيرها الاثبات بالتلكس

ان اعطاء الكتابة المرسلة عن طريق التلكس ، قوة معينة في الاثبات قد يثير بعض المشكلات القانونية ، تقتضي اعادة النظر في القواعد العامة التي تحدد مسألة زمان انعقاد العقد في المراسلة أو مايسمى بالتعاقد بين غائبين وكذلك اعادة النظر في بعض قواعد الاسناد التقليدية التي تعين القانون الواجب التطبيق في حالة تنازع القوانين في شأن أدلة الأثبات . وسنتناول بحث هذه المشكلات حسب التفصيل الاتي : —

اولا : زمان انعقاد العقد في المراسلة (التعاقد بين غائبين)

مما لاشك فيه ان تحديد الوقت الذي يعتبر فيه العقد منعقدا ، مسألة مهمة في التعاقد الذي يحصل بين غائبين ، اذ يترتب على حل هذه المسألة العديد من الفوائد العملية (٢) ، خاصة وان عددا متزايدا من المعاملات يتم عن طريق هذا النوع من التعاقد ، أي بين

(١) راجع المادة (١٥) من نظام خدمة التلكس السوري رقم ٩٠٧ لسنة ١٩٧٤ والمادة (١٧) من مرسوم رقم ١٠٠٨٧ لسنة ١٩٦٢ المتعلق بانشاء خدمة التلكس اللبناني .
ولاتوجد مدة معينة لحفظ النداءات التي تسجل في المؤسسة العامة عن طريق جهاز المونتر ، ونعتقد انه بالامكان تحديدها بمدة ستة اشهر ، فاذا مضت هذه المدة فان الخصم بعد ذلك لايستطيع الاحتجاج بالتلكس وذلك قياسا على مدة حفظ البرقية . راجع التعليمات المرقمة اتلاف ٢٤٧٤ في ١٩٧٦/٧/٣ والصادرة وفقا لقانون البريد لسنة ١٩٧٥ العراقي .

(٢) من هذه الفوائد على سبيل المثال معرفة الوقت الذي يجوز للموجب أن يعدل عن ايجابه اذا كان الايجاب غير ملزم وكذلك الوقت الذي يجوز فيه للقابل أن يعدل عن قبوله .
للمزيد من التفصيل راجع : العلامة الدكتور احمد السنهوري — الوسيط في شرح القانون المدني ، ج ١ طبع القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٢٥٨ .

شخصين لايوجدان في مجلس واحد ، وانما تمضي فترة من الزمن بين صدور القبول وعلم الموجب به .

ويثور التساؤل عن اللحظة التي ينعقد بها العقد ، هل هي اللحظة التي أصدر فيها القابل قبوله ؟ أم لحظة ارساله بالبريد ؟ أو وصوله الى الموجب واستلام الاخر له ؟ أم الوقت الذي يعلم الموجب فيه بالقبول علما حقيقيا ؟

وهناك اربع نظريات تتنازع تحديد زمان انعقاد العقد وهي :

١ – نظرية الاعلان ، وبمقتضاها يتم العقد بمجرد اعلان القبول وقبل ان يصل الى علم الموجب . ففي هذا الوقت يكون الايجاب قد اقترن بالقبول وهو كل ما يشترط لانعقاد العقد .

٢ – نظرية التصدير ، وبموجبها يتم العقد لا بمجرد اعلان القبول ، بل بعد تصديره ، أي وضعه في صندوق البريد .

٣ – نظرية الوصول ، تقتضي هذه النظرية أن العقد ينعقد بمجرد أن يصل القبول الى الموجب بغض النظر عن علمه بالقبول .

٤ – نظرية العلم ، وبمقتضى هذه النظرية فان العقد لا ينعقد الا اذا وصل القبول الى علم الموجب .

وقد أخذت غالبية التشريعات (١) بنظرية علم الموجب بالقبول فاعتبرت التعاقد قد تم في المكان والزمان اللذين يعلم فيهما الموجب بالقبول .

واذا كان هذا الحل يتناسب مع الوسائل التقليدية في الاتصالات ، كالرسائل والبرقيات ، اوعن طريق رسول ، فان هذا الحل لا يتناسب مع التلكس الذي يعتبر من احدث الاتصالات الحديثة التي يتم بها معظم تبادل الايجاب والقبول والتي تترك أثرا مكتوبا ، فينعقد العقد في حالة تبادل الرسائل عن طريق التلكس في اللحظة والمكان الذي يصل فيه الموجب قبول من وجه اليه الايجاب ، وحيث ان الموجب يعلم بهذا القبول حين يقرأ الرد على الة التلكس التي يستخدمها فان العقد يعتبر انه انعقد في المكان الذي توجد فيه هذه الآلة وفي اللحظة التي وصل فيها الرد (٢) .

---

(١) راجع المادة (٨٧) من القانون المدني العراقي ، المادة (٩٧) من القانون المدني المصري لسنة ١٩٤٩ ، وللمزيد من التفصيل راجع المرحوم السنهوري ، المرجع السابق – ص٢٦٠

(٢) د. برهام محمد عطا الله – اساسيات نظرية الالتزام – طبع الاسكندرية – ١٩٨٢ص٥

وعليه لابد للمشرع العراقي أن يأخذ بنظر الاعتبار في مشروع قانونه المدني الجديد بتعديل المادة (٨٧) ، بحيث يكون النص كما يأتي :

«يعتبر التعاقد عن طريق التلكس أو بأية وسيلة الكترونية مشابهة ، في المكان الذي توجد فيه هذه الآلة وفي اللحظة التي وصل فيها الرد ، ويفترض أن الموجب قد علم بالقبول في اللحظة التي وصل فيها الرد .

ثانياً : تنازع القوانين في مسألة تعيين القانون الواجب التطبيق بالنسبة للاثبات بالتلكس

القاعدة التي أخذ بها المشرع العراقي في شأن أدلة الاثبات التقليدية ، أن قانون الدولة التي تم فيها التصرف القانوني ، هو القانون الواجب التطبيق ، ومع ذلك يجوز للمحكمة أن تطبق القانون العراقي اذا كان دليل الاثبات فيه أيسر من الدليل الذي يشترطه القانون الأجنبي (١) .

ان اعطاء حجية معينة للتلكس في الاثبات ، يقتضي اعادة النظر في قواعد الاسناد التي تعين القانون الواجب التطبيق ذلك ان قانون الموجب الذي ارسل اشارة التلكس اولا هو الذي يجب أن يسري بين المتعاقدين لان العقد يعتبر منعقدا بصورة تلقائية في المكان الذي توجد فيه آلة التلكس ، كما لو ان المتعاقدين كانا في مجلس واحد . وهذا ما أخذت بـه احدى المحاكم الانكليزية في قضية :

(Entores, Ltd V Miles for East Corporation)

كانت المدعية شركة انجليزية ، مركزها الرئيس بلندن ، والشركة المدعى عليها أمريكية لها وكيل بأمستردام . وكان لكل من الشركة الانجليزية ووكيل الشركة الامريكية جهاز تلكس يستخدم في تبادل الرسائل بطريقة تشبه الكتابة على الآلة الطابعة

(١) راجع المادة (١٣) من قانون الاثبات العراقي ، واذا كان ماورد في صدر هذه المادة أمراً لاخلاف عليه فان ماجاء في عجزها قد اثار خلافا بين اساتذة القانون ، والظاهر ان مشرع قانون الاثبات اراد تأكيد المبدأ المعروف في القانون الدولي الخاص وهو تفضيل القانون الوطني على القانون الأجنبي عند الاختلاف راجع : الدكتور عباس الصراف طاولة مستديرة – حول قانون الاثبات – مجلة العدالة – المرجع السابق – ص ٣٣٧. وللمزيد من التفصيل راجع الدكتور محمد كامل فهمي – اصول القانون الدولي الخاص الاسكندرية ط ٢ – ١٩٨٣ – ص ٦٦١ .

(teleprinter machaine) اذ ان ما يسجل في الجهاز الكائن ببلد الارسال ، يسجل في نفس الوقت تقريبا في الجهاز الكائن بالبلد الآخر .

قامت الشركة المدعية عن طريق ذلك الجهاز ، بعرض ايجاب لشراء بضائع معينة من وكيل الشركة المدعى عليها ،وقبل الوكيل الايجاب

اقامت المدعية دعواها مطالبة باسترداد تعويض لاخلال الشركة المدعى عليها بالعقد ، وطلبت من المحكمة اعلان الشركة المدعى عليها للمثول امامها .

قررت المحكمة بأنه يجوز تكليف الشركة المدعى عليها بالحضور امام المحاكم الانجليزية على الرغم من انها شركة امريكية ليس لهافرع بانجلترا ، بشرط أن يثبت ان التعاقـــد بانجلترا .

دفعت الشركة المدعى عليها ، لدى محكمة الاستئناف ، بأن القبول قد تم بهولنـدا ، ومن ثم يكون محل العقد هناك ، ولكن محكمة الاستئناف رأت ان الطرفين يعتبران كما لو كانا في مجلس عقد واحد ، او كما لو كانا يتحادثان عن طريق الهاتف ، ومن ثـم لم يتم القبول الا بعد وصوله للشركة المدعية ، بانجلترا (١) وذكر اللورد (باركز) في حيثيات حكمه : «عندما يكون الطرفان في مجلس واحد او بينهما اتصال مباشر ، وان بعـــدت الشقة بينهما ، فليس ثمة ما يدعو للقول بأن ليس هناك حاجة لمثل هذه القاعدة العامة لان القول بغير ذلك ، لا يترك مجالا لتطبيق القاعدة العامة التي تقضي بوجوب وصول القابل الى الموجب » . ثم يضيف بأن : «اشارات جهاز التلكس ، رغم ان الارسال والقبـول لا يقعان في وقت واحد على وجه الضبط ، الا انه بالنسبة للاغراض والمقاصد التـــي يبتغيها كل من الطرفين ، يجعل كل منهما ، كما لو كانا على اتصال هاتفي ، ولـذلـك لا يوجد سبب يدعو لعدم تطبيق القاعدة العامة التي تقضي بألا يعتبر العقد تاما ، الا بعد اعلان القبول للموجب» .

وعلى هذا : حيث ان الايجاب قد صدر من المدعين بلندن ، وتم بها اخطارهـــم بالقبول ، يكون العقد قد تم والحال هذه بلندن ، ومن ثم تكون المحكمة مختصة .

---

(١) (1955) 2 Q.B. 327, 1955 2AllE R. 493

أشار إلى هذه القضية الاساتذة ج . س ثيشر . س. ه فيفون . م . ب فيرمستون في مؤلفهم احكام العقد في القانون الانكليزي ، ترجمة هنري رياض، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨١ ص١١٥ وكذلك راجع

Anson's law of Contract 24 ed, oxfrd, I,

الفصل الثاني

حجية الرسائل المرسلة عن طريق البريد الالكتروني في الاثبات

ان خدمة البريد الالكتروني ، تعتبر بحق طفرة في عالم الاتصالات والخدمة البريدية ؛ حيث ستمكن هذه الخدمة الافراد ودوائر الدولة التي تمتلك اجهزة نقل الوثائق «الفاكسيمال» من ارسال رسائلهم او مستنداتهم وتأمين ايصالها الى المرسل اليهم في اية دولة من العالم يوجد لديها مثل هذه الخدمة ، بسرعة قياسية لا تزيد عن (٣٠) ثانية (١) .

وجهاز البريد الالكتروني ، هو جهاز استنساخ بواسطة الهاتف يستخدم لنقل الرسائل والمستندات عن الهاتف بسرعة متناهية ، وعند استخدامه يتم الاتصال هاتفيا بالجهة المقابلة التي تملك نفس الجهاز لغرض تهيئته لاستلام الرسائل والمستندات . فتظهر هذه الوثائق مستنسخة طبقاً لاصلها ، حيث تأتي نغمة خاصة تشبه اشارة الجرس يقوم بارسالها الجهاز عند استعداده لاستلام الوثائق واخرى عند الانتهاء من استلامها .

وقد اخذ عدد المعاملات التي ترسل عن طريق البريد الالكتروني ، يتزايد من قبل الافراد ، نظرا لمعرفتهم بأن مراسلاتهم ستصل بأسرع وقت ، وتشمل هذه المعاملات نقل الرسائل وبطاقة التهنئة وصور الوثائق والمستندات مثل وصول التسليم وبيانات البيع والمخططات والرسوم والبيانات والهويات .

وهنا يثور التساؤل عن قوة هذه الرسائل المرسلة عن طريق البريد الالكتروني والمشكلات القانونية التي يمكن أن يثيرها الاثبات بهذه الرسائل ، وعليه سنعالج بحث هذه المسائل في مبحثين : —

---

(١) ظهر جهاز الفاكسيمل في بداية الثمانينات ، وهو من أحدث الاختراعات والتطورات في عالم المواصلات ، استخدم في قطرنا في سنة ١٩٨١ في دوائر المؤسسة العامة للبريد والبرق والهاتف وفي بعض الدوائر الرسمية ، وكان استخدامه محظورا من قبل الأفراد في معاملاتهم اليومية ، ثم أجيز استعماله في عام ١٩٨٤ لكافة الأفراد ودوائر الدولة والشركات. واصبح استخدام البريد الالكتروني الآن امراً اعتياديا في اغلب مكاتب دول العالم ، حيث ان هذه الخدمة توفر الوقت والجهد ، فبعد ان كان ارسال الرسائل والمستندات يستغرق وقتا طويلا ، اصبحت الآن تصل إلى المرسل اليهم خلال فترة قياسية وبدون حاجة لتحمل اعباء السفر .

المبحث الأول

قوة الرسائل الالكترونية في الاثبات

ان الرسالة التي يستلمها المرسل اليه عن طريق جهاز الفاكسميل من المرسل ، انما هي صورة حرفية مستنسخة عن اصل الرسالة الأصلية ، اذ تحفظ الأخيرة لدى دائرة البريد في ملف خاص بها ، فما هي حجية هذه الصورة في الاثبات ؟ هل يمكن أن نعتبرها في حكم صور السند الرسمي ، أم نطبق عليها احكام السند العادي التي تطبق على البرقية .

والجواب على ذلك أنه لا يمكن ان نطبق احكام صور السند الرسمي (١) ، على الرسالة الالكترونية . لان هذه الرسالة لم تصدر عن موظف مختص أو شخص مكلف بخدمة نظمها أو توثيقها طبقا للاجراءات القانونية .

ونظرا لوجود تشابه بين الرسالة الالكترونية والبرقية من حيث الاحكام في الاثبات فنعتقد بأن احكام السند العادي ، هي التي يجب ان تطبق على الرسالة الالكترونية ، اذا توافرت فيها الشروط التي استلزمها القانون في البرقية (٢) .

وعليه لكي تكون للرسالة الالكترونية ، حجية السند العادي في الاثبات يجب ان تتوافر فيها الشروط الآتية : —

١ — ان يكون اصل الرسالة الالكترونية المودع في مكتب اصدار البريد موقعا عليه من المرسل . ذلك ان الرسالة الالكترونية أصل وصورة ، فالاصل يكتبه المرسل عادة بخطه ويوقعه ويحتفظ به في ملف خاص في مكتب اصدار البريد (٣) ، أما الرسالة

(١) نصت المادة (٢٣) من قانون الاثبات على انه « اذا كان اصل السند الرسمي موجودا فان صورته الرسمية تكون لها حجية السند الرسمي الأصلي بالقدر الذي تكون فيه مطابقة الأصل وتعتبر الصورة مطابقة للأصل مالم ينازع في ذلك من يحتج عليه بها . وفي هذه الحالة يتعين مراجعة الصورة على الأصل » وانظر كذلك نص المادة (٢٤) في حالة عدم وجود اصل السند الرسمي فان لصورته الرسمية حجة معينة حسب التفصيل الوارد في هذه المادة.

(٢) نصت المادة (٢٧) من قانون الاثبات على انه « يكون للبرقيات حجية السندات العادية اذا كان اصلها المودع في مكتب الاصدار موقعا من مرسلها وتعتبر البرقية مطابقة لاصلها حتى يقوم الدليل على عكس ذلك » .

(٣) للمزيد من التفصيل في شروط البرقية ، راجع الاستاذ السنهوري — الوسيط ج٢ الاثبات ١٩٥٦ ص ٢٦٣ . .

الالكترونية التي يستعملها المرسل اليه فهي صورة مستنسخة عن طريق جهاز الفاكسيمل طبقا للرسالة الأصلية ، وهذه الصورة في ذاتها كصورة لسند عادي ليس لها قيمة في الاثبات وانما نفترض قيام قرينة قانونية بسيطة مؤداها ان الرسالة الالكترونية مطابقة للأصل الى ان يثبت العكس لأن موظف البريد لا مصلحة له في تغيير مضمون الأصل ، فاذا ادعى المرسل ان الرسالة الالكترونية غير مطابقة للأصل ، فعليه ان يطلب من دائرة البريد تقديم الأصل (١) فان تحقق التطابق كان للبرقية حجية السند العادي .

٢ — أن لا يكون أصل الرسالة الالكترونية قد أتلف من قبل دائرة البريد : اما اذا انعدم الأصل بعد القضاء الفترة المحددة لحفظه (٢) ، او لاي سبب كان كالسرعة او الحريق ، او فقدانه بسبب الانتقال من محل الى آخر : فقدت الرسالة الالكترونية قوتها في الاثبات ، فلا يعتد بالصورة الا لمجرد الاستئناس (٣) .

مما تقدم نقترح الفقرتين الثانية والثالثة من المادة (٢٧) من قانون الاثبات بما يأتي :

(ثانيا — يكون للبرقيات والرسائل الالكترونية ، حجية السندات العادية ايضا اذا كان اصلهما المودع في مكتب الاصدار موقعا عليه من المرسل ، وتعتبر البرقية او الرسالة الالكترونية مطابقة لاصلها حتى يقوم الدليل على عكس ذلك . ثالثا : اذا انعدم اصل البرقية او الرسالة الالكترونية فلا يعتد بهما الا لمجرد الاستئناس).

(١) يمسك كل مكتب سجل للبريد الالكتروني الصادر وسجل للبريد الوارد ويكون السجل مماثل لسجل « الواردة والصادرة » تسجل فيه التفاصيل الوافية عن الرسائل المتبادلة بموجب هذه الخدمة . وعلى المرسل تدوين عنوانه الكامل مع توقيعه على أصل الرسالة مع وجوب اعطاء العنوان الكامل والدقيق للمرسل اليه .

(٢) لم تحدد مدة معينة لاتلاف اصل الرسائل الالكترونية في دائرة البريد ، ونقترح بهذا الصدد تحديد مدة سنة للرسالة الالكترونية داخل القطر .

(٣) راجع الفقرة الثالثة من المادة (٢٧) من قانون الاثبات .

المبحث الثاني

المشكلات القانونية التي تثيرها الرسائل الالكترونية في الاثبات

البريد الالكتروني وسيلة حضارية مطبقة الآن في اغلب دول العالم، وان هذه الخدمة موجودة في الدول العربية ، الا انها لا تزال محلية ومحصورة ضمن الاراضي الاقليمية لكل بلد (١) ، كما ان هناك بعض المشكلات التي تواجه دول العالم بالنسبة لهذه الخدمة ، منها ان بعض الدول تكون الخدمة فيها مخصصة لجهات حكومية كوزارة المواصلات او ان بعضها تكون الخدمة فيها تابعة لعدد من الشركات (٢) .

ولا تثير الرسالة الالكترونية ،مشكلات قانونية من حيث اثبات وصولها ، اذ ان وصول الرسالة الى المرسل اليه يكون مضمونا ، حيث يقوم مكتب استلام دائرة البريد بوضع الرسالة في ظرف خاص مغلق وتوزع في نفس اليوم الذي تصل فيه ، ويتم تسليمها بتوقيع من المستلم على وصل التسليم الذي يحتوي على تاريخ التسليم واسم المرسل اليه ونوع الرسالة ، وفي حالة تعذر توزيع الرسالة فانها تعاد الى مكتب البريد المرسل اليه وتحفظ في اضبارة خاصة ويبلغ المرسل بتعذر توزيعها .

وتخضع الرسائل الالكترونية لاحكام السرية والتي نص عليها قانون البريد رقم ٩٧ لسنة ١٩٧٣ في كفالة سريتها في مرحلة الايراد والتوزيع (٣) .

من المشكلات القانونية التي يمكن ان يثيرها الاثبات بالرسائل الالكترونية هو تعيين القانون الواجب التطبيق بالنسبة للدول التي تشترك في هذه الخدمة ويمكن ان نطبق في حالة وجود مثل هذا التنازع ، الاحكام التي افترضنا تطبيقها في الاثبات بالتلكس ، وذلك باعتبار قانون الموجب الذي ارسل الرسالة الالكترونية هو القانون الواجب التطبيق .

---

(١) راجع على سبيل المثال المادة الاولى من مرسوم ١٩٧٨ اللبناني والذي يسمح لمشتركي الهاتف باستعمال اجهزة نقل الصور والمستندات مع نوع (فاكسمال) اوماشابه بواسطة الشبكة الهاتفية الآلية وضمن نطاق الاراضي اللبنانية .

(٢) من هذه المشكلات ، مشكلة الاتفاق على السعر الافضل وكذلك على كيفية التعامل اذ توجد صعوبة في التعامل بالنسبة للدول التي تكون الخدمة فيها تابعة لبعض الشركات .

(٣) راجع المادة (٣٠) من هذا القانون ، اذ تصل العقوبة إلى سبع سنوات في حالة افشاء الموظف سراً تضمنته الرسالة الالكترونية .

الخلاصة :

ان التقدم العلمي في علم الاتصالات الحديثة ، ادى الى ظهور وسائل جديدة في الاثبات ، تختلف عن وسائل الاثبات التقليدية الحالية ، ورغم صدور قوانين حديثة في بعض تشريعات الدول العربية ، فأنها لم تنظم احكام هذه الوسائل ، وقد أدى ظهور هذه الوسائل العلمية الى اتساع نطاق استعمالها بين الناس ، مما قد يترتب على ذلك في المستقبل الى انهاء استخدام الورق والكتابة واحلال هذه الوسائل الحديثة محلها .

ونأمل من المشرع العراقي أن يأخذ بالمقترحات التي توصلنا اليها عند قيامه بتعديل القوانين ، وهذه المقترحات هي ما يأتي : ــ

١ ــ نقترح على المشرع ضرورة ايجاد تنظيم قانوني للتلكس والرسائل الالكترونية في قانون الاثبات واعتبار التلكس سندا عاديا من نوع خاص او على الاقل اعتباره مبدأ ثبوت بالكتابة يعزز بادلة الاثبات الاخرى طالما ان هناك ضمانات اكيدة تعزز من اعطاء هذه القوة ، وكذلك تطبيق احكام البرقيات على الرسائل الالكترونية لوجود التشابه بينهما من حيث الشروط .

٢ ــ كذلك نقترح بأن يعتبر مشروع القانون المدني الجديد ، انعقاد العقد في التعاقد بين غائبين في المكان الذي توجد فيه هذه الآلة ونفترض ان الموجب قد علم بالقبول في اللحظة التي وصل فيها الرد ،ذلك لان مشروع القانون جاء خلوا من اي نص على هذه الوسائل الحديثة في الاثبات وهذا يعتبر في تصورنا قصوراً في التشريع يستلزم من المشرع تلافيه ، لكي يساير بذلك ركب التطور الذي ستصل اليه وسائل الاتصالات في المستقبل .

«تم البحث بعون الله وتوفيقه»

مراجع البحث

١ – الدكتور احمد عبد الرزاق السنهوري – الوسيط في شرح القانون المدني ، ج١ طبع القاهرة . دار النهضة العربية ١٩٦٤ .

٢ – الدكتور احمد عبد الرزاق السنهوري ، الوسيط في شرح القانون المدني ، ج٢ الاثبات وآثار الالتزام – طبع القاهرة ١٩٥٦ .

٣ – الاستاذ احمد نشأت – رسالة الاثبات – الجزء الاول – الطبعة السابعة – القاهرة ١٩٧٢ .

٤ – الدكتور برهام محمد عطا الله – اساسيات نظرية الالتزام – الاسكندرية ١٩٨٢ .

٥ – الدكتور حمزة حداد ، قانون التجارة الدولي ، الجامعة الاردنية . ١٩٨٠ .

٦ – الدكتور سعدون العامري – طاولة مستديرة حول قانون الاثبات – مجلة العدالة ، العدد الثاني – السنة السادسة ١٩٨٠ .

٧ – الدكتور صبيح مسكوني : تاريخ القانون في العراق القديم ،الطبعة الاولى، بغداد ١٩٧١ .

٨ – الدكتور صلاح محمد المقدم ، تنازع القوانين في سندات الشحن ومشارطات ايجار السفينة ، طبع بيروت ، ١٩٨١ .

٩ – الدكتور البخاري عبد الله الجعلي – قانون الاثبات – ط١ – الخرطوم ١٩٨٤.

١٠ – عباس زبون عبيد – اهمية السندات العادية في الاثبات القضائي – رسالة ماجستير مسحوبة بالرونيو – جامعة بغداد ١٩٨٤ .

١١ – الدكتور مجيد حميد العنبكي – قانون النقل العراقي – المبادىء والاحكام – بغداد – مركز البحوث القانونية – وزارة العدل ١٩٨٤ .

١٢ – الدكتور محمد كمال فهمي ، اصول القانون الدولي الخاص ، الاسكندرية ط٢ ١٩٨٣ .

١٣ – الاساتذة ج . س شيشر ، س . هـ فيفون ، م . ب فيرستون ، في مؤلفهم احكام العقد في القانون الانكليزي – ترجمة هنري رياض – ط بيروت ١٩٨١ .

١٤ – Anson's Law of Contract, 24 ed, oxford 1975 .

القوانين والانظمة :

١٥ – قانون الاثبات المصري رقم ٢٥ لسنة ١٩٦٨ :

١٦ – قانون الاثبات العراقي رقم ١٠٧ لسنة ١٩٧٩ ؛

١٧ – قانون الاثبات الكويتي رقم ٣٩ لسنة ١٩٨٠ ؛

١٨ – قانون الاثبات السوداني لسنة ١٩٨٣ .

١٩ – قانون النقل العراقي رقم ٨٠ لسنة ١٩٨٣ ؛

٢٠ – قانون التجارة العراقي الجديد رقم ٣٠ لسنة ١٩٨٤ ؛

٢١ – نظام التلكس الاردني رقم ١٦ لسنة ١٩٧٥ ؛

٢٢ – مرسوم رقم ١٠٠٨٧ اللبناني المتعلق بالتلكس لسنة ١٩٦٢ ؛

٢٣ – نظام خدمة التلكس السوري رقم ٩٠٧ لسنة ١٩٧٤ ؛

